



هيئة التحرير:

رفيف رضا صيداوي

فادية حطيط

لميا مغنية

نهوند القادري عيسى

ISBN: 978-9953-0-5752-1

جميع حقوق الطبع محفوظة

تجمعُ الباحثات اللبنانيات

لبنان - بيروت - الصنائع

مركز توفيق طبارة الاجتماعي

ص.ب. 113/5375

تلفاكس: 961-1-739726

e-mail: info@bahithat.org

الموقع الإلكتروني: www.bahithat.org

الكتاب الثامن عشر

2021 - 2022

طفلات عربيات

في أتون الحروب والنزاعات

التوزيع:

منتدى المعارف

alMaaref Forum



كتاب متخصص يصدر عن

تجمعُ الباحثات اللبنانيات

بريد إلكتروني: info@almaarefforum.com.lb

www.almaarefforum.com.lb

أنجز هذا الكتاب بدعم من:

مؤسسة فورد

Ford Foundation

السعر 12 دولار أميركي أو ما يُعادلها

الآراء الواردة هنا تعبر عن آراء المؤلفين ولا تعكس بالضرورة آراء المؤسسات المانحة

ولا آراء تجمعُ الباحثات اللبنانيات

المحتويات

6	مقدمة الكتاب
21	المحور الأول: الطفلات في الحروب: مقاربات متعددة
	«ورثاث الشر»: بنات الحرب في الجزائر
22	أمال قرامي
	القاصرات في أتون الحروب: فوضى المعاني في المُعالجة الإعلامية
45	نهوند القادري عيسى
	القاصرات في عيون القانون: مواطنات مُلحقات في مرحلة ما بعد النزاع
72	عزة سليمان
	التحوّلات والأنماط الفنيّة لصُور الفتيات في الحروب العربيّة «من الحادثة إلى ما بعدها»
97	هند الصوفي
	صُورة المُحاربات في الأعمال الكرتونيّة الموجهة للأطفال
145	ريمي عبد الرسول
173	المحور الثاني: ذاكرة الطفولة الجريحة
	طفلات اليوم نساء الغد ما بين التروما والنجسيّة: تجوال - حيرة واستبعاد
174	رجاء مكّي
	صورة الجسد في مُدن الصراع: الفتاة كما ترى نفسها كأنثى
213	نهى الدرويش ونهلة التميمي
	قاصرات نازحات في مُواجهة تحدّيات الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزّة في أيار/مايو 2021
230	تغريد السميّري
	عن حياة مُراهقات فَلَبَّتْها الحرب وغيّرها اللّجوء والتهجير
255	سعدى علوه
	Wound Stories from the Palestinian Oral History Archive
273	سينتيا قريشاتي

- 291 المحور الثالث: في الحروب وتداعياتها على الطفلات
الأمهات الطفلات والتبني غير الشرعي: أصوات مكتومة لحروب مُستمرة
- 292 زينة إسماعيل علّوش
تداعيات الحرب والنزاع المسلّح خلال العام 2019 على تعليم الفتيات في ليبيا
- 310 سعاد محمّد العباني
الطفلات والفتيات اللّاجئات الأفريقيّات في المغرب: واقع النزوح وتحديات الاندماج
- 333 فاطمة واياو
الاعتداءات الجنسيّة على الفتيات والمراهقات في تونس ما بعد الثورة
- 356 بيا قرّبي
Displaced Girls in Times of War: Vulnerability and Mitigation of
Conflict-Related Sexual Violence in Darfur, Sudan
- 364 سلمى عبد الله
المحور الرّابع: حيوات الطفلات: مقالات ووجهات نظر وشهادات
- 385 بريد الذاكرة الهاربة من الحرب.. العالقة في برائنها
بيسان طي
- 386 Les métamorphoses de l'adolescente en temps de guerre
- 393 بيلا عون
هوية اليافعات في أثناء الصراع: تجربتي الشخصية ككويّبة فلسطينيّة
- 401 تغريد القدسي - غربا
حين صارت نساء عدنّ خياماً سوداء تتحرّك
- 407 هدى العطّاس
We were like a bird who had gotten its freedom but did not know how to fly»:
Recollections of a Woman Born during the Algerian Independence War
- 416 إيمان قصوص وفاطمة علّوش
الهروب إلى نانجيلا: كيف أنقذني الخيال في زمن الحرب
- 422 أليس يوسف

- مشهدية طفولة في زمن الحروب
 427 آمال حبيب
- من ذاكرة الحرب السورية المهمشة: قصة نجاة مُراهقَتَيْن أنضجَتْهُمَا نيران الحرب دفعة واحدة
 434 زكية قرنفل
- عن حروب لم تُغادرنا
 441 زينب خليل
- ذاكرة أمي... ذاكرة ثورة لم تُكتب بعد
 450 مريم بو زيد
- This is not basterma
 469 تانيا صفّي الدين
- «ستشرق الشمس ولو بعد حين». رواية للكاتبة تغريد عارف النجار
 475 ريما زهير الكردي
- ملخصات بالعربية
 483
- ملخصات بالأجنبية
 497
- سير ذاتية بالعربية
 509
- سير ذاتية بالأجنبية
 526

إهداء

إلى روح زميلتنا وطفاء حمادي
التي خطفتها كورونا مبكراً

مقدمة الكتاب

منذ قيامه، دأب «تجمُّع الباحثات اللبنيات» على إخراج المؤنَّث من دائرة التعقيم الفكري ليغدو موضوعاً للتفكير والبحث، وذلك بالاستناد إلى مقاربات وحقول معرفية مختلفة، ووجهات نظر متنوعة، ومنهجيات متعددة. ولم يشذ كتابنا هذا، كتاب «باحثات 18»، عن هذا المنحى، فشمل ضمن دائرة اهتمامه بالمؤنَّث مرحلة الطفولة والمراهقة المسكوت عنها، لأنَّ الطفلات والمراهقات، شأنهنَّ شأن الأنوثة، يتلقَّين ردود الفعل، ويحسرنَّ في سجن الذاكرة الجامدة، ويصادرُ الكلام على خبراتهنَّ الحياتية ومعيشتهنَّ اليومية. وبالتالي، فإنَّ تخصيص موضوع الطفلات والمراهقات في زمن الحروب والنزاعات بكتاب لتجمُّع الباحثات السنوي، الذي يندرج ضمن مشروع أوسع يعمل عليه التجمُّع منذ سنوات بعنوان «النساء في الحروب والنزاعات المسلحة»، ما هو إلاَّ إسهامٌ للحؤول دون مُصادرة ذاكرة الأنوثة ودفعها إلى القطيعة العدمية أو إلى الغلُّ في النسيان.

لقد واجهتُنَّا قُبيلَ الإعدادِ للكتاب تساؤلاتٌ عدَّة، كمثل السؤال عمَّا إذا كانت وضعيَّة الطفلات في الحروب تختلف عن وضعيَّة الأطفال الذكور بعامةٍ أو عمَّا إذا كانت آثارُ الحروب وتمثُّلاتها

هيئة التحرير

تختلف أيضاً لدى كلا الجنسين؟ أو السؤال عن أسباب تمييز الطفلات وتخصيص النظر إليهن؟ لم يكن جوابنا واضحاً ولا حاسماً. وعلى الرغم من ذلك خضنا غمار الموضوع وفي ذهننا أنه طال أمد استخدام صيغة المذكر للنظر في الأمور العامة، فما المانع من جعل صيغة المؤنث وسيلة تعبير عن العيش على الرغم من فرضية عدم الاختلاف التي يضمّرها هذان السؤالان وغيرهما من الأسئلة الدائرة في هذا السياق؟

المساهمات التي تلقيناها حملت الكثير من الإشارات إلى أن الحروب والصراعات لا تمسّ اللاعبين الكبار فحسب، وإلى أن العبء الأكبر المترتب عنها لا يقع على النساء البالغات فقط؛ إذ بدا أن للأطفال الذين لم يشاركوا في قرار الحرب نصيباً كبيراً من آثارها، ولاسيما الطفلات والمراهقات. بالملمس وبالشواهد والتجارب، جاءتنا الإجابة: نعم ثمة الكثير مما يُقال حول تأثير الحروب على عيش الطفلات والمراهقات وعلى مسارهنّ ومستقبلهنّ.

التعمق في ما قدّمته إسهامات باحثات وكاتبات وأديبات وصحافيات من لبنان ومن عددٍ من الدول العربية التي شهدت ولا تزال حروباً مدمّرة، يكشف لنا الدوائر الواضحة لتلك المسارات التي ترسم واقع الفتيات، الطفلات والمراهقات ضمناً، وتوجّه أو تُحدّد مستقبلهنّ. أولاً دائرة الإغتصاب والتبني والزواج المبكر التي يتسع مداها مع الحروب وما يواكبها من تهجير ونزوح قسريّين؛ ثانياً دائرة القلق الذي يستبدّ بالوجدان وعدم الشعور بالأمن أو الأمان، فضلاً عن الكثير من الاضطرابات النفسية وتلاوينها المختلفة التي ترجع فيها خوفٌ مدموغٌ في كيانات الطفلات، فشلت السنوات وانهاء الحرب في محوه. حتى إذا ما كبرت الطفلات واجهنّ مخاوفهنّ التي طوتها عمليات النسيان المقصودة أو غير المقصودة، ولتبيّن من ثمة أن الكثير من الذكريات وما تحمله من مرارات لا تموت على الرغم من اتجاهاها إلى نسيانها والتغلب عليها. هذا تحديداً ما عبّرت عنه مثلاً شهادة أمل حبيب التي ضمّها هذا الكتاب، والتي حكّت فيها كيف أعادها انفجار مرفأ بيروت في آب/أغسطس 2020 إلى حرب العام 1958، وكيف اختلط اللعّب في الطفولة مع دويّ المعارك لتبقى هذه المشهدية قابعة في أعماقها منذ ذلك الحين تُسجّل حضوراً مؤلماً في زمنها الآنّي والراهن. في حين روت لنا الدكتورة في علم النفس العيادي والمَرْضِي بيلا عون كيف كان الخوف من الإنجاب لدى البالغات تردّدن إلى عيادتها تعبيراً عن الأثر

المدمر للحرب الذي انحفر في ذاكرتهن منذ الطفولة عابراً مرحلة البلوغ والمراهقة؛ ثالثاً دائرة العنف القائم على أساس الجنس سواء داخل المجتمع الكبير أم ضمن دائرة الأسرة حيث تختزل طفلة الأمس بين ليلة وضحاها إلى جسد تُمارس عليه كل أنظمة الرقابة الاجتماعية.

هذه الدوائر، بأبعادها وحمولاتها الاجتماعية والرمزية، تتراكب وتلتف الواحدة منها حول الأخرى لتضييق الخناق على الفتيات وسد المنافذ عليهن كما تظهر ذلك سعدى علوه. فهذه الدوائر التي هي من صنع الحروب والصراعات تدعمها أسلحة وأساليب مدمرة، مباشرة وغير مباشرة، كما بين عدد من المشاركات في هذا الكتاب؛ من سلاح الإعلام لرسم صورة الفتاة الضحية وتكريسها كما تقول نهوند القادري، إلى حرمان الفتاة من التحصيل العلمي كما تبين سعاد العباني، إلى الوضيم الاجتماعي الذي تعبّر عنه تانيا باقاليان، وإلى غفلة القوانين التي تتناولها عزة سليمان... إلخ، تتكشف جروح الطفلات والمراهقات التي لا تندمل على ما تقول سينتيا قريشاتي، والذاكرة القلقة بحسب رجاء مكّي، بقدر ما يتكشف كره الجسد الذي كشفت عنه كل من نهى الدرويش ونهلة التميمي. إنها الحروب التي تطلق الغرائز الكامنة من عقاليها فيتفلت الجنس، ويصبح جسد الفتيات الصغيرات ساحة المعركة، ويغدو الاغتصاب تعبيراً عن الهيمنة، وطريقة لإذلال الآخر، وممارسة تحقق التواصل مع الخصم عبر أجساد النساء، وعبر أثنى لرجال المعسكر الآخر كما ورد في نصّ أمال قرامي وكما ترجمته شهادت حية لزكية قرنفل وأخريات. ألم تُنصب الجماعات التكفيرية نفسها، في أكثر من بلد عربي من البلدان التي كانت مسرحاً للحروب، حارساً للعفة، مقوضة ما حققته النساء من مكتسبات حقوقية ومظاهر انفتاح وعصرنة، بحسب ما تطلّعنا هدى العطاس عن اليمن مثلاً؟

إنها الحروب التي تحوّل فيها العنف إلى طقس متكرّر للموت فارضاً التنازل الإجمالي عن الأطفال ليصيروا سلعة في سوق التبنّي الدولي كما روت لنا زينة علوش، أو عاملاً أساسياً في اضطراب الهويات كما بينت تغريد القدسي - غبرا، أو وسيلة للاضطهاد الديني كما وصفته فاطمة واياو. إنه ذاك العنف الجامح الذي تعجز القوانين والمعاهدات الدولية والاستراتيجيات الوطنية عن محاربته والحوّل دون وقوعه على النساء كما أكدت سلمى عبد الله، بقدر ما عجزت الثورات العربية عن القضاء عليه بحسب بيا قري.

لكن.. للحياة وجوه أخرى.. للحياة قوة تُعلن عن نفسها بأثمة فينا نحن البشر طاقات إيجابية. لذا، وعلى الرغم من كل القيود التي تفرضها الحروب والنزاعات على الأنثى، الطفلة/الراشدة لاحقاً، ثمة خطوط مفتوحة على الضوء يمكن أن نرصد خيوطها في طيات هذا الكتاب. أولها خط المواجهة. وللمفارقة سنجد أن الحروب مع العدو الخارجي، الواضح الصفات والمعالم، تفتح الطريق أمام فكرة المواجهة. فقد أعطت مواجهة العدوان الإسرائيلي في لبنان، على الرغم من كل ما ترتب عنها من مأس، معنى للحياة كما تقول زينب خليل. وجعلت هذه المواجهة الفتيات في فلسطين يُطوّرن أساليب التكيف كما تُشير إلى ذلك تغريد السميري وأليس يوسف. ومن فلسطين أيضاً سوف ينبثق نموذج جميل للطفلة العربية مثله عهد التميمي التي أشارت إليها كل من هند الصوفي وريمي عبد الرسول. في حين أن حرب الاستقلال في الجزائر أمدت النساء بأصوات رافضة للتمهيش والاستعلاء كما جاء على لسان مريم بو زيد وزليخة قشوش.

هذا مشهد عام للكتاب، بطلته الطفلة الأنثى، ولكن لن تغيب عمن يقرأه رؤية بطلة أخرى أطلت برأسها في كل نصوصه: إنها الأم الحاضرة بقوة حتى تكاد تبدو هي المتكلمة الأولى فيه. فقد حملت البنات صوت الطفولة المنسي لأمهاتهن تارة، وكانت الأم تارة أخرى طوق النجاة لبناتها، وفي أغلبية السرديات كانت الأم الصدر الحنون ومصدر الأمان أو حاملة الضيم والمساندة الأساسية. لم نعر في سرديات هذا الكتاب على صوت يلوم الأم. الصوت اللائم الوحيد صدر عن الأم نفسها، التي راجعت تجربتها وحذرت ابنتها واعتذرت منها في رسالة كتبتها بيسان طي.

في مقابل ذلك كله، لا بد لنا من القول إن سبر غور عيش الطفلات والمراهقات في الحروب، والبحث في أحوالهن وأوضاعهن في منطقة تقع على صفيح ساخن من الحروب والنزاعات المتتالية، وخصوصاً في بلد لبنان، شهد حرباً أهلية استمرت خمسة عشر عاماً، واعتداءات إسرائيلية متكررة، واحتلالاً لقسم من أراضيه، واجتياحاً لعاصمته بيروت في العام 1982، إن وضعاً كهذا جعلنا كباحثات لبنانيات أمام صعوبة الفصل بين الذات والموضوع. فأغلبتنا ذقنا في طفولتنا طعم التهجير، والخوف، وعدم الأمان، والفقدان الذي تختزنه ذاكرتنا وخلف فينا ندوباً لا تمحى. ولبنان، البلد الذي كان ولا يزال موئلاً لآلاف الفلسطينيين الذين سُردوا وطُردوا من أرضهم، نراه اليوم يحتضن أكثر من

مليونٍ لاجيءٍ جزاء الحرب في سوريا، ويواجه أعظم كارثةٍ شهدتها العصر: كارثة انفجار مرفأ العاصمة بيروت. هذا عدا عن أنَّ هذا الموضوع أشعرنا وكأننا نعيش ثقل الماضي وجراحاته؛ إذ إنَّ كلَّ إسهامٍ ورَدَ إلينا أيقظَ طفولتنا التي عاشت أهوال الحروب والنزاعات، وأثقلَ علينا وطأة الحاضر وحربه الناعمة المصحوبة بأزماتٍ سياسيَّة ومعيشيَّة وصحيَّة وأمنيَّة تُضاعف منسوب القلق على المستقبل وعلى الأجيال اللاحقة.

لكن، على الرغم من هذا السواد كله، تفاعلت الباحثات غير اللَّبنانيَّات مع الموضوع بحسب منطلقاتٍ الواحدة منهنَّ واهتماماتها. قرأ بعضهنَّ تمثيلات الطُّفلات في الحروب قراءة نقدية، عبَّرَ إبراز ما قيل وما رُوِيَ عنهنَّ، أي بلسان الآخرين، فكان المحور الأوَّل. وبعضهنَّ اخترنَّ الاستماع إلى الطُّفلات والمُراهقات وهنَّ يسردن تجاربهنَّ ومعاناتهنَّ بأصواتهنَّ وبلغتِهِنَّ، فكان المحور الثاني للكتاب. ومنهنَّ من كان هاجسهنَّ البحث في تداعيات الحروب على الطُّفلات سعيًا إلى رسم معالم خطط واستراتيجيات تُخفِّف من تلك الآثار، فكان المحور الثَّالث. ومنهنَّ من أدلَّينَّ بشهادتهنَّ أو بوجهة نظرهنَّ، مع التركيز على الندوب العالقة منذ الطفولة، فأثرنَّ موضوعاتٍ تُطاول النَّفس البشريَّة في طور تفتُّحها ولحظة انعقاد براعمها، ولا مَسَنَ بذلك مسائل الهوية، والذاكرة، والحلم، والتواصل بين الأجيال، فكان المحور الرَّابِع.

لا بدَّ من القول إنَّ مُعالَجة موضوع كهذا يتَّسم بالتشعُّب والتعقيد في سياقٍ من الحروب العربيَّة المُستدامة ومن جائحة كورونا لم يكن بالأمر الهين؛ فبعض اللواتي التزمْنَ بالإسهام في الكتاب تخلفنَّ أو اعتذرْنَ بسبب المرض والفقدان، وبعضهنَّ الآخر عجز عن استكمال الموضوع بسبب الحجر الذي كان مفروضاً عليهنَّ، والأشدَّ إيلاماً كان فقدنا لزميلتنا في التجمُّع الدكتورة وطفًا حمادي بسبب جائحة كورونا وهي كانت في عداد اللواتي كنَّ ننتظر استلام مساهمتهنَّ حول «فتيات اللجوء يحنن بالمسكوت عنه في المسرح». ولكن، نعوذ للقول إنَّه على الرغم من هذه العقبات كلها وعلى الرغم من الحزن كله، كان الإصرار أقوى، واستوى الكتابُ بين أيدينا متضمِّناً أربعة محاور يجمعها إيماننا بالموثوث وبضرورة إخراجِه إلى الضوء، وإيماننا بمقولة بول ريكور بعدم إمكانية الذات أن تكون فاعلة في التاريخ من دون روايته وسرده.

المحور الأول قاربَ تجربةَ الفتياتِ الصغيراتِ في الحروبِ وتمثّلَها في التّناجياتِ الثقافيةِ والإعلاميّةِ والقانونيّةِ والفنيّةِ. وفيه تنطلقُ آمال قرامي في دراستها من واقع تهْميشِ الإنتاجِ الأكاديميِّ والثقافيِّ للبُعْدِ الجندريِّ والعُمريِّ، بإهماله فئةَ الطفلاتِ والمُراهقاتِ اللّواتي بقينَ خارجَ دائرةِ البحثِ. وانطلاقاً من هذا التجاهلِ أو التغييبِ أو التهميشِ أو العمى الإداركيِّ، تقومُ الباحثةُ برصدِ علاقةِ الطفلاتِ والمُراهقاتِ الجزائريّاتِ بالنّزاعاتِ والحروبِ والأزماتِ متوقّفةً عند تجربتيّ حربِ التحرير 1954 - 1962، والحربِ الأهليّةِ «للعشريّةِ السوداء» في تسعينيّاتِ القرنِ الفائتِ. وتتوقّف عند آليّةِ «التصميت» باعتبارها عنفاً آخرَ يُمارَسُ على الضحيّةِ، شأنُ الاغتصابِ. والمُحصّلةُ هي تدميرُ حيواتِ الطفلاتِ والمُراهقاتِ وسرقةُ مستقبلهنَّ وتحويلُ وجهتهنَّ وتحويلاتهنَّ وتحميّلُها بعدما كانت أحلامهنَّ تتمثّلُ في تحصيلِ الشهادةِ وإثباتِ الذاتِ.

ويضمّ هذا المحورُ دراسةَ نهوند القادري عيسى التي تنقد فيها تخبطَ المُعالِجةِ الإعلاميّةِ وأزمةَ الثقةِ والمصدقيّةِ التي تتعرّضُ لها المهنةُ الإعلاميّةُ، نتيجةَ اختلاطِ حدودِ الكلامِ الإقناعيِّ بالتضليليِّ، وانشغالِ الإعلامِ بال «كَيْف» على حسابِ ال «لِمَاذَا». ومن خلالِ عينيّةٍ من الأعمالِ الصحافيّةِ التي تناولتِ الأطفالَ في الحروبِ، تُبيّنُ القادري النقاطَ المغلوطةَ لهذهِ المُقارَبةِ، والنّظرةَ الفوقيّةَ إلى مُمارساتِ اللّاجئينِ وسلوكياتهم، واستخدامِ الأطفالِ ضحايا الحروبِ لأغراضٍ دعائيّةٍ أو كدروعٍ بشريّةٍ وأدواتٍ تسويقٍ ودعايةٍ وتسريبِ رسائلٍ تعميميّةٍ ونمطيّةٍ تُشوّه هذه الكياناتِ.

وحول القاصراتِ في عيون القانون، تقرأ عزة سليمان مضمونَ الأنظمةِ والقواعدِ القانونيّةِ وارتباطها بالظروفِ الاجتماعيّةِ والأطرِ السياسيّةِ العامّةِ وما يطرّحُه ذلك من تحدّياتٍ مُضاعفةٍ. يرتبطُ الموضوعُ بفئةِ الفتياتِ القاصراتِ لكونهنَّ يخضعنَ أولاً لفئةِ الأطفالِ - كفئةٍ معنويّةٍ بالحمايةِ بسببِ نقصِ أهليّتها للقيامِ بذلك -، ويخضعنَ ثانياً للنصوصِ الخاصّةِ بحمايةِ النساءِ نظراً إلى طبيعةِ الظلمِ الواقعِ على النساءِ في المُجتمعِ البطريركيِّ. وعلى الرّغم من أنّ استغلالَ سلاحِ الاعتداءِ الجنسيِّ يُعرّضُ القاصراتِ لمخاطرِ استغلالٍ أكثرَ عنفاً، وعلى الرّغم من تشكيلِ استغلالِ الأطفالِ والطفلاتِ في العملِ عاملاً دائماً في الحروبِ وهو أحدُ أبرزِ أشكالِ الانتهاكاتِ والجرائمِ، لم يتبلورَ لغايةِ الآنَ توجّهٌ واضحٌ للنظرِ إلى فئةِ القاصراتِ كفئةٍ مُستقلّةٍ.

تُقدّم هند الصوفي في هذا المحور أيضاً دراسةً عن التحوّلات والأنماط الفنيّة لصُور الفتيات في الحروب العربيّة. وتُلاحظ أنّ أهمّ موضوعات الأزمات والحروب في حقبة الحداثة العربيّة (حتى نهاية الثمانينيات) كانت مُخصّصةً للشهيد والامّ الثكلي؛ أمّا الفتاة فكانت مُلحقةً بالأمّ، ثمّ تحوّلت إلى علاماتٍ هادفةٍ للنضال استُعِلّت في القضية العربيّة لتأجيج الفعل الثوريّ، عبر تمثّلها كرمزٍ للأرض ولِفعلٍ اغتصابها. لكنّ الصورة تغيّرت شيئاً فشيئاً، ولم تعد الفتيات، والنساء بعامةٍ، مجردَ ضحايا مهما بلغت مآثرهنّ في النضال المُجتمعيّ، ولاسيّما، وبحسب ما تُشير الصوفي، مع التغيّر الكبير للأنماط الفنيّة الجديدة.

كذلك يضمّ هذا المحور دراسةً ريمي عبد الرسول حول صُور البطلة في الأعمال الكرتونيّة الموجّهة للأطفال. فترى أنّه خلال ثمانينيات القرن الماضي شهدت الشاشات العربيّة تدفّق المسلسلات والأفلام الكرتونيّة الأجنبيّة المُدبّجة من الإنتاج اليابانيّ «الأنمي» (Anime) أو الأميركيّ. وبنتيجة تحليلها عيّنّت من المسلسلات الكرتونيّة، تبين لعبد الرسول أنّ هذه الأعمال حملت صُوراً متنوّعةً لبطلاتٍ شجاعاتٍ غير نمطيّاتٍ يتحلّين بحسّ المسؤولية تجاه الذات وتجاه المُجتمع والطبيعة. وتخلص دراستها إلى ضرورة العمل على إنتاج أعمالٍ كرتونيّةٍ عربيّةٍ تُحاكي واقع الفتيات وأوجاعهنّ وتساعدهنّ على تخطّي الصدمات التي عشنّها وانعكاساتها السلبية عليهنّ.

المحور الثاني حمل أصوات الطّفلات والمُراهقات اللواتي نقلن تجاربهنّ بكلّ ما تخزنّه من صعوباتٍ، فضلاً عن أشكال التكيّف التي أُتيحَ لهنّ القيام بها. وفي هذا المحور تنصّت رجاء مكّي إلى فتيات لبنانيّات خضعن لجلساتٍ علاجيّة، فترصد صدماتهنّ العاطفيّة، وتستخرج قلقهنّ المُتوارث عن الأهل، وتسلّط الضوء على أوجاعهنّ المُخزّنة، فتكشف كيف تستيقظ النزوات الأولى في ظلّ الحروب، وتصبح الذاكرة مُمتلئةً بالصدمات والصُور المُربّعة التي لا يُمكن التعبير عنها بالكلمات. كما تُبيّن مكّي أيضاً كيف تأثرت صورة الفتيات عن أنفسهنّ من خلال التماهي الأنثويّ مع الأمّ. وتخلص إلى أنّ موروث القلق، العابر للأجيال، عزّز لدى الفتيات مشاعرَ مُتناقضة، بحيث أوصلت هذه المُعاناة الفتيات إلى «فوضى الضغط» من خلال ذاكرة الحرب المنقولة، وهي تروما الموت والقتل، سواءً أكانت مُعاشة أم راکدة أم مُتخيّلة.

وتسعى نهى الدرويش ونهلة التميمي للتعرف إلى صورة الجسد لدى الفتيات المراهقات في المحافظات العراقية التي عانت من وطأة الإرهاب وحوادث الخطف والسبي والإغتصاب. وتتوقف الباحثتان عند أساليب تعامل الأمهات مع بناتهن، وانعكاسات هذه الصورة على أحوالهن النفسية، وذلك قبل أن تخلصا إلى أن معظم الفتيات اللواتي تمت مقابلتهن كرهن أجسادهن لأنهن وجدن في هذا الجسد سبب عذابتهن، وسبب قتلهن أو قتل أسرهن أو سبباً لوضمة عار أبدية.

وإذ تطرح تغريد السميري أسئلة عن قدرة المراهقات الفلسطينيات على تطوير أساليب تكيفهن خلال الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة، تلحظ من خلال إجابتهن عدم ارتفاع مستوى الهشاشة لديهن نسبة إلى الحروب السابقة، وذلك على الرغم من نظام الهشاشة الصلب المفروض عليهن. كما تلحظ بعض التمايزات في المستوى المعيشي المرتبط بمكان الزواج. فتخلص السميري إلى أنه فضلاً عن الخوف الشديد للمراهقات الفلسطينيات من الحروب المتكررة، وافتقادهن إلى مصادر الدعم على المستوى الصحي والنفسي، وعيشهن في أماكن غير آمنة، ثمة عوامل أخرى مقيدة للفتيات مرتبطة بالتعقيدات الثقافية الذكورية، والهرمية، وتقديم حاجات المجموعة على حاجات الفرد.

ترك سعدى علوه العنان للمراهقات للتعبير عن أحوالهن وعن الطرق الشاقة التي قطعنها كناجيات من حروب قاسية لم ترحمهن. فتبين كيف أن اللجوء نفسه صاغ لكل منهن حكاية تختلف عن الأخرى وفقاً للظروف المساعدة أو المعزلة، وإن كن جميعهن قد اختزن في دواخلهن الكثير من الأسى والخيبات والصعوبات، حتى الناجيات من بينهن. وتخلص إلى أن خسارة الوطن، وخسارة الهوية هي حكماً قاتلة على الصعيد النفسي وترتبط لدى بعضهم بالكرامة الإنسانية التي لا يمكن أن تعوّضها تقديرات ومساعدات إغاثية أيّاً كان شكلها.

تبحث سبتيا قريشاتي في الأرشيف الشفهي الفلسطيني، فتعيد على مسامعنا رواية سيدتين فلسطينيتين لقصة إصابتهما بجروح وأضرار جسيمة خلال فترة المراهقة، جراء الاعتداءات الإسرائيلية زمن النكبة. فتتوقف قريشاتي عند أخلاقيات «سرديات الجرح» وعند إشكالية توظيف الألم في سبيل الدفاع عن حقوق الإنسان أو من أجل تحقيق مطالب سياسية معينة، وتناقش مسألة اللجوء إلى هذه السرديات وصعوبة التعبير

عن الألم الشخصي والجماعي في سياق اجتماعي وتاريخي تغطي عليه ديناميات عنيفة من التهجير والحروب واللجوء تخنق الحياة اليومية وتشلّها. فالإصغاء إلى الأرشفة، من وجهة نظر قريشاتي، بدا كنوع من الشهادة على هامش الكلام.

المحور الثالث في الكتاب يُعالج تداعيات الحروب على الطفلات والمراهقات؛ وفيه تتنوّع المقاربات وتتداخل، بحيث يتقاطع المنظور الجندري في قراءة هذه التداعيات مع رؤى وأبعاد متعدّدة تأخذ بعين الاعتبار دور الطبقة والدين والعرق والخطاب الاستعماري وما بعد الكولونيالي. ونلمس نقداً ليس للسياسات المحليّة فحسب، بل للسياسات الاستعماريّة أيضاً، ولأداء منظمات المجتمع المدني، ولبعض المؤسسات والوكالات العاملة على استثمار الحروب، بالتواطؤ أحياناً مع الأطراف المتصارعة.

في هذا المحور تتناول زينة علّوش ظاهرة الإتجار بأطفال مناطق النزاعات المسلّحة لأغراض التبنّي، وتتوقّف عند المشكلات والتعقيدات الناجمة عن هذه الظاهرة على مستوى بناء الهوية والانتماء، فتسلط الضوء على الصوت الصامت لأُمّهات، معظمهنّ قاصرات، أُجبرن على حمّل غير مرغوب فيه بفعل الحروب والنزوح، وجرى بالتالي حرمانهنّ من أطفالهنّ. وتربط علّوش بين التبنّي الدولي والمنظور الاستعماري لكونه يقوم على علاقة غير مُتساوية بين الشمال الغني والجنوب الفقير. وتُشير إلى أنّ ازدياد نسبة التبنّي في لبنان خلال الحرب دليل على كفاءة استثمار الحروب لاستضعاف الفئات الأكثر تهميشاً، ولاسيّما الفتيات، عبر استغلالهنّ ومن ثمّ إجبارهنّ على بيع أطفالهنّ. وتُشير إلى أنّ هذا كلّه يحدث في مسارات غير قانونية ومن خلال التواطؤ بين جهات عدّة ليست الجمعيّات بمنأى عنها، فضلاً عن مزاج شعبيّ يستسهل الحكم على الأمّ بأنّها مُتخلّية عن طفلها.

وتبحث سعاد العباني في تداعيات الحرب والنزاع المسلّح الذي شهدته ليبيا خلال العام 2019 على تعليم الفتيات، فتبيّن كيف أنّ عمق الأزمة التي طاولت المنظومة التعليميّة كان لها أثرٌ بالغ في الحياة اليوميّة للأطفال والطفلات، وكيف تجلّى ذلك بتقليص أنشطتهم/هنّ التعليميّة والحدّ من التواصل الاجتماعي الحرّ مع جماعات الأصدقاء والأهل والأقارب. وهذا ما أثر سلباً في الحالة النفسيّة للأطفال، وجعلهم يُعانون من صعوبات التّأقلم والتكيّف مع البيئات الجديدة، وأضعف مستواهم/هنّ

التعليمي والثقافي، وأدى إلى انتشار العديد من المظاهر الهدّامة المُرتبطة بالمشكلات الاجتماعية. وتلحظ العباني في هذا السياق أنّ الفتيات كنّ الفئة الأكثر هشاشةً وتعرّضاً لهذه المخاطر، كالإغتصاب والقتل، والتمييز الجنسي داخل العائلة الواحدة.

تُقارب فاطمة واياو موضوع الطفلات اللاجئات الأفريقيات إلى المغرب العربي، بوصفه بوابة عبور من العالم الفقير إلى العالم الغني، من منظور النسوية التقاطعية. فُيبن واياو كيف أنّه يتمّ التعامل مع اللاجئات الأفريقيات القادمات من جنوب الصحراء سعياً للانتقال إلى البلدان الأوروبية بطريقة مُغايرة عن تلك التي تُعامل بها اللاجئات القادمات من بلدان عربيّة وإسلاميّة (سوريا، اليمن)؛ بحيث تتعرّض الكثيرات من الأفريقيات، وخصوصاً المسيحيات، لمضايقات وعنف قائم على النوع الاجتماعي وعلى الانتماءات العرقية والدينية وغيرها. وتتوقّف الباحثة عند واقع نزوح الفتيات وتحديات اندماجهنّ المتمثلة بالعمل على تفعيل قدراتهنّ الذاتية وإصرارهنّ على رفع التحديات وتغيير واقعهنّ الهش.

تتناول بيا قزّي «الاعتداءات الجنسية على الفتيات والمُراهقات في تونس ما بعد الثورة». فعلى الرّغم من أنّ تونس من بين البلدان الرائدة تشريعياً في مجال حماية الطفولة بصفة عامّة، والحماية من الاعتداءات والاستغلال الجنسي بصفة خاصّة، إلّا أنّ الدّراسات بيّنت بحسب قزّي أنّ العنف الجنسي ضدّ الفتيات تضاعفَ عشر مرّات خلال العشريّة الأخيرة، وأنّ وضعيّة الجائحة والحجر الصحيّ قد أسهما في تزايد، وذلك بتعرّضهنّ للاعتداء إمّا واقعياً أو افتراضياً عبر الإنترنت. كما شهدت تونس تطوّراً في أنواع الجرائم الجنسيّة على الأطفال، وبخاصّة الفتيات، بحيث يُصار إلى استغلالهنّ في إنتاج أو تبادل الموادّ الإباحيّة ونشرها على الشبكة العنكبوتيّة ومن ثمة ابتزازهنّ مادياً ومعنوياً. جلّ المؤشّرات تُؤكّد تفاقُم أعداد الضحايا، ولاسيّما بعد الثورة، وذلك توازياً مع زخم العنف الاجتماعي والسياسي والنفسي الذي تشهده البلاد.

تبحث سلمى عبد الله في تأثير النزوح على حياة الفتيات السودانيات، وتعرّضهنّ للعنف القائم على النوع الاجتماعي. فتناقشُ النقص في حماية ضحايا هذا العنف بما يتناسب مع القوانين والمعاهدات الدوليّة. وتناقش عبد الله أيضاً فعاليّة الاستراتيجيّة الوطنيّة لمحاربة العنف ضدّ النساء، ومدى قدرتها على الاستجابة لهذه التحديات، كاشفةً

عن عمق الهوية بين هذه الاستراتيجيّة وبين الواقع، وخصوصاً في ما يتعلّق بالناجيات من الحروب. كما تتوقّف عند المنظّمات غير الحكوميّة العاملة في هذا المجال، والتي تُواجه بعض المضاعفات العائدة لأخلاقيّات العمل مع الناجيات؛ إذ كانت هذه الاستراتيجيّات عرضةً للانتقاد، بسبب افتقارها إلى الحساسيّة الكافية إزاء الحاجات الاجتماعيّة للناجيات، وتمثّل ذلك بعرض هذه المنظّمات لحالات بعض الناجيات من العنف ونشرها من دون موافقتهنّ.

المحور الرابع يضمّ مقالاتٍ ووجهات نظر وشهاداتٍ متنوّعة عن حيوات الطفلات في عددٍ من البلدان العربيّة، فينقل مشاهد عن هذه الحيوات من فلسطين والكويت واليمن ولبنان والجزائر وسوريا بناءً على خبرة الباحثة أو تجربتها في العمل مع الطفلات، أو بناءً على ذكريات الكاتبات أنفسهنّ عن طفولتهنّ أو طفولة بناتهنّ.

بعنوان «هويّة اليافعات في أثناء الصراع: تجربتي الشخصية ككويّتيّة فلسطينيّة»، تناولت تغريد القدسي - غرباً مسألة الهوية المُختلطة المُركّبة في زمن الصراعات، من خلال تجربة ابنتيّها اللّتين عاشتا حدّث الاجتياح العراقيّ للكويت في العام 1990؛ ذلك أنّ هذا الحدّث جعلَ الكاتبة وابنتيّها اليافعتيّن يعيشن مجدداً معنى الهوية الفلسطينيّة المسلوبة، لكنّ ليس انطلاقاً من الذاكرة واستناداً إليها هذه المرّة، لكنّ بشكلٍ حقيقيّ وواقعيّ. فبعد زمنٍ سادَ الظنّ فيه بعدم وجود أيّ تنافرٍ بين الهويّتين الكويّتيّة والفلسطينيّة، بدا التدبُّب واضحاً لدى الابنتيّين، لا بل بدا مصحوباً بحالةٍ من الضبابيّة الفكرية بشأن مسألة الولاء، إذ لم يكن سهلاً على اليافعات أن يستوعبن قضايا الهوية المهدّدة.

ومن اليمن كتبت هدى العطّاس مقالةً بعنوان «حين صارت نساء عدن خياماً سوداء تتحرّك» تنقل فيها ذكرياتها عن واقعة زحف قوّات الشمال إلى عدن بعد القصف العنيف الذي تعرّضت له المدينة، وما تبع ذلك من مظاهرٍ عنفيّة طاولت النساء كالسبي والاغتصاب، إلى جانب عمليّات التّهب والتدمير وغيرها من مخلفات الحروب. تصف العطّاس كيف مكّن النظامُ المُتصرّ الإسلاميّ المُتطرّفين من السيطرة على المدينة التي لفظت آخر أنفاس حرّيتها، مُشيرةً إلى تغيّر سلوك الأسر التي أجبرت بناتها على ارتداء النقاب خوفاً من تعرّضهنّ لمضايقات واعتداءات، فيما توقّفت بعض الفتيات عن مُواصلّة دراستهنّ، وزادت حالات الزواج التقليديّ، وخصوصاً بين الصغيرات، ونشط دورُ الخاطبة

مجدّداً، بعدما كان قد تلاشى، وحُرِّم الاختلاط بين الجنسين بالقوّة، وكان إلغاء قانون الأسرة بمكانة انتكاسة كبرى للمُكتسبات التي حقّقتها النساء في جنوب ما قبل الوحدة. أمّا نصّ أليس يوسف الذي جاء عن فلسطين بعنوان «الهروب إلى نانجيالا: كيف أنقذني الخيال في زمن الحرب»، فينقل جزءاً من سيرة حياة الكاتبة في القدس - فلسطين في الأشهر الأولى من الانتفاضة الفلسطينية الثانية (انتفاضة الأقصى 2000 - 2004). تعود أليس يوسف إلى يومياتها كطفلة في أوج فترة الحرب، شهر آذار/مارس من العام 2001. تعود إلى الطفلة التي كانتها وهي لا تزال في الصفّ السادس، وكيف واجهت الحرب بالدراسة والنسيان اللحظويّ أو المُوقّت، متوسّلة القراءة والعوص في عالم كُتب الأطفال. ذلك هو بالنسبة إليها طوق النجاة الذي أسعّفها بقدر ما أسعفتها «البطولة الأنثى»، فكانت، ولو للحظات كما أرادت أن تكون: آمنة لأنّها ذاتها، آمنة لأنّها حرة.

من لبنان وعنه ثمة نصوص خمس. الأوّل يعود إلى بيسان طي التي تكتب عن تجربة الأمّهات في الحرب مقالة بعنوان «بريد الذاكرة الهاربة من الحرب... العالقة في برائنها»، وهي عبارة عن رسالة على لسان أمّهات عِشْنَ مراهقتهنّ في زمن الحرب الأهلية، يتوجّهنّ فيها إلى بناتهنّ المراهقات اللواتي شاركن في حراك العام 2019 الشعبي في لبنان. فتشرّح الأمّهات لبناتهنّ في هذه الرسالة نقاط الضعف المُتراكمة في حيواتهنّ، والتي لم يفهمنّ ما انطوت عليه من تراكمات عنيفة. ويهاهّن اليوم رؤية الأقباص وهي تُطبق أبوابها مجدّداً على جيل بناتهنّ المراهقات، ويدعوْنهنّ إلى رفض ما يُعوّق أمور الحياة الصعبة وعدم تكرار أخطائهنّ.

وتكتب الباحثة بيلاً عون عن تحولات المراهقة في زمن الحرب وآثارها التي لا تُمحى حتّى ولو غيّبها النسيان. فهذه الآثار تظهر بأشكالٍ مختلفة لاحقاً، لأنّ التحولات التي تعيشها الفتاة المراهقة رمزيّة ونفسية. فمشاعر مثل عدم الأمان والقلق على موت الأمّ وغيرها تنتقل من خلال جسد الفتاة لتعبّر عن نفسها بعوارض متنوّعة كالكواييس والبرودة والاضطهاد واضطراب الأكل أو الشرابة... إلخ، حتّى إنّ عدداً من الفتيات اللواتي انخرطن في الحرب، رفضنّ لاحقاً الإنجاب كما سبق وذكرنا.

في مقالتها «مشهدية طفولة في زمن الحروب» ترجع أمال حبيب بالذاكرة إلى طفولتها ونشأتها في منطقة «المصيطبة» في بيروت في خمسينيات القرن الفائت؛ أي حين كانت

العاصمةُ بيروتَ قد شكَّلتْ أنموذجاً بجمالِها وتناقُضاتِها. فتعود إلى أحداث صيف العام 1958 حين انقلبَ حُسن الجوار إلى اقتتالٍ بين الجيران لتغدو هذه الأحداثُ نمطاً أو «سيناريو» مُتكرراً يختلف في نوع سلاحه وشِدَّته. من حرب الستين 1975 - 1977 إلى حرب الإلغاء (1990)، فحرب التحرير (1989)، فالاجتياح الإسرائيلي لبيروت (1982)، وصولاً إلى انفجار مرفأ بيروت في 4 آب/أغسطس 2020، الذي أصيبت آمال حبيب من جرَّاءه، سجَّلت مشهدياتُ الطفولة حضوراً مؤلماً يتكرَّر ويحكي عن الحروب والطفولة بوصفها أولى ضحاياها الصامتة.

أمَّا زينب خليل، فتناولتْ شهادتها التي جاءت بعنوان «عن حروب لم تُغادرنا» العدوانَ الإسرائيليَّ على لبنان. عادت خليل بذكرياتها إلى العدوان الإسرائيلي المُتكرَّر ونزوحها القسريَّ وعائلتها من قريتهم الجنوبيَّة المُحاذية لفلسطين إلى بيروت وشعوورها بالعزلة عن المحيط، وإلى مقتل والدها بقذيفةٍ وهي في الثامنة من عمرها، وعودتها مع باقي أفراد أسرتها مجدداً إلى الجنوب، حيث عاد إليها الشعور بالعزلة والخوف من عُملاء الاحتلال، وذلك قبل عودتها مرَّةً أخرى ونهائيَّةً إلى بيروت. تحكي زينب خليل عن الجنوب الذي بقي قابلاً في وجدانها، ولاسيما خلال عدوانيَّ تمّوز/يوليو (1993) ونيسان/إبريل (1996) اللّذين حدّدا اختيارها الصّحافة كاختصاصٍ جامعيٍّ، فالسفر من ثم إلى فرنسا لإتمام دراساتها العليا.

وبعنوان «هذه ليست بسطurma» كتبتْ تانيا تنباك باقليان صفّي الدين عن تأثير المجزرة التي عاشها الأرمن في تركيا وهروبهم منها، وذلك من خلال سيرة جدّتيها، التي تقاطعت معها الأنا الخاصّة بالكاتبة. فكانت شهادة تناوَلتْ سيرة ثلاث نساءٍ أرمينياتٍ، منهنَّ جدّتان الأولى من إزمير ومولودة في القاهرة، والثانية من قيصري ومولودة في قبرص، والكاتبة الحفيدة نفسُها التي هي خليطٌ من هذه الهويّات والمولودة في بيروت. تروي تانيا صفّي الدين عن علاقة هؤلاء النساء الثلاث بالمُدن التي أقمنَّ فيها، وما حملته الواحدةُ منهنَّ من آثار المجزرة الأرمنيَّة، وآثار مُدنهنَّ الحاضرة أبداً في وجدانهنَّ، راسمةً معيشتهنَّ وصعوبة الإفلات من الذكريات المنقولة إليها من لُدن الجدّاتِ ومِن الوُصم الذي يلحقُ بالحفيدات.

يضمّ المحور أيضاً شهادتين عن حرب الاستقلال في الجزائر؛ الأولى قدّمتها إيمان زليخة قشوش بالتشارك مع والدتها فاطمة علّوش، حيث تتوقّف الكاتبة عند حادثة استشهاد الأب على يد الفرنسيين وما استتبع ذلك من شقاء عاشته عائلتها، كما تتوقّف عند الإحساس العارم بالخوف الذي شعرت به حيال الفرنسيين، فضلاً عن عيشها في مجتمع يُقمّع فيه النساء قبل الاستقلال وبعده، في ظلّ غياب أب يحمي. فكانت الهجرة حلّاً مؤقتاً لأنّه لم يُشعرها بالأمان، بسبب الموقف الاستعماريّ للفرنسيين، وكان الحلّ بقرار العودة إلى الجزائر.

الشهادة الثانية قدّمتها مريم بو زيد بعنوان «ذاكرة أمّي... ذاكرة ثورة لم تكتب بعد»، وتُنقل فيها أجزاء من سيرة حياة والدتها باعتبارها شاهدة على ثورة «أجحفت» بحقّها. ففي الرابعة عشرة من عمرها قرّرت الأمّ، مثلها مثل الكثير من المراهقات في ذلك الحين، أن تنتفض على واقع استعماريّ مُزِرٍ وأن تحمل السلاح للمشاركة في حرب تحرير الجزائر، لكنّها سرعان ما شعرت بعد الاستقلال بالظلم الذي رافقها طوال حياتها بسبب التعتيم الذي مورس عليها، وبقاء «سلطة الأيقونات» علامة تطبع الثورة الشيعيّة.

يضمّ المحور أخيراً نصّين عن سوريا، الأوّل عبارة عن شهادة قدّمتها زكية قرفنل بعنوان «من ذاكرة الحرب السوريّة المهمّشة: قصّة نجاة مُراهقتين أنضجتهما نيران الحرب دفعةً واحدة». يوثّق النصّ قصّة أختين مُراهقتين، كاشفةً خبايا الذاكرة الأثويّة السوريّة، حيث تشابكت خيوط التقاليد والأعراف الاجتماعيّة مع الواقع السياسيّ والعسكريّ الجديد الذي فرضَ عليهما حصاراً مطبقاً أضيفَ إلى حصارٍ آخرَ فرضه مُقاتلو «داعش»، واضطّراهما من ثمّ إلى لبس البُرقع والهَرَب عبر طريقٍ غير شرعيٍّ إلى لبنان، حيث التحقّت العائلة ببرنامج تمكين وتأهيل مع إحدى المنظمات الإنسانيّة، ساند إحدى المُراهقتين في الالتحاق مُجدّداً بالمدرسة، وساند الثانية في تعلّم مهارات الكمبيوتر.

أمّا عن النصّ الثاني، فقد راجعت فيه ريمّا زهير الكردي رواية تغريد التّجار لليافعين «ستشرق الشمس ولو بعد حين»، والتي تستعرض أحداث الحرب في سوريا منذ بداياتها، مروراً بتداعياتها وأحداثها المؤثّرة. تتمظهر أحداث هذه الحرب الضروس في عائلة من الطبقة الوسطى من خلال شخصيّة الفتاة المُراهقة «شادن»، المولودة من أبٍ سوريٍّ وأمّ فلسطينيّة. وتُحاك من هذا النسيج المُختلط تفاصيلُ تغيّر المشهد السياسيّ وانعكاساته

على النواحي الاجتماعية والاقتصادية للعائلة، وعلى الحياة النفسية والاجتماعية للفتيات تحديداً.

هذا غيُض من فيض ممّا واجهته وتواجهه الفتيات من جرّاء الحروب التي لم تُغادرنا، والتي نأمل من خلال إطلالة الكتاب عليها أن يكون قد فتَحَ آفاقاً لمقاربات أنثوية من مختلف الاختصاصات والحقول المعرفية من شأنها أن تُؤسّس لمنطلقات مفاهيمية جديدة تُعيد إلى الحياة معانيها الإنسانية والأخلاقية المسلوقة.

في الختام، لا يسعنا سوى توجيه الشكر إلى الزميلات اللواتي كنّ عوناً لنا في إنجاز هذا الكتاب: د. سمر كنفاني لإضافتها العديد من اللّمسات على الكتاب، د. نجلاء حمادة ود. مود أسطفان هاشم، لتوليّهما تحرير النصوص الأجنبية.

المحور الأول
الطفلات في الحروب: مقارباتٌ متعدّدة

«ورثاث الشر»: بنات الحرب في الجزائر

«الصمت يعني الموت
إذا تكلمت فإنهم يقتلونك.
إذا التزمت الصمت فإنهم يقتلونك.
لذا تكلم ومُت».

الطاهر جعوط

مقدمة

إذا كان التاريخُ تاريخًا ذكوريًا يعكس قيمَ الرجال وتصوراتهم، ويُخبر عن علاقاتهم وسيَرهم وأفعالهم وخطاباتهم ورؤيتهم للحياة والكون، فليس من المتوقَّع أن يكون حضور النساء في المؤلَّفات التاريخية حضوراً متميِّزاً، وأن نعثر على كلِّ تفاصيل حياتهنَّ اليوميَّة وأنماط علاقاتهنَّ وقيمهنَّ وتمثلاتهنَّ للسلطة والزواج والحياة والموت والدين والقانون وغيرها. وإذا علمنا أنَّ الحروب تُتمثَّل على أنَّها مجال ذكوريِّ بامتياز يحتكرها شيوخ القبائل والحكَّام والخلفاء وغيرهم فيقرِّرون زمن اندلاع المعارك وطرائق خوضها ويرمون التحالفات ويحدِّدون الغنائم ويضبطون عقود تبادل الأسرى وصفقات السلاح وغيرها فهمنا لِمَ لم يضع أغلب المؤرِّخين وكتَّاب السِّير وغيرهم النساء في دائرة اهتمامهم؟ ولمَ لم يتوقفوا طويلاً عند أخبارهنَّ وأشكال فاعليَّتهنَّ؟

أمال قرامي

وقد انتهت الدّارسات العربيّات إلى الإشكاليّات التي تطرحها كتابة التاريخ من وجهة نظر ذكوريّة فعملنَ على تجميع المادّة المبتوثة في كُتب التراث (تاريخ، فقه، حديث، فتاوى، أدب، حسيّة...) في محاولةٍ لتأسيس تاريخ النساء وإبراز أشكال مشاركتهنّ في بناء الحضارة، إنّ كان على مستوى إنتاج المعارف أو التراث المادّي والرمزيّ وغيره⁽¹⁾. ولم يقتصر عمل الباحثات على إبراز فاعليّة النساء في زمن الاستقرار والسّلم فحسب، بل ألّفيناهنّ حريصات على تحديد مختلف الأدوار التي نهضت بها النساء في الحروب والصراعات كالوساطة والدعم والتدبير وحماية الجرحى والعمل المسلّح وغيرها⁽²⁾.

وقد ازداد اهتمام عدد من الكتابات والدّارسين/ت في السنوات الأخيرة، بمبحث الحروب والنّزاعات والتهجير والنّفي، فانكبّوا على تحليل دور المؤسّسات والأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والأمنيّة وغيرها في استفحال الحروب والصراعات، موضّحين مختلف الأدوار التي يضطلع بها صنّاع القرار ومنتقدين، في الوقت ذاته، مختلف السياسات⁽³⁾. ولم يفت عالّما الاجتماع والمحلّلات النفسيّات والمؤرّخات، إبراز مشاركة النساء في حروب التحرّر من الاستعمار، وتحليل علاقاتهنّ (الاجتماعيّة والجندريّة والحزبيّة) القائمة على السلطة، والتمحيص في عددٍ من المسائل الأخرى ذات الصلة ببناء الأنوثة/الذكورة في سياق الحروب والنّزاعات⁽⁴⁾. وفي السياق نفسه، رصدت

(1) نشير إلى الأعمال المنضوية تحت مؤسّسة «المرأة والذاكرة» في مصر، ومجموعة من الأعمال التونسيّة كنساء وذاكرة: مؤلّف جماعيّ، تونسّيّات في الحياة العامّة 1920 - 1960 (تونس: مركز البحوث والدراسات، 1993) وبعض المقالات الواردة في المؤلّفات الصادرة عن «تجمّع الباحثات اللّبنانيّات».

(2) نشير مثلاً إلى: فاطمة قاسم، النساء الفلسطينيّات: سرديات تاريخيّة وذاكرة مجندرة (لندن: دار «زيد بوكس» البريطانيّة، 2011). رجاء الحضري، «قِسات من تاريخ المرأة المغربيّة المجاهدة»، موقع مؤمنات، متاح على: قِسات من تاريخ المرأة المغربيّة المجاهدة - مؤمنات نت (mouminate.net). سمية المغراوي، «نساء مغربيّات صنعنّ تاريخ المغرب»، موقع تاريخ المغرب، متاح على: نساء مغربيّات صنعنّ تاريخ المغرب | موقع الدكتور خالد الرامي (drrami.net).

(3) نشير مثلاً إلى: سمر يربك، تسع عشرة امرأة: سوريات يروين (روما: منشورات المتوسط، 2018).

(4) نشير مثلاً إلى:

Dalila Iamarène-Djeral, «Les Violences à l'encontre des femmes et des enfants en Algérie: Témoignages et réflexions», in, *Les femmes entre violences et stratégies de liberté Maghreb et Europe du sud, sous la direction de Christiane Veauvy, Marguerite Rollinde et Mireille Azzoug* (Bouchene, Paris, 2004), 123-132. Zahra Ali, «Offensive contre les femmes en Irak», Orient xxi, accessed 13-8-2021. Offensive contre les femmes en Irak (orientxxi.info).

مجموعة من الباحثات أدوار النساء التقليديّة والجديدة في أزمنة الصراعات والحروب، ونقلت الروايات تجارب النساء وخبراتهم المتراكمة وأشكال تعبيرهنّ عن الخوف، والحزن والأمل... في بلدان استمرّت فيها الحروب والصراعات لسنواتٍ طويلة⁽⁵⁾. وانشغل المُشرفون على الإنتاج السينمائي والمسرحي والدرامي والتشكيلي⁽⁶⁾ بدورهم، بتيمة الحرب ورأوا أنّها جديرة بالمعالجة الفنيّة.

غير أنّ هذا الإنتاج الأكاديمي والثقافي الذي جعل فئة من النساء مرئيّات لم يكثرث، في الأغلب، بفئة عمريّة نرى أنّها جديرة بالمتابعة والتقصي، ونعني بذلك الطفلات والمُراهقات اللواتي بقين خارج دائرة التحديق. كما أنّ صاحبات هذه المبادرات الهادفة إلى إنصاف النساء تاريخياً وتحقيق مرئيّتهنّ وبناء الذاكرة النسائيّة الجمعيّة لم يُحلّلن بالقدر الكافي تجارب النساء والمُراهقات والفنيات في سياق الصراعات والحروب في مختلف العصور، وإن كنّ، في الواقع، قد رصدنّ معاناة النساء وآلامهنّ واهتمّمنّ بأشكال حضورهنّ، ونظرنّ في مسؤوليتهنّ في تأجيج الحرب أو في فضّ النزاعات وبناء السلام. وانطلاقاً من هذا التجاهل أو التغييب أو التهميش أو العمى الإدراكي، ارتأينا أن نرصد علاقة الطفلات والمُراهقات الجزائريّات بالنزاعات والحروب والأزمات متوقّفين عند تجربتيّ: تتمثّل الأولى في حرب التحرير 1954 - 1962⁽⁷⁾، وتكمن الثانية في الحرب الأهليّة: «العشريّة السوداء» في التسعينيات من القرن الماضي⁽⁸⁾. أمّا مبرّر هذا الاختيار فيعود إلى أنّ الحقبتيّن التاريخيّتين تعكسان رؤييتين مختلفتين. فبينما كان الآخر البرّاني

(5) أنظر/ي مثلاً روايات إنعام كجه جي «لورنا» و«كلام عراقيات» و«طشاري» و«النبيذة»، وزهراء عبد الله «من التراب إلى الماء» الصادرة عن دار الآداب، وعلويّة صبح «أن تعشق الحياة» الصادرة عن دار الآداب، وفضيلة الفاروق «تاء الخجل»، وأعمال سحر خليفة، وأخريات.

(6) يُمكن الرجوع مثلاً إلى: فيلم «ماريه نوستروم» للمخرجين السوريّين رنا كركز وأنس خلف وفيلم «مِل يا غزِيل للمخرجة إيلان الراهب» 2016، ومسرحيّة «أنتيغون السورية»، تروي فيه عشرون امرأةً حكاياتهنّ مع الحرب والتهجير، ومسلسل «رسائل الحب والحرب»؛ لريم حنا.

(7) تشكّل حرب التحرير الوطنيّة (1954 - 1962) التي أنهت فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830 - 1962) الحدث المهمّ في بناء الوعي الوطني في الجزائر، وتُعتبر أيضاً الحدث المهمّ والمؤسّس للدولة الوطنيّة الذي انبثقت مع استقلال البلاد ويقال إنّ عدد الشهداء والشهيدات تجاوز المليون.

(8) حرب العشريّة السوداء في الجزائر صراع مسلّح بين النظام الجزائري القائم وفصائل متعدّدة اعتُبرت معبّرة عن أفكار موالية للجهة الإسلاميّة للإنقاذ والإسلام السياسي، منها الجماعة الإسلاميّة المسلّحة والحركة الإسلاميّة المسلّحة والجهة الإسلاميّة للجهاد المسلّح والجيش الإسلامي للإنقاذ وهو الجناح المسلّح للجهة الإسلاميّة للإنقاذ. انطلق =

(فرنسا) هو المتسبب في المعاناة والصدمات، كان الآخر الجواني مُمثلاً في الإسلاميين المتطرفين، هو مَنْ ألحق بالطفلات والمُراهقات شتى أنواع الأذى كالتعذيب والاغتصاب أو القتل.

1 - في عوائق البحث: النساء والفتيات والمُراهقات

بين التغيب والتصميت

قلّما اهتمّ المؤرّخون والعلماء ومصنّفو الموسوعات بدراسة حيوات الطفلات والمُراهقات والفتيات إذ لا يعثر الباحث/ة في التاريخ العربي والإسلامي إلا على نُتفٍ من الأخبار في بعض كتب اللّغة والطب والتاريخ والتعليم والفتاوى والنوازل وغيرها. ولئن اعتبر الدارسون أنّ إهمال تاريخ الطفولة يشمل الذكور والإناث على حدّ سواء، وأنّه ظاهرة عابرة للثقافات تومئ إلى منزلة الطفل في المجتمع، فإنّ اللّافت هو تهميش أخبار الصبايا. فبينما أفاض العلماء في الحديث عن قواعد الصّحة والغذاء وأنواع الرياضة وآداب السلوك، وغيرها من المسائل التي تخصّ الطفل كانت النصائح المتعلقة بنمو الطفلة وسلوكها نزرة، وهو أمر يعود إلى موقع الصبي في النظام التراتبيّ فهو المعيار والأنموذج، ويُمثّل على أنّه مصدر الفخر والعزوة وزينة الحياة.

أمّا سبب قلّة الاهتمام بأحوال الطفلة فإنّه راجع، في اعتقادنا، إلى التمييز المضاعف الممارس ضدّ الطفلات والمُراهقات إذ يتقاطع التمييز على أساس الجندر مع التمييز على أساس السنّ، ويترتّب عن ذلك وجود فجوة بين الولد والبنت فتكون مرثية الصبيّ مثلاً محدودة ومظروفة إلى حين دخوله مرحلة المراهقة والإنتاج والمشاركة في العمل والجهاد... أمّا الطفلة أو المراهقة فإنّها تظلّ محجوبة عن الأعين وفي الكتب باعتبار أنّ التاريخ تاريخ الشبان والكهول والمسنّين. ونحن إذ نشير إلى هذا المعطى نوّكد على أنّ تهميش الطفلات والمُراهقات فعلٌ متجذّر في عمق التاريخ وهو بمكانة سنّة ثقافية.

= الصراع سنة 1992 بعد الإعلان عن إلغاء نتائج الانتخابات التشريعية وفوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ وتدخّل الجيش لإلغاء الانتخابات.

وقد سعت الكاتبات/ب إلى مقاومة هذا التغييب فظهرت المبادرات المختلفة الهادفة إلى جعل فاعلية الشابات وبدرجة أقل، المُراهقات والمراهقين⁽⁹⁾ في السّلم والحرب، مرئية. وكانت العُدّة المنهجية متعدّدة إذ نجد المنهج التاريخي (التاريخ الاجتماعي وتاريخ النساء..) والمقاربة الجندرية والمقاربة السوسيولوجية والمقاربة النفسية والمقاربة الأمنية⁽¹⁰⁾ وغيرها. ومع ذلك تبقى أصوات الطفلات والمُراهقات، في نظرنا، مغمورة، وتجاربهنّ على هامش السرديات النسائية المركزية، ولعلّ للأمر صلة بالفجوة بين الأجيال وبراديغم السنّ. فمعظم الكاتبات يتناولن بالتحليل «قضايا النساء» وقلّما ينتبهنّ إلى أهمية التركيز على تعدّد الأصوات وتمكين الطفلات والمُراهقات من التعبير عن ذاتهنّ، بل إنّ هذه المرحلة البيئية: بين الطفولة والشباب كانت «فاقدة للقيمة».

وبالإضافة إلى هيمنة تصوّر الذكور للتاريخ والتميز على أساس السنّ، وتمثّل الحرب والنزاعات على أنّها مجالٌ لاختبار الذكوريّات، نلاحظ أنّ تحويل النساء والفتيات والمُراهقات إلى مجموعة من الرموز (الوطن، وشرف الرجل وعرضه، وملكيته الأثيرة...) قد جعل الالتفات إلى تجاربهنّ وأحاسيسهنّ شبه مفقود. وأدّى اعتبار الطفلات والمُراهقات موضوعاً مثيراً للقلق والخوف، ووسيلة تستعمل للضغط أو التهديد أو الإذلال أو الفضح أو شيئاً يُتفاوض حول ملكيته إلى اقتناع الرجال بأنّ الحرب لا بدّ أن تُخاض على مستويّين. فهي من ناحية، حرب مادية تدار على الميدان وتستعرض فيها

(9) Antoine Kattar, «Espace de tradition au quotidien. À propos des adolescents libanais,» Dans, *Adolescence* (France: Edition Grupp 2007), 87-94.

Karim Mekiri, «Adolescent et traumatisme de guerre, résilience et liens familiaux: rôle des représentations familiales dans le processus de résilience,» Thèse de doctorat en Psychologie clinique et psychopathologie, Soutenue en 2011 à Rouen.

Lyne Khalil, «La question de la transmission entre mère et fille dans le contexte d'après-guerre civile libanaise. Se permettre d'aimer pour briser la répétition,» Psychologie. Université Sorbonne Paris Cité, 2019. Français.

La question de la transmission entre mère et fille dans le contexte d'après-guerre civile libanaise. Se permettre d'aimer pour briser la répétition-TEL-Thèses en ligne (archives-ouvertes.fr).

(10) نشير إلى دراسات الأمن والسلام التي ساهمت في نشر شهادات النساء ومعاناتهنّ في دارفور، وسوريا، واليمن وغيرها من البلدان بعد صدور قرار مجلس الأمن الدولي 25/13 حول النساء والأمن والسلام. ونعثر بين الحين والآخر في تقارير المنظّمات الحقوقية والجمعيات النسائية التي تهتمّ ببناء السلام أو مناهضة العنف المبنى على التّوابع الاجتماعي وغيرها، على شهادات تخصّ الطفلات والمُراهقات اللواتي تعرّضنّ للتّعذيب أو الاغتصاب أو التشريد (في الجزائر، وسوريا، واليمن...). يُمكن الرجوع مثلاً إلى: ضحايا الحروب: أجساد النساء وأرواحهنّ، الجرائم المُرتكبة ضدّ النساء في النزاعات المسلّحة، منظّمة العفو الدولية، 2004، رقم الوثيقة ACT 77/072/2004.

الرجولة مقوماتها وقيمها فتلوح المهارات والبطولات، وهي من ناحية أخرى، حرب رمزية تخاض في مستوى البنية الذهنية إذ يتعين على الرجال حماية نسائهم وطفلاتهم وإثبات أنهم ممثلو النموذج المعياري «الذكورة المهيمنة» في مقابل الذكورة المسحوقة التي يُجبر فيها المنهزمون على قبول تأنيثهم وإفرادهم «إفراد البعير الأجر». وليس أسر النساء والفتيات والمُراهقات في الحروب إلا شكلاً من أشكال التبادل بين الرجال، وإعادة ترتيب العلاقات وفق موازين القوى المتحوّلة فيصبح الاستحواذ على النساء والفتيات امتلاكاً لمن كنّ «تحت» الآخر، وإذلالاً للعدوّ وتجريداً له من صفاته الجوهرية، وهو أيضاً سعيٌّ إلى التصرف في البنية النفسية للخصم وفي تاريخه وذاكرته.

وعلى الرغم من إصرار الدراسات على البحث عن المنسيات والمغيّبات، فإنّ تجارب النساء والمُراهقات في الحرب ومشاعرهنّ ظلّت في الأغلب، على هامش التاريخ بسبب قرار اتّخذه الرجال يقضي بكتم أصواتهنّ. ولعلّ خير أنموذج معبر عن إرادة التعتيم والتصميم في التاريخ المغاربي تجربة الجزائريّات اللواتي تحمّلنّ وزر الحروب ثمّ فرضَ عليهنّ الصمت. وهنا مثل التصميم عائفاً آخر أمام البحّثة.

وتتفق الدّراسات الجزائريّات (كمرنية لزرق وزهية الصالحي وكريمة لازالي⁽¹¹⁾...) على أنّ المُجتمع صادرَ أصوات أغلب الجزائريّات ومنعهنّ من الحكّي فارضاً عليهنّ «طيّ صفحة الماضي المؤلم» وكتم الصوت وخنق العبرات. أمّا الطفلات والمُراهقات فلم يكنّ بوسعهنّ الكلام في الموضوعات المهمّة لأنهنّ في نظر المُجتمع، قاصرات و«ناقصات عقل» وتابعات للأب/الأخ... يأتْمرنّ بأوامر رجال العائلة ولا يجوز لهنّ اتّخاذ أيّ قرار، بما في ذلك رواية ما عايته أو خبرته. إنّ غاية ما يُقبل منهنّ الخوض في مشاغل النّسوان «التافهة». فكان التصميم، في مثل هذه الحالة، حجة على تعاقد مختلف القوى السياسيّة والاجتماعيّة والبطريكيّة وتحالفها على حساب النساء والطفلات.

غير أنّ الوعي النسويّ دَفَعَ فئةً من الجزائريّات في العقدَيْن الأخيرَيْن على وجه الخصوص، إلى كسر حاجز الخوف وتحرير أنفسهنّ من عبء التستّر على الجرائم

(11) Karima Lazali, «le trauma colonial», Bing, Filmed April, 2019, video, 39:58. <https://www.bing.com/videos/search?q=karima++lazali&docid=608031854432701158&mid=1FB62D0BD925001178361FB62D0BD92500117836&view=detail&FORM=VIRE>.

التي ارتكبت في حقّ النساء والطفلات فانطلقن في الإخبار والإدلاء بشهادتهنّ⁽¹²⁾ أمام المحاكم وُفرق البحث الأكاديميّة ووسائل الإعلام وغيرها، وهنّ إذ يُحرّرن أنفسهنّ من ثقل السرّ المحفوظ ووجع التذكّر يُثبّتنّ أنهنّ قادرات على مقاومة الابتزاز العاطفيّ والتهديدات التي يُوجّهها الأبناء والأخوة إلى كلّ ناجية من هول التعذيب والاعتصاب. ولا شكّ عندنا أنّ توافر الشهادات والتصريحات في مختلف وسائل الإعلام، وحتىّ الروايات المُعتمَدة على أحداثٍ من الواقع⁽¹³⁾ يُهوّن على الباحثة بعض الصعوبات. ولكنّ عملية التنقيب عن الوثائق والمعلومات، في سياقٍ تعمّد فيه أصحابُ القرار محوَ الحجج الدالّة على تعذيب النساء أو إنكار حوادث الاعتصاب أو إهمال أرشفة تاريخ النساء، تبقى عمليّة شاقّة وتتطلّب وقتاً طويلاً وتكاثّف جهودٍ عددٍ من الدارسين والمسؤولين والناشطين الحقوقيين.

ثمّ إنّ توافر الشهادات لا يجب أن يحجب عنّا صعوبة أخرى تتعلق بفعل التذكّر واسترجاع الماضي، ولاسيّما إذا انتبهنا إلى أنّ العمل على ذاكرة حرب الجزائر قد تأخّر كثيراً، وأنّ أغلب الناجيات لم يخضعنّ للعلاج النفسيّ الذي يمكن أن يساعدهنّ على ململة جراح الماضي وتجاوز وقع الصدمات⁽¹⁴⁾، وهو ما جعلهنّ متحفّظات وكتومات وحريصات على القيام بالغربة والانتقاء، ولذا وجدناهنّ يذكّرُن بعض الأحداث ويرفضنّ الكشف عن بعض المعلومات والتفاصيل، وخصوصاً تلك التي تتعلق بحدث الاعتصاب. ومن هنا يُطرح سؤال: إلى أيّ حدّ يُمكن التسليم بكلّ ما جاء في هذه الشهادات أو السّير الذاتية من أخبار وروايات؟

(12) يمكن الرجوع إلى مجموعة شهادات في كتاب جماعيّ:

Combat (s) de femmes Fondation Friedrich Ebert Alger, (Décembre 2010).

(13) يمكن الرجوع إلى:

Christine Détrez, «Les écrivaines algériennes et l'écriture de la décennie noire: tactiques et quiproquos.», *Études littéraires africaines*, 26, (2008): 19-26 <https://doi.org/10.7202/1035119a>.

(14) تجدر الإشارة إلى أنّ ذاكرة الحرب الأهليّة لم توضع في الغالب، على محكّ البحث الأكاديمي على الرّغم من إجماع الباحثين/ات على أنّ آثارها لا زالت تُعاين وأنّها كانت وسيلة لإضفاء الشرعيّة على نظام عبد العزيز بوتفليقة ومَن جاؤوا بعده يُمكن الرجوع إلى:

Kalyvas, 1999; Martinez, 1998; Mundy, 2015; (Quandt, 1998; Roberts, 2003).

وبقطع النظر عن الفجوة الحاصلة بين توقّعات الباحثين/ات وما توفّره المستجوبات من معلومات لا تشمل بالضرورة جميع المناطق (الأرياف، القرى...) ومختلف الأوساط الاجتماعية، تبقى هذه المادّة، على هئاتها، أساسيّة إذ كيف يتسنى لنا أن نعرف ما حدث للطفلات والمُراهقات في فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وفي العشريّة السوداء؟ فلولا فعل التذكّر وما يحفّ به من صعوبات نفسيّة لما أمكن لنا التوصل إلى إعادة بناء تجارب الفتيات والمُراهقات مع الحرب ورصد أشكال حضورهنّ في التاريخ. وانطلاقاً من هذا المُعطى كان اعتمادنا على سرديات الناجيات ضرورياً، ونحن إذ نُعوّل على ما تُقدّمه هؤلاء من مادّة لا نهتمّ بالتثبّت في مدى صدقيّة الروايات، ولا نكثرث ببلاغة رواية الأحداث إنّما نُعنى برصد آثار الصدمات Trauma في حيوات مَنْ كنّ بالأمس طفلات ومراهقات وصرنَ اليوم، مسنّات، ونهتّم بالنظر في دلالات الحرب ومختلف علاقات السلطة والهيمنة وطريقة تعامل الراشد والمسؤول مع القاصرات والمُراهقات اللواتي وجدنَ أنفسهنّ وجهاً لوجه مع العدو في حرب لم يخترنَ تحمّل أوزارها.

وانطلاقاً من وعينا بهذه الصعوبات المتّصلة ببناء التاريخ وعمل الذاكرة وطرائق الجمع والأرشفة، واستراتيجيّات التصميم والتهديد... نرى أنّ البحث عن آثار الحروب على حيوات الطفلات والمُراهقات من زاوية اجتماعيّة وجسديّة ونفسيّة وجندريّة يُمثّل مغامرة محفوفة بمخاطر عدّة، وهو أيضاً ورشة مفتوحة، ولا سيّما إنّ أدركنا أنّ فتح ملفات الأرشيف العسكريّ سيكون متاحاً في غضون سنة 2022.

2 - وحشيّة المُستعمر: حين يُشفّع اغتصاب الوطن باغتصاب أجساد الطفلات والمُراهقات

يقرّ المؤرّخون والدارسون/ات⁽¹⁵⁾ بأهميّة الأدوار التي قامت بها النساء منذ اندلاع الثورة الجزائريّة ضدّ الاستعمار الفرنسي سنة 1954 وتحت قيادة جبهة التحرير الوطني.

(15) نذكر على سبيل المثال:

Natalya Vince, «Transgressing Boundaries: Gender, Race, Religion, and «Françaises Musulmanes» during the Algerian War of Independence» in, French Historical Studies, Vol. 33, No. 3 (Summer 2010): 445-474
<https://doi.org/10.1215/00161071-2010-005>.
<http://read.dukeupress.edu/french-historical-studies/article-pdf/33/3/445/412245/FHS033-03-05VinceFpp.pdf>.

فقد كانت الجزائريّات داعمات للثورة مضحيّات بالنفس والمال والولد، وكانت منهنّ المجاهدة بالسلاح والسجينة والمُعْتَقَلَة، والمُعْتَصَبَة وغيرهنّ. ولكنّ هؤلاء قلّما يتوقّفون عند أخبار الطفلات والمُراهقات، ولذا مثل استقصاء أشكال حضورهنّ في كُتب تاريخ النضال الوطني بالاعتماد على «العدسة الجندريّة» وبراديجم السنّ مهمّة شاقّة. فبالرجوع إلى مختلف الوثائق التي «أرشفّت» تاريخ حرب التحرير نعر على بعض الأخبار التي توضّح مدى اقتناع الفتيات بضرورة المُشاركة في حرب التحرير، وهي روايات وشهادات يقدّمها، في الحقيقة، الآخر نيابة عن النساء والطفلات والمُراهقات وتُرَدُّ بصيغة التعميم (طفلات، بنات، فتيات، تلميذات...) وكأنّه لا أهميّة لذكر الأسماء. يقول أحدهم في هذا السياق: «وبالفعل أسهمت جزائريّات، ولاسيّما طالبات المَدارس والجامعات، في معركة الجزائر قبل الدخول في العمل السريّ»⁽¹⁶⁾. وتوضّح معلومات أخرى مبثوثة في بعض المؤلّفات والبحوث، مكانة الفتيات والمُراهقات في الأسرة والمُجتمع، وتصف مدى خوف الأهالي من وقوع بناتهم فريسةً بيد العدو. يقول «الرباحي» في هذا الصدد: «ويُرَدّد الجزائريّون أنّ الأنثى في الأرياف، ما إن تدخل مرحلة البلوغ حتّى تصبح فريسةً محتملة لجنود الاحتلال، ومشكلة تؤرّق عائلتها إلى أن تُزوّجها أو تهرّبها إلى أقاربها في المدينة»⁽¹⁷⁾. وتثبت ظاهرة تزويج القاصرات، في نظرنا، العنف المضاعف الذي مورس على الطفلات إذ «تخلّصت» بعض الأسر من عبء حمايتهنّ من الاغتصاب وما سيترتب عنه من اعتداء على «الشرف» العائليّ، من دون أن أدنى اكتراث بمشاعر الطفلات وانعكاسات هذا القرار على ذواتهنّ.

وتُشير دراسات أخرى إلى أنّه تحسّباً من كلّ عمليّة اقتحام قد تُعرّض الطفلات والمُراهقات إلى الاعتداء، ابتكرت النساء طريقةً لحماية بناتهنّ سرعان ما تحوّلت إلى طقس. فما إن يصل خبر تقدّم الجنود باتجاه الأحياء حتّى تُبادر النساء بتلطّيح وجوههنّ ووجوه طفلاتهنّ بالوحد وروث الحيوانات حتّى لا يرغب الجنود في «فضاء الوطر منهنّ»⁽¹⁸⁾. والمتأمّل في هذه الروايات

(16) جان بيار سيريني، إسفار نساء مُسلمات في الجزائر، ترجمة هناء جابر، موقع orientxxi، متاح على: إسفار نساء

مُسلمات في الجزائر (orientxxi.info) <https://orientxxi.info/lu-vu-entendu/article1467>

(17) توفيق رباحي، «اغتصاب الجزائريّات... جرائم يُراد لها أن تموت»، موقع القدس العربي، متاح على:

<https://bit.ly/3HEKaVf>

(18) توفيق رباحي، المرجع نفسه.

ينتبه إلى حرص بعض العائلات على إيجاد الحلول وابتكار تدابير التوقي و صياغة استراتيجيات الدفاع.

ويلحظ الناظر في هذه الأخبار والروايات أنّ أغلبها يأتي على لسان الآخر/الشاهد الذي يقصّ ما حدث، وهو أمر مفهوم باعتبار أنّ الضحية ماتت أو أنّ الناجية تمتنع في أغلب الأوقات، عن الإفصاح أو يتمّ «تصميمها» لاعتبارات متعدّدة. ولئن كان سبب الصمت الإرادي في أغلب الحالات راجعاً إلى شعور الضحية بتدني قيمة الذات، والخوف من النتائج المترتبة عن الحكي، وعدم القدرة على مواجهة الأهل والمجتمع، فإنّ التصميم هو عنف آخر يُمارَس على الضحية فيجعلها تلوذ بالصمت وتُمارس الرقابة الذاتية خوفاً من التهديدات والعقوبات. وترى بعض الدارسات أنّ «صمت المرأة الجزائرية قد يكون عملاً اجتماعياً وثقافياً وأيديولوجياً غير طوعي، وهو وسيلة لدفن الحقيقة الفظيعة في قبر منسيّ. فالصمت فرضه الواقع الاستعماري ولا يزال يُنفذ بواسطة تقليد ما بعد الاستعمار والمجتمع... الصمت يصبح عملاً سياسياً تقوم المرأة من خلاله، بتخريب خطاب الظالمين من خلال الإبقاء على عالمهم السريّ»⁽¹⁹⁾.

وبالتوازي مع ما جمعه الباحثون من معلومات جاءت على لسان شهود العيان، بشأن حيوات الطفلات والمراهقات في زمن الحرب، فإنّ نشر السير الذاتية، والروايات المعتمدة على الوقائع الحقيقية والحوارات الصحافيّة مع بعض النساء أتاح للدارسين إمكانية تحليل هذه التجارب المريرة وتبيين حجم الدمار النفسي الذي لا زالت الناجيات تعاني منه والممتدّ من فترة المراهقة إلى مرحلة الشيخوخة.

ويمكن القول إنّ تمكّن فئة من الجزائريات بعد طول عناء، من امتلاك الصوت والقدرة على الكتابة والتعبير عن أهوال الحرب قد أبان عن الفرق بين أن يصوغ الآخرون السردية ويتكلّمون نيابة عن الطفلات ويحدّدون مساحة الحضور وفق إرادتهم، وبين أن تكون المرأة سيّدة القول وصاحبة السردية فهي «مريم الحكايا» أو «أميرة» أو «فاطمة»...

(19) أنيسة الداودي، «المقدمة: سرديات وترجمات العنف الجنسي في الحروب في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا»، موقع بوندرى، متاح على:

<https://www.boundary2.org/2018/07/anissa-daoudi-introduction-narrating-and-translating-sexual-violence-at-wartime-in-the-middle-east-and-north-africa-mena-region-arabic/>

ونذهب إلى أنّ تخصّص عدد من الجزائريّات في هذا الجنس من الكتابة⁽²⁰⁾ يقيم الدليل على مدى وعيهنّ بواجب التذكّر، وإسداء الدّين للنساء والطفلات والمُراهقات اللّواتي سلبهنّ المُستعمر حقّ الحياة. يقول ريكور Ricoeur في هذا الصدد: «إنّ فكرة الدّين لا تنفصل عن فكرة الميراث. إنّنا نُدين لأولئك الذين سبقونا بقسم ممّا نحن عليه. إنّ واجب الذاكرة لا يقتصر على الاحتفاظ بالأثر الماديّ الكتابيّ أو غير المكتوب للوقائع الغابرة، بل ينمّي الشعور بأننا ملزمون نحو هؤلاء الآخرين الذين سنقول عنهم لاحقاً إنّهم لم يعودوا موجودين، ولكنهم سبق أن كانوا. دَفَع الدّين، كما نقول، ولكن كذلك إخضاع الميراث إلى تصفية حساب»⁽²¹⁾.

إنّ مُسنّات الحاضر إذ يفصحن عن معاناتهنّ وأوجاعهنّ يكسرن جدار الصمت ويروين قصص العنف الجنسيّ وأشكال الاعتداء على أجساد الطفلات والمُراهقات اللّواتي لم يكنّ يفقهن معاني الحرب. إنّ ما هو «أسوأ من الاغتصاب الصمت عنه. في حالات التعذيب الجسديّ والنفسيّ والقتل وحرّق القرى، يتبرّع المجرم والضحيّة بالحديث والاعتراف. في حالة الاغتصاب والعنف الجنسيّ على نساء فقيرات معدّات، بعضهنّ مراهقات، في قَمّة هشاشتهنّ، يطغى الصمت ويصبح مضاعفاً: صمت الجلّاد وصمت الضحيّة. الأول يخشى (وربّما يستحي إذا استيقظ ضميره) من عواقب فعل يحطّ من إنسانيّته. والضحيّة تختفي وراء صمتها صوناً لعائلتها ومحيطها من العار الذي يُلاحق الجميع بقيّة العمر»⁽²²⁾.

من الثابت أنّ العدوّ اعتبر الاغتصاب وسيلة ناجعة لانتزاع المعلومات وطريقة لإذلال الآخر وممارسة تحقّق التواصل مع الخصم عبر أجساد النساء فضلاً عن كونه

(20) نشير مثلاً إلى عدّة روايات بخصوص الحرب ضدّ المُستعمر والحرب: فضيلة الفاروق، تاء الخجل.

Maïssa Bey, *Sous le jasmin, la nuit, La Tour d'Aigues* (Éditions de l'Aube, 2004); Wahiba Khiari, *Nos silences*, (Tunisie: Elyzad 2009); Malika Mokeddem, *L'interdite*, (Paris, Éditions Grasset & Fasquelle 1993 et Des rêves et des assassins, Paris, Éditions Grasset & Fasquelle 1995); Latifa Ben Mansour, *La prière de la peur* (Paris: Éditions de la différence, 1997); Leïla Marouane, *Le Châtiment des hypocrites* (Paris: Le Seuil, 2001); Maïssa Bey, *Nouvelles d'Algérie, La Tour d'Aigues*, L'Aube, 2016, (éd. Grasset & Fasquelle, 1998), *Puisque mon cœur est mort, La Tour d'Aigues*, Éditions de l'Aube (l'Aube poche littérature 2010).

(21) بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة جورج زبناتي (بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2009) ص 148.

(22) أنيسة الداودي، المرجع المذكور.

استراتيجية من استراتيجيات الهيمنة⁽²³⁾. وبالفعل توحى النتائج المترتبة عن اغتصاب الطفلات والمراهقات كإصابتهم بالاكْتئاب وتغيير علاقاتهم الأسرية وتخلخل مكانتهم في المجتمع وغيرها بأن تحويل القضيبي إلى أداة من أدوات الحرب قد أصاب الرجال في مقتل فكان الجرح النرجسي. ففي مجتمع بطريكي تغدو المغتصابات خارج نظام التبادل و«بضاعة منتهية الصلوحية» بل إنها حين تحمل في أحشائها «ابن الحرام/ الشر» تتحول إلى وصمة عار ومتهمة يُشار إليها بالبنان.

ولئن أمكن للرجال استعادة الأرض المغتصبة فإن «الشرف المهدور» لم يكن استرداده متاحاً ولا غسله بالدم ممكناً بعد أن أُلقت الحرب أوزارها وغادر الجنود أو عُقد الصلح مع الإسلاميين. وبسبب الشعور بالقهر الجماعي تفككت الروابط العائلية وصار السلوك السائد في الوسط العائلي، تجاهل الضحية وتأييدها فضلاً عن التعبير عن مشاعر الكره والخزي من ابنة لم تستطع الحفاظ على شرف العائلة على الرغم من وعي الأهل وعلمهم علم اليقين أنّ الضحية ضعيفة، ولا تملك إلاّ الإذعان لمن امتلك سلطة القرار وحدّد موعد الفعل واختار شكله ومكانه بل إنه تعمّد في حالات، أن يكون الاغتصاب أمام الأب والأخ. وليست الغاية من فضّ بكارة الطفلات، في مثل هذه الحالة، إلاّ أثنته الرجال.

ونظراً إلى هذه العوامل الاجتماعية والسياسية والأيدولوجية لم يكتب للناجيات من الحرب أن يتصلحن مع أجسادهنّ ويشفين من آلمهنّ إذ ظلت كوايس ما حدث تلاحقهنّ لسنوات طوال. ولعلّ أسوأ ما في الأمر أن تعيش الواحدة منهنّ فترة الاستعمار ثم أحداث «العشرية السوداء»⁽²⁴⁾ فإذا بالذاكرة تعيد مرة أخرى استرجاع التفاصيل. وهو ما حدث لإحدى الناجيات ف«كوايس الماضي عادت تلاحقها بعد أن تقاعدت عن العمل

(23) Martin R, «An Analysis Of The Use Of Rape As A Weapon Of War With Specific Reference To The Algerian War Of Independence 1954-1962,» Academia.

(DOC) An Analysis Of The Use Of Rape As A Weapon Of War With Specific Reference To The Algerian War Of Independence 1954-1962. | Martin R-Academia.edu

Raphaelle, Branche, Des Viols Pendant la Guerre d'Algerie, in *Vingtieme Siecle. Revue d'Histoire*, no.75 (2002): 123-132. [Online] DOI: 10.3917/ving.075.0123

(24) في العام 1991 وبعد أن ألغيت نتائج الانتخابات التي كان من شأنها أن تحضر الحزب الإسلامي لاستلام السلطة، انزلت الجزائر في حرب أهلية عُرفت باسم العشرية السوداء استمرت طيلة عقد التسعينيات. وحصد العنف ما لا يقلّ عن 150000 قتيل و7200 مفقود.

في منتصف التسعينيات. ما زادها سوءاً أنّ تقاعدها تزامن مع حرب داخلية شنيعة كانت تعيشها الجزائر، بعض ممارساتها في قذارة ما كان يحدث للفتيات في أثناء الثورة. النتيجة أن أُصيبت بأزمة نفسية تُسمى «الاكتئاب المهبوس». ثم بدأت تنطفئ شيئاً فشيئاً إلى أن توفيت في أواخر 2017. تقول «باية» إنّ الرجال يخوضون الحروب والنساء يدفعن ثمنها. تقول إنّ التعذيب الجسديّ مقدور عليه، أمّا العذاب النفسيّ «فوجّع لا ينتهي أبداً، أبداً». تعترف بأنّ الموت أفضل لأنّه خلاص⁽²⁵⁾.

3 - حين يفتك «الأخوة الإسلاميون» ببنات الوطن فيستبيحون أجسادهنّ ويستحلّون دماءهنّ

هل ثمة علاقة بين العنف الذي مارسه المستعمر والعنف الذي مارسه الإسلاميون في أثناء الحرب الداخلية؟ وهل يُمكن أن يُعتبر اختطاف الفتيات والمُراهقات واغتصابهنّ أو ذبحهنّ من الوريث إلى الوريث⁽²⁶⁾ علامة على اضطراب نفسيّ أو دليلاً على كره النساء؟ وهل لحادثة خلع عدد من الجزائريات الحجاب بتحريض من بعض الجنرالات وزوجاتهم سنة 1958 وتنظيم عملية تصوير حدث حرق الحُجُب وشائج بالعنف الجنسيّ؟ ألم يُعتبر ذلك الحدث، في نظر حراس الشريعة محاولة لتدمير الهوية الدينيّة والوطنية؟ ألم تُشارك الجزائريات السافرات في تنفيذ مخطط استعماري هدف إلى تشكيل هوية المرأة «الفرنسية المسلمة» فكّن بذلك في نظر الإسلاميين، خائنات وعميلات «الطابور الخامس» وفرنسا؟ ترى المحلّلة النفسيّة كريمة لازالي أنّ الإسلاميين أعادوا إنتاج ما فعله المستعمر بأبائهم حين أبادهم وأخفى جثامينهم. وقد أدّى حرمان الأبناء من معرفة أين قُبر الآباء إلى نتائج وخيمة على مستوى البنية النفسيّة منها الفوضى النفسيّة⁽²⁷⁾، ومنها السعي إلى قتل الأب patricide وليس العنف الممارس ضدّ النساء والفتيات إلّا حجة على أنّ تاريخ الإهانة والتعذيب والتوحّش لا يزال مستمرّاً، وأنّ العنف أضحى تركة تورّث من جيل

(25) أنيسة الداودي، المرجع المذكور.

(26) حمزة عتيبي، العشرية السوداء بالجزائر.. مجازر بشعة خلفت جروحاً لم تندمل، موقع س ن ن عربي 17 تشرين الأول/أكتوبر 2016، تاريخ الاطلاع 20 - 7 - 2021. متاح على:

<https://arabic.cnn.com/world/2016/10/17/algerian-civil-war>

(27) Kitouni, Hosni, *Le désordre colonial: l'Algérie à l'épreuve de la colonisation de peuplement*, (Paris: L'Harmattan, 2018).

إلى آخر. أمّا زهية صالحى فإنّها تذهب إلى أنّ المرأة أصبحت هدفاً متعمّداً للأصوليين الإسلاميين منذ السبعينيات، بسبب النظام الاستبدادي وكثرة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فما كان من الإسلاميين إلّا استغلال الموقف والظهور في ثوب المنقذ والمدافع عن الإسلام والهوية الدينية⁽²⁸⁾. وأياً كانت أسباب التوحّش فإنّ المحصّلة هي تدمير حيوات الطفلات والمراهقات وسرقة مستقبلهنّ وتحويل وجهة طموحاتهنّ فأصبح السلام النفسي عزّ الطلب ومنتهى الرجاء بعد أن كانت أحلام الفتيات والمراهقات تتمثّل في تحصيل الشهادة وإثبات الذات و...

لقد كان وقع الصدمة أشدّ فظاعةً بالنسبة إلى الضحايا إذ أدركت الطفلات والمراهقات مدى قسوة «ظلم ذوي القربى» ومرارة أن تكتشف الواحدة أنّ ابن العمّ أو الجار هو المجرم الذي يُمارس عليها شتى أنواع العنف ثمّ يصلي ويخطب في الناس موضحاً لهم معاني الرحمة والأخوة وكيف كرم الإسلام «شقائق الرجال»... ولا نبالغ إن اعتبرنا أنّ الحرب بما هي تاريخ من العنف، باتت منقوشة في الذاكرة والبنية النفسية والأجساد، ولهذا السبب يكون على الناجين/ات النهوض بوظيفة تمرير الروايات والتاريخ (passeur d'histoire) من جيل إلى آخر، ومن عصر إلى آخر.

وعندما يُطلب من الضحية أن تنطق من أجل كشف الحقيقة يكون الأمر ذا تكلفة عالية، ويبدو الحكي واسترجاع التعذيب أو واقعة الاغتصاب والطريقة التي تمّت بها (جماعية، أمام الأهل...) عملية محفوفة بالمخاطر، ولها بالتأكيد، عواقب وخيمة على المستوى النفسي والبدني. فقد تتعرّض المرأة إلى نوبة بكاء شديدة فتفقد تركيزها فلا تقوى على الحكي أو التدوين، وقد يُلمّ بها اضطراب نفسيّ أو نوبة عصبية فتتعلّط لغة الكلام، وقد تراودها فكرة الانتحار، وقد... وهو أمر يثبت أنّ كتابة الألم أو التعبير عنه قد تساعد الناجية على اكتشاف هويّتها وتشكيل تاريخها وترميم ذاتها ولكنها قد تؤدّي في أغلب الحالات، إلى البقاء تحت الأسر: أسر الذاكرة المعطوبة التي تجعل فعل التذكّر قادحاً للألم وللأزمات النفسية فتكتشف الواحدة وهم النجاة وزيف الخلاص فيزداد وضعها سوءاً.

(28) Zahia Smail Salhi, *Gender and Violence in Islamic Societies: Patriarchy, Islamism and Politics in the Middle East and North Africa*. (IBTauris 2013), 72.

وعندما تصغي إلى شهادات النساء أو تقرأ أقوالهن وقصصهن وسيرهن لا تملك إلا أن تتعاطف وتتأثر. فمن الطفلات من لم تعرف في طفولتها إلا صوت القنابل ورائحة الدم ومشهد الجثث، ومن المراهقات من اختطفن وغدت جارية تلبّي حاجات الأمير: يفرّغ فيها منيته ويلطمها ويلعنها ثم يستطيب الطعام الذي تعدّه يداها...، ومنهن من رأت بأم عينها كيف اغتُصبت والدتها جماعياً⁽²⁹⁾، ومنهن من حرّمت من الماء والغذاء ثم منعت من الإجهاض، ومنهن من أُجبرت على الزواج المؤقت أو زواج المسيار، ومنهن من تلقت تهديداً بسبب رفضها غطاء الرأس أو إصرارها على الذهاب إلى المدرسة على الرغم من قرار منع فتح المدارس منذ 1994، ومنهن من لقت حتفها بسبب المقاومة والتمرد على القرارات. فكاتيا بن قّة فتاة في المدرسة الثانوية، أخبرت والدتها قائلة: «حتى لو يغتالوني بعد يوم لن أرتدي الحجاب من دون رغبتني. وإذا كان لا بدّ لي من ارتداء شيء ما فإنه سيكون اللباس التقليدي القبائلي بدلاً من الحجاب المستورد الذي يريدون أن يجبرونا عليه»⁽³⁰⁾. وتنفطن إلى أنّ من الطفلات من قتلن لأن أمهاتهن قررن التصدي للإسلاميين فرافقن بناتهن إلى المدارس ومن الفتيات والمراهقات من عُذبن واغتُصبن لأنهن بنات «الطواغيت» الذين انتموا إلى المؤسسة الأمنية أو العسكرية⁽³¹⁾.

ولا يمكن التغاضي عن الأذى الذي لحق بالفتيات بسبب الأجهزة الأمنية والعسكرية التي مارست الإخفاء القسري والمطاردة والاغتيال، وأخفت الحقيقة وطالبت أهالي المفقودين بأخذ التعويضات وتجاوز الماضي وجراحه. تقول أرملة تنتمي إلى «جمعية SOS مفقودين»: «البنات لا يزلن ينتظرن آبائهن. لا يأتين معي ليوم الأربعاء لأن لديهن ذكريات موجعة عنه. فقد كنت آخذهن معي إلى الاجتماعات عندما كن صغيرات. كان مؤلماً أن يسمعن عن والدهن ثم يذهبن إلى البيت من دونه... لم يكن لدي سوى

(29) Karima Bennouna, «Your Fatwa Does Not Apply Here: Untold Stories from the Fight Against Muslim Fundamentalism.» WW Norton & Co, USA, (2013), Bing, filmed 2016, Video 33:17. Enquête édifiante sur les violences psychiques de la colonisation française en Algérie-Bing video, Zahia Smail Salhi, Lecture: Gender and Violence in Algeria: Women's Resistance against the Islamist Femicide, Nov. 1, 2011, disponible à: <https://bit.ly/3B6NHcf>. <https://arabic.cnn.com/world/2016/10/17/algerian-civil-war> Algériennes, 30 ans après-Bing video. URAit-Hamou_FundamentalismAlgeria.pdf.

(30) الداودي، المرجع المذكور.

(31) الداودي، المرجع المذكور.

دموعي. هو كان ربّ البيت ويتحمّل كلّ المسؤولية ثمّ فجأة اختفى وأصبح وحدي مع ثلاث فتيات صغار. ماذا يُمكن أن أفعل؟ أين أذهب؟... ليس من المُمكن أن يكون هناك مصالحة من دون حقيقة. ليس هناك عدالة في الجزائر»⁽³²⁾.

وهكذا يلوح كيف يُحرّم الأبناء من السند العاطفيّ والمادّي والرمزيّ، ومن الاستمتاع بالطفولة وبناء العلاقات مع الأقران، ويمنع عليهم ممارسة الفضول وطرح السؤال والاستفسار عن الواقع، ومعرفة ما يجري كلّ ذلك بدعوى حمايتهم. ولا يهمّ ما عاينه الطفل/ة أو ما سمعه وما فهمه، وحدهم الراشدون يحتكرون حقّ الفهم والشرح والتحليل والفعل وإضفاء المعاني. ولذا صارت استراتيجيّات تجنّب قول الحقيقة الموجهة امتيازاً من امتيازات «الكبار».

4 - حين تحطّ الحروب أوزارها يحلّ الوصم والنبت:

أبناء وبنات المُغتصبات

ما الذي يحدث حين تُقدم طفلات الأمس على البوح بعد أن غزا الشيب مفرق الرأس؟ هل الحكي علامة انتصار على سنوات وأد الكلمات وممارسة الرقابة الذاتيّة على وعي؟ وهل يُعدّ تجاوز الخوف وتحرير الكلمة تحوّلاً من وضع الضحيّة إلى وضع التمكين، وطقس عبور من مرحلة المعاناة إلى مرحلة تجاوز الصدمات؟ وهل إنّ كسر حاجز الصمت هو علامة دالّة على امتلاك السلطة ومواجهة العدو/الخصم/النظام/المُجتمع؟

تذهب أنيسة داودي إلى أنّ وعي النساء بقيمة سرد قصص العنف ودوره في تحديد مواقفهنّ هو الذي يدفعهنّ إلى البوح وتحفيز الأخريات على اتّخاذ هذا القرار. إنّهنّ يُدرّكن «جيداً قيمة سرديّات النساء في خلخلة وزعزعة الخطابات الراسخة وفي إزالة طبقات من التشويه والتحريف والهدف المرجو هو تغيير الحاضر والمستقبل»⁽³³⁾.

(32) هبة ناجيب، «وحدها الحقيقة يمكنها شفاء هذا الألم: جزائريّات يتحدّثن عن رحلة بحثهنّ عن المُختطفين»، ICTJ، متاح على: <https://www.ictj.org/news-type/focus-ar?page=6&language%5B0%5D=en>

(33) أنيسة داودي، مرجع مذكور.

لقد أمكن لفئة من الجزائريّات تقديم شهادتهنّ حول الجرائم التي اقترفها المُستعمر في مناخ ارتفعت فيه أصوات المؤمنين بالحرّية والعدالة والمُساواة مطالبة الدول الاستعماريّة بمُواجهة تاريخها وتقديم الاعتذارات الرسميّة والتعويضات للضحايا أو أسرهم ومحاسبة المُجرمين وتمكين البَحّثة من الاطّلاع على الأرشيف. ولم يكن بإمكان النظام الحاكم أن يمنع النساء من سرد قصصهنّ باعتبار أنّ المسألة لا تتعلّق بحاجة هؤلاء إلى إزاحة الهمّ الجاثم على صدورهنّ بل هي تصفية حسابات تاريخيّة وتفاوض رسميّ في إطار بناء العلاقات الدوليّة تتمثّل غايته في إعادة ترتيب علاقات القوّة عبر انتزاع الاعتراف بالسيادة الوطنيّة من جهة، وإدانة الآخر والتشهير بالجرائم التي ارتكبتها في حقّ الجزائريّين، من جهة أخرى.

وفي المقابل لم تكن مُواجهة ما اقترفه الإسلاميون بحقّ النساء والطفلات والمُراهقات يسيرة لأسباب تتعلّق بالخوف والترهيب والضغط المُمارسة على الضحايا من جهة، ولإرادة سياسيّة اختارت المصالحة ومأسسة الإفلات من العقاب على حساب مُعانة النساء بل إنّها سنّت قانون العفو أو السّلم العام⁽³⁴⁾ الذي يقف عائقاً أمام بوح النساء ويحول دون مطالبتهنّ بمُحاسبة المُجرمين. وهكذا يتّضح أنّ تدبير السياسة شأن ذكوريّ بامتياز إذ يحتكر الرجال السلطة ويتّخذون القرارات، بما فيها قرارات خوض الحرب والنّزاع، وكذلك إعلان الهدنة وحسّم الصراعات وسنّ القوانين. إنّهُ تفاوُصٌ جنديّ بين النظام السياسيّ والإسلاميّين والمُجتمع البطريركيّ، وهي علاقات مبنية على القوّة تُدار ضدّ مصالح النساء اللّواتي يُعاملنّ على أساس أنّهنّ قاصرات وفاقدات للأهليّة ونصف مواطنات فلا يُستشرنّ ولا يُشاركنّ في صنع القرارات.

وفي المقابل يُطلب منهنّ تحمّل التبعات بكلّ صبرٍ وجلد، ثمّ يُفرض عليهنّ الصمت وتصديق «السردية الرسميّة» و«الحقيقة الوحيدة»، وهو لعمرنا ظلم مضاعف يُولّد الشعور بالقهر والغبن، وهي سياسة قائمة على تحويل الناجية إلى ضحيّة الإسلاميين والنظام على

(34) ظهر في سنة 1999 قانون الرحمة وبدأ تنفيذه سنة 2005 بعد عرضه على الاستفتاء. غير أنّ المُطالبيين بالحقيقة والعدالة يسمّونه قانون إنكار حقوق ضحايا الإرهاب وأسرهم، نذكر هنا ما صرّحت به شريفة خضار، رئيسة ومؤسّسة جمعية «جزائريّنا»

«LA DIFFICILE RECONCILIATION NATIONALE EN ALGERIE», Youtube, 25 sept. 2013-accessed 26-7-2021 <https://www.youtube.com/watch?v=FOWzekR-juM>.

حدّ سواء ثمّ التحكّم في مشاعرها وأهوائها (الغضب، الألم، الرغبة في الانتقام...). ولكن أتى للنّاجية التي أصبحت امرأة مشوّهة وعاجزة عن الحركة وفقدت الأهل والممتلكات والذكريات وعاشت محنة التشريد، أن تقبل مشاهدة جلاّدها وهو يرفل في النعيم بعد أن أضحى من أغنياء البلد محصّناً بنظام سياسيّ اختار تجاهلَ مطالب النساء⁽³⁵⁾.

ويلوح جليّاً أنّ تمكّن النساء من انتزاع حقهنّ في البوح وبناء سردياتهنّ وصناعة تاريخهنّ هو شكل من أشكال المقاومة لكلّ الذين تصرّفوا في عواطف النساء والطفلات والمُراهقات فشكّلوها على هواهم، وتحكّموا في مصائرهنّ وأجسادهنّ وذاكرتهنّ وتاريخهنّ. إنّها مقاومة تُدار على أكثر من واجهة: أولها مقاومة النظام المستبدّ صانع الخطاب الرسميّ الذي حوّل المجاهدات إلى أيقوناتٍ ورموزٍ قوميّةٍ وجردَ من بقيّن على قيد الحياة من المواطنة التامة والفعليّة، ومنعهنّ من المشاركة في صنع القرار وبناء الدولة الوطنيّة، وحدّ من فاعليّتهنّ وطموحاتهنّ. ثمّ إنّها مقاومة للنظام الذي تعمّد الحديث عن الأبطال الأشاوس الذين تصدّوا للأصوليّة الدينيّة وحجّب في الوقت ذاته، تضحيات النساء والفتيات والمُراهقات.

أمّا ثانياً فهي مقاومة النسيان والتصميت والإنكار والقهر والتسلّط، وكلّ أشكال العنف الرمزيّ إذ استُبعدت المجاهدات ذوات الثقافة الفرنسيّة «المفرنسات» من المشاركة في كتابة تاريخهنّ في مرحلة تبنّت فيها الدولة الوطنيّة سياسات التعريب، ومن هنا تولّى المدافعون عن قداسة اللّغة العربيّة وبلاغة الفصحى كتابة السردية نيابة عن النساء اللّواتي استُبعدن بسبب عدم إتقانهنّ لغتهنّ الأمّ. ولا عجب أن تُخاض المعركة على أرض اللّغة وتُسيج داخل نظام الثنائيات المتضادّة: الذكورة/الأنوثة، الرجل/المرأة، المقدّس/المدنّس، القويّ/الضعيف، الفصحى/الفرنسيّة... ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ إذ أمرت الناجيات من وحشيّة المُستعمر والإسلاميين بالتزام الصمت.

ويتمثّل الوجه الثالث في مقاومة الأعراف والتقاليد والقيّم المعيارية التي تفرض لجّج النساء عن الكلام تارة باسم العار والخجل و«الحشومة»... وطوراً باسم الطاعة ووجوب الإذعان لما تقرّره القبيلة/العائلة/المُجتمع/النظام/الأحزاب... فاللّواتي خرجنَ إلى العلن

(35) المرجع السابق.

وتمكّن من كشف المستور وتحدّث عن موقف الأهل من النضال النسائي اضطُربَ إلى دفع الثمن⁽³⁶⁾. فقد نبذت عدّة أسر بناتها اللواتي ناضلن ضدّ الاستعمار أو تصدّين للأصوليّة الإسلاميّة، بسبب الاختلاط أو تعرّضهنّ إلى الاغتصاب⁽³⁷⁾. ومن الأبناء من تبرّأ من أمّ «عرته» أمام الجميع وفضحته، فلم تعد في نظره، مقدّسة بل جسداً لوثه الآخر فجعله مدنّساً، ومن الأبناء من فضّل المنفى على البقاء بجوار أمّ كشفت المستور ولم تبال بـ«سمعة» الرجال ومواقعهم. وبدل الاحتفاء بمن شارك في ملحمة الكفاح الوطني والشعور بالفخر والاعتزاز بنضال الأمّهات قضت الجماعة بإنزال عقوبة القتل الاجتماعي والرمزي على عدد من النساء لأنّهنّ «فرطن» في الشرف والتقاليد والأعراف.

وانطلاقاً من هذه التصورات الاجتماعيّة تحوّلت الضحية إلى مُدانة ومسؤولة عن إلحاق العار بأهلها وذويها، ولعلّ أصعب ما في الأمر مواجهة نظرة الآخر إذ تبقى في نظره «المرأة المُغتصبة». ولا شكّ عندنا أنّ تحويل أجساد النساء إلى ساحة صراع حول الشرف والعرض والعفة والطهر، واستهداف أجساد الفتيات والمراهقات ووضعها تحت المراقبة والاستغلال المبكّر عبر افتراسها عنوة أو بعقد صوريّ وافتوى «زواج المتعة» و«زواج المسيار» يضع الجندر/النوع الاجتماعيّ في قلب رحي الحروب والصراعات. فمن أجل إذلال الرجال، والنيل من العدو تُختطف الطفلات والنساء ويُغتصبن وينكّل بهنّ، وبسبب الخوف من الأب أو الأخ أو الابن أو النظام البطيركيّ تُصادر إرادة النساء وحقّهنّ في الاختيار: الكتم أو الإفصاح، والتجاهل أو أداء واجب الذاكرة والمُطالب بالعدالة الجندريّة. وهكذا نبيّن دور التراتبيّة الهرميّة والنظام الجندريّ والعلاقات المبنية على التسلّط في جعل أرواح النساء ومصالجهنّ أقلّ قيمة ووزناً من أرواح الرجال وامتيازاتهم.

(36) تجدر الإشارة إلى أنّ أوّل من كشف النقاب عن حوادث الاغتصاب التي اقترفها الجنود زمن الاستعمار لوزيات Louise Ighilahriz التي نشرت شهادتها في صحيفة *Le Monde* بتاريخ 20/6/2000، وكانت النتيجة مُعانة البنت من حالة توتّر عصبيّ، وقطيعة مع الابن الذي لم يُسامح والدته على ما أقدمت عليه. أمّا المجاهدات القدامى فقد لُمّنها على هُكّ السرّ. وعلى الرّغم من كلّ ما حدث لم تندم لوزيات على الإفصاح والحكي فقد كان العبء ثقيلاً جداً. يُمكن الرجوع إلى:

<https://enseignants.lumni.fr/fiche-media/00000001886/temoignages-de-victimes-de-la-torture-pendant-la-guerre-d-algerie.html> (23 novembre 2000 accessed 20-7-2021).

(37) الداودي، مرجع مذكور.

ومهما يُكُن الأمر بشأن تعامل الأهل والمُجتمع والنظام مع الناجيات اللواتي اتَّخذن قرار البوح والإخبار عن الاعتداءات الوحشية التي استهدفت النساء والطفلات والمُراهقات، فإننا نُقدِّر أنَّ ما يجمع بين الضحايا أكثر ممَّا يفرِّقهنَّ؛ إذ تلتقي أغلب الناجيات من بطش المُستعمر مع الناجيات من الحرب الأهلية الدامية في الشعور بخيبة الألم، والإحساس بالقهر واليأس. وتشارك الناجيات في إحساسهنَّ بأنَّ المُعاناة مستمرة حتَّى بعد البوح. فكلَّمَا استرجعتِ الواحدة الأحداث اتَّسعت مساحةُ الألم وكَبُر الوجع. ولعلَّ الحكي يكون أشدَّ صعوبة عندما يكون المُعتدي هو ابن الوطن بل هو من جماعة تزعم أنَّها تتبَّع ما جاء في القرآن وسيرة الرسول من آياتٍ تحثُّ على التمسك بالقيم الإنسانية وتكريم النساء. ويزداد الأمر تعقيداً عندما تكتشف الناجيات أنَّ التصميم قراؤً يصدر عن الأهل وكذا عن ممثلي السلطة السياسية الذين رأوا أنَّ كشف الناجيات عن الذي حدث هو شكلٌ من أشكال التمرد، وهو أيضاً مساسٌ بهيبة السلطة الأبوية السياسية التي تتماهى مع فكرة تقديس الأب وتمجيد الحاكم. ويزداد القهر عندما تُدرك الناجيات أنَّ ملفَّ ضحايا العشرية السوداء أو الحمراء لا يزال يُستعمل أداةً سياسية في إدارة الصراع حول المصالح.

وسواء تعلَّق الأمر بالناجيات من عنف المُستعمر أو من عنف «ذوي القربى»، فإنَّ ما يجمع بين الضحايا هو الوعي بالشرح الذي حدث في مستوى مرآة الهوية *le miroir identitaire* وبفقدان التوازن، بحيث تصعب إدارة المشاعر والتحكُّم فيها، فضلاً عن الإحساس بتدنِّي القيمة والشعور بالقهر والغبن وكره الذات والآخر⁽³⁸⁾. ولا شك أنَّ الصدمة تمزق الشبكة الرمزية والنسيج اللغوي القادر على ضبط الأهواء (الغضب، القلق،

(38) من المفيد الاطلاع على:

BOUDARÈNE, M «*Violence terroriste en Algérie et traumatisme psychique*», Stress et trauma, 1, 2. 2001.

BOUDARÈNE, M. «*Terrorisme en Algérie. Quel devenir pour les liens filial et social?*», Stress et trauma, 2, 4. 2002.

Therese, Brosse, *L'enfance victime de la guerre* Paris, Unesco. 1950).

Yve, Deloye and Claudine Haroche, *Sentiment d'humiliation* (Paris: In Press. 2006).

Leïla Sebbar, *Une enfance dans la guerre. Algérie 1954-1962* (Bleu autour, 2016).

يتضمَّن هذا المؤلَّف الجماعيَّ شهادات مَنْ كانوا زمن الحرب أطفالاً وروايتهم الخاصة للأحداث:

Ali Chibani, «La guerre d'Algérie vécue par les enfants,» la plume francophone, accessed 1-7-2021

eïla Sebbar, «Une enfance dans la guerre. Algérie 1954-1962» | La Plume Francophone (la-plume-francophone.com).

التشّنج، الخوف...) وتحوّل الذات إلى ضحيّة متوقعة على عالمها الداخلي، وهاربة من المواجهة وميالة إلى مُمارسة التدمير الذاتي، وفاقدة لميكانزمات الدفاع. وهنا تلوح فوضى الحواس، ويبرز العجز عن إضفاء معنى للوجود، وتبدو المُعاناة ظاهرةً للعيان.

إنّ نتائج الحرب لا تقف عند هذا الحدّ، إذ يتضاعف الشعور بالذلّ ويُهيمن كره الذات وكره الجسد على الناجية كلّما خرج الحميمي إلى العلن أو صارت المغتصبة أمّاً تحمل دليل إدانتها. فإذا بالولد يؤدّي وظيفة الشاهد والدليل الذي يذكّر الناجية بالسّر المحفوظ الذي حاولت كتمه فتنشط الذاكرة. وهنا تتولّد عن المأساة الأولى مأساة ثانية فيغدو الولد/البت وريث الصدمة والمحنة ويصير الضحية رقم 2 بعد أن لفظ المُجتمع أبناء المُغتصبات ووصّمهم إلى الأبد وعمل على تأثيمهم وتحميلهم المسؤولية وحولهم إلى «كباش فداء»⁽³⁹⁾. وهنا تُوجّه أصابع الاتهام إلى المتواطئين مع النظام البطريكي: أولئك الذين أدركوا أنّ لا ذنب للأمّهات والوليدات والصبيان ومع ذلك حكموا على الجميع بالنبذ.

وإذا علمنا أنّ المُهيمن عليه قد يميل أحياناً إلى لعب دور الجلّاد، فهنا لم تنقلب الناجية التي عانت كلّ أشكال العنف المُمارَس عليها، إلى جَلّاد، فتصبح بدورها مُمارِسةً لخطاب تأثيم الابن أو البنت. وبناءً على هذه الحالات المُعانيّة تلحّ الجمعيات النسوية على ضرورة توفير العلاج النفسي لضحايا الحروب.

خاتمة

يقودنا الاطلاع على شهادات الناجيات إلى الإقرار بالفرصة التي مُنحت لمن تمكّنت من الفرار والنجاة حتّى تقدّم شهاداتها وتترك أثراً يدلّ على وجودها وحياتها وتاريخها وهويّتها. فلولا البقاء على قيد الحياة لما تسوّى للناجيات الاشتغال على الذاكرة الفرديّة والذاكرة الجماعية وإثبات مدى قدرتهنّ على المواجهة والمقاومة، وتصميمهنّ على الإدلاء بهذه الشهادات التي تصدر عن الأنا التي خبرت ويلات الحرب وعاشت الصدمة وقاومت النسيان والقمع والتصميم وقرّرت النطق على الرّغم من التهديد والابتزاز

(39) Salah-Eddine Abbassi, Bernard Gaillard Èrès, «Les enfants nés dans les maquis terroristes en Algérie», *Enfances & Psy*, N° 57 (April 2012): 137-144. <https://www.cairn.info/revue-enfances-et-psy-2012-4-page-137.htm>.

العاطفيّ. وليس توفير الشهادات إلّا محاولة للمشاركة في كتابة التاريخ وإنتاج سرديّة نفترض أنّها تتجاوز مع سرديّة رسميّة وسرديات بناها المؤرّخون والدارسون الجزائريّون والعرب والغربيّون.

ولولا الوعي الثاقب والشعور بالمسؤوليّة والاقتناع بواجب الذاكرة لما اتّخذت مجموعة من الناجيات قرار البوح في سياق سياسيّ واجتماعيّ وأيديولوجيّ لم يشجّعهنّ على الكشف عن الحقيقة، ولولا التضامن النسويّ والدعم الذي وفّره بعض الجمعيات لما كان بإمكان الناجيات تمرير الذاكرة الجريحة إلى الأجيال الجديدة، وإنتاج سرديّتهنّ والكشف عن الصدمات والهشاشة والآلام.

ولكن يجوز لنا في هذا المستوى، أن نتساءل هل إنّ الفئة التي تجاوزت مرحلة الترهيب والهلع والإحساس بالذلّ والإهانة والضعف استطاعت أن تنعم بالسكينة النفسيّة؟ وهل يُعدّ تحرير الكلمة حجة على «التمكين» وإمارة على القدرة على الفعل في الواقع وفاء لأرواح الضحايا وإصراراً على تغيير واقع الجزائريّات وتوعيتهنّ بضرورة استكمال النضال؟ ثمّ هل أنجزت الناجيات بالفعل، طقس الحداد عندما كسرن حاجز الخوف وحرّرن الكلمة؟ وهل مكّنهنّ الحكي والتفاعل مع الآخرين من استعادة التوازن النفسيّ، وترميم الذات ولملمة الجروح وطيّ صفحة قاتمة من مسارهّن؟ وهل أمكن للأُمّهات مساعدة أبنائهنّ على التعامل مع الصدمة باقتدار: صدمة ما حدث للأُمّ وصدمة الابن/ة عندما يكتشف أنّه ابن العدو/ابن الأجنبيّ/المُستعمر/ابن المغتصب، ابن الشرّ؟

يجمع المحلّلون النفسانيّون على أنّ البوح هو أوّل خطوة للخروج من حالة الصمت أو الإنكار أو الشعور بالذنب. فالكلام هو علامة على استعداد الناجية على خوض مسار جديد في حياتها تحاول فيه التدرّب على ممارسة الحكي أو التسريد للتعبير عن الآلام والعذاب وهو في الوقت ذاته، حجة على رغبة الضحيّة في تجاوز مرحلة الشعور بالخجل والاستيحاء من قول الحقيقة إلى مرحلة إدراك الواقع من منظور مختلف. ولعلّ البوح هو شكل من أشكال منّح الأخريات فرصة الحضور فتغدو من سكّنت عن الكلام خوفاً أو جبناً، ومن اغتيلت «غائبة/حاضرة» بالقوّة، ويصبح من أزهق أرواح الطفلات والمُراهقات وأمرّ بالتمثيل بأجسادهنّ مُدناً من الجميع. وإذا لم يكن بمقدور من قُتل برصاص العدو أو تحت التعذيب التعبير عن الغضب والألم والصراخ... أو الكتابة، فإنّ من واجب

مَنْ وُلِدَتْ مِنْ جَدِيدٍ أَنْ تَوَاصَلَ النِّضَالُ مِنْ أَجْلِ اخْتِرَاقِ ثِقَافَةِ الصَّمْتِ وَكُشْفِ الْحَقِيقَةِ وَتَحْقِيقِ الْعَدَالَةِ. إِنَّهُ دَيِّنَ فِي الرِّقَابِ لَا بَدَّ أَنْ يُوَدَّى حَتَّى تُصْبِحَ الْجِزَائِرِيَّاتُ مَوَاطِنَاتٍ لَا تَابِعَاتٍ. بَيِّدَ أَنَّ هَذِهِ الْأَمَانَةَ تَحَمَّلَتْهَا، فِي الْأَغْلَبِ، الْحَضَرِيَّاتُ وَالْمَتَعَلَّمَاتُ فِي مَقَابِلِ صَمْتٍ مَنْ خَبِرْنَ الْعَنْفَ وَالتَّصْمِيمَ وَالتَّرْهيبَ فِي أَوْسَاطِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَغَايِرَةٍ.

وَلَا شَكَّ عِنْدَنَا أَنَّ أَغْلَبَ النَّاجِيَاتِ يَعْتَبِرْنَ أَنْفُسَهُنَّ مَيِّتَاتٍ اجْتِمَاعِيًّا وَرَمَازِيًّا وَمَوْوُودَاتٍ، وَلَكِنْ نَرَى أَنَّ امْتِلَاكَ حَقِّ الْبُوحِ يَحَوِّلُهُنَّ مِنْ حَالَةِ اللَّافْعَلِ وَالسَّلْبِيَّةِ إِلَى حَالَةِ الْفَعْلِ الْإِيجَابِيِّ لَعَلَّهُنَّ يُسَاعِدُنَ الْأَخْرِيَّاتِ عَلَى التَّحَرُّرِ مِنْ تَرَكَةِ الْمَاضِي وَاسْتِعَادَةِ إِنْسَانِيَّتِهِنَّ الْمَهْدُورَةِ. أَلَيْسَ الْفَعْلُ حُجَّةً عَلَى الْوُجُودِ: فَإِنْ أَتَكَلَّمُ وَأَكْتُبُ وَأَفْعَلُ إِذَا أَنَا مَوْجُودَةٌ. وَبِالْكَلِمَةِ يَتَعَالَى الْمَرْءُ عَلَى مَنْزِلَتِهِ الْمَادِيَّةِ، وَعَلَى النَّفْسِ الْأُمَّارَةِ بِالسُّوءِ وَالْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالتَّوَحُّشِ فَيَتَأَنَسَّنْ.

القاصرات في أتون الحروب: فوضى المعاني في المُعَالَجَة الإعلامية

I - مقدّمة

في ظلّ ما شهدته المنطقة العربيّة في العقود الأخيرة من نزاعات وحروب، نجم عنها تدميرٌ للبُنى التحتيّة والهياكل المؤسّسيّة، وقتل وأسْر وخطف وتهجير، نلحِظ أنّ الأمن انعدم على المستويات الغذائيّة والصحيّة والنفسيّة والاقتصاديّة، واستتبع ذلك فوضى في المعاني فضلاً عن اهتزاز في القيم والمعايير الأخلاقيّة والاجتماعيّة والإنسانيّة. فانقلبت الأدوار في كثيرٍ من الأحيان، وانكفأت القوانين، وعجزت الموائيق والمعاهدات الدوليّة النازمة للحياة الإنسانيّة عن القيام بدورها. وكان أنّ طال انعدام الأمن والأمان بالدرجة الأولى الفئات المحتاجة للرعاية كالمسنّين، وذوي الحاجات الخاصّة، والأطفال، كما سبّب اضطراباً في الأداء الإعلامي بشكلٍ عامّ. وفي ضوء السياقات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والإعلاميّة والثقافيّة المعقّدة والمُتداخلة، وكباحثة في الشأن الإعلامي المرتبط بأوضاع القاصرات تحت وطأة النزاعات المسلّحة، ألحّ عليّ سؤال المعنى الذي أضفّته المعالجة الإعلامية على قضيّة كهذه. وسرعان ما وجدتُ نفسي أمام تساؤلات محيرة تخصّ مُقاربتني للموضوع.

نهْوند القادري عيسى

للهولة الأولى، ظننتُ أنَّ مقارنة الموضوع من منظوريَّ الجندر والتأثير الإعلامي يكفيان للإجابة عن أسئلة البحث. غير أنني بعد استطلاع تمهيدِيٍّ لعيِّنة من الأعمال الصحافيَّة الإلكترونية، عبر محرِّك البحث غوغل، بعنوان «الطفلات/الأطفال، القاصرات في الحروب»، تبَّين لي ضرورة إجراء تحليل سياقي يربط ظروف العمل الإعلامي بظروف عيش القاصرات في الحروب، بغرض تجنُّب النمطيَّة في الحكم على الظواهر المدروسة، والابتعاد عن الأحكام المعيارية، بخصوص الأخلاقيَّات التي ترمي العمل الإعلامي من ناحية، وتعامل أولياء الأمور مع القاصرات من ناحية ثانية، بعيداً عن الاستقطاب الثنائي، وعن القفز فوق السياقات المحيطة.

وبما أنَّه يصعب فصل الإعلام عن الصراعات السياسيَّة وتضارب المصالح الماديَّة والاقتصاديَّة، وبما أنَّ للتغطيات الإعلاميَّة معاييرها وظروفها وسياقاتها العائدة لطبيعة الوسيلة وتوجُّهاتها، وغائيَّتها المرتبطة بالجمهور المُستهدف، وبالمصادر المُعتمدة، وبما أنَّ التمييز الجندريَّ يتعلَّق مع متغيِّرات عديدة تجعل الأوضاع الصعبة مرشحة لأن تُطَيَّح به وتفقد معناه، فإنَّه من الأهميَّة بمكان البحث في مقاربات التغطيات الإعلاميَّة لأوضاع القاصرات خلال الحروب والنزاعات المسلَّحة من منطلق معرفة علام ركزت هذه التغطيات؟ وإلى أيِّ مدى وظُفَت المادَّة الإعلاميَّة مُعانة الأطفال في الدَّعاية السياسيَّة؟ وكيف عملت على تحويل الطفلات ضحايا الحروب إلى رموزٍ إعلاميَّة؟ هل أخذت المادَّة الإعلاميَّة بعين الاعتبار صحَّة القاصرات النفسيَّة في معرض معالجتها للموضوع؟ هل تفهَّمت الظروف الصعبة التي يمرُّ بها الأهل؟ ما هي العوامل المُحدَّدة لوجهة التغطيات هذه؟ ولكي تتلمَّس جوهر المُعالَجة الإعلاميَّة ونتمكَّن من الإجابة عن هذه الأسئلة، لا بدَّ من التطرُّق إلى الأمرين التاليين: سياق عمل الإعلام، وسياق عيش القاصرات، قبل أن نقوم بتحليل المُعالَجة الإعلاميَّة لموضوع القاصرات.

1 - سياق عمل الإعلام

تتَّسم العلاقة بين الإعلام والسياسة بالغموض والتعقيد، بفعل تأثُّر الأنظمة الإعلاميَّة بالأنظمة السياسيَّة والقانونيَّة والاقتصاديَّة وبالثقافة المُجتمعيَّة والمرجعيَّات الأيديولوجيَّة السائدة. وبهذا غدت الأخلاقيَّات المأخوذة كرهينة من السياسة تُشكِّل حاجباً يعكس

ويخفي في آنٍ معاً عجزَ الدول وتخلّيتها عن معالجة القضايا الإنسانية⁽¹⁾. هذا عدا عن ضغوط النسق التجاري: الخضوع لمنطق البحث عن أكبر عدد مُمكن من المتلقّين، وإعطاء الأولوية للشكل ولأساليب الجذب. ما يعني خضوع الإعلام، على مستويات الانتقاء، المعالجة، التقديم، للمصالح على أنواعها من المالك إلى المُعلن.

كذلك أسهمت التطوّرات التكنولوجيّة والاتّصاليّة المتلاحقة في خلخلة الأسس المهنيّة وممارساتها الأخلاقيّة. فغدّت العلاقة مع المصادر أكثر التّباساً، وضاعت الحدودُ بين المُعلّم والمستعلّم، بين المرسل والمتلقّي. وأصبحت معالم التراتبيّة في المؤسّسات الإعلاميّة غائمة. فاختيار تراتبيّة الموضوعات، والانتقاء، والإلحاح على بعض الوقائع، والوقت المعطى لبعض المسائل، وإخفاء بعض المعلومات، والتشابه في طرح الموضوعات مهما تكن الوسيلة، شكّلت موضوعاتٍ للنقاش والاعتراض على عمل الصحفيّين⁽²⁾.

وهكذا تعرّضت المهنة الإعلاميّة لأزمةٍ ثقّةٍ ومصدقيّة، تمظهرت في ضياع نقاط الارتكاز لدى العاملين فيها، وتزعزُع الصورة التي لديهم عن مهنتهم، وبالتالي عن أخلاقيّات ممارستها. وبفعل تداخل الحدود والعوامل، اضطرب دور الإعلام واختلطت حدود الكلام الإقناعيّ بالتضليليّ، والمُحادثة بالإعلام بالبُوح بالمشاعر، وتفكّكت أخلاقيّات الكلام نتيجة إيجاد أنماط تنظيم له غير مسؤولة على المستوى الأخلاقيّ، خارجاً عن الأطر الأكاديميّة.

وقد شكّلت وسائل الاتّصال الجديدة ركيزة لهذا النوع من التضليل؛ فراجت أحياناً معلومات غير موثوقة عبر الشبكة مباشرة من دون توسّط ومن دون تحقّق، على الرّغم من وجود فلاتر من كلّ الأنواع ووسطاء مُتّبهيّين. وحصلت عمليات إعادة تأطير عبر العمل على مستوى معاني الكلمات، المفخّخة والغامضة والمُحمّلة بالوعود الخاطئة. على سبيل المثال، استخدام تعابير التنصّل من المسؤوليّة، وتطبيع الواقع، كأن تُستبدل كلمة الحرب بالمأساة أو بالأزمة⁽³⁾. فالادّعاء بأنّ معادلات «الألغوريتم» تُسهّل علينا فهم العالم،

(1) Rony Brauman, René Backman, *Les médias et l'humanaire* (Paris: éditions CFPJ, 1996).

(2) Jean Marie Charon, *Les journalistes et leur public: le grand malentendu* (Paris: Vuibert, 2007).

(3) Philippe Breton, *L'incompétence démocratique: la crise de la parole aux sources du malaise (dans la) politique* (Paris: la Découverte, 2006). Philippe, Breton, *La parole manipulée* (Paris: la Découverte, 2000).

يجعلنا مُنشغلين فقط بالـ«كيف» ويُخفي عنا سؤال الـ«لماذا»، وهذا ما يُؤسّس للانشغال بالنتائج وتجاهل الأسباب. ما يعني أنّ الجواب عن أيّ مشكلة، بمعزل عن الالتفات إلى جذورها، يكون تقنياً بالكامل، بما يسهّل الاتصال ويُدرّ الأموال. أي أنّ هذا النوع من الإجابة يستبعد سؤال الـ«لماذا» الذي يُدخلنا في واقع معقّد ويُحيلنا إلى الأسباب المكلفة معالجتها، وخصوصاً أنّ الرقم غالباً ما يُراوغ النقاش، ويُبعد سؤال المعنى، ويُصبح قانوناً، يفرض علينا معايير⁽⁴⁾.

ولأنّ حقل الإعلام لم يتّسع بموازاة اتّساع التقنيّات، كان من الملاحظ تسبّد التوافقية، لكون الجميع يعالج بالطريقة نفسها وبالمدة الزمنية عينها. وعلى الرّغم من جعل كلّ شيء شعبياً بعدما أصبح الكلّ يتكلّم بشكلٍ طبيعيّ وتقريباً في كلّ شيء، إلّا أنّه ليس بإمكان الفضاء الإعلاميّ أن يختصر المُجتمع وتناقضاته بالبرّوق والرّوى عبر الشبكات التي تجتاز اليوم كلّ الأوساط الاجتماعيّة. نتج عن ذلك عدم تقييم الثقافة، إذ غدا تعقيد الكفاءات أمراً منفراً، يبعث على الملل، وأصبح المطلوب تعبيرات، شهادات، مشاعر لا أشياء معقّدة⁽⁵⁾. ولهذا السبب أُحيلت آلام ومآسي الحياة الاجتماعيّة إمّا إلى أسباب نفسيّة، وإمّا إلى أسباب ثقافيّة. وتكمن إحدى طاقات هذه المُقاربات في اعتمادها آلية الشعور بالذنب. فعوضاً عن صورة الخاضع المضطّهد حلّت صورة العاجز، غير المتكيّف، المُنشأ بطريقة سيّئة⁽⁶⁾.

إنّ الادّعاء بانتفاء الأيديولوجيا على المستوى السياسيّ أثر في عمل الصحفيين الخاضعين منهجياً إلى مبدأ الحياد في مقالاتهم وريبورتاجاتهم، وإلى مبدأ عدم الانحياز المُرتكز على الوقائع والخبرات. وبهذا غدت الأخبار موجّهة من الشهرة السياسيّة اللحظيّة، والأحداث السياسيّة اليوميّة المتفرّقة، والقريب، والمُلح، وطلب «السكوب» السياسي بين الميديا المتنافسة. أمّا أسئلة: كيف ولماذا؟ فإنّها تبقى غالباً من دون أجوبة، أي من دون التساؤل عن السياق وسير الحدث والنتيجة والأسباب⁽⁷⁾.

(4) Marc, Dugain, & Christophe Labbé, *L'homme nu-La dictature invisible du numérique* (Paris: Plon, 2006).

(5) Philippe, Breton, *L'incompétence démocratique: la crise de la parole aux sources du malaise* (dans la politique) (Paris: la Découverte, 2006).

(6) Eric, Neveu, *Une société de communication?* (Paris: Seme eddition, Montchretien, 2011).

(7) Isabelle, Gusse, «Journalisme, militantisme, impartialite et idéologie», In *Mutations de l'univers médiatique: médias traditionnels et nouveaux*, Normand Baillargeon (Mont-Royal: Méditeur, 2014), 106-104.

من جانب آخر، يعيش صحفيّ اليوم مأزق الزمن الإعلاميّ المسلوب بقوة من التكنولوجيات الجديدة للاتصال، والذي ينتهي بأن ينفي كلّ الأزمنة بما فيها الحاضر نفسه، إنّنا في عصر يعرض حاضراً أبدياً معلّقاً كجواب. هذه الحاضريّة، هذا الانغلاق في المباشر للعالم ينتهي بأن ينكر تسلسل الزمن نفسه. وبهذا تبدو الميديا معلّقة بين عدمين: المستقبل المُقلق غير المُفكر فيه والماضي المُحتقر غير المُعترف فيه⁽⁸⁾.

2 - سياق عيش القاصرات⁽⁹⁾ في ظلّ الحروب

لعلّ سياق اللجوء من أبرز السياقات المؤثرة في حياة القاصرات، لأنّ ذلك يعني الانسلاخ القسريّ الكفيل بتقويض دعائم الاستقرار المكاني والعاطفي والاجتماعي. وهذا ما يُؤلّد مفارقات يصعب على الرائي من بعيد حلّ ألغازها، وخصوصاً إذا ما انطلق من معايير ومثُل وأدبيّات وُضعت على البارد وبارتياح، وسُنّت في ضوئها موثائق وتعهّدات دولية. صحيح أنّه كلّما اشتدّت وطأة الحروب أصبح الأهمّ للأهل تأمين عيش أطفالهم وأمانهم، لكون الطفل يبدو في سياق خطر كهذا وكأنّه المحفّز على المقاومة والاستمرار، غير أنّ المفارقة تكمن في أنّ الزواج والإنجاب يزدادان في أثناء الحروب، على عكس المتوقع، أي يتمّ اللجوء إلى أواليّة الإنجاب من أجل حماية الذات والآخر. وإزاء خطر الموت، يرتدّ البشر إلى الوظيفة البيولوجيّة الأصليّة ويضعونها في صلب أولويّاتهم⁽¹⁰⁾.

وثمة مفاعيل عديدة لانعدام الأمان الاقتصاديّ تتمثّل بحرمان الأهل الذاتي لمصلحة تأمين الكفاف للأولاد، وأحياناً لدفع الأولاد للعمل بأثمانٍ بخسة، أو تزويج البنات

(8) Normand Baillargeon, Mutations de l'univers médiatique: médias traditionnels et nouveaux. (Mont-Royal: M éditeur, 2014).

(9) تحدّد المادة 1 من اتفاقية حقوق الطفل (CRC)، الطفل على أنّه «كلّ إنسان لم يتجاوز 18 عاماً ما لم يبلغ سنّ الرشد قبل ذلك بموجب القانون المنطبق عليه في بلده، وتشجّع الهيئة المُراقبة للاتفاقية الدول على إعادة النظر في سنّ الرشد إذا تمّ تعيينه أقلّ من 18، وإلى زيادة مستوى الحماية لجميع الأطفال دون سنّ 18. ويُعتبر القاصرين غير قادرين على تقييم وفهم عواقب خياراتهم أو إعطاء الموافقة المستنيرة، وبخاصّة في ما يتعلق بالأفعال الجنسيّة. (المبادئ التوجيهيّة لدمج التدخّلات في العنف القائم على النّوع الاجتماعيّ في العمل الإنسانيّ: الحدّ من المخاطر وتعزيز الصمود، والمساعدة في الشفاء، IASC، 2015)، مُتاح على:

www.humanitarianresponse.info.Files.gbv glossary

(10) فاديا حطيط، ونهوند القادري، اللاجئات السوريات في لبنان - تحديات الأمومة، مُتاح على:

www.academia.edu.

القاصرات⁽¹¹⁾ وغيرها من الآليات. هذا عدا عن صعوبة حيازة الأوراق القانونية والإجراءات المُتَّخذة من البلد المضيف بهدف التقليل من أعداد اللاجئين المُتدققين إليه، وما نجم عن ذلك من توترات وحساسيات بينهم وبين المواطنين اللبنانيين⁽¹²⁾. فضلاً عن الأوضاع السكنية الشديدة الصعوبة، والعيش في مخيمات أو في غرفٍ مكتظة تفتقد لأدنى شروط السكن الصحي والعيش الكريم. ويُشكل غياب المُعيل للأسرة، صعوبة كبرى ومعقدة، يترتب عنها أدوار نسائية جديدة لم يعتدنها. وتورد المفكرة القانونية⁽¹³⁾ أرقام التقييم الذي أنجزته مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بعنوان «تقييم الهشاشة لدى اللاجئين السوريين في لبنان 2017» ومفادها أن هناك 22% من الفتيات اللاجئات تزوجن بين عمر 15 إلى 19 عاماً، وأن 18% من بينهنّ اقترنّ بشركاء يكبرونهنّ بعشر سنوات أو أكثر.

على الرغم من اعتبار الزواج والإنجاب المبكر تجربة مدّرة على الصعيد الشخصي في ظلّ انعدام الخيارات، إلا أنّ ثمة كتابات تُشير إلى أنّ بعض الشابات تغلبن على هذه المِحن وتعاملن بشكل جيّد مع مشكلتهنّ، ما أظهر مساراً حيويّاً للتكيف resilience. ويتبين أنّ ثمة عمليات وقائية تقوم بها الأمّهات الصغيرات: تأسيس هويّة لهنّ كأُمّهات، وخلق رابط مع الطفل وذلك كنقطة تحوّل في حياتهنّ، واتخاذ موقف من وضعهنّ كضحايا ومن العنف الذي يتعرّضن له، والتصرّف على نحو استباقي والتكيف مع الأمومة⁽¹⁴⁾.

(11) الزواج القسري: تزويج شخص ضدّ إرادته/ها. زواج الطفل أو «الزواج المبكر» هو الزواج الرسمي أو غير الرسمي قبل سنّ 18. وعلى الرغم من أنّ بعض الدول تسمح بالزواج قبل سنّ 18، إلا أنّ المعايير الدولية لحقوق الإنسان تُصنّف ذلك كزواج أطفال أو زواج مبكر، وذلك لأنّه لا يُمكن لمن تقلّ أعمارهم عن 18 عاماً إعطاء الموافقة الواعية اللازمة. ولذلك يُعتبر زواج الأطفال أو الزواج المبكر شكلاً من أشكال الزواج القسري لأنّ الأطفال ليسوا مؤهلين من الناحية القانونية للموافقة على مثل هذا النوع من الارتباط. مُتاح على:

www.humanitarianresponse.info.files.gbv.glossary

(12) كارول الشرباتي وجهاد نمّور. «دراسة عن مدى إحساس اللاجئين السوريين بالأمان في لبنان. بيروت»، جامعة القديس يوسف، معهد العلوم السياسية. استرجع في 4 تشرين الثاني/نوفمبر 2019، مُتاح على:

<https://isp.usj.edu.lb/pdf/Presentation%20Ar.pdf>

(13) سعدى علوه، «استغلال طفلات مُراهقات في الإمتاع والعمل القسري: قصص تدور في خيّم «العرايسية» بصمت»، مجلة المفكرة القانونية، عدد 56 (تمّوز/يوليو 2018).

(14) Sylvie Lévesque and Claire Chamberland, *Maternité précoce, violence et résilience: Des jeunes mères témoignent* (Québec: Presses de l'Université du Québec, 2015).

يبقى أن نشير إلى أنّ القاصرات، من المنظور النسقي، هنّ المكوّن الأصغر من مكوّنات أخرى تُغلّفها. فأوضاعهنّ مُرتبطة بأوضاع النساء، المُرتبطة بدورها بأوضاع الأسرة، المتّصلة بالبيئة الحاضنة لها، وهذه الأخيرة مكوّن من مكوّنات النسيج الاجتماعي المرتبط بالنظام الاقتصادي والسياسي والثقافي السائد. ومن المنظور النسوي، العناية مُتبادلة وهي سلسلة من الحلقات يتداخل بعضها ببعضها الآخر، وتترابط مكوّناتها الجسدية والنفسية والمادية وتستمرّ مفاعيلها مهما عملت البنى الرأسمالية الذكورية على الحطّ من شأنها، وتلزيّمها للمرأة. ما يعني أنّه ليس هناك من خطيّة في العلاقة بين هذه الطبقات ولا من ثبات في السلوك، ولا في المفاهيم. وكلّ هذه الحلقات المترابطة تتبدّل بتبدّل السياقات المُحيطة. من هذا المنطلق، ومن المنظور البنائي للقضايا الاجتماعية، تُطرح على العمل الإعلامي الإشكالية الكبرى: هل يتمثّل دوره في ترداد ما تأتي به التقارير والدراسات، هل من المُفترض به أن يقوم بدور الناشط أم بدور المُحفّز على النقاش؟ وماذا عن الحلقة المفقودة المتمثّلة في أشكَل القضايا المطروحة، هل اختلاط الأدوار هو الذي يُؤدّي إلى فوضى المعاني؟

II - المُعالَجة الإعلامية لموضوع القاصرات في الحروب

من أجل كشف أليات المُعالَجة الإعلامية لموضوع القاصرات في الحروب، قمنا باختيار عيّنة من النصوص الإعلامية، التي تمّ تجميعها خلال شهري نيسان/إبريل وأيار/مايو 2021، بموضوعاتها على الشكل الآتي: 12 تقريراً ودراسة حول اللاجئ، ولاسيّما الأطفال، 38 عملاً صحافياً تُطاول أوضاع الأطفال ومُعاناتهم بشكل عامّ، 38 عملاً تُطاول الطفلات والقاصرات؛ 33 منها تُطاول تزويج القاصرات في كلٍّ من سوريا واليمن، و5 منها تُطاول موضوعات التربية وقصص المُراهقة والأحلام والتحرّش، و12 موضوعاً تُطاول التغطية الإعلامية للاجئين، ولاسيّما الأطفال. توزّعت هذه الموضوعات في الصحف والمواقع الإلكترونية جغرافياً على الشكل الآتي: 10 صحف ومواقع لبنانية، 27 صحيفة ومواقع عربيّة، 11 صحيفة ومواقع أجنبيّة ناطقة بالّلغة العربيّة، 14 موقعاً لمنظّمات غير حكوميّة عربيّة، 7 مواقع لمنظّمات دوليّة، و5 مواقع لمراكز دراسات. سوف نرى نماذج منها في الإحالات الواردة في هوامش البحث.

وقبل الخوض في المُعالَجة الإعلامية للعيّنة التي بين أيدينا، لا بدّ من الإشارة إلى أبرز ما توصّلت إليه بعض التقارير التي تناولت التغطية الإعلامية للاجئين، والتي خلصت

إلى: تركيز التغطية على العوامل الجوية والظروف المناخية - الأوضاع الصحية والمعيشية والتعليمية - الزيارات التفقدية لممثلي الهيئات الدولية، ولمسؤولين أجانب - مؤتمرات دعم النازحين⁽¹⁵⁾؛ اقتصار الأنماط الصحافية المستخدمة على الأخبار والتقارير وإهمال التحقيقات والمقالات؛ بث الكراهية والتحريض ضد اللاجئين ونشر خطاب التعصب، واستخدام عناوين ذات حمولة سلبية، وبث المعلومات والإحصاءات من سياقها⁽¹⁶⁾؛ اعتماد عمليات بناء خبرية مُستندة إلى الثنائيات الضدية (نحن وهم)؛ التعميم والنظر إلى اللاجئين ككتلة، وتقديم المرأة وفق صورة نمطية (تحرش، دعارة استغلال، زواج مبكر) نادراً ما تُعطي الفرصة للناس للتعبير عن قضاياها؛ تغطيات ظرفية مرتبطة بأحداث معينة تُهمل الجوانب النفسية، وأحياناً تتأثر بالمواقف السياسية⁽¹⁷⁾. وأشارت دراسات أخرى إلى استغلال الإعلام للأطفال لأغراض دعائية أو سياسية، وخصوصاً عند الحاجة إلى خلط الأوراق، حيث يتم تصويرهم وبناء البروباغندا على أشلائهم لعرضها وتحريك الرأي العام تجاهها. فضلاً عن تحويل وسائل التواصل الاجتماعي للأطفال إلى مادة دعائية بهدف حصد أكبر عدد ممكن من التعليقات والإعجابات، أو تحويلهم إلى مادة للنقاش وتبادل الاتهامات والتشكيك بحقيقة الصورة⁽¹⁸⁾.

(15) محمود طريه، «التغطية الإعلامية للنازحين السوريين في الإعلام اللبناني: نحو مقاربة مهنية وأخلاقية»، مُتاح على:

<https://www.salamwakalam.com/articles/medias/225/la-couverture-m%C3%A9dia-au-liban-de-la-quest-ion-des-r%C3%A9fugiés>

(16) منير طبي، «قضايا لاجئي الحروب في الخطاب الإعلامي الأوروبي - السياقات والضوابط»، مجلة جيل للعلوم

الإنسانية والاجتماعية، العدد 65 (2020) <https://bit.ly/3Jen9Jz>

تجميع لمقالات منها: منال المزاهرة، «التغطية الصحافية لأزمة اللاجئين السوريين في الأردن: دراسة تحليلية على الصحف اليومية: الرأي، الدستور والعرب اليوم»، دورية إعلام الشرق الأوسط، جامعة جورج ستايت، مُتاح على موقع جيل البحث العلمي <https://jilrc.com> تاريخ الدراسة 2018/6/18.

حسنة حسين، «قضية اللاجئين في الخطاب الإعلامي الأوروبي: السياقات والأهداف»، مركز الجزيرة للدراسات، 2016، مُتاح على الرابط <https://studies.aljazeera.net/ar/mediastudies/2015/12/201512239408698397.html>

هبة ياسين، «الإعلام والتواصل الاجتماعي وتنامي خطاب الكراهية والتحريض ضد اللاجئين»، مُتاح على الرابط https://accronline.com/article_detail.aspx?id=29055

(17) مؤسسة مهارات وآخرون، «التغطية الإعلامية لقضايا اللاجئين (لبنان، الأردن، مصر والمغرب)»، مؤسسة مهارات،

مُتاح على الرابط <http://www.maharatfoundation.org/publications/studies/refugee>

(18) قاسم ريا، «مُعانة الأطفال في الحرب بين الأذى الجسدي والمعنوي»، صوت ultra، مُتاح على:

<https://www.ultrasawt.com>

ولا بدّ من أن نشير في البداية إلى أنّ العيّنة تضمّنت أعمالاً صحافيّة تناولت الأطفال في الحروب بشكل عامّ، من دون تخصيص للطفلات سوى في معرض الإشارة للتزويج المبكر، وأنّ سوريا ومن ثمّ اليمن نالت الجزء الأكبر من هذه الأعمال. واللافت أنّ العناوين المثارة بطبيعتها لا تميّز بين الذكور والإناث، كهجوم القوارض على الأطفال، وتعرّضهم للحريق، والصقيع والغريق⁽¹⁹⁾. حتّى الاعتداءات الجنسيّة تطال الجنسين⁽²⁰⁾. وإن كانت ردّة فعل الأهل والمُحيط تبدو مضاعفة في حال حصلت للإناث، لكون مفاعيلها في حال برزت للعيان تمسّ السمعة. وخير دليل على ذلك، إرسال الأهل الصبيان للعمل تحت ضغط الظروف المعيشيّة، وتزويج البنات. تحمل هذه القرارات ضمناً نوعاً من المعاملة بالمثل، بما ينسجم مع قناعاتهم أنّ في تزويج الفتاة حماية لها من غائلات سوق العمل ومن الانكشاف على الحيّز العامّ، وإبقائها محتمية بالحيّز الأسريّ مهما تتخلّله أحياناً من ممارسات ظالمة وعنيفة وتمييزيّة بحقّ المرأة⁽²¹⁾. فقد وصلت نسبة تزويج القاصرات في مخيّمات لبنان إلى 40%. وفي اليمن حيث النزاع المسلّح وحيث القانون لا يضع أيّ سنٍّ أدنى للزواج، جرى تزويج أكثر من 3/2 الطفلات⁽²²⁾. ما يعني أنّ غياب المقاربة الجندريّة عن هذه الأعمال لم يكن خياراً، إنّما كان بحكم وطأة الواقع الصعب والمؤلم على الإنسان بشكل عامّ.

(19) نسرین علاء الدین، «سعدنايل أطفال مخيم 19» فريسة للقوارض!»، جريدة الأخبار، عدد (29 - 3 - 2020)، مُتاح على: <https://al-akhbar.com/Lebanon/286340>

محمد نزال، «النار التي أكلت 8 أطفال في غزّة اللّبنانيّة»، جريدة الأخبار، عدد (27 - 12 - 2017).

(20) «تعرّض الاطفال لاعتداءات جنسيّة في مخيّمات اليونان»، جريدة النهار الكويتيّة، نقلا عن صحف أجنبيّة ذي ابزورفر غارديان سكاي نيوز، مُتاح على: <http://www.annaharkw.com/annahar/article.aspx?id=678163>

(21) ورد في النصّ التوليقي الذي نشره موقع بي بي سي بمناسبة يوم الطفل العالميّ، نقلا عن صحف من اليمن مصر الأردن سوريا لبنان ما يختصر انتهاكات الطفولة في زمن الحروب (ضحايا معتقلين آثار على التعليم، آثار نفسيّة، اتّجار بالأطفال، تجنيد، لجوء، نزوح، يتم..). أيضاً في موضوع «صدمة الحرب في غزّة تأثير الحرب على الأطفال في الشرق الأوسط».

صحف عربيّة: في يوم الطفل العالميّ «لا نهدي الأطفال حلوى بل قذائف»، بي بي سي، مُتاح على: <https://www.bbc.com/arabic/inthepress-46260031> 2018-11-19

(22) ورّد في موقع دوتشيه فيليه نقلاً عن تقرير جديد لمنظمة «أنقذوا الأطفال» بخصوص الأخطار التي يتعرّض لها الأطفال: ابتداء من غياب الخدمات الصحيّة وسوء التغذية مروراً بعدم الالتحاق بالمدرسة أو الخروج المبكر منها، وانتهاءً بالعنف الشديد وعمالة الأطفال وتزويجهم. وما يترتّب عن ذلك من حمل مبكر.

إسماعيل عزّام، «الأطفال أكبر الخاسرين في الحروب والأزمات في المنطقة العربيّة!»، DW العربيّة، مُتاح على: <https://www.dw.com/ar>

1 - المُعالَجة الإعلامية بالعلاقة مع الأطراف الفاعلة

من الملاحظ أنَّ الأعمال الصحافيّة التي تضمّنتها العيّنة كانت في أغلبيّتها عبارة عن نصوص توليفيّة لأرقام ومعطيات مأخوذة من تقارير دوليّة، وعرض لحالات بعضها منقول بالتواتر عن صحف أجنبيّة، وصور مأخوذة على الأغلب من وكالات أجنبيّة⁽²³⁾. وبعضها الآخر تضمّن آراءً لناشطين وممثلي جمعيّات ومختصّين. وقد تشابهت هذه الأعمال بطريقة لافتة على مستوى تركيبها وعلى مستوى محتوى مضمونها. على سبيل المثال، تضمّن تحقيق لموقع درج (طارق عبد الجليل ومزنة الزهوري)، أنجز بدعم المركز الدولي للصحافيّين ومشروع فايسبوك للصحافة، عناوين متعدّدة، كلّ منها يحتاج إلى معالجة قائمة بذاتها، نذكر منها: عرض حالات - إيضاح لمتحدّثة باسم مفوضيّة الأمم المتّحدة لشؤون اللاّجئين بخصوص استراتيجيّات التكيّف خلال الأزمات - إشارة إلى مبادرة «فتيات لا عرائس» شراكة عالميّة لـ 1500 منظمة مُجتمع مدنيّ ملتزمة بإنهاء زواج الأطفال - أرقام حول الفقر نقلاً عن المفوضيّة لشؤون اللاّجئين ومنظمة الأغذية العالميّة واليونسيف - عرض حالات - حديث لناشطة سوريّة عاملة في أحد برامج دُعّم الفتيات اللاّجئات حول ظروف السكن المأساويّة - متحدّثة باسم اليونسيف عن صعوبات التعليم عن بُعد - تبعات الزواج المبكر - حديث مع محام واستشاريّ لعددٍ من المنظّمات حول عقود الزواج العرفي والمشكلات القانونيّة للمطلقات⁽²⁴⁾. تحقيق مشابه من العراق أنجز بدعم من مؤسّسة نيرنج للصحافة الاستقصائيّة⁽²⁵⁾.

(23) على سبيل المثال، صحيفة اللّواء تطرقت إلى عنوانين: الأوّل «أفكار صادمة لاشبال الخلافة بمخيمات اللّجوء»، نقلاً عن رويترز. والثاني «ما مصير الأطفال البريطانيّين الذين ترعرعوا تحت حكم داعش في سوريا» نقلاً عن الدايلي تلغراف والبي بي سي، عدد (9 آذار/مارس 2018 وعدد 14 نيسان/أبريل 2019)، اللّواء، مُتاح على: <http://aliwaa.com.lb>

النهار الكويتيّة تناولت موضوع «صحيّتها الأطفال... اعتداءات «جنسيّة» بمراكز لجوء يونانيّة»، نقلاً عن ذي أوبزرفر وسكاي نيوز، مرجع سبق ذكره. جريدة الجمهوريّة، «أطفال سوريا المَنسيّون»، نقلاً عن صاندي تلغراف، عدد (24 - 11 - 2013)، مُتاح على: <https://www.yemeres.com/adenalghad/78790>

(24) طارق عبد الجليل، ومزنة الزهوري، «التزويج المبكر يُحاصر اللاّجئات السوريات بلبنان»، موقع درج، (18 مارس 2021)، مُتاح على: <https://daraj.com/author/tarekmazna>

(25) علي إياد، مروّة قصي، «العراق: ثلث المتزوّجات القاصرات هرباً من الفقر»، موقع درج، مُتاح على: <https://daraj.com>

أ - العلاقة المتبادلة بين الإعلامي والناشط/بغرض تعزيز البعد المهني والترويج للناشط

لعلّ اللجوء إلى الناشطين وممثلي المنظّمات، بغرض تعزيز البعد المهني والتزوّد بحالات وشهادات حيّة يعود إلى صعوبة التحقق على أرض الواقع. فكما هو معلوم يصعب اتّصال الصحفي مباشرة باللّاجئين القاطنين في المخيمات عموماً، والفتيات القاصرات خصوصاً، بسبب تعيين شاويش لكل مجموعة، يتولّى فلترة الاتّصال باللّاجئين، يُحدّد من يدخل إلى المخيم ومن يصرّح ولمن. هذا عدا عن أنّ اللّاجئين أنفسهم نُقل عنهم أنّهم يتوجّسون من التعبير بالعلن وأمام الكاميرات، لا يحبّون تطفّل وسائل الإعلام، ولا يقدّرون «أمم» ولا مفوضيّة الأمم المتّحدة لشؤون اللّاجئين⁽²⁶⁾. إذ صرّح أحد الصحفيين الذي حاول استصراح رأي الأهالي بموضوع زواج القاصرات أنّ هؤلاء رفضوا الكلام، وأنكروا إجبارهم الفتيات على الزواج⁽²⁷⁾. وكما صرّحت إحدى اللّاجئات: تأتي الجمعيات للتحدّث معنا عن الزواج (بعضهم ينصت، وبعضهم الآخر يرفض)⁽²⁸⁾. كما أنّهم يتوجّسون من المُجتمعات المضيفة، نتيجة الاختلاف في العادات وأساليب العيش، والصعوبات في الحصول على الأوراق الثبوتية، وعلى فرص العمل. على سبيل المثال، نقلت وكالة الأناضول شكاويهم من تردّي الأوضاع في مخيم الزعتري في الأردن بالقول: «هم لا يريدوننا الخروج من المخيم لأنهم يتلقّون مبالغ مالية مقابل وجودنا»⁽²⁹⁾.

لذلك رأينا في أغلبية الأعمال الصحافيّة لجوءاً إلى الناشطين والمختصّين والعاملين في حقل الإغاثة، للتزوّد ببعض الحالات، ولعرض الآراء، والترويج للنشاطات. فالمنظّمات غير الحكوميّة التي تقوم بأعمال الإغاثة وتقديم الخدمات للّاجئين، بحكم

(26) نزال، مرجع سبق ذكره.

(27) موقع عربي بوست، «زواج القاصرات داخل مخيمات النزوح... اغتيال البراءة ووأد الطفولة»، موقع عربي بوست، <https://arabicpost.net> مُتاح على:

(28) بلال دردور، «هكذا تدفع الحرب بسوريا القاصرات نحو الزواج»، نقلاً عن لوموند الفرنسيّة، متاح على: <https://bit.ly/3ozSE8F>

(29) جريدة الجمهوريّة، «في مخيم الأردن للّاجئين السوريين... الأطفال مهدّدون بالموت»، نقلاً عن وكالة أنباء الأناضول، جريدة الجمهوريّة، مُتاح على: <https://www.aljoughouria.com/ar/news/24775>

تواجدها على الأرض، أحياناً تنقل لوسائل الإعلام نظرة فوقية بخصوص ممارسات وسلوكات وأنماط عيش اللاجئين، ظناً منها أنها بذلك تُروِّج لصورتها، وتُبرِّر الحاجة إليها ولخدماتها، وبهذا تُؤمِّن استمرارية دعمها. من المؤسسات التي صادفنا ذكرها في الأعمال الصحفية، على سبيل المثال لا الحصر: «مؤسسة «كياني» ووحدات «غطا»، حملة «طفلة لا زوجة»، «سوا للتنمية»، «عروس صغيرة»، «لاجئات لا سبايا»⁽³⁰⁾. كذلك فإن لكل من الناشطين الأفراد، في موضوع زواج القاصرات، منطلقاته الذاتية. فيرى مُحام ناشط أن هناك جهلاً بالقوانين النازمة، لذا من الضروري عقد جلسات حقوقية. أما اختصاصية التوليد فتجد أهمية لعقد جلسات عن الأمومة الآمنة⁽³¹⁾.

ب - العلاقة المتبادلة بين الإعلام والمنظمات الأممية والمحلية

ولتعزيز البعد المعرفي، لجأ الإعلام إلى الدراسات والتقارير التي أجرتها المؤسسات الدولية وغيرها الكثير من المنظمات غير الحكومية بغرض التزوُّد بالمعطيات والأرقام، وإن كانت هذه التقارير بأغلبيتها ذات أهدافٍ إغائية سريعة وملحّة يغلب عليها الطابع الإحصائي الوصفي؛ بحيث إنَّها لم تعمل على الغوص في الأسباب، ولا في السياقات، ولا في الخبايا والفوارق الدقيقة الموجودة على أرض الواقع، في ظل بروز جُملة عوائق وصعوبات تحوّل دون تنفيذ المواثيق والمعاهدات الدولية الخاصة بحماية الأطفال والنساء. وكان هاجسها تصوير أوضاع ضحايا الحروب، من خلال التركيز على المخاطر المُحيقة بهؤلاء، من عنف واستغلال وتحرش، بهدف تحديد أماكن التدخل، وتبرير الأسباب الموجبة له، ولاحقاً تقييم هذا التدخل بغرض معرفة مدى مطابقته مع المعايير

(30) جريدة النهار، قضية النازحين السوريين: تحويل الأزمة فرصة... مقابلة جديدة، عدد (25 - 9 - 2018)، مُتاح على: <https://www.annahar.com/arabic/article/868188>. ترويج لحملة «طفلة لا زوجة» «Child not wife»، مُتاح على: <https://www.almodon.com/media/2015>. جبين بهاتي، «شبح التسرب من المدارس والزواج المبكر يطارد الفتيات السوريات اللاجئات في لبنان»، (24 - 11 - 2020)، مُتاح على: <https://www.alfanarmedia.org/2020/11>. حياة مرشاد، «ترويج الطفلات: جريمة يومية تباركها الدولة وتشرّعها الطوائف»، جريدة النهار، عدد: (5 - 11 - 2018)، مُتاح على: [annahar.com](https://www.annahar.com). «لقاء حوار حول اللجوء السوري: وجهة نظر نسوية»، 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2020، www.birzeit.edu مُتاح على:

(31) لمى راجح، «القاصرات ضحايا الحرب والشرعية والقوانين أيضاً»، جريدة الجمهورية، عدد: 10 - 5 - 2017، مُتاح على: <https://www.aljumuahuriya.net/ar/37919>

المُعتمدة. ونُشير في هذا الصدد إلى مجموعة أفكار نقلها الإعلام عَرَضاً عن منظمات دولية وجمعيات محلية:

- الحروب تُهْمَس المرأة في المجال العام وهذا ما يُعزِّز أيديولوجيات تقسيم أدوار الجنسين التقليدية⁽³²⁾.

- في أوضاع الصراع تتفكك البنى العائلية والمجموعات، تفقد الممارسات والمعتقدات التقليدية معناها، وتصبح حقوق الإنسان موضوعاً لانتهاكات خطيرة⁽³³⁾.

- في الحرب الأطفال معرَّضون لفقدان كل ما له صلة ببيئتهم المحيطة من الأبوين والأسرة والمنزل والمدرسة والأصدقاء والأقارب⁽³⁴⁾.

- لم يكن لدى بعض العائلات من خيار سوى: إرسال الأطفال للعمل أو دفع الفتيات للزواج المبكر، كنوع من استراتيجيات التكيف⁽³⁵⁾.

- الحد من ظاهرة تزويج القاصرات لن يكون فعالاً سوى إذا مرَّ عبر طريقتين: الأول الحد من الفقر عبر برامج تنموية حقيقية، والثاني الحد من النزاعات المسلحة وتشجيع الحلول السلمية⁽³⁶⁾. أي العمل على إيجاد منهجيات اقتصادية جديدة⁽³⁷⁾.

- زواج القاصرات قبل الحرب كان يخضع إلى حد ما للرقابة الأخلاقية الإنسانية في المجتمع وينحصر في المجتمعات التي يحكمها الجهل والتخلف. وبعد الحرب تحول إلى ظاهرة خطيرة، وبات وباءً يفتك بالمجتمع ويُقوّض دعائمه ويُدمِّر إنسانيته وبديهيته الأخلاقية⁽³⁸⁾.

(32) هيباق عثمان، منظمة الكرامة نقلاً عن تقرير التنمية الإنسانية، كرامة، مُتاح على: <http://www.el-karama.org>
(33) Juliet Kinotho, «Le rôle de l'éducation pour les femmes et les filles dans les pays en situation de conflit ou de post-conflit», (2017) <https://www.globalpartnership.org/fr/blog>

(34) يمان هاشم القدورة، «آثار الحروب على الأطفال» نقلاً عن تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي undp، موضوع، مُتاح على: <https://mawdoo3.com>

(35) «أطفال سوريا والنزاع.. أكبر مأساة منذ الحرب العالمية»، موقع العربية، مُتاح على: <https://www.alarabiya.net/arab-and-world/syria/2020/03/15>

(36) إسماعيل عزام، «الأطفال أكبر الخاسرين في الحروب والأزمات في المنطقة العربية!» نقلاً عن منظمة «أنقذوا الأطفال»، DW العربية، مُتاح على: <https://www.dw.com/ar>

(37) نشوان نيوز، «زواج القاصرات... الحرب تعيده بقوة في اليمن»، نشوان نيوز، مُتاح على: <https://bit.ly/3GwpXPX>

(38) عامر فتياض، «الاعتصاب الحلال»، صالون سوريا، مُتاح على: <https://salonsyria.com>

- يصعب على الجمعيات رصد الانتهاكات بحق الفتيات لأنهنَّ يفضلن عدم الشكوى كي لا يخسرن عملهنَّ وبسبب الذهنية الذكورية التي تُحملهنَّ دوماً المسؤولية⁽³⁹⁾.
- مُعاناة الأطفال المتمثلة في الحرمان والاستغلال والتحرُّش والاضطرابات النفسية يُؤشِّر إلى ظهور جيل جديد يميل إلى العنف ويتوعَّد للانتقام⁽⁴⁰⁾.
- يُمكن أن يؤدِّي تأثير وسائل الإعلام والقواعد القائمة على نوع الجنس إلى زيادة التباين بين الواقع المعاش وتصوراته وتطلَّعاته المستقبلية⁽⁴¹⁾.

ج - العلاقة مع الجهات المُتصارعة

تُستخدم وسائل الإعلام الأطفال ضحايا الحروب لأغراض دعائية بهدف التأثير في توجَّهات الناس ومواقفهم السياسية تجاه الأطراف المُتصارعة. لذلك يصعب التمييز بين الاستغلال الدعائي والعمل الصحفي الذي يسعى لإظهار الواقع⁽⁴²⁾. فالإسراف في نقل المشاهد والتلاعب بها وفبركتها وإساءة توظيفها يحدث باستمرار من قِبَل قوى متصارعة مُختلفة. إذ لا تقتصر الأثمان التي يدفعها الأطفال في التزاعات المسلحة على التعرُّض المباشر لآلات القتل والتشريد والتعذيب والاغتصاب، بل يُستخدمون أيضاً كدروع بشرية وأدوات تسويق ودعاية لأفكار بعض الكيانات المتنازعة⁽⁴³⁾، وخصوصاً أنَّ وجهة المعالجة الإعلامية تُحددها سلفاً الوسيلة تبعاً لملكيتها وداعميها. نذكر، على سبيل المثال، بعض الأعمال الصحفية التي حملت رسائل ومواقف سياسية ضمنية، من خلال التركيز على منطقة دون غيرها، أو تسمية فئة معينة وإغفال فئات أخرى:
- موقع «الميادين» اعتبر تزويج القاصرات ظاهرة جديدة، الأمر الذي أثار حفيظة المُجتمع السوري: قاصرات يُزوَّجن لسعوديين وليبيين بعضهم كبار في السن بدافع السترة⁽⁴⁴⁾.

(39) إيمان العبد، لاجئات سوريات في لبنان ضحايا تحرُّش وأسيرات لقمة العيش، موقع شريكة ولكن، مُتاح على: <https://www.sharikawalaken.media/2020/09/30>

(40) فتياض، مرجع سبق ذكره.

(41) منظمة الصحة العالمية، مركز وسائل الإعلام، منظمة الصحة العالمية، مُتاح على: Who.int/ar/news-room

(42) نعمت المطري، «الأطفال مادة إعلامية للدعاية السياسية»، مونت كارلو الدولية، مُتاح على: <https://www.mc-douliya.com/programs/family-children-parent-society-mcd/2015416>

(43) ياسر عبد العزيز، «الإعلام... وأطفال الحروب»، جريدة الشرق الأوسط، مُتاح على: <https://bit.ly/3HzPIAc>

(44) موقع الميادين، «زواج السترة سوريات يدفعن ثمن اللجوء»، الميادين، مُتاح على: <https://www.almayadeen.net/news>

- أشارت «جنوبية» إلى أنّ تزويج الصغيرات يتم في صمتٍ قاتل في الداخل السوري⁽⁴⁵⁾.

- موقع «عرب 48» أبدى انزعاجه من عدم تحديد الأمم المتحدة لهوية الجناة في اليمن، مشيراً إلى أنّ العاصمة صنعاء والمناطق الخاضعة للحوثيين سجّلت حالات سوء تغذية حادة واختفاء للأطفال⁽⁴⁶⁾.

- موقع «أمة واحدة» قاربَ الموضوع بنزعة مناطقية قائلاً: عادات وتقاليد وجعل منتشر في المناطق الريفية وبالأخصّ الشماليّة لصنعاء⁽⁴⁷⁾.

- موقع جريدة «يكيّتي» صوّب على وحدات حماية الشعب (قسد) التي تُسخر الفتاة وكأنّها سلعة تُحقّق لهم مكاسب أيديولوجيّة بمعزل عن التفكير بمستقبلها. فتمّ استغلالها سياسياً عبر توظيفها في مركز معيّن، كإطار تجميليّ هدفه الحصول على دعمٍ غربيّ أميركيّ لاستمرار عجلة الارتزاق على حساب دماء الأبرياء⁽⁴⁸⁾.

- أخبار الآن دبي تُركّز على «قيام أحد الحوثيين القياديين باغتصاب 18 طفلاً ثمّ قتلهم»⁽⁴⁹⁾.

كما يحصل استغلال الموضوع سياسياً من خلال التسميات. على سبيل المثال، في معرض الكلام على الأطفال في المخيمات، يشير الصحفي إلى كَيْفِيّة هروبهم بالقول: قنابل نظام الأسد دمّرت أجزاءً كبيرة من ضاحية مدينة حمص⁽⁵⁰⁾. وفي تحقيق سرّي استقصائي لا يخلو من الإثارة حول تجارة الجنس السريّة في العراق، والتي من ضحاياها قاصرات، يكشف أدلّة على أنّ زيجات المتعة مُتاحة في بعض المناطق القريبة

(45) يحي الأوسي، «سوريات يهربن من الفقر و«وحش» الاغتصاب، موقع جنوبية، نقلاً عن الحياة.

(46) محمود مجادلة، «حرب على الطفولة باليمن: اغتصاب وزواج قاصرات وتجنيد إجباري» عرب 48 وكالات - متاح

على: <https://www.arab48.com>

(47) أغرب قصص زواج القاصرات في العالم العربي، أمة واحدة، متاح على: <https://www.ommahwahda.com>

(48) منال الحسيني، «القاصرات في أتون الحرب، موقع جريدة يكيّتي، العدد (218)، 12 - 9 - 2015، متاح على: <https://ara.yekiti-media.org>.

(49) أشرف الراعي، «اغتصاب أطفال ونساء... جرائم مُرعبة يرتكبها الحوثيون في اليمن»، نقلاً عن وكالة أسوشيتدبرس وتقرير الشبكة اليمنية للحقوق والحريات، أخبار الآن دبي، متاح على: [https://www.akhbaralaan.net\(news\) world/2020/10/22](https://www.akhbaralaan.net(news) world/2020/10/22)

(50) «أطفال سوريا المَنسَوون في مخيمات اللجوء»، DW العربية، متاح على: <https://www.dw.com/ar>

من الأضرحة في العراق وبالتحديد مراقد المسلمين الشيعة ومزاراتهم، كما يُشير إلى أنّ بعض رجال الدين يتصرفون كسماسرة ويُقدّمون غطاءً شرعياً لممارساتٍ تتضمّن اعتداءً جنسياً على الأطفال⁽⁵¹⁾.

د - العلاقة مع البلد المضيف

أثارت بعض الدراسات والتقارير إشكالية بروز حساسية ومخاوف مُتبادلة بين أوساط في المُجتمعات المضيفة وبين اللاجئيين أنفسهم، بالإضافة إلى الاختلاف في السياسات التي كانت مُعتمدة في بلدّهم، وتلك العائدة للبلدان المضيفة، وأيضاً التباعد بين المعتقدات والثقافات التي حملوها معهم، وثقافة مقدّمي الخدمات من البلد المضيف. وكان لهذه الإشكاليات صداها في بعض الأعمال الصحافية. تُسلّط صحيفة النهار الضوء على الظواهر التي تُهدّد الأمن الاجتماعيّ في لبنان بفعل اللّجوء؛ الاختلال في التوازن الديمغرافي، والعنف الذي يتعرّض له الأطفال؛ بدءاً من إجبارهم على العمل، وصولاً إلى ظاهرة زواج القاصرات ومُشاهد العنف والدمار والوضع المعيشي القاسي والظروف التي تحيط بالطفل النازح والتي قد تُؤثّر في سلوكه ونظرتة إلى المُجتمع الذي يعيش ضمنه، محدّرةً من عدم تدخّل الجمعيات قبل الوصول إلى مرحلة متقدّمة تُؤثّر على الأمن الاجتماعيّ في لبنان⁽⁵²⁾.

2 - أبرز سمات المُعالجة الإعلامية

أ - مقارنة أسباب زواج القاصرات ومضاعيله

تنوّعت الأسباب الكامنة خلف تزويج القاصرات كما أوردتها الأعمال الصحافية التي بين أيدينا، نذكر نماذج منها:

(51) «العراق: تجارة جنس سرّية ضحاياها فتيات قاصرات»، موقع بي بي سي، (3 - 10 - 2019)، مُتاح على: <https://www.bbc.com/arabic/middleeast-49898312>

(52) بلال وهبة، «الأطفال السوريون في لبنان قنبلة موقوتة»، جريدة النهار (27 - 6 - 2014)، مُتاح على: <https://annahar.com/Arabic/article/145863>

- وسيلة حماية للأعراض من الانتهاك في ظل الظروف الصعبة، أو بحثاً عن دعم مالي، استخدام المهور لسد حاجات الأسر المنكوبة، أو وعود بالحصول على وثائق أو الخروج من المخيم والسفر⁽⁵³⁾.

- تدفق اللاجئين، تدهور الوضع الاجتماعي للأسر، عدم كفاية الخدمات الصحية، ضعف التعليم وآليات الحماية القانونية⁽⁵⁴⁾.

- دواع اقتصادية - درء مشكلات عائلية - انقياد وراء عادات وتقاليد لا تتناسب مع العصر - حرمان من التعليم - مضاعفات صحية⁽⁵⁵⁾. في هذا الصدد، تتساءل مع الصحافي: هل إن الحرب والتهجير القسري يتناسبان مع العصر؟!

انعدام الأمن الاقتصادي، العجز عن الوفاء بالاحتياجات، غياب القوانين، بمكانة استراتيجيات تكيف خلال الأزمات (إرسال الأطفال إلى العمل، تزويج الطفلات)⁽⁵⁶⁾.

- الحرب فاقمت من هذه الظاهرة. إذ أدت سيطرة القوى المتشددة والقيود المفروضة على الفتيات إلى اعتبار الزواج هو الحل الوحيد أمامهن، إضافة إلى اعتباره جزءاً من التعبئة والنشاط الدعوي - نكاح الجهاد واستخدام الفتيات كغنائم حرب وتحويلهن إلى سبايا.

- الأعراف والتقاليد، إذ أسهمت حياة النزوح في مغازلة هذه التقاليد بقوة الأمر الواقع - الاختلاط بعائلات أخرى. ما يعني أنه تزويج بعنوان السترة والحلال والحرام⁽⁵⁷⁾.

- الجهل - الفقر - الموروثات الاجتماعية - الحروب - الخوف من المستقبل⁽⁵⁸⁾.
- غياب القانون - انتشار المد الديني - انتشار الزواج العرفي - ظهور سماسرة يتولون أمر هذه الزيجات ويتاجرون بها⁽⁵⁹⁾.

(53) لقاء حوار حول اللجوء السوري: وجهة نظر نسوية، جامعة بيرزيت، مُتاح على: www.birzeit.edu

(54) مرشاد، المرجع السابق.

(55) وسيم الشراعي، «زواج القاصرات: ضحايا زمن النزوح والتعتت الأسري»، العربي، مُتاح على:

<https://www.al-arabi.com/s/24791>

(56) أطفال سوريا والنزاع.. أكبر مأساة منذ الحرب العالمية، مرجع سبق ذكره.

(57) «الحرب تُفاقم ظاهرة زواج القاصرات في سوريا»، جريدة الشرق الأوسط، مُتاح على: <https://bit.ly/3rx156v>

(58) أنيس جمعان، «ظاهرة زواج القاصرات: اغتصاب شرعي يحميه القانون باسم الأعراف الاجتماعية»، مُتاح على:

<https://adenkhbr.net/65530/>

(59) فياض، المرجع السابق.

في هذا الصدد، راجت في الأعمال الصحافية تعابير جديدة توحى بمأسسة الزواج بما يشبه السوق السوداء أو الاقتصاد الموازي (سماسرة - بيع - إئجار⁽⁶⁰⁾ - أسعار، عمولة⁽⁶¹⁾ - وسطاء - ترميم غشاء بكارة - تزويجها مرة ثانية - نساء متعاونات مع تنظيم «داعش» (خاطبات) - مُعاقبة الأب في حال المُخالفة - الاتفاق على المهر والمدة - متغير العمر (السعر الأعلى للفتاة الأصغر عمراً⁽⁶²⁾).

زواج السترة، زواج المتعة، عقود زواج مؤقتة، تجارة جنس سرّية - سوق النخاسة. فكتب بعضهم عن انتشار زواج المتعة للقاصرات، وأشار بعضهم الآخر إلى فتاوى داعش - جهاد النكاح. كذلك يبرز متغير الجنسية (وعد المُقاتلين الأجانب بتلبية كلّ حاجاتهم، فالمُجاهد يتزوّج فتاة من كلّ قرية يُشارك في تحريرها)⁽⁶³⁾.

بخصوص مفاعيل هذا الزواج، نظرت بعض النصوص الصحافية إلى القاصرات على أنّهنّ قرايين للحرب، وإلى تزويجهنّ على أنّه اغتصاب الحلال، أو جعلهنّ سبايا بغطاء شرعي⁽⁶⁴⁾. ما جعلهنّ عرضة لإساءة جسدية نفسية. فالتزويج المبكر يُحرّم البنات من التعليم ويُعرّض صحتهنّ وصحة أطفالهنّ للخطر. وبعضهم وجد فيه اغتصاباً زوجياً يُعرّض الفتيات للاستبعاد الاجتماعي، والأسوأ هو الطلاق، وهذا ما يملي الحاجة إلى مساعدة قانونية نفسية تربوية⁽⁶⁵⁾، ينجم عنه: أخطار جسدية ونفسية في ظلّ عدم وجود قانون يردع الجريمة - لا عدالة ولا منظمات إنسانية تحمي الضحية. حتّى حملات التوعية ظلّت عاجزة عن منع أيّ حالة من حالات تزويج القاصرات لأنّ القانون والمُجتمع لا يجيزان لهم التدخل⁽⁶⁶⁾.

(60) <https://musawasyr.org> المصدر: موقع جريدة الحياة.

(61) «القاصرات السوريات من نار حرب إلى نخاسة الخليج وزواج المصريين»، جريدة الديار، (30 - 8 - 2015)، مُتاح على: <https://addiyar.com/article/1031746>

(62) نور خوام، «أهوال الحرب ومأساها تنشر زواج المتعة في سوريا للقاصرات»، (8 - 12 - 2019)، مُتاح على: <https://www.khiam.com/new/article.php-article ID=33842>

(63) خوام، مرجع سبق ذكره.

(64) الخبر، مرجع سبق ذكره.

(65) «Jeunes réfugiées syriennes, mariées de force», (10-12-2020), In <https://information.TV5> (65)

(66) Salon Syria.com, op.cit.

توقّف بعضهم عند التداعيات الاجتماعية للزواج المبكر (القاصرات غير قادرات على تربية أبنائهنّ، كون الأم أصلاً بحاجة إلى رعاية وتربية)⁽⁶⁷⁾. اعتبره بعضهم آفة تهتك النسيج المجتمعي، وتقوّض دعائمه وتدمّر إنسانيته وبيدهياته الأخلاقية. وعلى الرغم من الاستنكار الواسع لهذه الظاهرة، إلّا أنّ بعضهم أشار إلى أنّ الزواج المبكر لدى فئات معينة من الناس يُعدّ ضرورة للاستقرار الأسري ولا يعتبرونه جريمة بل يدعمونه بأحاديث دنيّة تُعزّز هذه الثقافة⁽⁶⁸⁾.

ب - إثارة موضوع الوعي

في معرض الكلام على أسباب زواج القاصرات ومفاعيله، أثارت الجمعيات والمنظمات الناشطة في المخيمات موضوع الوعي، انطلاقاً من قناعتها بأنّ تزويج القاصرات يعود في جزء كبير منه إلى الجهل والتخلّف ونقص الوعي، وأطلقت حملات ومبادرات بعناوين مختلفة بغرض التوعية المجتمعية: «لا لزواج القاصرات»، «طفلة لا زوجة»، «حماية»، «لاجئات لا سبايا»، وكان لافتاً تلقّف الإعلام لحملات التوعية هذه والترويج لها، من دون مناقشتها ومساءلتها أو التعليق عليها، وخصوصاً أنّ بعضها اعتمد اللّغة الإنكليزية/«not before 18» «Girls not brides» وأعدّ لافتات بعيدة عن واقع اللاجئين، وغير منسجمة مع الفئات المُستهدّفة، كتلك اللاّفتة المكتوب عليها: «من حقّي أن أخرج من دون إذن والدي - الحرية - أن أنعلّم - العيش بأمان»، باستثناء نقد جريدة الأخبار لإحدى الحملات⁽⁶⁹⁾. وباستثناء ما أوردته بعض الأعمال الصحافيّة نقلاً عن موقع جمعية سورية من أنّ حملات التوعية التي روّجت لها وسائل الإعلام ظلّت عاجزة عن منع أيّ حالة من حالات تزويج القاصرات لأنّ القانون والمُجتمع لا يُجيزان لهم التدخل⁽⁷⁰⁾.

(67) «أمّهات صغيرات في سوريا... جريمة في غياب القانون»، مُتاح على: <https://www.dw.com/ar>

(68) وسيم شراعي، مرجع سبق ذكره.

(69) زينب إسماعيل، «محاولة غيئة لمكافحة الإنتاج بالقاصرات»، جريدة الأخبار (26 - 10 - 2018)، مُتاح على:

www.alakhbar.com

(70) فياض، مرجع سبق ذكره.

ج - استخدام عناوين مُثيرة تخلط السبب بالنتيجة وتُغيب الفاعل
كان لافتاً استخدام بعض الأعمال الصحافية المتحمسة لاستنكار زواج القاصرات
لعناوين تُغيب السبب الفعلي لرواج هذه الظاهرة المتمثلة بالحرب وما استتبعها من انعدام
الأمن الاقتصادي والغذائي والنفسي، لأنّ التركيز على النتيجة بهذه الطريقة والانطلاق
منها يُغيب الأسباب وبالتالي الفاعل. نذكر من هذه العناوين: «زواج القاصرات داخل
مخيمات النزوح - اغتيال للبراءة ووأد للطفولة»⁽⁷¹⁾، «تزويج الطفلات جريمة يومية تباركها
الدولة وتشرّعها الطوائف»⁽⁷²⁾.

د - استخدام تعابير مُهينة بحق الأهل

كان من المُلاحظ استخدام الكثير من التعابير والمُفردات التي تحطّ من شأن الأهل،
وتُشعرهم بعقدة الذنب، وتُهين ثقافتهم وعاداتهم، وهي بالتالي لا تخلو من التعميم ومن
جلد الذات. على سبيل المثال: إزاء الإنجاب، تطرح صحيفة العرب اللندنية السؤال: هل
إنّ المُسلمين عموماً والعرب خصوصاً أمة تحبّ الحياة أم أنّهم أمة لا تفكر؟ وتنقل رأياً
لسيدة لبنانية «لا أعرف لماذا يصرون على ولادة أطفالٍ جدد، جريمة بحقّ الطفولة أن
تكون الأم حاملاً في المُخيم!» موظف يقول «كلّما ازداد الجهل تمحورت أفعال الإنسان
حول وظائفه البيولوجية. الوحيدة التي تفهّمت ظروف هؤلاء كانت الطبيبة المصرية
الهولندية التي رأت أنّ «العلاقات الحميمة وسيلة للناس للشعور بالحبّ والأمان بعد
ظروف شديدة القسوة»⁽⁷³⁾.

تتهم مسؤولية عن جمعيّة محلية ناشطة في المخيم العائلات اللاجئة بأنّها تستفيد
من أطفالها، وأنّ الأهل لا يهتمّون بسلامتهم وتعليمهم بسبب الفقر، ويُجبرون الفتيات
على الزواج⁽⁷⁴⁾ يصف أحد الناشطين في منظمّة غير حكومية الآباء بالجملة بأنّهم ينقصهم
الوعي بأنّ التعليم مفتاح المستقبل⁽⁷⁵⁾.

(71) <https://arabicpost.net>, op.cit.

(72) مرشاد، مرجع سبق ذكره.

(73) «الإنجاب في المخيمات... جيل عالق بين الخيمة والحياة»، موقع العرب (31 - 3 - 2018)، مُتاح على:
<https://alarab.co.uk>.

(74) بهاتي، مرجع سبق ذكره.

(75) ديانا هوادلي، «أطفال سوريا المنسيون في مخيمات اللجوء في لبنان»، مُتاح على: <https://www.dw.com/ar>

وإزاء المخيمات المكتظة بالنازحين، تُعرب ممثلة عن المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين عن قلقها الكبير حيال الأمر، في ظلّ عدم استعجالهم للعودة، والمُتاجرة ببناتهم، على حدّ وصفها، وتزويج بناتهم القاصرات للخلاص منهنّ⁽⁷⁶⁾. كما ردّت هذه الأعمال، وأكثر من مرّة، إلى أنّ: أهل البنت لا يسألون عن عمر المتقدم للزواج بقدر ما يسألون عن فلسفه.

هـ - استخدام صيغ تعميميّة وأفكار نمطيّة

كان لافتاً أنّ معظم الأعمال الصحافيّة تخلّلتها جملة أفكار نمطيّة من باب التعميم أو التخصيص والفرز للفئات والمجموعات.

وردّ في موقع «أمة واحدة دوت كوم»، نقلاً عن سبوتنيك، أفكار نمطيّة عن حلم الفتيات (الزواج والإنجاب وتكوين أسرة) وعن طبيعة المرأة (الحاملة الرومانسيّة)⁽⁷⁷⁾. استخدمت صحيفة الديار صيغاً تعميميّة لا تخلو من المبالغة كمثل القول، في معرض كلامها على زواج القاصرات في مخيمّ الزعتري في الأردن: سوق نخاسة خليجي - استغلّ العالم العربيّ مأساة السوريات⁽⁷⁸⁾.

و - البحث عن الغرابة والإثارة

إنّ حالات تزويج القاصرات المعروضة في وسائل الإعلام تُعدّ سيناريوهات جاهزة لأفلام وأعمال دراميّة ومسرحيّة، مرشّحة لأن تفوز بجوائز عالميّة، وتُعرض في المهرجانات. هذه الحالات جذبت وسائل الإعلام بالطبع لكونها تُحقّق من خلالها سبقاً صحافيّاً، وتُستدرج استنكار القراء والمُشاهدين، أو غضبهم، أو تعاطفهم، لتتنظر حالات أخرى تُغطّي على التي سبقتها، وتتوه لاحقاً في غياهب النسيان. نذكر منها: حكاية ابنة الثالثة عشرة بعد نزوح عائلتها، اختفى والدها في ظروف غامضة تاركاً إياها مع أمّها وأختها يُصارغنّ كوارث الحرب، لم يكن أمام الأم سوى الانصياع لصفقة الجار ذي الـ 45 عاماً الذي اشترى ابنتها للزواج. سكنت الطفلة في بيت واحد مع أبناء زوجها الذين

(76) «القاصرات داخل مخيمات النزوح.. اغتيال للبراءة ووأد للطفولة»، موقع عربي بوست، مُتاح على: <https://arabicpost.net>.

(77) «أغرب قصص زواج القاصرات في العالم العربي» (7 - 6 - 2020)، مُتاح على: <https://www.oumahwahda.com>.

(78) «القاصرات السوريات من نار حرب إي نخاسة الخليج وزواج المصريين»، مرجع سبق ذكره.

كانوا بعمرها تقريباً لتعيش حالة فصام، تلعب معهم في غياب أبيهم كطفلة، وفي حضوره تعود إلى دور الأم المزعوم، أمّا هم فكانوا يتساءلون عن أسباب نومها في غرفة أبيهم، ويندهشون حين يسمعون بكاءها وصراخها في الليل⁽⁷⁹⁾.

وتخبرنا صحيفة الأخبار أنّ أم جميل أفاقت على صراخ رضيعها ذي الثمانية أشهر الذي نهش أحد الجرذان جبينه وتركه مدّمي، وقضم أذن طفل آخر وأطفا عين طفل ثالث⁽⁸⁰⁾.

وتخبرنا صحيفة الخليج قصّة الطفلة كريستينا أصغر سبايا «داعش» وكيف أنّ إصرار والدتها على البحث عنها كان السبب في عودتها⁽⁸¹⁾.

ويُخبرنا القاضي أنيس جمعان قصّة نجود علي التي غدت أيقونة عالميّة، والتي تزوّجت في الثامنة من عمرها، وانتزعت حقّ الطلاق لتُصبح أصغر مطلّقة في العالم وتدخل موسوعة غينيس، وتفوز بلقب امرأة العام⁽⁸²⁾.

ز - إبراز بعض الحالات الإيجابية

تقوم شخصيّة الصحافي بدورٍ أساسيٍّ في مقارنته للموضوع المطروح، ففي معرض البحث عن حالات وأدلة وشواهد، نجد أنّ هناك من يلتفت إلى الجوانب الإيجابية ويوليها الاهتمام، وهناك من يلتفت إلى أحلام الطفلات والمراهقات. نذكر بعض الأمثلة: في معرض رواية مهى عادل لقصّة الطفلة كريستينا وإصرار والدتها للبحث عنها تختم بالقول: على الرّغم من كلّ هذه الأهوال والمعاناة، هناك العديد من القصص الرائعة لأطفال وعائلات لديهم الإصرار على تحقيق آمالهم وتطلّعاتهم من أجل غد أفضل⁽⁸³⁾. تعرض لنا صحيفة الديار حالةً لأم رفضت تزويج طفلتها⁽⁸⁴⁾.

(79) فتّايض، مرجع سبق ذكره.

(80) علاء الدّين، مرجع سبق ذكره.

(81) مها عادل، «تطهير مدينة الموصل من مسلّحي داعش»، 27 - 11 - 2017، مُتاح على: <https://www.alkhaleej.ae>

(82) جمعان، مرجع سبق ذكره.

(83) عادل، مرجع سبق ذكره.

(84) القاصرات السوريات من نار حرب إلى نخاسة الخليج وزواج المصرتين، مرجع سبق ذكره.

تروي لنا أليسون ويلكنز حلم طفلة بأن تصبح جراحة تعتني بالآخرين⁽⁸⁵⁾. أما زينب عبد اللاه فتخبرنا حكاية مدرسة الأحلام وكيف أصبحت واحة للأطفال المخيمات، بمبادرة من محمود صدقة الفلسطيني الذي عاش في مخيم للاجئين 20 عاماً، واختبر مشاعر الأطفال في ظروف كهذه. وبمساعدة متطوعات ومتطوعين من المخيم، تمكن من أن يجعل الأطفال يحبون هذه المدرسة لأنهم هم من وضعوا القوانين التي يسيرون عليها⁽⁸⁶⁾ في حين تُخبرنا ديانا هودلي قصة عائلة الأحمد التي هربت بعدما كانت تعيش حياة رغد في سوريا، من أجل أن يتعلم الأطفال، وكيف امتنعت العائلة عن إرسال أطفالها للعمل، وأنشأ الأب بمبادرة فردية مدرسة داخل الخيمة⁽⁸⁷⁾.

نهار الكويت تصوّر لنا طفلة الأولى في صفّها تهوى الرسم، متعتها الدراسة، تحلم بأن تصبح مدرّسة⁽⁸⁸⁾.

أبرزت صحيفة «الديار» جواباً لأم قبلت بتزويج ابنتها القاصر، ردّاً على سؤال مراسل قناة France 24 حول شعورها حيال ذلك، بالقول: أخبرني كيف يكون شعورك عندما يبكي ابنك من الجوع وأنت لا تستطيع أن تطعمه. إذا أخبرتني كيف يكون شعورك، أخبرك كيف يكون شعوري⁽⁸⁹⁾.

وتخبرنا خلود الحلالي قصة الطفلة اليمنية أسرار (12 عاماً) التي تقطع يومياً مسافة 2 كلم سيراً على الأقدام من أجل العمل في حقول وبساتين زراعية، هي التي تُساعد أسررتها المكوّنة من 7 أفراد مذ كانت في التاسعة من عُمرها، وتعود إلى البيت لاستذكار دروسها ومساعدة والدتها⁽⁹⁰⁾.

(85) أليسون ويلكنز، «حلم طفلة سورية في مخيم اللجوء: استكمال تعليمها لتصبح جراحة تعتني بالآخرين»، موقع **bbc** عربي، نشر في: 30 - 6 - 2018، مُتاح على: <https://www.bbc.com/arabic/features-44669342>

(86) قصة زينب عبد اللاه «جعلوني لاجئاً» اليوم السابع، مُتاح على: <https://www.youm7.com/story/2019/4/30>

(87) هودلي، مرجع سبق ذكره.

(88) «الأطفال اللاجئون بين سندان خطر برودة الشتاء ومطرقة قضاء طفولتهم في المخيمات»، مُتاح على: <https://annahar.com/annahar/article>

(89) القاصرات السوريات من نار حرب إلى نخاسة الخليج وزواج المصريين، مرجع سبق ذكره.

(90) خلود الحلالي، «أطفال اليمن في زمن الحروب... عمّال مشردون»، صحيفة إندبندنت العربية، مُتاح على: <https://www.independant arabia.com/node/101746>

بخصوص أحلام المراهقات وتحولاتها بفعل اللجوء، يُخبرنا مصطفى أبو شمس كيف التهمت الحرب جزءاً من صور المراهقة وسلوكياتها. غدا الموت يشغل فكر المراهقات حالياً. وتحولت الثورة إلى مُعين خلاص للكثير، مُشكلة حالة إلهام لتمرّد فئات - أغراهم السلاح - فتيات حلمن بالزواج من مقاتل، هو مَنْ سيُحقّق أحلامهنّ بالأمن والحماية والمال. فتيات غدوّن خائفات من الإفصاح عن الحبّ. تقول إحدهنّ إنّ لكلّ جيل مُتعه (الأهل كانوا يسمعون عبد الحليم وأمّ كلثوم، حالياً احتلت الأخبار غرف المنزل) فضلاً عن أشياءه الخاصة، ما يعني أنّ الأحلام ترتبط بظروف العيش. كما يروي لنا حالة تلك الفتاة التي اعتُقلت على يد قوّة النظام عندما كانت تبلغ 17 عاماً. والتي كانت تحلم بإكمال تعليمها وبناء عائلة. لكن كلّ ما يخطر ببالها اليوم هو التخلص من شفقة المُجتمع ونفاقه (كلّ مَنْ يراني يودّ أن أروي له ما حصل هناك في السجن، لا أقوى على ذلك ولن أتكلّم يوماً)⁽⁹¹⁾.

III - خلاصات

بالمحصّلة، المُعالجة الإعلامية لموضوع القاصرات في الحروب، في ضوء السياقات المتحوّلة على مستوى الإعلام وعلى مستوى عيش القاصرات في ظلّ الحروب والنزاعات لم يكن بالأمر السهل، على الرّغم ممّا أتاحته التكنولوجيا من سهولة وسرعة في النفاذ إلى المعلومات. فكان أن وجدنا أنفسنا أمام فوضى في المعاني، وأمام خلط في الأدوار؛ كأن يلعب الناشط دور الباحث، والإعلامي دور الناشط، كما وجدنا أنفسنا أمام مفارقات وتناقضات تحيط بعمل الإعلام. ولعلّ ذلك يعود إلى وقوع الإعلام، ومن دون أن يدري، في أتون المواقف المُسبّقة تجاه الأطراف المتصارعة لأسباب قد تكون مالية، أو عقائدية، أو إنسانية، أو ثقافية. نتج عن ذلك نوعٌ من التضارب في الغائيات بين الإعلامي والناشط والمموّل واللّاجئ، بفعل تنوّع المُقاربات للموضوع المطروح بين مختلف هذه الأطراف، في ظلّ سياق قوي وصعب ومعقّد أحاط بالقاصرات أنفسهنّ.

(91) مصطفى أبو شمس، «طاقة الإخفاء - قصص المراهقين»، جريدة الجمهورية، (25 - 4 - 2019)، مُتاح على:

www.aljumburiya.net.

إنّ عدم قدرة الإعلام على إجراء تحقيقات ميدانية، لاعتبارات تتعلق بالسرعة، والتكلفة، وغيرها من الاعتبارات العائدة إلى صعوبات على أرض الواقع، أفقد هذه التحقيقات شيئاً من التحليل السياقي المرتبط بمتغيراته، استناداً إلى مقابلات معمّقة تلاحظ التفاعل بين المعايير الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والدوافع الأسرية، ما يوفّر نظرة ثاقبة عن دوافع زواج الأطفال وعواقبه الآتية والمستقبلية على الفرد وعلى المجتمع. وهذا ما أوقع الإعلاميين في حيرة من أمرهم بين منطقتين: الأولى يعود إلى منظور النوع الاجتماعي، الذي يرمي التبعة على الثقافة والعادات والتقاليد التمييزية بحق البنات، ناظراً إلى العادات وكأنّها ثابتة لا تتغيّر. والثاني، رأى في تزويج القاصرات في ظروف اللجوء استراتيجية للتكيف. بما معناه أنّ هناك من يعتبر تزويج القاصرات جريمة يرتكبها الأهل، وفيها إدانة واتهامات وإهانات، ومن يعتبر هذا الزواج ضرورة للاستقرار الأسري، أو ضرورة من ضرورات التكيف مع الواقع المستجد والصعب.

فحالات تزويج القاصرات التي تمّ عرضها في المواقع الصحفية قامت على انتقائية مؤطرة سلفاً من أدبيات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والصحف والمواقع الأجنبية المشهورة، وتكمن خلفها اعتبارات عدّة يختلط فيها المهني السياسي، بالثقافي، بالمنفعي، بالأخلاقي. وكانت بأغليبيتها لا تخلو من الإثارة والغربة وتسلط الضوء على المعاناة وعلى أهوال ما يحصل، وكأنّ المنظمات تُحمّلها رسائل مثل: إنّنا آسفون لما يحصل، أو عاجزون عن إيقاف ما يجري تماماً كعجز العالم عن إيقاف الحروب، أو كأنّ المواقع الإعلامية الأجنبية، التي بنت لنفسها سمعة ومصادقية معيّنة بعنوان المهنيّة، أرادت أن تُحمّل نفسها رسائل ثقافية بعناوين إنسانية، من خلال إقران بيئة معيّنة، أو انتماء ديني معيّن، أو جنسيّة معيّنة بالجهل والتخلف وممارسة العنف بحق القاصرات.

وبعنوان حقوق القاصرات سُربت رسائل تعميمية ونمطية تُشوّه هذه الكيانات، وإن كانت استدرجت بطريقتها الاستنكار والتعاطف الكفيلين بالتبخر لاحقاً لترسو الصور النمطية. فكلّ تعميم أو تصنيف أو فرز فتويّ يحمل في طياته نوعاً من العنصرية الإثنية الجديدة⁽⁹²⁾.

(92) François, Duparc, «Traumatismes et migrations, dans Dialogue» Cairn: 2009/3 (no 185) pp.15-28 in <https://www.cairn.info/revue-dialogue-2009-3-page-15.htm>.

والأخطر كان وقوع الإعلام في دوران الدائرة عَينها، فانتسبت الأعمال الإعلامية بالتكرار على مستوى المضمون، وبالنمطية على مستوى الأسلوب، وغابت عنها فريدة الطرح. على الهامش حصلت نقاشات تخصّس التغطيات والأخلاقيات الإعلامية بطريقة ديكتوميّة، وبمعزل عن السياقات الاقتصادية والاجتماعية، هاربة نحو الشامل والإنسانيّ. فحصل جدلٌ إعلاميٌّ حول السماح بنشر صور الأطفال والمعايير والأخلاقيات التي تضبط النشر، سواء في وسائل الإعلام التقليدية أم الشبكات الاجتماعية. غير أنّ صفحة منظمة الأمم المتحدة للطفولة اليونسيف في موقع فايسبوك وأمام أكثر من 7 ملايين مُتابع، تنشر صور أطفال في أوضاع متعدّدة. هذه الأوضاع نفسها تمنع الموثائق الأخلاقية والقانونية نشرها إلّا بمحاذير محدّدة جدّاً. علماً أنّ مبادئ المنظمة تشترط الحصول على إذنٍ من الطفل ووليّ أمره في كلّ المقابلات، وأن يكون هذا الإذن كتابيّاً، وهذا الأمر مطلوب أيضاً في وسائل الإعلام⁽⁹³⁾. لذلك أوصت شبكة الصحفيين الدوليين بعدم الاستهانة بكلام الضحية وتسخيفه أو التشكيك به. كما أوصت بتجنّب الأسئلة التي تجعل الضحية تعيش الألم مرّتين. وشدّدت على مُراعاة استخدام المُصطلحات المناسبة لوصف حال الضحايا في إنتاج المادّة الصحفيّة والابتعاد عن الأوصاف الدينيّة والمذهبيّة والعرقية. كذلك شدّدت على مُراعاة خصوصيّة الضحايا الذين تعرّضوا لانتهاكاتٍ خطيرة وعدم إجبارهم على سرد تفاصيل دقيقة وحساسة، واعتماد الأسلوب الصحفيّ مع الضحايا بكلّ احترام وتقدير، وبعيداً عن الاستفزاز، فضلاً عن وجوب الحصول على الموافقة الواعية⁽⁹⁴⁾.

ختاماً، أسهمت الأعمال الصحافية في تأطير أزمة اللّجوء، وحدّدت أولويّاتها، وأجندة التفكير بها، مُغفلة في أحيان كثيرة الأسباب، متوقّفة عند النتائج. ولاسيّما أنّ معنى تزويج القاصرات في بيئة حاضنة وتحت رقابة معاييرها الأخلاقية يختلف كليّاً عن معنى تزويجهنّ في بيئة مشلّعة مفتوحة على مختلف أشكال السمسرة والمتاجرة والاستغلال. فاكتفت هذه الأعمال بإبراز اللّاجئات القاصرات على أنّهنّ ضحايا، وعرضة لمختلف أنواع العنف والاستغلال والتحرّش، وصوّرتهنّ مُستسلمات لقدرهنّ ولظروف

(93) موقع العرب، «الإعلام أمام مسؤوليّة مضاعفة عندما يتعلّق الأمر بصور الأطفال»، مُتاح على: <https://bit.ly/3gytnai>

(94) منار الزبيدي، «كيف تمكّن الصحفيون العراقيون من تغطية القضايا الإنسانية خلال الحروب والأزمات؟»، موقع

ijnet، مُتاح على: <https://bit.ly/3JhKERH>.

عيشهنّ القاسية، وجردتهنّ من مشاعرهنّ تجاه الأهل غير القادرين على تأمين مستلزمات معيشتهمّ، مُسقطه من حساباتها احتمال أنّ الفتيات اللّواتي قبلنّ بالزواج ربّما فكّرنّ وقلّبن الخيارات المتاحة في سرّهنّ، وقسّن وضعهنّ الحالي على ما يُمكن أن تؤوّل إليه أوضاعهنّ لاحقاً، وشعرنّ مع مُعاناة أهلهنّ. ولأنّ المُعالجة الإعلاميّة لموضوع تزويج القاصرات غلبَ عليها طابع الإثارة والمبالغة، فإنّها ظنّت أنّ المشكلة مشكلة وعي، لذا بالغت المنظّمات في حملاتها التوعويّة وفي نخبويّتها، وفي انقطاعها عن أرض الواقع. إذ كيف يُصرف الوعي فيما الغذاء معدوم والأمن غير متوافر؟ فأنت النصوص الصحافيّة في أغلب الأحيان تكراراً لما أتت به التقارير والدراسات التي غابت عنها المقاربة النسويّة للرعاية، التي عملت فرازر (Fraser) على ربط مشكلة عدم إيلاء الأهميّة للعناية بالنظام الاقتصاديّ، وترونتو (Tronto) بالنظام السياسيّ والديمقراطيّة. ولعلّ هذا الغياب جسّدته النظرة السلبيّة تجاه الأهل الذين يُقدّمون على تزويج بناتهم القاصرات، واتّهامهم بالجهل والتقصير والإهمال والمُتاجرة ببناتهنّ طمعاً في الأموال، من دون الأخذ في الاعتبار أنّ الرعاية لا تولد من فراغ، بل هي عمليّة بنائيّة مُتبادلة، تنمو وتكبر في ظلّ ظروف ملائمة لها. ما يعني أنّ المحروم منها، والذي لم يذق طعمها يصبح غير قادر على تقديمها لغيره. هذا عدا عن أنّ المعلومات الواردة في الأعمال الصحافيّة، سواء كانت مستقاة من التقارير أم من التقصّي على أرض الواقع أو من شهود عيان، حُمّلت مواقف ضمنيّة تجاه الأطراف المتصارعة والمرجعيات الثقافيّة. يبقى أنّ هذه الطريقة المُثيرة والاستعراضيّة في المعالجة التي تركز باستمرار على الجوانب السلبيّة تستدعي الشفقة والاستنكار وجلد الذات، غير أنّها تُعطّل التفكير وتُعوّق العمل، لكونها تغفل الكثير من التجارب الإيجابية التي تحمل بذوراً جديدة لابتكار طرق وأساليب تكثّف كفيّلة باكتشاف مداخل مُغايرة للعمل البّناء.

القاصرات في عيون القانون: مواطنات مُلحقات في مرحلة ما بعد النِّزاع

إنَّ القراءة في مضمون الأنظمة والقواعد القانونية وربطها في الظروف الاجتماعية والأطر العامّة السّياسيّة يطرح تحدّيات مضاعفة عندما ترتبط بحقبة الصراعات والنِّزاعات. وتصبح هذه التحدّيات أكثر صعوبة عندما يرتبط الموضوع بفئة من المُجتمع تكاد تكون الأكثر تهميشاً، إمّا لاعتبارها فئة مندمجة مع أخرى أكثر شموليّة، أو لكونها لم تُشكّل لدى المشرع - المحليّ أو الدوليّ - فئة خاصّة بحاجة إلى حماية بشكل منفصل، وهي حالة النساء القاصرات. وفي كلا الحالتين، تصبح هذه الفئة - المحدّدة الهويّة والخصوصيّة في مضمونها الاجتماعيّ - بعيدة عن اهتمام المشرّع، ما يشي بتأجيل البحث في خصوصيّة حمايتها في المراحل الراهنة.

فالنساء القاصرات يخضعن أولاً لفئة الأطفال - وهي الفئة المَعنّية بالحماية نظراً لنقص أهليّتها للقيام بذلك - ويخضعن ثانياً للنصوص الخاصّة بحماية النساء نظراً لطبيعة الظلم الواقع على النساء في المُجتمع البطريركي. لم تتناول القوانين الدوليّة - وبالتالي المحليّة - فئة النساء القاصرات بحماية خاصّة، لذلك تسعى المحاكم إلى المواءمة بين النصوص الحامية للفئتين انطلاقاً

عزّة سليمان

من طبيعة القضية المطروحة⁽¹⁾. كما يستطيع القضاة المحليين تفضيل القوانين الدولية على المحلية لتقديم الحماية اللازمة لهذه الفئة⁽²⁾.

لا تنفصل القوانين في أنظمتها ومضمونها عن التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة، سواء كانت قوانين دوليّة أم محليةّة، فهي تُسهم في قراءة السياسات العامّة المُضمرة والمُعلّنة، نظراً لصدورها عن مركز القرار ولكونها تُحاكي، بتطبيقها، المواطنين مباشرة.

كما أنّ الحروب والصراعات على اختلاف أشكالها، تُعتبر مرحلة أساسيّة في تكوين العلاقة بين الدولة والمواطن، ومرحلة تأسيسيّة على مستوى النظام السياسيّ دستورياً وتشريعياً. وتُعتبر مرحلة ما بعد انتهاء الصراع مؤشراً لقراءة أسس تكوين الدولة. لذلك تسعى خلالها الأطراف المختلفة إلى إيجاد حلول يفترض أن تكون مستدامة لإعادة الثقة بين مكوّنات المجتمع في شعورهم بالعدالة وسيادة القانون من ناحية وبينهم وبين النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي كميّار لتأسيس مكّون شعبيّ مبنيّ على مبادئ المواطنة في تفاصيلها المختلفة من ناحية ثانية. فالقوانين المحلية المرتبطة بحقوق الإنسان عموماً، وحقوق النساء والأطفال كفئتين مُنفصلتين خصوصاً، تتطوّر مع تطوّر القوانين الدوليّة وآليات الضغط في سبيل احترامها.

تميّزت تاريخياً مرحلة انتهاء الحروب بالعفو العام، بغية البدء بمرحلة جديدة من تاريخ الدولة على أسس من الاستقرار بعيداً عن نكء الجراح. إلّا أنّ انتهاء الحرب العالميّة الثانية أسّس مع محاكمة نورمبرغ نمطاً جديداً من إدارة المرحلة الجديدة على قاعدة عدم الإفلات من العقاب وعدم مرور الزمن على جرائم الحرب، وكان ذلك مدخلاً لتأسيس العدالة الجنائيّة الدوليّة⁽³⁾. بغضّ النظر عن النقاش الذي يرتبط بهذه العدالة وحقيقتها، يُمكننا الالتفات إلى أنّ كلتا الطريقتين من إدارة مرحلة انتهاء النزاع وتأسيس المرحلة

(1) وهذا ما كان واضحاً في دعوى أُثيرت أمام القاضي المنفرد الجزائي في جبّ جنين البقاع الأوسط - لبنان، موضوعها جرم الإغواء والوعد بالزواج الذي أدى إلى فضّ بكارة القاصر، انطلق القاضي في تعريفه للحدث - القاصر من اتفاقية حقوق الطفل كما سعى القاضي إلى المواءمة بين اتفاقية حقوق الطفل واتفاقية سيداو للبحث في أطر الحماية الخاصّة بالضحية والقراءة للواقع الجرميّ للمدعى عليه. القاضي المنفرد في جبّ جنين، رقم 65، تاريخ 2016/3/10، المصنّف الجزائي الإلكتروني، (2016)، منشور في المستشار الإلكتروني.

(2) خلص القاضي إلى إلغاء نصّ الفقرة الثانية من المادّة (518/عقوبات) حتّى قبل تعديلها وإلغائها من قبل المُشرع اللبناني انطلاقاً من أولويّة النصوص الدوليّة: الحكم نفسه.

(3) انطلاقاً من قواعد الحرب المنظّمة بموجب اتفاقيات جنيف الأربع الصادرة في العام 1949، والمحاكمات الجنائيّة =

الجديدة كانتا بعيدتَين عن تحقيق الديمقراطية والعدالة لمختلف ضحايا هذه الحروب. فكانت العدالة الانتقالية هي النموذج الثالث الذي بدأ طرحه في تسعينيات القرن الماضي في الأمم المتحدة منذ العام 1996 على إثر التقارير التي وضعت أمام المفوضية العليا لحقوق الإنسان. وقد تبناها مجلس الأمن في العام 2004 كآلية للانتقال الديمقراطي للمُجتمعات من مرحلة الحرب إلى مرحلة السلم على أساس المصالحة والمحافظة على حقوق الفئات المتضررة - ومنها النساء والأطفال - وانطلاقاً من مبدئي الحقيقة والكرامة، بغية بناء الدولة على القانون وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والتنمية المُستدامة⁽⁴⁾.

هذه المرحلة نفسها كانت مرحلة التحولات الدولية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، نتيجة العولمة وطغيان النمط النيولبرالي على الأنظمة والسياسات وحياء المواطنين اليومية، والتي انعكست في دور الدولة وطبيعة الديمقراطية ومعايير التمثيل الصحيح والتركيز على دور المُجتمع المدني مع ما يُمثّل من فئات اجتماعية معيّنة بالقرار السياسي والتشريع والرقابة.

أسهم النظام النيولبرالي في بلورة أبعاد جديدة للجرائم الاقتصادية كأحد أهم الجرائم المنتهكة لحقوق المواطنين والمدمرة للمُجتمعات كشكلٍ من أشكال الجرائم ضد الإنسانية. وتتجلى آثار هذه الجرائم، في زمن الحروب، من خلال الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي للفئات الهشة في العمل غير النظامي وواقع العائلات المهاجرة وظروفها.

لذلك تميّزت الصراعات والحروب المعاصرة التي تعيشها الدول العربية بتزايد طرح قضايا العنف الأسري والعنف القائم على النوع الاجتماعي واستغلال الأطفال في العمل. هذه القضايا أصبحت مركزية وجوهرية في خطط عمل المنظّمات الدولية المعنية والمتخصصة، والمؤسسات المانحة، وبالتالي جمعيات المُجتمع المدني الناشطة في مراحل النزاع المسلح أو الأزمات الاقتصادية وفي المراحل التالية لها، انطلاقاً من مبادئ

= الدولية التي بدأت مع مُحكمة نورمبورغ، واستمرت مع المحاكم الجنائية الخاصة بكل من رواندا وسيراليون ويوغوسلافيا إلى تأسيس المحكمة الجنائية الدولية بموجب اتفاقية روما عام 1998.

(4) يُراجع الجزء المُخصّص للعدالة الانتقالية في: لور أبي خليل وعزة ح. سليمان: «أزمة مخطوفي الحرب الأهلية في لبنان ومعايير إرساء العدالة الانتقالية. (حالة المخطوفين في السجون الإسرائيلية)»، ورقة مقدّمة إلى مؤتمر العدالة الانتقالية والتغيير الديمقراطي، تونس، 21 - 23/11/2019، تمّ تحكيّمها، بانتظار نشر الكتاب الصادر عن المؤتمر.

القانون الدولي الإنساني أو قواعد حقوق الإنسان، مع ما تتضمنه هذه الأخيرة من أبعاد جديدة ومستحدثة مرتبطة بقواعد التنمية المستدامة.

لا شك أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية أنتجت نصوصاً دولية تُعنى بحماية الأطفال⁽⁵⁾ والنساء⁽⁶⁾، وتحولت هذه الاتفاقات إلى جزء من القوانين الدولية المُلزِمة بالنسبة إلى الدول المُصادقة عليها أو إلى نصوص ذات قيمة أخلاقية بالنسبة إلى الدول غير الموقعة. تزامنت هذه المرحلة مع دور فاعل للمجتمع المدني للضغط على السلطات المحلية لتبني حقوقها. إلا أن المرحلة النيوليبرالية طرحت تغييرات في إيقاع المرحلة الانتقالية، بحيث لم تعد حكرًا على الأطراف السياسيين المشاركين في مرحلة النزاع. فقد افترضت مبادئ التشاركية والحوكمة مشاركة هيئات المجتمع المدني في القرار السياسي، انطلاقاً من مبادئ الديمقراطية بمفهومها المعاصر. وأصبحت قضايا هذه الهيئات جزءاً من القضايا السياسية العامة. وتبلور هذا الدور أكثر فأكثر في العدالة الانتقالية⁽⁷⁾.

بدأ الاهتمام بالقاصرات مؤخراً، وتجلّى واضحاً تركيز اليونسيف على واقعهن، إضافة إلى الفتيان والمراهقين ضمن خانة الأطفال. برز هذا التمييز الإيجابي على أثر التركيز على المساواة بين الجنسين تطبيقاً للهدف الخامس من خطة التنمية المُستدامة للأمم المتحدة 2030. وقد أفضى توجه المجتمع الدولي إلى إشراك المجتمع المدني في القرار والرقابة وتفعيل السياسات العامة، إنفاذاً للهدف السابع عشر لخطة التنمية المُستدامة، وإلى التعاون بين المنظّمات الدولية والمحلية لهذا الهدف.

نشير في هذا السياق إلى أمرين أساسيين: أولاً إن هذه القوانين، سواء المتعلقة بحقوق الإنسان أم بالقانون الدولي الإنساني، هي دولية بطبيعتها وهي تُفرض على الدول والأنظمة انطلاقاً من كونها عضواً في الأمم المتحدة وملزمة بأنظمتها وقراراتها طبقاً لمبادئ القانون الدولي العام، وهي المنظّمة المعنوية بحفظ الأمن والسلم الدوليين. كما أنها تخضع للقانون الجنائي الدولي إذا كانت عضواً في اتفاقية روما التي أسست

(5) اتفاقية حقوق الطفل للعام 1989.

(6) اتفاقية سيداو للعام 1979.

(7) عزّة سليمان، «حوكمة النزاع»، نشرة أفق، تصدر عن مؤسسة الفكر العربي، عدد 73 (تشرين الأول/أكتوبر 2017)،

ص7، متاح على: نشرة أفق الإلكترونية | مؤسسة الفكر العربي (arabthought.org).

المحكمة الجنائية الدولية أو إذا توافرت شروط صلاحية هذه المحكمة الأخيرة، أو من خلال تأسيس محكمة جنائية خاصة بقرار من مجلس الأمن الدولي. بغض النظر عن آلية الملاحقة والمعاقبة، تبقى هذه القواعد هي الإطار القانوني الراعي الذي سنحاول من خلاله البحث عن واقع النساء القاصرات وموقعهن في الإدارة القانونية لمرحلة ما بعد النزاع.

نشير ثانياً إلى أنّ الآلية التي يتم انتهاجها سواء في تطبيق القانون الجنائي الدولي أم العفو العام، هي آليات إدارة مرحلة ما بعد النزاع المسلح. فلا الملاحقات الجنائية تبدأ ولا العفو يُقرّ إلا عند وضع حدّ للنزاع القائم. لذلك، فإنّ المرحلة الانتقالية للمجتمع من حالة الحرب إلى حالة السلم هي الحقبة التي يُمكن من خلالها قراءة النهج الذي سيُعمد للمرحلة التأسيسية الجديدة. إلّا أنّ المرحلة الانتقالية وآلية إدارتها تُطبّق أيضاً على الحقبات السياسية التي تعيشها الدول وإن لم تكن نزاعاً مسلحاً. فإنّ احترمت هذه الآلية مبادئ العدالة الانتقالية نجحت المجتمعات في العبور الديمقراطي إلى دولة القانون والمؤسسات⁽⁸⁾. هذا العبور يتطلب، من أجل تحقيق العدالة، أخذ مصالح الضحايا على اختلافهم بعين الاعتبار. من بين هؤلاء الضحايا فتنا الأطفال والنساء، وربما النساء القاصرات كفئة مستقلة.

وبما أنّ المرحلة الانتقالية تتزامن مع مرحلة تأسيسية لنمط جديد في السياسة التشريعية والحقوقية، نجد أنّ الأطراف الفاعلة هي التي تُحدّد المصالح المحميّة. فكلّما كانت القضايا المطروحة واضحة ومحدّدة ومُقنعة، تسعى الهيئات المدنية من خلال اعتمادها على مبادئ القانون الدولي إلى الضغط لإشراكها في القرار أو لتبني قضيتها من قبل الأطراف المقرّرة.

لذلك ستركّز إشكاليّتنا على القواعد الحامية للنساء القاصرات لمعرفة تصنيفهنّ القانوني وطبيعة الحقوق التي سعى المشرّع لتكريسها وحمايتها وآلية تفعيلها. بهدف

(8) في هذه المرحلة، إذا قامت القوى الشريكة في احترام مبادئ الديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان، وسعت للمصالحة بين المكونات السياسية والاجتماعية، ووضعت أسساً لبناء الدولة على أساس العدالة لكلّ الضحايا - بالتعويض أو المُحاسبة -، ودولة المؤسسات والقانون واحترام مبادئ حقوق الإنسان، فإنّ هذه المرحلة تصنّف ضمن خانة العدالة الانتقالية التي تسعى إلى الانتقال الديمقراطي للمجتمع من مرحلة نزاع - مسلح أو لا - إلى مرحلة بناء الدولة بمعاييرها الحديثة المعاصرة.

التعمُّق في الإشكالية نسأل: كيف نقرأ في التجارب المنجزة الحماية المخصصة لهنّ ومدى فاعليّتها؟ وهل تشير التحوّلات المعاصرة إلى تخصيصهنّ بمُقاربةٍ خاصّة في سياسات الحماية؟ وهل يستدعي ذلك ضرورة تمثيلهنّ كفئةٍ خاصّة منفصلة عن النساء وعن الأطفال من أجل تفعيل حمايتهنّ وضمان حقوقهنّ لتحقيق العدالة؟ لنخلص إلى مدى تطلّب واقعهنّ التمثيل الخاصّ كفئةٍ منفصلة عن النساء وعن الأطفال.

ووفقاً للمنهج القانوني، نبدأ بحثنا في قواعد القانون الوضعي الدولي ومواقف المحاكم الدوليّة التي تُعتبر قراراتها أحد مصادر القانون الجنائي الدولي، ثمّ سنبحث في النتائج التي خلص إليها مسار العدالة الانتقاليّة التي تعتمد بدورها على مبادئ حقوق الإنسان، وكانت تجربة تونس الوحيدة المنجزة عربياً. ومن خلال تحليل مضمون النصوص وموقف المحاكم، سنبحث في مدى كفاية هذه المصادر من تقديم الضمانة الرسميّة الكافية لحماية هذه الفئة. كما سنقوم بتحليل برامج الشراكات الدوليّة - المحليّة لدعم الفئات المتضرّرة من الأزمات الاقتصاديّة المعاصرة، نُركّز على لبنان لما يُمثّله من واقع يجمع بين اللّجوء الإنساني والأزمة الاقتصاديّة الحادّة. ونستنتج واقع القاصرات في توجّه المنظّمات الدوليّة، وذلك بهدف استقراء المرحلة المُقبلة من الواقع الحقوقي العربي على وقع الحروب والأزمات المعاصرة.

القسم الأوّل: القاصرات في القانون الجنائي الدولي: نصاً واجتهاداً

تُشكّل القواعد المكرّسة في القانون الدولي الإنساني أساساً للملاحقات الجنائيّة على أساس القانون الجنائي الدولي. لذلك فإنّ القانون الدولي الإنساني تضمّن قواعد ومبادئ ونصوصاً دوليّة تختلف في مقاربتها عن الشرعة الدوليّة لحقوق الإنسان وتسعى إلى فرض الحماية للمدنيّين ومن ضمنها النساء والأطفال⁽⁹⁾، على اعتبار أنّها تستهدف الأشخاص

(9) تُشكّل اتفاقيّات جنيف الأربع للعام 1949 إحدى أهمّ الركائز للقانون الإنساني وقد خصّصت الاتفاقيّة الرابعة لحماية المدنيّين وقت الحرب وتهتمّ بكلّ ما يتصل بالمدنيّين لضمان احترام وحماية حياتهم وكرامتهم وممتلكاتهم ومُعتقداتهم وسلامتهم الجسديّة والعقليّة.

ويُضاف إلى هذه النصوص البروتوكول الأوّل الإضافي للنزاعات الدوليّة والبروتوكول الثاني الإضافي للنزاعات غير الدوليّة والبروتوكول الثالث الإضافي الخاصّ بمنّ يحمل شارة مميّزة:

للإطلاع على مضمونها: اتفاقيّات جنيف 1949 وبروتوكولاتها الإضافيّة - اللّجنة الدوليّة للصليب الأحمر (icrc.org).

الأكثر ضعفاً أو غير الحصينين. ومن دون أن ندخل في تحديد الأسباب الكامنة وراء هذه الحماية ونتائج الحروب وويلاتها على هذه الفئات، نركز مباشرة على النصوص الدولية الصادرة وكيفية تفعيلها في المحاكم الجنائية الدولية، في محاولة لاستنتاج واقع الحماية المخصصة للقاصرات في ظل المخاطر التي تعترضهن في الحروب.

الباب الأول: قراءة في النصوص الدولية الحامية للنساء والأطفال في أثناء النزاعات المسلحة

سنتناول النصوص الخاصة بالأطفال والنساء كلاً على حدة، في اتفاقات جنيف الأربعة والبروتوكولات الإضافية وفي نظام المحكمة الجنائية الدولية، لنخلص إلى الواقع القانوني للقاصرات على ضوء خصوصية الجرائم الواقعة عليهن.

بالنسبة إلى حماية الأطفال

فالطفل من ناحية هو شخص قانوني لا يمتلك الأهلية القانونية الكاملة، وبالتالي لا يملك شخصيةً فرديةً معترفاً بها كشخصٍ مستقلٍّ أمام القانون، بخلاف المرأة الراشدة صاحبة الشخصية القانونية المكتملة. لذلك يوكل توفير الحماية لهم والدفاع عن مصالحهم للأوصياء من الأهل أو الأقارب في غياب الأهل، وإلا لمؤسسات الرعاية الاجتماعية والقضائية⁽¹⁰⁾. هذا على مستوى التوصيف القانوني، أما على المستوى الإنساني، فهو فرد له احتياجات محدّدة لينمو بشكلٍ طبيعيٍّ من الناحية الجسدية والعقلية، لذلك سعت القوانين الدولية والمحلية لفرض ضمانات حمائية لنمو الأطفال ضمن الأسرة والمجتمع، وكانت «اتفاقية حقوق الطفل» الصادرة عن الأمم المتحدة في العام 1989.

وبما أنّ الأطفال يتأثرون بدرجة كبيرة بالحروب والنزاعات وأوضاع الفقر الناتجة عنها، أخذت اليونيسيف على عاتقها التعاون مع الهيئات الفاعلة لتوفير الحماية والإغاثة من انعكاسات الحروب الأمنية والاقتصادية والاجتماعية. إنّ ضرورة نمو الطفل السليم فهي مرتبطة بأثر ذلك على كيانه القانوني ودوره الاجتماعي لاحقاً.

(10) «القاموس العملي للقانون الدولي الإنساني»، موقع أطباء بلا حدود، متاح على: Médecins Sans Frontières | القاموس العملي للقانون الإنساني (guide-humanitarian-law.org).

صوّتت الجمعية العامة للأمم المتحدة على القرار (29 - د) 3318 الصادر في 24 كانون الأول/ديسمبر عام 1974⁽¹¹⁾ الذي بموجبه أطلقت إعلاناً بشأن حماية النساء والأطفال في حالات الطوارئ وفي المنازعات المسلحة. هذا القرار إضافة إلى المادة 38 من اتفاقية حقوق الطفل، أولت العناية الخاصة للأطفال في فترة النزاعات المسلحة الدولية والأهلية. ومنذ ذلك التاريخ صدرت قرارات عديدة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي تناول هذه الحماية⁽¹²⁾. وفي 25 أيار/مايو 2000 اعتمدت الأمم المتحدة «البروتوكول الاختياري لاتفاقية حقوق الطفل والمتعلقة بمشاركة الأطفال في النزاعات المسلحة»⁽¹³⁾. نلفت إلى اختلاف الطبيعة القانونية لكل من القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة والإعلانات الدولية والاتفاقات الدولية وإلى قيمة كل منهما على مستوى الإلزامية، وطريقة تفعيلها⁽¹⁴⁾.

وقد تناولت هذه النصوص التوجّهات الدولية لانتزاع الأطفال وحمايتهم من آثار النزاعات المسلحة، وإجلاء الأطفال وانتزاعهم من الأنشطة المسلحة، إضافة إلى حمايتهم كلاجئين⁽¹⁵⁾. فتنحصر حماية الأطفال في هذا السياق بالإغاثة من أثر النزاعات والحروب، بالإضافة إلى عدم مشاركتهم بالأنشطة المسلحة أو استغلالهم في ذلك. إنّ السلاح الحربي لا يعني بالضرورة الأسلحة الميدانية التي يستغلّ فيها عادة الأطفال الذكور، إنّما

(11) «إعلان بشأن حماية النساء والأطفال في حالات الطوارئ والمنازعات المسلحة»، الأمم المتحدة حقوق الإنسان مكتب المفوض السامي، متاح على: مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان | إعلان بشأن حماية النساء والأطفال في حالات الطوارئ والمنازعات المسلحة (ohchr.org).

(12) وبشكل خاص القرارات التالية: 157/48، 209/49، 210/49، 211/49، 212/49، 153/50، 77/51.

(13) البروتوكول الاختياري لاتفاقية حقوق الطفل بشأن اشتراك الأطفال في المنازعات المسلحة، اعتمد بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 263 الدورة 54 في 2000/5/25، دخل حيّز التنفيذ في 2002/2/23: مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان | البروتوكول الاختياري لاتفاقية حقوق الطفل بشأن اشتراك الأطفال في المنازعات المسلحة (ohchr.org).

(14) وهي ليست مدار بحثنا، علماً أنّ الاتفاقية الدولية ومن ضمنها البروتوكول الإضافي هو الوحيد المُلزم عندما تُصادق عليه الدولة، فيتحوّل بذلك إلى مصدر تشريعي في قانونها الداخلي. أمّا فاعلية قرارات مجلس الأمن فهي مرهونة بميثاق الأمم المتحدة والآلية التي تتبناها لتطبيقه وفقاً للبند السادس أو السابع بالنسبة إلى الدولة العضو في هذه المنظمة. وذلك بخلاف الإعلان الذي يبقى ذا قيمة أخلاقية، ويصبح وفقاً للمفاهيم الحديثة في ظلّ الحوكمة جزءاً من القواعد اللينة.

(15) Mario BETTATI, *Droit humanitaire* (Paris, Dalloz, 2012), 189-191, no 361-365.

اعتبر استغلال النساء جنسياً هو أيضاً أحد الأسلحة الحربية. فهل يخضع النوعان من الأسلحة للمعاملة نفسها؟

وبالنسبة إلى النساء...

فهنّ من الفئات الأكثر ضعفاً بين فئات السكّان المدنيين، وبشكل خاصّ عندما يكنّ في حالة الحمل أو ضحيّة اعتداءات جنسيّة. هذه الأعمال العدائيّة والمخاطر تزايد بشكل ملحوظ في أثناء الحروب⁽¹⁶⁾.

لم يكنّ التعامل مع النساء في فترات الحروب خاضعاً لنصوص خاصّة قبل العام 1929، حيث ركّزت عليه اتّفاقيّة جنيف المتعلّقة بالتعامل مع أسرى الحرب⁽¹⁷⁾، وذلك بسبب دور النساء في الحرب العالميّة الأولى. وإن كانت الاتّفاقات الدوليّة كرّست مبدأ عدم التمييز في الحماية والتعامل بين النساء والرجال، إلّا أنّها أيضاً أنّنت على تمييزها إيجاباً عندما يتعلّق الموضوع بظروف على أساس الجنس⁽¹⁸⁾. وقد تميّزت النصوص المتعلّقة بالنساء بحمايات خاصّة وأنواع خاصّة من الانتهاكات من خلال تركيزها على الخصوصيّة الفيزيولوجيّة، وعلى مفهوم الشرف والحرمة، وعلى ظرف الحمل والولادة. ومن بين 560 مادة قانونيّة تتعلّق بضحايا الحرب في اتّفاقيّات جنيف الأربع للعام 1949 والبروتوكولات الإضافيّة للعام 1977، تناولت أربعين مادّة النساء بشكل خاصّ⁽¹⁹⁾.

وفي النظام الأساسي للمحكمة الجنائيّة الدوليّة⁽²⁰⁾، وُضع تعريف كلّ من جرائم الحرب والجرائم ضدّ الإنسانيّة وأدرج من ضمن الممارسات التي تُكوّن هذه الجرائم «الاغتصاب أو الاستعباد الجنسيّ أو الإكراه على البغاء، أو الحمل القسريّ، أو التعقيم القسريّ أو أيّ شكلٍ آخر من أشكال العنف الجنسيّ على مثل هذه الدرجة من الخطورة»

(16) M. BETTATI, *ibid*, p. 193-195, no 370-371.

(17) الاتّفاقيّة المتعلّقة بمعاملة أسرى الحرب، جنيف، 27 تمّوز/يوليو 1929، والتي كانت أساساً لاتّفاقيّة جنيف الثالثة للعام 1949، تناولت المادتين 3 و4 من إشارة إلى الأخذ بعين الاعتبار بخصوصيّة واقع النساء.

(18) نذكر مثلاً نصّ المادة 14 من اتّفاقيّة جنيف الثالثة للعام 1949 والمادة 13 من اتّفاقيّة جنيف الأولى والثانية.

(19) Françoise KRILL, «La protection de la femme dans le droit international humanitaire», *Revue internationale de la Croix-Rouge*, (31/12/1985): 756 La protection de la femme dans le droit international humanitaire-CICR (icrc.org) consulté le 7/9/2021.

(20) «نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائيّة الدوليّة المُعتمد في روما في 17 تمّوز/يوليو 1998»، اللّجنة الدوليّة للصليب الأحمر [icrc.org](https://www.icrc.org/ar/doc/resources/documents/misc/6e7ec5.htm)، متاح على: <https://www.icrc.org/ar/doc/resources/documents/misc/6e7ec5.htm>

و«تجنيد الأطفال دون الخامسة عشرة من العمر إلزامياً أو طوعياً في القوّات المسلّحة أو في جماعات مسلّحة أو استخدامهم للمشاركة فعلياً في الأعمال الحربيّة»⁽²¹⁾.

فيكون بالتالي البحث في النصوص المرتبطة بالتعرّض للقاصرات، وانطلاقاً من تقاطع النصوص الحامية للنساء والأطفال، تتناول ضحايا الاعتداء الجنسيّ على فئة القاصرات الخاضعات لتصنيف الأطفال. فهل يُشكّل استغلال القاصرات جنسياً - كسلاحٍ حربيّ - واقعاً يستدعي حمايةً من نوع خاصّ؟⁽²²⁾

نطرح هذا السؤال لكون اتّفاقيّة حقوق الطفل قد حدّدت في مادّتها 38، عطفاً على مضمون نظام المحكمة الجنائيّة الدوليّة، سنّ الخامسة عشرة لاشتراك الأطفال اشتراكاً مباشراً في الحرب من خلال تطوّعهم الإراديّ في القوّات المسلّحة⁽²³⁾. غير أنّ البروتوكول الاختياري للعام 2000 قد طالب الدول الموقّعة برفع سنّ التطوّع في القوّات المسلّحة إلى سنّ الثامنة عشرة في مادّته الثالثة، ومنع فرض هذا التطوّع جبراً وقسراً⁽²⁴⁾، على أنّ تتخذ الدول الموقّعة على الاتّفاقيّة كلّ التدابير التي تحول دون تجنيد هؤلاء الأشخاص في المجموعات المسلّحة المتميّزة عن القوّات الرسميّة⁽²⁵⁾.

مقابل المشاركة الإراديّة بناء على المعرفة المستنيرة وموافقة الأوصياء القانونيين على هؤلاء القُصّر، لا يمكننا اعتبار أنّ القاصرات من العمر نفسه اللواتي يقعن ضحيّة الاعتداء الجنسيّ أو الاستغلال الجنسيّ خاضعات للمشاركة التطوّعيّة باستخدامهنّ سلاح الجنس. فالاتّفاقيّة تُعنى فقط بالقوّات المسلّحة، ولا يُطبّق على كلّ ما صُنّف بأسلحة حرب كالاغتداءات الجنسيّة الممنهجة، إضافة إلى ابتعاد طبيعتها عن التطوّع الإراديّ. ولكن، وطالما التفت المشرّع إلى خطورة مشاركة القاصرين في الأعمال المسلّحة نظراً لخطورة هذا النشاط على نموّ المراهق النفسيّ والجسديّ، واتّجه نحو

(21) المادّة 7 من نظام المحكمة: الجرائم ضدّ الإنسانية؛ والمادّة 8: جرائم الحرب.

(22) نلفت في هذا السياق إلى أنّ الجريمة الواقعة على القاصرين تستدعي تشديداً في العقوبة، غير أنّ العقوبة الجنائيّة لا تكفي لتحقيق العدالة إن لم نبحث عن آليات خاصّة بالحماية ونهج خاصّ للتأهيل. هذا ما يتطلّب توضيحه في الدراسات الاجتماعيّة والنفسية في واقع المرأة العربيّة.

(23) يُمكن مراجعة مضمون المادّة 38 على الرابط التالي: مفوضيّة الأمم المتّحدة السامية لحقوق الإنسان | اتّفاقيّة حقوق الطفل (ohchr.org).

(24) في المادّة 3: مراجعة الرابط المذكور في الهامش 12.

(25) في المادّة 4 منه.

البحث عن ضمانات لحمايته وإعادة تأهيله نجد أنه على المشرّع الدولي أن يلتفت إلى الفئة العمرية نفسها من الإناث لما لمخاطر الاعتداء عليهنّ من أثر بالغ على تكوينهنّ النفسي والجسديّ.

هذا لناحية النصوص، أمّا لناحية تفعيلها فهل تتعامل المحاكم بشكلٍ عادل على مستوى واقع هؤلاء الفتيات انطلاقاً من التمييز الإيجابي الناتج عن النوع الاجتماعيّ؟ لم تخضع الحروب التي وقعت في الدول العربيّة لغاية الآن لمُحاكمات خاصّة ليتمّ استنباط واقع خاصّ بحالات النساء العربيّات القاصرات، وإنّ كنّ تعرّضن لانتهاكاتٍ متعدّدة. فالقاعدة القانونيّة هي قاعدة عامّة مجرّدة وتُشكّل القرارات الصادرة عن المحاكم الجنائيّة الدوليّة مصدراً للقاعدة القانونيّة تستوحي منها أيّ محاكمة دوليّة أخرى. لذلك سنسعى للبحث عن الاعتداءات الجنسيّة على النساء في اجتهادات المحاكم الدوليّة. كيف فسّرت النصوص وكيف سعت لتطبيقها في المُحاكمات التي تلت الحروب الحاصلة في نهاية القرن الماضي، ولما تزل محاكماتها سارية.

الباب الثاني: تفسير النصوص الدوليّة وآليّة تفعيلها

سعى القانون الجنائيّ الدوليّ، بشكل دقيق، لتجريم الاغتصاب والإجبار على ممارسة الدّعارة، والخدمات الجنسيّة وغيرها من الأعمال الماسّة بحرماتها أو تنتهك عرضها. فالاعتداءات الجنسيّة شكّلت أكثر أنواع الاعتداءات على النساء في فترات الحروب والمُستخدمة من كلّ المُشاركين في النزاع، لذلك فقد خصّتها الاتّفاقات الدوليّة بالبروتوكول رقم 1 الإضافيّ على اتّفاقات جنيف للعام 1949 والصادر في 8 حزيران/يونيو 1977. إلّا أنّ وجود النصوص الحماية لا تعني بالضرورة تطبيق الحماية المرجوّة. فالموضوع يتعلّق بمسار المحاكمة والتحقيق وجمع الأدلّة وتوصيف المحكمة.

في تفسير النصوص، اعتُبرت الاعتداءات الجنسيّة على النساء بأنّها أحد أشكال الأسلحة المُستخدمة في الحروب، لما تُنتجه من أثار كالتزويج والحمل بالإكراه، والتي غالباً ما تهدف إلى تغيير في المكوّنات الاجتماعيّة للسكّان لأغراض عرقية. لذلك، فإنّ استخدام العنف الجنسيّ بشكلٍ مُمنهَج بهدف التعذيب أو الإيذاء أو الحصول على

معلوماتٍ أو للإهانة أو التهديد أو الإحراج أو للمُعاقبة وعندما تكون هذه الأهداف مرتبطة بالنزاع المسلّح، فإنّ هذا الاستخدام يُشكّل جرماً من الجرائم المُعاقب عليها في القانون الجنائيّ الدوليّ.

كما جرّمت المحاكم الجنائيّة الدوليّة العديد من الممارسات ضمن المُحاكمات التي جرت أمامها. نذكر منها الحكم الصادر عن الغرفة الابتدائيّة في المحكمة الخاصّة بيوغوسلافيا التي اعتبرت أنّ الاغتصاب وغيره من الاعتداءات الجنسيّة تُشكّل اعتداءً على الكرامة الإنسانيّة وبالتالي جريمة معاقب عليها. وبعبكس جريمة الاغتصاب المحدّدة في الأنظمة الداخليّة للعديد من المحاكم الجنائيّة، فإنّ الاعتداءات الجنسيّة بقيت وليدة الاجتهاد، حيث سعت المحاكم إلى تعريفها ومعاقبتها⁽²⁶⁾ نظراً لاعتدائها على الكرامة الإنسانيّة ولما تُشكّله من انتهاكٍ أساسيٍّ انظلاقاً من الأنظمة القانونيّة التي تحيل إليها أنظمة المحكمة، ومن الأعراف المعتمدة في الحروب والتي تُشكّل مصدراً للتقنين في القانون الدوليّ الإنسانيّ، ومنها المادة 3 المشتركة لاتفاقات جنيف للعام 1949 وللبروتوكول 2 الإضافيّ الصادر في 8 حزيران/يونيو 1977 حول حماية المدنيين في النزاعات غير الدوليّة.

ومن ضمن الأحكام التي صدرت عن المحكمة الجنائيّة الدوليّة التي تأسّست عام 2002، تُشكّل قضيّة بيمبا إحدى أهمّ القضايا التي عُرضت لمحاكمة أسوأ الجرائم التي ترتكب عبر العالم وهي استعمال الاغتصاب والعنف الجنسيّ كسلاح حرب. كما تُعتبر أوّل محاكمة يخضع لها نائب رئيس دولة وزعيم عسكريّ بوصفه مسؤولاً عن فظاعات ارتكبها رجاله حتّى وإن لم يأمرهم بذلك، وقد بُنيت على كونه «كان يتصرّف كقائد عسكريّ وكانت له السيطرة الفعلية على قوّاته في أفريقيا الوسطى طيلة فترة العمليّة».

(26) ينظر مثلاً إلى الدور الذي قامت به كلّ من محكمة يوغوسلافيا في تعريف الاغتصاب من خلال قضيّة كونارك. وقد كانت قضيّة أكاييسو أوّل قضيّة تُثير إلى تعريف الاغتصاب في محكمة روندا. لتحديد الوقائع والتوصيف القانونيّ الذي يُشكّل ركناً مادياً من أركان الجريمة. علماً أنّ جريمة الاغتصاب مجرّمة بموجب أنظمة المحاكم، فهذه الأخيرة سعت إلى تعريف الاعتداءات الجنسيّة وقياس النصوص من أجل تجريمها.

TPIY, le procureur c/Kvočka, affaire no IT-98-30/1, chambre d'instance I, 2001: le procureur c/Raji, affaire no IT-95-12, chambre d'instance I, 2004. V95-1-T, jugement de la chambre d'instance II, 1999. Cité chez: M. BETTATI, *op. cit.*, p. 194.

وكانت أول قضية تنظر فيها المحكمة الجنائية الدولية والتي ركزت على هذه المسؤولية التي نصّت عليها المادة 28 من اتفاقية روما⁽²⁷⁾.

إلا أن هذا الحكم الذي شكّل انتصاراً للعدالة بحق النساء ما لبث أن تمّ استئنافه وفسخته محكمة الاستئناف بأكثرية أعضائها بقرارها الصادر في 8 حزيران/يونيو من العام 2018⁽²⁸⁾، حيث استنتجت من معطيات القضية أنّ بيمبا لم يكن مسؤولاً عن هذه الاعتداءات بصفته قائداً عسكرياً لعدم وجود أدلة كافية تدينه. وقد أثار هذا الحكم النهائي جدلاً واسعاً في أوساط الأكاديميين والحقوقيين نظراً لما يُمثّله من مصدرٍ للقلق على ضحايا الجرائم الجنسية، مركّزين على موقف القضاة المخالفين⁽²⁹⁾ الذين اعتبروا أنّ هذا القرار اتخذ - في تقديره للأدلة - منحىً مخالفاً لما اعتمدته اجتهادات غرفة الاستئناف في المحكمة الجنائية الدولية والمحاكم الخاصة⁽³⁰⁾.

هذا الجدل الحاصل يطرح تساؤلات جدية حول إمكانية حماية النساء من الاعتداءات الجنسية خلال فترة الحروب وهي المصنّفة ضمن خاتمة أسلحة الحرب. لم يصدر لغاية الآن قرارات تناولت النساء القاصرات اللواتي تعرّضن لهذه الانتهاكات، فهل يتطلّب الأمر حذراً أكبر في البحث عن الوقائع وتركيز الادّعاءات على واقعهنّ أم أنّ الانتهاكات لم تَظْهَرْ؟

من ناحية أخرى، إنّ حماية النساء من الاستغلال و/أو الاعتداء الجنسي لا تشمل فئة القاصرات ولكنها لا تنفيها. كما وأنّ حماية الأطفال في اتفاقية حقوق الطفل تتناول الحقّ في الصحة والسلامة والكرامة والتعلّم والاستغلال الجنسي والاستغلال في الحروب. فإنّ

Article 28. Responsabilité des chefs militaires et autres supérieurs hiérarchiques: French.pdf (un.org); (27)

«نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية المعتمد في روما في 17 تموز/يوليو 1998»، اللجنة الدولية للصليب

الأحمر (icrc.org)، متاح على: <https://www.icrc.org/ar/doc/resources/documents/misc/6e7ec5.htm>

في النزاعات المسلحة التي حصلت في أفريقيا الوسطى في 2002 - 2003.

(28) Bemba Case, «The Prosecutor v. Jean-Pierre Bemba Gombo; ICC-01/05-01/08», icc, consulté 7/9/2021 Bemba Case (icc-cpi.int).

(29) «Dissenting Opinion of Judge Sanji Mmasenono Monageng and Judge Piotr Hofmański: ICC-01/05-01/08-3636-Anx1-Red 08-06-2018 1/269 EC A», CR2018_02987.PDF (icc-cpi.int), consulté 7/9/2021.

(30) Marilynrubayika, «L'affaire Bemba: quelles implications futures pour les victimes de violences sexuelles basées sur le genre?», IntLawGrrls, 5/12/2018: L'affaire Bemba: quelles implications futures pour les victimes de violences sexuelles basées sur le genre? | IntLawGrrls (ilg2.org), consulté 7/9/2021.

كان استغلال النساء في الحروب يتم من خلال سلاح الاعتداء الجنسي فإنّ من شأن هذا السلاح أن يعرّض القاصرات لمخاطر استغلال أكثر عنفاً.

تبرز أهميّة الاطلاع على الواقع القانوني والقضائي الذي تناول القاصرات في معرفة ضعف النصوص أو مدى شموليّتها والمخاطر الكامنة وراء تجاهل فئة القاصرات التي تتطلب حماية أكثر دقّة. هذه المعرفة، تُسهم في حال حصول محاكمات على جرائم الحرب أو الجرائم ضدّ الإنسانيّة التي وقعت على المواطن العربيّ أن يتم توجيه النصوص والمحاكمات بما يخدم خصوصيّة الضحايا وخصوصيّة واقع كلّ بيئة على حدة.

يُضاف إلى العنف الماديّ والجنسيّ والأمنيّ، وهي أبعاد العنف المكرّسة في النصوص الراحية للحروب في القانون الجنائي الدوليّ والقانون الدوليّ الإنسانيّ مسألة العنف العائليّ والعنف الاقتصاديّ الذي يتفاقم في الأزمات وتعرّض الطفلات له بشكل خاصّ سواء في الأسر أو في المؤسّسات الاقتصاديّة وبشكل خاصّ في الاقتصاد غير الرسميّ. وهي تُشكّل انتهاكاً للحقّ في الكرامة والتعلّم، المكرّسة بموجب القانون الدوليّ الإنسانيّ. لذلك، برز في المُجتمعات التي تعيش أزماتٍ اقتصاديّة - اجتماعيّة، سواء كانت تعيش حالة النزاع المسلّح أو تعرّض لآثاره، برامج دوليّة تُركّز على عمالة القاصرات وعلى العنف ضدّ النساء والعنف الأسريّ الذي يشمل الإناث كفئة مهمّشة والإناث القاصرات كفئة أكثر تهميشاً ضمناً.

القسم الثاني: النساء القاصرات: طرفاً معنياً جدياً في

المرحلة الانتقاليّة على وقع الأزمات المُعاصرة

لم تلتفت القوانين الدوليّة إثر الحربين العالميّتين إلى فئة النساء القاصرات، غير أنّ تطوّرات نهاية القرن الماضي انعكست تعييراً ملحوظاً في إدارة هذه المُجتمعات والنظر إلى فئاتها، كما انعكست في طبيعة القوانين وآليّة تفعيلها⁽³¹⁾. نلاحظ اعتماد مبادئ الحوكمة والمسؤوليّة الاجتماعيّة والوسائل البديلة لحلّ النزاع مع ما تتضمنه من قوانين

(31) عزّة سليمان، «التحوّلات في الأنظمة القضائية المعاصرة»، في نساء لبنان في سلك القضاء: تعزيز السائد وإهمال الهوامش، سليمان وش. بيضون (الدوحة: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات 2021)، بانتظار الإصدار.

لِيُتَنَ نافست واقعياً قواعد القانون الوضعي⁽³²⁾. ولعلّ أبرز ما يعيننا من هذه التحوّلات إدخال مبدأ المصالحة بين الفئات المُتَحَارِبَةِ أو المُتَنَازِعَةِ والضحايا بغية تخطّي الأزمات والأحقاد التي انبثقت وتعمّقت في مرحلة الحرب.

لا يُمكننا أن ننكر أنّ القاصرات هنّ من الضحايا التي تترك الحرب أوزارها في نفوسهنّ ونموهنّ. فهل أخذن بعين الاعتبار في أثناء مرحلة العدالة الانتقاليّة في تونس وهي الدولة العربيّة الوحيدة التي اعتمدت هذا المسار وأصدرت تقريره الختاميّ. وكيف تتعامل السياسات العامّة الدوليّة مع هذه الفئة، في ظلّ الأزمات الاقتصاديّة المتأثّرة بظروف الحرب، انطلاقاً من الواقع اللبنانيّ؟

الباب الأوّل: تجربة تونس والعدالة الانتقاليّة

قدّمت التجربة التونسيّة نموذجاً للمصالحة والتعويض عن الأضرار الناتجة عن انتهاكات الحقوق المدنيّة والسياسيّة التي سادت خلال حكم بن علي (والتي لم تكن مرحلة نزاع مسلّح)، وفي استعادة الأموال المنهوبة وتعزيز الحوكمة والشفافيّة. بين العدالة والاستقرار يُشكّل حكم القانون إذاً المعيار الفصل، وفقاً للخيارات المُتاحة في الأنظمة الديمقراطيّة. ويرتبط حكم القانون بالحوكمة وحسن تمثيل مختلف الأطراف المعنيّة وتطبيق مبادئ حقوق الإنسان في جيلها الثالث مع ما تتضمنه من جرائم اقتصاديّة ومكافحة الفساد وحماية البيئة وتحقيق التنمية المُستدامة⁽³³⁾.

خلال مسار العدالة الانتقاليّة، فإنّ تونس استطاعت أن تُنجزَ مرحلة التحقيق والتعويض عن الضحايا. فانطلاقاً من قواعد حقوق الإنسان استطاعت هيئة الحقيقة والكرامة من تحديد الضحايا والتعويض عليهم، ومن بينهم نذكر فِئتي الأطفال والنساء،

(32) في المبدأ لا يُمكن للقواعد اللّينة أن تعلو على القواعد الوضعيّة، فلا تتحقّق المسؤوليّة الاجتماعيّة إذا لم تكن المنظّمات (الدول والمؤسسات والجمعيات والشركات) خاضعة لحُكم القانون. إلّا أنّ الواقع المُجتمعيّ العربيّ يُظهر ضعفاً في التفاعل بين المواطن والقوانين، فتضعف مؤسسات الدولة وفعاليّة القاعدة القانونيّة أمام ازدهار التركيز الشكليّ على البحث عن تصنيفات دوليّة من مؤسسات خاصّة. هذا الواقع يتنافى مع طبيعة الحوكمة والمسؤوليّة الاجتماعيّة وفقاً للمعنى القانونيّ.

(33) إدارة المرحلة الانتقاليّة على أسس العدالة يُمكّن المُجتمع من تخطّي أزماته، واستعادة الثقة بين مكُوناته، بهدف إعادة بناء الدولة؛ عزة سليمان، «التنمية المُستدامة ومتطلّبات حُكم القانون»، موقع مركز بيان للدراسات والتخطيط، متاح على: التنمية المُستدامة ومتطلّبات حُكم القانون | البيان (bayancenter.org).

انطلاقاً من قواعد حقوق الإنسان الدولية بطبيعتها. وبذلك، أسهمت الهيئة، عند التدقيق بواقع النساء والأطفال، في تطبيق هذه القواعد المجردة على الوقائع المثبتة المنتهكة لتلك الحقوق في مرحلة الاستبعاد. فكيف نستنبط حماية القاصرات في هذه التجربة؟ وهل يتطلب الأمر العمل على حماية خاصة لهذه الفئة على ضوء نتيجة التجربة التونسية؟ لم يتم تسليط الضوء على النساء القاصرات كضحية مباشرة أو غير مباشرة في القانون 2013/53 الذي أسس هيئة الحقيقة والكرامة وأوكلها مهمة تنفيذ مسار العدالة الانتقالية، ونظم مضمون هذا المسار وآلياته. تناول هذا القانون الضحايا بعنوان جبر الضرر بحيث قدم تعريفاً للضحايا ودور الدولة في تقديم العناية الفورية والتعويض الموقت للفئات الهشة، وأشار ضمنها إلى النساء والأطفال. كما تكفلت الدولة بمصاريف التقاضي في قضايا حقوق الإنسان⁽³⁴⁾.

لذلك، وفي معرض توثيقها للانتهاكات التي حصلت لمبادئ حقوق الإنسان، ركزت هيئة الحقيقة والكرامة في تقريرها الختامي على انتهاكات حقوق الإنسان في الباب الثاني من الجزء الأول، وفي الباب الثالث الانتهاكات التي استهدفت النساء. نلاحظ في هذا السياق فصل استهداف النساء عن باقي حقوق الإنسان لما لهذه الفئة المجتمعية من دور في التمثيل الديمقراطي الحديث. وضمنتها عنواناً عن أثار الانتهاكات على الأطفال. لم تخصص القاصرات بعنوان خاص أو بحالة خاصة. نستنتج ضمناً أن التقرير اعتبر الانتهاكات بحق الأطفال أثراً من انتهاكات النساء، وهذا بذاته مثيراً للنقاش. كما قسّمت الأطفال إلى فئتين، انطلاقاً من التصنيف القانوني: الضحايا المباشرين في قضايا الاغتصاب والعنف الجنسي والتحرش الجنسي سواء في أماكن التوقيف أو السجون أو في أماكن أخرى، وفي قضايا التعذيب وفي الاحتجاز وفي انتهاك الحق بالتعلم أو الطرد أو النبذ في المدارس. والضحايا غير المباشرين من الأطفال وصنفتهم بحالات أبناء المساجين كضحية غير مباشرة للتعذيب والانتهاكات التي حصلت على الأهل، وتأثيرات سجن الأهل على هؤلاء الأطفال.

(34) قانون أساسي عدد 53 لسنة 2013 مؤرخ في 24 كانون الأول/ديسمبر 2013 يتعلق بإرساء العدالة الانتقالية وتنظيمها، (الفصول 10 - 12 - 13).

وقد سجّلت الهيئة 198 شكوى لانتهاكات تتعلّق بأطفال كضحايا مباشرين تتراوح أعمارهم بين 6 و18 عاماً، وأوضحت أنّ 170 من الشكاوى تتعلّق بذكور و28 حالة تتعلّق بإناث. توزّعت بين ضحايا مباشرين وضحايا بسبب قربانهم للضحية شملت ولايات وأعماراً مختلفة. وقد ذكر الأطفال - بحسب التقرير - تعرّضهم إلى اعتداءات جنسية بحيث سجّلت الهيئة 28 حالة، شكّل 17% من هذه الحالات اعتداء على الإناث. ما يُشير إلى أنّها لم تقع حصراً على القاصرات، إنّما 83% من الحالات المؤثقة للاعتداء الجنسي تناولت أطفالاً ذكوراً. أمّا في انتهاكات التعذيب والاحتجاز والتعلّم فلم يعرض التقرير نسبّ التصنيف الجندي للضحايا⁽³⁵⁾.

وفي الجزء الرابع من التقرير، بعنوان جبر الضرر وردّ الاعتبار، فقد أدرجت فئة النساء والأطفال والمعوقين وغيرها من الفئات الهشة وخصّصت لهم/ن مقارنة مختلفة تتعلّق بالاندماج الاجتماعي والتصدي لأشكال التمييز المختلفة.

واعتبرت أنّ «الأطفال يُعدّون من بين أكثر الفئات الهشة التي طالها العنف من جرّاء الانتهاكات المرتكبة من قبل الأنظمة القمعية السابقة. حيث إنّ الانتهاكات لم تشمل الأطفال على خلفيّة تكوين مواقفهم وبناء آرائهم... أو عند ممارستهم لأنشطة التلمذة فقط، بل شملت أيضاً الأطفال بحكم علاقة القرابة التي تربطهم بضحايا آخرين». وقد كشفت جلسات الاستماع عن حقائق تمثّلت في «استنطاقات وعنف لفظي وجسدي وتخويف وترهيب...»، «وإهانات وإيقافات بطرق غير مشروعة وتعذيب جسدي ولفظي ونفسي واعتداءات جنسية من قبل أعوان الأمن أو حتّى من قبل المساجين البالغين... فوجود الأطفال بالسجون كان سبباً في استغلالهم جنسياً في غياب كامل للسلطات المعنية». أضاف التقرير «أنّ الانتهاكات كانت ممنهجة وجسيمة وتمثّلت في اقتحام للمساكن وتخويف للأطفال ومعاملتهم بطريقة حاطّة من الكرامة أو إهانة والديهم أمامهم وتشويه سمعتهم في محيطهم الاجتماعي والحرط من شأنهم معنوياً». ارتبطت هذه الممارسات بالعائلات المعارضة سياسياً. انعكس هذا التعامل بالسلب على الأطفال في مجال التعليم والأسرة وعلى المستوى النفسي والاجتماعي. وخلصت إلى

(35) الجمهورية التونسية - هيئة الحقيقة والكرامة، التقرير الختاميّ الشامل، الملخص التنفيذي، (أيار/مايو 2019)، ص.

أن العنف النفسي والمعنوي الذي تعرّض له الأطفال لا يقل أهمية وأثراً على الطفل من العنف المادي.

أمّا لناحية النساء فقد وثّقت جلسات الاستماع أشكال الانتهاكات، إضافة إلى الانتهاكات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحق المرأة الراشدة، تعاملًا مسيئًا من قبل رجال الأمن الذين «يركّزون على ممارسة العنف الجنسي أو العنف اللفظي المبني على النوع الاجتماعي والذي يتمثل في الشتم والسخرية من الجسد والمظهر، والإهانة والتهديد والتحقير...» إضافة إلى تعرّضهنّ للتحرش الجنسي ومحاولات الاغتصاب، بحسب بعض الشهادات التي «لم تتجرّأ المرأة من إيداع ملفات» بشأنها لدى الهيئة «لاعتبارات اجتماعية ونفسية»⁽³⁶⁾.

في قراءة لهذه النتائج، ومع التركيز على الخوف من الوصم والعار لدى النساء، يُمكننا أن نركّز على خصوصية المرأة القاصرة أمام هذه الاعتداءات، بسبب واقع هذه المجتمعات، وانعكاس ذلك على مستقبلها وزواجها.

كما أنّ تركيز الهيئة على الانعكاسات النفسية والاجتماعية للانتهاكات المؤثقة وعلى اعتماد جبر الضرر المعنوي، تظهر خصوصية فئة القاصرات في الحماية نظراً لخصوصية الآثار النفسية والمعنوية إضافة إلى الجسدية عليهنّ.

كما أقرّت الهيئة بأن جبر الضرر الواقع على الأطفال والنساء لا يتركز على التعويض المادي بل ينبغي أن يركّز على الجهود في تصحيح الضرر عبر إعادة التأهيل والإدماج لتحقيق الطمأنينة وإخراجهم من بوتقة المظلومية إلى العمل الفعلي للحقوق ووضع المواطنة المتساوية⁽³⁷⁾. نتساءل في هذا السياق عن آليات فعالة لتحقيق هذا المبتغى على واقع القاصرات، في ظلّ العقليات السائدة في المجتمعات العربية، إن لم تُخصّص هذه الفئة بحماية خاصّة وسياسات عامّة واضحة وبرامج علمية وعملية تركز عليهنّ كفئة منفصلة ومستقلّة عن غيرها من الفئات سواء النساء أو الأطفال. فالضحية المباشرة ستعيش هذه المعاناة في حياتها وتنقلها إلى بناتها وأبنائها لاحقاً، ليصبح هؤلاء أيضاً ضحايا غير مباشرين للانتهاكات التي تعرّضت لها الأم.

(36) التقرير نفسه، ص 369 - 370، وص 378 - 379.

(37) التقرير نفسه، ص 383.

الباب الثاني: واقع القاصرات أثناء الأزمات الاقتصادية

ولئن كان استغلال الأطفال والطفلات في العمل عاملاً دائماً في الحروب وأحد أهم أشكال الانتهاكات والجرائم، إلا أنّ تركيز منظمة اليونسف مؤخراً على هذا الاستغلال يُعتبر مؤشراً على خطورته نظراً للتحوّلات التي تحكم العالم النيوليبرالي والتطوّف الذي يعيشه الاستغلال الاقتصادي لحقوق الإنسان والمُهمّشين والمُستضعفين على وجه التحديد ومنها فئة الأطفال والنساء. فمع هذه التحوّلات، ضعف دور الدولة كجهة ضامنة لحقوق الإنسان الأساسية وأعيد طرح مفهوم الحقوق الطبيعية بدلاً منها. ارتبط هذا التحوّل بضعف القيود القانونية على حرية الاستثمار التي دخلت مرحلة الليبرالية على حساب الضمانات التي كرّستها القوانين الوضعية. في خضمّ هذا التحوّل أصبحت الأزمات الاقتصادية إحدى أدوات الحرب، مواكبة لها أو بديلاً عنها.

كما وأنّ الأزمات والحروب ليست منفصلة بطبيعتها عن استخدام الأطفال في العمل المسلّح، وهذا ما سعى لمواجهته البروتوكول الاختياري لاتفاقية حماية الطفل، ما استلزم التعاون مع منظمة العمل الدولية ضمن تطوير قواعد القانون الدولي الإنساني. وقد ورد في مقدّمة البروتوكول اعتمادها اتفاقية منظمة العمل الدولية رقم 182 بشأن حظر أسوأ أشكال عمل الأطفال والإجراءات الفورية للقضاء عليها، بالإجماع في حزيران/يونيو 1999⁽³⁸⁾. عدّدت المادة الثالثة من هذه الاتفاقية ما تعتبره أسوأ أشكال عمل الأطفال، وذكرت في فقرتها الأخيرة «الأعمال التي يُرجّح أن تؤدّي، بفعل طبيعتها أو بفعل الظروف التي تزاوّل فيها، إلى الإضرار بصحة الأطفال أو سلامتهم أو سلوكهم الأخلاقي». وفي متن مقدّمة هذه الاتفاقية، ركّزت منظمة العمل الدولية على أنّ «الفقر هو - إلى حدّ كبير - السبب الكامن وراء عمل الأطفال وأنّ الحلّ على الأمد الطويل يكمن في النمو الاقتصادي المستدام الذي يفضي إلى التقدّم الاجتماعي، ولاسيّما تخفيف حدّة الفقر والتعليم على صعيد عالمي».

(38) اتفاقية بشأن حظر أسوأ أشكال عمل الأطفال والإجراءات الفورية للقضاء عليها، 1999 (رقم 182)، اعتمدت من طرف المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية في 17 حزيران/يونيو 1999، بدأ نفاذ هذه الاتفاقية في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 2000: مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان | اتفاقية بشأن حظر أسوأ أشكال عمل الأطفال والإجراءات الفورية للقضاء عليها (ohchr.org).

هذا التوجُّه مع بداية القرن الحالي لم يلتفت إلى استغلال الأطفال بعملٍ رسميٍّ أو غير رسميٍّ ناتج عن التحوُّلات النيوليبرالية، علماً أنَّ بداية القرن كانت مرحلة بدء تفعيل هذا النهج الجديد وصدور قوانين دولية ومحلية لمكافحة الفساد وتجريم تبييض الأموال وغيرها من الأطر التجريبية للجرائم الاقتصادية. عدم تناول هذا التوجُّه لا ينفي تطبيق مضمون هذه الاتفاقية في الأزمات الاقتصادية الحادة، وخصوصاً عندما تكون متزامنة مع نزاع سياسيٍّ، بما أنَّ الاتفاقية لم يرتبط تطبيقها بالضرورة بحالات الحروب والنزاعات المسلحة، إضافة إلى إشارتها إلى «الظروف التي تزاوِل فيها الأعمال». هذا ما يُبرِّر توجُّه منظمة اليونسيف إلى اعتماد برامج خاصة بالأطفال خلال الأزمة اللبنانية الحالية⁽³⁹⁾. فكيف ظهرت فئة القاصرات في توجُّه المنظمات الدولية؟

يظهر في مواكبة الواقع نهجاً واضحاً من المنظمات الدولية لحماية الفئات الهشة من الأزمة وبشكلٍ خاصٍّ الأطفال والنساء ضحايا العنف الأسري والعنف الاجتماعي. ولكن تسليط ضوء منظمة اليونسيف على أثر هذه الأزمات على الأطفال في مجال العمل وبشكلٍ خاصٍّ العمل غير الرسمي، يظهر استخدام هذه الفئة الاجتماعية «كسلاح من أسلحة الحرب الاقتصادية»⁽⁴⁰⁾ التي تستدعي حماية خاصة نظراً لواقع الطفل وعدم قدرته على حماية نفسه. لم تفصل اليونسيف بين الأطفال الإناث والذكور في حملتها، ولكن ذلك لا يعني تطابق الأزمات التي يعيشها كلٌّ منهما، ما يتطلب دراساتٍ مختصة تُبرِّر حماية خاصة لهنّ.

نلفت في هذا السياق إلى التقارير⁽⁴¹⁾ التي تحدّثت عن واقع العمل غير المهيكل أو غير المنظم أو غير الرسمي في لبنان في أثناء فترة الازدهار الاقتصادي، في مرحلة من النيوليبرالية المسيطرة، ما يشي بتهميش حكم القانون في مجتمع كان يُصنّف من

(39) وقد صُنِّفت عالمياً من أسوأ الأزمات الاقتصادية على مدى قرن ونصف.

(40) تعبير خاصٌّ للكاتب.

(41) وَرَدَتْ هذه الإحصاءات لدى مركز الإحصاء المركزي وكذلك لدى منظمة العمل الدولية: تراجع التقارير والدراسات المذكورة في «الواقعية في أنظمة العمل»، مجلة الحقوق والعلوم السياسية، صادرة عن كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية، العدد 21 (2019/1)، ص 166 و167 الهوامش. (متاح على: كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية - اللّجان - مجلة الحقوق العدد الواحد والعشرون 1 - 2019 (ul.edu.lb)).

بعض الهيئات الخاصة بأنه نموذجٌ يُحتذى به في ازدهار بعض قطاعاته الاقتصادية والاستثمارية⁽⁴²⁾.

ووفقاً لمسح نشرته اليونيسيف الخميس في 1 تمّوز/يوليو 2021، يعاني أطفال لبنان أحد أسوأ الانهيارات الاقتصادية في العالم⁽⁴³⁾. وأشارت إلى أنّ واحداً من كلّ عشرة أطفال في لبنان أرسل إلى العمل.

كما اعتبرت اليونيسيف في تقرير لها حول عمالة الأطفال⁽⁴⁴⁾ أنّ «وضع الفتيات والفتيان في لبنان حرج للغاية، خصوصاً بين الفئات الأكثر حرماناً. ويوجد في لبنان 3.3 مليون شخص، ما يعني أكثر من نصف سكّان لبنان يُصنّفون غير حصينين. وفي أرقام أدقّ يُعدّ 2.7 مليون شخص في لبنان «فقراء». تؤدّي هكذا ظروف إلى آثار قصيرة وطويلة الأجل تترك بصماتها على سعادة الطفل ورفاهيته. على المدى القصير، يتعرّض الأطفال في لبنان إلى «عمالة الطفل» وزواجه وغير ذلك من أشكال العنف». وعلى المدى البعيد تُؤثر هذه الظروف في نموّ الطفل لا سيّما نموّ المخ والإدراك. وبالنسبة إلى الأطفال، فإنّ الإساءة إليهم وإيذاءهم أو إهمالهم - بما في ذلك عدم التحاقهم بالمدرسة أو إجبارهم على العمل أو الزواج وتعرّضهم إلى النزاعات المستمرة - يُمكن أن يكون له تداعيات جسدية وفكرية ونفسية واقتصادية دائمة سيحملونها معهم في سنّ المراهقة ومرحلة البلوغ. إضافة إلى ذلك، فإنّ عدم المساواة بين الجنسين والتمييز يجعل الفتيات والنساء اللبنانيات والسوريّات والفلسطينيّات في خطر كبير ويعرّضهنّ للعنف الجسديّ والجنسيّ وإلى الاستغلال على الصعيدين العامّ والخاص».

(42) نشير إلى أنّ التغيّرات التي واكبت واقع العمل في لبنان كان جزءاً منها يعامل تهميش القوانين الوضعيّة وعدم تحديثها، ما أدّى إلى انتشار الأسواق غير المنظّمة لقطاع العمل أو من خلال تشريعاتٍ حديثة أسهمت في تكريس التحولات النيوليبرالية في أنظمة العمل وأدّت إلى تهميش دور الدولة والرقابة على القطاعات وإضعاف الضمانات المقدّمة للعمّال: مراجعة الدراسة نفسها، ص ص 155 - 187.

(43) - الوكالة الوطنية للإعلام - مسح لليونسيف عن لبنان: تصاعد الأزمة يعرض الأطفال للخطر و30 في المئة منهم ينامون ببطون خاوية (nna-leb.gov.lb).

(44) ضمن برنامج حماية الطفل الذي أطلقته اليونيسيف، غير محدد التاريخ ولكن يتضح من مضمون العرض، عند الإشارة إلى مرور تسع سنوات على الأزمة السورية، أنه في العام 2020 أي في عمق الأزمة اللبنانيّة الاقتصاديّة حماية الطفل | اليونيسيف لبنان (unicef.org).

أمام هذا الواقع نستنتج أنّ القاصرات عرضة للنوعين من العنف الاجتماعي و/أو الأسري والاقتصادي كقوة خاصة معرضة للتهميش من ناحية وتنعكس على مستقبلهن وبالتالي على إمكانية استعادة موقعهن ودورهن الاجتماعي عند انتهاء الأزمة من ناحية ثانية.

إنّ الإشارة في متن هذا البرنامج إلى التمييز الجندري الذي تتعرض له اللبنانيات والسوريات والفلسطينيات، يدفعنا إلى الالتفات إلى تخصيص القاصرات كقوة خاصة منفصلة عن النساء الراشدات وعن الأطفال بعامة، وضرورة حمايتهن طالما أنّ ذلك أصبح أحد أهداف اليونسيف في برامجها.

وكانت اليونسيف قد طوّرت سياسة حماية المراهقين/ات والشباب في المدارس الزراعية ومراكز التدريب ضمن برنامج استراتيجي مع وزارة الزراعة، لتأمين بيئة تعليمية سليمة للمراهقين/ات والشباب في المدارس الزراعية الفنية الرسمية ومراكز التدريب. ممّا يُساعد في الحدّ من التسرّب المدرسيّ وتُشجّع الشباب على الانخراط في القطاع الزراعي، وكان ذلك قبل بدء الأزمة الحادة الحالية⁽⁴⁵⁾.

وفي السياسات المُعتمَدة، وضمن التعاون بين المنظمات الدولية والدولة اللبنانية، وقّعت الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية خطة عمل سنوية مع منظمة اليونسيف بحضور مسؤولة قسم حماية الطفل في اليونسيف وغيرهم. وتهدف هذه الخطة إلى إيجاد آليات مستدامة لمعالجة العوائق التي تحول دون حصول الفتيات على حقهنّ في التعلّم وإلى التوعية المجتمعية حول مخاطر تزويج الأطفال والطفلات وتسربهنّ من الدراسة وحول استخدام الإنترنت بشكل آمن وسليم. وتتضمّن الخطة توعية القاصرات حول القضايا المتعلقة بالعنف القائم على النوع الاجتماعي⁽⁴⁶⁾.

وعلى صعيد آخر وضمن خطة عمل منظمة العمل الدولية وإطار التعاون مع الدولة اللبنانية ممثلة بوزارة العمل وبعض الهيئات المدنية، ركّزت الإحصاءات والدراسات على

(45) سياسة حماية المراهقين/ات والشباب/شابات في المدارس الفنية الزراعية الرسمية ومراكز التدريب، تقرير عن منظمة اليونسيف ومنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم العالي في الجمهورية اللبنانية، 2020، متاح على UNICEF_YPP.pdf.pdf.

(46) تعاون بين الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية واليونسيف LebanonFiles.

عمالة الأطفال في العشوائيات، والعمل في الطرقات والعمل الزراعي. كان ذلك في معرض مواكبة الجهات الدولية والحكومة اللبنانية لواقع اللاجئين السوريين في لبنان⁽⁴⁷⁾. ويهدف التعاون بين هذه المؤسسات والأطراف الفاعلة على مستوى عمالة الأطفال إلى «دعم التخطيط الاستراتيجي المشترك بين الوكالات حول عمل الأطفال ودعم مشاريع بناء قدرات القوى الفاعلة في مجال حماية الطفل والتعليم وسبل كسب العيش، ووضع أنظمة قوية لإدارة المعارف بغية جمع الممارسات الجيدة والدروس المستفادة في هذا القطاع».

لم يشر التعاون مع منظمة العمل الدولية إلى واقع خاص للفتيات في قطاع العمل، بقيت هذه الالتفاتة حصرًا لدى اليونيسيف، ما يؤكد ضرورة تسليط الضوء لدى الجهات المعنية على أهمية هذا التصنيف، وتضافر الجهود في برامج مشتركة أكثر فاعلية وفعالية وتوجيهًا.

كما أن التعاون بين مختلف الهيئات العاملة على قطاع معين يُشير إلى ضرورة تمثيل أصحاب القضية في النقاشات والدراسات ووضع الاستراتيجيات بشكل هادف. وتبقى هذه الاستراتيجيات رهناً بجدوى الدراسات الميدانية المخصصة لهذه الفئة في كل بيئة على حدة، من أجل تفعيل حماية القاصرات في مرحلة العبور إلى دولة الموطنة.

الخاتمة

لم تكن ورقتنا دراسة اجتماعية للبحث في خصوصية الانتهاكات في الحروب الحاصلة في كل دولة وفقاً لخصوصية كل نزاع. فالأمثلة كثيرة ووسائل الانتهاك متعددة، ولكن الضحايا متشابهون والنصوص واحدة. لذلك سعينا للبحث في النصوص الموجودة والتجارب الحاصلة ومدى قدرتها على شمول فئة القاصرات وخصوصية واقعهن. يبقى أن الدراسات الميدانية - التوثيقية الإنسانية والاجتماعية - من شأنها أن تبلور الواقع للبحث في ما إذا كانت هذه الآلية المرتقبة من الحماية كافية لتحقيق العدالة أو أن هذه الفئة من المجتمع تتطلب نصوصاً من نوع خاص أو اعتبارات لم تناولها القوانين ومصادرها.

(47) Lebanon's Ministry of labor, ILO and Plan International, Consultation meeting on inter-agency toolkit on child labor in emergencies, Workshop for the Arab region, Crown Plaza, Beirut, 1-3 August 2017, Consultation meeting on inter-agency toolkit on child labor in emergencies (ilo.org), consulté le 7/9/2021.

لم تغفل القوانين الوضعيّة عن عنصري السنّ والجنس في نصوصها. فقد صدرت الاتفاقات الدوليّة المعنيّة بالفئتين، وكان من أثرها تعديلات أساسيّة في الأنظمة القانونيّة المحليّة. يبقى هذان العنصران من الظروف الشخصيّة التي تسمح للقاضي بتشديد العقوبة، عندما تتوافر ظروف استغلال ضعف الضحيّة. فكانت حماية القاصر ظرفاً مشدداً عاماً، أمّا حماية النساء فهي مرتبطة بالتمييز الجندريّ الإيجابي، وسعيّاً للعدالة. وقد تركزت هذه الحماية على أثر نضال نسويّ طويل أثبت ضرورتها بدءاً بالنصوص الوضعيّة. من جهة أخرى، تبقى القاعدة القانونيّة قاعدة عامّة مجردة يعود للقضاة أنسنتها من خلال ربطها بوقائع القضايا المطروحة أمامهم.

نستنتج أيضاً أنّ غياب القاصرات عن النصوص الوضعيّة في القانون الإنسانيّ يعني عدم قدرة الدّراسات - لغاية الآن - على فرض هذه الفئة بذاتها كطرف يختصّ بحماية لا تُؤمّنّها النصوص الوضعيّة ضمن الشروط المحدّدة نصّاً. لكنّ الحماية القانونيّة المذكورة في النص لم تثبت كفايتها في تحقيق العدالة الاجتماعيّة، فأدخلت معايير التنمية المستدامة أبعاداً جديدة للحماية مرتبطة بالتأهيل والاندماج الاجتماعيّ وتوفير الظروف المناسبة لها من خلال سياسات عامّة حديثة. فالحماية المسبقة والتأهيل اللاحق للضحيّة هي مواضيع مرتبطة بالقوانين ذات البعد الاجتماعيّ - التنمويّ.

لم تعدّ القضايا القانونيّة منفصلة عن الشراكات المختلفة، تتكامل فيها الأبعاد والعلوم المختلفة، ولا تستلزم بالضرورة أن تُشكّل بذاتها قوانين وضعيّة. دخلت القوانين اللّينة وهي مرتبطة بجزء منها بالتوصيات الدوليّة كعامل مكمل لتفعيل العدالة الاجتماعيّة.

لم تكن القاصرات محلّ اهتمام لدى المشرّع الدوليّ في القانون الدوليّ الإنسانيّ، كما لم تُؤخذ بعين الاعتبار كفئة مستقلة في صياغة القوانين الراعية لحقوق الإنسان في المُجتمعات ما بعد الحروب. وإن كانت القوانين تعكس توجّه السلطات العامّ لاعتبارها ركيزة في السياسات العامّة المقترحة لاستعادة الاستقرار وبناء العدالة الاجتماعيّة، فهي في الوقت نفسه تعكس الفئات الممثّلة في القرار أو القوى الضاغطة على السلطة لحثّها على إيلائها الاهتمام اللازم، خصوصاً بالنسبة إلى الفئات غير القادرة على تمثيل نفسها. تبنت في هذا السياق المنظّمات الدوليّة وجمعيات المُجتمع المدنيّ التوصيات الدوليّة وسعت لإدخالها في برامجها ضمن الشراكات مع المؤسّسات المحليّة الرسميّة.

هذا التعاون يُظهر أهمية التركيز على فئة القاصرات كفئة معنّية بشكل خاص في النزاع وأثاره، على المدى القصير، وعلى دورها ضمناً على المدى البعيد. هذا الاهتمام لا يعني بالضرورة نجاعة رؤية المنظّمات والسلطات في انتهاج ما يعني حقوق القاصرات، أو نجاح الخطط المقترحة، إن لم تكن مبنية على مُقارَبة واقعية أخلاقية تُحاكي حقيقة الحاجات التي تتطلّبها هذه الفئة وتواجه الأسباب الحقيقية للانتهاكات.

إذا كان القانون الجنائي الدولي قدّم حماية خاصة للنساء والأطفال في فترات الحروب، من خلال اعتبار الاعتداءات الممنهجة عليهم/ن واستغلالهم/ن جزءاً من الأركان الماديّة لجرائم الحرب والجرائم ضدّ الإنسانية، لم تخصّص فئة القاصرات بنصوص خاصة تؤمّن لهنّ حماية أو ضمانات مرتبطة بخصوصية واقعهنّ الاجتماعي. وإذا كانت التحوّلات التي طرأت في نهاية القرن العشرين على إدارة المُجتمعات مع ما واكبها من آليّة لإدارة مرحلة ما بعد الحروب، قد أسهمت في التركيز على فئتي الأطفال والنساء كأطراف معنّية أساسية في الحماية والمشاركة في القرار، لم يتبلور لغاية الآن توجُّها واضحاً للنظر إلى فئة القاصرات كفئة مستقلة. وإذا كانت الانتهاكات الممنهجة السائدة في الحروب قد أسهمت في تحديد النصوص الدوليّة لأشكال الحماية، لا بدّ لنا من قراءة واقع المُجتمعات العربية وأشكال الاعتداءات الممنهجة التي حصلت وتحصل بحق هذه الفئة، وتوصيف الأطر الراعية لها، ومدى جدواها لتقديم الحماية اللازمة لهنّ، وبالتالي مدى ضرورة تمثيلهنّ بشكلٍ مستقلّ.

التحوُّلات والأنماط الفنية لصور الفتيات في الحروب العربية «من الحادثة إلى ما بعدها»

المقدمة

لم يكن من الأمر اليسير الحصول على صور الطفلات والفتيات في الفن، وخصوصاً في خلال الحروب العربية، إذ غالباً ما تتصدّر النساء موقعاً مهماً في التصوير، أما البنات إن وُجِدْنَ فهنّ ملحقات بالأمّهات والعائلة. من أجل القيام بهذا البحث، تمّ إجراء مسح شامل للنتاج الفني العربي منذ أواسط القرن العشرين وحتى يومنا هذا، بهدف إيجاد صور تُمكننا من استنتاج خصوصيّة ما لصور الفتيات. هذه الخصوصية من شأنها أن تتمظهر من خلال الفروقات الجندريّة ما بين الصّبيّة والبنات، أو من التباينات ما بين النساء من أعمار مختلفة، أو من جرّاء الاختلافات بين المُجتمعات التي تنتمي إلى الثقافة العربيّة.

كاد البحث أن يتوقّف مراراً نظراً لشحّ الصور من جهة ولانعدامها أحياناً. لكنّ مخاوفنا قد تبدّدت بعد حصول العدوان الإسرائيليّ على غزّة في أيار/مايو 2021. فقد أفرز العدوان أدواراً وأشكالاً جديدة للفتيات، شكّلت مخرجاً لائقاً لهذا البحث. وقد لَمَسْنَا وتَبَعْنَا عن كسب مظاهر لفتياتٍ مراهقاتٍ قدّمنَ مُبادراتٍ جماليّة نضاليّة مختلفة من حيث الشكل والمحتوى.

لائحة طويلة من الصور القابلة للتأويل مكنتنا من الإجابة عن عنوان هذا البحث. كيف تمثّلت

الفتيات العربيات بريشة الفنّانين؟ وهل اختلفت الصور عن النساء اللواتي كنّ منذ فجر التاريخ في المشهد كموضوع مباشر في دلّالته أو كفكرة أو استعارة ما؟ ما كانت المعاني المستبطنة في وجود الفتيات كعنصر فنيّ، وكيف استغلّ النضال السياسيّ هذا المجال؟ هل تطوّرت النظرة التقليديّة التي راجت في مرحلة سابقة بالنسبة إلى الفتيات، وفي أيّ اتجاه؟ وإلى أيّ مدى أسهمت الفئات الفنيّة المستحدثة في المضي بتجارب خلاقة؟ وما كان وقع التحوّلات الثقافيّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة السياسيّة والتكنولوجيّة والفنيّة معاً، أكانت محلّيّة أم عالميّة؟ ما هو الدور المعاصر لفنّ يواكب التقلّبات وكيف تجلّى أثره؟ هل أسّس لخصوصيّة ثقافيّة في المجال البصريّ/Visual Arts (المسمّى المعاصر للفنون بعد احتوائها للتطوّرات التكنولوجيّة، والتغيير الحاصل في أشكالها وفئاتها)؟ وهل أحدث انقلاباً في أدوار الفتيات؟

أسئلة سيُحاول هذا البحث المتواضع دراستها وتحليلها والإجابة عنها، فاتحاً المجال للجدل والنقاش والتنقيب المستمرّ.

قُسّمت الدراسة إلى ثلاثة أجزاء. في الجزئيّة الأولى، قمنا بقراءة تاريخيّة على عجلة تتعلّق بصور البنات في تاريخ الفنّ بعامّة، كونه المرجعيّة العالميّة. أمّا الجزئيّة الثانية فخصّصت لدراسات صور الحروب والنزاعات خلال مرحلة الحداثة العربيّة ووصف وتحليل لدور الفتيات في دواخلها. أمّا الجزئيّة الثالثة والأخيرة، فقد ركّزت على المتغيّرات التي أحدثت انقلاباً وتقلّباً في الأدوار النمّطة للفتيات، في مرحلة ما بعد الحداثة. قد لا تتلاءم ساحات الحروب والنزاعات مع صور الطفولة، ولكنّ سير الأحداث بات يستفزّ ويستنفّر كلّ الطاقات وكلّ الأعمار. وسوف نبيّن كيف أنّ الفتيات تحوّلن من مجرد أداة تُستغلّ في النضال الاجتماعيّ/السياسيّ، ومن متدرّجات على دروب المعسكرات، ومن وقود للحروب، إلى طاقات وطنيّة فاعلة في الواجهة.

اعتمدنا في منهجيّتنا نظريّات التحليل السيميولوجيّ من حيث تفسير العلاقة ما بين الجزء والكلّ ومن حيث استنباط نظم المعاني ودراسة الرموز والعلامات والإشارات. كما استندنا إلى المقاربة الاجتماعيّة للفنّ مع بورديو/Bourdieu، ونظريّة «الحقل الفنيّ» لتحديد الفنون وتصنيفها من حيث ارتباطها بالسياق الاجتماعيّ العامّ وبالظواهر التي تتحكّم في قراءة النماذج المختارة. وكانت لنا مجموعة راجحة من الأعمال تعود لفنّانين وفنّانات كلاهما من الملتزمين، كلّ على طريقته، ينتمون غالباً إلى المشرق

العربيّ. فتضمّنت اللائحة أعمالاً من مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين بخاصّة. ومن البديهي أن تكون فلسطين قد استحوذت على العديد من النماذج كونها في حالة حرب شبه مستمرّة بعد اغتصاب الأرض والإعلان عن الدولة العبريّة/1948 من قبل العدو الصهيونيّ، إضافة إلى أنّ معظم الفنّانين العرب تعاطفوا مع القضية الفلسطينيّة وقدموا الأعمال الفنيّة لنصرتها. ونظراً للكثّر من الأعمال التي مثّلت الفتيات في كنف فنّ ملتزم مع القضية الفلسطينيّة، زخرت فلسطين بأكبر كُثْم من الوثائق. وفي الخاتمة، استعنا بنظرية توماس كون/Thomas Kuhn، للشرح عن الانزلاق والانزياح الحاصل بين أنموذج سابق ونحو أنموذج جديد، بفعل تغيّرات متشابكة ومعقّدة ومتعدّدة.

ويجدد بنا إضافة التوضيح التالي المتعلّق بمرحلة الحداثة العربيّة واختلافها الزمنيّ مع الحداثة الغربيّة. ومن المسلّم به أنّه فنيّاً، بدأت الحداثة الغربيّة من العام 1960 حتى 1980، حيث عقبتها مرحلة ما بعد الحداثة. أمّا في العالم العربيّ، فكان لنا مرحلة بدأناها «بالنقل» عن الغرب، منذ بدايات القرن العشرين. لكنّ هذا النقل ما برح أن تزامن مع حركة من التعريب والتكيف الفنيّ الإبداعيّ في محاولة لإيجاد خصوصيّة عربيّة، لذا قد نتكلّم على خطاب حدائقيّ عربيّ منذ منتصف القرن العشرين استمرّ وبلغ ذروته في منتصف الثمانينيّات. أمّا حقبة ما بعد الحداثة العربيّة، فهي لم تتبلور قبل التسعينيّات حيث أسهمت الثورة التكنولوجيّة بتحديد معالمها وتمكين الفنّ العربيّ من المشاركة والمثاقفة على الصعيد الدوليّ. فعلياً تمّ دراسة هذه النقطة في كتابنا الأخير حيث بيّنا على وجود تفاوت زمنيّ ما بين الحداثة الغربيّة والعربيّة في مجال الفنّ والإبداع، كان قد ذكره سابقاً العديد من النقاد الفنيّين العرب⁽¹⁾.

من ناحية أخرى، نوّد التأكيد أنّنا لن نتمكّن من عرض كلّ الصور المختارة⁽²⁾ في عيّنة هذا البحث، ولو أنّنا ذكرنا بعضها لنبرز بعض النقاط التي تُفيد الدراسة، واكتفينا حينها بالعرض الوصفيّ الذي يفيد الاستنتاج العام.

(1) هند الصوفي، الاتجاهات الفنيّة في العالم الغربيّ والعربيّ منذ القرن الخامس عشر وحتى الألفيّة، (الجامعة اللبنانيّة، 2016) (المقدّمة).

(2) اخترنا هذه الصور من المُتاح على الشبكة العنقوديّة من أجل البحث العلميّ، وقد استحصلنا على إذن من فنّانين عدّة نشكر منهم سليم معوّض، يوسف عبدلكي، ولؤي كيتالي، ونبيل عنان. أمّا من توفّي منهم، فلم نتمكّن من الاتّصال بورثتهم.

الفتيات والحروب: حاضرات في الغرب وغائبات في الشرق العربي

منذ حضارات الأتيك والكلاسيكية الأولى، كانت النسوة خير موجه في اتخاذ قرار الحرب. وقد تُستدعى بعض النساء المشهود لهنّ في عالم الغيب، وتخضعنّ للمنشّطات كي تلامسنّ الإشارات من حركة الطبيعة والكون، بحيث تتمكّن من توجيه الحاكم في اتخاذ قرار الحرب أو السلم. إلّا أنّ الطفلات غالباً ما كنّ ملحقات، إنّ كان في مشاهد الاغتصاب والاقتتال (الصورة 1)، حيث تدلّ لوحة خطف نساء «السابين»، (من الميثولوجيا الرومانيّة)، لمشاهد الاستلاب والاغتصاب والعنف بين عشيرتين، والضحايا هم النسوة والأطفال.

الصورة 1

نيقولا بوسان، خطف السابين، زيت، 1635



أمّا في القرون الوسطى، فقد رافقت النسوة والشابات الرجال إلى معسكرات الإيمان وصولاً إلى القدس. وفرد لهنّ الفنّ صوراً من البطولات والإعجاب، ذكرها المؤرّخ

السوريّ ابن الأثير⁽³⁾. هذا ولم تغب الفارسة البطلة جان دارك عن الوجدان العام حيث دافعت عن بلادها ضدّ الإنكليز حتّى الاستشهاد. حملت النساء في ذلك الزمن السلاح دفاعاً عن الممتلكات والعائلة، وبخاصّة في غياب الزوج، وعندما كانت قضيتها عادلة لم تكن تلام على أفعالها القتالية، إذ حرّم العرف والدين على المرأة أن تشارك في الحروب. ولنا العديد من المصوِّرات حول الفارسات من النسوة.

كما كرّست حقبات الباروك في القرن 17، منصّة ممتعة لمواضيع العنف التي استحوذت على الذائقة الفنيّة آنذاك، فأعيد رسم الاغتصاب والسبي لنساء «السابين»، وتألّقت جوديث (من العهد القديم) ببطولتها في قطع رأس قائد الجيش الرافدي بهدف تحرير شعبها. موضوع مشبّع بالرموز الجنسيّة والشهوانيّة وما يتأتّى عن مشاهد الخطف والسبي والفتنازيا في مخيِّلة الناظر.

في الحقبة الرومنظقيّة وأجواء القرن التاسع عشر منذ بداياته، شكّلت أعمال دولاكروا/ Delacroix (1798 - 1863)، الفنّان والكاتب حول الحرب التركيّة اليونانيّة/1897، حالة من التعاطف الأوروبيّ العامّ. فالليونان أوّلاً هي منشأ الفلسفة والفنّ والديمقراطيّة. التّفّ الكتاب الأوروبيّون وشارك منهم لورد بايرون/Lord Byron في الحرب في ميسولونجي (قرية يونانيّة تحوي قلعة حاصرها الأتراك). وإذ توفّي هناك، اختلطت في الوجدان العامّ الأوروبيّ مشاعر حول مصير هذه المدينة الضحيّة، مع تراجيديا موت الشاعر والكاتب، فاشتدّت المقاومة، لكنّها استسلمت مخلفة صدمة عند جيل من الشباب المثقّف 1824م. ومن أجمل أعمال ديلاكروا «مجازر سيو»، حيث أعلن عن اصطفاfe السياسيّ، أمّا «ليونان على دمار ميسولونجي»، فهو عمل تعبيريّ يستلهم من شعر بايرون وكتابات فيكتور هوجو. دولاكروا هو الفنّان المتيمّ بالتعبير عن أجواء الشرق، لكنّه كان يسعى لتحقيق ممارسات شعوبه، وذلك من وجهة نظر استشراقية.

في هذه الأعمال، يُشكّل الرجوع إلى الاستعارة وإلى الرموز مفتاحاً، حيث إنّهُ في صورة هذه الشابة الصغيرة بالزي التقليديّ اليونانيّ، وهي واقفة على حجرة كبيرة وعلى آثار دماء النحر، استدراار لتعاطف الناظر. تبدو الفتاة كالعذراء على مذبح الأضاحي،

(3) Les Croisades, Revue Electronique, N*9, p.126, EB: 834cd39c-5e32-46bc-89163b098f7d7508.

يمكن مراجعة ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حرّره أبو الفداء القاضي (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1987).

يحيط بها رأس مقطوع يدمي وأيد تدلّ عليها من بين الأنقاض. صدرها المكشوف وخوفها واستنجاها بالمشاهد، كلّها من العلامات التي تفتح مجالاً للإثارة والتأكيد أنّها أمام مصير مجهولٍ مفتوحٍ على كلّ الاحتمالات (الصورة 2).

الصورة 2

أوجين ديلاكوا، اليونان على دمار ميسولونجي، زيت،
147x208، متحف الفنون الجميلة - بوردو، 1826



في العصر الحديث، وتحديدًا في خلال الحروب العالميّة، أنشأت بريطانيا العظمى أول تجمعٍ لفنّاني الحرب العالميّة الأولى، بهدف البروباغندا السياسيّة أو الترويج الشعبيّ، ضمّ فنّانين من الجنسين، بهدف إقامة معارض للترويج. شكّل مضمون هذه الأعمال إضاءة إلى دور المرأة العصريّة، وتكامل الأدوار والانخراط في الحروب. صور طالت

الصبايا المتطوعات في الصليب الأحمر والخدمة العامة، الممرضات والطباخات ومهن التنظيف والتوضيب، المساهمات بالتقديمات الاجتماعية، العاملات في المصانع لتأمين مستلزمات الحروب، وغيره... أضاءت الأعمال على الأدوار الجديدة للمرأة الطالبة، وسائقة الباص، ومديرة البحرية الملكية⁽⁴⁾...

ليونتين غابان/ Léontine Gabain (1883 - 1950)، انتخبت رئيسة لجمعية الفنانات وقدّمت صورة لبنت مصابة في المستشفى، تُعالج بمادّة Penicillin/البنيسلين (اختراع جديد آنذاك)، كذلك الموضوع الذي يتقدّم بتحيةٍ للإنجاز العلمي والطبي.

وبالطبع، لا يُمكننا تجاهل العلاقة بين الأحداث السياسية العامة وموضوعات الفن، تحديداً بعد الحربين العالميتين، حيث طاولت العلاقة معظم القضايا الاجتماعية⁽⁵⁾. فعلاً صوتُ الدادائيين (1920) ضدّ الحرب وضدّ الفن، عبّر بيكاسو (1881 - 1973) عن ضراوة المأساة بالأسود والأبيض، في الغيرنيكا، حين ألهمت قنابل الطيران الألمانيّ قريته وتداخلت فيها الثيران والثيران (والثور من التراث الإسباني وهو بموته بات الفداء لانتصار الإنسان، وهنا يُمثّل القوّة الغاشمة للشعب). اعتبر النقاد هذا العمل رسالة للعالم ووثيقة تدين العدوان لم يسبق أن وصل إليها فنّان على مدى التاريخ⁽⁶⁾، و«تُنادي بالسلام في كلّ زمان ومكان»⁽⁷⁾.

أمّا دالي في عمله «طفل الجيوبوليتيك يُراقب ولادة الإنسان الجديد، 1943»، فهو يستعمل هذه المفردات إشارة إلى النزعة الاستعمارية والهيمنة السياسية والعسكرية الأميركية على العالم الجديد. وما الشابة التي تحمل الجنين وتُمتحن في الولادة والعنف، إلّا رمزٌ للأُم الطبيعية أيّ الأرض... وقد صوّر الفنانون في حقبة الحروب، حال المومس وبشاعة المجتمع في أوروبا، أمّا في أميركا فقد راج بولستر البروباغندا ودور الأطفال والنساء في دعوتهم للالتفاف حول الجيش الأميركي.

(4) Jack Lazenby. *Women of the wars: five female artists who depicted women's contributions*. Posted 02 Sep 2020.

(5) زينب عبد العزيز، لعبة الفن الحديث (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1990)، ص 61.

(6) Elizabeth Cowling, *Picasso Style and meaning* (N-Y 2002), 573-575.

(7) حسن فؤاد، بيكاسو معجزة الفنّان والرجل (القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، 1974)، ص 72.

الصورة 3

ليونتين غابان، ضحية القصف الجوي، 1944،
IWM (Imperial War Museums)، إنكلترا



ذهبت الحداثة الفنيّة نحو استبدال الأشكال بالرموز والعلامات والميداليات والشارات العسكرية والإشارات الدينيّة، بالأرقام والرموز والأعلام والأسماء، وذلك للضحايا والجنود، ولوضعها في لغز انتصر فيه اللون على الرسوم التشخيصيّة. وختاماً لهذه الجزئيّة الافتتاحيّة، نستخلص ما يلي:

في مرحلة ما قبل الحداثة، كانت الفتاة رمزاً للخوف ووسيلةً لاستدرا العاطفة الشعبيّة، أمّا في حقبة الحداثة، فشاعت صورة الشابة العصريّة المتألّقة بالمسؤوليّات الإداريّة والمجهود الحربيّ الفعليّ والمُشاركة في القرار... هذا من الجانب الغربيّ، أمّا في عالمنا العربيّ والإسلاميّ، فتساءل عمّا كان الوضع عليه.

عرفت الفنون في الحضارات الرافدية بخاصة، والفرعونية بعامة، مشاهد الحروب بإسهاب، ولكن لم نتمكن من رصد وثائق مصوّرة للفتيات أو لأدوارهنّ. من ناحية أخرى، ترك لنا الموروث الإسلامي مخزوناً وافراً من المشاهد الحربية في منمنمات تنتمي إلى مختلف الحقبات التاريخية، والأسلوبية، العربية منها والفارسية والتركية والمغولية والهندية. هذه الكتب المصوّرة تسرد فصولاً من الأحداث الروائية والتاريخية والمنجزات العلمية؛ حيث كانت الجيوش هي التي تتصدّر المشهد دائماً، سواء أكان الهدف هو التمثّل أم الاستعداد للحروب أم الرجوع المتتصر. وفي هذا العالم بالذات، المخصّص للأبطال، كانت النساء غائبات عن مشاهد الحرب، ولم يكن لهنّ وجودٌ يُذكر (الصور 4 و5).

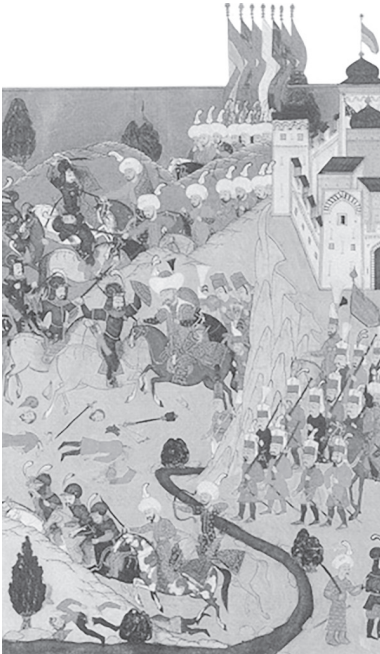
الصورة 4

منمنمة سليم نامة، معركة
تشالديران، 1525 (إيران)



الصورة 5

معركة نيكروبوليس،
1396 (إيران)



2 - مرحلة الحداثة: الفتاة هي رمز للأرض المُغتصبة ووعاء لإنجاب الشهداء والأبطال

عندما نتكلّم على الحروب العربيّة، قد نذكر منها النّزاعات التي حصلت حيال الاستقلالات العربيّة كحقبة أولى، والتي تجلّت بأعمالٍ كلاسيكية أو حداثيّة تشخيصيّة (Figurative) وقد نضيف إليها بدايات الحروب العربيّة الإسرائيليّة (بعد الاستيلاء على الأرض وطرد السكّان) كمرحلة أولى للتحوّلات التصويريّة (منذ العقد الرابع من القرن العشرين). وسوف نتوسّع في هذه الجزئيّة المخصّصة لصور الفتيات في مرحلة ما ندعوه الحداثة العربيّة، أو مرحلة التحرّر السياسيّ والاستقلال، وهي مرحلة زاخرة بالانقلابات العسكريّة، بأحلام الشباب حول بناء الدول العصريّة، الصناعيّة والمتقدّمة علميّاً، هي مرحلة احتوتها عقيدة القوميّة العربيّة، التي تبنّاها الفنّ العربيّ والهّم الإبداعيّ بشكلٍ خاصّ.

البداية من مصر كمحور فكريّ للأمة العربيّة

عرفت البلدان العربيّة نقلةً نوعيّةً نحو الحداثة، تمثّلت بتعليم الفتيات وانخراط المرأة في سوق العمل وفي الشأن العامّ ولو بشكلٍ خجول. حصل ذلك نتيجة التّأثر بالثقافة الغربيّة، وبخاصّة إبان الانتداب والاستعمار البريطانيّ والفرنسيّ. رسّم مصطفى فروخ من لبنان (1901 - 1957) الشّابة اللّبنانيّة تحوّل الأعلام الوطنيّة، منوّهاً بدورها في صناعة الاستقلال والمُشاركة في النضال والتحرّر. كما لعب الفنّ التشكيليّ دوره في التعبير عن الثورات المحليّة وتخليدها، فهو لا ينفصل عن حركة المُجتمع ولا ينعزل عن الشعب. قد تختلف الأمور بين بلدٍ عربيّ وآخر باختلاف الأحداث وحالات الاستبداد. ففي مصر، عاش الفنّ التشكيليّ أزهى عصوره مع ثورة 23 يوليو 1952، وارتكز على آثار الأحداث الغزيرة في تاريخ مصر وانعكاسها على الأمة العربيّة (تأميم قناة السويس، العدوان الثلاثيّ، بناء السدّ العالي، هزيمة 5 يونيو، حرب الاستنزاف...). تفاعل الفنّانون وتكاتفوا وسجّلوا «تأريخاً» للثورات، تمثّلت بإصدار كاتالوغ حول معاني الملحمة الوطنيّة بمُشاركة 100 فنّان⁽⁸⁾. ورصد عبد الهادي الجزار (1925 - 1966) الحراك الاجتماعيّ من خلال العظماء

(8) كاتالوغ «مئة فنّان يحيون ثورة 23 يونيو» (القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، 1953).

الذين يصنعون أقدار الشعوب. وقدّم محمّد حامد عويس (1919 - 2011) «لوحة الميثاق» لصياغة المستقبل الزاهي للأمة.

يذكر التاريخ الدور المهمّ للكاتب والمفكّر ثروت عكاشة، الذي شغل منصب وزير الثقافة والإرشاد القومي آنذاك فانطلق الأدب والشعر والمسرح والغناء والنحت والتصوير إلى آفاق جديدة برعاية الدولة⁽⁹⁾. حقبة زخرت بشخصيّاتٍ مُبدِعة منها أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم. إنّه الحلم الوطني الكبير والحلم العربي الأكبر الذي غدّته الإيديولوجيّة القوميّة. فعلياً، كوّنّت الثورة مفردات هذا الوعي القومي، والتزم الفنُّ بها وتفاعل معها.

جاذبيّة سري (1925) هي مثالٌ لتحرُّر النساء والوعي الشعبيّ والسياسيّ والانخراط في الشأن العام. شملت أعمالها الفنيّة الطفلة والمراهقة المصريّة في إطار تمرّد عائلات الفلاحين. فحفظت للمراهقة مكانتها من ضمن النضال المُجتمعي، فيما تؤكد لوحات لها كـ «تمرّد بنات الأكابر» و«أم صابر» (وهي بطلة وشهيدة الاستعمار الإنكليزي، 1919) على التزامها السياسيّ. فقد رَسمت أطفال الفقراء وأرجوحات البنات، لكنّها تحت وطأة هزيمة العام 1967 وما رافقها من شعورٍ بالإحباط، بدّت وكأنّها سُمّت من النضال، فانكفأت إلى أنّ تحقّق انتصار العام 1973 في الحرب ضدّ إسرائيل. هذه الفنّانة حرصت على المُساواة بين الطفلات والصبيان، وانتقدت عمليّة تهنيّة الفتيات منذ الصغر على أدوار الأمومة. جاءت أعمالها بمنزلة نقدٍ اجتماعيّ لفنّانة مقدّمة تنتمي إلى أسرة تقليديّة ميسورة أجادت في وقتٍ مبكّر لغة الشعب وكانت داعية تحرُّر، فأثنت على أصالة الفلاحة المصريّة. لوحاتها تثرثر وتسرد حكايات الجدّات، أجادت فيها بالزخارف والتفاصيل، التي تخترق الوجدان والخيال المُجتمعيّ. ففي خلفيّة «عائلة متمرّدة» (الصورة 6)، تبدو الفتاة امتداداً لهذه الفلاحة الشابة المتمرّدة، ذات النظرة الرّادعة، التي تُجاهر دون حياء بالرضاعة أمام الناظر. وهناك وحدة بين الزوجين، ووحدة بين الأمّ والجدّة والطفلة ترمز إلى تواصل الأجيال، وإلى تهنيؤ الطفلة لدورها المُستقبليّ، هي الرمز للحياة والاستمرار.

(9) <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/visited> November 5-2020.

الصورة 6

جاذبية سري، عائلة فلاحين متمرّدة، 1958 (مصر)



القضية الفلسطينية والمحور العربي

في سياق الهمّ العربي، شكّلت القضية الفلسطينية محوراً سياسياً جامعاً للأمة وما زال. دعونا نقرأ صور الفتاة في هذه المنظومة النابضة بالتمرد والعنف والحقّ بالحياة. صور تُمثّل الفتاة الضحيّة المُستلبّة من سيادتها ووجودها، تماماً كالأرض المُغتصبة التي ترمز إليها.

برهان كركوتلي (1932 - 2003) من أوائل الفنّانين المُلتزمين بالقضية العربيّة والفلسطينيّة، وهو سوريّ الأصل. يدعو الفنّان إلى المقاومة والتصدي والصمود، مُستعيناً

بشبكة العلاقات التي تربط العناصر الفنيّة بمنظومة النضال الاجتماعيّ. هذا النضال هو مشروطٌ ومُلتزمٌ، ويؤدّي إلى مجموعة من الميول والتصرّفات والأخلاقيات. بعبارة أخرى كلّ ما يعني به بورديو بالـ «هابيتوس»/ *habitus*. والهابيتوس هو تعبير عن مُخطّطات مُكتسبة للإدراك والفكر والعمل من أجل إزالة الانقسام بين الذات والهدف. إنّهُ الكيفيّة التي يتجسّد بها «المحيط الاجتماعيّ في الخيال الشعبيّ» من خلال القصص والأساطير والرموز والخطاب الأيديولوجيّ... وهذا المسمّى لدى بورديو يتّخذ لدى دوركايم مصطلح «الوعي الجمعيّ»⁽¹⁰⁾. وهذا ما توقّف عنده ميشال أونفري (Onfray) حين وضع العمل الفنّي ضمن الإطار الثقافيّ والاعتراف بتشعّب الارتباطات المُحيطة به⁽¹¹⁾.

«كلّنا من أجل فلسطين»/ 1971، عبارة عن ملصق تضامنيّ مع الشعب الفلسطينيّ (الصورة 7). بالرجوع إلى سويسر، الذي قال إنّ كلّ علامة تدخل ضمن علاقيتين، الأولى تركيبية وهي حاضرة والثانية ترابطية وهي غائبة/ *In Absentia*⁽¹²⁾. نرى في شيفرة العلامات المستعملة، وفقاً للتحليل الباراديغماتيّ/ *Paradigmatic*، نظاماً من الرموز والعلامات التي تُشكّل مدخلاً لمدلولاتٍ علائقية. فالكوفيّة والزخارف على ثوب المرأة، كما والخلّق في أذن الفتاة تُشكّل شيفرة تنتمي إلى رموز القضية الفلسطينية المُحقّقة. وما الخلّق في الأذن إلّا دلالة على الانتماء. أمّا شيفرة الألوان للثوب الأسود الفلسطينيّ المزركش باللون الأحمر الداكن، وزخرفة الكوفيّة فهي حامل آخر للمضامين ذاتها. ومن المعروف أنّ المرأة هي وفقاً لتحليلات بورديو ومن خلال وضعيّتها تكون في حال من الإخضاع. هي التي ترمز للاغتصاب، إذ غالباً ما تكون وضعيّتها بشكل جالس، أفقيّ، تماماً كالأرض المُغتصبة. في هذا العمل تُشكّل الابنة المعرّضة بفعل عمرها ويفاعتها ورمزيّة عفتها وبراءتها، الأرض، حاملة معاني التضحية، وتكليف من الأهل (اليد على كتفها، فهي فلسطين، ذات القرار المسلوب). يقول بارت «يُشير المدلول إلى الدالّ، فلا يفصح عن المدلول إلّا من خلال الدالّ، لأنّه فحواه الماديّ.. ولا تتشكّل العلامة إلّا من خلال علاقاتٍ مركّبة ضمن أنساق»⁽¹³⁾، وهنا تُشكّل (البنت) علامة تربط الدالّ والمدلول. وقد نستدلّ من

(10) Charles Taylor, *Modern Social Imaginaries* (Public Planet Books, 2003), 37-40.

(11) Michel Onfray, *Décadence* (Paris: Flammarion, 2017), 14-20.

(12) Ferdinand de Saussure, *Cours de linguistique générale*, Ed. critique préparée par T. de MAURO (Paris: Payot), 171.

(13) Roland Barthes, *Éléments de sémiologie* (Communications, 1964), 91-135.

خلال الأنساق التي ترمز إلى الهيمنة الذكورية، وتقضي بإملاء الفعل، تماماً كما تدلّ عليه حركة اليدين على الكتف الخاضع، هي أيدي الأهل الذين يُقدّمون الحماية، وهم فعلياً يملون على البنت ما يجب أن تفعله.

الصورة 7

إبراهيم كركوتلي، حفرٌ على الخشب 100×70،
جامعة بيرزيت الضفة (فنان سوري)



كلّ الأعمال التي استهدفت البنات، بما تحمله من دلالات جاءت تُحرّض على الغضب الجماعيّ أمام جريمة لا تُغتفر، جريمة استباحة العرض والكرامة. لا صراخ، لا انفعال، مجرّد غضب صامت ومأساة وعزم ودعوة للتمرد ولاسترجاع الحقّ. أعمال فيها معاني التحدي والصمود، لأطفال كبروا على غفلة، وأصبحوا من مكونات هذا الصمود. بنات يقبعن خلف معالم البراءة يُقدّمن من دون حذر، وقلبهم على ماضٍ فات، وعلى ما بات في المخيل العام من حكايات الجدّات وقيم الجهاد.

«الكارثة» 1976/ للفنان توفيق عبد العال/ 1938 - 2002، عملٌ آخر ليس سوى صدىً لنبضات قلبٍ شابّة خائفة ولولدين تائهين يهربون معاً بعد نزاعات في مخيم تلّ الزعتر (اقتُحم خلال الحرب الأهلية من قبل القوّات المسيحية التي قامت بمذابح ومجازر إبادة ضدّ اللاجئين الفلسطينيين في أيار/مايو 1976). ألوان نارية مُلتهبة تُحوّل لاجئة في مخيم إلى تائهة في الطبيعة. يستبجح الفنّان العرض ويفرج عن مفاتن المراهقة الشابة، تاركاً الناظر المتعاطف أصلاً، يُقلّب النظر متفاعلاً مع أنوثة نائرة. يقول الباحث Balkaoui، في دراسته حول الجسد الأنثوي من خلال الصور والدعايات، إنّ النساء تُصوّر باعتبارهنّ ضعيفات، فقيرات أو في حالة من التعثر. أما بالنسبة إلى Freyer، فيرى أنّ تصوير المرأة في المجتمع البطريكيّ ليس إلّا دوراً تُجسّد النساء فيه «الهشاشة» و«الجمال» و«المجال العائليّ»، حيث تمّ تقييدهنّ في «المواقف المصطنعة» من أجل إسعاد الناظر من الذكور⁽¹⁴⁾. ومن الرموز المُستعملة هنا، نبتة الصبّير، فهي شوك يُهدّد، ورمز للأضحية البشرية، ودعاء للصبر والخلاص. ويستمرّ الفيض النورانيّ متصاعداً نحو العلاء كأنّه استمرار للصمود، أمّا القنديل، فهو إشارة إلى شرقٍ عنيدٍ وغدٍ مشرق. يُضيف بارت أنّ «البحث عن المعنى يسند إلى الأشياء التي لا صوت لها. فالبحث عن الصامت يتجسّد في كيفية إكساب المعنى للأشياء المخفية، وهو ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمووروث الاجتماعيّ والمخزون الثقافيّ الذي يكون في أغلب الأحيان منغرساً في الوعي الجمعيّ»⁽¹⁵⁾ (الصورة 8).

(14) «How Women Are Depicted In Ads?» *International Business & Economics Research Journal*-Vol 5, Numero 10 (October 2006): 59-61.

(15) Ibid.

الصورة 8

توفيق عبد العال، الكارثة: وجوه من المخيم، زيت، 1976 (فلسطين)



وإذا ألقينا نظرةً إلى حدث استشهاد المُراهقة لينا نابلسي لدى عودتها من المدرسة، على أثر رصاص العدو الذي استهدفها، نرى يافعةً مُستلقية كالْمُغتَصبة على العشب الأخضر. يسيل الدم أحمرّاً ليغسل العشبَ الربيعيَّ ببرائتها. وضعيتها مائلة تدعو الناظر إلى الدخول مباشرةً إلى الحدث، إلى فعلِ الاغتصاب. «عروس الوطن»/1967 هذه، شاعرية، مُستلقية مُستسلمة، غنّي لها أحمد قعبور (من كلمات حسن ظاهر): لينا طفلة كانت تصنع غدها... لينا سقطت لكنّ دمها كان يُغني للجسد المصلوب الغاضب... يُفسّر بارت في نصّه (موت المؤلّف)، أنّه «لا يوجد معنىً نهائياً يقترن بالعلامة، لأنّ العلامات تتغيّر باستمرار بحسب سياقها الاجتماعيّ واللّغويّ.. ما يمنح النصّ امتياز التعدّدية الدلالية والتعارض»⁽¹⁶⁾ (الصورة 9).

(16) R. Barthes, *Critique et Vérité* (Paris, Éditions du Seuil, 1966), 24.

الصورة 9

سليمان منصور، عروس الوطن، 80×60 سم، غزة، 1967 (فلسطين)



إسماعيل شموط (1930 - 2006)، المعروف بأعماله حول قصّة شعب وحكاياته، رسّم النزوح واللّجوء والهروب المتواصل منذ النكبة، وذكريات النار وعروسين على الحدود وغيرها... أعمالاً لن ينساها جيلٌ فلسطينيٌّ بأكمله. تفتّحت عيناه على الحياة، ليجد نفسه في المؤسّسة والمخيّم والمُعسكر. «مسيرة شعب»/1980 هو عنوان اللوحة الكبيرة (6م طولاً) (الصورة 10)، لوحة تعرّضت للغزو والتشرد. مزج الفنّان مأساة شعبه وحياته الشخصية فتمخّضت أيقونة الرسم المُقاوم لفتاة (هي رمز لفلسطين) تُشكّل العنصرَ الرئيس في العمل. عروس منتصرة للعدالة والإنسانيّة، والعرس جامع، والعرس استمراريّة للحياة، والعروس هي الربيع الآتي مهما تأخّر. أمّا الورد الأحمر فهو الحبّ والوفاء للمحبوب (القضيّة) حتّى الموت والاستشهاد. رموز الأقصى (رمز جامع للأمة)، وناس بأعداد جارفة تُهدّد كلّ مغتصب جبار، بال معاودة إلى بورديو، «المبصّر لا يُمكنه أن يكون وحده لغويّة.. ومن دون حضور ما سبق وما يُستتبع»⁽¹⁷⁾.

(17) P.Bourdieu, Op, Cit.

الصورة 10

إسماعيل شموط، مسيرة شعب، 400×600 سم، 1980، غزة (فلسطين)



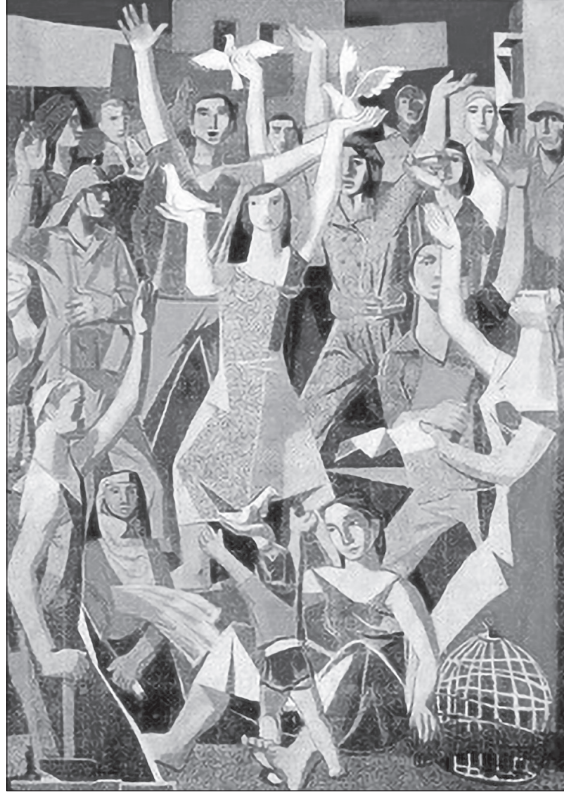
ملحمة الشهادة: البنت المُلحقة بالثكلى

في هذا الزمن أيضاً، فتانون من سوريا والعراق انكبوا على تعداد الشهداء، والأمتهات الثكالى. لكل مرحلة خصوصيتها في التعبير لما تحمله من ردود فعل حول المجتمع وتقاليده (وفقاً لمبدأ الهايتوس لبورديو). لم يمنع الخراب والدمار الملكات الإبداعية، وفي عراق الستينيات والسبعينيات والحروب الإيرانية العراقية وما تلاها بعد غزو الكويت، باتت هذه الأحداث مصدر إلهام للفن⁽¹⁸⁾. يرسم فائق حسن «جدارية الثورة» (الصورة 11)، حيث الفتاة الشابة تتوسط حشداً من الأطفال وفي يدها الحمام الأبيض. يتجسد الفعل الثوري في هذه الألوان المنتصرة، في فضاء فسيح أمام مشاعر الحرية، في قفص ترك مفتوحاً كي تتحرر الطيور. هذا العمل هو دعوة للنهوض من الكبوة، في أطر جديدة وعهد منقلب على الطغاة السابقين ونظم الاستبداد الملكي.

(18) محمود القرغولي، «التجدد والإبداع المستمر»، مجلة تشكيل، دائرة الفنون وزارة الثقافة، العراق، السنة (2009/2)،

الصورة 11

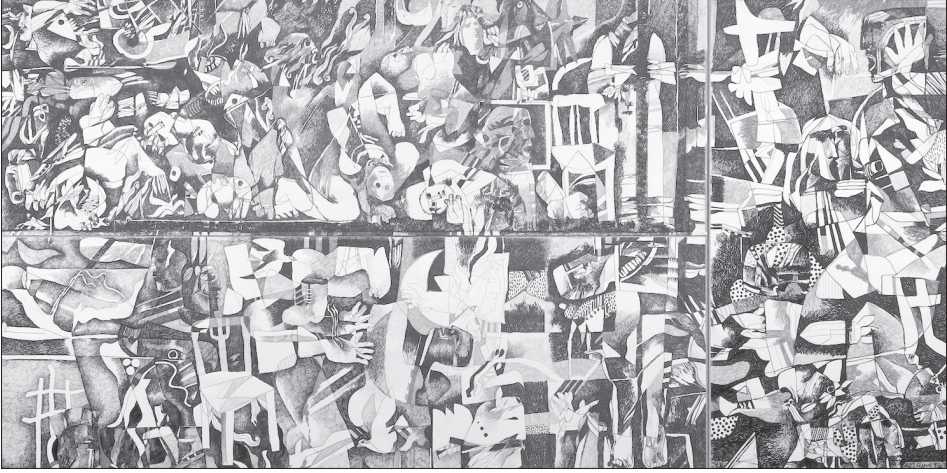
فايق حسن، جداريّة الثورة سيراميك 10م×7م، 1982، بغداد (العراق)



من ناحية أخرى، تفاجئنا جداريّة ضياء العزّاي في صرخته الغاضبة على مجزرة صبرا وشاتيلا (الصورة 12)، التي تمّت بعد استيلاء إسرائيل على بيروت/1982، خلال الحرب الأهليّة. اللّوحة سرديّة شاهدة على كلّ التفاصيل، أصوات وصراخ من كلّ الجوانب، أيّد ممدودة بيأس وأشلاء متناثرة، نساء وأطفال وصبايا هن الضحايا والأضحية. صُور مُربكة لتراجيديا تفوح منها روائح الموت والدّمار والكره والإرهاب. في هذا العمل، لا وجود لأيّ فعل بطوليّ، حتّى حمام السلام يفرّ مذعوراً. إنّ دمار الموت الذي يؤرّخ لأبشع مشاعر العنف والتعذيب. لقب العمل بـ «غرنیکا العرب» حيث استُبيحت أسمى القيم الإنسانيّة وتحوّلت إلى مجرد إشارات لجريمة حرب.

الصورة 12

ضياء العزاوي، جدارية «صبرا وشاتيلا/1982»،
حبر صيني على ورق ملصق على قماش 7x3، 5، تيت لندن (العراق)



في سوريا، لؤي الكيالي/1934 - 1978، لم يبتعد عن الحزن الملفح بالسواد لنساء يبدون على خشبة مسرح، تفوح منهنّ تعابير التمرد والاستسلام والأسى والغضب (صورة 13). يشدّنا منظر الفتاتين بين الحزاني، الأولى في حال من المواساة، والثانية في حال من التفكير تتوعّد المشاهد مستعينة بالحمام الأبيض. تقحمنا الأقدام العارية والأأيادي المتلاشية وحركات الأعين في هذا الجوّ الدرامي، إنّها علامات لأصالة الموقف أمام مقام الشهيد الذي تجسّدها أمّهات الفاجعة. يهيمن بثقله السواد، والتناقض الحادّ ما بين الأسود والأصفر، والوضعية والأبصار المحدقة والأأيادي تضاعف مشاعر الحسرة، كلّ ما في المشهد يُنبئ برفض الطقوس والأدوار والاستسلام. من ناحيته، يستعرض فاتح المدرّس الشهيد والجنّازة والأهل والناس (الصورة 14)، إنّها نكسة حزيران التي أثّرت كثيراً بالفتّانين.

لا شكّ أنّ لمعاني الاستشهاد أثراً بالغاً في الوجدان العامّ والمخيّلة الجماعية. من فلسطين إلى الجزائر، حظيت مشاهد الجنّازات والشهداء والثكالي بالصدارة في مواضيع الحرب والمقاومة والثورات. للشهداء المجد، وأنّ للشهادة في الثقافة المحلية بعداً ومقاماً

الصورة 13

لؤي الكيالي: ثم ماذا؟، 1965، 172×190، دمشق (سوريا)



ساطعاً ومُكَلَّلًا بالدخول إلى جنان الخلود، فالآية تنصّ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران/ 169 - 171). الشهيد هو الحزن الممزوج بالعزة والفخر لدرجة الحسد، يجمع بين عظمة التضحية الممزوجة بالبطولة، وتُسانده عزيمة الأهل وإرادتهم في الاستمرار بمقاومة الذلّ والمهانة. الشهداء ملأوا جدران المَدُن والصلالات، عيونهم الواسعة ترمز إلى الصوت المفقود في الصدى. تحضر

الأمّ والبنات، يُسألنَ القِيَمَ الأخلاقية والإنسانية. الشهيد هو مشروع عرس أحمر كالدم، هو سيميائيةً بليغة تُوثّق الحاضرَ وتحوّل الموت إلى حياة. يرحل الشهيد جسداً ويبقى فكراً، «إذا متنا من أجله انتفض وعاش بين الأحياء». وتبقى كلمات الشهداء حاضرة في أذهاننا، وتشهد على هذه المنزلة الرفيعة الأحاديث النبوية أيضاً. والشهداء ثلاثة: شهيدٌ في الدنيا والآخرة، وشهيدٌ في الدنيا، والصنف الثالث هو شهيدُ الآخرة⁽¹⁹⁾. يذكر فرهاد خسروخفار عن الشهيد في مُجتمع مفكك، ويرى أنّه إنسان محبط في أزمته النفسية لا يتورّع عن التضحية بذاته، ويضيف أنّ الحروب هي مناسبة للتحرّر من الخطايا ومعاقبة الذات بالدم⁽²⁰⁾.

ينهي هذه الحقبة لنقول إنّ أهمّ موضوعات الأزمات والحروب في حقبة الحداثة العربية (حتى نهاية الثمانينيات) خصّصت للشهيد والأمّ الثكلى، أمّا البنت والفتاة فكانت ملحقة بالأمّ. منصّة الشهداء هذه طالت أغلبية العالم العربي من فلسطين إلى الجزائر والعراق واليمن وسوريا ومصر، وصوّرت البنات كعلامات هادفة للنضال واستغلّت الفتيات في القضية العربية لجهة إبرازهنّ مسلوبات الإرادة، مُلحقات مع إشارات الإخضاع الذكوريّ. لذا فكّن يرمزَن للأرض ولفعل الاعتصاب وكّن الضحايا لتأجيج الفعل الثوريّ، وكّن الأضحية مهما شاركن في النضال الجماعيّ. إضافةً إلى ما سبق فهنّ الوعاء الحاضن للشهداء من خلال عمليّتي الإنجاب والتربية على مبادئ النضال.

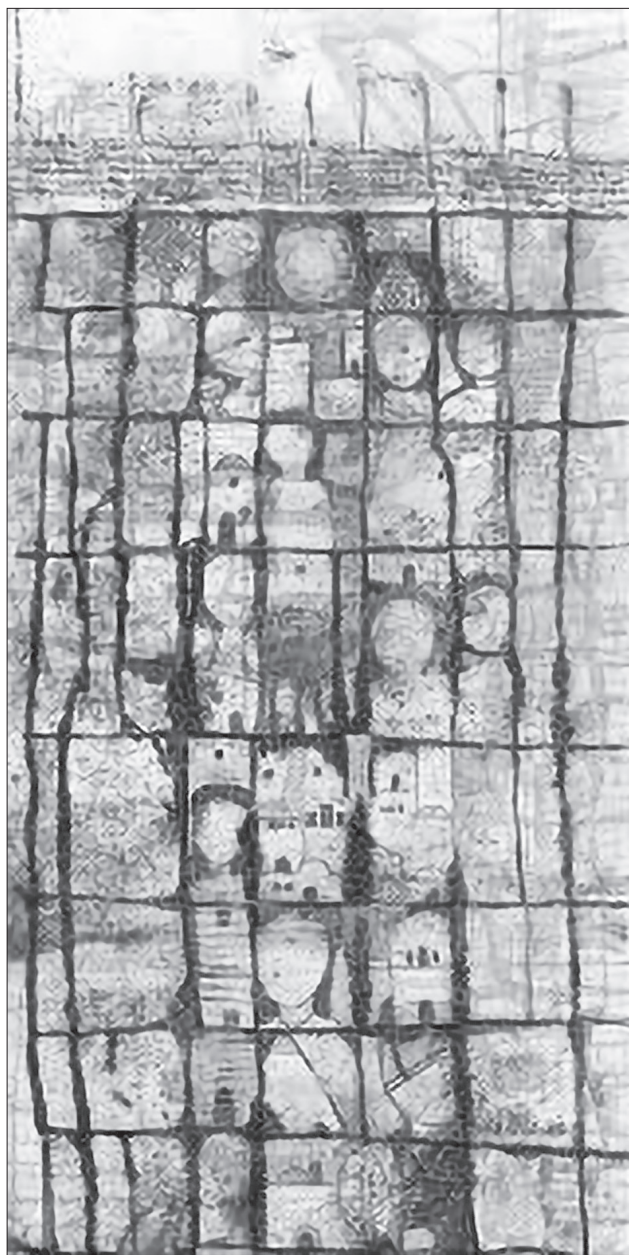
حقبة ولّت منذ زمن، برزت بعدها تحولات جعلت من المرأة والبنات تحديداً فئةً أساسية في النضال والقتال والإقناع ولو بأسلحة جديدة أصدرتها الثورة العلمية التكنولوجية. هذا ما سنتوسّع به في الجزئية الثالثة والأخيرة. فتيّاً، مع الحداثة استقال الفن من وظيفة التعبير عن روح العصر كما كان في السابق، ليتحوّل إلى الروح النابضة في العصر.

(19) مجموعة من المؤلّفين، الموسوعة الفقهية الكويتية، صفحة 273.

(20) Farhad khosrokhavar, L'Islamisme et la mort: le martyr révolutionnaire en Iran, (Paris, L'Harmattan, 1995) Voir aussi: Malika Zeghal, «Saints, héros et martyrs dans le monde musulman», *Archives de sciences sociales des religions*, 130 (Juin 2005): 107-111. mis en ligne le 17 novembre 2005, consulté le 15 mai 2021, 313-314.

الصورة 14

فاتح المدرس، الشهيد والجنائز، 125×235سم، 1967مجموعة خاصة



3 - مرحلة ما بعد الحداثة: متغيرات أحدثت انقلاباً وتقلباً في الأدوار المنمطة للفتيات

إنّ التحوّل في موضوعات الفنون المعاصرة وأشكالها بعد حقبة الحداثة العربيّة قد أحدث نقلة نوعيّة في بناية اللوحة العربيّة؛ الأمر الذي أدّى إلى النفور من موضوعات النقل الواقعيّ ومن نمطيّة المشاهد (كالزوح والآلام والموت)، إلى الاستعانة بالتقنيّات الجديدة/New Media، وبالفئات الفنيّة الجديدة (غرافيتي، تصوير فوتوغرافيّ، فنّ الديجيتال والتجهيز والتجميع والفيديو آرت). فوظفّت الفنّانة التكنولوجية لتتلاءم مع مُخرجات الفنّ المعاصر. وقد اكتسب الفنّ المهاجر مع الجيل الجديد من الدياسبورا العربيّة خبرات ومتغيّرات فكريّة وفلسفيّة نقلها للداخل عبر منصّات مفتوحة. وإذ بالمفاهيميّة/Conceptualism، وهي اتّجاه غلبَ الفكرة على الصنعة، أمست أداة للتمرد والتحرّر من خلال استغلال النصّ الكلامي. كما عبّرت الاختزاليّة/Minimalism عن حقبة مغايرة وارتبطت الأعمال بجماليّة الزوال (حيث تنتفي عنها صفة الخلود/Masterpiece). وراجت فنون القضايا الإنسانيّة الجامعة كفنّ البيئة وفنّ الجسد والفنّ المتعدّد الثقافات. في هذا السياق العام، الذي أصبح فيه الفنّ «سياسيّاً»، ليس بالمعنى الصرف للكلمة، بل بمعنى أن الفنّ أصبح وسيلةً للتغيير الاجتماعيّ والسياسيّ، انطلقت الاحتجاجات العربيّة وعرفت تمّددًا جغرافيًا عزّزته أدوات التواصل الاجتماعيّ. كذلك، بعد الانتفاضات في فلسطين وتعزيز مفاهيم الديمقراطية، أُضيفت مواضيع جديدة تنادي بكرامة الشعوب وباسم الحقّ الإنسانيّ، وبمناهضة الفساد والاستبداد.

لا شكّ أنّ صوّر الشهداء والأمهات الثكالي قد شكّلت ركناً أساسيّاً موروثاً من الحقبة السابقة، لأننا أمام موضوع له سطوته وقدرته على استنفار التعاطف المحليّ والدوليّ. استمرّ هذا الموضوع على قائمة المشاهد في زمن الاحتجاجات العربيّة، مضاعفاً ثقله من خلال التجارب الإبداعية. شاركت البنات والفتيات في الصورة ولكن بدورٍ ومدلولٍ مختلفٍ وجديد. فمن ضحايا ورموزٍ للاغتصاب، أصبحن مشاركات فاعلات في العمل النضاليّ وفي الإبداع الفنّي. وستوسّع في هذه الجزئية من البحث لتبيان هذه الفكرة.

الشهيد: من الأسطورة إلى قيم السلام (سوريا والعراق)

أسهمت الفضائيات العربيّة، ومن بينها تلفزيون الجزيرة، في دفع الشعور الانتمائيّ العربيّ زمن قبل اندلاع الاحتجاجات العربيّة. الجزيرة غطّت الانتفاضة الثانية، والتظاهرات التي أعقبتها في العواصم العربيّة، دعماً للشعب الفلسطينيّ. والجزيرة تتبّع الغزو على العراق/2003، وعلى جنوب لبنان/2006. ومن ثمّ، تبعها «العربيّة» مع ارتدادات الربيع العربيّ. وتبيّن أنّ للخليويّ ولمنصّات التواصل الاجتماعيّ دوراً أساسياً لتوحيد تحرّكات جيل شاب لا يتعدّى الثلاثين من العمر، جيل مشبك مع العالم بأسره، ويحمل مسؤوليّة ورؤية لتلاقي الحضارات، خلافاً لما بشر به هانتنغتون/Huntington عن الدمار ما بين الحضارات⁽²¹⁾. جيل غضب من الاستبداد العسكريّ، ومن الاستكانة السياسيّة، جيل يبحث عن الديمقراطية ويرى أنّ الغرب متفوّق⁽²²⁾ علمياً وصناعياً. وقد أجمع على هذا الرأي المفكّرون العرب⁽²³⁾، ودعوا إلى الاقتباس والاستفادة من تجارب الغرب⁽²⁴⁾. في هذا الجوّ المُمتملئ بروائح البارود والحقد والذللّ، أُخرِجت العديد من الإبداعات المتلاحقة مع الغرب، فهو المرجع وهو المُهيمن فكريّاً، هكذا جاء الوضع في كلّ من سوريا والعراق، وبخاصّة من خلال الدياسبورا الهاربة من الحروب الأهليّة التي خلفتها الاحتجاجات العربيّة.

يوسف عبدلكي من سوريا/1951، (صورة 15)، استكمل مسيرة الشهداء وأعطى لهم المقام الأساس. رسم أمّ الشهيد في مشاهد متعدّدة، حاملة لصورة ابنها على خلفيّة تحمل كمّاً من صور الشهداء، هذه الثكليّ تخاطب الناظر وهو يتنقل بحركة تصاعديّة من الأسفل إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأسفل. ثلاثة وجوه هي شيفرة موحّدة تدلّ على الشهيد: صورته، أمّه، ابنته. جميعهم يخاطبون الناظر. ابنة تُعبّر عن حيويّة جديدة وعن إصرار (حركة اليدين)، تفهّم ما يحدث وتُحدّق وتتساءل. لم تُعدّ الأمّ أو الجدّة تفرض

(21) Samuel Huntington, *Who Are We?: The Challenges to America's National Identity* (New York: Simon and Schuster, 2004).

(22) Corm, Georges, *L'Europe et le Mythe de l'Occident* (Paris: La Découverte, 2009). lire aussi, Corm, Georges, *Le Proche Orient Eclaté*, (Paris: Gallimard, 2006).

(23) Communication by Lebanese philosopher Nassif Nassar at the discussion of Georges Corm's book «Religious Plurality and Systems of Government in the Middle East», on February 14, 2012.

(24) Hafez, Ziad, «The Arab Renaissance Project: the Debates and Critique», *Contemporary Arab Affairs*, Vol. 4, Number 1, (January 2011).

عليها سلوك خاص، كما كان الأمر سابقاً. هذه الطفلة تُشارك الجدّة في حركة النظر، تتقاطع معها، تقاوم على طريقتها وسوف تكمل المسيرة.

الصورة 15

الشهيد، فحم، 145×194، مجموعة خاصة



في العراق تمثّلت تداعيات الأحداث السياسيّة بعد الغزو الأميركيّ في موضوعات السلام ونبذ العنف والتفكّلت من القيود الفنيّة. مواضيع أبوغريب والأبطال والشهداء والشكالي خضعت لخامات متجدّدة ولتقنيّات النيو- ميديا. لا شك أنّ المثال والمرجع

المنتصر والمهيمن هو النموذج الأميركي والأمل بالتحرُّر. لقد خاب بسرعة أمل الفنَّانين أمام واقع الفوضى والعنف والسرقة وغياب دور الدولة الراعية للفنون. بات موضوع الحرب ثيمة أساسية للفنِّ، تبحث عن المتعة والغربة، وكما يُقال «إنَّ الجمال في الأثر الفنيِّ يقوم على الصيغة الإبداعية المتغيِّرة باستمرار»⁽²⁵⁾.

عنوانٌ شيقٌ لعمل جداريٍّ «هل تعرفُ؟» من «مجموعة السياسات الثقافية». هذا الغرافيتي للفنان حسام السراي، هو سؤال الثقافة في زمن الحرب. اللون الأسود لشخصيات ذات حضور ثقافيٍّ، والنصُّ أحمر غالباً لإيصال فكرة مهمة. وحدها الموسيقى تتوسَّط المشهد لتكسر من رتابة الجدار بالنوتات المطبوعة. ما هي الرسالة هنا؟ هي ببساطة تقطع أوصال المدينة، وتشويهها من قبل ثقافة المحتلِّ الرامية إلى محو ذاكرة الأزقة. أمَّا البنت، فهي قائدة الأوركسترا والألحان، وهي بغداد المدينة أمَّ العواصم التي تحلم بغدٍ مشرق. تلعب هذه الفتاة على المخيِّلة والذاكرة لدى الناظر وتُنشِّط المشاعر الوطنية.

شاعت موضوعات الحرب في مسميات الانفجار والمخاض لأشكالٍ غريبة وعناوين هجينة. يُقدِّم علي النجَّار/1940 عملاً يحمل عنوان «لا شيء لا أحد... يورانيوم منصَّب». أصبح الفنُّ مفاهيمياً/Conceptual وتحرَّر وحملَ فكراً ينتصر للحياة ويحرِّك الجماهير.

هناء مال الله (مواليد 1958) قدَّمت عملاً بعنوان «أسلحة الدمار الشامل»/2013، وضعت فيه حذاء رياضة مقاسه أنثويٍّ، على علم أميركيٍّ منوَّهة أنَّ الأحذية هي وسيلتنا للمقاومة. كما التجأت في عملها «الهدهد لاجئ يبحث عن مساحة للعيش وسط الدمار»، إلى ترميزات الهدهد، طائر مرتبط بالنبِيِّ سليمان وبصورة النمل في القرآن الكريم، حيث لديه الخبر اليقين. هدهدها يحمل غصنَ الزيتون الذي يرمز إلى السلام (الخبر اليقين). إنَّ أغلبية تمثيلات الحرب والأزمات الأمتية بدت فيها المرأة نمطيَّة الشكل، والطفولة هنا ذَكَرٌ يُواجه ويكمل مسيرة العداء والاستعداد، بينما غابت صورة الفتاة وغاب دورها. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هجرة الفنِّ شكَّلت متنفساً وفرصةً للالتحاق بالاتجاهات الشمالية والغربية، وقد استعاض الفنَّانون عن الخطاب التقليديِّ مستنيرين بثقافة حقوق الإنسان والعالمية، مع التأكيد على الرموز الرافدية ومعاني السلام والأخوة.

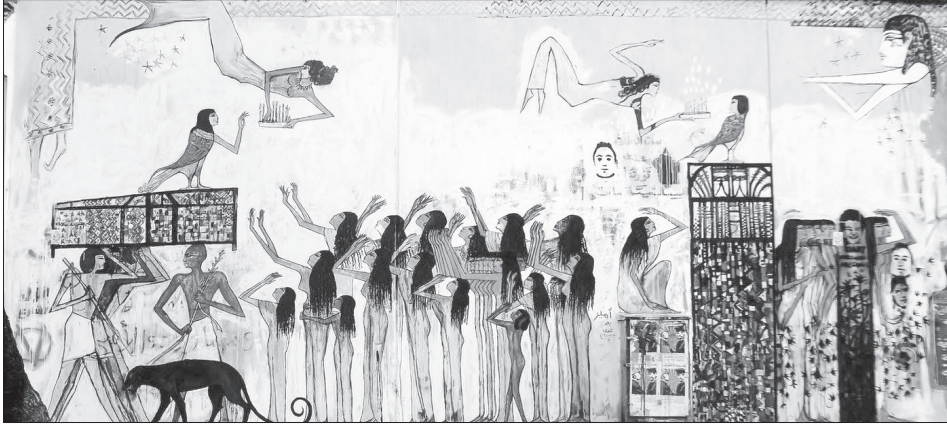
(25) إبراهيم شرف، الفنُّ بناء (العراق: ابن الرشد، 2015)، ص 153.

الخطاب النسوي: ست البنات ونقد الذكورة (مصر)

اختلف المنظر في مصر، حيث كثر الغرافيتي مرّجاً للثورة والاحتجاج/2011، ولو أنّه كرّم بداية شهداء الثورة ورفّع خطاب الكرامة. إلّا أنّه أدخل مضامين جديدة طالت الفتيات لم تكن في الحسبان مسبقاً. من النائحات كرمز للحضارة الفرعونية، وللمكان والإشعاع الحضاريّ، تتحوّل الترميزات إلى أدوار جديدة للفتيات: هنّ ينعون موت السلطة (الصورة 16) حيث التجأ الفنّان إلى الموروث الفرعونيّ مع النائحات. ومن الأدوار الجديدة للبنات، توجيه الدعوات إلى التظاهرات والقيام ببرامج التوعية العامّة.

الصورة 16

جداريّة «النائحات»، علاء عوض، القاهرة



شباب الألتراس، مجموعة من فنّاني الغرافيتي، عرفوا بألوانهم الصاخبة، وأعمالهم ذات الأحجام الكبيرة، ورموزهم الخاصّة التي تمثّل أندية كرة القدم وتدعو إلى ثقافة الرياضة. إنّ الرسوم والجداريات التي ينفّذها فنّانون مستقلّون، تفسح مجالاً أكبر للتأويل والتفسير والتخيّل. من هذه القضايا المطروحة ما يتعلّق بالمرأة ودورها. مشروع بادر به الشباب محوره «تحيّة للمرأة والبنات في نضالها الثوريّ»، يهدف إلى التوعية الشعبيّة وإلى تغيير الصورة النمطيّة والذهنيّة التقليديّة. صوّرت الجداريات «الفتاة» الشامخة والصامدة، كمرادف للوطن والأرض التي تمنح الخصوبة والثورة التي تستعيد الحياة. انتشرت تلك

الرسوم تحديداً بعد أحداث «كشوف العذريّة»، ما يُسمّى بأحداث «مجلس الوزراء»، وما تخلّلها من اعتداء على الفتيات، وتحرّش وضرب واعتقال، وبعد حادثة «فتاة التحرير» وكرّد فعل على استنكار حضور الفتيات في التظاهرات (الصورة 17، ست البنات).

الصورة 17

«ست البنات» بورتريه لفتاة ترتدي كمامة ضدّ الغاز،
فنان غير معروف، القاهرة - شارع محمّد محمود



نبح الاهتمام بمواضيع ذات طابع جنديّ من جرّاء الأحداث التي يمرّ بها المُجتمع المصريّ. ولعلّ أهمّ حدث يُمكن الإشارة إليه هو تعرية الفتاة في أحداث مجلس الوزراء/2011، على يد أفرادٍ من الجيش، حادثة عُرفت في ما بعد بـ «ست البنات» (الصورة 18، الاغتصاب)، فكانت تظاهرة مضادّة، لأنّ ردّة الفعل كانت قويّة للغاية، وبخاصّة أنّ الفاعل هو العسكر الذي مسّ بعرفٍ اجتماعيٍّ يُحرّم تعرية الأنثى.

في هذه المقاومة الإبداعية الناجحة، تهدف «الذكورة السامة» إلى السيطرة على المرأة لجعل الرجل يشعر بالقوّة، لذا يتوجّب على السلطات تقديم التشريع والقوانين اللازمة، هذا ما تدعو إليه الجداريات. في عمل آخر يوجد فتاة منقّبة إلى جانبها راقصة، كتأكيد على حقّ المرأة المصرية في حرية امتلاكها لجسدها والتعبير عنه. أمّا في الغرافيتي الذي

يُشير لجسم المرأة ويقول: «مهما بان أو مبانش، جسمي حرّ مايتهنش». ومن الصور المهمة، «انتفاضة المرأة في العالم العربي»، وصور أخرى تقوم فيها الفنّانة المصريّة المشهورة شادية بدور البطلة فؤادة، في فيلم «شيء من الخوف». فؤادة امرأة قويّة، تقوم بفتح القناة أمام الفلاحين ليقوموا بريّ أراضيهم، تقول شادية في إحدى الصور «أنا اللي فتحت الهويس»، كما ترفض شادية الدستور الجديد بعنوان «دستوركم باطل باطل»، وذلك في إحالة للمقولة التي كرّرها النَّاس.

الصورة 18

جداريّة التحرُّش الجنسيّ في المُجتمع المصريّ، الاغتصاب، 2015



وكان قد سبق هذه الأعمال مبادرة «نون النسوة» المصريّة التي انطلقت عام 2012، واعتمدت على فنّ الجرافيتي لمناصرة القضايا النسويّة وتغيير المفاهيم السليبيّة تجاه النساء. «جرافيتي حريمي» هدفت إلى ضخّ رسائل إيجابيّة عن المرأة، مستوحاة من الثقافة المصريّة اعتمدت على أغاني وشخصيّات مصريّة مثل أغنية سعاد حسني «البنّت زي الولد» وشخصيّات نسائيّة مثل «أم كلثوم» مع عبارة «أعطني حرّيتي أطلق يدي». إنّ «الفنون» بعامة والأغاني بخاصّة، تُشكّل وجدان الأمة في عنفوان أزوماتها؛ تماماً كما نستذكر دائماً «سيد درويش» في استنهاض عزيمة الشعب. شادي خليل هو واحد من

الفنانين الذين بدأوا هذه المبادرة عندما لفتت نظره زميلة له قائلة إنّ الغرافيتي المرسوم في الشوارع إمّا أنّه يُهين المرأة أو يتجاهلها. بدوره فكّر أنّ الذكرى الأولى لأحداث كشف العذرية التي تعرّضت لها المتظاهرات/2011، هي مناسبة لإعادة اعتبار صورة المرأة من خلال سعاد حسني وأمّ كلثوم. ويُعبّر الغرافيتي عن موضوعات تخصّ المرأة بشكل مباشر بوصفه فناً موجّهاً للشارع.

هند خيرة، فنانة الجرافيتي، ردّت أيضاً على مُحكمة سميرة إبراهيم بمشاركتها في حملةٍ ضدّ التحرش الجنسيّ ورسمت الشكل الخارجيّ لامرأة على حائطٍ في القاهرة، كتبت عليها «ممنوع اللمس، الخصي في انتظارك». تتحدّث هذه الجملة عن نفسها بوضوحها وبساطتها الصادمة ورفضها للصورة النمطية المستسلمة. بات الفنّ سلاحاً من الأسلحة الفعّالة المستخدمة للمقاومة بشكلٍ مستقلٍّ أو جماعيّ، وبخاصّة في سياق عصر التكنولوجيا. مثلاً، نشرت المصرية علياء مهدي صورةً عارية لنفسها في غرفة نوم والديها، وأطلقت الهاشتاج #nudephotorevolutionary/صورة عري ثورية. أدّى هذا الأمر إلى حركة دُعم من النساء في العالم العربيّ. في حين أنّ سميرة إبراهيم (تعرّضت لكشف عذريّة على يد الجيش المصري)، وهي الوحيدة التي أخذت مبادرة قانونيّة ورفعت دعوى ضدّ الجيش، لكنّها لم تنل الإعجاب كعلياء، التي صعب إسكاتها، بات الفنّ في الزمن السياسيّ آليّة للتغيير الفكريّ من حيث إنّهُ متميّز قادر على تحريك مشاعر الناس وعلى استفزاز عقولهم.

فنون الشارع باتت تُشكّل الأرشيف البصريّ لسياسة التحرّر النسويّ، وتعميم خطاب المساواة وتعزيز المناصرة للقضايا المحقّقة.

فتيات مُبدعات على درب التكنولوجيا

دشّنت انتفاضات الشعب الفلسطينيّ وهبّاته المتعاقبة منذ عقود، حركة ثقافيّة جديدة تعكس مزاج الشارع «الثوريّ». وتأخذ هذه «المقاومة الثقافية» أشكالاً أكثر إبداعية ورمزيّة، بسبب الظلم والقمع الذي يُمارسه الاحتلال ضدّ شعب يواصل نضاله بشتيّ الطّرق وبأصعب الظروف. سوف نُبيّن في هذه المنظومة الدور المتفاعل لفتيات قرّرن النضال وفقاً لقناعتهنّ.

بداية إذا كان من بين الفنّانين مَنْ يستكمل مسيرة كركوتلي الحداثيّة في فلسطين، فهناك نبيل عناني/1943. في أعماله أمكنة متخصّصة للبنات والأولاد، إنْ كان في تفاصيل وحيّات البيوت أو السهول أو في ثنّيات الفساتين التقليديّة، أو في الزخارف والخطوط والموروثات. هذه المرأة «عناق الأم» (صورة 19)، واقفة تحمل البلد والقضيّة والرموز، رأسها على وسادة هي صورة الأرض والبلدات، في جعبتها الحواديت التي تقصّها على الأولاد والأحفاد (رسوم ثوبها). إنّها الراوية التي تنقل القضيّة، وبلاغتها تُرسّخها في وجدان الطفلات والصبيان الذين يُزيّنون الملابس. في خلفيّة العمل، جبال صامدة تعلوها حرارة الألوان والإيمان بالثورة المنتصرة للحقّ. كلّ عمل من أعماله يحمل قصصَ اليوميّات والحنين، وشبح الموت والنecش والاستشهاد.

الصورة 19

نبيل عناني، عناق الأمّ، زيت، 2013



خصّص نبيل عناني مجموعة كبيرة تناولت يوميّات الشباب والشابات، في «آخر أيام البراءة» (صورة 20)، تبدو الفتيات بغالبيتهم في غيبوبة إلا واحدة تحمل بذور الأمل والسلام المتمثّل بالحمام الأبيض الذي تتناوله بفخر وعنفوان إذ إنّ مفردة أساسيّة يتوق إليها شعب مؤمن بالحقّ والسلام.

الصورة 20

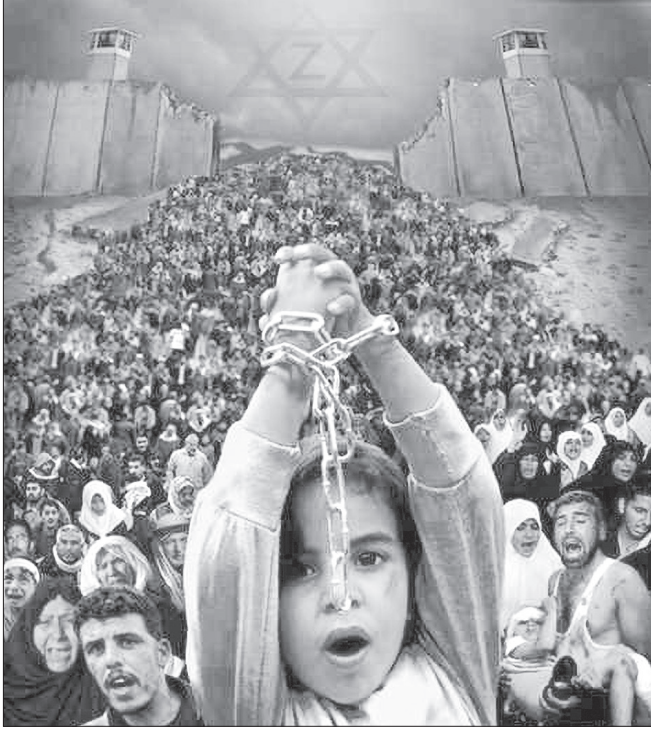
نبيل عناني، آخر أيام البراءة، أكريليك، 200×250سم، 2016



يستعين الفنّان الرّسّام والمصوّر الفوتوغرافي ابراهيم غنّام بتقنيّات المزج بين التصوير الرقميّ والرسم والكولاج (الصورة 21). هذه الطفلة التي تعلوها نجمة داوُد، تقود الأُمّة مكبّلة بالجنّازير. هي رمز للمقاومة، وثمرّة جهاد سنوات من الفداء. تهتف بإصرار وتستمرّ بنفس الجهاد. وإذا كان محمّد الدّرّة (الطفل الذي أصيب في حضن والده) أصبح أيقونة لا تتسّى، باتت الفتيات هنا باحثات عن دور جديد قد يضع حدّاً للدور السابق الخاضع أو المُخضّع، في مُجتمع تقليديّ، يستلهم فيه من الدروس السابقة، لبناء ممارسات خلاّقة.

الصورة 21

إبراهيم غنّام، تقنيّات مختلطة (فلسطين)



ليلى شوّا/1940 من غزّة، هي فتّانة ملتزمة خصّصت للجندر مشاهد مهمّة. فإذا كانت الصبية رمزاً للانتفاضات والقتال والعسكرة، (الصورة 22)، وكلّ ما يُخالف مبادئ شرعة حقوق الطفل، فإنّ للفتيات الفلسطينيّات دوراً في صور البنادق التي رسمتها مزبنة بالزهور الزهرية اللّون (إيحالة إلى الفتيات). فعلياً، نادى هذه الفتّانة بالمساواة بين البنات والصبيان في التربية والتنشئة. وأصيّبت بخيبة أمل حين لم تلاحظ أيّ تغيير في حال أطفال غزّة بعد التوقيع على معاهدة أوسلو/1993 (بمعنى أنّ الأطفال وشرعتهم لم تؤخذ بالحسبان التحسين من استغلال الأطفال في الحروب). فتباتها يتمنّع بالهدوء والمرح والشكل العصريّ، من دون حجاب أمام النسوة المحجّبات. الفتّانة شوّا هي «بندقيّة» لسلام صامت، وهبّت سنوات عمرها تنشر الثقافة بين الناس بدءاً بالأطفال. «جدران

الصورة 22

ليلى شوا، معاهدة أوسلو لم تُغيّر في حال الأطفال، 2000 (فلسطين)



الصورة 23

ليلى شوا، 750 مجموعة جدران غزة، 1994 (فلسطين)



غزة» (صورة 23) هي الأكثر شهرةً من بين أعمالها، منقّدة بتقنيّة الشاشة الحريريّة «سلك سكرين». أثّرنا إلى اختيار هذا النمط من أعمالها عوضاً عن النمط السابق التشخيصيّ، لنبيّن أنّ التوجّه المعاصر لدى فنّاني الحروب والالتزام، في هذه المرحلة الجديدة من

التاريخ العربي، هو منحازٌ للفئات الفنية الجديدة كوثائق انتماء للفنّ المعاصر، نحن أمام فنانة تعلن عن انحيازها للفنّ المفاهيمي (المعاصر) والذي يغلب الفكرة على المهنة مستعيناً بالنصّ المكتوب. من هنا يُشكّل العملُ الكتابيُّ على جدار الفصل رسالة من شعبٍ منسيٍّ، وتُرَدّد أمام من يهتمها بعدم الالتزام «إنّ التعبير عن القضية الفلسطينية، يتمّ من خلال التجربة الذاتية للفنان، وقد غرقت أعماله من التراث الفلسطيني من دون أن تكون مأساوية الطابع.. رسمتُ القدس في أشكال عديدة.. وعندما أعرض لوحاتي.. يُدرك المتفرّج أنني فنانة فلسطينية من دون أن أقدم صوراً مباشرة»⁽²⁶⁾. فنانة تحاشت السقوط في النمط، ونجحت في أن تكون فلسطينية وعالمية بلغة الجمال. رسومها مأهولة بالحكاية الفلسطينية بالعادات والتقاليد، وبالدهابة والمرح الأنثوي، وبالزخرفة واللونية الصاخبة بالأمل والحياة.

من قلب الدمار والموت، تتألق الأنوار وتستعاد الحياة، إنّه فنان الأنوثة المقاومة، عماد أبو شتيه/1965. ولأنّ الصمود لا يكون بالصاروخ والبنديّة، كان الفنّ عاملاً مساهماً وداعماً للقضية في لوحاته. بناء مهدّم متجسّد داخل جسد فتاة ترتدي الثوب الفلسطيني التقليدي جعل من هذا العمل قصّة نجاح على صعيد عالمي (الصورة 24). هذا الفنان تعلّم بالممارسة، ومزج ما بين الخامات التقليديّة والشاشات الرقمية، وهو كسائر الفلسطينيين، يُحاكي «التراث» بدءاً من الثوب والعلم والنقوش وصولاً إلى البرتقال والحصان والقدس وسنابل القمح وبساتين الزيتون ومفتاح العودة. أبرز ما يشدّد في مشاهدته هو تلك الشابات بالثوب التقليدي وما يرمز إليه... أمّا البعد النضاليّ فلا يختلف فعلياً عن من سبقه من الفنانين إلّا بنمطٍ بصريّ أكثر تمايزاً.

تتخذ شعارات ورسوم الجرافيتي أشكالاً مختلفة على جدران مدن الاحتلال، وتتناول الوضع السياسي والأمني وأحياناً الاجتماعي والبيئي. بسرعة يلصق الفنانون رسوماً كي لا يتعرّضوا للاعتقال. «أنبوبة رشّ الألوان» هي وسيلتهم في مقاومة المحتل وتكريم الأبطال. يُفرغون ما بداخلهم على هيئة كتابات ورسوم يتفاعل معها المارة. ظهر الجرافيتي مع أطفال الحجارة، وتمكّن من بثّ روح المقاومة والتحدّي ورفع المعنويات. وقد وجد الفلسطينيون في جدار الفصل العنصري مساحةً واسعة للتعبير عن رفضهم للجدار

(26) Saeb Eigner, *L'Art Du Moyen-Orient* (Merrel Publishers Limited, 2010), 129-183.

والاحتلال. «ولا تفرق»، هو شعار هؤلاء المبدعين الشباب الذين لا يهابون سلطات الاحتلال ولا الاعتقالات، الزنزانة أو الخيمة، ما الفرق؟

الصورة 24

عماد أبو شتيه، تصوير ونيوميديا، 142×182، 2014 (فلسطين)



أطفال الحجارة وبنات التكنولوجيا

رأينا أنّ الفتاة الخائفة والتائهة والمهدّدة كانت مثلاً لصور الفتيات في صور الإعلام (الصورة 25) وفي الصور الفتيّة خلال حقبة الحداثة. ولكن، في أيّامنا المعاصرة، اختلفت التعابير وأشكال الاستغلال لدور الفتيات، إذ اكتشفن أنّ دورهنّ هو رهن خيارهنّ الذاتي.

التعبير على طريقتهنّ، والنضال المختلف عن الصبية أو المتجانس معهم بات يتخذ مواقف لم نشهدها في السابق. المفردات مختلفة، الخطاب متماسك ومتجانس، الشكل مستحدث، والممارسة مفاجئة، فهي نتيجة تراكم واستمرار في العمل النضالي. كلّ ما أتاحته وسائل التواصل والتكنولوجيا وثقافة الغرب وخطاب حقوق الإنسان أمسى لغةً عالميّةً في خدمة الفتيات. بهذه الآليات، سنتكلّم على تجاربٍ لشاباتٍ ضدّ الاحتلال حازت على احترامٍ دوليٍّ واعترافٍ لهنّ بالحقّ الإنسانيّ.

الصورة 25

صورة فوتوغرافية بعد سقوط تلّ الزعتر، 1976 (فلسطين)



عهد التميمي وعمرها 12 سنة، صفت الجنديّ الإسرائيلي في أحد المشاهد اليومية، مطالبة إياه بالإفراج عن أخيها (الصورة 26). قد لا يحقّ للجندي أن يعتقل قاصراً، لكنّها ظلّت تحت المجهر واعتقلت في سنّ الـ16 ربيعاً. هذه العفويّة التي تسمح لفتاة يافعة، كانت لن تمرّ من دون عقاب لأيّ مناضل آخر. ولو كان ولد من العمر نفسه، لكان تعرّض لأقصى العقوبات. لكنّ هذه الفتاة، التي تربّت على قصص ليلي خالد (أول

امرأة خطفت طائرة ركاب في مطار بيروت، من أجل الإفراج عن المعتقلين الفدائيين في السجون الإسرائيلية، وقد رُسِمَتْ لها جدارية على الجدار العنصري بين غزة والكيان (المغتصب...) ومنى الكرد وغيرهن... قد وصل بها التحدي إلى تطوير سُبُل النضال واستعمال أساليب القمع المتاحة للظالم والمستبد.

الصورة 26

عهد التميمي تصفع الجندي الإسرائيلي مُطالبةً إياه بإعادة أخيها... (فلسطين)



هي الطفلة نادين عبد اللطيف من غزة (10 سنوات)، أيقونة النضال الفلسطيني التي غيّرت قواعد اللعبة بذكاؤها الحاد وإحساسها العفوي، وحججها التي تتفاوض بها مع الرأي العام العالمي. هذه الطفلة فهمت معنى وسائل الإعلام واستعانت بوسائل التواصل الاجتماعي كي تدوي صرختها في أرجاء العالم. من خلال عدستها البسيطة (خليوي أو غيره)، أرخت نادين يومياً لتطورات العدوان المغتصب على غزة/أيار 2021. كل ما عاشته من أحاسيس خلال 11 يوماً من القصف مع الأطفال الآخرين والناس المستهدفين مرّ على الشاشة، ووصل خطبائها للعالم مطالبة إياه بإنصاف شعبها وأطفال غزة، والوضع الفلسطيني.

تلميذة الصف الخامس الابتدائي هذه، عبّرت بطلاقة في لغة ليست بلغتها، عن معاناة غزة وأطفالها خلال التصعيد الأخير. وقد أسهم في إنجاح حملتها إلى حدّ بعيد، اللغة الإنكليزية التي تجيدها والتي تعلّمتها بمفردها من خلال الأفلام على يوتيوب/Utube. وسط الدمار الشامل تتجول وتنقل الصُور، التقطها الإعلام بالصدفة فتحدّث من دون سابق تحضير، بحزنٍ وصدقٍ لاقا استحساناً. انهالت عليها المُقابلات الإعلامية الغربية والعربية على حدّ سواء، وفتحوا لها الهواء من دون حساب، «بدأت أنقل معاناة أطفال غزة ومدى ما يتعرّضون له». تابعت نادين ما كانت تقوم به سابقاً، تنشر أفلاماً من تصويرها، فارتفع عدد المتابعات إلى 113 ألف متابع على Facebook، وبشرت بنشر مطالبها على اليوتيوب، «أحلم بدراسة الطبّ لأعالج كلّ الأطفال وأعالج قلوب الناس الكسيرة.. أنا طفلة عاجزة.. عندما أرى الأطفال شهداء وجرحى أدخل غرفتي وأبكي بحرقة على مصير الأطفال ومعاناتهم... أقول للعالم قفوا معنا ساعدونا.. نتعرّض لظلم من دون أن نرتكب أيّ جرم، مطلبنا بسيط أن نعيش بحرية وكرامة وسلام. لا يُمكننا أن نكون فقط وعاء لإنجاب شهداء...»

هذه الصبيّة تنابع جهادها المختلف، تخاطب العقل الغربيّ بلغته وبمفرداته وحججه، تُصوّر الأفكار والشواذ والظلم والاستبداد وتوثّق لأيام القهر والعدوان. فهل يُمكننا أن نعتبر أفلام نادين من الفنّ المعاصر؟ وهل أصلاً يُمكننا اعتبار أعمال الأطفال فنّاً أصيلاً؟ بالطبع إنّ فنّ الأطفال جميل وليس بالأصيل لأنّه لا يملك المعرفة. لكنّ هذه الابنة التي بدأت بالتصوير والأفلام منذ عمر السادسة، أصبح لديها عَيْن ثاقبة، بالإضافة إلى حسّها وذكائها وردّات فعلها. فهي ابتكرت نهجاً نضالياً مختلفاً، وهي عملت على استكمال لقاءاتها الأولى بأفضل منها، مضيئة في كلّ فيلم عن قضية إنسانية. فتاة العشر سنوات هذه شعرت بأهميّة دورها فكانت تُشجّع الأطفال وتُقوّي مناعتهم، وتكلّم على حقوقهم بمنطق السلام والحقّ الطبيعيّ، وتُذكرُ بضرورة تجنبهم للنزاعات المسلّحة كما وردت في شرعة حقوق الطفل⁽²⁷⁾.

فعلياً طرحت العولمة الغربية أنماطاً جديدة في التعبير الفنيّ وعلى رأسها فنون الديجيتال والفنّ الرقميّ. في كتابه «قواعد الفنّ» لبورديو، كتب عن ما أسماه نظريّة

(27) Utube, Videos of Nadine Abdellatif Videos.

الحقل، «إذا كان الحقل الفنّي هو موقع للصراع حول تعريف مَنْ هو الفنّان، فإنّنا لا شكّ لن ننتهي إلى إجماع عامّ على تعريف عالميّ للفنّان، لأنّ كلّ ما لدينا هو مجرد تعريف محصور بحالة محدّدة بما وصل إليه الصراع الدائم لفرض التعريف الشرعيّ للفنّان»⁽²⁸⁾. يُبيّن بورديو كيف أنّ التغيرات في العالم السياسي والاجتماعي تؤثر وتحدث تغييرات في بنية المواقع في مجال الإنتاج الثقافي وحقله. ويضيف أنّ أي ظاهرة اجتماعية أو تجربة إنسانية تنطلق من ظروف الاجتماع البشري هي بلا ريب مرتبطة به في صيرورته، «إذ لم يعد يُمكن لأحد أن يتصوّر اليوم فناً ما ينشأ خارج مُجتمع ما.. ولا حتّى داخل هذا المُجتمع، لأنّ كليهما، الفنّ والمُجتمع، يتكوّنان معاً وينشآن في آنٍ واحدٍ»⁽²⁹⁾.

من ناحية أخرى، يتكلّم ميشال فوكو شارحاً عن جماليّة اللّقاء في كتابه «نظام الأشياء» ويقول «إنّ أعمالاً صُمّمت على قواعد الناظر إليها من موقع الإشراف والانخراط في الحدث أمامه، تتّبع جماليّة اللّقاء»⁽³⁰⁾. ففي وجه ليبرالية تنكّر لقيم الآخر، استدعى الفنّ المُعاصر أفكار التحرّر والنقد إلى داخل الحقل الفنّي، ما جعله ميداناً لكلّ الطروحات التي تُعيد النظر بالعالم وتجليّاته، ومساحةً لنقد الواقع المعاش. من هذا المنطلق، يعتبر «التمردُ صفةً ملازمةً لفنّاني حقل الفنّ المُعاصر، تمرّد الضحيّة، حيث كلّ فردٍ له شرعته ومطالبه ودوره في هذا التمرد الجماعي... فخرج الفنّ من الحقل الضيق ليُصبح تجربةً مُتاحة في متناول الجميع، ما سمحَ بترسيخ الحضور الثقافيّ لشعب ما في الحيز العام، وتجلّى هذا الحضور في الحقل الفنّي بتعدد التجارب التي تجنّبت صورَ الماضي»⁽³¹⁾.

وبالرجوع إلى تجربة الطفلة نادين عبد اللّطيف، التي انطلقت بحملتها بروح عارفة وبنبضٍ عليم وبنجاح فريد، ما كان أثر التكنولوجيا، كفنّ وآليّة للتغيير الاجتماعي والنضال السياسي، على مبادرتها؟

(28) Pierre Bourdieu, *rules of Art*, op.cit, p 367.

(29) Nathalie Heinich, *sociologie de l'art*, Éd. La Découverte (Paris, coll. Repères 2001), 80-86.

(30) Morizot & Mengual, *Esthetique de la rencontre* (Paris, Seuil, 2018), p. 22-23.

(31) Onfray, Michel, *La Decadence: L'avenir de l'art*, (Paris, Ed Flammarion, 2017) pp. 14-20.

صور 27

نادين عبد اللطيف تُحضّر لفيلمها (أيار 2021)



I just want to be a doctor
or anything

إنّ البشر هم وحدهم من يمتلك الأفكار الغائبة، وبخاصّة في ما يخصّ أجهزة الكمبيوتر. وبالتالي، «لم يُعد الفنّ هو ما يُمكننا إنتاجه على نحوٍ إبداعيٍّ بل صار ما نُفكّر فيه»⁽³²⁾. يبحث دافيد هارفي في «حالة ما بعد الحداثة» وفي أصول التغيّر الثقافيّ، ليجد واقعاً حلّ فيه اللاشكل مكان الشكل، والمتغيّر مكان النمطيّ، والمُصادفة مكان التصميم، هذا هو تحديداً ما يميّز مُبادرة الطفلة نادين التي انطلقت بفعل عالم، بعمل شأنه شأن العديد من أعمال ما بعد الحداثة، مبنيّ على الصدفة ويتقبّل «العرضي والمقطّع والفوضويّ والمُشظّي»⁽³³⁾.

قد يتخطّى الفنّ الرقميّ كلّ وساطة للتواصل مع المشاهد، إنّهُ تحوّل في الفنّ لجهة التعميم واختراق دواخل الناظر وذاتيته، بهدف إثارة مُمارسة ثقافيّة تفاعليّة، تخدم جماليّة الفنّ المُستساغ. وفي حال ظهوره للحيّز العامّ، تسقط عنه صفات انتمائه إلى الفنّان ويُصبح للجماعة التي تتناوله بشتيّ المُقاربات النقديّة والإعلاميّة والإعلانيّة والترويجيّة وغيرها. في هذا الجانب، يُمكننا أن نصنّف أفلام نادين التي لا تكفّ عن تطوير بصريّاتها ومفرداتها في اختيار المكان والزمان والخطاب المؤثّر، بحكم نوع من أنواع الفنون المعاصرة والمُعترف بها، وأحد مؤشّرات نجاحها هو عدد التفاعل الشعبيّ والكمّيّ معها. تماماً كالفتاة المصريّة التي تُنادي بحريّة تملّكها لجسدها. إنّ الفنّ المُبدع، من فئة الفيديو - آرت/ Video Art قد نشأ منذ ستينيّات القرن العشرين، لكنّه تطوّر وأخذ أبعاداً وأشكالاً جديدة بفعل التطوّر التكنولوجيّ المستمرّ.

وإذا ما أُجيز لنا أن نقوم بمحاولة تصنيفيّة لما قدّمته نادين وسواها من الفتيات والمُراهقات المُناديات للعدالة والإنصاف، نرى أنّ تلك المُمارسات تدخل في صلب الفنون المُتشابكة ما بين الرسم والتصوير والغرافيك والفيديو - آرت والديجيتال والهايبينغ أو فنّ الحدث، وهي شكل من أشكال العولمة الفنيّة والتواصلية التي تطرح تحدّيات واتّجاهات جديدة في التعبير، لأنّها خاضعة للتجارب والتطوير من جانب المراكز والأطراف⁽³⁴⁾. انتقدت مدرسة فرانكفورت نموذج الوسائط الحديث المروّجة لثقافة شعبيّة،

(32) هوبزباوم إريك، أزمنة متصدّعة: الثقافة والمُجتمع في القرن 20، سلسلة ترجمان (بيروت، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، 2015) ص 63.

(33) المرجع السابق، ص. 67 - 86.

(34) Charlie Gere, *Digital Culture*, Digital Books, p 15.

لأنّها تُمارس سيطرةً توجيهيّة في أوساط جمهور مسلوب الإرادة. والحقّ يقال إنّ من الصعب التكلّم عن مُنتج فنيّ متفرد له هالة خاصّة، ولو كان شعبياً مُتمرداً. لكنّ الصوت صادخٌ والأداة بليغةٌ والمنبر ينتمي إلى السياق الثقافي. في طرّحه لانهيار الهالة الفنيّة، عابنَ بينجامين هذه الحالة ووجد أنّه أمرٌ يتعلّق بالمشاهد، ممّا يُعطينا الحقّ باعتبار هذه الأشياء أعمالاً فنيّة هادفة جيّشت مشاعر الناس بشكلٍ عامٍّ واستنفرت عقولهم للانحياز نحو الحقّ⁽³⁵⁾.

لم تكن نادين عبد اللّطيف وحيدة من دون سواها في حركة التجديد النضاليّ للفنيات والمُراهقات. كانت أيضاً الهتافات منهنّ والخطيبات الجماهيريّات واللّواتي يلقيّن الأشعار، ما تفوّقت به نادين هو فقط اختيارها الأسلوب والنصّ واللّغة حتّى تهزّ الكيان العالميّ بأثره.

بالنهاية، في لبنان أيضاً مُمارسات حيال الاحتجاجات الأخيرة تشرين الأوّل/أكتوبر 2019، حيث كانت المساحات العامّة مفتوحة للجميع، من يُجيد الفنّ ومن لا يجيده، من يكتب الشتائم ومن يسخر من القيّمين على السلطة. الفتيات كنّ أيضاً حاملات للقضايا والشعارات والهتافات العامّة وحضورهنّ كان لافتاً في كلّ التظاهرات، وعلى كلّ الشاشات. وتمثيل المرأة كان ملحوظاً من خلال عملٍ تجميعيّ لفتاة احتلّت الساحة الثوريّة كعملٍ نمطيّ يستخدم «موضوع الفتاة» لفكرة رمزيّة ولترويج جماهيريّ. ولكن، هنا الثورة أنثى، والنضال امرأة تقود الخطاب والصياغة وتشارك في الأفكار والميثاق الثوريّ. مشهدٌ شعبيّ ثائر كسر حواجز الخوف، وحرّر اللّغة التي تفلّتت من كلّ الضوابط والقيّم العامّة، أصبح الشارع ملك الناس، والحيطان مساحات مفتوحة على حريّة التعبير. تدخّل بصريّ واضحٌ ملأ المساحات العامّة، ووفّر وسيلة إضافية للتعبير عن المطالب الاجتماعيّة المحقّقة ومنها حقوق المهّمّشين والمرأة والفقراء والطفولة... في هذه اللّحظة الثوريّة احتلّت الشعارات النسويّة الحيطان، ولو أنّ التشكيل الفنّي الثوريّ لم يأخذ بعينِ جادة صوّر المُراهقات وهتافات الطفلات، إلّا من خلال الأفلام والفيديو كليب الذي استنهض الهمم بالأغاني الشعبيّة والثوريّة المؤثّرة، والتي تؤرّخ للأحداث بنظرة مُستحدثة.

(35) Walter Benjamin, *The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction*, Illuminations, ed. Hannah Arendt (New York: Schocken Books, 1968), 217.

فلا جدال أنّ الفنَّ يُعَدّ عن كُتب شهادة توثيق لميلاد الأمم العظيمة ومسيرة حياتها؛ ويعكس كالمِرآة الشفّافة الصُّور التلقائيّة العفويّة الصادقة لحياة الشعوب وتأثيرها وتأثرها بمن حولها! كصورة الفتاة الصغيرة على كتف والدها في التظاهرات، والتي استشهدت لاحقاً في انفجار 4 آب/أغسطس.

فنان من نمطٍ جديد، تصدّرت أعماله الساحات العامّة، إنّه سليم معوّض من جيل الشباب الذين استهوهم فنّ المفهوم، حيث كان يؤرّخ لكلّ فكرة من خلال شخصيات غريبة استوحى حضورها من قلب الساحات الهائجة. وكان وجوده الشخصي في بعض الصُّور، هو الذي صوّر نفسه على طريقة السيلفي، تجربةً استعملها لأنّه من الحدث ومن دواخله، ومن نقّاده ومن مُلهميه ومن مُتابعيه يوماً بعد يوم. هذا الفنان المُقاوم والثائر اليوميّ لم يتوقّف، وهو في حالٍ من الاستنفار التام، عن أن يكون نقياً على طريقته في النضال والألوان والخطوط. غالباً ما أتت أعماله ردّات فعل ضدّ ما كان يُعمل باسم الثورة، قد يوافق عليه أو قد يرفضه. لقد نظّم وصاغ ولوّّن، كتّب الحلول وشكّل في الخطوط وتعمّق في المضمون. يسترسل يومياً بنصّ مغلّف بالحكايا والقصص والسخرية والنقد الذاتي والجماعيّ. لحضوره فرادة، ولأعماله طابعٌ كرتونيّ، اخترنا منه تحديداً ما استلهمه من أعمال «نادين عبد اللطيف» ومُعاناتها إبان العدوان على غزّة.

اللّوحة مشهد جميل يربط العلاقة بين طفلة وبين «حنظلة»، هذا الطفل الكبير المتكلّم لكاريكاتير ناجي العلي. هل هو حوار؟ مزاح؟ أم فقط تلاقٍ بين الغائب (حنظلة الكلمة النقيّة) والفتاة الثائرة، بين حنظلة الفكر الذي لم يلد والذي تفجّر ممارسةً لدى الصغار والأبطال. ماذا يقصد الفنّان؟ على الأرجح، أنّه يُحيي هذه الفتاة (وهي صدى لـ «نادين عبد اللطيف»)، حيث إنّهُ يسترجع كلامها الأساسيّ كما نقلته الأفلام والمقالات والتلفزيونات ويكتبه في نصّ. ومن الواضح أنّ أكثر ما تأثر به الفنّان استعاره من كلمات «نادين» في «رفضها أن تكون فقط تُنجب أطفالاً للموت بينما هي تريد أن تُصبح طبيبة للحياة... وتحت عنوان طفل وطفلة، الأزرق والزهري هُما في عناق ودّي. يدٌ تمتدّ لتحمي هذا البطل الغائب/الحاضر، لتسترده، لتحذيّ حذوّه. وخلافاً لما سبق من صُور، هي التي تُبادر إلى مدّ يدها وهو مقفل اليدين. تبادل معه الحديث والنظر وكأنّه ما زال على قيد الوجود (الشهداء هم أحياء عند ربّهم يرزقون). من الواضح أنّ صورة البنت

المُناضلة المُعاصرة تُضاهي أهمية أطفال الحجارة الأبطال. خطاب البنات الفلسطينيات هو «كفى» كما ينصّه الفنّان، كفى لأنّ الفتاة الفلسطينية ليست مشروع أمّ تقدّم شهداء وحسب، إنّما هي المناضلة في سبيل الحقوق الكونية للإنسان. لم تعد وسيلة مطواعة، بل هي الدكتوراة والعالمة، هي المناضلة على طريقته... كم هي جميلة تلك الخطوط والأجواء الطفوليّة المفعمة بأمل المستقبل المنتصر للسلام العادل...

الصورة 28

سليم معوض، طفل وطفلة كفى، أكريليك، 2021 (لبنان)



الفنّ آليّة للنضال والتغيير متاح أمام كلّ الفئات الاجتماعية ختاماً، طيلة سنوات الحروب الأخيرة، وردت أعمالٌ ليست تحديداً ذات طبيعة سياسية محضّة، لكنّ عقداً من الحروب قد انعكس حتماً في الأسلوب والمحتوى والشكل الفنيّ، فأنّج مشاهد نابضة بالتعبير الإنسانيّة العميقة. هتافات وزلاغيث في الجنازات والزّواجات

والاحتفالات، حرب وأمل، حضور للمرأة والفتاة، خوف وصمت وتغيير مفاجئ وضعنا أمام أنموذج جديد يحمل في ثناياه انزلاقات/Displacement بمعنى كون/Kuhn Thomas، في كتابه المَعنُون «The Structure of the scientific Revolutions» يتوسَّع فيه عن كيفية أشكال الانزلاق من أنموذج سابق إلى آخر جديد⁽³⁶⁾.

عوامل عدّة قد تعرّضت لتحوّلات، وأثّرت بفعل التراكم والتقاطع، في إحداث تغيير حثيث. فمن جهة يوجد أطفال الحجارة، ولم تكن البنات عاجزات عن النضال، وأمامهنّ الغرافيتي الذي يُكرّم ليلي خالد هذه الفدائية الأولى التي خطفت طائرة، ولم تكن ليلي الكرد المناضلة المراهقة ببعيدة عن توق الفتيات بالتشبه بالبطلات. كما أنّ الاحتجاجات العربية كانت قد فرزت نماذج من فتيات تألّقن بأدوارهنّ النضالية.

من ناحية أخرى فإنّ التطوّر التكنولوجي ووضعه بمتناول الفتيات قد سهّل تواصلهنّ مع العالم ومع التجارب السابقة وقصص النجاح. وقد تطلّبت التكنولوجيا من الجميع إتقان الإنكليزية كلغة عالمية تسهّل التواصل مع العالم وتُمكن التعلّم عن بعد في الميادين كافة.

وفلسطين كسلطة حديثة المبنى، قد أبرمت العديد من المواثيق الدولية ومن الاتفاقات ومن بينها شرعة حقوق الطفل وحقوق الإنسان واتفاقات ترمي إلى ثقافة المساواة. وهي سلطة التزمت بأهداف الألفية المستدامة، الأمر الذي طوّر خطاباً نسوياً بارزاً ومشروعاً. سهّلت هذه الأبعاد الانتقال التصعيدي والانجرار نحو منظومة أخرى، وتميّزت بالانزلاق من ذهنية جامدة إلى أخرى متحرّكة. والمرأة الفلسطينية التي شاركت في النضال أصبحت شريكة في القرار ولو بنسب متفاوتة، ومن بين رياداتها ما كان القدوة للنساء العربيات كالسيّدة حنان عشراوي. هذه الهامات الكبيرة لا بدّ لها من أن تُراكم التغيير وتُجهّز الأرضية للتحوّل باتجاه المزيد من الفرادة والتميّز على غير صعيد. في هذه المنظومة حيث البنات تألّقن على المستوى العالمي، هل يُمكن للسيطرة الذكورية أن تتماهى في سطوتها؟

وفي السياق نفسه، حمل الخطاب النسوي المصري مقاربات جديدة لجهة تحرير جسد الفتاة أو البنت من العار والعنف الموجه إليها. فجسّدت العديد من الجداريات

(36) Kuhn Thomas, *The Structure of the scientific Revolutions*, (University of Chicago Press, 1962).

هذه الأفكار التي نفذها الفنانون من الرجال تحديداً، حيث قدّموا التحيّة لـ «ست البنات»، البنت الذي عزّاها الجيش أمام العلن. أمّا في لبنان فكان الخطاب الثوريّ حاملاً للقضايا التمييزيّة ضدّ النساء، وظهرت أصواتٌ جندريّة تُطالب بحقوق المثليّين والمثليّات في الثورة على كلّ المفاهيم والقيّم الاجتماعيّة.

في الحقبة السابقة، حقبة الحداثة، رأينا أنّ صورة الفتاة في الحيز الفنّي اقتصرت على الإخضاع وتيسير أمور الصمود والمقاومة. فحوّلت النساء من مناضلات وشريكات فعليّات إلى منجبات للشهداء... وبفعل التطوّرات العلميّة والتحوّلات الاجتماعيّة تغيّر دورُ البنت والفتاة من ضحيّة وصورة تُثير التعاطف والشفقة ومن مشروع لأمّ ثكلى، إلى فكر بناءٍ حرٍّ ومُبدع يُشارك في النضال على طريقته، ويُبدع كما يُجيد. ولقد فرح الآباء بهذه الأدوار المستجدة كما بدا لنا في الوسائل الإعلاميّة، واحترموا إلى حدٍّ بعيدٍ هذه الأدوار المستجدة لفتيات مُراهقات أبدين مسؤوليّةً وطنيّةً على قدرٍ من الأهميّة، وتصبّ في أهداف المقاومة واسترجاع الحقّ. كنّ الصوتُ الصّاح الذي وجّه الرأي العامّ العالميّ، وأمسينَ من وقودٍ للثورة والقضيّة إلى مشروع قيادات وبطولات مستوحاة أصلاً من المنظومة الداخليّة، وغيّرنَ في أحوالهنّ وأقدارهنّ.

ترافقت هذه التغيرات المذكورة مع انفجارٍ كمّ هائلٍ من الأنماط الفنيّة الجديدة كالأفلام والصورة الرقميّة والفنّ المتعدّد الوسائط والتجهيز والتجميع... إلخ. كذلك نما فكرٌ جديد أعطى في الفنّ الأهميّة والغلبة للفكرة والمفهوم على المهنة. فالفنّ المفاهيميّ يحتوي نصّاً مؤثراً في الناظر.

ومن جهةٍ أخرى، أمسى للفنّ دور جديد، الفنّ هو أداة للتغيير الاجتماعيّ والسياسيّ. فسح ذلك المجال أمام كلّ التجارب، معتبراً إيّاها فنوناً هادفة. كلّ ما وردَ كان مُجتمِعاً ومتشابكاً يُسهم في الانحياز إلى منظومة معاصرة تختلف عن سابقتها، قد تقطّع معها بشكلٍ نهائيٍّ وقد تستكمل مسيرتها رويداً حتّى الانتقال بشكلٍ نهائيٍّ إلى أنموذج يتّصل بتفكيكه للقديم والانحياز عنه وإعادة تركيب القِيَم المتجدرة بمفهومٍ مختلفٍ، بحيث تتحرّر الذهنيّات التقليديّة من الداخل.

صورة المحاربات في الأعمال الكرتونية الموجهة للأطفال

مقدمة

لعلّ ما نعيشه في طفولتنا يظلّ محفوظاً في ذاكرتنا ومنحوتاً في سلوكنا وشخصيتنا، وخصوصاً أنّ تنشئة الطفل ونموّ شخصيته وتطوُّرها في ظروف حياة وممارسات إيجابية، تؤسّس إلى بناء المجتمع الإنسانيّ السليم، وتحدّد طبيعة المستقبل وصورته المطلوبة. لذا فإنّ نموّ الطفل مرتبط بإشباع مراحل النموّ المختلفة لديه بأجواء طبيعية قائمة على الاستقرار والأمن والسعادة والسلام. فغياب البيئة الطبيعية الآمنة والسليمة، وتعرّض الطفل لأزمات عميقة من حروب ونزاعات تولّد آثاراً وأمراضاً خطيرة، تُعوق نموّه وتطوّر شخصيته وتفكيره. بل أكثر من ذلك فإنّها تؤثر سلباً في نموّه وتُشوّه شخصيته⁽¹⁾.

وبما أنّنا نعيش في واقع مليء بالتحديات والصراعات، التي لا تُفرّق بين كبير وصغير، وبما أنّ المجتمعات العربيّة في حالة من الحروب والتهجير والصراعات المشتعلة والمستمرّة بالتفأقم يوماً بعد يوم، منذ الاستعمار الأوروبيّ للوطن العربيّ، وظهور الحركة الصهيونيّة في العام

(1) فتحي ذياب سبيتان، أثر الاحتلال الصهيونيّ على الطفل الفلسطينيّ والقضيّة الفلسطينيّة (دار الجنادرية للنشر والتوزيع)، ص 89.

1896م، الدّاعمة لهذا الاستعمار والمُساعدة له في السيطرة على الوطن العربيّ وسياساته واقتصاده ومستقبله، وفي تعريض أبنائه للقهر والقمع والاستغلال⁽²⁾، فإنّ فئة الأطفال هي الفئة الاجتماعيّة الأضعف والأكثر تضرراً وتأثراً من غيرها بنتائج ما يجري من أحداث، بحُكم حساسيّة الأطفال وضعفهم، وخصائص نموّهم، وحاجتهم الملحة إلى الرعاية والعناية المباشرة⁽³⁾، وبالأخصّ الطفلات العربيّات؛ إذ كنّ قد نلنّ الحظّ الأسوأ، لأنّهنّ الحلقة الأضعف في ما سبّته الحرب لهنّ من تضيقٍ على أحلامهنّ ورغبتهنّ بمتابعة دراستهنّ ومعرفة ذواتهنّ وتحقيقها، ولاسيّما في بعض المُجتمعات التي تضع قيوداً خاصّة عليهنّ بحُكم عاداتها وأفكارها، والتي وصلت أحياناً إلى حدّ منع بناتها من التعلّم وتهميشهنّ، والإسراع بتزويجهنّ أو إبقائهنّ في المنزل خوفاً عليهنّ من التعرّض لخطر الموت أو لخطر الاغتصاب والفضيحة نتيجة التفلّت الأمنيّ وعدم الاستقرار⁽⁴⁾. وهذا ما أدخلهنّ في دوّامة الضياع والمصير المجهول.

فالأوضاع الصعبة والمعقّدة التي تُحيط بحياة الأطفال في أثناء الحروب والصراعات المسلّحة تحوّلت إلى أزمة عميقة ذات أبعاد عالميّة، غدت مواجهة انعكاساتها السلبيّة تتطلّب معرفة علميّة وموضوعيّة، على حدّ تعبير كريستين نصّار⁽⁵⁾. لكون الحرب هي بمنزلة نكبة اجتماعيّة حقيقيّة تُهدّد الإنسان المعاصر إلى أيّ مُجتمع انتمى، ومخاطرها متعدّدة ومتنوّعة، ولاسيّما في التأثير العميق الذي تُثيره في تفكير الإنسان الذي من شأنه تحويل حساسيّته وسياق تفكيره عن مساره الطبعي. فالحرب تلبّد ميول الإنسان الفطريّة والأكثر أصالة بداخله محدّثة لديه انقلاباً يشمل كلّ قيمه الأخلاقيّة والمعنويّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة⁽⁶⁾.

(2) فتحي ذياب سبتان، أثر الاحتلال الصهيونيّ على الطفل الفلسطينيّ والقضيّة الفلسطينيّة، ص 91.

(3) المرجع نفسه ص 93.

(4) عزام إسماعيل، DW العربية، ثقافة ومُجتمع، متاح على:

www.dw.com/ar/a-44006407/الأطفال-أكبر-الخاسرين-من-الحروب-والأزمات-في-المنطقة-العربيّة

(5) كريستين نصّار، واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل. حالة خاصّة: الطفل اللبناني، غروس برس، ط 1 (1991)، ص 68.

(6) كريستين، نصّار، واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل. حالة خاصّة: الطفل اللبناني، المرجع السابق، ص 37.

قصص الخيال والرُسوم الكرتونية المتحرّكة في مواجهة الصعاب

لقد أولى علماء النفس والاجتماع للخيال، كمُحفّز للبقاء على قيد الحُلُم والحياة، دوراً مهماً في إخراج الطفل من حالة الخوف والعجز والوهن وعدم الاطمئنان إلى حالة تقبُّل الواقع الأليم والتفاؤل والأمل بمستقبل أفضل. بما يعني إسهام الخيال في خفض درجة التأثير السلبي الذي قد يعترى الأطفال وإعادة التوازن الذاتي إلى نفوسهم الحائرة، وما يترتب عن ذلك من تعزيز الثقة بالنفس والقدرة على تثبيت مستويات الطموح الأكثر ارتفاعاً ومكانة⁽⁷⁾.

إذ يرى برونو بتلهيم في كتابه «Psychanalyse des contes de fées» بأن قصص الخيال والأساطير والخرافات تُغذي الخيال وتُغني حياة الطفل الفكرية بما يخرج عن إطار تجربته المُعاشة وسط الأسرة. كما أنّها تُقدّم له موادّ مهمّة تُساعده في تكوين مفاهيمه حول أصل العالم وأهدافه ومثله العليا التي عليه الامتثال بها. فالخيال يُشكّل عنصراً جوهرياً في نمو الطفل المتكامل، وتكمن أهميته في مساعدة الطفل على إعطاء معنى عميق لحياته، وعلى فهم ذاته وبالتالي فهم الآخرين، واكتشاف المعنى العميق لحياة الإنسان من خلال مساعدته على تجاوز فرديته أي حدود وجوده الضيق الإطار والمتمركز حول الذات، والاقتناع بقدرته على الإبداع الفردي، إن لم يكن في الوقت الحالي فعلى الأقل في المستقبل⁽⁸⁾.

لذا فإنّ لشخصية البطل في قصص الخيال وفي الرسوم الكرتونية المتحرّكة دوراً مهماً في إشباع خيال الطفل ونمو شخصيته من خلال الامتثال بسلوكها والتماهي بها، لا سيّما لدى أطفال الحروب الذين فقدوا أهاليهم، قدوتهم ومثالهم الأعلى والأول، أو الذين أسقطوا صورة أهاليهم المثالية بسبب عدم اكتراثهم لهم وسوء رعايتهم أو حتّى تخليهم عن فكرة الامتثال بأهاليهم نتيجة تزعزع وضعف واضطراب صورتهم أمامهم خلال الحرب. من هذا المنطلق، أشاد علماء النفس بهذا الإشباع الخيالي وبدوره الإيجابي في

(7) المرجع نفسه، ص 192.

(8) المرجع نفسه، ص 193.

حال لم يتخطَّ مرحلة الوهم لأنَّه يُساعد الطفل على الخروج من الجوّ السلبيّ، والامتثال بشخصيّات قويّة مركّبة بشكلٍ هادفٍ تدفعهم إلى الثبات والنهوض⁽⁹⁾.

وعلى الرّغم من اعتماد فنّ الرسوم المتحرّكة في بداية ظهوره على التسلية والترفيه، لكنّه سرعان ما تحوّل إلى فنٍّ يُحاكي الواقع ويُحمّل أبطاله صفات سلوكيّة وجسديّة مميّزة تُسهّم في صقل شخصيّة الطفل ودعّمها بسلّة غنيّة من المبادئ والقيّم والأخلاق.

وتُعَدُّ الصورة في الرسوم الكرتونيّة المتحرّكة أكثر تأثيراً من القصص المكتوبة، نظراً لقدرتها الخاصّة في التسلّل والإقامة الطويلة في الذاكرة. فقد ينسى أحدنا كتاباً قرأه قبل عشرين عاماً ولكنّه بالتأكيد لن ينسى مشهداً بصريّاً أو صُوراً، ولاسيّما إذا ما كانت تحمل في تكوينها نسبةً عالية من الجاذبيّة والدهشة. وكما تقول «جنيفاف دجناتي» (Geneviève Djénati) في حديثها حول الرسوم المتحرّكة: إنّ هذا التسلّل لم يكن اختراقاً بل كان تسلّلاً بطيئاً دخل حياتنا ليتكامل معها ويغدو جزءاً لا يتجزأ منها⁽¹⁰⁾. فالصورة في أفلام ديزني الكرتونيّة هي صورة متحرّكة حيّة، تتكلّم وتتحرك كما أنّ تأثيرها يزداد مع تطوّر تكوينها التقنيّ وبلاغتها التكنولوجيّة وقوّة إشباعها بالألوان والأصوات والمؤثّرات، بحيث تستفزّ أحاسيس المشاهد البصريّة والسمعيّة وتستحوذ عليه.

وتُعتبر الصورة في فنون الإعلام والاتّصال البصريّة من التلفزيون والسينما، كما وفي الألعاب وغيرها، أداةً تعليميّة ووسيلةً فعّالة لحفظ المعلومات في ذاكرة الجمهور، ولاسيّما أنّها تمتلك قاعدةً شعبيّة أكبر بكثير من القصص والأدب المكتوب، وذلك لعدم حاجتها إلى أشخاص متعلّمين لقراءتها كما الحال في القصص المكتوبة، فالصورة للناس البسطاء، والكتابة للذين يعرفون القراءة، فالذين لا يعرفون القراءة يرون الصورة ويتعلّمون منها الطريق الذي يجب اتّباعه. الصور، فوق ذلك كلّها، هي إرشادات للناس⁽¹¹⁾.

(9) المرجع نفسه، ص 191.

(10) DJÉNATI, Geneviève: *Psychanalyse des dessins animés préface de Michel Ocelot* (France: L'Archipel, 2001), p.17.

(11) عبد الجبّار ناصر، ثقافة الصورة في وسائل الإعلام (القاهرة: الدار المصريّة للبيّنة، 2011)، ص 66.

هَيْمَنَةُ الْإِنْتاجِ الْأَجْنِبِيِّ الْمُدْبَلَجِ عَلَى الشَّاشَاتِ الْعَرَبِيَّةِ

خلال الثمانينيات من القرن الماضي، شهدت الشاشات العربية، ولاسيما في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين والخليج العربي، موجةً كبيرةً من تدفق المسلسلات والأفلام الكرتونية الأجنبية المدبلجة، حظي أكثرها بوقوعٍ وصدىٍ إيجابيٍّ ومُلهِمٍ وثقافيٍّ على المُجتمعات العربية، حيث كان للإنتاج الياباني «الأنمي» (Anime) الحصة الأكبر منها بتقديم أعمالٍ عُرضت فيها قصصٌ وحكايا بطلات تميّزت كلّ واحدةٍ منهنّ بشخصيّةٍ مختلفةٍ فرّدتها عن مثيلاتها وميّزتها عن الأخريات بصفاتٍ خاصّةٍ شكلاً ومضموناً. كمسلسل «لحن الحياة»، «نوّار»، «ابنتي العزيزة راوية»، فيلم «الاختطاف بعيداً» (Spirited Away, 2001) «قبر اليراعات المضيئة» (The Grave of the fireflies, 1988) وغيرها من الأفلام والمسلسلات الكرتونية اليابانية. كذلك أفردت الشاشات العربية حيزاً كبيراً للأفلام والمسلسلات الكرتونية الأميركية التي انتجتها شركة والت ديزني، التي لم تتوان عن سحرنا بأفلامها الروائية الكرتونية الطويلة، وبحكايا بطلاتها التي تنوّعت وتشكّلت مع تغيّر الزمان والمكان، فكانت الفتاة الرقيقة الخاضعة في «بياض الثلج والأقزام السبعة» (Snow White and the seven dwarfs, 1936)، والمُحاربة الشجاعة في «مولان» (Mulan, 1990) و«رايا والتنين الأخير» (Raya and the last Dragon, 2021)، والمناضلة المُجتهدة لتحقيق الحُلُم في «الأميرة والصفدع» (The princess and the frog, 2009)، وغيرهنّ من البطلات والأفلام التي رسّخت في ذاكرة طفولتنا وما نفكّ نَحْنُ فيها إلى مشاعر اللّحظة التي كنّا نجلس متمسرين أمام شاشات التلفاز للتمتّع بسحر مشاهدتها، وألوانها، وموسيقاها، وحركة شخصياتها، وأصواتهم وحكاياهم، ونستلهم من مواقفهم.

وبهذا فإنّ أكثر ما شاهدته الأطفال على الشاشات العربية، وما زالوا، هي أفلام ومسلسلات أجنبية مدبلجة إلى العربية، بثقافة وعادات وقضايا تختلف عن قضايانا وهمومنا العربية الخاصّة. وعلى الرّغم من مساعي العديد من الشباب العربي الطموح والموهوب إلى إنتاج أعمالٍ كرتونية تُشبهنا، إلّا أنّ هذه الأعمال ظلّت بمعظمها أعمالاً يتيمة تفتقر إلى الدعم الماديّ والإنتاج والترويج، كالمسلسل الكرتوني «إمارة» (Emara)



الذي أُنتج في الإمارات عام 2016، إنتاج استوديو «Eating stars studio» وإخراج فاطمة المهيري، وقُدِّم في خمس حلقات، وعُرض على قناة إمارة على موقع «يوتيوب»⁽¹²⁾.

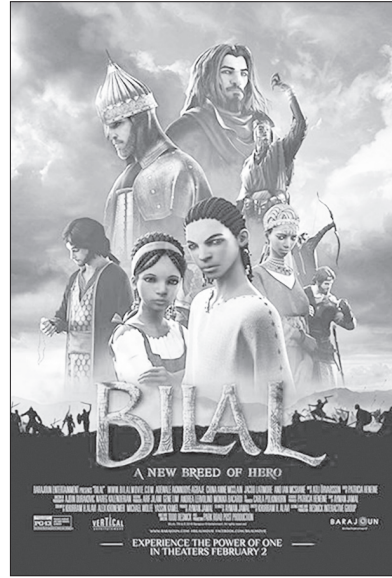
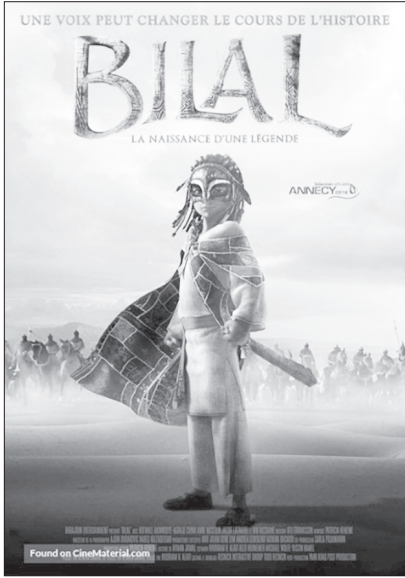
غير أنَّ حَجْم العمل كان صغيراً جداً نسبة إلى عدد حلقات المسلسل، الأمر الذي مَنَعنا من الدخول في نفسية البطلة لفهمها وإدراك أعماق الشخصية وأبعادها أكثر، هذا البعد الذي يُساعد في التأثير في المتلقي لهدف التعلُّق بالشخصية والرغبة في الامتثال بها. ومع ذلك كان العمل مُتقناً من ناحية الصورة والألوان والمونتاج، لكنَّ مشاهد كثيرة منه كانت تحتاج إلى مزيدٍ من التحريك إذ كانت تبدو شبه ثابتة، وكانت تحتاج أيضاً إلى إضافة حلقات وسيناريوهات أكثر عمقاً تُلامس ثقافتنا العربية. وعلى الرَّغم من نقاط ضعف المسلسل، إلَّا أنَّه يُعتبر تجربة مهمة إضافية تُظهر سعي العرب نحو إنتاج أعمال تُنافس الأعمال اليابانية والأميركية وتتكلَّم لغة الشعب وثقافته.

كما شهد العالم العربي في السنوات العشر الماضية تحركاتٍ قامت بها مجموعة من الشباب العربي السعودي المُحتَرِف، حيث كان للعالم العربي في العام 2015 أول فيلم سينمائي كرتوني طويل اسمه «بلال» شكَّل نقلة تحريك كرتونية عربية جديدة، كما كان عملاً إبداعياً لاقى انبهار العالم به وتمَّ عرضه في 300 قاعة سينما أميركية. الفيلم آمنَ به مجموعة من الشباب، تحدّوا الصعوبات والزمن ونجحوا في تحقيقه. وصلت ميزانية إنتاجه إلى 30 مليون دولار، وتمَّ تنفيذه في 3 سنوات، فيما استغرق إعداداه أكثر من 7 سنوات، حيث عملت شركة «باراجون إنترتينمنت» السعودية على إنتاجه وفقاً لأحدث الخبرات العالمية المتبعة في إنتاج هذا النوع من الأفلام⁽¹³⁾. كان الفيلم عبارة عن لوحة

(12) بطلة المسلسل فتاة مُراهقة عادية، بانفعالات كارينكاتورية يابانية (manga) في النهار اسمها موزة، وليلاً يظهر الجانب الشجاع والدرامي من شخصيتها ليُحارب الجرائم التي تعجُّ بها شوارع الإمارات العربية المتحدة. بدا العمل مُتقناً من ناحية الرسم والألوان والشخوص. لكنَّ التحريك فيه كان متقطعاً تارة وشبه معدوم تارة أخرى، على الرغم من المنتجة الجيدة. وذلك لقلة أعداد العاملين في هذا العمل الذي لا يتجاوز 15 عاملاً بين مُحركين ورسامين ومُنْتَج ومُخرِج ومدير صورة. وتميّزت بطلته بارتداء الحجاب الذي عكس الهوية الإماراتية العربية والإسلامية، وفستان زهري طويل مُحْتَشِم يُقدِّم صورةً وهيئةً أنثوية رقيقة. أمّا في الليل، فكان لباسها داكناً أشبه باللباس العسكري للمرأة الإماراتية، وكانت تتمتع بقدرات خارقة تفوق الواقع والطبيعة. وكانت تفاعلات البطلة تحمل شيئاً من المُبالغة، وكانت كارينكاتورية وشبيهة بالانفعالات التي نراها في الكرتون الياباني (Manga).

(13) الشيماء صالح، «6 معلومات لا تعرفها عن الفيلم السعودي الجديد «بلال»، «النبا» متاح على:

بلال (Bilal, 2015)



فتية رائعة بمشاهدته، ولقطاته وألوانه وإيقاعه الإخراجي وموسيقاه، جَمَعَ المتعة والموعظة في آنٍ واحد⁽¹⁴⁾. وقد اعتُبر من الأفلام المُلهمة لجميع المشاهدين كباراً وصغاراً، فتيناً أو شباناً، لأنه كان يُخاطب الذات المتمثلة في شخص بلال.

في ضوء ما تقدّم أعلاه، ينبثق التساؤل حول مدى حاجة المُجتمعات العربية إلى أعمالٍ مشابهة ومُلهمة للأطفال بعامةً وللفتيات بخاصة، تحكي هواجسهنّ وتتكلم بلغتهنّ حتّى ولو كانت رمزية. وفي سياق يعجّ بالنزاعات والحروب، تتساءل عن القيم والأفكار والصور المتخيّلة التي حملتها المسلسلات الكرتونية الأجنبية للأطفالنا وطفلاتنا، ومدى صلتها بواقعهم/واقعهنّ المعيش. وبغرض الإجابة عن هذه الأسئلة، سوف نُحاول سبرَ غور عينية من المسلسلات الكرتونية الآتية: «نوّار»، «بارفانا - المُعيلة»، «الأميرة

(14) «بلال» هو قصّة الصحابيّ «بلال ابن رباح» المؤدّن الأوّل في الإسلام، وتحكي القصّة عن طفل طموح يحلم بأن يصبح مُحارباً شجاعاً، ولكنّه يقع ضحية الاختطاف مع شقيقته بعد الاعتداء الذي وقع في قريتهم، فتستفيد حرّيته بيد «أميّة بن خلف» - أحد رؤوس قريش وحاكم المدينة - ويعيشان في عالم لا يحكمه سوى الجشع والطمع. لكنّ فكرة التحرّر من القيود كانت تسطر على بلال، من دون أن يتمكّن من التخلص منها قبل تحرّره من قيوده الداخلية، من خوفٍ وضعفٍ ووهن، التي قيّدت روحه وقلبه. لكنّ تحرّره من هذه القيود مكّنه من التغلّب على الحاكم أميّة، ومنع البطش والقهر عنه، والعيش حياة الأحرار.

مونونوكي»، «رايا والتنين الأخير»، «مولان»، من خلال التركيز على صور البطلات في هذه المسلسلات، والمُحتمل أن تتمثل بهنّ الفتيات العريّيات.

بطلات الكرتون كنماذج للتماهي للطفلات العريّيات

برزت على الشاشات العريّية في فترة الثمانينيات وما بعدها - فترة النّقا والحرّوب الداخليّة والعريّية والإقليميّة الدائمة والمستمرّة حتّى اليوم - مسلسلات كرتونيّة يابانيّة تنتمي إلى نوع «الكودومو» التي تختصّ بعالم الأطفال والأسرة، وتهتمّ بتقديم سلّة من القيم والأخلاقيّات والمحفّزات في حكايا الفتيان والفتيات وعلاقتهم بأسرهم، وبالمُجتمع، وبالوطن. فكان من أولئك الفتيات بطلات ناضلن بحبّ وإرادة لتحقيق أحلامهنّ على الرّغم من تضاربها مع أفكار المُجتمع وعاداته. مسلسلات بحلقات قدّمت وتقدّم للمشاهد العربيّ وللفتاة العريّية بشكل خاصّ صوراً من النضال والكفاح اللذين يُحتذى بهما في مُواجهة صعوبات الحياة والمعوّقات والقيود التي تفرضها عادات المُجتمع الذي ينتمين إليه، التي تكون أحياناً قاسيةً عليهنّ وقاتلة لأحلامهنّ ومعوّقة حقيقيّة في تحقيق ذواتهنّ، التي تحتاج في ظروف الحروب والأزمات إلى قدر أكبر من الدعم والتشجيع للوقوف ولمتابعة النضال والسعي. ما يعني أنّ لكل فرد الحق في ممارسة الحياة بأسلوب مثاليّ ينبع من تحقيق ذاته التي هي الدّافع والمحفّز الفعليّ والمطبّب الشافي التلقائيّ لحياته ولممارستها بأكمل وجه. لذلك فإنّ التعديّ على هذا الحقّ، بالمنع والرفض أو بطمس ميل الفتيات نحو تحقيقها، بمُحاصرتهم أو إخضاعهم بإدخالهم ظروف حياة مليئة بالواجبات والمسؤوليّات القاسية التي تُعوّق احتماليّة سعيهنّ إلى تحقيق ذواتهنّ وإنجاز أهدافهنّ - كتزويجهنّ قسراً في سنّ مبكر وتحميلهنّ مسؤوليّات وواجبات تفوق قدراتهنّ وتستحوذ على طاقتهنّ وتمنعهنّ من السعي قدماً نحو ذواتهنّ وأهدافها، هو بمنزلة تعدّ على حياتهنّ كأفراد، وحرّيتهنّ في اختيار مسار حياتهنّ، لأنهنّ وحدهنّ من يمتلكن معرفة قدراتهنّ المكنونة وتوجيهها نحو تحقيق ذواتهنّ وإنجاز أحلامهنّ.

ويجد «أبراهم ماسلو» واضع هرم احتياجات الإنسان وتسلسلها «أنّ حاجة تحقيق الذات عند الفرد تشغل المستوى الأعلى من التقدّم النفسيّ عند تحقيق كامل الإمكانيّات الكامنة للفرد بعد قضاء احتياجاته الإنسانيّة الأساسيّة (مثل الطعام، والمأوى، والدفع،

والأمان، والإحساس بالانتماء). ويُشيرُ إلى نقطة أساسية في هذا الترتيب والتي تطرح إمكانية التغيير واختلاف حاجة الإشباع من شخص إلى آخر وعدم اتباع التقدم القياسي دائماً، مذكراً بمثال يُشيرُ إلى أنَّ حاجة بعض الأفراد إلى تقدير الذات تفوق فيه حاجتهم إلى الحب. وبالنسبة إلى آخرين، الحاجة لتحقيق الإبداع قد تتفوق حتى على أكثر الاحتياجات أساسية⁽¹⁵⁾. والمعركة في الحرب المعنوية لا بد أن تكون أشرس والدفاع فيها أشد وأقوى، والفوز فيها هو بمنزلة انتصار للكيان وتحقيق للوجود.



أ - مسلسل «نوار»

شغل «الأنمي» حيزاً كبيراً على شاشات بعض المحطات الفضائية والقنوات الرقمية على شبكة الإنترنت مثل اليوتيوب ومواقع متخصصة بالرسوم الكرتونية. نذكر منها مسلسل «نوار» الذي يُعدُّ من المسلسلات الكرتونية التي يُحتذى بها ومثالاً قيمياً للسعي نحو المستقبل والنجاح في تحقيق الذات والأحلام المبتغاة. بما تُقدِّمه حلقاته من قيم أخلاقية، وتشجيع بناء ومدرّس لمعرفة الذات والمثابرة للمضي قدماً نحو إنجازها، ولو تطلّب الأمر مواجهة التقاليد والعادات المعوقة التي صنعتها المجتمعات المغلقة، التي قد تقف أحياناً كعثرة أمام تقدّم الأطفال والسعي وراء أحلامهم.

استُمدّت شخصية نوار الكرتونية من رواية «رجال صغار» للكاتبة الأميركية لويزا ماي ألكوت، وكان اسمها في النسخة اليابانية «نان» (ナン) وقد ظهرت في اللقاء الأول على الشاشة في السابع عشر من كانون الثاني (يناير) من العام

(15) https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82_%D8%A7%D9%84%D8%B0%D8%A7%D8%AA

1993 واستمرّ عرض هذا المسلسل حتّى التاسع من كانون الأوّل (ديسمبر) 1993، وبلغ عدد حلقاته أربعين حلقة.

قام بكتابة هذا المسلسل الكرتونيّ «ميتشيرو شيمادا»، وأخرجه «كوزو كوزوها». وتمّ إنتاجه في استوديو «نيبون أنيميشن» وقامت بأداء صوت نوار في النسخة العربيّة الفنّانة «سناء حامد». قدّم المسلسل شخصيّة نوار بتصرّفات العفويّة وسلوكها الصبيانيّ فكانت الفتاة الطيّبة، اللطيفة المرحّة حيناً والصبيانيّة، المُشاكسة، المتمرّدة حيناً آخر. تحبّ اللّعب، وتحبّ مساعدة الآخرين. تعيش في مدرسة داخلية يُديرها السيّد فريد وزوجته السيّدة أمينة، تقع في منطقة ريفيّة جميلة اسمها «تلّ الزهور».

تمتّع «نوار» بمميّزات خارجيّة ميّزتها عن باقي بطلات مسلسلات الأنمي: بساطة شكلها وعفويّته، بشرتها البيضاء، عيناها السوداء والثابتان المفتوحتان للمعرفة، شعرها القصير الأسود وأشبه بشعر الفتيان، وهو شكل من أشكال التحرّر من قيود المُجتمع الذي يفرض شكلاً وهيئة محدّدة ونمطيّة للفتيات.

بدأ «نوار» شخصيّة فريدة من نوعها وملبئة بالحيويّة والنشاط والرغبة الجامعة نحو تحقيق الذات مهما كان حجم الصعاب. فتفرّدت باختلاف اهتماماتها عنهنّ وبعفويّتها في التعبير عن غضبها، بحبّها، واهتمامها، وبأسلوب لعبها وعلاقتها بالآخرين. فالاختلاف أحياناً يُنتج تميّزاً، إذا عرفنا مكنوناتنا الداخليّة وأدركنا مقدراتنا. ومن خلال سعيها الدائم ومتابعتها لثقل هذه المميّزات، لا بدّ لنا من أن نتصرّ وننجح ونتجاوز كلّ ما يُمكن أن يعترضنا من عقبات وصعوبات في هذه الحياة. هذا ما سلّط المسلسلُ الضوء عليه في الحلقتين الأخيرتين حول رغبة نوار بتحقيق حلمها في دخول كليّة الطبّ، وتخطّي حجم العقبات التي وقفت أمامها من مُجتمع بكامل فئاته وأفراده، فتقاوم وتُحقّق حلمها وتنجح، كما في المشهد الأخير عندما أظهر «نوار» بهيّة طبيبة راقية، سيّدة بكامل أنوثتها، ومفكّرة، ترتدي فستاناً أيقا وقبّعة بيضاء، وحديثها الحكيم الذي يُخاطب المُشاهد بصوت هادئٍ ناضج ومُحبّ.

يدفع المسلسلُ الأطفال، ولاسيّما الفتيات، إلى ضرورة التمسّك بأحلامهنّ وعدم التراجع عنها، لكون الإنسان لن يُتقن عملاً ما لم يرغب به من ذاته، كما لا يؤديه بحبّ وصدق وشغف. ولأننا بشرٌ فإننا بحاجة دائماً إلى من يدعمنا، ولاسيّما من الدائرة الصغيرة والقريبة جدّاً مِنّا المتمثّلة بالأهل، والتي عبّر عنها المُخرج بالسيّدة أمينة والسيّد فريد

اللذين كانا يرتبطان مع الأطفال بعلاقة تفوق بتوصيفها علاقة أستاذين بتلاميذهما، بل كانت أشبه بعلاقة أهل بأولادهما.

بالإجمال، هذا النمط من الفتيات المناضلات لتحقيق حلمهنَّ يُعدّ مهماً ومُحفِّزاً للفتيات الصغيرات اللواتي عشنَّ ويلات الحرب وتداعياتها، بعد أن فقدنَّ الحماسة نتيجة الخسارات الكبيرة التي نالت منهنَّ، كفقدان الأهل، أو أسر المجتمع لهنَّ ومنعهنَّ من متابعة الدراسة بسبب الأفكار الاجتماعية القاسية التي حكمت على الفتيات خلال فترة الحروب وما بعدها بالبقاء في المنزل أو الزواج.

ب - بارفانا - المعيلة (Parvana - The BreadWinner)



فيلمٌ كرتونيّ سينمائيّ ثنائي الأبعاد أُنتج في العام 2017، إخراج الإيرلندية «نورا توماي»، مُقتبس من سلسلة روايات مبنية على أحداثٍ حقيقية، للكاتبة والناشطة الكندية «ديبورا إليس».

بطلة الفيلم فتاة صغيرة اسمها «برفانا»، تبلغ من العمر 11 عاماً نشأت في ظلّ فترة حكم حركة طالبان التي كانت تسيطر وقتها (في العام 2001) على 10 إلى 20 بالمئة من أفغانستان. لم يُسمح وقتها للنساء بالعمل أو القيادة أو الذهاب إلى المدرسة أو حتّى التسوّق من دون مرافقة رجل لهنّ. يُسجن والد «برفانا» لمُخالفته تعاليم إسلام طالبان، فتركها هي ووالدتها وأختها الكبرى وأخاها الصغير في المنزل.

ولأنّ الحكم الطالباني لا يسمح للفتاة بأن تخرج من المنزل لوحدها من دون مرافقة رجل، وبالتالي لن يسمح لها بالتبضع أو شراء مؤونة لتحضير الطعام، باتت الفتاة في موقف يُجبرها على التخلّي عن هويّتها الأنثويّة والتّكرّ بهيئة صبيّ. فقصّت شعرها الأسود الطويل رمز أنوثتها، وتكرّت بشباب أخيها المتوفّي، وتحوّلت إلى ما يُعرّف في بلادها

بالـ«باشا بوش»(*)، الذي يمنحها حرية التنقل والتعامل مع العالم الخارجي لتساعد عائلتها في كسب العيش⁽¹⁶⁾.

يعرض الفيلم مشكلةً عالميّة وهي مكانة الأنثى في عالمٍ يُسيطر عليه الذكور، حيث لا وجود للمرأة من دون وجود الرجل، وغياب وجود الذكر في حياتها يعني توقّف وجودها وحياتها.

كما ويُظهر الفيلم بطريقةٍ غير مباشرة المأساة التي تعانيها الشعوب عند التعرّض للاحتلال، ولاسيّما عندما يكون الاحتلالُ مُحَمَّلًا بأفكارٍ ومفاهيمٍ ثقافيّة مُغايرة عن التي كانت سائدة في البلاد. فيُضيف على أبناء الوطن معاناةً وأزمة فوق مُعاناة الاحتلال والتهجير. ويُحاول الفيلم تمريرَ رسائل غير مباشرة عن أهميّة التعلّم والمُثابرة والشجاعة في زمنٍ طغى عليه القمعُ والوحشيّة وظلام الجهل.

تميّزت بارفانا بشخصيّةها القويّة والشجاعة والمُحاربة في زمنٍ استضعاف الأنثى. وقد تجلّت هذه الشخصيّة في سلوكها طوال الفيلم، وفي ألوان ثيابها المحدّدة في إعلان الفيلم الذي عكّس البُعدَ النفسي والشكلي للبطلة. فلونٌ منديلها الأحمر القرميديّ الذي ترتديه في إعلان الفيلم يمزج بين الأحمر، لون الدّم ولون القوّة والحيويّة والتضحية ورمز المُحاربة عند الإيرلنديّين⁽¹⁷⁾، وبين اللّون البنيّ للتراب، رمز الأرض والانتماء والأصالة.

كما وأبدت بارفانا شجاعةً وحسّاً بالمسؤوليّة والاستقلاليّة على الرّغم من صِغَر سنّها، فظهرت حنونة ومضحّيّة، خاطرت بحياتها وتحدّت خوفها والمُجتمع لأجل عائلتها، ولاسيّما عندما قرّرت التخلّي عن شعرها وقصّبه بنفسها، وكأنّ هذه اللّحظة هي تجسيد

(*) باشا بوش تعني ارتداء زيّ الصبيان. وهي مُمارساتٌ ثقافيّة لشعوب أفغانستان وباكستان تلجأ لها الأسر التي ليس لديها أفراد ذكور، حيثُ تقوم بتحويل إحدى الفتيات لتكون باشا بوش، أي ارتداء ملابس الذكور والتصرّف مثلهم وتحوّل إلى هيئة ولد وتذهب للعمل ومساعدة العائلة في جلب قوتها اليوميّ.

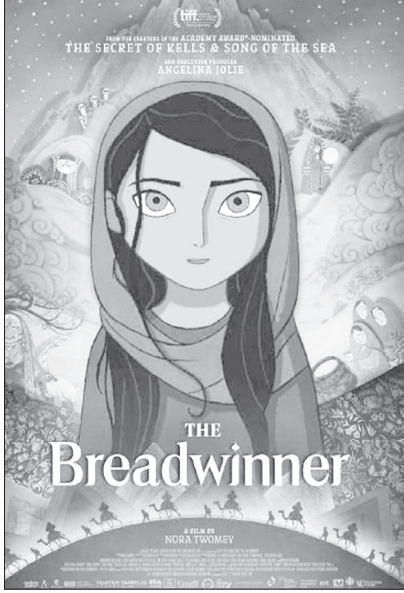
(16) «فيلم The Breadwinner.. حكاية «برفانا» من المخيم لشاشة السينما»، المنصّة، متاح على:

<https://almanassa.com/ar/story/9169>

(17) كلود عبيد، مراجعة د. محمّد حمّود، الألوان، (بيروت، مجد المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع،

2013)، ص. 73 - 78.

لِلْحِظَةِ التَّحَرُّرِ مِنَ الضَّعْفِ وَبَدْءِ رَحْلَةِ النُّضْجِ وَتَحْمَلِ الْمَسْئُولِيَّةِ وَالانتِقَالَ إِلَى الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ.



تُظْهِرُ مَلَامُحُ وَجْهِهَا الْوُضُوحَ وَالانْفِتَاحَ عَلَى الْحَيَاةِ بَعِيْنَتِهَا الْخَضِرَاوِينَ الْوَاسِعَتَيْنِ وَنَظَرَتِهَا الْمَحْدَقَةَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيطُ بِهَا وَتَمَلَأُ الْبِلَادَ. مَلَامِحُهَا مُسْتَوْحَاةٌ مِنْ مَلَامِحِ صُورَةِ الْفَتَاةِ الْأَفْغَانِيَّةِ «شَرِبَاتِ جُولَا» (1984) الَّتِي لُقِّبَتْ بِمُونَالِيزَا الْأَفْغَانِيَّةِ لِلْمَصُوِّرِ الصَّحَافِيِّ الْأَمِيرِكِيِّ «سْتِيفِ مَأكُورِي». وَجْهٌ صَامِتٌ بَعِيْنَيْنِ مُتَكَلِّمَتَيْنِ مُمْتَلِئَتَيْنِ بِالْحَيَاةِ وَالْخَوْفِ. الْخَوْفُ الَّذِي تَجَلَّى فِي مَوَاقِفَ كَثِيرَةٍ فِي الْفِيلْمِ عَلَى شَكْلِ مَشَاهِدٍ مُتَقَطَّعَةٍ - مُنْفَذَةٌ بِأَسْلُوبِ عَرُوضِ «عَرَائِسُ الظِّلِّ» (Shadow Puppets)⁽¹⁸⁾ - مِنْ حِكَايَةٍ كَانِ وَالِدُهَا يَقْصُّهَا عَلَيْهَا وَهِيَ بَرْفَقَتَهُ فِي السُّوقِ، وَتَحْكِي قِصَّةَ فَتًى يُدْعَى سَلِيمَانَ يُصَارِعُ الْمَلِكَ الْفِيلَ، يُمَرَّرُ فِيهَا عِبْرٌ وَتَارِيخُ الْبِلَادِ قَبْلَ دُخُولِ طَالِبَانَ، وَكَيْفَ كَانَتِ الْفَتَيَاتُ يَذْهَبْنَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَكَيْفَ كَانَ الْمُجْتَمَعُ وَالْاِخْتِلَاطُ بَيْنَ النَّاسِ.

(18) عَرَائِسُ الظِّلِّ هِيَ أَحَدُ فَنُونِ الْحِكْمِيِّ الْقَدِيمَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي مَنطِقَةِ شِبْهِ الْقَارَةِ الْهِنْدِيَّةِ وَأَفْغَانِسْتَانِ.



فكانت بارفانا تستحضرها في مخيلتها كلما شعرت بالخوف، فتمدّها بالقوّة والعزيمة لتُعاود السَّيرَ في سبيل تحرير والدها من سجون طالبان. وفي هذا رسالة من المخرجة عن أهميّة حكايا الخيال في تنمية ذات الطفل وشخصيّته بالثقافة والمعلومات ودورها الدّاعم في مساعدته خلال الأزمات على إسقاط المشاعر السلبية والتعويض عنها بمشاعر محفّزة تسمح له بالصمود وبثّ روح العزيمة لمتابعة المواجهة بالأمل وبيقين الانتصار.

رُشِّح الفيلم لجائزة الغولدن غلوب (Golden Globe Award for Best Animated Feature Film) كأفضل فيلم رسوم متحرّكة لسنة 2018، كما رُشِّح لنيل جائزة الأوسكار لأفضل فيلم رسوم متحرّكة في حفل توزيع جوائز الأوسكار التسعين.

ج - الأميرة مونونوكي (Princess Mononoke, 1997)

الأميرة مونونوكي، إخراج هايائو مايزاكي، وإنتاج استوديو غيبلي (Ghibli) الياباني، بطلة الفيلم فتاة مُحاربة اسمها «سان» (San) ملقّبة بـ «الفتاة الذئب». تختلف «سان» عن بطلات استوديو غيبلي السابقات فهي شرسة وقويّة الإرادة، مُندفعة، سريعة الانفعال، وعنيدة⁽¹⁹⁾. وعلى الرّغم من ذلك هي فتاة عاقلة وتستطيع اتّخاذ القرارات على الرّغم من صِغَر سنّها. تعيش مع مجموعة من الذئاب المتوحّشة التي تربّت معها فأخذت من أطباعها ونسيّت طبيعتها البشريّة التي ترفض أن تكون منها بسبب التشويه والأذى الذي يلحقه البشر بالطبيعة.

(19) Japan Info <https://jpinfo.com/14959>.



تميّزت بطيبة قلبها ودفاعها عن الطبيعة بصورة رئيسة، تكره البشر لأنّهم يُفسدون الطبيعة والأرض. ودورها كان حماية الغابة والحيوانات التي تعيش معها.

قويّة ولا تهاب الموت ويُمكن أن تُعرّض نفسها للخطر وأن تفعل أيّ شيء لمنع أيّ بشريٍّ من دخول الغابة، تُجيد حمل السكّين والرّماح بمهارة، كما أنّها سريعة العدو والحركة.

على صعيد شكلها الخارجي، برزت الأميرة مونونوكي بينيتها المتوسّطة، وبرشاقة حركتها، وببشرتها البيضاء المطلّخة بنقوش حمراء دمويّة تعود إلى حضارة قديمة في اليابان. ملابسها البيضاء ومعطفها مصنوع من الفرو الأبيض، تمتاز بأذنين حمراوين وقناع أحمر يعود بشكله إلى قناع أحد القبائل القديمة⁽²⁰⁾، مخطّط بثلاثة خطوط بيضاء وله ثلاثة ثقوب صفراء، واحد للأنف والاثنان الآخران للعينين. بشرتها بيضاء، مطلّخة بثلاثة نقوش مثلثة الشكل حمراء دمويّة، شعرها قصير ترابيّ اللون مائل إلى

الأخضر الزيتيّ، عيناها بّيتان واضحتان ثاقبتان وحاجباها رفيعان وحادّان، أنفها صغير ناعم.

(20) Adam, Dobay, «The Many Layers of Princess Mononoke», <https://www.followthemoonrabbit.com/princess-mononoke/>

هذه الملامح أضفت على البطلة هيئةً تجمع بين شخصيّة المقاتلة الشرسة الحادّة حيناً، ولاسيّما بتعابير وجهها الجارحة في أثناء القتال وزينتها المسنّنة المصنوعة من العظام أو من الحجارة البيضاء والشيّهة بأنياب الدّئاب، وبين الفتاة الرقيقة حيناً بما يُضفيه الفرو الأبيض عليها من براءة وإحساس بالدّفء والأمان الناجمين من توظيف الفرو كمعطف يقيها من البرد. والفرو الأبيض على الرّغم من براءته كلونٍ، إلّا أنّ استخدامه كعنصرٍ تمويهِ للآخر الغريب يُحيله إلى معنَى الحماية. وهذا ما يقودنا إلى إدراك أنّه على الرّغم من مظهرها القويّ والشرس الذي يطغى على شكلها، إلّا أنّها لا محالة تحتاج إلى الحماية للشعور بالأمان.

إنّ الفيلم يحكي قصّة قرية صغيرة جدّاً لا تكاد تُرى ولا يعرف الكثيرون مكانها، يعيش فيها أمير اسمه «أشيتاكا»، يبحث عن علاج لللعنة السامة والمميتة التي أصيب بها بعد قتالٍ مع خنزيرٍ وحشيٍّ بهيئة شيطان هاجم قريته، فتقترح عليه حكيمة القرية بالخروج إلى الغابة والبحث عن من يفكّ له شرّ هذه اللّعة، وفي أثناء عمليّة البحث يجد نفسه في قلب حرب دمويّة تقع بين البشر وحيوانات الغابة، البشر الذين يُريدون التوسّع أكثر عبر تدمير الغابة وتترأسهم الليدي «إبوشي» وهي أيضاً محاربة وتمتلك مصنعاً لصناعة الأسلحة التي تُدمّر بها الطبيعة وتقتل الحيوانات، وفي الجهة المقابلة جهة الطبيعة، أميرة بشريّة تربّت على يد ذئاب الغابة بعد أن تخلّى عنها أهلها، وتركوها في الغابة. وهي الأميرة المونونوكي.

الفيلم هو قضيّة كاملة للصراع الدائم والأزليّ بين البشر والطبيعة، هو فيلم ساحر بمناظره وقصّته، وعميق بالقيّم والحكم التي يُراد إرسالها للمشاهد، يحمل في طيّاته رمزيّات كثيرة، ويبحث عن معضلة: كيف ينظر البشر إلى الطبيعة، كيف أنّ هذه الطبيعة تُقدّم لنا الكثير من الخيرات والمناظر الخلّابة والموارد الطبيعيّة وكيف نحن البشر نردّ على هذا العطاء باستغلالها وتدميرها بأسلحتنا واختراعاتنا وقتل حيواناتها وتشويه غاباتها. تحدّث الفيلم عن التسامح، والغضب، والأمل. فيلمٌ من النّوع الذي يطرح أفكاراً تتطلّب من المشاهد كمّاً من التفكير والتحليل والاستنتاج، فيُقدّم في مشاهدته الكثير من الرمزيّات، عن الغضب كيف يجعل منّا شياطين نؤذي أو نُدمّر، وكيف أحياناً نؤذي من يهتمّون لأمرنا. ودعا كذلك إلى التفاؤل بعودة الحياة بعد تدميرها طالما نحن بخير وبصحّة جيّدة لنبنّيها.

د - مولان (Mulan, 1998)

في العام 1998، وجهت استوديوهات ديزني ضربةً موفقةً بتقديمها فيلم كارتوني طويل لاقى إعجاباً وإقبالاً استثنائياً لدى الجمهور العالمي، الذي كان قد اعتاد على الحكايات الخرافية الأوروبية التي أسهمت في بناء شهرة الشركة على أكثر من سبعين عاماً. واستطاعت الشركة من خلال هذا الفيلم أخذ الجمهور المشاهد إلى مكان آخر من العالم، إلى الصين، الشرق والفولكلور الذي استحوذ على قلوبهم ووجدانهم لروعة قصته، وشخصية بطلته ورؤية إخراجها. وقد استوحى الفيلم من قصة من الفولكلور الصيني لشابة تدعى «هويا مولان» (Hua Mulan) أو «فا مولان» (Fa Mulan) التي ألهمت قصتها عدداً لا يحصى من الأشخاص والأعمال المسرحية والأدبية على مدى مئات السنين، التي احتفظ بها بمنزلة إرث مستمر حتى يومنا هذا على الرغم من عدم القدرة على الجزم بأن مولان شخصية حقيقية⁽²¹⁾. وقد استوحى اسم «مولان» من زهرة «الماغنوليا» (Magnolia)⁽²²⁾ في اللغة الماندرينية الصينية (Mandarine).

يحكي الفيلم بإنتاجه سواء الحي أم الكرتوني قصة امرأة حاربت توقعات المجتمع والمعايير الجندرية المألوفة دفاعاً عن قيم مثل الشجاعة والإيمان بالنفس والعزم المطلق، ولاسيما عندما أُجبرت فيه على اتخاذ قرار الالتحاق بالجيش الصيني بدلاً من أبيها المسن ضد المغول الغازي، وأخفت هويتها الحقيقية كشابة وتظاهرت بأنها شاب طوال فترة تجنيدها في صفوف جيش الإمبراطور «تاوودي» (l'empereur Taiwudi)⁽²³⁾.

وتتم تصميم البطلة بمظهر جسدي كلاسيكي يتناسب مع معايير الجمال الصينية بوجهها البضاوي وشعرها الأسود الطويل وحاجبيها الكثيفين وشفاها الكرزية وعيونها اللوزية الأشبه بعيون طائر الفينيق. وتم اختيار ملابس «مولان» من الكومونو الياباني التقليدي بألوانه الوردية، من الأبيض والزهرى والأحمر والبنفسجي التي تذكر بزهر شجرة الماغنوليا الذي تحمل اسمها. وفي معسكر الجيش استبدلت ثيابها بالزي العسكري

(21) سابرينا بار، مولان القصة الحقيقية للمحاربة الصينية الأسطورية، Independant عربية، 2020/9/9، متاح على: <https://www.independantarabia.com/node/150281/ثقافة/مولان/سينما/القصه-الحقيقية-القصه-مولان/سينما/ثقافة>

(22) Joshua J. Mark, Mulan: The Legend Through History, Word History Encyclopedia (07 sept 2020): <https://www.worldhistory.org/article/1596/mulan-the-legend-through-history/>

(23) https://chine.in/guide/mulan_1452.html

ذي الألوان الترابية الدّاكنة وابتعدت بها عن الألوان الزاهية إلى الكومونو الأزرق بعد أن كُشِفَ أنّها فتاة وليست برجلٍ.



وكأنّها انتقل من فترة البراءة والرقّة إلى فترة الصلابة والقوّة والجِدِّ. ولعلّ اختيار اسم مولان لم يكن اختياراً اعتباطياً، بل كان مصمّماً لغاية صقل شخصيّتها وتعزيزها بصفات الزهرة إذ ترتبط زهرة الماغنوليا بالنُّبل والمُثابرة والكرامة وحبّ الطبيعة. وغالباً ما تُستخدَم المانيوليا في ترتيبات الأزهار مثل باقات الزّفاف لتمثيل نقاء العروس وكرامتها. كما تحظى بشعبية في حفلات الزفاف على الطريقة الجنوبيّة التي تمتاز فتياتها بالقوّة والترفّع على الصعاب؛ وعلى الرّغم من طبيعتها الحسّاسة إلّا أنّها تمتلك قوّة حديدية كما في العبارة الشائعة «مانيوليا الفولاذ» في العام 1989. فهذه الزهرة على الرّغم من حساسيّتها تمتلك قوّة بقاء وتحمل حديدين.

فاللون الأبيض الذي يدخل في أولى التدرّجات اللّونيّة لزهرة المانيوليا يرمز إلى «الطّهارة والنّقاء والصدّق والحياة الرّوحية الصافية، وهو لون الضياء الذي يوضح القيّم

الرّفيعة التي تنجم عن تغيير في حالة أو ظرف⁽²⁴⁾. ويرى برونو بتلهيم (Bruno Bettelheim) في كتابه «التحليل النفسي للحكايات الشعبيّة» (psychanalyse des contes de fées) أنّ «البياض يرمز إلى البراءة الجنسيّة، الذي يتناقض مع الرّغبة الجنسيّة، التي يرمز إليها بلون الدّم الأحمر»⁽²⁵⁾.

أمّا الزهريّ، اللون الثاني في سلّم درجات ألوان المانيوليا، فيرمز إلى رُقّي الأخلاق، الرّقة، والجمال، والأنوثة⁽²⁶⁾. كما يرمز إلى السكينة، الرعاية، الأنوثة، وغريزة البقاء⁽²⁷⁾. والأرجواني (pourpre) لون يفرض الكثير من الاحترام وهو لون ملكيّ وكهنوتيّ في آن واحد.

أمّا البنفسجيّ فيرمز إلى التوبة وهو من الألوان الروحانيّة التي يرتديها رجال الدّين في فترة الأسبوع المقدّس وهو لباس القساوسة في الكنيسة، ويرمز إلى نصف الحزن، وهي المرحلة الثانية من الحزن بعد الانتهاء من مرحلة الحزن الكبرى الأولى⁽²⁸⁾. وفي علم النّفس يُعتبر اللون البنفسجيّ من الألوان الملكيّة، ويُعبّر عن التميّز والتفرد، الذي يسمو بالفكر والروح عالياً ويُشجّع على التأمل العميق والتدبر. وهو آخر ألوان الطيف المرئيّ قبل الأشعة فوق بنفسجيّة، الأمر الذي يُعطيه ارتباطاً بالزمن والفضاء والكون⁽²⁹⁾. إنّ هذا التطابق الرمزيّ والتأويليّ لمميّزات هذه الشخصيّة وسلوكها، وتصميمها ومعنى اسمها يفرض تكاملاً وتعزيزاً للصورة التي يريد المُخرج إظهارها عن «مولان» التي هي صورة البراءة والصفاء وبُعد الأفق المتّحدة مع صورة القوّة والشجاعة الصلبيّتين اللّتين تحدّث فيهما الأعراف والتقاليد لأجل والدها على الرّغم من تمتّعها بأنوثة وجمال واضحين. وهذا التحوّل في شكلها وشخصيّتها بعد دخولها المُعسكر، هو فقط ليُثبت للمشاهد وللفتاة أنّا إذا ما رغبت بتحقيق أهدافنا يتعيّن أن نُؤمن من دواخلنا بإمكانية النجاح وبقدرتنا على الوصول إلى الهدف.

(24) منير معلوف، معجم الرموز (بيروت: المطبعة البوليسية، 2009)، ص. 51.
(25) Bettelheim Bruno, op. cit., p. 305.

(26) «بالصور... لغة الورود وألوانها.. صوت القلوب والمُشاعر»، العين، متاح على:
<https://al-ain.com/article/language-roses-flower-colors>.

(27) الدلالات النفسيّة للألوان وبماذا توحى، متاح على: <https://bit.ly/3oBiA3Q>
(28) فيليب سيرنج، تر. عباس عبد الهادي، الرموز في الفنّ - الأدب - الحياة (دمشق، سورية: دار دمشق، 1993)، ص 424.

(29) الدلالات النفسيّة للألوان وبماذا توحى؛ مرجع سابق.

ويُذكر أنّه يُستمرّ بسرد قصّة مولان في المدارس في جميع أنحاء الصين، كمصدرٍ للتحفيز كلّما احتاجت البلاد إلى الأمل والإلهام⁽³⁰⁾.

هـ - «رايا والتنين الأخير» (Raya and the last Dragon, 2021)

في ظلّ الظروف الاستثنائية التي شهدتها العالم في العام 2021 وتداعياتها الاقتصادية المستمرة، ومن بين الخيال والأساطير والمغامرات، أطلقت ديزني فيلم «رايا والتنين



الأخير» (Raya and the last Dragon) بتقنيّة التحريك الثلاثيّة الأبعاد 3D. بطلة الفيلم فتاة محاربة ومقاتلة فذة من جنوب شرق آسيا تُدعى «رايا»، تدرّبت على يد والدها، وتتمتّع بشخصيّة مختلفة السلوك والمظهر عن سابقاتها من بطلات ديزني الأميرات، سلّط من خلالها الضوء على صورة المرأة الشجاعة التي تُحارب من أجل نفسها وأهل مدينتها. فكانت شخصيّة غير نمطيّة. تحمل في شخصيّتها رسالة سلام وتدعو إلى عدم التقاتل والاتّحاد للحفاظ على الأرض، مُبرزةً العديد من القيم والمبادئ كالتضحية والتسامح والثقة بالنفس والسعي وراء الأحلام، وغيرها من المبادئ الجميلة التي تصقل شخصيّة المتلقّي الصغير.

(30) «القصّة الحقيقيّة لأسطورة مولان الصينيّة»، ساسه sas post، متاح على:

تميّزت «الأميرة رايا» بملامحها الآسيوية وبنيتها المتوسطة، وشعرها الأسود الكثيف المسدول تحت كتفيها، وعينيها الثاقبتين البينيتين اللتين تتناسبان ولون بشرتها السمراء. أما لباسها فكان زياً ملحمياً مؤلفاً من قميص أصفر اللون، وسترة بيضاء قمرية بتطريز فيروزي على طرف الجزء العلوي اللصيق بالوجه، وترتدي سروالاً أخضر زيتياً برقوش خضراء متموجة، مع حزام وحذاء بُنيين. ولمحاربة بلاد جنوب شرق آسيا، حلاها وزينتها التي تُميز ثقافة منشأها وشعبها، فتميّزت بتزيّن بقلادة صفراء إضافة إلى أساور معدنية محفورة تمنح البطلة صورةً أسطورية وتُعزّز طلتها كمُحاربة. كما تُضع على رأسها قُبعةً مخروطيةً شبيهةً بالقبعات التقليدية التي ترتديها شعوب جنوب الشرق الأقصى، التي تُمثل جزءاً من التراث وأصاله هذه الشعوب. بذلت شركة ديزني قصارى جهدها في الاحتفاء بالتأثيرات الثقافية، حيث استعانت بعدد من الشركات والخبرات الآسيوية، وأرسلت فريق الفيلم الإبداعي في رحلات إلى جنوب شرقي آسيا للانغماس في ثقافة هذه البلدان قبل البدء في الإنتاج، وشكّلت «مجموعة جنوب شرقي آسيا للتأكد من قصّة رايا» وتضمّ عالماً للأنثروبولوجيا البصرية من لاؤس ومجموعة من اللغويين والراقصين والموسيقيين من إندونيسيا وغيرها من دول جنوب شرق آسيا. وعمل على كتابة السيناريو الكاتبة «أديل ليم» الماليزية، وشاركها «جوي نجوين» الأميركية من أصل فيتنامي، ما جعلهما على دراية ومعرفة أكثر بالتفاصيل الحياتية والهوية الثقافية⁽³¹⁾. فتراوحت ألوان زيّها المتفرّد ما بين الأصفر الذهبي، والأخضر وتدرّجاته والأحمر الذي التفّ بالمعطف على أكتاف البطلة كحارس يقيها من الشرور ويمنحها هيبة المُحارب وقوّته وسلطته.

فالأصفر هو من ألوان الشمس الذي يرمز إلى التميّز والتفرّد والسلطة وتجّدّد الشباب عند الصينيين⁽³²⁾. أما اللون الأخضر فيرمز إلى الحياة وتجّدّد الطبيعة بعد الموت، وهو لون الأمل والبعث⁽³³⁾.

(31) محمد غروي، «رايا» أميرة آسيان في مهمّة لإنقاذ عالمها بفيلم جديد لـ «ديزني»، *Independent عربية*، 2020/11/13: <https://www.independentarabia.com/node/168221> -فيلم-عالمها- لإنقاذ-مهمّة-في-آسيان-أميرة-رايا/سينما/ثقافة/ديزني-ل-جديد

(32) فيليب سيرنج، تر. عباس عبد الهادي، الرموز في الفنّ - الأدب - الحياة (سورية، دمشق: دار دمشق، 1993)، ص 426 - 428.

(33) المرجع نفسه، ص 422 - 423.

والأحمر في معطفها الذي يمدّها بالقوّة والحماية هو لون النار والقوّة ولون المنع والخطر للطرف المقابل لها الذي تُواجهه. الأمر الذي يمنح المشاهد شعوراً بالأمن والطمأنينة والثقة تجاه البطلة التي حملت في شخصيّتها صفات القوّة والأمل والعمل لتحقيق الهدف.

وتدور أحداثُ الفيلم في مملكةٍ خياليّة تُدعى «كومان درا» تستوطنها حضاراتٌ قديمة تُبجّلُ التنانين الأسطوريّة لقوّتهم وحكمتهم. وكان البشر والتنانين يعيشون معاً في وئام، لكنّ عندما هدّدت قوّة شريرة الأرض، ضحّى التنانين بأنفسهم لإنقاذ البشريّة، والآن بعد 500 عام، عاد هذا الشرّ نفسه والأمر متروك للمُحاربة «رايا»، لتعقّب التّنين الأسطوريّ الأخير الذي سيمنح السلام لأرضها المفكّكة. وبغية استعادة الأرض المكسورة وشعبها المُنقّسم⁽³⁴⁾ تخوض معارك كثيرة وتُدرِك أنّ المعركة الحقيقيّة لها هي في التخلّي عن غضبها وميلها للثأر والانتقام بعد أن تعرّضت للخيانة في الماضي. فقد سعى الفيلم إلى نشر فضيلة التسامح والقوّة والثقة بالنفس، وأنّه لا بدّ لنا من أن نتحلّى بالأمل الذي يستحقّ أن نبحث عنه ونتمسك به لأنّه لا يزال موجوداً، والاتّحاد هو دائماً درب النجاح.

خاتمة

حملت هذه الأعمال صوراً متنوّعة لبطلاتٍ غير نمطيّات يتصرّفن بطريقة شجاعة، عفويّة، متمرّدة. فيقمن بتصرّفاتٍ صبيانيّة مُشاكسة حيناً، ثمّ يجهدن لمساعدة الآخرين أحياناً أخرى، يبتكرن أساليب يلتفّرن فيها على ضغوط المُجتمع وأعرافه ومعاييرهِ. مواقف من مشاهد تدفع الفتيات إلى التمسك بأحلامهنّ، وعدم التراجع عنها، مهما كانت المعوّقات، وبغضّ النظر عن البيئة الحاضنة لهنّ وعن الظروف الصعبة المحيطة بهنّ. كما وأثارت هذه الأعمال إشكاليّة كبرى تتصل بمكانة الأنثى المرتبطة والتابعة لوجود الذكر، التي كانت تدفع الفتيات للتحايل على المُجتمع بالتخلّي عن هويّتها الأنثويّة خارج المنزل وإبراز صفاتٍ كامنة فيها، كالتحلّي بالشجاعة، وبحسّ المسؤوليّة والاستقلاليّة

(34) لميس محمّد، «فيلم الأنيميشن Raya and the last dragon يحصل على تقييم 95% من قبل النقاد»، مجلّة اليوم

السابع الإلكترونيّة، (11 تمّوز/يوليو 2021).

تقييم على- يحصل Raya-and-the-Last-Dragon-الأنيميشن-فيلم- <https://www.youm7.com/story/2021/7/11/> 5386014

وعدم الخضوع، والدعوة دائماً إلى المواجهة والتحرُّر من الضعف. وسعت هذه الأعمال كذلك إلى أبراز قيم ومبادئ تزرع في أذهان الفتيات أهمية التحلي بحس المسؤولية تجاه الذات، وتجاه المجتمع والطبيعة التي تُقدِّم للبشر الكثير من الخيرات ويكون الردُّ على عطاءاتها باستغلالها وتدميرها بالأسلحة وقتل الحيوانات فيها وتشويهها. ومن خلال تسليطها الضوء على صورة المرأة الشجاعة التي تُحارب من أجل نفسها وأهل مدينتها، تُقدِّم هذه المسلسلات للفتيات شخصية غير نمطية، تحمل رسالة سلام تدعو إلى عدم التقاتل، والاتحاد للحفاظ على الأرض، وتبرز العديد من القيم والمبادئ كالنضحية والتسامح والثقة بالنفس والسعي وراء الأحلام، وغيرها من المبادئ الجميلة، التي تصقل شخصية المتلقِّي الصغير. إنَّ السعي إلى نشر فضيلة التسامح والقوة والثقة بالنفس، والتحلي بالأمل، يلزمها مقومات يُوفِّرها المجتمع والأسرة والمدرسة، فضلاً عن مناخ من الاستقرار وبيئة آمنة. وهذا ما تفتقده الفتيات في فترات الحروب والنزاعات المسلحة.

الحرب هي نكبة اجتماعية حقيقية تُهدد الإنسان إلى أيِّ مجتمع أو إلى أيِّ فئة انتمى، وتجربة قاسية تُعيد تشكيل حياتنا من جديد، ففيها ينهار كلُّ شيءٍ وبعدها يُبنى كلُّ شيءٍ. لذا فهي تجعل الإنسان ممَّا أكثر نضجاً وقوَّةً أو أكثر ضعفاً ووَهناً. وإنَّ تجنُّب حدة مخاطر هذه الحروب أمرٌ لا مهرب منه وضروريٌّ لتخفيف آثارها العميقة على أطفالنا عموماً وطفلاتنا خصوصاً.

ولأنَّ الأفلام الكرتونية تُشكِّل وعاءاً لنشر الثقافة والأفكار وإثارة الإحساس بالمواقف المُلهمة تاريخيةً كانت أم حاضرةً بكلِّ ما فيها من نجاحات وإخفاقات ومُعاناة، فإنَّ العمل على إنتاج أعمالٍ كرتونية عربية والكفِّ من الاستيراد الأجنبي المفيد منه والسلبي هو مطلبٌ أساسيٌّ نادى به كثيرون من علماء النفس والاجتماع لضرورة تغذية خيال أطفالنا بقصص تحاكهم، تُحاكي واقعهم وأوجاعهم وتُساعدهم على تخطي الصدمات التي عاشوها وقساوة انعكاساتها السلبية عليهم. فالتحدِّي والصمود الذي قد تراه طفلاتنا العربيات في بطلة كرتونية محلية تُمثِّل قصَّة كفاح طفلة ومُعاناة شعبٍ مظلوم يُمكن أن تتصرَّ سيزيدهنَّ حماسةً لمقاومة الذلِّ والصعاب، وسيبِّثُ في وجدانهنَّ الأمل بغدٍ آمنٍ وأجمل، والثقة واليقين بالانتصار.

وتاريخنا العربي حافلٌ بقصص الفتيات المناضلات اللواتي رضعن العزة والكرامة من صدور أمهاتهنَّ وهنَّ في المهود، فكبرنَّ بطلات وتحولنَّ إلى أيقوناتٍ يُحتذى بهنَّ وبشجاعتهنَّ، يُقاتلنَّ من أجل الحقِّ، من أجل الأرض، من أجل السلام ويمثّلنَّ قدوةً لكلِّ فتاة تكافح في الجدِّ والعمل والنضال لقهر الخوف والوهن والنيل من هول الأزمات وظروف الحرب والاحتلال.

فمن ينسى المناضلات الجزائريات في حرب التحرير الجزائرية (1954 - 1962)، حيث شاركت العديد من النساء إلى جانب جبهة التحرير الوطنية FLN وصارعنَّ مع القوّات الفرنسية أمثال «جميلة بوباشا» و«جميلة بوحيدر»؟

وفي لبنان تحكي صفحات التاريخ القريب قصصاً وأدواراً رائدة قامت بها المرأة اللبنانية في نضالها ضدَّ الاحتلال الإسرائيلي، من «يسار مروّة» و«سناء محيّدلي» و«لولا عبّود»، وممن انتسبن إلى جبهات المقاومة الوطنية والأحزاب اليسارية العلمانية، ليوقّعن بحياتهنَّ دليلاً على إيمانهنَّ بمبادئ المقاومة.

كما عرفت فلسطين المحتلة فتيات مناضلات فدائيات للبلد، قاسينَ ولا زلنَ حتّى الساعة يُقاسينَ من فتك الاحتلال وظلمه وتعدّيه على أراضيهنَّ وأقاربهنَّ وأهاليهنَّ أمثال الرائدة «يسرى البربري»، والمناضلة «فاطمة برناوي»، والرائدة «سميحة خليل»، والفدائية «زكية شموط»، والشهيدة «دلال المغربي»، و«ليلى خالد» أكثر النساء شهرة في البلاد، وهي الفتاة الشابة التي أصبحت رمزاً للمقاومة المسلّحة ضدَّ القوّات الإسرائيلية بين نهاية الستينيات وبداية السبعينيات من القرن المنصرم، بعدما شاركت في عملية خطف الرّحلة رقم 840، وهي طائرة بوينغ من نوع 707، كانت متّجهة من روما إلى تلّ أبيب، وتمَّ تحويل مَسار هبوطها إلى دمشق، وقد اعتقد المختطفون خطأً أنّ السفير الإسرائيلي في الولايات المتّحدة وقتها، «إسحق رايبين»، هو أحد المسافرين على متن الطائرة. بعد عملية خطف الطائرة، أصبحت صورة «ليلى» المُمسكة ببندقيةٍ من نوع كلاشنيكوف رمزاً تاريخياً للوطنية الفلسطينية.

وآخرهم «عهد التميمي» الشابة الفلسطينية التي أُطلق عليها لقب «أيقونة فلسطين»، بعدما ارتبط اسمُها بالصفعة التي وجّهتها للجنديّ الإسرائيليّ وهي طفلة، ثم ناضلت من وراء قضبان السجن ومن خارجه وانتصرت.



عهد التميمي، قصّة كفاح طفلة في وجه الاحتلال الإسرائيلي واستكمالاً لمسيرة كفاح ونضال بداتها فتيات عربيات قبلها. طفلة تخلّت عن دُميتها وطفولتها لتستبدلها براية وطن شامخة وبقبضة يد وعزّة في الدّفاع عن أرضها وأهلها وأقاربها، لتؤكد للعالم أجمع أنّ دورها هو أكبر من كونها مجرد طفلة تنتظر مصيرها المجهول، بل إنّها تمتلك كلّ القوّة التي تهزّ بها قلوب العدو الهشّة، وأنّ خوف القتل لا يأتي من رصاص البنادق والصواريخ والدبابات فقط بل يأتي من قلب فتاة تمتلك الإيمان بقضيّتها.

فما أجمل من أن نتخيّلها بطلة لفيلم كرتونيّ عربيّ ينقل صورةً غير نمطيّة لشكّل الفتاة العربيّة بألوانها الذهبية المشعّة كشمسٍ مُشرقة، وبوقفة من الصلابة والشموخ العربيّة وبملاح غاضبة ملأى بالعزّة والشجاعة والعنفوان.



لاقت قضية عهد التميمي اهتمام الجمهور العربي من رؤساء وشعوب وأفراد. وتفاعل الفنانون برسومهم مع الطفلة الفلسطينية التي حملت ملامح شابة شجاعة مُناضلة ومُحاربة بقوة إرادتها وإيمانها بالحق والقضية.

تُبين الرسوم الإيضاحية لعهد التميمي، مظاهر القوة التي رآها فيها الشباب العربي، والتي تجسّدت في نظرتها الحادة الغاضبة التي كانت ترمق بها الجنود الإسرائيليّين وطلّتها الجسورة التي لا تهاب العدو، المستعدة والمتأهبة لمهاجمتهم ودخرم خارج قريتها، وكأنّها فارسة من قصص التاريخ والثورات، متأصلة بزيّها الفلسطينيّ تمتطي حصانها ومستعدة للمواجهة وخوض حرب لا تلمح فيها غير بريق الانتصار.

فأما شخصية عهد التميمي المناضلة التي تُمثّل صورة الشابة العربية المُحاربة التي يجدر أن تتماهى بها الطفلات العربيات وتمثلن بشجاعتهما وعنفوانها وتضحياتها للوطن، يخفت بريق المرأة المُحاربة والمُقاتلة التي نقلتها لنا الرسوم المتحركة وقدمتها لنا المحطّات التلفزيونية.

ختاماً، إنّ أكثر ما شاهده الأطفال على الشاشات العربية، وما زالوا، هي أفلام ومسلسلات أجنبية مدبلجة إلى العربية، بثقافة وعادات وقضايا تختلف عن قضايانا وهمومنا العربية الخاصة. وبما أنّ الأدب هو نتاج الفكر والمُعتقد، فمن المؤكّد أن يتأثّر نصّ الفيلم والسيناريو بثقافة الكاتب وعقيدته ونظراته إلى الحياة⁽³⁵⁾. ولأنّنا في ظروف من الصراعات والنزاعات التي تشتدّ وتقسو يوماً بعد يوم، فيشتدّ معها الوهن والخوف، ولكي تتمّ عملية التماهي بصورة أفضل وأكثر واقعية ومحاكاة لعالمنا العربي، لا بدّ لهذه الأفلام والمسلسلات والشخصيات، من أن تكون من واقع حياتنا العربية، من قضايانا ومشكلاتنا. لا بدّ لها من أن تكون من حكايا أرضنا وشعبه، وعلاقات أفراده وأحلامهم، ومن أبطالنا وبطلاتنا، لتُساعد الطفل على استشعار المشهد بواقعية فتغمره أحاسيس تُشعره أنّ المشهد الذي يراه يعنيه، وأنّ البطل الذي يُشاهده يشبه قدوته، وأنّ تصرّفات البطل أو سلوكاته يُحتذى بها ويُمثّل لها.

(35) أسامة عسل، «أفلام الرسوم المتحركة صناعة نفكر فيها ولا نقدم عليها»، البيان، متاح على:

<https://www.albayan.ae/five-senses/files/2011-02-13-1.1384151>

المحور الثاني
ذاكرة الطفولة الجريحة

طفلات اليوم نساء الغد ما بين التروما والنرجسية: تجوال - حيرة واستبعاد

تمهيد

«ومضات خافتة، استوقفتني الطواير المنتظرة
على محطات البنزين لثانية، ثانية عمرها أكثر
من 35 سنة. تعود إلى الثمانينيات وقت الحرب
والأزمات، حيث كنتُ أذهب أنا وإخوتي ننتظر
في الطابور لوقتٍ طويل أمام فرن الخبز، لحظات
تمرّ دائماً في ذاكرتي، ذكريات مُعتمة، أشاهدها
كما أشاهد أفلام الأبيض والأسود من دون حنين
ولا حتى حقد».

هذا ما قاله لي «وسام» بتاريخ 2021/5/11
في أثناء بدء الاكتظاظ في أزمنا الاقتصادية.
فلجيل الحرب امتدادٌ تعابري بين الأجيال
Le transgénérationnel يُذكرني بمقالة د. «عدنان
حبّ الله»، وهو محلّل العنف الأهلي كما
أُطلق عليه، عن التحوّلات الاجتماعية وانتقال
الموروثات في الهوية من جيل إلى جيل، والذي
زأوج ما بين الممارسة العيادية والتنظير الفلسفي
والاجتماعي. فعدا مُشكلات الحرب والدمار أو
التأقلم بين الأقليات، تظهر موروثات الجيل الثاني
والثالث من الجيل الأوّل، حيث يحمل الجيل
الأوّل موروثات الحقد، كما سبق وشاهدنا ذلك
في الضواحي الفرنسية وتحديداً أحداث Clichy-

رجاء مكي

sous-Bois⁽¹⁾؛ فلا وجود لمحايدة منذ التطوُّر المُتأزِّم، إذ إنَّه ليس وليد الساعة بل إنَّه نموٌّ مستمرٌّ منذ ثلاثة أجيال، الجيل الثالث عادةً هو الذي ينطق على غير علم منه بما هو مكبوت عند الجيل الأوَّل، وهو الذي استعاد مكبوتَ الجيل الأوَّل وأخرج إلى العلن ما كان في الخفاء. إنَّه عنفٌ متفجِّرٌ في سياقِ كبتِ متراكمٍ غالبًا ما يُرجِّعُه المُراهق على الأخصَّ على الأرض عنفاً قالوه الآباء في الخفاء. وهنا نطالُ مفهومين أساسيين: - الدِّين كهويَّة تُناهض الهويَّة الوطنيَّة.

- إعادة النظر في المفهوم القوميَّ وكيفيَّة تقبُّل الآخر الغريب. وهكذا تُصبح الحربُ الأهليَّة كامنةً في نفس كلِّ واحدٍ فينا وتتحكَّم القوميَّة النرجسيَّة والحنين إلى ماضٍ استعماريٍّ ولَّى⁽²⁾. ولقد عبَّر «أمين معلوف» عن هذه الوضعيَّة بأحسن تعبير حين قال: «البلدُ الذي يُحزِّنني غيابُه ويستحوذُ عليَّ ليس هو البلد الذي عرفته في شبابي، إنَّه البلدُ الذي حلِمْتُ به والذي لم يرَ النورَ أبدًا»⁽³⁾.

مشهدٌ أوَّلِيٌّ مرجعيٌّ

بدأت «فاديا» قصَّتها وبعدها أخفت مطوَّلاً هذا الحدث من حياتها «نعم أنجبتُ منه ولداً ولم أعرف ولم أكنُ أعلم كيف... أذكر أنَّه على الرِّغم من حُبِّي له اغتصبني... أتمنَّى عودتي إلى البراءة... هل كانت هذه العلاقة هي علاقة ضدَّ الأهل، تعاضدتُ فيها معه على أهلي وأهل الحرب وأهل السلطة؟ الاتِّحاد بوحدة القوَّة مقابل المحاسبة الدِّينيَّة على اللباس والكمِّ ما بين «الرُّسغ والرَّند»، هكذا كانت تقول أمِّي. أهِّي جُرأةً في المُواجهة أم عدمها؟ أهو السرُّ أم الخوف من السرِّ؟ الخوف من انكشافه؟ وغالبًا ما كان سرُّ الرغبة؟ لماذا عشتُ الكذبة وقبلتُ بتعذيب الذات؟ نعم لقد كنتُ مازوشيَّة، لقد ارتبطنا جميعًا بالعذاب وبمصيرٍ موحدٍ بين الأخوة «يا بنعيش سوا - يا بنموت سوا».

«واللواتي يعملُن في جمعيَّاتٍ مدنيَّةٍ ضدَّ العُنف ربَّما خضعن له ورُهِنَ لعنفٍ رمزيٍّ».

(1) عدنان حبَّ الله، «مكبوت الجيل الأوَّل يحلُّ في الجيل الثالث - قراءة سيكولوجيَّة لأحداث الشغب الفرنسيَّة» (جريدة النهار 2005/11/19) متاح على <https://archive.alahednews.com.lb/details.php?id=313113>

(2) المرجع نفسه.

(3) Amin Maalouf, *Les désorientés* (Paris: livre de poche, 2012).

«أتمنى العودة إلى البراءة، اخترت العذاب، واجهت التقاليد القاسية وكلّو برجعوا لأمي على الرغم من حبي الفائض لها، أُمّي شخصٌ يعشق الحزن وأمان الرغبة القاتلة وصولاً إلى تعذيب الذات (Auto-Punition)».

«نحن جيل حرب... ما لازم إنسى إنو جيل حرب! بحرب إسرائيل بتذكر اللون الأزرق، تجليد الكتب الأزرق اللي نخطوا عالبواب تيسكر الضو... وما بدّي أنكر حرب بيروت، حروب بيروت، كنّا صغاراً فيها... أثّرت كثير...»

وبها لأجواء... الأب موجود بس ما بعرف ليه غيّت صورة الرجل. ذهبت لهذه العلاقة أعلاه وأعطيته جسدي لاستعطاف صورة الرجل في البطالة وغياب العمل ولم يكن يعمل ووجدته رجلاً مكان أبي على الرغم من أنني ساعدته مالياً.

نذهب في هذه الحالة إلى فكرتين أساسيتين:

- فكرة الأم الميتة la notion de la mère morte.

- تروما الحرب.

تكمُن أهمية كتاب باحثات الحالي في رُصد التعايش مع العنف بأشكاله المتنوعة، ما جعل بلادنا مساحةً حيوية لفهم العنف عبر الأجيال المتعاقبة. فالحروب المباشرة ليست الحروب التي تحمل الطابع العسكري فحسب، بل تلك التي تحمل عدم الانتظام والقلق والعبء على الذاكرة، وبخاصة لدى الطفلات المتلقيات، ضحايا الحروب. وكون هذا الكتاب يسعى للتعرف إلى هذه الفئة، فإن مساهمتنا ستركز على استخراج القلق المتوارث، والإصغاء إلى مُعاناة الطفلات اللواتي شكّلن لحظاتٍ من التفكك الاجتماعي والانفعالي. وقد أحببنا في هذا البحث التشاركي أن ندخل في محور حكايات العنف لنشارك ولننقل الإصغاء، والتدخل وأيضاً لوصف الضحية وتسليط الضوء على وجع مخزن.

(1) عقدة الأم الميتة: Complexe de la mère morte

وهي استعارة نستعين بها علاجياً لفهم بعض أنواع الانهيارات التي يُمكن أن تحدث في خلال عملية الثقل، وتتجلى بتحوّل الانهيار عبر تواجد للموضوع الذي امتصّ الحداد... ومن دون الدخول في تفاصيل التحليل والعلاج، يُمكن القول إنه موقف متأتّ

من أم فقدت عزيزاً (طفل أو أحد الأهل أو الأقارب)، والذي ينعكس أو انعكس على علاقاتها بالمحيط وتحديدًا أولادها وهو موقف يأخذه المُحلِّل بعين الاعتبار ويُحلِّله كأداة انعكاسية أولية وكأداة نقلة رمزية تُساعده على كشف المكبوت ومضمون الحداد أو المأزم، وخصوصًا مع الأطفال أصحاب الشكوى أو ممَّن يظهرون في الحالات التي اعتمدتها الدراسة. ذلك أنَّ اللاوعي مبنيٌّ كاللغة.

يشرح A.Green أنَّ تجربة الطفلة أو الطفل هنا هي تجربة العلاقة مع الموضوع مع أمه وإلى أيِّ حدٍّ كانت قابلة للحياة وللفرح وتحوَّل فجأة إلى باردة، مظفأة وكأنَّها ميتة؛ وكأنَّ الوضعية هي وضعية تحوُّل في الفراغ وتركه عرضة للقلق والأوهام، وكيف أنَّ فراغ الفكرة يُمكن أن يتحوَّل إلى دفاعاتٍ قلقٍ لا تُشجِّع على الاندماج وتُصبح قطعةً في إطار البُعد البدائيِّ أي الأوليِّ وأمام تروما نفسية حقيقية لا توصف وتبتعد عن طلب الحبِّ والحياة. فما بين نرجسية الحياة ونرجسية الموت يقبع الضياع، ضياع الموضوع، ويتعرَّض الولد من خلال ذلك إلى مُضاعفاتٍ واضطهادٍ يستثمرها بشكلٍ مشوَّشٍ ومُلتبسٍ. وإزاء عدم شعوره بالتمركز أمام أمه يحسُّ أنَّه يعيش من دون فائدة. وفي هذه الحالة وكأنَّ الأم تفتعل الحرب مع ولدها⁽⁴⁾.

(2) تروما الحرب

ترابط العلاقة ما بين الطبِّ النفسيِّ بأنواعه والحروب بساحاتها؛ وهي علاقة تبادلية تسعى لمنع الانهيار:

- ما بين الجنود.

- أو لدُرُسِ الأعراض النفسجسدية غير المفسَّرة.

فالحرب صدمة بأصواتها وبأدواتها وبتأثيراتها وبأعراضها (سواء نجم عنها إصابة أم لا). وأوَّل استعمال للكلمة «تروما» كان للتعبير عن الأذى؛ ومع التطوُّر الصناعي والتَّقني والعلمي بدأ الالتفات إلى الأعراض المرصَّية وما ينجم عنها من تجارب سيئة وصادمة... بعد الإصابة...

(4) André Green, «La mère morte», in: *Narcissisme de vie, narcissisme de mort* (Paris: Éditions de Minuit, 1980), 222-253.

من جهةٍ أخرى تختفي الحضارة ويختفي التحضّر في الحروب الأهلية، ويختفي أيضاً التعديل الغرائزي لا بل يلهب Le remaniement pulsionnel. تؤثر الحروب بقوة ولا تستقدم إلا الدوافع الحادة، فلنقل إنها عودة إلى الخليفة منذ بدئها، وهي عودة إلى البدائية (والبدء) وهذا ما يراه «فرويد» بأنه بُعدٌ أولّيّ مثبتٌ وغير مقولٍ اجتماعياً، إنه مشهدٌ أصليٌّ وأساسيّ يعود في عصرنا إلى القتل والتابو والسفاح والثنائية العاطفية⁽⁵⁾. وقد عرّض «فرويد» في هذا السياق الروابط التي تجمع ما بين الإنسان المتحضّر والثقافات البدائية وتطوّر الطفل ببعدٍ أنثروبولوجيٍّ دقيق على الرغم من تعرّضه للانتقاد.

وترتبط «التروما الناجمة عن الحروب» بالبعد النرجسي، فيحدث الانشطار حتّى في الأمراض العصابية، وهو انشطار الأنا ما بين الأنا القديم والمثال الحربيّ الجديد، فتحصل نواة عصاب صدماتيّ ناجم عن الحرب Névrose traumatique.

نذكر أنّ هذه النقطة بالذات شكّلت مفصلاً أساسيّاً في النظرية الفرويدية لأنّ الحرب لا تُنتج القلق وتدير النرجسية وتفضي إلى تضاعف التماهيات الأوليّة فقط، بل إنها تُفكّك القواعد الأخلاقية اللازمة لبقاء المجتمع وتدخله في متاهة الأمراض العقلية المبكرة والصادمة وتُبقّيه في حالةٍ من الطوارئ. فالحرب في غايتها تأخذ الفرد خارج إطار تلبية احتياجاته، أي خارج الإنتاج وخارج مبدأ اللذة، فيتمّ التركيز على المانع الصدماتيّ بتأثير ارتجاعيّ، وتدور التروما حول الحبّ.

* * *

سِير العمل والمُقارَبة المنهجية

لدى التعرّض لآفات الحروب وتأثيرها في الأفراد، يدور النقاش العلميّ حول ما سمّاه Marcel Czermak «الثقافة: سياسات مريضة»⁽⁶⁾؛ وهي مسألة ترتبط بالجدال العلميّ وهويّة العلوم وعناوينها وكونيّتها، ويعتبر أنّ العلوم قد انحازت بقراءتها وبمواقفها إلى جانب واقع Le Maître أو السيّد الذي يملك القوّة من دون أن يملك القدرة، ولا يملك

(5) Sigmund Freud, *Actuelles sur la guerre et la mort*, (Paris: PUF, 1981).

(6) Marcel Czermak, «Au service de Maître», 1987 <https://www.monde-diplomatique.fr/1987/09/CZERMAK/40304>.

أن يدير رغبته الجامحة المعكوسة من خلال اتّساع رقعة تأثير وسائل التواصل الاجتماعيّ، بحيث لم تُحلّ أيُّ من المسائل ويستقيل الكلّ من أمام المسؤوليّات. فحتّى «الجامعة» l'université بالمطلق ذهبت في خدمة «السيد». فأين تكمن الحقائق؟ نعيش في لبنان حقيقة واحدة في الوقت الحالي هي انهيار الاقتصاد، إذ أصبح القلق المكبوت أو المتفلّت ككابوسٍ يرتبط بحقيقة الإنتاج ومُستمدّ من إرث الحرب وذاكرتها وبربريّتها.

ونحن في هذه الحيّرة لا بدّ من أن يأخذ التحليل النفسيّ مكانه الصحيح لكنّه وللأسف يُنعت بالاستحالة وبعدم القدرة، وهو موقف ناجم عن الموضوع المرتبط بالفكرة وبالوجع وبالسبب، وكلّها أسباب معرفيّة انتقاليّة ترتبط باستبعاد الذات التي لا يُمكن أن تُستبعد: الإنسان - المتعة - التراخي - التحوّلات - الشجاعة... وكلّها مشاعر ومواقف ترتبط بالموضوع، موضوع الرغبة، الذي تصيغه الهوامات والذي يتّكئ على حياة اجتماعيّة معاشة.

هل هم ضحايا مهمّشون في مُجتمعاتٍ تخلو من المشروعات، على الرّغم من كلّ المشروعات المقدّمة للمُجتمع الأهليّ ومشروعات الدعم النفسيّ التي لا تتمكّن من استخراج الباطن لأنّ الدعم يختلف عن التحليل؟! وما قيمة استخدامهم من خلال المُجتمع نفسه كضحايا في مُجتمع يبدو واضحاً أنّه يعيش على آفاتٍ أخرى ويمنع نفسه من المُواجهة الجذريّة أو المُواجهات الأخرى؟

وعليه، فإنّ اضطرابات الأطفال والمُراهقين هي اضطراباتٌ سلوكيّة لكنّها في الوقت نفسه اضطراباتٌ يُمكن تسميتها Sans Sujet (من دون ذات)، وضياع الذات لا ينفع معه أواليّات بدائيّة كالدّعْم ولا حتّى العلاجات القصيرة وجعلها من الأولويّات.

نحن إزاء تعقيدات موضوعات علم النفس المرضيّ للولد وللمُراهق، وأمام تداخلاتٍ في توجّهات الفهم وآليات التدخّل غير المسؤول أحياناً، وأمام مُقارباتٍ علنيّة وإعلانيّة لا تحفظ السرّ العلاجيّ ولا تتعلّق إلّا بضرورة واحدة لكادر العلاقات التبادليّة، أي بالديناميّة الأسريّة وبالكادرات الجامعة (au pluriel) في إطار العلاقة مع الآخر، للتعرف إليه وللتمكن من ترميز عوارضه، وهذا لا يُمكن أن يتمّ إلّا من خلال مساحات انتقاليّة وبُعدٍ عاطفيّ محكيّ يُملي الفراغ غير المسمّى، نحن في إطار معرفة لا بدّ لها من الإيحاء التحليليّ (Inspirations Psychanalytiques).

تكمن الملاحظة العيادية عبر الإنصات والإصغاء للمُعانة، لنصل إلى «فوضى الضغط» من خلال ذاكرة الحرب والعمليات العسكرية المُعاشة والراكدة والمتخيلة على أساس أنها عنفٌ سلبيٌّ؛ يُجبر الباحث أن يمارس دوره العياديّ حول العنف الجسيم الذي يكسر سير الأجيال. وهو بُعدٌ سياسيٌّ أساسيٌّ يرصد الوضعيّات التعابريّة والكولونياليّة ويُميّز بين الناشط والعياديّ، ما بين الذاتيّة الاجتماعيّة التي تتمظهر في العلاقة.

وتحدّث فرويد عن نزوة الموت ونزوة التدمير؛ من هنا الملاحظة الأساسيّة الأولى... ومن هنا يُمكن إطلاق مثلٍ مُلح، حيث نلاحظ من حالات عدم الإنجاب لدى نساء متزوّجات، هنّ بأغلبهنّ مرتبطات بحملٍ غير شرعيّ سابق أثّر لاحقاً في رغبة الإنجاب، فسيطرت نزوة الموت وتجلّت بعدم القدرة على الإنجاب.

نموذج تقديم الحالة

سنُركّز في عرض كلّ حالةٍ على:

- أ - عرض عامّ (الجندر، المستوى العلميّ، الوضع الصحيّ والبيئيّ).
 - ب - ظروف الجلسات وشروط العمل: الطلب والتقنيّات المُستخدمة، وصف حالة النقلة وتموضع المُعالج.
 - ت - تاريخيّة الحالة والوضع العائليّ مفصّلاً.
 - ث - العوارض.
 - ج - الأواليّات الدفاعيّة.
 - ح - العمل العلاجيّ، ما بين الفكرة والنظريّة وترميز المواقف.
- * نلفتُ إلى أنّ العمل العياديّ قد تمّ في أثناء جلساتٍ علاجيّة، والأسماء التي استُخدمت هي أسماء مُستعارة.

دراسة الحالة

هي مستوى من التحليل متّبع يعتمد على تقنيّاتٍ أخرى وسيطة ومُساعدة بهدف إرساء قواعد عمل عياديّ علاجيّ في هذا المجال.

ولقد جَمَعَ فريقُ العملِ حوالى ثمانى حالاتٍ عياديّةٍ خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وتَمَّت مُتابعَتها علاجياً في ظلّ الإقبال على العلاج والتحليل النفسي، وتراوحت الأعمار ما بين 3 سنوات و11 سنة، وهي فترة تتعمّق أوديبياً وتبقى ضمن مرحلة الكمون لحين دخولها مرحلة المراهقة. إنّه رصيّدٌ لفتياتٍ صغيرات حملن وجه ألهنّ وصدماتهم العاطفيّة، فأثّرت في صورتهم عن أنفسهنّ، ليُصبَحَ التجوالُ تجوالاً للأفكار الحائرة، فضلاً عن مسألتي الاستبعاد والاضطهاد.

دوفيل (O. Douville) وأطفال الحروب⁽⁷⁾

يعتبر Douville أنّ الحرب هي انتقامٌ وهي استبعادٌ للهنا حتى الهناء المتخيّل، فيسأل الطفل لماذا الحرب وما هي أسبابها لأنّها أسبابٌ غيرٌ مفهومةٍ بالنسبة إليه، حيث تبقى الحرب (وخصوصاً إذا ما كانت حرباً أهليّة) مشروّعاً قرابياً مبنياً على موت الآخر وعلى الانتقام، فحتّى الحُلم هو حُلم صدماتيٍّ أساسيٍّ (Standard)؛ إنّها حروبٌ لا تُفبرك إلّا القلق.

ومن أهمّ ما ركّز عليه (بالإضافة إلى التروما الناجمة عن الحرب) هو ذاك السياق الذي يمشي مع الحرب الأساسيّة، حروب الصغار الذين نستخدمهم إمّا بوصفهم جزءاً من مُمتلكاتنا وإمّا كجزءٍ خلفيّ غير منظمٍ لجيشٍ منظمٍ. إنّهم الجنود الصغار Les enfants soldats. أطفالٌ أحياء وكأنّهم موتى يعيشون من جرّاء الحرب بوهم الدّفاع أو الاستخدام في سبيل القضيّة، والقضيّة مُعاشة لكنّ غير مفهومة بالنسبة إليهم.

إنّها آليّة الارتباط بواقع الحرب وبتأثيراتها مهما كانت حدّة الالتزام أو الابتعاد:

- الموت.
- التحرّش الجنسيّ والاغتصاب.
- نقص الغذاء.
- قسوة الحياة اليوميّة.
- مُحاكاة ساخرة وقاسية.

(7) Olivier Douville, «Des mineurs sous la guerre, aujourd'hui, l'exemple de situations africaines», *les psychologues et les guerres* (Paris: l'Harmattan, 2010) <http://bibliothèque.uqac.quebec.ca/index.htm>.

- سجن قانوني وهمي في مواجهة حروب قبائليّة لا ذنب لهم فيها.
- هم جنود جُنّدوا من قِبَل جنود أوصياء عليهم.
- إضفاء وهمي للبطولة وللتضحية.
- الفوضى في الأنظمة والتراتبيّة.

كلّ هذا ناجم عن تزاوج ما بين العنف وغموضه في ظلّ مشروع سياسيّ غير هادف، ويتعرّض من جرّاء ذلك إلى تهميش الأب الفعليّ واستبداله، وإلى تصنيف جسده Fétychisation وتشيئته، وهي كلّها لا تنفع في انبناء زوايا فاعلة في الجسد ولا في الروح، وهي استقطابٌ لمثاليّ في الأنا خاصّ ومُقلقٌ يتعد عن النصر، لا بل يقترب من السوداويّة إلى حدّ الهوس. أطفال الضياع والصنميّة لا يُمكن لهم إلّا أن يكونوا ضحايا.

فرانز فانون F.Fanon ورمزيّة الاستعمار⁽⁸⁾

في حديث Fanon عن التعصّب الكولونياليّ، ربّط صورة الذات المُستعمرة بالإمبرياليّة وقَدّم صُورًا تحليليّة مهمّة يُعيدّها التحليل النفسيّ اللاكاني المعاصر نظرًا لأهمّيّتها. فالخطاب الكولونياليّ هو خطاب أيديولوجيّ يحمل بداخله صُورَ الحرب والعنف ويُعيد ذلك إلى ما أسماه هُذيان التملّك (Délire de possession). وهذا ما يضع الناشئة على الأخصّ أمام عدم فرصة التفكير وإعادة الإنتاج إلّا بشكلٍ أوّلِيّ أي طفليّ، بدائيّ، نزواتيّ، لا يخرج من إطار ردّات الفعل؛ وهذا ما يترك في النفوس ليس الفعل العنفيّ فحسب، بل يترك توافقًا ثنائيّة مضاعفة كالاغتراب عن الذات وعن الموضوع في الوقت نفسه، ويضعنا في مواقف بوليسيّة للجهوزيّة، وهذا ما طرحناه مع Douville في مفهوم «الجنديّ الصغير».

وهنا ستكمن أيضًا نظرتنا إلى التمييز واستباحة الذات بالحقّد ونكران «الأنسنة» الداخليّة وتبدو الشخصيّة أو اللاشخصنة Dépersonnalisation، من دون نسيان ثقافتنا الداخليّة وهي بدورها أوّلِيّة أيضًا.

(8) فرانز فانون، معذبو الأرض (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، مكتبة نور، 1925).

إنّ الاستعمار يُناجي الحُلم واللّهث وراء... والقبض على... وبشكلٍ أساسيّ الانخراط في الحروب التي يُمكن أن تقوّض دعائم الذات وصورة الجسد وعدم الحمية من الانهيارات الذهنيّة الحادّة.

وهذا ما يضعنا أيضًا أمام مُواجهةٍ مع ما نسّميه L'indigène أو الأصليّ ويستعدّ العارض للظهور Le symptôme؛ فما بين التروما والعارض يتذبذب الإرث الثقافيّ ويتمحور في أسطورةٍ عائليّة تحتاج إلى قراءاتٍ عدّة للرغبة غير «المُنجلية».

عرض الحالات⁽⁹⁾

الحالة رقم (1): اللاوعي الأنثويّ والحرب الأهليّة... الأب القاتل⁽¹⁰⁾

• تقديم الحالة

«نور» امرأة تعيش دومًا تحت وطأة أحمال طفولتها، فهي ثمرة زواج مُختلط نتيجة الحراك الديمغرافيّ والطائفيّ؛ الأب عسكريّ، هاجر إلى بيروت بسبب الحرب الإسرائيليّة؛ واستبعد عن أرضه ليجد نفسه ناطورًا لبنانية في بيروت حيث التقى زوجته «البيروتية». لم تُكمل «نور» دراستها الجامعيّة وتزوّجت في عمر السابعة والعشرين، أجهضت مرّتين قبل ولادة ابنها.

• طلب الاستشارة

خضعت «نور» للاستشارة النفسيّة من خلال مؤسسة تُعنى بالدّعم النفسيّ. كانت تتناول الأدوية المضادّة للاكتئاب بسبب انفعالها وغضبها المتكرّر نحو ابنها وحسبما قدّمت: «هي طفلة في امرأة». من هنا استنسبنا لهذه الحالة.

• تاريخيّة الحالة

الأب عنيف يضرب زوجته وأطفاله. شارك في الحرب الأهليّة واضطرّ لإرسال أسرته لأشهرٍ إلى قرية الجدّة (لأمّها). لم يشعروا بوجوده في محنتهم، حارب فأهمّل دوره كأب.

(9) راعى عرضُ الحالات وتقديمها مبدأ أخلاقيّات المهنة وقوانينها، كما راعى مبدأ الإشراف Supervision والمُراقبة Contrôle.

(10) حالة من تقديم المُعالجة النفسيّة السيّدة «رندا البرّاج».

خسر الأب رجله في الحرب وزاد عنفه. تقول «نور» بحزن: «بيّي الذكر عانى من تسلُّط أمّي وحُرْصها على إدارة البيت. وعانت أمّي من قسوة بيّي وإهماله»، «بالحرب كانوا يتّكلو على النسوان، بتتعب النسوان وبتولّد ليقولو ابن فلان، وهي كانت اللي بتحاسب وبتراقب وبتخاف علينا ما نقطع الحدود».

لقد عانت «نور» منذ طفولتها من مَشاهد الحرب الأهلية ومن مَشاهد الأنثى المُناضلة والمُجاهدة (صورة أمّها): «حَدَمْنَا، زَرَعْنَا الأرض، تعايشَتْ مع الحرب وأصوات المَدافع والصواريخ، ما كانت تخاف و«كانت تقول خلّي يسترجي يقنّص لخليّه إنتاية».

تقول «نور» في إحدى الجلسات «أنا أشبه أمّي، جدّتي؛ خالاتي الأربع وبنات خالاتي أجهضت كلّ واحدة منهنّ ذكرين؛ نحن نقتل الذكور، منعيش حالات بعضنا، أرحامنا بترفض الصبيان». فذكرت ابنها الذكر الذي أزعجها حضوره.

وتتابعت الصدمات بموت أقاربها، وهي تُعبّر عنهم بشعورها بفقدان مُتتالٍ ومستمرّ، فقد شهدت على وفاة أحبابها من جرّاء الحرب، جدّتها (لأمّها)، عمّتها، أمّا الحبيب فاستشهد في أرض المعركة. «دايما بتساءل هل مُمكن يموت خيّي أو ابني؟»

• العوارض

تعاني «نور» من رعب الحرب والمجهول، فهي عدوانية، سريعة الغضب، منطوية على ذاتها، تتناول المهدّدات وتُسقيط غضبها على زوجها وابنها. تتناقض مشاعرها بين الحبّ والكراهة، تتماهى بأثى العائلة المنصهرة بالوجع والرافضة للذكر.

• التحليل

أثّرت الحرب الأهلية في لبنان في أدوار والديّ «نور» وغيّرت وظائفهما. فعندما شارك الأب في قتال «الغريب» على حدّ قولها، محاولاً حماية وجوده، خسر رجله وشعر بالانكسار والعجز، فصبّ جام غضبه على العائلة وزاد العنف عنفاً. فقتل الأب في لاوعي ابنه وتحوّل إلى ضحية حرب. أمّا أمّها، فاستطاعت استغلال الوضعية لتستلم السلطة وتُسيطر على أولادها لإزاحة الأب الغائب وتبقى أسيرة هذه الوضعية، فتماهت «نور» مع والدتها (القضييّة)، لتتحدّها وتتبعها في النزاع ما بين الرغبة في الاتّحاد والحاجة إلى التحرّر.

هذه الصلة التي سَجنت «نور» في رغبات الأم، جعلتها لا تُفارق رَحَمَها - فهي الأم القاسية أو الغائبة بحسب A. Green⁽¹¹⁾ فقدت على أثرها رغباتها الذاتية وتوجَّهت إلى تمَنّي الموت لنفسها والشعور بالذنب تجاه والديها الضحايا. إنَّ تماهي «نور» مع والدتها وإناث العائلة، جَعَلَهَا تفقد الذكور في رَحَمِها. أجهضتْهم، تمرَّدت على رَحَمِها، رَمَت القضيْبَ مرَّتَيْن خارج جسدها لتلعبَ دور المُحاربِ من دون أن تُحارب. هُنَّ الإناث بمواصفات الذكور، يرغبنَ هواميًا في القذف ولكنَّ أيضًا الإجهاض؛ هُنَّ الإناث اللواتي انتزَعْنَ قوَّةَ الذكر من الحرب، من حرب البقاء وحرب الإلغاء.

الحالة رقم (2): من الأجداد إلى الأحفاد: لم تضع الحرب أوزارها⁽¹²⁾
«ياسمين» طفلة لم تبلغ الثالثة من عمرها بعد، وحيدة لوالديها الجامعين، العاملين في قطاع المصارف. هي الحفيدة لجديّين (لأمها) يتعالجان حتّى الآن من آثار الحرب اللبنانيّة التي خسرتها مُمتلكاتهما وأصدقاءهما. عاش والدها يتيمًا منذ صغره بعدما فقد والديه في الحرب.

• طلب الاستشارة وشروط الجلسات

طلبتِ الأمُّ العلاجَ لطفلتها عندما بدأت برفض دخول الحمام وأصبحت تحتفظ بالبراز في الحفاض وترفض خلعه.

استغربت «ياسمين» الوضعيّة في البداية ومن بعدها انتظمت علاجياً؛ كما توصّل الأهل في النهاية إلى القبول نظرًا لحاجتهم إلى المتابعة العلاجيّة، وإلى كَيْفِيّة التعامل مع الطفلة والتعرُّف إلى مشكلاتهم.

وخلال الجلسات اختارت الطفلة الألعاب التالية:

1 - المعجون الأسود، حاولت رميه ولصقه على الحائط. وكأنّها تُحاول رمي السواد لتُلصقه بمكانٍ بعيد عن مكانها.

(11) André Green مرجع سابق.

(12) حالة من تقديم المُعالِجَة النفسيّة السيّدة «سعاد علم الدّين».

- 2 - الحيوانات، إذ خبأتها ما عدا القرد، حيث أخذت تُنظف مؤخرته، وقالت: «هياك صار نضيف». وكأنه يُمثلها، فهي بحاجة إلى مَنْ يقبلها ويُساعدُها للتخلص والتنظف من البراز: فقد كان القرد هنا وسيطاً اجتماعياً.
- 3 - وعند استخدام الـ «puzzle» رتبها بسرعة وبدقة، من الداكن إلى الأفتح، فكان الاهتمام باللون الأسود في البداية. وكأنها تُحاول التعبير عن حاجتها إلى تنظيم الألوان الداكنة وترتيبها للتخلص منها.
- 4 - وعندما رسمت، مزقت الورقة بالقلم وحاولت كسره، وعبرت بالرفض وبالعدوان.

• تاريخية الحالة

عادت مشاعر القلق والخوف عند جدّي «ياسمن» ووالديها لحظة ولادتها؛ فهي كيف ستعيش؟ «ما بدنا تشوف اللي شفناه».. هي الطفلة الحُلم التي أتت لتحقيق ما لم يستطع الأهل تحقيقه، وهي التعويض عن الخسارة: «بوجودها حسوا أنهم ربخوا بعد خسارتهم»، هكذا عبرت الأم عن لسان الجدّة والجدّ.

عاش الوالدان ظروفًا قاسية إبان الحرب في لبنان التي دامت لسنوات طويلة، فقد الأب خلالها أهله وهو لا يزال طفلاً، وعانى أهل الأم من صدمات الحرب حيث فقد الوالدان الذاكرة مؤقتاً ولا يزالان حتى الآن يتعالجان من الاكتئاب بالعقاقير. فحمل الجميع ثقل الحرب وآثارها وما خلفته من حرمان.

هي الحفيدة الوحيدة، تبقى مع جدّتها طوال النهار بسبب عمل والديها، وغالباً ما تبيت معهما، يخافان عليها ويحاولان حمايتها بالاهتمام الزائد، وكأنها تتربى برعايتهما.

• العوارض والأليات الدفاعية

تتحكّم «ياسمين» بالعائلة كلّها - كما تقول الأم - تفرض سلطتها وقانونها الخاص عبر بكائها. عدوانية في سلوكها وتحاول التكسير. تخاف الترك ويُقلقها الهجر. يُسيطر عليها حبّ التملك، وامتلاك الأشياء «إذا ما أخذت الغراض اللي مع غيرها بتعمل crise، ما

حدا يبقدر يهديها وبالأخر منمشي معها تتروق». فلا تحبّ التواصل مع الآخرين وكأنّها في كلّ هذا تتماهى بالجديّن المكتئبين.

• التحليل

هي الطفلة الأولى والوحيدة للعائلة، وُلدت من رحم الحرب، ولم تتمكّن من تكوين الذات الفردية والذات الاجتماعية. حملت الإرث العائليّ الاكتئابيّ، الناتج عن كلّ ما خلفته الحرب وتركت آثارها فيه. تشعر بالاضطهاد وعدم الثقة بنفسها ولا تستطيع التواصل مع الآخرين؛ فاقدة للأمان والحماية، تُخبي حاجاتها وألعابها خوفاً من فقدانها ليبقى إحساسها بالقدرة على التملُّك. لذلك ينتابها الإحباط إذا لم تُنفذ متطلّباتها. كما نلاحظ أنّ مآزرها ظهرت في المرحلة الشرجية (من خلال التبرُّز والاحتفاظ به) لتُحافظ على القدرة الفائقة، لكونها لا تزال غير قادرة على التعبير بالكلام، وعمّا تريده من الأهل والعائلة بشكل عامّ.

لقد امتصّت «ياسمين» الحالة الاكتئابية من الجدّين اللّذين عاصروا الحرب في لبنان لسنين طويلة، وهي تمكث معظم الوقت عندهما، من هنا كان ارتهاؤها لهذا «الموروث العابر للأجيال»، الموروث الذي لا تفهم عنه شيئاً؛ إلّا أنّها تتصرّف من خلاله بعدوانية لتخفيف هذا القلق والوجع عن نفسها، وعبر التسلُّط وفرض قوانينها لتعويض دور جدّتها الضائع التي لم تستطع أن تكون أمّاً جيّدة كفاية لابنتها (أمّها)، وتعويض دور الجدّة (لوالدها) المتوفّاة، وتعويض دور جدّتها، الأوّل المتوفّي فعليّاً والثاني المتوفّي هوماً... لعلّها تستطيع استعادة أدوار العائلة الضائعة، والحفاظ على ما تبقى منها.

فهل استطاع الأهل معرفة ما يجول بداخل الطفلة من صراعاتٍ وحروبٍ مُستنزفة، على الرّغم من عدم معرفتها بهذه الصراعات والحروب أو معاشيتها لها؟ هل استطاعوا الانتباه إلى أنّها فتاة تتربّى في عائلة متوفّاة هوماً؟ هل يستطيعون معرفة ما تراه الفتاة في وضعية العائلة التي عانت الحرب ولا تزال في حرب داخلية تغلّغت فيها؟ فعلى الرّغم من محاولة الأهل استبعاد موضوع الحرب وآثارها، إلّا أنّ استبعاد الحرب جعل «ياسمين» بحيرة مع نفسها ومع طفولتها، وباستبعادٍ لدور أهلها، وبتجوالٍ مع حياة أجدادها.

الحالة رقم (3): بين الحرب والانفجار: العلاقة مع الموضوع⁽¹³⁾

• تقديم الحالة

«ميليّسا»، شابة في الثامنة عشرة من عمرها لكنّ ذكرياتها عالقة في المرحلة العمرية 5 - 11 سنة. هي في الصفّ الثانويّ الثالث، من مستوى اجتماعيّ اقتصاديّ جيّد، يعمل الوالد في قَطَر والأم ربّة منزل. هي ابنة الأمّ التي عانت الرعب اليوميّ في الحرب، من إحباطٍ وقلقٍ لأكثر من 16 سنة، وجسّدت بأوجاعها الوجه السلبّي لتتاج هذه الحرب، التي أسهمت في تشكيل شخصيّة مكتئبة إثر تعرّضها لكثير من الصدمات، فأسقطت الأمّ بذلك عدائيّتها ووجعها النفسيّ على ابنتها الوحيدة، كما أدمنت الكحول.

• شروط وإجراءات الجلسات

طلبت الاستشارة للأسباب التالية:

- خوف مرتبط بهلع الحرب: «انفجار مرفأ بيروت جعلني أشعر بقلقٍ قاتل، وخوفٍ رهيب».

- الرغبة في اكتشاف الذات: «... إنّ حياتي وعلاقاتي معقّدة جدّاً، وغالبًا ما تكون غريبة».

- مشاعر متناقضة: «... عندي مشاعر متناقضة تجاه أمّي، أحبّها وأكرهها في وقت واحد/تارةً أكون إنسانةً مجنونة أعشق الموت، وتارةً أخرى أعشق الحياة والفرح والغناء».

• الجلسات وإطارها

لا تزال «ميليّسا» قيد العلاج، واكتفينا بذكر الجلسات الأربع كنموذجٍ تفاعليّ معها، نظرًا لأهميّتها.

- الجلسة الأولى: رفضت الكلام وطلبت ورقةً وقلماً، أسقطت عليها وجعها واختصرت من خلالها الأحداث التي مرّت في حياتها حيث سيطر على الجلسة الصمتُ التام والدموع التي عبّرت من خلالها عن وجعها.

(13) حالة من تقديم المُعالجة النفسيّة السيّدة «لينا نحّاس».

- الجلسة الثانية: كانت تحليلًا للرسومات وربطها بالأحداث السابقة من الطفولة وحتى الآن، حيث أشار التحليل إلى وجود معاناة ترك الأم لها، ما جعل منها شخصية حسّاسة، قلقة ومزاجيّة.

- الجلسة الثالثة: كانت استعادةً للذكريات وأهمّها: منظر الجرحى والقتلى في مرفأ بيروت، ذكرى أمّها المريضة التي تعرّضت لاعتداءٍ شديد بسبب صدمات الحرب.

- الجلسة الرابعة: كانت تحليلًا لما كتبه في يومياتها من مشاعر. لقد أتت ومعها ورقة دوّنت عليها حوارًا تخيلته بينها وبين والدتها، وكان متمحورًا حول عجزها عن تحقيق رغبة أمّها بانتمائها السياسي، وعتبها عليها لإدمانها الكحول، وشعورها بالذنب لأنّها لا ترضي والدتها.

• تاريخيّة الحالة

أيقظ انفجارُ مرفأ بيروت الذي حدث بتاريخ 4 آب/أغسطس 2020، صدماتٍ عديدة عانت منها «ميليّسا» منذ عمر 5 سنوات وحتى الوقت الحالي، ومن هذه الأحداث نذكر:

- مَرَضُ الوالدة: «ابتدأت مأساتي بعمر الخمس سنوات عندما تخلّت أمّي عني بسبب مرضها وتناولها الأدوية التي جعلتها غائبة عن الحياة. عند عودتي من المدرسة تكون نائمة أو عند الطبيب أو في المشفى».

- غياب الأب: «عندما بلغت 7 سنوات، لم يتمكّن والدي من قضاء وقتٍ مُمتعٍ معي ولم يُقْم بوظيفته كأب، بسبب عمله ورحلاته الدائمة. غالبًا لم تُكن علاقتي به جيّدة، وهي محصورة بالماديّات».

- خلافات الوالدين: «قبل أن أبلغ التاسعة من عمري، كان والداي مُنفصلين في المنزل ولا تجمعهما سوى العلاقة الماديّة وتبادلُ تهم التقصير والإهمال والغياب. فعلى الرّغم من كوني الطفلة المدلّلة، كنتُ حزينة وعصبية، وهاجسي الانتقام من مرض أمّي، واستهتار والدي».

- مأزم في الديناميّة العلائقيّة مع الأم: «بعمر 11 سنة انتقلتُ مع أمّي إلى العيش في لبنان، وأبي لا يزال في قطر. أدمنتُ أمّي، فعشتُ العدائيّة تجاهها، ما جعلني أترك المنزل

وأنام عند رفيقاتي من دون علمها، أدخّن السجائر، أكذب.... وفيما أنا أكبر ازداد هذا الشعور حين عجزت عن تحقيق رغبة أمي بانتمائي للجهة السياسيّة التي تؤيّدُها، أكرهها وأكره هوسها بالسياسة التي دمّرتها».

• العوارض والأوليات الدفاعيّة

تُعاني «ميليسا» من تغيّرات مزاجيّة، وغضب، وصراخ، وبكاء، وعناد، ومُعارضة، ويأس من الحياة (وجود أفكار انتحاريّة)، كما تُعاني من تعبٍ ومن فقدان الحيويّة في أغلب الأحيان، وفقدان الشهية، والتأنيب الذاتي، والخوف من أن تصبح مكتئبة كوالدتها، فضلاً عن اضطراب في النوم، وفشلٍ دراسيٍّ، وإدمان على السجائر...

• التحليل

تُشير الحالة، إلى ارتباطٍ وثيقٍ بعُصاب الحرب، وتأثيره على نموّ الطفل، الذي يُمهّد الطريق لحالةٍ نفسيّةٍ هشة.

لقد خزّنت «ميليسا» في نفسها أشياء كثيرة من طفولتها، والآن انفجر الموقف معها في أثناء انفجار مرفأ بيروت، عبر استذكار الماضي الذي جعلها تشعر بأزمة افتقاد الأمان الداخليّ المُرتبط بمرض والدتها منذ صغرها، والذي كان له التأثير المباشر على النموّ العلائقيّ الطبيعيّ بينهما. وهذا ما عرقل اهتمام أمّها بها وأبعدها عنها لتتعلّط عمليّة الإشباع العاطفيّ.

وهكذا عادت الصدمة الهلعيّة في مجال المركّب الأموميّ، الذي ينتظر الحادث المفجّر المباشر، والذي يؤدي إلى بناء العارض على قاعدة اضطراب العلاقة مع الأم التي تُعاش كقطام مبكر.

لقد استعادت «ميليسا» حالة الهلع والقلق خوفاً من تكرار مسلسل الحرب والتفجيرات من جديد؛ وهذا ما تمّ نقله عبر الأم من مشاهد وأحداث عاصرتها وأوصلتها إلى حالة الاكتئاب، والإدمان. فكانت لابتها القدوة والغائبة؛ وهذا ما أجج الصراع بينهما، ونمى التباعد في أثناء مراحل عمرها.

إنّ فقدانها للحبّ الذي ترافق مع صورة الأمّ الضائعة وشعورها بالفراغ العاطفيّ le vide affectif، وغياب التعلّق الآمن، وصور طفولتها المصاحبة للصراعات

العائليّة.. هذه الأمور كلّها قادتها في ما بعد إلى الضياع والمزاجيّة من خلال نظرتها التشاؤميّة ومشاعر الدونيّة وعدم التقدير لنفسها. وقد عزّزَ هذا كلّها لديها مشاعر الغيرة والانتقام والكراهيّة لوالدتها، وما يستتبع ذلك من اضطرابٍ وتوتُّرٍ على الصعيد العلائقيّ.

كما استعادت رغبة الأمّ واسقاطاتها السياسيّة، التي شكّلتَ لديها عاملاً مساعداً في تشكيل اللاتكثيف والشعور بالإحباط والانتماء، وظهرت المشكلة حين عجزت الابنة عن تحقيق رغبات الأمّ وطموحاتها في الانتماء، فشعرت بعدم القدرة على المواجهة لتتشكّل عندها مشاعر الذنب، والقلق، ولتتماهى بسلوك والدتها الانحرافيّ. كما لعبَ غياب سلطة الأب ودوره على تعزيز هذا السلوك.

وهذا دليل على أنّ اضطراب العلاقة بالأمّ أسهم في بناء شخصيّة (بنية الأنا) مشعورة ما بين التأنيب والهجوم والاهتياج، فيكون المؤنّب هو نفسه المُهتاج: أنا «حزينة ومهتاجة وجشعة» حيث الأنا الهزليّة والمتداعية بحسب د. عبّاس مكّي في «مناهات النّفس وضوابط علاجها»⁽¹⁴⁾.

الحالة رقم (4): انتقال صدمة الحرب والمآزم وتكرارها عبر الأجيال⁽¹⁵⁾

• تقديم الحالة

تبلغ «ليا» من العمر 11 عاماً، تعيش بعد طلاق والديها مع أمّها وأختها التي تكبرها بثلاث سنوات وجديها لأمّها. عانت الأمّ بسبب ظروف الحرب وفقدت الكثير من أحلامها وطموحاتها ومنها إكمال تعلّمها. أمّا الأب فعائب عنهم. وعلى الرّغم من المستوى الاجتماعيّ الميسور، ترى «ليا» أنّها أقلُّ من غيرها. وعلى الرّغم من وصولها إلى المرحلة المدرسيّة المتوسّطة فهي ترفض العلم.

(14) عبّاس محمود مكّي، مناهات النّفس وضوابط علاجها (بيروت: مجد المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، 2013)، ص 467.

(15) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «إيليان نحّات».

• ظروف الجلسات وشروط العمل

- طلب الاستشارة

تمّ طلب الاستشارة من الوالدة بسبب معاناة «ليا» من أزماتٍ ضيقٍ في التنفّس، تصل إلى عدم القدرة على التنفّس، وخصوصاً في فترة الامتحانات. كما تذهب إلى تصرّفات عدوانية، ولاسيّما في العلاقة مع الأخت والأم؛ فهي تطلب وتعبر عن الحاجة إلى مَنْ يسمعها ويتحاور معها ويفهمها، وهذا ما لم تستطع الحصول عليه ضمن الجوّ العائليّ الذي تعيش فيه، كما تُعبر عن خوفها من تخليّ العائلة عنها بشكل عامّ. هذا فضلاً عن التأخّر الدراسيّ الذي تعاني منه مؤخّراً ممّا يجعلها تحت ضغط التّأنيب الدائم.

- التقيّات المُستخدمة

تابعت «ليا» جلساتها بشكلٍ مستمرٍّ واستطاعت التكلّم على وضعها ومشكلاتها ومازمتها. جرى العمل على استرجاع التاريخ العائليّ من خلال صُورها وسرد القصص وتنظيمها، إلّا أنّها لم تستطع الرسم وبدأت بردّاتٍ فعلٍ سلبية.

- وصف حالة النقلة وتموضع المُعالج

أبدت الفتاة ردّات أفعال عنيفة (كلامية وسلوكية) على المُعالِجة وكأنّها استبدلتها بالأم والأخت، وكأنّها استبدلت مفهوم الحرب بحربٍ أخرى على مَنْ يقبلها ومَنْ لا يقبلها. فدخلت بالمزاجيّة بين قبول العلاج ورفضه - بين النقلة الإيجابية والسلبية - فكانت حيناً تُظهر التجاوب والقبول والقدرة على التعبير، وحيناً آخر تُظهر العدوان والرفض في الكلام والتخلّف عن المواعيد بسبب المرض أو النسيان. وكانت المُعالِجة تدعم السلوكيّات الإيجابية وتعمل على تخفيف حدّة السلوكيّات السلبية، من خلال إبداء التفهّم وفرض قانون العلاج.

• تاريخيّة الحالة

وُلدت «ليا» من أمٍّ اكتئابيّة، وبقيت في الحاضنة لفترةٍ ليست بقليلة بسبب ظروف الولادة الصعبة، فتعرّفت إلى الحياة من خلال الحاضنة. هي الصغرى التي وُلدت من رَحِمٍ أحزانٍ وخلافاتٍ عائليّة، ولكن على الرّغم من ذلك يُمنع إظهار الحزن والشعور به في العائلة.

وظَهرت علاقة الفتاة مع العائلة على الشكل التالي:

- العلاقة مع الأم: أمٌ ضعيفة لا تستطيع فرضَ قوانينها ولا إظهار الحب والحنان ولا تقديم العاطفة، إلّا أنّ علاقة الفتاة بأمّها هي علاقة ذوبانيّة لدرجة عدم القدرة عن التخلّي عنها أو مُفارقتها.

- العلاقة مع الأب: أبٌ غائب لا تواصل بينهما.

- العلاقة مع الجدّ: يتبادلان الأفكار والأحاديث إلّا أنّها تقول: «جَدِّي مش جَدِّي» لإظهار عدم جدّيته وهزله في الحوار معها، وكأنّ الحوار في الأساس ليس حوارًا، والتفاهم ليس تفاهمًا.

- العلاقة مع الجدّة: هي المُتعاونة والمتفهمّة والمُساعدَة والحاضنة ولكن من دون عاطفة، ولم تستطع تعويض الحنان المفقود من الوالدة التي لم تحصل على الحنان بدورها بسبب الحرب.

- العلاقة مع الأخت: أختها الكبرى حصلت على ما لم تحصل عليه من الأبوين كما تقول: «عَطيوها الليّ ما عطوني هوي»، يُسيطر النزاع والغيرة على المواقف التي تجمعهما معًا، وبخاصّة المواقف التي يكون باطنها ما له علاقة بالأمّ.

- العلاقة مع الأصدقاء: من الصعب التعرّف إلى الأصدقاء، وهي تقريبًا لم تكوّن صداقات مع الآخرين ذكورًا كانوا أم إناثًا.

- العوارض والأوليات الدفاعيّة

من خلال ما تقدّم نلاحظ أنّ «ليا» تُعاني اضطراباتٍ عديدة كصعوبة في التنفّس والتعبير، والعدوانيّة تجاه الآخر. لذا تشعر بالوحدة والمزاجيّة والقلق وصعوبة في النوم. هذا إضافةً إلى الوسواس الذي يظهر في الأفكار والنظافة، ما يجعلها تعيش مُعاناة مع نفسها ومع الآخرين. ومن هنا فهي تستخدم الأوليات الدفاعيّة كالتماهي بالأمّ المتوفّة هوائيًا والنكوص لنعود الطفلة المدلّلة.

- التحليل

يسمح ما تقدّم لنا بالتكلّم على الصدمات في محتوى التصرّوات العائليّة وعلى انتقال الصدمات والمآزم الأموميّة إلى الأولاد وبخاصّة في غياب الأب.

فبسبب ظروف الحرب ووضعية التهجير، نقلت الأم هذا الحدث الصادم الذي شهدته قبل ولادة ابنتها وأثره إلى رضيعتها التي بقيت في الحاضنة عند الولادة، وكأنها لا تريد أن تلدها لتبقى محمية في رحمها. فتظهر «ليا» كطفلة لم تولد بعد، أي أنها لم تنفصل عن أمها (حالة التبعية - السلبية)، أي لا زالت تعيش في رحم أمها وتخضع للموروث الأمومي، ولم يؤد الأب دور الفاصل.

وبذلك نقلت الأم حالتها العاطفية، أي الكآبة (نزوة الموت) المرتبطة بماضيها الصادم وعدم قدرتها على التفاعل مع طفلتها، إلى الطفلة؛ فأصبحت الأخيرة عدوانية تُظهر عدوانيتها هذه كلما شعرت بقلق التخلي عنها، وتختل قدرتها على التواصل مع العائلة. من هنا تحتاج «ليا» إلى إعادة بناء صورة الأم للتوقف عن بكاء بطنها الذي فقدته في الحرب.

إضافةً إلى ذلك، نلاحظ أن العائلة تسعى باستمرار لتخبئة الصدمات (الولادة والحرب والطلاق) لكي تعيش سعيدة. لقد نقلت الأم والداتها خشية أثر الصدمة إلى الابنة واعتادوا على تخبئة هذا السر، ولاسيما على صعيد العواطف والمشاعر. فتشعر الفتاة بأنها تحت ضغوط لتلبية طلبات العائلة، في ما يتعلق بنرجسية الوالدين التي تربطها بالحرب.

ولكن على الرغم من ذلك، ما زالت الفتاة تبحث في المقال واللامقال لاكتشاف التاريخ العائلي (اللامقال) والحب بغية كسر الجمود العاطفي، وكشف حقيقة الطلاق، وفشل الأم في الدراسة، والذكريات المرتبطة بالحرب، ما يجعلها بين تجوال الأفكار الحائرة. كما نلاحظ أن «اللامقال» Non-dit هو سيد الموقف لإيصال الرسالة الصادمة التي من الممكن أن تكون مخفية وتظهر من خلال الأفكار المثبتة والمتكررة عندها.

غالبًا ما تشعر «ليا» بأنها لا تُرضي رغبة الأم؛ فالرغبة في رغبة الآخر؛ فنعيش الارتهاق لها (تكرار الصدمة). تعيش الفتاة صراعًا بين الخوف من الخطر (الحرب) وواجب الطاعة للأهل الذين عانوا الحرب وفقدان الثقة بالنفس، وهنا تعود بالزمن إلى طلب الحماية الطفولية والأمومة السلبية.

كل ذلك يجعل الحالة المدروسة تعيش في هواماتها (وضعية الخضوع لآخر من العائلة). فبعض الأعراض التي تأخذ أشكالاً وهمية، تُضيق الإطار المرتبط بالهوية.

الحالة رقم (5): زنا المحارم وعودة المكبوت في زمن الحروب⁽¹⁶⁾

• تقديم الحالة

«آية» في العشرين من عمرها تستذكر طفولةً قاسية. هي طالبة في العلوم التربوية. تعيش في أسرة محافظة، من أب قيادي عسكري حربي، يغيب كثيراً عن أسرته، وأم ربة منزل تتحمل عبء غياب زوجها وتقوم بدوره في البيت وتهتم بالأولاد. طلبت «آية» الاستشارة النفسية لمعاناتها من صدمات عاطفية وشعورها بازواجية المشاعر. جالت بين شائئين، هادي زميلها في الجامعة وشادي ابن خالتها الذي أحبه منذ نعومة أظفارها.

• تاريخية الحالة

تذكر «آية» غياب والدها وانتظارها له بفارغ الصبر لترى حذاءه العسكري وتشعر بالأمان وتنام: «آخر فترة صرت حسّ بعدم الأمان لأنّو بابا بعيد عنّي وصرت عصّ كثير»، «لما يشوفني زعلانة يبعضني، برتاح، أنا بحاجة دائماً إلى العناق الدافئ والحنان، والتماسّ الجسديّ». «بيّي كان باراً بأهله، أمّي كمان». كانت الأمّ متعلّقة بأهلها إلى أبعد الحدود «ما يعرف أمّي لحالها، صورتها عندي دائماً مع عيلتها». وكانت الأمّ تترك «آية» عند خالتها وتذهب لإكمال دراستها أو لممارسة شعائرها الدينيّة. توفّيت الخالة باكراً ولم تستطع الفتاة التعبير عن حزنها. وعبرت عن رفضها ممارسة الشعائر الدينيّة «أنا لا أرفض الحجاب لكنّ مش راضية عن الشعائر الدينيّة، بدور براسي ميّة سؤال حول فكرة الله والخلق، أشعر بأنّي مكبوتة».

تذكر «آية» حرب تمّوز/يوليو 2006، كان عمرها عشر سنوات. حينها عاشت مُعاناة التهجير والتجوال الموحشة. تحمّلت النساء المسؤوليات بغياب الرجال، من تأمين الخبز ونقل المياه والاهتمام بالأطفال... فالابتعاد عن الأرض والابتعاد عن الأب، وفكرة وجود الرجال في أرض المعركة.. كلّ ذلك جعل «آية» تشعر بانعدام الأمان. «كانو النسوان يقولو يا منعيش كلنا سوا يا نموت كلنا سوا، نحنا كولا كتنا نخاف لّما نسמע الطيران والقصف، نتخبّي وبس يهدى الوضع نرجع نلعب سوا». لقد سكّن الكثير من

(16) حالة من تقديم المُعالجة النفسيّة السيّدة «رندا البرّاج».

أفراد العائلة في شقة واحدة، قُسمَت الغرف «بالشراشف»، استحمَّ الأطفال مع بعضهم «وكنا ننام حدّ بعض». هذا التجمُّع العائليّ دَعَمَ «آية» على تخطّي مصاعب الحرب إلّا أنّه عَرَضَهَا للتحرُّش من قِبَلِ ابْنِي خالَتَيْهَا الكبرى والصغرى، وكلّ ذلك باسم الحبّ.

• العوارض والأوليات الدفاعيّة

نُلاحظ أنّ «آية» تُعاني من ازدواجيّة في المشاعر بين الحبّ والجنس. فهي تشعر بتدنيّ قيمتها الذاتيّة، وبالانطوائيّة والعجز وعدم القدرة على حماية الذات، فضلاً عن شعورها بالنقص والعجز والذنب، ومشاعر الكبت.

• التحليل

حاولت «آية» مُكافَحة الاغتراب الذي شَعرت به بسبب الحرب القاسية التي تُشبه قساوة ترك أمّها لها عند الخالة، وغربة أبيها للتواجد في أرض المعركة، إلّا أنّها وجدت نفسها ضحيّة التحرُّش الجنسيّ من قِبَلِ أبناء خالاتها. لقد غابت السلطة الأبويّة عن الأماكن التي احتضنتهم في الحرب، وتحوّلت السلطة الأموميّة إلى انحرافٍ في قانون الأب، ما سمحَ بالتقارب والتماسٍ بين أبناء عائلة الأمّ. لم يستطع القانون السائد حماية الفتاة في غربتها فغرقت في مشاعر الاغتراب. وعندما حاولت الهروب من هذه المشاعر وفكّ الارتباط بهذا القانون، لم تستطع سوى الثبّت على موضوع اللذة وتوجّهت إلى النزوة التدميريّة.

لذا لم يكن الحجاب حاجزاً في وجه غرائزها الجنسيّة بل كان غطاءً وحمايةً لِلذّة مكبوتة واعترافاً وقبولاً من بيئتها. بينما في مُمارسة الشعائر الدينيّة تخاف من الرقيب والمُحاسب على لذّتها لتغرق في مشاعر الذنب والخجل.

حلّ الصبيّة بدائل عن اللذة تجاه الأب الغائب. إضافةً إلى أنّ «الخالة المحبوبة» كانت بديلة أمّها وكانت بديلاً لأمّهات الصبيّين المتحرّشين. لقد ظهرت الرغبة الجنسيّة عند هؤلاء الصبيّة المتحرّشين في لمس الأمّ والخالة، وهي الرغبة المكبوتة في الطفولة بسبب الحظر الاجتماعيّ والدينيّ فتفلّنت مع ابنة الخالة. وهذا ما ذكره فرويد في أنّ لذة

اللمس تبقى دائمة ومستمرة ولا شعورية، لأنّ المكبوت لا يموت، والرغبة تنتقل باستمرار لتفلت من الحظر⁽¹⁷⁾.

إنّ أيّ رابط أسريّ يأخذ الشكل الثلاثي، الأبّ والأمّ والطفل، هو في عائلات سفاح المحارم رابطٌ يُستبعد فيه الطرف الثالث (الأب) أو يُستبعد هو نفسه. وبحسب «Perrone وNannini، فإنّ الأُمّهات في علاقة سفاح القربى: لا يرون، لا يسمعن، يُنكرن الأدلّة، حتّى لو كانت حقيقة⁽¹⁸⁾».

الحالة رقم (6): ضاعت الرغبة: فالتهمت لحمها لكي يعود السلام⁽¹⁹⁾

«ليلي» في السادسة من عمرها، يعمل والدها في بلدٍ عربيّ منذ أكثر من ثلاث سنوات بسبب الحروب التي مرّت على لبنان والوضع الاقتصاديّ المتردّي، وتعمل أمّها بدوامين في مجال المحاسبة. هي الصغرى لأخت تكبرها بسنة ونصف وتوأم لفتاة تكبرها بدقائق. لا تُفرّق الأمّ بين «ليلي» وأختها التوأم، فهما تشبهان بعضهما كثيراً وتشبهان الأمّ. تسلّمت الأمّ زمام الأمور بسبب غياب الوالد، وهي ذات مستوى تعليمي واقتصادي واجتماعي جيّد، إلّا أنّ الوضع العائليّ يسوده الضياع في الأدوار.

• طلب الاستشارة والتقنيّات

طلبت الأمّ المشورة عندما بدأت «ليلي» بقضم أطراف يدها، وبدا العظم تحت اللّحم وانعدم الشعور بالأطراف. هذا فضلاً عن قضمها الكراسي الخشبيّة ونقرها بأسنانها. يحصل ذلك كلّ من دون القدرة على التحكّم بالفعل أو بتوقيته، لذا ثمة حاجة إلى شخص يُنبّئها لما تفعل.

خلال الجلسات تمّ استخدام التقنيّات التالية:

1 - لعبة التركيب: وهي لعبة تعتمد على تركيب القطع بعضها بجانب بعضها الآخر حتّى يتمّ إنجاز الصورة المُرفقة باللّعبة. إلّا أنّ الفتاة وجدت صعوبة في تمييز القطع وترتيبها بحسب الصورة.

(17) Sigmund Freud, *Les théories sexuelles infantiles dans La vie sexuelle* (Paris: P.U.F., 1908).

(18) Raynaldo Perrone, Martine Nannini, *Violence et abus sexuels dans la famille* (Paris: ESF; 5e édition, 2012).

(19) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «سعاد علم الدّين».

- 2 - puzzle: لم تستطع تركيب أي قطعة من اللعبة، أو التفكير بالمُحاولة.
- 3 - المعجون: لم تستطع الاستمرار طويلاً في لمسه وعبرت عن أنها لا تشعر به.
- 4 - اللّمس: أظهرت التقنيّة أنّ حاسة اللّمس مفقودة لدى الفتاة، إذ استطاعت تمييز القماش الخشن لا الناعم.
- 5 - الحيوانات: جمعت الحيوانات على شكل أسرٍ (الأسد - اللبوة) وأخذت الأسد لتلعب معه.
- 6 - الرسم: رسمت القلوب والورود والحمامة وغصن الزيتون، وكانت تُعبّر عن سعادتها.
- 7 - أكمل الجملة: أحبّ...، أحبّ هديّة...، أحبّ اللّعب مع...، أحبّ النزهة مع...، أحبّ الأكل مع...؛ أكملت «ليلي» كلّ الجمل بـ «بابا».

• وصف حالة النقلة وتموضع المُعالج

بعد الصمت استجابت «ليلي» وعبرت عن وجّعها من خلال التقنيّات. عبرت عن علاقتها بأخواتها وعن حاجتها إلى الأم والأب الغائبين وعن الحرب التي أبعدهما. فرسمت ما رسمت عن السلام والسعادة بفرح، وعبرت عبر اللّمس والمعجون عن فقدانها الحبّ والطمأنينة، وعبرت من خلال الحيوانات عن العائلة والسعي لإيجادها.

• تاريخيّة الحالة

وُلدت «ليلي» من رَحِمِ أُمّ حاقدة على المُجتمع «الصعب»، غاضبة من الحروب اللّبنانيّة وما خلّفته وراءها من أوضاع اقتصاديّة (خسارتها لممتلكاتها) واجتماعيّة (تشكّت عائلتها في أرجاء الوطن العربيّ) ونفسيّة (وما أكثرها). عاشت سنينها تُحارب الحرب بعلمها وعملها، وهي الراضية حقيقة أنّها فتاة وأنّها لم تُنجب سوى الفتيات.

الفتاة هنا (ليلي) هي الابنة الصغرى (حتّى على صعيد توأمها)، وهي آخر محاولة للأمّ لإنجاب الصبيّ. «ما إجت بوقتها، ما كُنّا ناطرينها وبنت!»، «ولادتها كانت صعبة، إجت واضطرّ بيّا يسافر، صاروا كتار علينا» قالت الأمّ.

هربت الأمّ للعمل بدوامين، وسافر الأب للبحث عن حياة كريمة، وسافرت الفتاة مع حبّها وتعلّقها. هو الذي فرح لولادتها ووعد بالاهتمام بها، وهو الذي اضطرّ لترك العائلة

«لحمائتها». أبعدته الحرب وشّتت أركان العائلة، ومضت ثلاث سنوات ولم يرَ بناته سوى عبر الفيديو و«ليلي» تنتظر وعد الأب، تنتظر رجوعه، تنتظر مَنْ يُحِبُّها ويحميها، فتبحث عن رغبتها الغائبة «هيدي الحرب بيّعدتني عنه بس حيرجع أنا بعرف».

• العوارض والأوليات الدفاعية

تشعر الفتاة بالدونية، والقلق، والرفض، والاستبعاد. تخاف التواصل مع الآخرين، كلما تكلمت تقطعت أنفاسها لتجمعها من جديد وتُكمل حديثها. تنماهى مع أمّها وتُبرّر خياراتها بأنّها تُشبهها بالشكل، فكيف لا تُشبهها بالتصرّفات وعدم القدرة على التعبير؟ «أنا ما برکز منيح مثل ماما».

• التحليل

وُلدت «ليلي» وكأنّها ولدت بحرب وجودية. رفضتها الأمّ وكأنّها عدوّتها ويجب الدفاع عن نفسها بتهميشها، وكأنّها هي الحرب نفسها، وهي التي تسببت بها ويجب محاربتها للعودة إلى السلام. هي الحرب التي أبعدت الأب عن عائلته، وشّتت أفرادها. «ما كان ناقصنا بنات»، طارئة على العائلة، وزائدة في توأمتها. الأمّ في ضياع لعدم قدرتها على التعرّف إلى ابنتها، كيف لا وهي الأمّ الراضة تاريخها ونفسها فكيف تقبل بشبيبتها؟ تحبّ الفتاة والدّها بكلّ تفاصيله، شكله، لعبه، هداياه، قوّته، حمايته وقبوله... هو محور حياتها، والحرب أبعدته عنها. هرب من الحرب وتركها تُحارب وحدها، تهرب من أفكارها. أدّى حرمانها وضعفها إلى قضم أصابعها للسيطرة على ما يجول داخلها لتفريغ عدوانيتها تجاه الأنثى (الأمّ والأخوات) حيث تُحاول الحصول على المتعة الغائبة، على الحبّ الضائع مع ضياع موضوع الحبّ.

في سلوكها اللاإراديّ واللاواعي، تبحث «ليلي» عن التواصل الذاتي حيث لم تجد المجال للتواصل مع المحيط، مع الآخرين. هي بحاجة إلى الحماية والطمأنينة والأمان الذي تفتقده بفقدانها الثقة بالنفس في العائلة ولعدم معرفة موقعها ودورها في أركان أسرتها. ففي كلّ مرّة تُحاول قضم أصابعها أو كرسيتها الخشبيّة تُحاول التعبير عن مشاعرها الأساسية للحياة الطفولية: الحبّ، الحنان، الأمان والحماية. تحاول ترك أثرها على جسمها وكرسيها، مُحاربة نفسها بأسنانها القارضة، النافرة، الحافرة، الآكلة لجلدتها

ولحمها ولكرسيها ومكانتها، كما أكلت الحرب حبها وحياتها، وسلبت رغبتها وقوتها، وشردت عواطفها وبعثرت طفولتها، وقتلت أياها.

وكانها تُعيدنا إلى القبائل في صحراء أستراليا الوسطى، الذي تحدّث عنها Géza Róheim⁽²⁰⁾، حيث تأكل الأمّ طفلاً من كلّ طفلين، لتقوى وتأخذ جمالها ورونقها وللحفاظ على البقاء؛ و«ليلى» هنا تُعيد التهام نفسها كما التهمت أمها لتستعيد قوتها وتُدافع عن رغبتها ومشاعرها المُتضاربة.

ليلى هي ذلك الجندي الصغير الذي يُحارب لجمع العائلة وهو نفسه السبب بفتقتها؛ هو الذي يُحارب للحصول على حبه وتعلقه وهو من دفعه لتركه؛ هو الذي يُطيع ويسمع الأوامر وهو المُستبعد من رغباته.

ليلى هي الفتاة التي أتت مُكرهةً، بصورة توأم مُكرّرة، تجول في عالمٍ والديها الذي لا تفقهه ولا يفقهها، تُحاول التعبير بحيرة عن رفضها ورغبتها، تبحث بأسنانها عن هويّتها، تلك هي الطفلة العدوّة المجنّدة.

الحالة رقم (7): طفلة الشارع موصومة بالحرب⁽²¹⁾

• تقديم الحالة

«آمال» طفلة تبلغ من العمر 11 سنة، من أبٍ سوريّ - أردنيّ هاجر إلى لبنان بحثاً عن عمل، وأمّ عانت من الحرب على لبنان في العام 1982 ونزحت إلى منطقة النبعة. وُجدت الفتاة على الطريق، وتمّ وضعها في مَيتِمٍ يُعنى بالأطفال.

• طَلَب الاستشارة وظروف الجلسات

تمّت الجلسات في مركز الدّراسة التابع للمَيتِم، حيث كانت «آمال» تُحاول ابتزاز المُعالِجة والناظرة للحصول على مُعاملة خاصّة. كانت تحبُّ التميّز وأن يكون موعدُها هي هو الأوّل، وذلك للحصول على مكالمات هاتفيّة مع أهلها خارج الدوام. كما كانت

(20) Géza Roheim, «Myth and folk-tale». *American Imago* 2, no. 3 (1941): 66-279.

(21) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «نظيرة باسيل».

وفي أثناء كل جلسة، تصرّ على دخول المرحاض لتتكلّم بأمورها الخاصة وكأنّها تتكلّم مع أمّها.

لقد تمّ العملُ معها من خلال التقنيّات التالية: البسيكودرام، لعبة الدُمى، اختبار Louisa Düss، الرّسم، الكتابة، القراءة، واللّعب. ومن خلال هذه التقنيّات استطاعت «آمال» التعبير عن خيانة أمّها لأبيها، وعمّا رأت وسمعت من أمّها أثناء مضاجعتها الرجال الذين كانت تسمّيهم «خطّابها»، وعن السوداويّة التي تعيش بها وعن الغيرة التي تتنبّأها تجاه أبيها.

• تاريخيّة الحالة

وُلدت «آمال» من أمٍّ وأبٍ عاصرا الحرب وتهجّرا بسببها وتزوّجا من خلالها وطلّقا لآثارها وكان عمرها سبع سنوات. الأمّ تهجّرت من جنوب لبنان جرّاء الاجتياح الإسرائيلي في العام 1982 إلى منطقة النبعة، والأب هاجر بحثاً عن عمل. بعد الانفصال، عادت الأمّ والفتاة إلى منطقة النبعة، وأصبحت «آمال» طفلةً في الشارع والأمّ في بيوت الدّعارة.

• العوارض

يظهر من خلال تصرّفات «آمال» أنّها طفلة أمّية وذكيّة، عانت من التشردّ ومن اضطراباتٍ في المزاج، ومن نوبات غضب وحزن وعناد حادّ. ترفض السلطة وتفرض سلطتها، ولا تستطيع التواصل مع أصحابها إلّا مع الذي تختاره من بين الصّبيّة ليكون حصراً لها وتكون حظراً عليه.

• التحليل

أثّرت في «آمال» أربعة عوامل أساسيّة نتيجة الحرب على لبنان؛ فأهلها عاشوا الحرب بكلّ مُعاناتها وآثارها. وتطلّقت والداها وانفصلا ليعيش كلّ منهما في بلدٍ وليغدو لكلّ منهما حياته الخاصّة، فسكنت الفتاة الشارع (وهو من أحياء حزام الفقر لمدينة بيروت) وعانت من مخاطره واستغلاله وقسوته.

امتصّت «آمال» ورضعت اضطرابات والدتها الناتجة عن الحرب. أدّى ذلك، إلى جانب انفصال والدّيها، إلى صعوباتٍ تعلّميّة وسلوكٍ عدوانيٍّ وتقلّبٍ في المزاج، فضلاً

عن رفض للسلطة واضطراب عاطفي، وأنشطة جنسية مبكرة. كيف لا والفتاة ترى أمها بأم عينها تمثل الإثارة وتأتي برفقة الرجال لاستلامها من المركز؟
إنها الفتاة التي تشردت اجتماعيًا وعاطفيًا وحاولت إرضاء أمها بالبحث عن فالوس وهمي - بتفردا بالصبيّة - لإبعادها عن الخيانة وليعود والدها ولتعود رغبتها به .

إنها الفتاة التي حملت مُعاناة عائلة هاجرت، فعانت وتشردت ثم انحرفت للبحث عن اللذة الضائعة.

الحالة رقم (8): هذيان طفلة: آثار الحرب من اللا تواصل إلى الصدمة⁽²²⁾

• تقديم الحالة

«منال» في الحادية عشرة من عمرها، من أمّ عراقية عانت من حرب العراق فهاجرت إلى لبنان وتزوّجت من لبناني (الأب) عانى أيضًا من الحرب اللبنانية.

• طلب الاستشارة والتقنيات المستخدمة

طلبت الأمّ الاستشارة العيادية لابنتها، بعدما طلبت المدرسة من الأهل متابعة الطفلة نتيجة تصرفاتها، مثل عدم القدرة على الانسجام مع المحيط، والتكلم باستمرار مع نفسها تجاه الحائط.

في بداية الجلسات تكلمت «منال» اللغة الفرنسية لأنها ترفض لهجتها العراقية. ولم يكن من السهل التواصل معها، وبخاصة أنها تعيش في عالمها الخاص. لم تنجح معها تقنية الرسم التي رفضتها ودخلت بعدها في مشاعر اضطهادية وحركات غير متناسقة. كما لم تستطع الكلام بالمباشر عن نفسها أو عن عائلتها، إلا أنها استطاعت أن تُعبّر وتتجاوب مع قصص Louisa Düss بالتعبير التالية: «العصفور مات»، «الفيل قصقصوه كله»، «الأب ما يباخذ الفتاة أيّ مشوار»، «الحلم بخوف». وانتقلت إلى اللعب بالتماثيل الصغيرة بصمت؛ وشيئًا فشيئًا استطاعت أن تتكلم على قصصهم التي استطاعت من خلالها التعبير عن بُغضها لأمها، وعن كيفية خيانتها لوالدها عبر الهاتف مع رجل عراقي،

(22) حالة من تقديم المُعالجة النفسية السيّدة «نظيرة باسيل».

وعن غيرتها من أختها المفضّلة لدى الجميع. استطاعت «منال» من خلال التقنيات التعرّف إلى الفرق بين الواقع والخيال واستطاعت الأمّ من خلال سلوك «منال» التوصل إلى قبولها ومحاولة احتضانها.

• تاريخيّة الحالة

«منال» الفتاة الأولى للعائلة، وعند ولادتها قرّر الزوجان العودة إلى العراق بعد خضّات هذا الزواج وخيباته. وما هي إلّا فترة قصيرة - كثرت فيها التفجيرات في العراق - حتّى عادت العائلة إلى لبنان حاملّة معها أزماتها واكتئابها.

بسبب كلّ ما عانت منه العائلة، من هجر وترك وحروب وأسر، كانت الأمّ تتصرّف مع الرضيعة برّدات فعلها الاكتئابيّة، من ترك وعدم اهتمام سوى بما يُبقيها على قيد الحياة؛ فكانت تضع لها الرضاعة مسندة على الوسادة، من دون أن تلمسها أو تحضنها أو تتحدّث إليها.

والأب في دكانه منشغلٌ إلى ساعاتٍ متأخرة لكسب لقمة العيش وهرباً من زوجته - كما تقول الزوجة -. وهكذا نمت الطفلة من دون تواصل أو عاطفة، إلى أن قرّر الزوجان إصلاح زواجهما بإنجاب ثاب، فولدت فتاةً ثانية بعد سنتين من ولادة «منال». فبدأ وكأنّ الأخيرة وُلدت من جديد مع قدوم أختها التي دفعها لتعلّم الأحرف، وكانت سبباً لتواصلها مع أهلها.

تأخّرت «منال» في تعلّم الكتابة والقراءة، إلّا أنّها استطاعت في ما بعد التعويض والتأقلم. إلى أن جاء اليوم الذي انتقلت فيه إلى فرع آخر لمدرستها في قرية أخرى لها إدارة أخرى؛ وبعدما كانت الأمّ توصلها إلى المدرسة أصبح الباص هو البديل، فبدأت بالتراجع الدراسي وظهرت عوارض الهذيان عليها.

• العوارض والأوليّات الدفاعيّة

نلاحظ سلوك «منال» الهذيان من خلال تكلمها مع نفسها، وعدم القدرة على التواصل مع الرفاق، وعدم التركيز، واللامبالاة لما يحصل من حولها والهرب من واقعها إلى عالمٍ متخيّل أكثر أماناً وأقلّ صراعاً، وأكثر تواصلًا وحمايةً وأقلّ تركّزاً وقلقاً.

• التحليل

عانت «منال» منذ ولادتها من جرّاء اكتئاب أمّها، فتركّت وحيدة بغرفة من دون اهتمام ولا رعاية ولا قبول. فكانت بحربٍ مع ولادتها لتبقى على قيد الحياة. فالأمّ تركت بلدها للبحث عن الأمان، والأب ترك بدوره بلده للبحث عن الأمان، فتركا الطفلة وحيدة تبحث أيضاً عن الأمان. ففكرة الترك ومعاناة الحروب التي عاشها الأبوان انتقلت إلى الطفلة ولم تستطع التعبير عنها إلّا عندما انتقلت من مبنى دراسي إلى آخر، وانتقلت من مصاحبة الأم إلى المدرسة، ليكون بديلها الباص، فظهر الهذيان عند «منال».

وهذه الحالة ذكّرها فرويد من خلال مفهوم «Nachträglichkeit» «l'après-coup»⁽²³⁾ وهي إعادة لوضعية حدث سابقاً وتمّت استعادتها بسبب عدم القدرة حينها على التعبير عنها. فهذه الفتاة حملت كلّ معاناة الأهل من جرّاء الحروب على بلادهم، وعدم قدرتهم على تخطّي أزماتهم التي جعلتهم غير قادرين على التعامل مع طفلتهم، سوى عبر صعوباتهم في التأقلم مع المحيط.

إنّ ما حملته الأم من اكتئاب جعلها غير قادرة على التواصل مع رضيعتها - غير المرغوب بها -. وعندما استفاق اللاوعي عند طفلتها لم يستطع التواصل لا مع الأشخاص ولا مع الواقع. فنشأت الطفلة من رحم معاناة حربيّة تُحارب نفسها وحياتها ومجتمعها عبر هذيانها، ولينشأ عالمها الذي هو من دون آخر، عالم خاص وآمن.

تحليل عام لمعطيات الحالات

يُمكن القول إنّّه وانطلاقاً من الحالة رقم 8، وهو ما ينطبق على بقية الحالات، ينقل الأهل بسهولة قلق الانفصال من جرّاء معاناة الحرب إلى لاوعي أطفالهم الذين يستعيدونها في كلّ مرّة وكأنّها أول مرّة «l'après-coup» أو في الألمانية «Nachträglichkeit». وهو مفهوم فرويديّ تحليليّ أشار إليه فرويد سنة 1917 على أنّه تعديل نفسيّ تلقائيّ للأحداث السابقة يُصاحبه عدم تقبّل واضح للمعاني وللوضعيّات الأولى التي تتشكّل من جرّاء الصدمة المُتلقّاة. وهو نوع من التأجيل اللاوعي الحامي (موقّتا) من الصدمة،

(23) Sigmund Freud, «Mes vues sur le rôle de la sexualité dans l'étiologie des névroses», *Résultats, idées, problèmes, (1890-1920)*, (Paris: PUF, 1984).

لكنّه لا يمنحها لاحقاً وترتبط العودة إليها لاستخراجها بدور المحلّل الذي يُركّز على ثلاثية «الظهور» و«الاختفاء» ثمّ «الانبعاث» (avènement-disparition-résurgence).

تسجّل الصدمة في اللاوعي لما للفعل من حقيقة ومعانٍ؛ وحتى لو تموضعت في الخفاء فهي تبقى تلك الحقيقة التي لا نريد الاعتراف بها لأنها قائمة على إدراك النقص من خلال تفاقم الصورة، فتتم الاستجابة عبر فبركة العودة بمنحى وظائفي يرفض التروما. وتتكوّن ساعتها ذاكرة متعدّدة رافضة تظهر في وضعيّات مكبوتة أخرى.

ما يجمع بين الحالات المطروحة هو «الجرح» (blessure). تشعر الحالات باللا أمان واهلع الحرب، كما تشعر الكثير من الحالات بالمزاجيّة، والنكوص بهدف العودة إلى وضعيّات عاطفيّة طفليّة؛ وقد رصدنا في الحالات الكثير من العدوان على النفس وعلى الآخر في إطار سلوك انعكاسيّ نزويّ. فالحالة (1) على سبيل المثال استبدلت قتل الأب بانكساره، وقتلت رغبتها بالأُمومة من دون الاعتراف بالتماهي بأُمّها. الحالة (2) استبعدت دور أهلها واستبدلتهم بأجدادها ظناً منها أنّها تستبعد الحرب...؛ ولا ننسى أنّ صدمة الحرب تُعيد إحياء النزوة المتراكمة فتواجه نزوة الحياة بنزوة الموت... أمّا الحالة (4) فما بين الخوف من الحرب وواجب طاعة الأهل تأخّر طلبُ الحماية لديها: هي أفعالٌ من تراكمات... تراكمات تعابريّة للأجيال تنشر إرثَ تروما عائليّة ومُعانة الاجداد. ويمكن أن تكون هذه الحالات من ضحايا المشكلات العائليّة القديمة (أفكار - معتقدات - مواقف - تربية - هجرات - حرب - جروحات - ولادات - تنميط جنديّ...). وفي الحالات الأخرى تعرّفنا إلى تراكم أخذ حيّزاً في الوعي وظهر على شكل مؤشّرات ارتبطت بالموروثات. موروثات ترتبط بالبعد التعابريّ للأجيال من خلال «شبح الأسرة» وبتعقيدات العصر التي لا يمكن تجاهلها وما نتج عنها من قلقٍ ومن كسرٍ للثقافة الأصليّة.

وفي عصرنا الحالي زادت «الشعبيّة» التي لا بدّ من أن تُؤثّر في التراكمات وفي تكوين الشخصية؛ وهذا ما برهنه Adorno من خلال تركيزه على تنميط الحياة الحاليّة بحيث أصبح تنميطاً مرضيّاً من خلال وسائل التواصل الجماهيريّة التي تنشر أنساقاً وأنماطاً تُجيد القول: «نحنُ أفضل من يُعلّمكم ويُخبركم».

هو تعلّم يكسر السائد لكنّه لن يتمكّن من كسر المُتوارث الذي لا يتوانى عن الظهور عبر «دلالاتٍ مشفّرة» جاهزة للتحليل لكنّها غير جاهزة دوماً للتعبير.

خلاصة

تتناهى ظاهرة الأطفال ضحايا الحرب كتعبير عن عولمة الصراع بغياب سنّ قوانين حماية عالميّة. ما يعني إدخالهم وزجّهم في الحرب: إزاحة العنف باتجاه الفئات العاجزة. صعوبة التصالح والمصالحة إبان الحروب التي تبدو دومًا استمراريّة سياسيّة لكن بأواليات أخرى، هي الذهاب إلى أبعد حدود، هي مبارزة ما تلبث أن تصل سريعًا إلى الصغار والصغيرات، يتلقّفونها ويدخلون مفهوم العدو والحداد والانتماء والضحية ومن ثمّ الشعور بالذنب وهذا ما بدا في الحالات المعروضة. ولا ننسى أنّ مفهوم الحداد⁽²⁴⁾ Le deuil هو مفهوم أساسي في إشكاليّة الحروب وتقوم عليه الإشكاليات الأخرى، ولا سيّما «الترك» أو الانفصال والفراق. وهي إشكاليات تفضي إلى مشاعر متلاحقة من الحبّ والكراهة ولا تنتهي إلّا بانتهاء الحداد؟ فهل تمكّنت الصغيرات من ولوج حدادهنّ إلى نهاياته؟ وحتى في اقترابهنّ من العلاج، هل أكملن الطريق أو سمّح لهنّ الأهل باستكمالهنّ إلى ما بعد الحداد أو أنهنّ وقفن في دائرته الباتولوجيّة؟ إنّ الحداد الممنوع الذي يتحدّث عنه «شوقي عازوري» ويُسبّهُ بحداد الحرب العالميّة الأولى الذي حوّل الأموات إلى أبطال، والذي يزيد التناقض ما بين الحبّ والكراهة لأنّ تضحية الآباء - الجنود Pères/Soldats ربّما جعلتهنّ (أي الصغيرات) مشروع جنود تضحية غير قابل للحداد عليه. فالموت لا يُمكن إلّا أن يُولّد الموت، فتتلاقى الأجيال على نقل ثقافيّ للموت (أنظر فكرة Douville عن إرث الحرب وتجنيد الأطفال). تغيّرت وظائفهنّ الأنثويّة وسعيّن إلى أدوار ذكوريّة فتمّ استبعادهنّ اجتماعيًا.

في الحروب، تستيقظ كلّ النزوات الأوليّة، البدائيّة. تصبح الذاكرة ممثّلة بالصدّات وبالصور المرعبة التي لا يُمكن التعبير عنها بالكلمات. إنّ الصغار والمُراهقين في الحروب يخافون، يقلقون، لا يملكون الموضوع (l'objet) الذي يُساعدهم على تجسيد معاناتهم، لذا يحاولون التفتيش عن موضوع خارجيّ ليتخلّصوا من القلق والخوف عبر إشباع نزواتهم الجنسيّة، فحلّت الفتاة مكان الموضوع الجنسيّ والعاطفيّ.

(24) Chawki Azouri, «Deuil fini, deuil infini», *L'orient-le-jour* (2 April 2021).

وفي عودةٍ إلى «عدنان حبّ الله»⁽²⁵⁾، تُزيل الحروب الأهلية بشكلٍ جذريّ شخصيّة الأب في السلطة وتستبدلها بالخصومات الأخويّة القاتلة، وتؤدي إلى الإلغاء نفسه لأيّ شخصيّة رمزيّة قادرة على دعم المثل الأعلى.

تقوم الروح المعنويّة للجماعة على الروابط بين الجماعة ورئيسها وتأثير ذلك على الروابط بين الجماعة لأنّ الدوافع الليبريّة هي أساس تلك الروابط: الحبّ والتساوي في الحبّ وإيقاظ الروح المعنويّة، ما يسمح للفرد باكتساب شعور القوّة وبناء الأنا الذي لا يتحقّق إلّا من خلال الانتماء للجماعة.

إنّ الرابط الاجتماعيّ الذي يُبنى من خلال اللّغة العلاجيّة التي تُمكننا وحدها من رصدِ بنية الرغبة وأطر التماهي. فالإشباع لا يُمكن أن يحصل من دون أن يمرّ بوظيفة الكلام الخلاقة (Parole) لكنْ بأزمته العلاجيّة المتعدّدة: القبول - الكلام - الفهم ووعي المشكلات - التغيير. ومع الصغيرات لا بدّ من مساعدة الأهل، فهل يتمكّنوا من العبور وتجاوز مداميك التعرّ والتثبّت والتعصّب الجندريّ؟

إنّ انبناءً تصاعديّ يُشبهُ بناء العمارّة⁽²⁶⁾ ريثما يتمّ الوصول إلى علاجات الحبّ والرغبة والدافع والأنسنة، أو إلى علاج التروما؛ ذلك أنّ التروما هي زمنٌ يُعيد تكوين العلاقة التبادليّة مع الآخر.

(25) عدنان حبّ الله، مرجع سابق.

(26) Viviana Melo Saint-Cyr Bravo, «Architecture et psychanalyse-l'art de bâtir dans la théorie lacanienne de la sublimation» (Thèse de doctorat, Paris 8, 2009).

لائحة الملاحق

ملحق رقم 1: جدول رقم (1)
الحالة الأولى، عوارض وأواليات دفاعية

الاضطرابات الجسدية	- التوتر الشديد وتناول المهدئات	- خفقات القلب السريعة، قطع الأنفاس وصعوبة التحدث، عدم القدرة على التحرك
الاضطرابات في التفكير	- عدم القدرة على التركيز	- تدخّل الأفكار وصعوبة في تنظيمها
الاضطرابات في التصرف والسلوك	- الغضب المتكرّر - العدوانية	- الانزعاج الدائم، نوبات الغضب على ابنها الذكر، الشجار مع الزوج لغيابه - ضرب ابنها، الخوف من الموت لأخيها أو ابنها، وقتل أختها
الاضطرابات العاطفية	- مشاعر متناقضة	- تعنيف الابن والخوف من خسارته: «الموت بأثر عيني كثير»
الأواليات الدفاعية	- التماهي - الإسقاط	- التشبّه بأثني العائلة المنصهرة بالوجع والرافضة للذكر - إسقاط غضبها السريع على ابنها وزوجها.

ملحق رقم 2: جدول رقم (2)
الحالة الثانية، عوارض وأواليات دفاعية

الاضطرابات الجسدية	- مشكلة في البراز	- الاحتفاظ بالبراز في الحفاض ورفض خلعه
الاضطرابات السلوكية		- تكسير القلم خلال الرسم وتمزيق الورقة - صعوبة في الكلام والنظر إلى الآخر والاستماع له - «تتحكّم بالعائلة عبر بكائها». تقول الأم
الاضطرابات العاطفية	- حبّ التملك - شعور بالاضطهاد - قلق الهجر - الارتهاق للجديين - فقدان الأمان والحماية	- تخبئة ألعابها وأغراضها وأخذ أغراض غيرها - اعتبار كلّ ما لدى الغير لها - البكاء الشديد عند مغادرة منزل الجديين - التعلّق بالجديين المُكسّبين (أهل الأم) - غياب الأم والأب عنها، وتركها عند الجديين معظم الوقت
الأواليات الدفاعية	- التماهي بالجديين	- اختيار اللون الأسود (لون المعجون، لون الثياب، لون قلم التلوين...) - لعب دور الجديين تجاه الأبوين (فرض سلطتها، الاهتمام بهما...).

ملحق رقم 3: جدول رقم (3)
الحالة الثالثة، عوارض وأوليات دفاعية

- نوبات متكررة من الغضب (دقات في القلب سريعة، صراخ، بكاء، عدم انتظام في النوم...). - الشعور بالتعب وقلة الحيوية	- توتر أعصاب - فقدان الشهية	الاضطرابات الجسدية
- هز الرأس بحدّة، تكرار الكلمات والسيّئ بالافكار، خوف من الفشل ووجود أفكار انتحارية - الاسترجاع الدائم لمسلسل الحرب والقلق من عودته	- شدة التفكير - فرط التذكر	الاضطرابات في التفكير
- كثرة التدخين، صدام دائم مع الأهل، الاستخفاف وعدم المبالاة - عدم الرغبة بالخروج، عدم الوثوق بالأشخاص، التأنيب الذاتي - هاجس الانتقام من أمّها وإظهار كراهيتها لها، غياب العلاقات البناءة	- إدمان وعدم التكيف - العزلة - العدائية	الاضطرابات في التصرف والسلوك
- حزن شديد ويأس مستمر لعدم الشعور بوجود أهلها بجانبها، نظرة تشاؤمية، عدم تقدير الذات والشعور بالدونية - هلع من رؤية توابيت وتفجيرات مدمرة، ومن أن تصبح كوالدتها المكتئبة	- الشعور بالاكتئاب - الشعور بالهلع	الاضطرابات العاطفية
- إسقاط عدائيتها على والدتها، وعلى الآخر - التشبّه بالسلوك الانحرافي لوالدتها.	- الإسقاط - التماهي	الأوليات الدفاعية

ملحق رقم 4: جدول رقم (4)
الحالة الرابعة، عوارض وأوليات دفاعية

الاضطرابات الجسدية	- اضطرابات في التنفس - العلاج بالأدوية	- تكرار الطواهر الندفس - جسدية
الاضطرابات في التفكير	- اضطرابات غذائية - مشكلات في التعبير - والحبال الصوتية	- جسم وهن - صعوبة اللفظ في حالة القلق
الاضطرابات في التصرف والسلوك	- تأخر دراسي - شروود فكري - كثرة اللامقال	- أخت أكثر تفوقاً - عدم تركيز - السر العائلي: الحرب والطلاق
الاضطرابات العاطفية	- العدوانية والعصبية - عدم القدرة على التواصل مع الأصدقاء - اضطرابات مزاجية - اضطرابات النوم	- الامتلاك والسلبية - الحقد: «هذا غير عادل، هي/هو ليس لديه الحق» والانطوائية - انفعال سريع وغضب غير مبرر - قلق، وكثرة أفكار
الأوليات الدفاعية	- التبعية العاطفية - والتحكم بالآخر - المُعاناة والقلق - جمود عاطفي - الغيرة - الوسواس	- تصرف رضيع يحتاج إلى اطمئنان، والشكوى من عدم تفهمها - التلاعب بالمرض - سلطة أنثوية. الأم: «لا يُمكن فعل ذلك، قولي لي الحقيقة...» - الغيرة من الأخت (أكثر جمالاً وإغراءً، ومستقلة وتُشبه أمها) - بالأفكار، والكتابة، والنظافة وحب الامتلاك
	- التماهي - النكوص	- التشبه بالأم (وكانها متوفية وبفراغ عاطفي، فقدان الإحساس) - رغبات في السيطرة والانتقام، والتبعية للأم.

ملحق رقم 5: جدول رقم (5)
الحالة الخامسة، عوارض وأواليات دفاعية

- تشوش في الأفكار، الانسحاب وتفادي المواجهة - سرّ التحرش الجنسي - عدم الرغبة بالاختلاط والمواجهة، عدم القدرة على حماية الذات - مشاعر بين الحبّ والجنس - الرفض والاستياء: «أنا بحسّ فعليًا خسرت حالي، لما أطلع على المراية بحسّ إنو مش أنا» - الإحساس بعدم الأمان (لأنو بابا بعيد عني)، الحاجة إلى العناق الدافئ والحنان، الحزن لترك أمها لها - العلاقة الذويانية مع الأم وأسرتها - عدم التعبير والشعور بالذنب	- صعوبة التفكير لحلّ المآزم - اللأمقال - الانطوائية - الازدواجية في المشاعر - الشعور بتدني قيمتها الذاتية - الشعور بالنقص والعجز - التماهي - الكبت	- الاضطرابات في التفكير - الاضطرابات في التصرف والسلوك - الاضطرابات العاطفية - الأواليات الدفاعية

ملحق رقم 6: جدول رقم (6)
الحالة السادسة، عوارض وأواليات دفاعية

- التعبير بكلمات متداخلة غالبًا غير مفهومة - التكلم بنفس متقطع - قضم الأصابع من دون الشعور بألم - عدم التمكن من إيجاد وسائل الإسقاط والتماهي ومن ظهورها (صعوبة اختيار صور الحيوانات المتشابهة، صعوبة في تركيب الـ puzzle...) - قضم الأصابع - التأناة وقلة الكلام وعدم وجود أصحاب - تقول الأم: «ما إجت بوقتها... إجت وسافر بيها...» - التعلّق الشديد بالأب الغائب/قضم الأصابع - التشبه بالأم في الشكل وفي التصرف: «أنا ما برکز منيح مثل ماما...».	- صعوبة في النطق - صعوبة في التنفّس - التوتّر - عدم القدرة على التمييز والتركيز - العدوانية تجاه الذات - الخوف من التواصل - الرفض والاستبعاد - فقدان الحبّ - التماهي	- الاضطرابات الجسدية - الاضطرابات الإدراكية أو المعرفية - الاضطرابات السلوكية - الاضطرابات العاطفية - الأواليات الدفاعية

ملحق رقم 7: جدول رقم (7)

الحالة السابعة، عوارض وأواليات دفاعية

الاضطرابات الجسدية	- مشكلة في البراز	- دخول المرحاض خلال كل جلسة لطلب اهتمام وقبول المعالجة لها
	- شراهة في الأكل	- الاستمتاع بالأكل بكمية مفرطة (الفقر والحرمان)
الاضطرابات في التفكير	- صعوبات تعلمية	- جهل وغياب الدعم (طلاق الأهل، التشرد)
الاضطرابات في التصرف والسلوك	- تغيرات مزاجية	- نوبات من الغضب والحزن
	- عدوانية	- ابتزاز الآخر والتحكم به، صعوبة تكوين صداقات
	- سلوك انحرافي	- أنشطة جنسية مبكرة، الاستغلال من قبل الآخرين
الاضطرابات العاطفية	- الخوف من الترك	- التعلق المرضي بالمعالجة، الشعور بالاضطهاد
الأواليات الدفاعية	- التماهي	- التشبه بالثنائية المتناقضة من الأم - حب وكره
	- الإلغاء	- عدم تقبل ترك الأب لها والعيش على فكرة عودته وبأنها ابنته المدللة
	- الإزاحة	- التعبير عن مشاعرها من خلال الآخر.

ملحق رقم 8: جدول رقم (8)

الحالة الثامنة، عوارض وأواليات دفاعية

الاضطرابات الجسدية	- الجمود	- حركات غير متناسقة، ضعف التواصل اللفظي، تعابير وجه ثابتة
الاضطرابات في التفكير	- صعوبات تعلمية	- عدم التركيز واللامبالاة
	- التثبيت على اللغة الفرنسية	- رفض اللغة العراقية (لغة الأم وذكريات الحرب)
الاضطرابات في التصرف والسلوك	- عدم القدرة على الانسجام مع المحيط	- البقاء وحيدة، عدم القدرة على التواصل والتجاوب مع الآخرين
	- سلوك هذيان	- التكلم مع نفسها
الاضطرابات العاطفية	- الغيرة	- الإحساس بالرفض وتفضيل الأخت عليها
	- الاكتئاب	- شعور بالحزن واليأس: «العصفور مات»، «الاب ما يبأخذ الفتاة مشوار»
الأواليات الدفاعية	- الإلغاء والانفصال عن الواقع	- اللجوء إلى عالم متخيل (ما بعد الصدمة) أكثر أماناً وأقل صراعاً

صورة الجسد في مُدن الصراع: الفتاة كما ترى نفسها كأنثى

مقدمة

تُعَدّ الصراعات المسلّحة إحدى مُهدّدات الوجود البشريّ والإنسانيّ، سواء على المستوى الفرديّ أم الاجتماعيّ؛ إذ تستهدف هذه الصراعات الوجود مادّيّاً ومعنويّاً وقيميّاً وأخلاقيّاً وتاريخيّاً. وغالباً ما تكون النساء في مُجتمعاتنا العربيّة ضحايا مجانيّة لهذه الصراعات لكونهنّ الشريحة الأضعف اجتماعيّاً واقتصاديّاً وتعليميّاً في أكثر الأحيان، فضلاً عن كونهنّ يُمثّلن، اجتماعيّاً وأخلاقيّاً، وبحسب ثقافة مُجتمعاتنا، بوابةً يسيرةً للهجوم العنفيّ المسلّح للنيل من كرامة الآخر - العدوّ وشرفه، سواء أكان رجلاً أم أسرةً أم مُجتمعاً. ويزخر تاريخ العالم بشتّى أنواع الانتهاكات العنيفة واللاإنسانيّة التي تعرّضت لها النساء في أزمنة الحروب والصراعات المسلّحة الداخليّة، بحيث صارت المرأة في مُدن الصراع تُدرك أنّ جسدها كأنثى يُشكّل تهديداً على حياتها وكرامتها الإنسانيّة. فكيف تنظر هذه المرأة إذن إلى صورة جسدها؟ وهل هذه النظرة سلبية أم إيجابيّة؟ وكيف تتشكّل لديها هذه النظرة في بواكير شبابها، ولاسيّما في فترة المُراهقة؟

نهى الدرويش ونهلة التميمي

أولاً: أهمية البحث

تأتي أهمية موضوع هذا البحث من ضرورة تحقيق إضافة علمية إلى الدراسات النسوية، ولاسيما أنّ شخصيّة المرأة وتوجّهاها كإنسانٍ تُبنى منذ مراحل شبابها المبكرة ومن بناء صورة جسدها التي تُشكّل الأساس لهويّتها وذاكرتها؛ بحيث من شأن البحث والتقضي في موضوع كهذا أن يفضي إلى اقتراح سياسات وتقديم توصيات لتحسين أوضاع النساء وتصحيح مسارات بناء شخصيّة الفتيات وإعدادهنّ تربوياً واجتماعياً، وهو الأمر الذي تحتاج إليه مُجتمعاتنا وبلداننا التي تنوء تحت وطأة الصراعات والحروب المُستمرة.

كما ترتبط أهمية هذا البحث بأهمية مرحلة المُراهقة لكونها تمثّل مرحلة البلوغ لدى الفتاة وما يرافقها من تغيّراتٍ جسميّة وفسولوجيّة، سواء في ما يتعلق بحجم أعضاء الجسم ونسبه أم بنموّ الخصائص الجنسيّة الأوليّة والثانويّة؛ إذ يحدث النموّ بنسبٍ غير مُتناسقة، فتشعر المُراهقة بالخلج والإحراج، فضلاً عن أنّ انتقادات الآخرين لجسدها تؤثر في الفكرة التي تكوّنُها الفتاة عن جسدها. ثمّ إنّ الصورة النموزجيّة أو المثاليّة التي تطمح الفتاة إلى أن يكون عليها جسدها تنبني من ثقافة مُجتمعها الحقيقي والافتراضي ومن صُور المشاهير في وسائل الإعلام. فعندما تُقارن المُراهقة جسمها بهم تتشكّل لديها أحياناً صورةٌ سلبية عن جسدها، فيما تتشكّل الصورة الإيجابية عنه من خلال ارتفاع استجابات القبول والرضا التي تتلقّاها من الآخرين، والتي تدفعها إلى التجاؤب مع قدراتها وحلّ مشكلاتها بشكلٍ مُثمر⁽¹⁾.

هناك عوامل عدّة مؤثّرة في بناء صورة الجسد لدى المُراهقة أهمّها: الأسرة، والأقران، والمدرسة، والإعلام ووسائل الاتّصال والتواصل الاجتماعيّ، والبيئة الحاضرة والماضية، والبيئة النفسيّة، والثقافة المحليّة، والعوامل الأمنيّة، والأمن الشامل، والسياسة، وهي عوامل تُؤثّر كلّها سلباً أو إيجاباً في تقييمها لمظهر جسدها الخارجيّ من حيث الشكل العام وملامح الوجه والرضا عن الجسد والاهتمام به⁽²⁾.

(1) Winzeler, A. (2005). A Healthy Body Image. College of health and human services. UNH Center on Adolescence, 2. Retrieved from www.shhs.unh.ed.

(2) جمال فايد، صورة الجسم وعلاقتها ببعض انماط التفاعلات الاجتماعيّة لدى التلاميذ في مرحلة الطفولة المتأخّرة، مجلة كليّة التربية في المنصورة، المجلّد 60، (2006)، ص 158.

تتكوّن صورة الجسد من ثلاثة مجالات رئيسة هي: المجال الإدراكيّ ويتضمّن إدراك حجم الجسد ومكوّناته؛ والمجال الذاتيّ ويتضمّن الرضا عن الجسد والاهتمام به والقلق بشأنه؛ والمجال السلوكيّ ويتضمّن تجنّب المواقف التي تُسبّب عدم الراحة أو التعب؛ وأيّ خلل في هذه المجالات الثلاثة سيُنتج ما يُعرف باضطرابات صورة الجسد، والتي تشمل اضطرابات شكل البدن ما تحت السريريّ، والاستياء الحميد، واضطرابات شكل الجسد الناتج عن اضطرابات سريريّة مثل الاكتئاب والقلق الاجتماعيّ، واضطرابات الطعام، واضطرابات سوء شكل الجسد. وتظهر أعراض هذه الاضطرابات على شكل أعراض اكتئابيّة ناتجة عن عدم الرضا عن الجسد وإحساس بالنقص، ما يدفع إلى الانطواء والبُعد عن الناس والشعور بالاشمئزاز من الجسد. وتتوزّع أسباب هذه الاضطرابات في ثلاث حزم هي: التركيز الزائد على الجسد، وانتقادات الآخرين، والعيوب الجسديّة⁽³⁾.

غير أنّه ينبغي التمييز بين أعراض اضطرابات صورة الجسد وأعراض التغيّرات الجسميّة في أثناء فترة البلوغ والتي تتمثّل بالرغبة في العزلة والتفرّد، والنفور من العمل، وعدم الاستقرار والتذبذب، والرفض والعناد، ومقاومة السلطة، والانفعال الشديد، ونقص الثقة بالنفس، وشدة الحياء، وأحلام اليقظة، والاهتمام بالمسائل الجنسيّة. ذلك أنّه خلال فترة المراهقة، يتكرّر القلق بشأن صورة الجسد بسبب تعاقب التغيّرات الجسديّة والمعرفيّة التي تحدث، ويكون التقييم والتركيز على الجسم وزيادة المظهر كبيراً جدّاً⁽⁴⁾.

ويؤدّي عدم الرضا عن صورة الجسد لدى المراهقات إلى زيادة مخاطر ظهور اضطرابات الأكل والاكتئاب وتعاطي المخدّرات وإساءة استخدامها والانتحار. وقد يتسبّب عدم الرضا هذا لدى المراهقات في بروز أعراض مثل اضطراب القلق الحادّ؛ إذ إنّ الضغط الملحوظ من الأسرة والأقران ووسائل الإعلام للتوافق مع

(3) فاتن مشاعل، «صورة الجسد لدى المرأة وعلاقتها بكلّ من الاكتئاب والقلق الاجتماعيّ وتقدير الذات لدى عيّنة من الإناث في محافظة اللاذقيّة»، رسالة ماجستير غير منشورة/جامعة دمشق، 2010.

(4) Littleton, H.L., Ollendick, T., «Negative body image and disordered eating behavior in children and adolescents: what places youth at risk and how can these problems be prevented?» *Psychol. Rev.* 6, (2003): 51-66 doi: <http://dx.doi.org/10.1023/A:1022266017046>

المُثل الاجتماعيّة والثقافيّة للجسد يُؤدّي بالفتيات إلى استيعاب هذه المُثل بوصفها معيارهنّ الشخصي، لأنّها تغدو مركزيّة لتقديرهنّ الذاتي ولتحقيق ذواتهنّ. ويُؤدّي هذا الاستيعاب المثاليّ للجسد إلى ظهور مقارنات اجتماعيّة مع الآخرين قائمة على المظهر وإلى مُراقبة الجسد والتفكير في الكيفيّة التي ينظر من خلالها الآخرون إليه⁽⁵⁾. غير أنّ هذه المُثل الجسديّة يصعب تحقيقها. ولأنّ المظهر الجسديّ هو مركز التقييمات الذاتيّة، يُؤدّي عدم الرضا عنه لاحقاً إلى نتائج سلبية. وقد ركّزت النظريّات على التأثير السلبيّ لكونه يتألف من أعراض الاكتئاب وضعف احترام الذات. وثمة أدلة نظريّة وتجريبيّة تُشير إلى أنّ أعراض اضطراب القلق، كعنصرٍ من عناصر التأثير السلبيّ، تظهر أيضاً و/أو تزداد سوءاً كاستجابةٍ لعدم الرضا عن صورة الجسد عبر الآليات الاجتماعيّة والثقافيّة⁽⁶⁾.

إنّ الكيفيّة التي تنظر بها المراهقة إلى نفسها وإلى الطريقة التي تعتقد أنّ الآخرين ينظرون بها إليها، ومدى تقديرهم وتقييمهم لشخصها وذاتها، بما في ذلك صورة جسدها، إنّ ذلك يقع في صميم مفهوم احترام الذات لديها. فالفتاة التي تتمتع بتقدير صحيّ وإيجابيّ لذاتها لا تنزعج من الأحكام والتعليقات الغريبة التي ينقلها الناس إليها. أمّا الفتاة التي تُعاني من تدني احترام الذات، فلديها آليّات تأقلم واستجابة سيّئة، بحيث قد يُؤدّي الضغط أو النقد المستمرّ لها إلى اتّخاذها خطوات سلبية مثل إيذاء النفس أو العدوان أو العزوف عن الأكل، وقد تكون عرضة للتئمّر والاغتصاب والمواعدة وسوء المعاملة والعنف وما إلى ذلك⁽⁷⁾.

إنّ الوصول إلى فهم لصورة الجسد لدى الفتيات العراقيّات في مُدن الصراع من شأنه أن يُوفّر قاعدة انطلاق للتوعية حول الصّحة الإنجابيّة والجنسيّة، وكذلك حول الصّحة النفسيّة بشكل عامّ لدى هذه الشريحة التي قلّ ما تناولها الأبحاث والدراسات بشكلٍ ميدانيّ ومعتمّق.

- (5) Fitzsimmons, Craft; Harney, MB; Koehler, LG, «Explaining the relation between thin ideal internalization and body dissatisfaction among college women: The roles of social comparison and body surveillance», *Body Image*, 9(1), (2012): 43-49.
- (6) Stice E, «A prospective test of the dual-pathway model of bulimic pathology: Mediating effects of dieting and negative affect». *Journal of Abnormal Psychology*, 110(1), (2001): 124-135.
- (7) TARSHI, *The Yellow Book* (1st ed.) (1 ed.) (New Delhi: Raj Press, 2010).

ثانياً: الورقة البحثية ومقاربتها

تُعَدُّ مرحلة المراهقة من أهم المراحل في حياة الإنسان، فهي فترة انتقالية بين الطفولة والمراحل العمرية الأخرى، يتم خلالها استيعاب المفاهيم والقيم الاجتماعية ضمن سلسلة من التغيرات النمائية والفسولوجية والجسدية التي قد تُسبب القلق والانزعاج للمراهقة لكونها تدخل عالمًا جديدًا تجهله؛ إذ يصبح جسمها غريبًا عنها بسبب الخبرات الجسدية والجنسية الجديدة، وتبدأ بتكوين صورة جسدية جديدة تُناسب التغيرات الحاصلة؛ غير أن عدم إدراك المراهقة لهذه التغيرات قد يُؤثر في نظرتها إلى جسدها وقد يشوبها الشك والسلبية. فالتحول إلى عالم غير مألوف لا يبعث على الثقة، ويتسم بعدم الثبات والتقلب والكثير من التناقضات إذا رافقه ضعف قدرة المراهقة على تحديد دورها بشكل مناسب، وضعف تقديم الدعم المناسب لها، سيؤثر لا محالة في تحديد هويتها بشكل صحيح⁽⁸⁾.

ولأن صورة الجسد لدى الفتيات تختلف بحسب المجتمعات وبحسب الظروف الثقافية والاجتماعية والأمنية، لا بد من التساؤل: ما هي صورة الجسد لدى الفتيات في المدن التي تعرّضت للصراع المسلح والعنف والإرهاب؟ ولأن الباحثين لم تعثرا على دراسة ميدانية عراقية أو عربية (على قدر اطلاعهما) تناولت صورة الجسد لدى الفتيات العراقيات في مدن الصراع المسلح، ولأن ذلك يُشكل نقصاً معرفياً وعلمياً لتشخيص أوضاع هذه الشريحة من النساء المُحتاجات إلى تحسين أوضاعهن النفسية والاجتماعية من خلال برامج وسياسات محلية ودولية على المستوى الحكومي والمنظمات الدولية، يُعدّ هذا البحث محاولةً للتعرف إلى هذه الشريحة العمرية من الفتيات ولتشخيص أوضاعهن. فهنّ لا يزلن يعانين من مخلفات الإرهاب والصراع المسلح وآثارهما، ومن شأن مثل هذه البحوث حولهنّ، وإن كانت مُحاولات أولية، أن توفر حلولاً لهذه الإشكالية.

ثالثاً: أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى التعرف إلى صورة الجسد لدى الفتيات المراهقات في المحافظات العراقية (الموصل، صلاح الدين، ديالى، كركوك، الأنبار) اللواتي عانين من

(8) Croll, J. «Body Image and Adolescents». epi.edu, 2005, 2, 13.

وطأة الإرهاب، وما إذا كانت هذه الصورة إيجابية أو سلبية؛ هذا فضلاً عن كيفية مُواجهة الفتاة لقصة بلوغها في مدينة تزخر بحوادث الخطف والسبي والاعتصاب وانعكاسات ذلك على حالتها النفسية، وأساليب تعامل الأمّهات مع بناتهنّ في هذه المُدن، وذلك بالاستناد إلى وجهة نظر عيّنة من الفتيات وأمّهاتهنّ.

رابعاً: تحديد المصطلحات

1 - صورة الجسد: صورة ذهنيّة أو تصوّر عقليّ - إيجابيّ أو سلبيّ، يُكوّنه الفرد لنفسه وتُسهّم الخبرات والمواقف في تكوينه. لذا فإنّ هذه الصورة قابلة للتعديل والتغيير في ضوء هذه الخبرات الجديدة⁽⁹⁾.

2 - الفتيات المُراهقات: حدّدت الأمم المتّحدة (2011) ومنظّمة الصحة العالميّة المُراهقين والمُراهقات كأفرادٍ تتراوح أعمارهم بين 10 - 19 سنة، وقسمت المُراهقين الذين تتراوح أعمارهم بين 10 و14 سنة من ضمن مرحلة المُراهقة المبكرة، والذين تتراوح أعمارهم بين 15 و19 سنة من ضمن مرحلة المُراهقة المتأخّرة⁽¹⁰⁾.

خامساً: مُقاربة نظريّة

أ. النظريّات المُفسّرة لصورة الجسد

1 - نظريّة المُقارنة الاجتماعيّة: تمّ تطوير نظريّة المُقارنة الاجتماعيّة من قبل فستنجر (Festinger) في الخمسينيّات من القرن الماضي، وأُجريت حولها دراسات كثيرة. وبموجب هذه النظريّة، فإنّ لدى البشر دافعاً فطريّاً للمُقارنة بالآخرين، وبخاصّة بمن يُشبهونهم، وذلك من أجل تقييم أفكارهم وآرائهم وقدراتهم ومعرفة نقاط ضعفهم. وبالتالي، فهم يحتاجون إلى رأي دقيق حول الأشياء والأشخاص الآخرين للعمل بفعاليّة. وتكون هذه المُقارنة الاجتماعيّة إمّا تصاعديّة، أي تتّجه نحو الذين يعتقد الأشخاص أنّهم هم الأفضل (وهي مفيدة للتعلّم من الرؤساء وتعزيز الذات) أو تنازليّة، أي تتّجه

(9) مجدي الدسوقي، اضطراب صورة الجسم (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 2006) ص21.

(10) الأمم المتّحدة، «صحة المُراهقين. نماء المُراهق تحوّل حاسم». تمّ الاسترداد من صحّة الأم والوليد والأطفال

والمُراهقين، مُتاح على: https://www.who.int/maternal_child_adolescent/topics/adolescence/dev/ar/

نحو الذين يعتقدون أنّهم أدنى منهم. وقد أظهرت دراسة ويلز (1981) (Wills) أنّ الناس يُفضّلون المُقارَنة التنازليّة عندما يُواجهون سوء الحظّ والتهديد، لكنّ هذه المُقارَنة التنازليّة قد تُساعد الشخص من جهة أخرى على الشعور بتحسّن إزاء إخفاقاته من خلال التركيز على الآخرين الذين لديهم عيوب مماثلة⁽¹¹⁾. في حين قد تُؤدّي المُقارَنة التصاعديّة أحياناً إلى خيبة أمل وتدني احترام الذات.

2 - نظريّة تأثير الشخص الثالث (1983): بموجب هذه النظريّة فإنّ صورة الجسد وإدراك الجاذبيّة الجسديّة تتأثّر إلى حدّ كبير وتُحدّد وكيف ينظر الآخرون إلى الشخص وعلى وجه التحديد كيف يظهر الفرد للجنس الآخر. كما أنّ ميل الأشخاص إلى التفكير بشكل إيجابيّ عن أنفسهم ينمو عندما تكون المعلومات عنه من الآخرين غامضة وغير متوافرة. وأظهرت دراسات شوي⁽¹²⁾ ودراسة فيشر وآخرين⁽¹³⁾ أنّ الأنثى غالباً ما تُخطئ في تصوّرها عن آراء الرجال بتحديد الجسد الأنثويّ الجذاب.

3 - نظريّة التناقض الذاتي (1989): اقترح هيجين نموذجاً لنظريّة التناقض الذاتي ترى أنّ للذات ثلاثة أشكال: الذات الفعلية التي تُشير إلى تصوّر الفرد في ما يتعلّق بخصائصه الشخصية؛ والذات المثاليّة وهي الخصائص أو الصفات التي يرغب المرء في امتلاكها؛ والذات التي يجب أن تكون وتُشير إلى الصفات والخصائص التي يعتقد الشخص أنّه مُلزم بامتلاكها. ويحدث التناقض بين الذات الفعلية والمثاليّة للفرد، وتظهر مشاعر مثل عدم الرضا والاكتئاب عندما لا يستطيع الفرد تحقيق رغباته وتطلّعاته إلى الذات المثاليّة؛ وبالمثل، يحدث التناقض بين الذات الفعلية والذات التي يجب أن تكون وتظهر مشاعر مثل القلق والشعور بالذنب عندما يعتقد الشخص أنّه/أنّها قد انتهك المعيار أو أنّه لا يستطيع بلوغه مثلما توقّع الآخرون منه. وفي سياق صورة الجسم، فإنّ الشخص عندما يُقارن ذاته الفعلية بالصورة المثاليّة المُعتمَدة أو بالنظر إلى تقدير المُجتمع، فمن المُحتمل أن يجد نفسه مقصّراً مع المعيار أو غير قادر على تلبية معايير الجمال المُصاغة من قبل

(11) Wood, J.V., «Theory and Research Concerning Social Comparisons of Personal Attributes», *Psychological Bulletin*, 106 (2), 1989, 231-248.

(12) Choi, Y., Leshner, G., and Choi, J., «Third-Person Effects of Idealized Body Image in Magazine Advertisements», *American Behavioral Scientist* 52(2):147-164, DOI: 10.1177/0002764208321348

(13) Fisher, E., Dunn, M., and Thompson, J.K., «Social Comparison and Body Image: An Investigation of Body Comparison Process Using Multidimensional Scaling», *Journal of Social and Clinical Psychology*, 21(5), 2002, 566-579.

المُجتمع، ما يُؤدّي في النهاية إلى تناقض ذاتي متعلّق بالجسم. وبالتالي، فإنّ ذلك يُسبّب تغييرات عاطفيّة ونفسيّة وسلوكيّة لدى الفرد. على سبيل المثال، عندما ترى المرأة نفسها على أنّها بدينة ولديها صورة الجسم المثاليّة مثلاً، تلك التي تحتوي على بنية منخفضة الدهون ورقيقة، فإنّها قد تنخرط في سلوكيات مثل اتّباع نظام غذائيّ وممارسة الرياضة وما إلى ذلك⁽¹⁴⁾.

4 - نظريّة المخطّط الاجتماعيّ (1990): استند كانتور (1990) إلى النهج المعرفي في نظريّته، فرأى أنّ البشر يعطون الاستجابة لمحفّزات معيّنة مع نظام داخليّ لهياكل المعرفة (المخطّطات)، ويتمّ تخزين هذه المخطّطات ضمن الذاكرة الطويلة المدى. هذه المخطّطات الذاتيّة تُساعد على دمج أفكار الشخص ومعتقداته حول ذاته ويُمكن تطويرها لجوانب وخصائص متنوّعة في شخصيّة مثل الخصائص الجسديّة والأدوار الاجتماعيّة والسمات الشخصية وما إلى ذلك⁽¹⁵⁾. ويتمّ إنشاء هذه المخطّطات عندما يقوم الشخص بتقييمات وتصنيفات حول الخصائص الجسديّة والسلوكيّة التي يتأثر بها أو يصنعها بنفسه ومن خلال الآخرين. على سبيل المثال، عندما يتمّ إطلاق كُنَيَات وأسماء مستعارة على الشخص تحمل معاني السمين أو القبيح وما إلى ذلك، فهو/هي قد يبدأ في إدراك نفسه/نفسها على هذا النحو وقد يتبنّى سلوكيات مثل اتّباع نظام غذائيّ، أو وضع مكياج مفرط، إلخ⁽¹⁶⁾.

ب - الفتيات في مُدن الصراع العراقيّة

لأجل فهم أوضاع الفتيات المُراهقات في مُدن الصراع المسلّح العراقيّة، لا بدّ من معرفة الجذر التاريخيّ لهذه الأوضاع من خلال قصص الانتهاكات التي تعرّضت لها النساء، وبخاصّة الفتيات دون سنّ (18) سنة، وتطوّر هذه الانتهاكات التي وصلت إلى حدودها القصوى وأنتجت تغييراً واضحاً لدور النساء وصوتهنّ سياسياً واجتماعياً

(14) Vartanian, L.R., «Self-Discrepancy Theory and Body Image. Encyclopedia of Body Image and Human Appearance», *Human Appearance*, 2, 2012, 711-717. doi: 10.1016/B978-0-12-384925-0.00112-7.

(15) Stein, K.F., «Schema Model of the Self-Concept», *Journal of Nursing Scholarship*, 27(3), 1994, 187-193. <https://deepblue.lib.umich.edu/bitstream/handle/2027.42/69219/schemamodeloftheselfconcept.pdf?sequence=1>

(16) Fisher, E., Dunn, M., and Thompson, J.K, *ibid*, 2002, 577.

واقتصادياً؛ فهذه المُدن ما زالت تعجّ بآثار الصراع المسلّح، من دمارٍ وخرابٍ طاولَ الإنسان والمؤسّسات والمرافق الرسميّة والمدنيّة كافّة.

تعود جذور الانتهاكات في مُدن الصراع المسلّح في العراق إلى 9 نيسان 2003؛ فعلى إثر غزو العراق من قِبَل قوَّات التحالف التي أسقطت النظام البعثي الصّدامي، الذي كان قد تفرّد بالسلطة ومارَسَ شتّى أنواع الانتهاكات بحقّ الشعب العراقيّ، تعرّضت مُدن العراق لشتّى أنواع العنف والتطرّف والإرهاب والاحتراب السياسيّ بسبب انهيار مؤسّسات الدولة والتفُلت الأمنيّ وغياب سلطة القانون. وكان ذلك عاملاً مشجّعاً لاندلاع العنف من قِبَل الجماعات المتطرّفة تحت ذرائع سياسيّة ودينيّة واجتماعيّة شتّى، كما كان لتسلُّل عناصر تنظيم القاعدة إلى الداخل العراقيّ في ظلّ انفلات الأمن الحدوديّ آثار سيّئة تجلّت في انتهاكاتٍ جديدة لحقوق الإنسان بعامّة وحقوق المرأة بخاصّة⁽¹⁷⁾. فقد تعرّضت الكثير من الفتيات القاصرات في مُدن شتّى من محافظات الأنبار والموصل وديالى إلى التزويج القسريّ خارج إطار القانون من طرف عناصر تنظيم القاعدة تحت تهديد السلاح أو من طريق مُبايعة ذكور العائلة لهذه العناصر، على الرّغم من أنّها مجهولة الاسم والهويّة وتُعرف بكنياتها التي أطلقها عليها التنظيم فقط. وبعد مقتل أو هرب هذه العناصر، وأحياناً مع ذكور العائلة الموالين والمُبايعين لها، كانوا يتركون خلفهم مئات القاصرات اللواتي يجهلن مصيرهنّ كمتزوّجات أم كمغتصبات أم كأرامل، ومعهنّ أطفالهنّ المجهولي نسب الأب، ومن دون أوراق ثبوتيّة رسميّة. لذا حرّموا من حقوق التعليم واكتساب الجنسيّة العراقيّة⁽¹⁸⁾. ومن بين هؤلاء الأطفال عددٌ لا يُستهان به من الإناث⁽¹⁹⁾. واللّافت أنّ الحكومة ووسائل الإعلام والمُجتمعات المحليّة تكتّمت في حينها عن هذه الانتهاكات بوصفها وصمة عار اجتماعيّة بحقّ سكّان المدينة، وبقيت قصص هذه الانتهاكات تُسرد

(17) ميلاد الجبّوري، «أطفال القاعدة ينشرون الرعب وينفّذون المهّمات بحريّة الكبار»، الحياة اللّندنيّة، إيلاف، متاح

على: <https://elaph.com/Web/NewsPapers/2010/11/612340.htm>

(18) اري، دلوفان؛ جهاد، سلام، «أطفال مقاتلي القاعدة في العراق: ضحايا بلا هويّة يُهدّدون بظهور جيل جديد من

المتطرّفين»، جريدة الحياة اللّندنيّة، 1. (17، 3، 2013). NIRIJ، متاح على: <https://nirij.org>

(19) «أطفال القاعدة في العراق يدفعون ثمن أخطاء آبائهم»، واشنطن بوست، (22، 9، 2010)، رابطة المرأة العراقيّة، متاح

على:

<https://iraqiwomenleague.com/mod.php?mod=news&modfile=item&itemid=5007#.YJ7qdBrXLIV>

محليًا كحكاياتٍ مُخزيةٍ مِنْ قِبَلِ شهود عيانٍ محلّين كانوا قد واكبوا هذه الأحداث وعلى معرفة بهؤلاء الفتيات وأسْرهنَّ، ولم تنفض هذه الانتهاكات على مستوى العراق والمنطقة والعالم إلّا بعد مرور ثمانية أعوام على انسحاب تنظيم القاعدة من تلك المُدن. وقد عمدت بعض الأسر إلى تسجيل الطّفل باسم والد الأم أو والدتها، فيما نَزَحَ بعض هذه الفتيات الضحايا إلى مُدن أخرى داخل أو خارج العراق طلبًا للمأكل والمأوى وهربًا من الوصمة الاجتماعية لهنّ ولأطفالهنّ. ولم تتمكّن الباحثة من الحصول على إحصائيات دقيقة من جهات رسميّة لتعرف مصير هؤلاء الفتيات الضحايا وأطفالهنّ. لكنّ، وبعمليّة حسابيّة بسيطة، يُمكن القول إنّ مئاتٍ من هؤلاء الأطفال، ذكورًا وإناثًا، الذين وُلِدوا بين العام 2004 و2011 وتتراوح أعمارهم حاليًا بين 11 و18 سنة، لا زالوا مجهولي المصير، ومن دون مُعالجاتٍ قانونيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو تربويّة لأوضاعهم.

ولأنّ مُرتكبي هذه الانتهاكات بحقّ النساء والفتيات القاصرات قد أفلتوا من العقاب، ولأنّ مَنْ نال منهم عقابًا جنائيًا كان قد ناله ضمن سياق إدانة العمليات الإرهابيّة التي قام بها وتجرّيمها وليس لارتكابه جرائم الاغتصاب والزواج القسريّ من قاصرات، ولأنّ العراق لم ينضمّ إلى المحكمة الجنائيّة الدوليّة ومعاهدة روما⁽²⁰⁾، بقيت هذه الجرائم من دون رادع أو عقاب، فكان من الطبيعيّ أن تتكرّر في صفحة إرهابٍ جديدة.

بعد أفول صفحة القاعدة تكرّرت قصص الانتهاكات مع الفتيات القاصرات بكلّ مأسويّتها مع استفحال تنظيم «دولة العراق والشام الإسلاميّة» المعروف بـ «داعش» الذي فرض سيطرته بدايةً على مدينة الموصل، وهي مركز محافظة نينوى شماليّ العراق وثانية كبريات المُدن العراقيّة. فقد تكلّلت هذه السيطرة بسقوط المدينة بيد تنظيم داعش في 10 يونيو/حزيران 2014 ليتمدّد بعدها إلى مُدن عدّة من محافظات كركوك وديالى وصلاح الدين والأنبار. استمرّ تمدّد تنظيم داعش في الموصل ثلاث سنوات كاملة، شهدت فيها المدينة ما لم تشهده أيّ مدينة أخرى منذ الحرب العالميّة الثانية؛ إذ إنّ خلال هذه الفترة فقط، خرجت الموصل ومحافظة نينوى من معادلة المُدن، وباتت تُحكّم بالحديد والنّار، وشهدت مقتل آلاف المدنيين، فضلًا عن الاعتداءات على النساء واغتصابهنّ وسبيهنّ.

(20) ارفع صوتك، «ناشطون: عدم انضمام العراق إلى المحكمة الدوليّة سلّب ضحايا داعش حقوقهم». 1 أيلول/سبتمبر

2016 متاح على: <https://bit.ly/3LfmkBF>

فقد تعرّضت آلاف النساء الإيزيديّات والمسيحيّات لشتّى أنواع الانتهاكات التي يندى لها الجبين الإنسانيّ⁽²¹⁾، وانتشرت في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعيّ قصص هذه الانتهاكات التي استمرّت إلى ما بعد عمليّات التحرير العسكريّ التي بدأت في 17 أكتوبر/تشرين الأوّل 2017 ودامت قرابة عام⁽²²⁾. وأثارت هذه القصص - وما زالت - رُعب العوائل في تلك المُدن خوفاً على بناتهنّ من الخطف والسبي والاعتصاب والقتل، وهو ما تسبّب في منع الكثير من الأهالي لبناتهنّ من الالتحاق بالدراسة أو حتّى الخروج من البيت⁽²³⁾. وأثار انتشار كتيّبات داعش وتعاليمه حول قضايا النساء الرعب، وبخاصّة في ما يتعلّق بالعمل بموجب قاعدة «جواز بيع وشراء ووهب السبايا الإماء، لكونهنّ محض مال يُمكن التصرّف به... وجواز وطء الأُمّة التي لم تبلغ الحلم إذا كانت صالحة للوطء، أمّا إذا لم تكن صالحة له فيكتفى بالاستمتاع بها من دون الوطء... ويجوز ضرب الأُمّة تأديباً»⁽²⁴⁾.

إنّ العيش في أتون نيران ذاكرة الحروب والصراعات والعنف المستمرّ بأشكاله كافّة، لا بدّ أن تكون له آثاره النفسيّة والجسديّة والاجتماعيّة والجندريّة على شخصيّة الطّفلات والفتيات المُراهقات، وهو الأمر الذي نُحاول دراسته في هذا البحث.

سادساً: منهج البحث وأدواته الإجرائيّة

1 - المنهج والتقنيّات: استخدمنا في البحث الحالي ما يأتي:

أ - المنهج الوصفّي: لملاءمته طبيعة الموضوع، إذ يخدم هذا المنهج الدراسات التي تهتمّ بجمع المعلومات والحقائق المرتبطة بمشكلات وقضايا تخصّ شريحة محدّدة من المُجتمع البشريّ وبتلخيصها وتحليلها، وذلك لدراستها على نحو دقيق؛ كما استخدمنا

(21) «ماذا حدث منذ سيطر تنظيم «الدولة الإسلاميّة» على الموصل؟» BBC. متاح على:

https://www.bbc.com/arabic/middleeast/2015/06/150610_is_fall_mosul

(22) «العراق يُعلن «انتهاء الحرب» ضدّ داعش، «الحرّة» 1. متاح على: <https://www.alhurra.com/iraq/2017/12/09> أو

<https://arbne.ws/3uEs7Lj>

(23) مُعانة نساء العراق تحت حُكم داعش، «مرصد حقوق الإنسان» 2016، متاح على:

<https://www.hrw.org/ar/news/2016/04/06/288200>

(24) «تنظيم الدولة الإسلاميّة يوزّع كتيّب «السبي والرقاب» على مقاتليه». المرصد السوري لحقوق الإنسان، (15 12،

2014). تمّ الاسترداد من: <https://bit.ly/3sq8u6V>

منهج الخبرة في وصف الظاهرة وتحليلها من خلال الحصول على استجابات لعينات ذات علاقة وامتداد بمتغيرات البحث الحالي.

ب - أسلوب الملاحظة والمقابلة: أجرينا سلسلة من اللقاءات الحوارية عبر برنامج واتس آب لجمع المعلومات عن طبيعة الأوضاع الثقافية والاجتماعية والأمنية في كل محافظة من محافظات العراق المحددة ضمن البحث الحالي، وحددنا في ضوءها طبيعة الأسئلة المتضمنة في الاستبانة ونوعها بموضوعية وواقعية. ثم أجرينا سلسلة من اللقاءات مع أفراد العينة.

2 - عينة البحث: اختيرت عينة الفتيات بالطريقة القصدية حيث تم تحديد الفئة العمرية للفئة ثم الحصول على موافقة والدتها على شمول ابنتها بعينة البحث واستجابتها لأسئلة استبانة المقابلة. وتكونت عينة البحث من (120) فتاة (انظر الجدول 1)، وقسمت إلى فئتين (بحسب تعريف الأمم المتحدة للمراهقة): الفتيات في مرحلة المراهقة المبكرة ضمن الفئة العمرية (10 - 14) سنة، والفتيات في مرحلة المراهقة المتأخرة ضمن الفئة العمرية (15 - 19) سنة، وبواقع (3) مشاركات من كل عمر (4 أعمار) من كل فئة عمرية، ومن كل محافظة وبمجموع كلي (120) فتاة.

الجدول (1)

توزع أفراد عينة البحث

ت	المحافظة	عدد المراهقات بأعمار (10 - 14)	عدد المراهقات بأعمار (15 - 19)	مجموع المراهقات
1	الموصل	12	12	24
2	صلاح الدين	12	12	24
3	ديالى	12	12	24
4	كركوك	12	12	24
5	الأنبار	12	12	24
المجموع		60	60	120

استبانة المقابلة: لقد أعددنا استبانة مقابلة للفتيات، تتضمن كل منها خمسة مجالات هي: وصف المراهقة لذاتها، والصحة، وقصة البلوغ، والجانب الاجتماعي، وحزمة العنف والاعتداء والتحرش والاعتصاب. وتضمن كل مجال عدداً من الأسئلة الرئيسة بلغ مجموعها (22) سؤالاً، وتفرّع من كل سؤال عدد من الأسئلة الثانوية للحصول على إجابات على نحو معمّق وبحسب متطلبات البحث وطبيعة أهدافه وعيّنته وخلفيته العلمية المنشودة.

2 - صدق الاستبانة وثباتها: لأجل التحقق من الصدق الظاهري للاستبانة، عُرضت على مجموعة من الخبراء والمتخصصين في التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع ومكافحة الإرهاب الذين بلغ عددهم (15) خبيراً وخبيرة. جرى الأخذ بملاحظاتهم، وأُجريت على الاستبانة بعض التعديلات البسيطة التي اتّفق عليها الخبراء بنسبة 80%. وللتحقق من ثبات الاستبانة، جرى تطبيقها على (24) فتاة، ثم تحليل الإجابات كمّيّاً ونوعيّاً من قبلنا ومن قبل باحثة أخرى. واستعملنا طريقة «ألفا كرونباخ» في تحليل التباين لبعض الإجابات عن الاستبانة والتي كانت متدرّجة البدائل، وأنّضح أنّها بنسبة 0,86، وبنسبة اتّفاق بين التحليلين 77%، وهي نسب ثبات واتّفاق جيّدة.

3 - التطبيق النهائي: جرى التطبيق النهائي للاستبانة خلال المدّة من (2020/12/15) لغاية (2021/3/18)، وهذه المدّة طويلة نسبياً بسبب إجراء المقابلات من قبل الباحثتين مع أفراد العيّنة في (5) محافظات عراقية بعيدة عن بغداد، وتُعاني، ولا تزال، من أوضاع أمنيّة صعبة نسبياً، ما تطلّب بقاء الباحثتين في كلّ محافظة مدّة لا تقلّ عن (3) أيام فضلاً عن يومي السّفر، وتنظيم مواعيد الزيارات لعائلة المبحوثات، حيث استغرق تطبيق كلّ استبانة معدّل ساعة تقريباً.

4 - أخلاقيات البحث: نظراً لحساسية موضوع البحث بالنسبة إلى الثقافة المحلية في العراق، ولكون عينة البحث من الفتيات دون سن 18 سنة وأمّهاتهن، لذا فقد اعتمدت الباحثة أولاً على مفاتحة أمّهات الفتيات بأهداف البحث وطبيعة موضوعه وإجراءاته، وأنه لا يتطلب ذكر الأسماء أو أي إشارة إلى هوية المبحوثات وأن الإجابات ستبقى مخصصة لأغراض البحث العلمي، ويمكن للمبحوثة أن تمتنع عن الإجابة عن أي سؤال أو تعتذر عن تكملة الإجابات، وأن الإجابة عن الاستبانة ستكون من خلال مقابلة فردية

بكل مبحوثة سواء أكانت الفتاة أم أمها، وطلبت منهن مفاتحة بناتهن أيضاً للحصول على موافقتهن مسبقاً، وكذلك عمدت الباحثات إلى تضمين هذه القيود الأخلاقية في ديباجة استبانة المقالة، وقراءتها واستحصال موافقة المبحوثة مباشرة قبل تطبيق الاستبانة.

سابعاً: عرض النتائج وتفسيرها

1 - نتائج إجابات أمهات الفتيات: بعد تحليل الإجابات اتضح، وبحسب ما تُظهر نسبُ الإجابات، وجود ضعف بشكل عام في أساليب تعامل الأمهات مع بناتهن حول قضايا البلوغ والحماية من العنف والإرهاب.

السؤال الأول: كيف تعاملت مع قصة بلوغ ابنتك؟ هل حدّثتها عن هذا الموضوع مسبقاً؟ هل تحدّثت هي معكِ حوله؟ وكانت الإجابات:

أ - لم أكلمها بالموضوع لأنني أتحرج من الكلام بهذه الأمور معها - بنسبة 63%.
ب - عرفتُ من خلال أعراض الألم التي كانت تعاني منها، ووجّهتها ماذا تعمل بشكل غير مباشر - بنسبة 21%.

ج - طلبتُ منها أن تُخبرني إذا شعرت بأن لديها ألماً في بطنها - بنسبة 12%.
د - أعتقد أنها تعرف عن طريق أختها الأكبر كيف تتصرّف بهذه الأمور - بنسبة 4%.
السؤال الثاني: كيف تعاملت مع ابنتك في ظلّ قصص الإرهاب والعنف إزاء النساء في مدينتك؟

أ - كنتُ خائفةً عليها وعلى نفسي ولا أستطيع الكلام معها لكي لا تنصدم - بنسبة 43%.

ب - منعناها من الخروج من البيت لأيّ سبب كان - بنسبة 30%.
ج - عند سماعنا بسببي الإيزيديّات صارت هي ترفض الخروج من البيت - بنسبة 27%.

السؤال الثالث: هل تهتمّين بالتغيّرات التي حدثت لجسم ابنتك؟ مثلاً نوع ملابسها كفتاة وليس كطفلة؟ توفير حمالات للصدر؟ توفير حفاظات نسائية لأيام دورتها الشهرية؟
أ - ليس لدينا المال الكافي لشرائها ونكتفي عادةً بما هو متوافر لدينا في البيت - بنسبة 86%.

ب - لم تطلب منّي أي شيء من هذا وهذا يعني أنّها دبّرت حالها - بنسبة 14%.

2 - نتائج إجابات الفتيات: بعد تحليل الإجابات اتّضح أنّ معظم الفتيات يُعانيّن من صورة سلبية عن ذواتهنّ كإناث، وأنّهنّ يُعانيّن من اضطراب صورة الجسد والقلق المصاحب له، وظهرت أعلى النسب، وبحسب الترتيب، في كركوك، فالموصل، فديالى، فصلاح الدّين، ثمّ الأنبار. وهذه الإجابات كانت بنسبة 65% فأكثر، وجاءت على النحو الآتي:

أولاً: وصف المُراهقة لذاتها: لا تعرف معظم الفتيات ما هي الأشياء التي ينبغي عليهنّ أن يفتخرن بها لكونهنّ فتيات. أمّا أكثر الصفات الجيدة التي وصّفن بها أنفسهنّ واعتقدن أنّ الآخرين يرونها فيهنّ فكانت صفاتٍ مثل: مؤدّبة، ومطبعة، وبنت عائلة شريفة. وعبّرت معظم الفتيات عن أنّهنّ لا يشعرن بالسعادة لأنّهنّ إناث، لأنّ ذلك يشكّل عبئاً وهماً على أهلهنّ إلى حين زواجهنّ. وبدا أنّ الفتاة منهنّ لا ترى نفسها جميلة مثل البنات في العاصمة بغداد، اعتقاداً منها أنّ لفتيات العاصمة ملابس أجمل وأنّ عوائلهنّ تسمح لهنّ بوضع المكياج، فيما هنّ يتمنّين لو يستطعن تغيير قصّات شعرهنّ ولكنّهنّ يخجلنّ من القيام بذلك لأنّه يعني أنّهنّ أصبحنّ جاهزات للزواج (عرائس) أو يرذنّ ذلك، وهذا ما يُعيب الفتاة التي تكون بمثل هذا العمر في مُجتمعها. كما أنّ معظم المبحوثات كنّ يجهلنّ معنى احترام المرأة لذاتها كأنثى، إذ اتّفقت معظم إجابات الفتيات على أنّ احترام الفتاة لذاتها كأنثى يُقصد به أن تكون مطيعة لأهلها وألاّ تتدخّل في أمور الكبار وأنّ تُحافظ على سمعة أهلها وشرفهم. أمّا احترام الرجل لذاته كذكر فيُقصد به، من وجهة نظر المبحوثات، أن يعمل ويتزوّج ويُنجب أطفالاً، وأن يحبّ زوجته وأطفاله وبيته.

ثانياً: الصّحة: ليس للمبحوثات مُشاركات في أنشطة رياضيّة داخل البيت أو خارجه. وهنّ لا يعرفنّ كيف يقوم الجسم بوظائفه. وعندما لاحظ معظمهنّ التغيّرات التي طرأت على أجسامهنّ قبل البلوغ صرّنّ يخجلنّ من الظهور أمام رجال العائلة، مع محاولات لإخفاء بروز الصدر وأحياناً ارتداء الحجاب حتّى في البيت. وفي ما يتعلّق بالغذاء، فإنّ الفتاة منهنّ لا تطلب أي نوع محدّد وإنّما تقنع بما تأكله العائلة. وأعربت الفتيات عن شعورهنّ بأنّ أوزانهنّ انخفضت عن ذي قبل بسبب البلوغ لأنّهنّ كبرنّ وصرّنّ أطول من السابق ولأنّ نموّ طول الإنسان يُقلّل من وزنه. كما تُراعي الفتاة منهنّ شروط نظافة جسمها

وملابسها الداخلية في أثناء دورتها الشهرية ولكنها تُعاني من إخفاء حفاظاتها النسائية. وعبرت معظم المبحوثات عن فهمهن البسيط لموضوعات الإخصاب والحمل والإنجاب والرّضاة والعقم والأمراض التناسلية المُعدية، والذي يأتيهن من برامج التلفزيون.

ثالثاً: قصّة البلوغ: معظم المبحوثات لم يكن لديهنّ معلومات عن موضوع البلوغ، وشعرنّ بالرّعب عندما شاهدنّ ملابسهنّ الداخلية ملوّثة بالدماء، واستعنّ بصديقات أو بإحدى القريات لفهم الموضوع ولمعرفة ماذا عليهنّ فعله لئلاّ يكتشف أحد في العائلة سرهنّ. فهنّ لم يكننّ سعيدات بموضوع البلوغ إطلاقاً ويشعرنّ بالقرص ويتمنّين لو بقينّ طفلات.

رابعاً: الجانب الاجتماعي: وصفت معظم الفتيات أنّ علاقتهنّ بذكور العائلة جيّدة ولكنهنّ يخافونهنّ لأنهنّ يضربونهنّ. وأكثر من يضربهنّ همّ الأم والأخ يليهما الأب ثمّ العمّ أو الخال. وتستعمل الفتاة منهنّ موبايل والدتها للمكالمات الهاتفية ولإرسال رسائل لصديقاتها فقط أو لمشاهدة بعض المسلسلات التي تتابعها. كما تعتقد الفتاة أنّ أهلها يعرفون أنّها بلغت كفتاة ولكن لا أحد يُمكن أن يتكلّم بهذه الأمور. وعن موقف المُجتمع من الفتيات اللّواتي في مثل أعمارهنّ كانت جميع الإجابات: أنّه مُجتمع ظالم يسمح للولد بأن يعمل كلّ شيء ويمنع البنت من أيّ شيء.

خامساً: العنف والاعتداء والتحرّش والاعتصاب: أجمعت كلّ المبحوثات على أنّ أفضل وسيلة للمحافظة على جسمهنّ من التحرش والاعتداء هو أن لا يخرجنّ من البيت، وألا يتكلّمنّ مع رجل غريب، وأنهنّ عندما سمعنّ بقتل الاعتصاب والخطف والأسر والزواج القسريّ الذي تعرّضت له بعض الفتيات في مدينتهنّ شعرنّ بالخوف الشديد، وتمنّين لو بقينّ طفلات، وأنهنّ يحلمنّ دائماً بكوابيس أو تأتيهنّ أحلام يقظة غالباً ما تكون موضوعاتها: اختطافهنّ أو اغتصابهنّ أو قتلهنّ وأنّ أفضل وسيلة للفتاة لكي تحمي بها نفسها هي عدم خروجها من البيت حتّى تتزوّج. وعبرت معظم المبحوثات عن خوفهنّ من الاعتصاب وعن أنّهنّ يتمنّين الموت قبل أن يواجهنّ مثل هذا الموقف. وأجمعت المبحوثات على عدم شعورهنّ بالأمان تجاه أيّ رجل غريب سواء أكان داعشياً أو متنفّذاً في منطقة سكنهم أو حتّى من القوّات الأمنيّة؛ فهنّ لا يثقنّ بأيّ رجل غريب، ويتوقّعن من أيّ رجل غريب أن يخطفهنّ ويعتدي عليهنّ. فمجرّد التفكير بموقف كهذا تشعر الفتاة

بالرعب. وقد رَدَّت الفتيات هذا إلى صغرِ سنِّهنَّ الذي يجعل الرجال يطمعون بأجسادهنَّ كإناث، سواء أكانت الفتاة جميلة أم لا. وتمنَّت معظم الفتيات أن يتزوَّجنَّ للتخلص من طَمَع الإرهابيين بأجسادهنَّ، وأنَّ يَعِشْنَ في مكانٍ آخر خالٍ من الإرهابيين سواء أكان خارجَ مدينتهنَّ أم خارج بلدنَّ. فالمهمَّ بالنسبة إليهنَّ هو أن يَكُنَّ مطمئنَّات وألاَّ يحلُمَنَّ بمسلحين يقتلون آباءهنَّ ورجال عوائلهنَّ ويغتصبونهنَّ ثمَّ يقتلونهنَّ.

وعن السَّؤال الأخير: هل تحبِّين جسدك؟ هل تريينه جميلاً بعد بلوغك؟ أجابت معظم الفتيات بـ «لا... لأنَّه سبب عذابي وقد يكون السبب بقتل عائلي وقتلي أو بوصم أهلي جميعهم بالعار طول العمر».

بناءً على كلِّ ما تقدَّم، انتهى البحث ببعض التوصيات التي كان من أبرزها:

- 1 - بناء برنامج مُحوسب مُتسلسل المراحل للصحة النفسيَّة والإنجابيَّة والتعافي من القلق وتدني احترام الذات وتحسين صورة الجسد لدى الفتيات في مرحلتَي المُراهقة المبكرة والمتأخِّرة، على أن يُقدَّم البرنامج لهنَّ أونلاين مع خطَّة تقييم التعافي المُحرز منه.
- 2 - دعم المنظَّمات غير الحكوميَّة وتشجيعها على تطوير مهارات الفتيات المُراهقات وقدراتهنَّ في المجالات العمليَّة والمهنيَّة كافَّةً ومحو الأميَّة الأبجديَّة والإلكترونيَّة.

قاصرات نازحات في

مواجهة تحدّيات

الحرب الإسرائيليّة على

قطاع غزّة في أيّار/مايو

2021

مقدّمة

منذ بداية الحصار الإسرائيليّ المفروض على قطاع غزّة عام 2007 حتّى اليوم، عاش ما يزيد على مليونيّ فلسطينيّ أربع حروب مدّمرة من حيث عدد الشهداء والخسائر الماديّة، كذلك عانوا من التصعيدات العسكريّة المتفرّقة التي تحدث بين الاحتلال الإسرائيليّ والفصائل الفلسطينيّة بين الفينة والأخرى، ما يجعل سكّان القطاع يعيشون حالة طوارئ دائمة مترافقة مع الحصار المستمرّ والمفروض على حركة التنقّل والاستيراد والتصدير. تكبّد الفلسطينيون في غزّة خسائر بشريّة كبيرة خلال الأعوام الأربعة عشر الماضية، فقد استشهد ما بين عاميّ 2008 و2021 نحو 5297 فلسطينيّاً من بينهم 579 امرأة و259 فتاة⁽¹⁾. وقد كانت الحرب الرابعة التي شنها الاحتلال الإسرائيليّ على قطاع غزّة في 10 أيّار/مايو 2021، والتي استمرّت لأحد عشر يوماً، هي الأشدّ منذ العام 2014. وكانت قد اندلعت شرارة هذه الحرب خلال شهر رمضان، وتحديدًا في 13 أبريل/نيسان 2021 في مدينة القدس المحتلة، ثم

(1) Ocha, «Data on casualties», last visited on November 11.2021, Data on casualties | United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs-occupied Palestinian territory (ochaopt.org).

أخذت تتدحرج إلى الضفة الغربية والمُدن العربية داخل الأراضي المحتلة عام 1948، ثم قطاع غزة. وكانت المُواجهات قد بدأت بعد اعتداء قوّات الاحتلال الإسرائيلي على عشرات الفلسطينيين ومنعتهم من التواجد في ساحة «باب العمود» في القدس المحتلة، واشتدّت مع دعوة جماعات إسرائيلية متطرّفة إلى «حرق العرب»، والتداعي لاقتحام واسع للمسجد الأقصى في 28 رمضان، كلّ ذلك بالتزامن مع التهديد بإخلاء أسر فلسطينية قسراً من منازلها في حيّ الشيخ جراح⁽²⁾. ووفقاً لمفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان، استشهد في هذه الحرب 261 فلسطينياً من قطاع غزة، من بينهم 67 طفلاً و41 امرأة، وأصيب أكثر من 2,200 فلسطيني بجروح، من بينهم 685 طفلاً و480 امرأة، وبعضهم قد يعاني من إعاقة طويلة الأمد تستدعي إعادة التأهيل⁽³⁾.

في ذروة هذه الحرب الرابعة، التمس 113,000 فلسطيني المأوى والحماية في المدارس التابعة لوكالة الأونروا أو لدى أسر لاستضافتهم⁽⁴⁾. واللافت أنّه حتّى شهر أيلول/سبتمبر 2021، كان لا يزال 8250 شخصاً مهجّراً يمكنون لدى أسر تستضيفهم أو في شقق مُستأجرة في غزة⁽⁵⁾. فلقد تسبّبت القيود المفروضة على استيراد مواد البناء ونقص التمويل في تأخير عملية إعادة البناء ما زاد من أمد التهجير.

لم يكن عامل الأمان هو العامل الوحيد الذي اختار على أساسه الغزيون المكان الذي ينزحون إليه، فلقد واجهوا جميعاً تحديات عدّة أبرزها العامل المادي؛ فمعدّلات الفقر في قطاع غزة هي الأعلى في الأراضي الفلسطينية، حيث بلغت نسبة الفقر في القطاع قبل اندلاع الحرب الأخيرة 75% بحسب جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني، ما يعني أنّ كثيراً من العائلات نزحت إلى المدارس أو لدى أسر مُستضيفة، بسبب عدم مقدرتها

(2) عوض رجب، «عدوان إسرائيل 2021 على غزة.. تسلسل زمني»، وكالة الأناضول، متاح على: عدوان إسرائيل 2021 على غزة.. تسلسل زمني (aa.com.tr).

(3) نشرة الشؤون الإنسانية | تشرين الثاني/نوفمبر 2021 - «غزة بعد تصعيد أيار/مايو»، أوتشا، متاح على: نظرة عامة | تشرين الثاني/نوفمبر 2021 | مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية - الأراضي الفلسطينية المحتلة (ochaopt.org).

(4) المرجع نفسه.

(5) «الاستجابة لحالة التصعيد في الأرض الفلسطينية المحتلة»، أوتشا، متاح على: الاستجابة لحالة التصعيد في الأرض الفلسطينية المحتلة | تقرير الحالة) العاشر (أيلول/سبتمبر 2021) | مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية - الأراضي الفلسطينية المحتلة (ochaopt.org).

على استئجار شققٍ سكنية. أيضًا يقوم العامل الأمني بدورٍ في اختيار مكان النزوح، إذ ترفض بعض العائلات تأجير منازلها لبعض الغزيين خوفًا من أن تكون عائلاتهم مرتبطة بالفصائل، ما يُمكن أن يُعرض بقيّة السكّان لخطر الاستهداف. كما يعطي الغزيون معنًى اجتماعيًا لمكان النزوح خصوصًا لأماكن مثل مدارس الأونروا، ويأخذون بالاعتبار قدرة الأسر المستضيفة على فصل النساء عن الرجال في منازلهم. كلّ هذه الاعتبارات المعقّدة تتشابك معًا في أثناء اتّخاذ القرار بالنزوح، وتلقي بظلالها على الفئات الأكثر هشاشة في العائلة (النساء والفتيات)، وتضعها أمام تحدّيات صعبة ومعايير اجتماعية صارمة ينتجها التمييز الجندري والطبقي، خصوصًا أنّ التحديّات المختلفة لدى النساء والرجال، الفتيان والفتيات تظهر تحديدًا في أثناء الحروب والنزوح⁽⁶⁾، كما أنّ النزاعات المسلّحة تُسبّب في تعميق عدم المساواة بين المجموعات العرقية، وفي مضاعفة التمييز ضدّ المجموعات المهمّشة⁽⁷⁾.

إنّ أكثر فئة عايشة فترة الحصار والحروب في قطاع غزّة هي فئة المُراهقين والمُراهقات الذين يشكّلون نسبة 41.3% من سكّان القطاع، أي أنّ أغلبهم ولدوا في فترة الحصار وعاشوا الحروب الأربع التي كان من أبرز معالمها النزوح البشري من المناطق الشرقية للقطاع إلى المدارس التابعة لوكالة الغوث وتشغيل اللاجئين، أو إلى عائلات مستضيفة أو إلى بيوت مستأجرة. كما كانت للمُراهقات الإناث مُعاناةً على نحو خاصّ، نظرًا إلى خصوصيّة وضعهنّ في المُجتمع الغزيّ المُحافظ. هؤلاء المُراهقات اختبرن ظروفًا قاسية وغير مألوفة حتّى بالنسبة إلى الفئات العمرية الأخرى، لذا ستركّز هذه الورقة على تحدّيات المُراهقات في أماكن النزوح خلال الحرب التي شتتها الحكومة الإسرائيلية في مايو/أيار من العام 2021 على قطاع غزّة واستمرّت لمدة 11 يومًا. ومن أبرز الأسباب التي جعلت الغوص في هذا البحث مغريًا، هي فرادة الشرط الفلسطيني، فإن الفتيات اللواتي في عمر المراهقة الآن، قد اضطررن على الأقلّ لمعيشة ثلاث أو أربع حروب تتالت على قطاع غزّة⁽⁸⁾ (عام

(6) McKay, S., «The effects of armed conflict on girls and women», *Peace and Conflict*, 4(4), (1998): 381-392.

(7) Kudakwashe, M. A., & Richard, B., «Causes of armed conflicts and their effects on women», *International Journal of Research* (2015): 77.

(8) علا عطا الله، «3 حروب إسرائيلية على غزّة (إنفوجرافيك)»، وكالة الأناضول، متاح على: 3 حروب إسرائيلية على غزّة (إنفوجرافيك) (aa.com.tr).

2008 - حرب عام 2012 - حرب عام 2014)⁽⁹⁾ والحرب الأخيرة عام 2021. لجأت معظم الأسر في قطاع غزة إلى ثلاث جهات رئيسة: أولاً: إلى مدارس الأونروا، ثانياً: إلى بيوت العائلات المستضيفة، وثالثاً إلى شقق مستأجرة لمن يملك القدرة المادية لذلك. لم تكن تجربة النزوح سهلة خصوصاً على الإناث وتحديدًا المراهقات. لم يكن تنالي الحروب على قطاع غزة السبب الوحيد الذي دفع لطرح الأسئلة البحثية حول تحديات المراهقات، بل إن سلطة الذكور الكبيرة على الإناث في مجتمع محافظ، شكّلت دافعاً إضافياً لمعرفة التحديات التي قد تتفقم في أثناء الحروب أمام المراهقات خصوصاً أن الأدوار المسندة وفق الجندر والسلطة المفروضة من قبل ذكور العائلة قد تشهد تغييرات وتبدلات في أثناء فترة النزوح. كما أن العامل الديموغرافي الفريد للتركيبة السكانية في قطاع غزة كان دافعاً للبحث في التحديات التي واجهت المراهقات في غزة، إذ أكد جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني في تقرير له أن مجموع سكان قطاع غزة بلغ 2.11 مليون نسمة في منتصف عام 2021، منهم 1.07 مليون ذكر و1.04 مليون أنثى، وقدّرت نسبة الأفراد في الفئة العمرية (0 - 14 سنة) في العام نفسه بـ 41%⁽¹⁰⁾.

إنّ تبدّل الأدوار الجندرية في مجتمع فتي ومحاصر خلال فترات متقاربة، بسبب تنالي الحروب على قطاع غزة بالإضافة إلى إضفاء طابع ومفهوم اجتماعي على مكان النزوح،

(9) المصدر نفسه: بدأت الحرب الأولى في 27 ديسمبر/كانون الأول لعام 2008، شنت إسرائيل حرباً على قطاع غزة، أسمتها «الرصاص المصبوب»، فيما أطلقت عليها حركة (حماس) اسم «حرب الفرقان»، استمرت لـ 21 يوماً (انتهت في 18 يناير/كانون الثاني 2008). أما الحرب الثانية فبدأت في 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2012، حيث شنت إسرائيل حرباً ثانية على قطاع غزة أسمتها «عامود السحاب»، فيما أسمتها حركة حماس «حجارة السجيل»، واستمرت لمدة 8 أيام. أسفرت تلك العملية العسكرية عن مقتل 162 فلسطينياً بينهم 42 طفلاً و11 سيدة، وإصابة نحو 1300 آخرين بحسب وزارة الصحة الفلسطينية. أما الحرب الثالثة، فبدأت في السابع من يوليو/تموز 2014. شنت إسرائيل حربها الثالثة على قطاع غزة وأسمتها «الجرف الصامد»، فيما أطلقت عليها حركة المقاومة الإسلامية (حماس) اسم «العصف المأكول» واستمرت «51» يوماً (انتهت في 26 آب/أغسطس 2014). وعلى مدار «51 يوماً» تعرّض قطاع غزة، الذي يُعرف بأنّه أكثر المناطق كثافة للسكان في العالم (1.9 مليون فلسطيني) لعدوان عسكري إسرائيلي جوي وبرّي، تسبّب بمقتل 2322 فلسطينياً، بينهم 578 طفلاً (أعمارهم من شهر إلى 16 عاماً)، و489 امرأة (20 - 40)، و102 مسنّ (50 - 80)، كما جرح 11 ألفاً آخرون (10870)، وفقاً لإحصائيات صادرة عن وزارة الصحة الفلسطينية.

(10) «الإحصاء الفلسطيني وصندوق الأمم المتحدة للسكان يستعرضان أوضاع السكان في فلسطين بمناسبة اليوم العالمي للسكان»، الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، متاح على:

<https://www.pcbs.gov.ps/postar.aspx?lang=ar&ItemID=4023>.

يحدونا لطرح السؤال الأساسي: ما هي التحديات التي واجهت المراهقات في قطاع غزة خلال الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة أيار/مايو 2021 وعلاقتها بإمكانة النزوح؟

ثمة وراء تحديد التحديات التي واجهت المراهقات في قطاع غزة ومعرفتها، خلال نزوحهن في أيار/مايو 2021، أهداف عدة أبرزها: اكتشاف الفوارق بين تجربة المراهقات اللواتي نزلن إلى مدارس الأونروا، والمراهقات اللواتي نزلن إلى بيوت عائلات مستضيفة، وأولئك اللواتي نزلن إلى شقق مستأجرة من قبل عائلاتهن. كما تهدف الورقة إلى استكشاف الأدوار الجديدة التي أوكلت تبعاً للجنس خلال فترة النزوح والعلاقة بين مكان النزوح والأدوار المستجدة. كذلك ستتطرق الورقة إلى المسموح والممنوع في أماكن النزوح والمقارنة بينها، وإلى التحديات التي واجهت المراهقات النازحات على مستوى التعبير عن مشاعرهن ومخاوفهن، وعلاقاتهن مع العائلة النووية (الأم والأب) والعائلة الممتدة. كما ستحاول الورقة البحثية أن تبين اختلاف مصادر السلطة بحسب اختلاف مكان النزوح (مدارس الأونروا، العائلات المستضيفة، شقق مستأجرة). وستطرح الورقة أسئلة عن قدرة المراهقات على تطوير أساليب تكيفهن خلال الحرب والنزوح؟

تمت مقارنة هذه التساؤلات والأهداف من منطلقات عدة أولها: النظر إلى خطورة تحوّل بعض التحديات التي تواجه الفتيات إلى شكل من أشكال العنف القائم على النوع الاجتماعي. ففي حالات الطوارئ والنزوح تصبح النساء والفتيات أكثر هشاشة وضعفاً مع انهيار الخدمات الأساسية وتقلص سبل العيش، وقد يُحرمن أيضاً من الوصول إلى الموارد والفرص والخدمات، وهذا بحد ذاته شكل من أشكال العنف المبني على النوع الاجتماعي⁽¹¹⁾. أيضاً قد يتوقع من الفتيات تولي دور مقدّمي الرعاية لأفراد الأسرة المصابين أو المساعدة في الأعمال المنزلية التي كانت في السابق من مسؤولية أفراد آخرين، أو أن يتوقّفن عن تعليمهن من أجل أداء دور منزليّ كزوجات أو مقدّمات رعاية⁽¹²⁾. وتزداد فرصة حدوث ذلك في قطاع غزة مع تسبّب القيود المفروضة على استيراد مواد البناء ونقص

(11) Wolfgang, Gressmann, *From the Ground Up: Gender and conflict analysis in Yemen*. (Oxfam GB for Oxfam international 2016), 26.

(12) Nader Said-Foqahaa, *The Imperative of mainstreaming gender In humanitarian action In Palestine: six case studies from Gaza* (Gaza strip: UN WOMEN. 2020), 14.

التمويل بتأخير عملية إعادة البناء، ما زاد من أمد النزوح والتهجير بحسب تقرير صادر عن (أوتشا)⁽¹³⁾.

كما انطلقت هذه الورقة من أنّ الحروب المتتالية على قطاع غزة لها طبيعة دورية، تتعلق بإعادة إنتاج العواقب والتأثيرات الجندرية نفسها. كما أنّ التأثيرات وعواقب الحروب ذات الطابع الجندري لا يتأثر بها الذكور والإناث، وكبار السن بالقدر نفسه، من دون إغفال تأثر الذكور بهذه العواقب⁽¹⁴⁾. لكنّ الحرب التي شنت على قطاع غزة في أيار/مايو 2021 فاقمت من المخاطر المرتبطة بالجندر، وعوامل الهشاشة أو الضعف على مستوى الاحتياجات الإنسانية بين النساء والفتيات والرجال والفتيان في غزة، وذلك بحسب تقرير صادر عن الأمم المتحدة بُعيد عدوان 2021⁽¹⁵⁾.

أيضاً استندت الدراسة إلى عينة غرضية purposive sample، وعلى الرغم من أنّ باحثين كثيراً اعتبروا أنّ التحيز في هذه العينة هو أحد عيوبها الأساسية، إلاّ أنّه سيتمّ النظر إلى أنّ قوة هذه العينة بهذه الورقة تكمن في التحيز المتعمّد الذي تنطوي عليه⁽¹⁶⁾. هذا التحيز للفئة التي تدرسها الورقة لن يكون إنكاراً أو إغفال تأثير التركيب الجندري على الذكور، بل بالتحيز للفئة الأكثر هشاشة وهي الفتيات الإناث.

ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة تمّ تنظيم ثلاث حلقات نقاش مركّزة⁽¹⁷⁾ اثنتان نُفذتا بتاريخ 31 تمّوز/يوليو 2021 والثالثة في 5 آب/أغسطس 2021، شاركت فيها 23 فتاة تتراوح أعمارهنّ بين 12 و18 عاماً وتمّت مراعاة متغيّر العمر، ومتغيّر النزوح أيضاً (أنظر الرسم البياني رقم 1) في أثناء استخدام هذه العينة. عُقدت حلقات النقاش في مناطق حدودية في قطاع غزة (الحلقتان الأولى والثانية في بلدة «وادي السلقا» شرق مدينة دير البلح، والثالثة في المنطقة الحدودية لبلدة القرارة شرق محافظة خان يونس). تمّ أخذ موافقة الأهالي المسبقة على مشاركة أطفالهنّ في هذه الحلقات الثلاث، وأطلعوا مسبقاً

(13) تقرير أوتشا. المرجع السابق.

(14) Nader said-foqahaa, Samer said, *Gender and War in Gaza untangled: what past wars have taught us* (Gaza strip: UN WOMEN, 2021), 21.

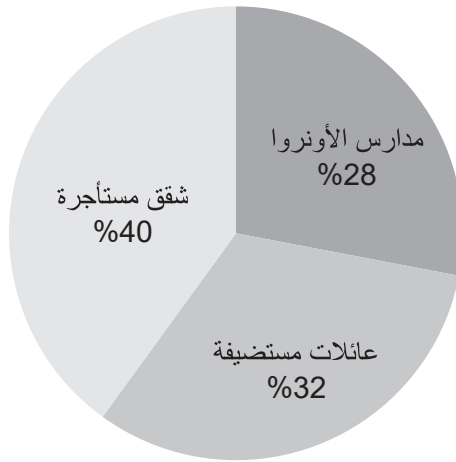
(15) Nader said-foqahaa, Samer said, *Ibid*, p. 4.

(16) Ma Dolores C, Tongco «Purposive sampling as a tool for informant selection», *Ethnobotany Research and applications*, no. 5 (2007): 147-158.

(17) شاركت ابتسام السميري في تنظيم حلقات النقاش المركّزة وإعدادها.

على محاور النقاش، كما وافقوا جميعًا على استخدام الاسم الأول الحقيقي لطفلاتهنّ وعمرهنّ والمكان الذي نزلنّ إليه. استُخدمت اللغة العربيّة خلال النقاش وتحديدًا اللهجة المحليّة لقطاع غزة، كما تم تسجيل حلقات النقاش المركز ومن ثمّ تفرّغها وتعميم الأجوبة التي تكررّت كثيرًا، باستثناء التجارب الفريدة. كما تمّت إدارة حلقات النقاش المركز الثلاث من خلال استبانة موحّدة حملت أسئلة عدّة مفتوحة مرتبطة بالحرب الأخيرة على قطاع غزة (عدوان 2021)، تمّ الحديث فيها عن التحدّيات التي واجهت الفتيات على مستويات عدّة من بينها: العناية الشخصيّة في ظلّ النزوح، العلاقة مع أفراد الأسرة، التكيف مع المكان والواقع الجديد الفروق الجندريّة والضغط النفسيّ والتعبير عن المشاعر وتمّ ربطها جميعًا بالمكان الذي تمّ النزوح إليه إنّ كان إلى منازل عائلات مستضيّفة أو شقة مستأجرة أو مدرسة تابعة لوكالة الغوث وتشغيل اللاجئيين «أونروا».

الرسم البياني رقم 1
المراهقات والفروق الجندريّة



تتعرّض النساء والفتيات في حالات الطوارئ والنزوح، لضغوط كثيرة تُحدّدها الفروق الجندريّة السائدة في المجتمع. في أثناء هذا تصبح النساء والفتيات أكثر ضعفًا مع انهيار الخدمات الأساسيّة وتقلّص سُبل العيش⁽¹⁸⁾. كما يتمّ تشديد الضوابط خلال فترة الحروب

(18) Gressmann, Wolfgang ibid, (2016), 48.

أو النزوح أو الطوارئ بشكل عام. وقد يتأثر بهذا التشديد كلٌّ من الفتيان والفتيات لكن بمستويات مختلفة، ففي حين يتمرّد المراهقون الفتيان على هذه القيود، يميل مقدّمو الرعاية إلى تركيز السيطرة على الفتيات أكثر من الفتيان⁽¹⁹⁾. يعود ذلك إلى أنّه في بعض البلدان ومناطق الحروب، مثل قطاع غزّة، فإنّ القيود المفروضة على النساء تكون بالأصل موجودة قبل النزاع كجزء من الأعراف والعادات الاجتماعية الموروثة التي تتفاقم مع النزاعات المسلّحة، حيث يؤدّي النزاع والنزوح بشكل خاصّ إلى عدم الاستقرار وإعادة تحديد أدوار الجنسين ما يؤدّي إلى مزيدٍ من الانهيار في أنظمة دعم المجتمع⁽²⁰⁾.

لم يكن سهلاً على المراهقات اللواتي شاركن في هذه الدراسة أن يميّزن الفروق الجندريّة وكان الحديث يبدأ دومًا عن الضغوط التي تعرّضن لها كفتيات ومن ثمّ يعدنّ للحديث عن مشاعرهنّ. تميل الفتيات اللواتي ينشأن في مجتمعات محافظة أو مجتمعات تغلب فيها السلطة الذكوريّة إلى التأقلم (التكيّف) مع العنف والفروقات الجندريّة، ويملنّ إلى تقبّله كأمّرٍ عاديٍّ ما يجعل تمييزه بالنسبة إليهنّ أمرًا صعبًا. إذ تميل المجتمعات عادة إلى إنكار العنف وليس تبريره فحسب، إذ أشارت الباحثتان نهوند القادري عيسى وفاديا حطيط إلى إنكار «أغلبية الأمّهات من النازحات السوريّات في لبنان وبنسبة 71% اختلاف طرق تعاملهنّ بين الصبيان والبنات»⁽²¹⁾.

تحدّث المراهقات عن ضغوطٍ عدّة لم تكن مفروضة عليهنّ في السابق، أي خلال نزوحهنّ عام 2014، منها التزام الغرفة التي يجلسنّ فيها وعدم الاختلاط والالتزام باللباس المحتشم. ومن بين الفروقات التي ذكرتها الفتيات أنّ الذكور كانوا يتمتعون برفاهيّة الخروج إلى خارج مكان النزوح في فترة الحرب للتنفيس قليلًا من الضغوط النفسيّة، بينما منع ذلك عنهنّ. عبّرت سارة (حلقة النقاش المركز الأولى) عن ذلك قائلة «تمنّيت في الحرب أن أكون شابًا لا فتاة، لأستطيع التمتع ولو قليلًا بإمكانية المشي في ساحة المدرسة حيث كنّا».

(19) Suzan J.Song & Peter Ventevogel. *Child, Adolescent and Family Refugee Mental Health* (Switzerland: Springer International Publishing, 2020), 28.

(20) Gressmann, Wolfgang ibid, (2016), 33.

(21) فاديا حطيط ونهوند القادري، اللّاجئات السوريّات إلى لبنان: تحدّيات الأمومة (بيروت: الدراسة تمّت بدعم من المعهد الدولي للتربية ومؤسسة فورد، 2019) ص 83.

إلى جانب هذا، أبلغت المراهقات عن ضغوط تعرّضن لها من أفراد العائلة الذكور، إمّا الأب أو الأخوة الذكور، وبالأخص في العائلات التي نزلت إلى المدارس، حيث أجمعت الفتيات المشاركات في حلقات النقاش المركز، على أنّهن كنّ ممنوعات من الخروج إلى ساحات المدارس التي يوجد فيها الرجال والشباب وذلك لتفادي أيّ اختلاط بين الجنسين والذي من شأنه أن يجلب العواقب والمشكلات. أيضاً تعرّضت المراهقات لضغوط تتعلق بضرورة الالتزام بـ «الثياب المحتشمة كلّ الوقت في المدرسة، وكذلك التحدّث بصوتٍ منخفضٍ» (منى - حلقة النقاش المركز الأولى). فُرِضت هذه الضغوط على المراهقات اللواتي نزلن إلى الشقق السكنية المستأجرة أو عند عائلات أخرى مستضيفة، ولكن فقط في حال كانت العائلات الأخرى المشتركة في السكن فيها ذكور. كانت هذه حال ناهد ابنة 17 عاماً التي شاركت في حلقة النقاش المركز الثالثة وقد نزلت إلى منزل عائلة مُستضيفة مع عائلتها، حيث قالت إنّ تعليقات أخيها الأكبر منها سنّاً كانت تزعجها، حيث كان يفرض عليها أن تلتزم الغرفة وأحياناً أن تخفض صوتها. أظهرت ناهد قبولاً وتطبيعاً لهذه السلطة من أخيها عليها، ولكنّ ما أزعجها هو أنّه كان «يعطي أوامره هذه أمام الآخرين وليس وهما منفردتين».

في هذا القسم أيضاً حاولت الورقة الحالية فهم المسؤوليات الجديدة التي وقعت على عاتق الفتيات المشاركات خلال فترة النزوح. أوّلاً بالنسبة إلى المراهقات اللواتي نزلن إلى المدارس، فقد أجمعن على أنّ أمهاتهنّ كنّ يقمن بجميع ما هو مطلوب من عناية بالصغار أو تحضير الطعام أو أيّ شيء آخر وذلك تفهماً من هؤلاء الأمهات للضغوط التي تتعرّض لها المراهقات، ووعياً بأنّ بناتهنّ المراهقات لا يحتملن المزيد من الضغوط، فالخوف والبقاء في الغرفة كلّ الوقت وحده يكفي. أمّا الفتيات اللواتي نزلن إلى بيوت عائلات مستضيفة، فقد كنّ يشعرن بالخجل من عدم المساعدة في مهامّ التنظيف والطهو اليومية، مثلما أكّدت مريم (17 عاماً - حلقة النقاش المركز الأولى)، أمّا شذا (15 عاماً - حلقة النقاش المركز الثانية) فقالت إنّ أمّها كانت تحثّها على مساعدة قريباتها، لأنّها اعتبرت أنّ وجودهنّ ليس بصفة ضيوف، بل بصفة نازحين وعليهنّ تقاسم أعباء الأعمال المنزلية اليومية من باب الامتنان لهم لاستضافتهم في بيوتهم. أمّا الموضوع بالنسبة إلى النازحات مع عائلاتهنّ إلى الشقق السكنية المستأجرة فقد اختلف الأمر،

حيث تلاشى عامل الخجل والإحراج من الطرف المستضيف. فأصبح الجميع سواسية لا مستضيف ولا ضيف وبالتالي كان هناك تقسيم للأدوار وكلّ كان مسؤولاً عن عائلته، وهو ما أشارت إليه رهف (16 عامًا - حلقة النقاش المركز الثالثة) «لم يوجد في الشقة أعباء جديدة، والمسؤوليات لم تتغيّر فلقد أوكلت إليّ المسؤوليات نفسها، وربما بدرجة أخفّ كتلك التي اعتدت القيام بها في منزلي».

السياق الثقافي والاجتماعي للتعبير عن المخاوف

كان لافتاً جداً وواضحاً خلال حلقات النقاش كلّها أنّ الفتيات لم يحظين مسبقاً بفرصة معالجة مشاعرهنّ أو حتّى التعافي منها، وربما أكثر من ذلك لم تتوافر لهنّ فرصة التعبير عن مشاعرهنّ التي رافقتهنّ في أثناء فترة الحرب والنزوح مع الآخرين. فبدأت حلقات النقاش إلى حدّ ما، كأنّها مساحة آمنة أو حلقة تعافي من هذه المشاعر healing circles، فكانت أجوبة المراهقات والفتيات تحوم دوماً حول مشاعر الخوف والرعب والهشاشة التي أصابتهنّ خلال فترة النزوح في الحرب الأخيرة، وقد تحدّثنّ عن كيفية اختلاف هذه المشاعر من تجارب الحروب السابقة التي كنّ فيها طفلات وتجربة الحرب الأخيرة التي اختبرنّها وهنّ مراهقات. بالنسبة إلى شذا (حلقة النقاش المركز الثانية) فخلال نزوحها عام 2014 لم تكن تدرك هول ما حدث آنذاك، ولم تخف خوفاً شديداً كما حصل معها عام 2021 فهي الآن بحسب تعبيرها أكثر وعياً، وتتابع مواقع التواصل الاجتماعيّ، وتُشاهد الفيديوهات، وتقرأ الأخبار أو تسمعها وأصبحت تدرك معنى الخوف والموت معاً.

تتموضع مسارات الصّحة العقليّة أو النفسيّة للمراهقات والمراهقين في أماكن النزوح أو اللّجوء ضمن سياقات ثقافيّة واجتماعيّة معيّنة، وهناك اتفاق بين الباحثين على أنّ هذه المسارات موجودة ومهمّة، ولكن «لا يوجد اتفاق على كيفية تفكيك: السياق (context) أو السياق الثقافيّ (cultural context)»⁽²²⁾.

(22) Ria Reis, Mathilde R. Crone, and Lidewyde H. Berckmoes, «Unpacking Context and Culture in Mental Health Pathways of Child and Adolescent Refugees», in *Child, Adolescent and Family Refugee Mental Health*. Edited by Suzan J. song & peter Ventevogel (Switzerland: Springer International Publishing, 2020), 37.

فلا شك أنّ الأطفال والمراهقين ينشؤون بالتفاعل مع السياقات التي تحيط بهم، خصوصاً في منطقة قطاع غزة، حيث للسياقات الثقافية والاجتماعية سلطة على المجتمع والنشأة والعامل الجندري مرتبط بها بشكل وثيق إن كان على مستوى الأدوار أو التوقعات التي تُسند إلى الإناث المراهقات.

حاول بعض الباحثين فكفكة هذه السياقات من خلال محدّدات قادرة على القياس الكمي. على سبيل المثال، لفهم كيفية تأثير سياق الحرب على الصحة العقلية للأطفال، كان يؤخذ بعين الاعتبار عدد الأحداث الصادمة التي تمّ التعرّض لها، ومقدار التعرّض لها. إلّا أنّ الباحثين النوعيين جادلوا بأنّ تأثير الصحة العقلية للعيش في سياق الحرب لا يمكن فهمه إلّا من خلال التحقيق في جميع الأبعاد السياقية - البيئية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية - التي تُشكّل تجارب الأطفال ورفاههم العقلي، بما في ذلك وجهات نظرهم الخاصة⁽²³⁾.

لقد أتاحت حلقات النقاش المركز تحري وجهات نظر المراهقات الخاصة، وتمّ التركيز على فكفكة السياق الاجتماعي - الجندري بما يتعلّق بالصحة العقلية وتحديدًا المشاعر، والتأقلم مع الواقع الجديد، والمرونة النفسية لدى المراهقات. وتمّ اعتماد البارديغم البيئي Ecological paradigm الذي يُصوّر «السياق» باعتباره «مكوّنًا لعملية ديناميّة تتضمن تفاعلات بين قدرات المراهق/ة الفردية من ناحية والبيئة التي ينغمس فيها»⁽²⁴⁾. في هذا البارديغم «فإنّ السياق الثقافي» ليس نظامًا لديه وظائف محدّدة بجانب الأنظمة الأخرى، ولكنّه يتفوّق على جميع مستويات النظام الأخرى⁽²⁵⁾. هذا التفوّق للسياق الثقافي الاجتماعي ظهر جليًا في حلقات النقاش المركز الثلاث، حيث أشارت المراهقات إلى وجود قيود رافقت تعبيرهنّ عن مشاعرهنّ. هذه القيود فرضها الأهل وأفراد العائلة أحيانًا على المراهقات، وأحيانًا أخرى فرضتها المراهقات على أنفسهنّ. وقد أظهر النقاش في الحلقات كلّها أنّ هذه القيود المفروضة باللّين حينًا وبالشّدّة أحيانًا مرتبطة بالأعراف الاجتماعية وموروثات تتعلّق بالمفاهيم الجندرية للنساء. على سبيل المثال، لم تكن هبة

(23) المرجع نفسه.

(24) المرجع السابق، ص 38.

(25) المرجع نفسه.

(هبة 17 عامًا - حلقة النقاش المركز الثالثة)، التي نزلت إلى إحدى مدارس الأونروا قادرة على البكاء، على الرغم من حاجتها إلى ذلك، واضطرت إلى إخفاء مشاعرها ورغبتها بالبكاء بسبب وجود غرباء كانوا يتقاسمون الغرفة مع عائلتها. أما أماني (14 عامًا - حلقة النقاش الثانية) فعانت من التعبير عن شعورها بالغضب، خصوصاً لدى حدوث شجارات مع أفراد العائلة، حيث كانت تطلب أمها دومًا منها أن تصبر وتكظم غيظها «فالوقت غير مناسب لأي مشاكل مع الآخرين» بحسب تعبيرها. أما سناء وعلى الرغم من صغر سنّها، إذ تبلغ 12 عامًا فقط (حلقة النقاش الأولى)، وصفت نفسها بالهادئة وكانت تتلافى المشكلات أغلب الأوقات، إلا أنّها لم تكن قادرة على تمالك نفسها في أثناء لحظات القصف وكانت تصرخ بصوت عالٍ من الخوف، لكنّ أخاها طلب منها عدم الصراخ بصوت عالٍ فبرأيه «لا داعي للصراخ. فهي ليست في المنزل». تُشير هذه الرقابة الشديدة على التعبير عن الخوف والرعب والهلع إلى سياق ثقافي مسيطر على المراهقات النازحات في قطاع غزة، إذ تفرض العادات والتقاليد والموروثات على سناء الطفلة ذات الـ 12 عامًا وغيرها من الفتيات موضوعة صحتهنّ العقلية في مسارات يُحددها العيب والمسموح والممنوع للفتيات. فالصراخ في أثناء القصف الشديد مسموح في المنزل وغير مسموح في مكان النزوح. وخلصنا إلى أنّ الفتيات الأكبر سنًا مثل (هبة 17 عامًا - حلقة النقاش المركز الثالثة) تفاعلت مع هذا السياق بشكل مختلف، بوضعهنّ لأنفسهنّ رقابة ذاتية على التعبير عن المشاعر، وتموضعن طوعاً بما هو سائد وربّما يعود ذلك إلى وعيهنّ في أثناء تجارب النزوح السابقة.

الضغوط النفسية والتعبير عن المشاعر

يعاني المراهقون/ات من الرجوع إلى حياتهم الطبيعية التي كانوا يعيشونها قبل الحرب، إذ إنّ النزاعات المسلّحة تُعطل العديد من جوانب علاقات الطفولة حيث يشعر الفتيان والفتيات «بانتهاء النظم المجتمعية التي يتردّد صداها طوال حياتهم، ويفقد مقدّمو الرعاية سُبُلَ عيشهم وشعورهم بالأمان ويضطرونّ إلى الانتقال إلى أسر أكثر اكتظاظاً بحثاً عن مأوى جديد»⁽²⁶⁾. ولا شكّ في أنّ التعامل مع تداعيات النزاعات المسلّحة يُعدّ «أحد

(26) Song, S. J., & Ventevogel, P. *Child, Adolescent and Family Refugee Mental Health* (Switzerland, Springer International Publishing, 2020), 20-21.

أبرز التحديات التي تُواجه الأسر بما فيها الرجال والنساء، الفتيان والفتيات، وعليهم إدارة مشاعرهم حول موت أحبائهم وتدمير منازلهم وشعورهم بالعجز لحماية من يُحبونهم وعدم قدرتهم على توفير الاحتياجات الأساسية لأسرهم مما يجعلهم تحت ضغط نفسي شديد⁽²⁷⁾.

فقد تحدّثت المُراهقات عن إدراكهنّ المعنى الحقيقي للموت وقد أصبحنّ يخشينّ على ذويهنّ وأقاربهنّ من الموت. عبّرت سمر (17 عاماً - حلقة النقاش الثالثة) عن شعورها بالقلق طوال الوقت، قائلة «كنتُ أخاف أن يستشهد جميعُ مَنْ في المنزل وأبقى لوحدي، لقد كان هاجساً لا يُفارقني. وقد وافقها الرأي مريم وسماح (حلقة النقاش المركز الأولى) اللتان كانتا تُتابعان باستمرارٍ كيف أنّ آلة الحرب حصدت عائلات بأكملها، من بينها عائلات تركت وراءها أطفالاً وحيدين من دون مُعيل، وهذا ما زرع الرعب والقلق في نفوسهنّ.

تنوّعت مصادر الخوف لدى المُراهقات النازحات، ولم تنحصر في شدّة القصف فحسب، بل كان مكان النزوح إحدى مصادر الشعور بعدم الأمان أيضاً، ومصدراً لمخاوف ترتبط بالمكان نفسه. أجمعت المُراهقات اللواتي نزلنّ إلى الشقق السكنيّة أنّ خوفهنّ الأكبر تمثّل في لحظة الانتقال من بيوتهنّ إلى نقطة النزوح. هذه المسافة اعتبرتها الأغلبية العظمى من الفتيات اللواتي شاركن في حلقة النقاش الأولى بمثابة الجحيم. فقد كنّ يخفنّ من أن يتمّ قصف السيّارة، أو مكان قريب من مكان تنقّل السيّارة. عبّرت شيما (14 عاماً - حلقة النقاش المركز الأولى) عن هذه اللّحظة بالقول: «كنتُ أشعر بالأمان أكثر عندما أكون تحت سقف منزل، لا في سيّارة أو مكان مكشوف». أمّا إيمان (14 عاماً - حلقة النقاش المركز الأولى) فاعتبرت أنّ فكرة تنقلهم خلال الحرب كانت مرعبة قائلة «لا يوجد مكان آمن فالبقاء حيث نحن أقلّ رعباً». بدوره، انسحب خوف المُراهقات على أفراد العائلة الذين كانوا يخرجون لتأمين الحاجيات اليوميّة، فقد كانت هدى (13 عاماً - حلقة النقاش المركز الثالثة) التي نزلت مع عائلتها إلى شقّة سكنيّة مستأجرة ترتعب، بحسب تعبيرها، عندما يضطرّ والدها أو خالها للخروج من أجل تأمين احتياجات

(27) Nader Said-Foqahaa, *The Imperative of mainstreaming gender In humanitarian action In Palestine: six case studies from (Gaza)* UN WOMEN. May 2020), 6-7.

العائلات التي كانت معهم في الشقة. أمّا رهدف (16 عامًا - حلقة النقاش المركز الثالثة)، التي نزلت أيضًا إلى شقة سكنية مع عائلتها، فرأت أنّ الرعب الحقيقي بالنسبة إليها كان محيط الشقة نفسها «كنت أخاف وجود مكان أو شخص مستهدف في المبنى نفسه أو في جواره فيتّم قصفها بالكامل، كانت الفكرة تطاردني كلّ الوقت».

وعبّرت المراهقات اللواتي نزحن إلى المدارس عن اطمئنانهنّ كونهنّ في مكانٍ تابع للأمم المتحدة، وشعرنّ بالأمان أكثر من غيرهنّ، كما أسلفنا في القسم السابق، لكنّ الخوف تجلّى بقلقهنّ من طول مدّة النزوح في المدرسة. أمّا بالنسبة إلى المراهقات اللواتي نزحن إلى عائلاتٍ مستضيفة، فلم يكن هناك خوف مرتبط بالمكان، فالناس مألوفون والمكان مألوف أيضًا.

المراهقات والعناية بالنظافة الشخصية

برزت من بين التحديات التي واجهتها المراهقات اللواتي نزحن إلى مدارس الأونروا مسألة النظافة الشخصية، وخصوصًا تحديات استخدام دورات المياه العامة في المدارس التابعة لوكالة الغوث وتشغيل اللاجئين «أونروا». طغى موضوع النظافة على الشعور بالخوف عند ندى (16 عامًا) وأختها الأصغر عبير (12 عامًا)، حيث انتقلتا مع أسرتهنّ ثالث أيام الحرب إلى المدرسة بعد أن تمّ قصف المنزل الملاصق لمنزل أقاربهنّ حيث نزحن في بداية العدوان. قالت ندى (حلقة النقاش المركز الأولى)، «إنّه كلّما «أردنا الاستحمام كنّا نذهب مع أبي إلى بيت خالتي القريب من المدرسة، لأنّ دورة المياه في المدرسة لا يوجد فيها خصوصيّة للاستحمام كفتاة كما أنّها ليست نظيفة». وقد أشارت الأمّ المتحدة في تقرير لها أنّ تدمير مرافق الاغتسال والمراحيض في الملاجئ أو الاعتماد على المرافق المشتركة من شأنه أن يولّد مشكلات تتعلق بالخصوصيّة والسلامة⁽²⁸⁾، ما يُجبر النساء والفتيات على البحث عن بديل فيضطررن إلى المشي لمسافات طويلة لاستخدام المراحيض والأغلبية قد يخترن الانتظار حتّى حلول الظلام ما يجعلهنّ عرضة للمضايقة⁽²⁹⁾.

(28) Ibid.p:29.

(29) Gressmann, Wolfgang, ibid (2016), 40-41.

كما برزت لدى المراهقات هواجس تتعلق بخصوصيتهنّ فسارة (13 عامًا) وابنة عمّها منى (14 عامًا) من اللواتي شاركن في (حلقة النقاش المركز الأولى) أعربتا عن هواجسهما قبل الحرب تجاه النزوح إلى المدارس، حيث لطالما خشيتا الاضطرار للنزوح للمدرسة والتخلّي عن خصوصياتهنّ ومع ذلك فقد أجبرتتا مع عائلتيهما إلى النزوح للمدرسة بعد قصف أحد الأهداف القريبة من منزل أسرتهما وتضرّر المنزل وأصيب عدد من أفراد العائلة، تقول سارة «هربنا حفاة الأقدام، وشعرنا أنّ المدرسة جنة أمام الرعب الذي عشناه». من جهتها علّقت منى بالقول إنّها لم تكن تتمنّى أن تترك منزلها لتعيش في المدرسة لكنّ الخوف والبحث عن الأمان دفعها وعائلتها للمكوث نحو أسبوع فيها. في البدء لم تكثر منى إلى مسألة الحمامات في المدرسة لكن مع مرور الوقت أصبحت من التحديات الكبيرة بالنسبة إليها، نظرًا لقلّة عدد الحمامات مقابل العدد الكبير من النازحين. كما أنّها لفتت إلى أنّها لم تكن تستطيع استخدام الحمام عند الحاجة، إنّما كانت تنتظر فترة المساء المتأخّر لتستخدمه حين يكون أغلب النازحين نائمين. توافقها بالرأي سارة التي كانت تذهب مع منى إلى الحمام لتقف لها عند الباب خشية أن يأتي أحدهم. أمّا فرح (11 عامًا) (مجموعة النقاش المركز الثانية)، فقالت «إنّه طفح الكيل مع الأطفال الصغار كانوا يستخدمون الحمام ويتركونه مُتسخًا ولا أحد يكثر من العائلات، لكنّ خالتها ذات الشخصية القويّة تدخلت وأجبرت العائلات على تنظيم عمليّة تنظيف الحمامات ما سهّل الأمر لاحقًا.

اختلف موضوع نظافة الحمامات من حيث الأهميّة بالنسبة إلى من نزحوا إلى بيوت عائلات مستضيفة أو شقق مستأجرة. تقول لين (13 عامًا) التي نزحت إلى بيت خالها إنّها لم تشعر أبدًا بالانزعاج في حال أرادت استخدام الحمام وإنّها معتادة على القدوم إلى بيوتهم في الأوقات العادية، وكانت هي وابنة خالها الكبرى مسؤولتين عن تنظيف الحمامات والبالغ عددها ثلاثة حمامات. كان الأمر مماثلًا بالنسبة إلى إيمان (14 عامًا) وأختها أسيل (13 عامًا) اللّتين نزحتتا مع أسرتهما إلى شقّة سكنيّة مُستأجرة مع أقارب آخرين لهما، حيث تمّ توزيع الأدوار منذ البداية على العائلات من حيث النظافة والمُهمّات اليوميّة الأخرى.

ظهر تحدّد ثانٍ متعلّق بالنظافة الشخصية لدى المُراهقات المشاركات في الدراسة حيث ذكرت هبة (17 عاماً) (حلقة النقاش المركز الثالثة)، التي نزلت إلى مدرسة من مدارس الأونروا مع عائلتها، أنّها عند وصولها إلى المدرسة كانت في أوّل أيام الدورة الشهرية، عدا عن الألم المصاحب لها كانت هبة تخجل من التخلّص من القُوط الصحية في الحمامات العامة، الأمر الذي عانت منه أيضاً أسيل (13 عاماً) (حلقة النقاش المركز 3)، التي نزلت إلى شقّة سكنية مُستأجرة مع أقارب العائلة والتي بدورها كانت تخجل من موضوع تخلّصها من القوط الصحية لأنّ الحمامات كانت تستخدم من قبل الجميع في الشقّة بمن فيهم الذكور.

المُراهقات ومُشكلات النوم

عانت المُراهقات أيضاً من النوم المتقطّع وغير المريح؛ عموماً فأغلبية المشاركات كنّ يستيقظن كثيراً بسبب القصف الذي يشدّ ليلاً وهذه كانت سياسة الاحتلال الإسرائيليّ لترويع المدنيين في قطاع غزّة. لكن هناك فروقات عديدة بين من نزلوا إلى مدارس الأونروا والشقق المستأجرة والعائلات المستضيفة. بالنسبة إلى الشقق كانت الليالي الأولى صعبة للتأقلم مع النوم، مكان جديد وقصف شديد، حيث يخاف معظم النازحين إلى الشقق المستأجرة من البيوت المجاورة لهم، هل هي أهداف للجيش الإسرائيلي؟ فدائماً ما كان يتردّد هذا السؤال في أذهانهم خوفاً من أن يتمّ قصف الأماكن المجاورة لشقتهم، وهو ما عبرت عنه رهنف (16 عاماً) وهدي (13 عاماً) في حلقة النقاش المركز الأولى ونغم (15 عاماً) من حلقة النقاش المركز الثانية.

أمّا النازحات إلى المدارس فقد عانيّين الأمرين في النوم، فالغرفة كانت تحوي أكثر من عائلة وفيها أطفال صغار لا ينامون بسبب اكتظاظ المكان والأصوات العالية، وكان أغلب النازحين يسهرون إلى ساعات متأخرة من الليل. عبّرت المُراهقات خلال حلقات النقاش المركز الثالث عن معاناتهنّ مع النوم، إذ قالت لجين (15 عاماً) في حلقة النقاش المركز الثالثة: «ما كنتُ آخذ راحتي بالنوم قدام ناس غريبة». أمّا فرح من حلقة النقاش المركز الثانية فقالت: «كنّا عيلتين بالغرفة والعيلة الثانية كلّها أطفال صغار دائماً بصرخوا». كما ذكرت الفتيات النازحات إلى المدارس أنّهنّ كنّ ينمن وهنّ يلبسن الحجاب لعدم

وجود خصوصية في المكان ولتشديد أهاليهم على ضرورة الالتزام بالستر أمام الآخرين، فالمجتمع الغزي شعب محافظ، وأغلبية نساءه يرتدين الحجاب.

المُراهقات وفقدان الخصوصية

تعاني النساء والفتيات عموماً في فترات النزوح من فقدان الخصوصية ما يُشكّل لهنّ تجربة مرهقة كونهنّ إنثاءً⁽³⁰⁾، كما أنّهنّ في أماكن النزوح أكثر عرضة للعنف القائم على النوع الاجتماعي بسبب الافتقار إلى الخصوصية والأمن في الملاجئ والمخيمات⁽³¹⁾.

تجلى فقدان الخصوصية بالحرمان من اختيار ما تلبسه الفتيات من الملابس، وقد حظي بحيز غير قليل عند جميع الفتيات المشاركات في مجموعات النقاش المركز الثالث؛ فقد أجمعن على عدم تمكّنهنّ من لبس ما يحلو لهنّ من ثياب مريحة أو مكشوفة على الرغم من ارتفاع درجات الحرارة في ذلك الوقت. كما طُلب من المُراهقات اللواتي نزحن إلى المدارس أن يلتزمن بارتداء الحجاب بشكل دائم حتّى خلال النوم من قبل عائلاتهنّ؛ حتّى المُراهقات اللواتي نزحن إلى عائلات مُستضيفة كنّ يفعلن الأمر نفسه، أي يرتدين ملابس محتشمة خلال النهار باستثناء أنّه كان من المسموح لهنّ خلع الحجاب في أثناء النوم. أمّا الفتيات اللواتي نزحن إلى الشقق السكنية المُستأجرة برفقة أقاربهنّ فقد حظين بخصوصية أكثر بقليل فقط، فلم تكن المُراهقة معرّضة لدخول أيّ شخص غريب إلى المكان الذي تكون فيه وكذلك لم يكن هناك ضغوط من الأهالي عليهنّ لللبس الحجاب بشكل دائم، إلّا أنّ ناهد (17 عاماً - حلقة النقاش المركز الثالثة) التي نزحت إلى شقة سكنية مُستأجرة كانت ترتدي الحجاب حتّى خلال النوم بقرارٍ منها خوفاً من أن تضطرّ إلى الهروب ليلاً وأن لا يكون هناك متسع من الوقت لترتيبه.

المُراهقات والعلاقة مع أفراد الأسرة

يُعاني المُراهقون/ات علاقة شائكة مع أهاليهم، وليس خفياً أنّ أصعب الأوقات على الأولاد والأهل على حدّ سواء هي فترة المراهقة، فكيف إن كان على المراهقة/ة أن تعيشها في ظلّ حروب وحالة طوارئ مستمرّة؟ وقد لفتت إحدى الدراسات إلى وجود

(30) Said-Foqahaa, Nader, p:36.

(31) Gressmann, Wolfgang, ibid, (2016), 10.

تحدّيات مشتركة متفاوتة في الدرجات بين الفتيان والفتيات في قطاع غزة، حيث يعاني كلاهما على حدّ سواء، وبخاصّة الذين فقدوا مقدّمَي الرعاية الأساسيين لهم، من نقصٍ عاطفيٍّ وإهمالٍ من أفراد الأسرة المتبقّين ويبقى الأيتام من الذكور والإناث من بين الفئات الأكثر ضعفاً⁽³²⁾.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ تجربة النزوح التي تتناولها هذه الورقة تُعدّ تجربة النزوح الثانية لعددٍ كبيرٍ من المُراهقات المُشاركات في الدراسة الحاليّة والثالثة لبعضهنّ وتحديدًا اللّواتي وُلدن قبل عام 2008 ولكن لا يذكرن كثيراً من تفاصيل تلك الحرب لصغر سنهنّ آنذاك. ولكنّ عموماً هناك تجارب نزوح إضافيّة لهؤلاء المُراهقات اللّواتي كنّ يتقلّدن مع عائلاتهنّ موقّتاً إلى بيوت الأقارب البعيدة عن الحدود حيث يعشنّ في أيّام التّصعيدات المتكرّرة خوفاً من تأجّج الحرب. شكّلت هذه التّنقّلات لدى الفتيات خبرة عامّة بالمكان الأكثر ملاءمة لهنّ في حال اضطررنّ إلى النزوح. واللافت أنّ بعض المُراهقات شاركنّ أسرهنّ قرار اختيار مكان النزوح، إذ قالت شذا 15 عاماً خلال مشاركتها في (حلقة النقاش المرّكّز الثانية) إنّها أخبرت والدها بميلها للبقاء في بيت جدّها لأنّها تراتح لوجود بنات عمّها بجوارها ولا تريد النزوح إلى شقّة مُستأجرة لأنّها «تخاف الأماكن الجديدة، وخصوصاً في أثناء الحرب». لكنّ رفاهيّة الاختيار لم تكن دائماً متوافرة. ففي بعض الأحيان اضطرتّ العائلات مرغمة إلى النزوح إلى مدرّس الأونروا بحثاً عن الأمان. بالنسبة إلى عبير 16 عاماً (حلقة النقاش المرّكّز الأولى) التي نزحت إلى المدرسة فالأمان هو فوق كلّ شيء، مع أنّها أكّدت مُعاناتها في الاستحمام والنوم والراحة في الملابس إلّا أنّها كانت مستعدّة لتحمل كلّ هذا مقابل شعورها بالأمان والاطمئنان. ووافقتها الرّأي أيضاً فرح 12 عاماً (حلقة النقاش الثانية) بأنّ المدرسة أعطتها شعوراً بالأمان، كونها مكاناً لن يقصف، وكان شعوراً ملحاً بالنسبة إليها وقتها حيث عانت كالجميع من الخوف والرعب. كانت لعبير (12 عاماً) من الحلقة المرّكّزة الأولى تجربةٌ مُماثلة، ففي بادئ نزحت إلى بيت خالتها هي والنساء فقط، بينما بقي والدها وأخوتها الذكور في المنزل. هذا التقسيم شائع في غزّة خلال الحروب حيث تنزح النساء إلى شقّة ويبقى الذكور في شقّ مُنفصلة. بالنسبة إلى عبير والإناث

(32) Nader said-foqahaa, Samer said, *Gender and war in Gaza untangled: what past wars have taught us* (Gaza strip: UN WOMEN, 2021), 14.

الموجودين معها، فقد قرّرَ بعد قصف المنزل المُجاوِرَ لهنّ أن ينزحْنَ إلى المدرسة؛ روت عبير قائلة «تمّ قصف هدف مجاور للمنزل الذي نتواجد فيه وأصابتنا الشظايا ونحن نائمات، ووجدنا أنفسنا نهرب حافيات لا إرادياً إلى أقرب مدرسة تابعة للأونروا نبحت فيها عن مأوى آمن بعد اعتقادنا بأنّ منزل خالتي بعيدٌ عن أيّ قصف». أشارت عبير من خلال تجربتها كيف أنّ النساء أحياناً يقلقن من ردود فعل الذكور في العائلة على أيّ قرار يتّخذنه، إذ أشارت إلى أنّه بعد وصولهنّ إلى المدرسة «اتصلنا بأبي لتخبره أنّنا في المدرسة مع علمنا المُسبق أنّه لن يعجبه هذا لكننا جميعاً كنّا مضطرينّ لذلك وكنا مضطرينّ لأخذ القرار بالفرار إلى المدرسة لحين عودة الهدوء ثمّ التفكير بالنزوح إلى مكانٍ آخر.

المُراهقات والتكيّف مع المكان والواقع الجديد

أظهرت المُراهقات اللواتي شاركن في الدراسة مرونةً نفسيّةً عالية، من ناحية القدرة على التأكلم السريع مع المكان والواقع الجديد في أوقات النزوح وما بعدها. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّه خلال الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزّة في العام 2014، نزحت معظم العائلات الحدوديّة بعد إعلان الجيش الإسرائيلي دخوله البريّ إلى القطاع⁽³³⁾، حيث نزح ما يزيد على 485000 شخص منهم 100000 شخص ظلّوا نازحين حتّى بعد انتهاء الحرب. لا شكّ في أنّ هذه التجربة القاسية جعلت اتّخاذ قرار النزوح بعدها قراراً يتحمّم اتّخاذه بسرعة، وهو ما أيقنه سكّان المناطق الحدوديّة في قطاع غزّة، والذين استطاعوا اتّخاذ قرار النزوح منذ اليوم الأوّل في عدوان أيار/مايو 2021، من هنا يُمكننا التماسّ بدء التكيّف مع واقع النزوح في بلدٍ يرزح تحت الاحتلال والحصار والحروب المُتتالية.

لا يُفارق المُراهقات هاجس وقوع حروب جديدة في المستقبل، منهم نغم (حلقة النقاش المركز الثالثة) فهي تفكّر كيف ستكون الحرب المُقبلة؟ هل سنزح إلى المدرسة؟ وكم سنبقى وكيف سأعيش هناك؟ أسئلة كثيرة تطرحها هذه المراهقة فهل هنّ حقاً قد تكيّفن مع الواقع الجديد؟

أشارت الإجابات من حلقات النقاش المركز الثالث إلى أنّ المُراهقات اللواتي نزحْنَ إلى بيوت عائلات مستضيفة قد ألفنّ المكان بشكلٍ أسرع وذلك لوجود مُضيفين

(33) Hannah Rought-Brooks, *Gaza: The Impact of Conflict on Women* (Norwegian Refugee Council 2015), 5.

بالأساس الذين هم أصحاب البيوت والذين عملوا في البداية بعادات استقبال الضيوف والتكافل الاجتماعي الذي يُميّز الفلسطينيين في قطاع غزة. حظيت سمر 17 عاماً حلقة النقاش المركز الثالث بمعاملة خاصة من صاحبة المنزل لكونها مراهقة وتحتاج إلى خصوصية معينة. فكانت تنام في غرفة النوم على السرير لا على الأرض مع الصغار. ولأن معظم العائلات المُستضيفة كانت من الأقارب، بدت العلاقة بين المراهقات والموجودين سلسلة أكثر. فهنّ معتادات على أقاربهنّ وقد نزلن إلى المكان نفسه في السابق.

أما المراهقات اللواتي نزلن إلى المدارس، فكان لهنّ رأي آخر. فالتكيف مع المكان كان من أصعب الأمور بالنسبة إليهنّ. وصفت منى (14 عاماً - حلقة النقاش المركز الأول)، الأسبوع الذي أمضته في المدرسة بالأسوأ في حياتها، فهي لم تعتد النوم مع غرباء في غرفة واحدة، كان الأمر مُقلقاً على حدّ تعبيرها. أيضاً لم ترتج لجين (15 عاماً - حلقة النقاش المركز الثالث) بقضائها الوقت كلّ في مكان لا يشبه المنزل، فهي كانت في غرفة كبيرة لا يوجد فيها سوى بضع فرشات من الإسفنج وعدد من الطاولات على طرفها، كان المكان موحشاً. وفق تعبير لجين لا أحد يريد أن يبقى في مكان كهذا لمدة طويلة. إلّا أنّ فرح (12 عاماً - حلقة النقاش المركز الثانية)، وجدت لنفسها مخرجاً فقد كانت معظم الوقت تتحدّث مع صديقاتها وقرباتها على تطبيق واتساب باحثة عن الألفة لأنّ الصف الذي كانت فيه خلال نزوحها إلى المدرسة لا يوجد فيه مراهقات أو فتيات في مثل عمرها.

على مستوى التكيف مع المكان والواقع الجديدين، لم تختلف تجربة المراهقات اللواتي نزلن إلى الشقق السكنية المستأجرة كثيراً عن اللواتي نزلن إلى عائلات مستضيفة، فالتأقلم مع النازحين معهم كان سهلاً لأنّ معظمهم من الأقارب، بينما كان صعباً التأقلم مع المكان ولم يحصل ذلك سريعاً. وصفت نور (12 عاماً - حلقة النقاش الثانية)، هذه الحالة: «أكره ذكرياتي في تلك الشقة، كان المكان مزدحماً جداً ولا يوجد أثاث إلّا الفرشات التي أحضرناها معنا عندما نزلنا، لقد كان المكان مخيفاً».

وفي حين تميل المراهقات لبقاء مدارس الأونروا آخر خيار للنزوح، وضعتها مراهقات أخريات مثل لجين 15 عاماً وهبة 17 عاماً (حلقة النقاش المركز الثالثة)

كأول خيار، إذ تفضّلان في المرّة القادمة في حال نشوب حرب مع إسرائيل الذهاب في الحال إلى المدرسة مع أنّها لم تكن المكان المثالي لمكوّنها فترة الحرب. لكنّ الشعور بالأمان شعور لا يوصف في أوقات الخوف على حدّ تعبيرهما. أمّا بعض الفتيات فعبرن عن انزعاجهنّ من فكرة النزوح حتّى إلى بيوت عائلات مستضيفة، ومنهم أمني (14 عاماً) التي شاركت في حلقة النقاش المركز الثانية، والتي أرادت العودة إلى منزلها الحدودي خلال الحرب لكنّ العائلة لم توافق. لم تشعر أمني بالراحة في مكان نزوحها، وأضافت أنّ طول مدّة النزوح جعلتها تشعر بعدم الاكتراث للقصف المشدّد والمُخيف، وكلّ ما كانت تريده هو الإحساس بالراحة والخصوصيّة، وهو ما طغى على حاجتها إلى الشعور بالأمان، لذلك عبّرت عن رغبتها بعدم النزوح من منزلها في المستقبل بحال شنت حرب جديدة على قطاع غزّة. أخضعت معظم المُراهقات المشاركات تجربة نزوحهنّ لما يُشبه إعادة التقييم، وتوقّعن أنّها لن تكون تجربتهنّ الأخيرة، فهنّ عشنها كأطفال، وكمراهقات، ومنهنّ من توقّعن أن يعشنها كبالغاتٍ وربّما كزوجاتٍ وأمّهاتٍ في المستقبل.

خلاصات

من خلال تحليل حلقات النقاش الثلاث، لم نر ارتفاعاً ملحوظاً في مستوى الهشاشة لدى المُراهقات في قطاع غزّة، ولا ارتباطاً وتقاطعاً لهذه الهشاشة مع الحروب السابقة فحسب. بل ظهر من خلال الإجابات أنّه تمّ بناء نظامٍ صلبٍ من الهشاشة فرض على الفتيات، مبني على عوامل عدّة⁽³⁴⁾:

أولاً: أثّرت الأعراف والمعايير الاجتماعيّة على تصرّفات الفتيات ومواقفهنّ وعلى فهمهنّ للتحديات التي واجهتهنّ. فقد أظهرنّ ميلاً لقبول ما كان يُطلَبُ منهنّ من الذكور

(34) تمّ استلهاهم بعض هذه العوامل من كتيب أو «أداة تقييم مخاطر في حوادث العنف الأسريّ المعروف بـ«B-SAFER» الذي تستخدمه بعض المنظّمات الكنديّة أثناء الاستجابة للتبليغ عن حوادث عنف أسريّ من طرف الشريك الحميم. الأداة عبارة عن 15 سؤالاً تساعد المُستجيب على تقييم مستوى الخطر الذي تتعرّض له الضحيّة، والآفات أنّ قسماً من الأسئلة يركّز على عوامل الهشاشة لدى الضحايا.

Stephen D. Hart, and Henrik Belfrage. led to the development of the Brief Spousal Assault Form for the Evaluation of Risk (Canada: B-SAFER, Department of Justice Canada, the British Columbia Institute Against Family Violence (BCIFV), 2004.

في العائلة في أثناء فترة النزوح كعدم الضحك، أو الصراخ، أو الالتزام بالحجاب وعدم الخروج إلى باحة المدرسة في أثناء النزوح. تتقاطع هذه المواقف والتصرفات مع اتخاذ المراهقات إجراءات للحماية الذاتية من خلال (تقليل أثر العنف والاستهانة به، قبوله على أنه أمر طبيعي، ومن خلال التصرف بناء على ما يتوافق مع المعتقدات الاجتماعية والثقافية السائدة).

ثانياً: من عوامل الهشاشة أيضاً ثمة الخوف الشديد، وقد تنوعت مصادر الخوف بالنسبة إلى الفتيات، فأولاً كنّ يخفن الحرب، وكذلك فقدان عالمهنّ أو عائلاتهنّ، وقد أشرنّ إلى خوفهنّ من ذكور العائلة بخصوص ما يقمنّ به. وبغض النظر عما إذا كان هذا الخوف منطقياً أم لا، فإنّ هذا العامل يُحتسب كعامل إضافي يسبّب أو يخلق هشاشة لدى هؤلاء المراهقات.

ثالثاً: عدم وجود مصادر للدعم، وخصوصاً لهؤلاء الفتيات المراهقات، على المستوى النفسي والصحيّ... إلخ. وحتى لو وُجدت هذه المصادر قد لا تتمكن المراهقات من الوصول إليها أحياناً بسبب الفروق الجندرية أو المعايير الاجتماعية أو ثقافة العيب. فهنا علينا أن ننبّه إلى أنّ وجود المصادر لا يعني بالضرورة أنّ المراهقات يمكنهنّ الولوج إليها والاستفادة منها.

ومن عوامل الهشاشة أيضاً «العيش في أماكن غير آمنة»، وهو ما صرّحت عنه الفتيات من خلال التعبير عن شعورهنّ بعدم الأمان في أماكن النزوح، وبشكل عامّ بسبب تنامي الحروب على غزّة، وحتى عيشهنّ في مناطق حدودية تتخللها تصعيدات عسكرية غير الحروب الكبرى ويضطررنّ للنزوح في أثنائها مع عائلاتهنّ. كما أنّ «المشكلات الصحية» قد تكون عاملاً إضافياً لهشاشة هؤلاء المراهقات، وعلى الرغم من أنّه لم تبلغ أيّ منهنّ خلال حلقات النقاش عن أيّ مشكلات جسدية، ولكن في أثناء التحدّث عن الصحة النفسية أظهرت المراهقات أنّ عامل الهشاشة مُرتبط بشكل كبير بالقدرة على التعبير على المشاعر.

وقد وجدنا أنّ عوامل الهشاشة هذه مرتبطة ببعض العوامل أو التعقيدات الثقافية⁽³⁵⁾:

(35) Randall Kropp, Henrik Belfrage, and Stephen Hart. *Patriarch*, V2 (Sweden). March 2021.

- 1 - Masculine⁽³⁶⁾ أو الذكورية وترتبط بسلطة الذكور وسيطرتهم على القرار، خصوصاً في ما يتعلق بما هو ممنوع أو مسموح للمراهقات في أثناء فترة الزواج.
- 2 - Hierarchical أي الهرمية أو تقبُّل عدم المساواة بين الجنسين الذكور والإناث، وهو ما أظهرته المراهقات من خلال ميلهنَّ لتقبل الفوارق الجندرية في أثناء الزواج.
- 3 - Traditional وهنا العامل التقليديّ يدعو إلى تمجيد الماضي على حساب التأقلم والتكيف، هذا العامل كانت له خصوصيته مع المراهقات اللواتي استطعن أن يبينن مرونةً نفسيةً وقدرةً على التكيف والتأقلم، وتحدي بعض الأفكار التقليدية المرتبطة بتمجيد الانتصارات السابقة فحسب، من دون النظر إلى تأثيراتها النفسية فيهنَّ.
- 4 - Collective العامل الجماعيّ هنا يرتبط بتقديم حاجات المجموعة على حاجات الفرد نفسه. وقد عبّرت الفتيات أنّهنَّ كنَّ بحاجة إلى ملاحظة فردانيتهنَّ أكثر خلال فترة الزواج، وخصوصاً أنّهنَّ يعبُرْنَ إلى مرحلة المراهقة. بعض الفتيات بلّغن أن أمهاتهنَّ كنَّ حريصات على تفهّمهنَّ في أثناء فترة الزواج أكثر من باقي أفراد العائلة.
- 5 - Restrained التقييد أي تقديم السيطرة على حاجات الشخص الأساسية ورغباته، فعلى سبيل المثال كانت الفتيات بحاجة إلى استنشاق الهواء أو الصراخ عند الخوف أو البكاء أو الضحك، فكانت تُطغى السيطرة الذكورية على هذه الحاجات الأساسية، وهنا لسنا بمعرض تقييم أداء الأهل في أثناء فترة الزواج، أكثر من تفكيك كيف أنّ العامل الثقافي والمعايير المجتمعية تنسج نظاماً من الهشاشة حول المراهقات.

(36) هذه اللائحة هي من دليل تقييم آخر لمخاطر العنف الأسري بعنوان «البطريق» وهي النسخة الثانية المنقّحة من هذا الدليل المذكور أعلاه. اللائحة الأصلية تضمّ ستة أبعاد ثقافية قد تؤثر على العنف ضدّ المرأة، استُخدم في الخلاصات خمسة منها.

ملحق

حلقة النقاش المركز الأولى بتاريخ: 2021/07/31

مكان النزوح	العمر	تم استخدام الاسم الحقيقي الأول في البحث
مدارس	16	ندى
مدارس	12	عبير
مدارس	13	سارة
مدارس	14	منى
عائلات مُستضيفة	15	لمى
عائلات مُستضيفة	13	ألين
عائلات مُستضيفة	17	مريم
عائلات مُستضيفة	16	سماح
شقة	14	إيمان
شقة	14	شيماء
شقة	15	بتول
شقة	12	سناء
شقة	13	أسيل

حلقة النقاش المركز الثانية بتاريخ: 2021/7/31

مكان النزوح	العمر	تم استخدام الاسم الحقيقي الأول في البحث
مدارس	12	فرح
عائلات مُستضيفة	15	شذا
عائلات مُستضيفة	14	أماني
شقة	12	نور
شقة	15	نعم

حلقة النقاش المركز الثالثة بتاريخ: 2021/8/5

مكان النزوح	العمر	تم استخدام الاسم الحقيقي الأول في البحث
مدارس	17	هبة
مدارس	15	لجين
عائلات مُستضيفة	17	ناهد
عائلات مُستضيفة	17	سمير
شقة	13	هدى

عن حياة مُراهقات قَلَبَتْها الحربُ وغيرها اللّجوءُ والتهجير

لم يكن هناك بصيص نور عندما تركت سحر «كونتينر» الحديد الذي جعله المهرّب سكّنها مع خمس مُراهقات أخريات على الحدود السوريّة التركيّة⁽¹⁾. طلبت ابنة الـ 16 عاماً من صديقتها أن ترافقها إلى المرحاض الذي يبعد عن المنامة نحو مئة متر. انتظرت الفتيات الثلاث عودة سحر وصديقتها لأكثر من 10 دقائق إلى أن رجعت الأخيرة لاهئة: «المهرّب اغتصب سحر واعتدى عليها». لم تتجرأ أيّ منهنّ على الذهاب لاستطلاع ما حدث مع رفيقة درب التهريب خوفاً من تعرضهنّ للاعتداء نفسه، فهنّ وحيدات عاجزات، دفعت عائلاتهنّ نحو 3000 يورو أو دولار للمهرّب كي يقطع بهنّ الحدود إلى تركيا ومنها عبر البحر إلى اليونان كمحطّة أولى نحو أوروبا. صديقة سحر نفسها هربت قبل أن يعلم المُغتصب أنّها شاهدت جريمته، جلست على الأرض تبكي عجزها عن إنقاذها، وحتى عن رفع صوتها طالبة النجدة «خفت يغتصبني كمان». كانت سحر تسعى للحاق بوالدها في ألمانيا، ولكنّ أحداً لم يعرف كيف انتهت رحلتها ومعها قصّتها. ولا أحد يعرف عدد المُراهقات أو النساء اللواتي لقينَ

(1) وقعت هذه الحادثة في صيف العام 2016.

المصيرَ نفسه وهنَّ يهرئنَ فرارًا من الحرب وأهوالها نحو بلادٍ تؤمِّنَ لهنَّ الحدَّ الأدنى من حقوقهنَّ ومعها حقهنَّ بالحياة.

هذه الحادثة روتها ياسمين لنا (16 عاماً) في مقرِّ إقامتها حالياً في مدينة لايبزيغ الألمانية⁽²⁾. تقول إنَّها وفور وقوع جريمة الاغتصاب اتَّصلت بعمَّها الذي كان على علاقة جيِّدة مع رجال الحدود وأخبرته بما حدث. اتَّصل الأخير بالمهرَّب وهَدَّده «هلاً بتقطع الحدود بياسمين ورفيقتها أو ما بيطلع عليك الضو». وفعلًا دقائق ونادى المهرَّب المُغتصب على ياسمين وصديقتها وقطع بهما الحدود ليلاً من دون الفتيات الأخريات اللواتي التقيتا بهنَّ بالصدفة في مقرِّ التهريب. ما زال صوت ياسمين لغاية اليوم، وبعد مرور أكثر من 3 سنوات على الحادثة، يرتجف وتلهث وتعود دقات القلب السريعة تضرب في صدرها «كثير تعذبنا بس ما حكينا ولا كلمة، وحتَّى ما خَليناه يعرف آتو نحن عارفين بجريمته». وحده صوت عمَّها الذي بقي يُهاثفها طوال الطريق مَنْحَها بعض الطمأنينة «وإلا متنا من الخوف». كان يطلب من المهرَّب أن يُعلمه بالمسافة التي قَطَعَهَا بالفتاتين وبمكان تواجدهما لحظة بلحظة، إلى أن سلَّمهما إلى قريبةٍ لهما في تركيا. لم تُعرف ياسمين شيئاً عن سحر الضحيَّة «ما بعرف أيَّ شي عنها، بس صورتها ما بتروح من راسي، كلَّ يوم بفكِّر فيها، كلَّ يوم بخاف، كلَّ يوم بحسَّ قَدِيش كُنَّا عاجزات عن حمايتها أو الوقوف إلى جانبها، وكلَّ يوم بسأل حالي إذا كان قرار إرسالنا وحيدات في رحلة التهريب صائباً على الرَّغم من أنَّي كنت محظوظة ووصلت بالسلامة».

تختلف قصص النساء اللاجئات، سواء المُراهقات من بينهنَّ أم البالغات، وظروفهنَّ، وكيفية تأثير الحرب على حيواتهنَّ. لكلِّ واحدة رواية مُختلفة في تفاصيلها عن الأخريات، وهي إن تقاطعت ففي صعوبة المسار الذي خُضَّنه للنجاة من الحرب، ليجدُنَّ أنفسهنَّ في غربة اللجوء، والانقطاع عمَّا كان، واللاوضوح في ما سيكون عليه المستقبل. اللجوء نفسه صاغ لكلِّ منهنَّ حكايةً جديدة تختلف عن حكاية الأخرى. والحياة التي أفلتت أبوابها أمام لاجئة هنا، فتحت نوافذ أمل وتغيير في مستقبل آخر، وقلبت مُعادلاتٍ في يوميَّات وسلوكياتٍ ثالثة، وفقاً للظروف التي عانَدَت أو ساعدت كلاً منهنَّ. ولكنهنَّ،

(2) أُجريت المُقابلة صيف 2018 ولم تُنشر أبداً قبل هذه الورقة.

ومن دون استثناء، يختزن في دواخلهنّ الكثير من الحَيّيات والأسى والصعوبات. حتّى الناجيات من بينهنّ لم ينفذن من دون أكلافٍ جبّارة.

ونجد أنّ المُراهقات يخضنّ معارك كبيرة لانتزاع حقوقهنّ بالحرية والتعليم والتطوّر وتبلور شخصياتهنّ «يعني نحن منكون مطحونات من الحرب، لكنّ ذلك لا يشفع لنا عند عائلاتنا، إذ نبقي بنظر الأهل والأشقاء الذكور معرّضات للخطأ»، يحصل ذلك وفق المفهوم التقليديّ الذي يأسرهنّ تحت ستار الخوف عليهنّ. وكثيرات هنّ المُراهقات والفتيات اللّواتي مُنعن عن الدراسة واستكمال تعليمهنّ العالي بسبب النظرة التقليدية السائدة للأهل من جهة، والتخوّف من تأثير المُجتمع اللاجئ فيهنّ من جهة أخرى «دائماً في تخوّف من تفلّت المرأة من مفاهيم الأسرة والمُجتمع»، وفق ما أكّدت أكثر من لاجئة مُراهقة أو بالغة تمتّ محاورتهنّ. وأكّدت بعض هؤلاء أنّ الانتقال إلى بيئة مختلفة عن بيئة بلد المنشأ عزّز مخاوف الأهل من البيئة الغريبة وغيّر في تفكيرهم ودفع معظمهم نحو التشدّد الذي لم يكن ملحوظاً بهذه القوّة في سوريا مثلاً، سواء للسوريات أم للفلسطينيات اللّواتي لجأن منها إلى أوروبا أو لبنان. ونلمس من تجارب كثيرات كيف استعملتهنّ أسرهنّ مصدراً لتحسين ظروف الأسرة عبر تزويجهنّ بذريعة حمايتهنّ كإناث، ولكنّ مقابل المال، تحت مُسمّى المهر، المشروع شرعاً وتقليدياً.

مَهْرٌ مُقَابِلِ مُغَادَرَةِ سوريَا

كانت ربي في الـ 14 من عمرها عندما اضطرت عائلتها لاتّخاذ القرار بالنزوح من ريف حلب إلى حمص استعداداً لدخول لبنان تهريباً⁽³⁾. كان والدها قد زوّج شقيقتها الكبرى (16 عاماً) قبل 4 أشهر، حين فتحت معها والدتها موضوع النية بتزويجها «منأمن عليك وببقي مع ابن بلدك»، لتبلغها قرار الأب بتزويجها «رح يساعدنا مهرٌ حتّى نفلّ ع لبنان، ونحن ما منعرف شو ناطرنا، وانت بنت منخاف عليك». قبضت العائلة 600 دولار مهراً لتزويج ربي. بعد أسبوع على زواجها ومُغادرة أهلها المنطقة التي تسكن فيها، قالت لها والدة زوجها «بتحضري حالك بكرا الصبح تنزلي مع البنات ع الشغل». تشغل عائلة الزوج بناتها في الزراعة مقابل بدل يومي «كان زوجي يضلّ نايم وأنا روح إشتغل مع

(3) لجأت عائلة ربي من سوريا إلى لبنان في العام 2018، وأجريت المُقابلة مع ربي في خريف العام 2021.

أخواته». عندما تعود من العمل تقبض الأم جناها في حال عدم وجود زوجها في البيت «قلها خليلي شويّة مصروف، فتجاوبني دفعنا حقك لأهلك وما اشترولك أي أغراض لبيتك، أخذوا كلّ المصاري وراحوا». كانت تستردّ المال الذي دفعوه مهرًا لها.

بعد مرور 3 أشهر على زواجها بدأت مشكلات جديدة لأنّها لم تحمل بطفل «وكمّان ما بتجيبني اولاد»، لحقتها العبارة كُتّهمة. مع بلوغها عامها الخامس عشر وشهرين، وضعت ربي طفلًا ضعيف البنية مريضاً «كنت كلّ فترة حملي أتعرض للعنف وإشتغل بالحقول». بعدما مات الطفل، وكان عمره شهراً، زادت مصاعبها «أولادك ما بيعيشوا»، صارت تلك العبارة التي يقولها لها زوجها وأمه تلازمها عند كلّ إشكال. «وما قدرت حبيته أبداً». تقول عن زوجها لتؤكد أنّها بدأت تخطط للهروب ممّا أسمته «الجحيم». بعد عام من محاولة أمّها ثنيها عن طلب الطلاق من زوجها على الرّغم من إخبارها بكلّ ما يحصل معها، وافق والدها على مغادرتها منزل زوجها «ما رح يطلّك ونحن مو حدك». وهكذا منحوا قريباً لهم 200 دولار لترتيب تهريبها «لاقتني أمي ع حمص وجابتني ع لبنان».

في عكار، حيث انضمت لعائلتها في أحد مخيمات السهل، عادت ربي للعمل في الزراعة «أبي بيشغلنا نحن وأمّي بالمزارع». نسألها عن شقيقاتها الصغيرات اللواتي تتراوح أعمارهنّ من 11 سنة إلى 14 سنة اليوم، وهنّ ثلاث شقيقات «تنتين بيشغلوا بالزراعة وواحدة بتساعد زوجة صاحب الأرض ببيتها». لم يرسل والدها أيّاً منهنّ إلى المدرسة «حتّى أنا بعتنى دغري ع الشغل». يقبض الأب كلّ نتاج العمل، حتّى ذلك المخصّص للأُم «قال بدّه يشتري بيوت لأخوتي الشباب بسوريا». تتراوح أعمار ذكور العائلة ما بين 10 إلى 17 سنة، وكلّهم يعملون في الزراعة «والكبير أوقات بيشغل بالعائلة».

حظوظ أوفر للمراهقات

مُقارنَةً بين المراهقات اللاجئات إلى لبنان وبين اللواتي سغفهنّ الحظّ باللّجوء إلى ألمانيا، نلاحظ فرقاً جوهرياً في فرص التطوّر والتعلّم. فالعائلة اللاجئة التي تقبض المال في ألمانيا عن كلّ طفل/ة لا تجدُ نفسها مضطّرة لاستجلاب المال عبر أطفالها وبالتالي تشغيلهنّ. كما أنّ القوانين التي تمنع عمل الأطفال في ألمانيا مطبّقة بشدّة، فيما يُفتقر ذلك في لبنان. وكذلك نلمس الاكتفاء الاقتصاديّ للاجئين في الغرب بسبب مساعدات

الدولة المضيفة، بينما يصبر اللاجئون في لبنان على عدم تلقيهم ما يكفي ممّا يضطرهم للعمل جميعاً «صغاراً وكباراً» كما تؤكد ربي «من وين بطعميكم»، يقول لها والدها، بينما تفصح نيته شراء بيوت للذكور ادّخاره للمال المجنى «أصلاً ما بأمّن لنا حياة كريمة، وعاشين بالتقشّف».

ظروف العائلة وفُرص التطوّر

تقول الباحثة عليا أحمد⁽⁴⁾: «لا يُمكن التعميم خلال الحديث عن تأثير النزوح واللجوء في حياة المُراهقات والبالغات، فلكلّ امرأة ظروفها التي أسهمت في اختلاف تجربتها عن الأخرى، وإنّ كنّا نلاحظ إيجابيّة ما في تكثّف المُراهقات مع اللجوء وإفادتهنّ منه أكثر من البالغات. لكنّ هؤلاء لم ينجينَ بالمطلق إذ ما زلنا نلاحظ استمرار التزويج المبكر لبعض المُراهقات حتّى في الغرب». تعمل الباحثة أحمد منذ خمس سنوات مع المُراهقات والنساء اللاجئات إلى ألمانيا، وتضع تقارير دوريّة عن ظروفهنّ واحتياجاتهنّ لتُساعد في تصويب المشروعات التي تستهدفهنّ.

تنطلق الباحثة أحمد من واقع حقوق الطفل بعامةٍ والمُراهقات بخاصّة في ألمانيا، حيث وصلت اللاجئات من سوريا، «هنا يتربّى الأطفال والمُراهقون في البلد المُضيف على مفهوم الحقوق والخصوصيّة وحرية الجسد وحرية التعبير عن الذات وغيرها من المفاهيم والتقديمات التي تُسهّل له تكوين شخصيّة ومن ثمّ استقراره النفسيّ وغيرها من الأمور». ومع أنّها لا تعتبر الوضع في ألمانيا «الجَنّة» حتّى بالنسبة إلى المُراهقات الألمانيّات «ولكن لا يُمكننا إلّا القول إنّ هناك هوة شاسعة بين الاثنين، المُراهقة السوريّة وقرينتها الألمانيّة».

وتعود الباحثة أحمد للتأكيد أنّه لا يُمكن إطلاق سمات جَمعيّة على المُراهقات السوريّات حيث هناك خصوصيّة لكلّ عائلة تبدأ من المستوى التعليميّ للأهل، إلى المادّي، ومدى تدنّي العائلة أو تزمتها أو انفتاحها، ومع ذلك، ومهما اختلفت ظروف المُراهقات السوريّات، فإنّ الوعي الجمعيّ عند المُراهقات الألمانيّات مختلف كليّاً عن السوريّات الآتيات من الحرب ورحلة اللجوء المُضنية المليئة بالمخاطر أحياناً. وعليه،

(4) أُجريت المُقابلة مع الباحثة عليا أحمد المُقيمة في ألمانيا عبر الهاتف في تشرين الأوّل/أكتوبر 2021.

تجد أحمد أنّ المراهقات اللاجئات غالباً «نجدهنّ صامتات في البداية، يستكشفنّ المكان، يتفرّجنّ على كلّ ما حولهنّ، مع شعورهنّ بالغربة، وبكلّ جديد، وبالطبع يأخذنّ وقتهنّ للتفاعل مع المحيط». لكنّ هذا التفاعل لا يأتي منمّطاً «بعض اللاجئات لم يكنّ محجّبات، على سبيل المثال، فتحتجنّ في ألمانيا، فيما خلعت بعضهنّ حجابها»، وهنا يبرز تأثير ظروف كلّ منهنّ مع عائلتها على مسار الاندماج في المجتمع المضيف والتأقلم معه.

تشهد الباحثة أحمد حتّى على تلاعب العائلات في موضوع تزويج القاصرات وهو ممنوع قانونياً في ألمانيا «يعني مش بس بلبنان أو بالأردن بيزوجوهن». وكون الدولة المضيفة تمنح مبلغاً من المال لكل فرد لاجئ، فإنّ بعض العائلات تطلب من المراكز المهنّمة باللاجئين تحويل المبلغ المخصّص لابتتهنّ إلى حساب زوجها، بعدما يدّعون أنّه صديقها، مع تبرير ذلك بالقول «بدها تعيش مع صديقها»، بينما هي تكون قد تزوّجته دينياً (عقد قران ديني)، ويتمّ تأجيل الزواج المدنيّ ريثما تبلغ 18 سنة. ويستغرب بعض الموظّفين كيف لمراهقة صغيرة ومحجّبة وملتزمة دينياً مع عائلتها أن يكون مسموحاً لها العيش مع صديقها من دون زواج. في الواقع، تطلب العائلة نقل المساعدة الماليّة لحساب الزوج تنفيذاً لاشتراط الأخير بعد أن يكون قد دفع المهر لعائلة عروسه. وتوثّق الباحثة أحمد تغييراً في استخدامات المراهقات أو البالغات من النساء، حيث إنّ المهر تحوّل في بعض الحالات من دفع المال «كاش» إلى الطلب من العريس أن يدفع للمهرّب ويسعى لكي يأتي بشقيقها أو بوالدها. ومع ذلك فإنّ الوضع أفضل ممّا كان عليه في بلد المنشأ مع متابعة أوضاع الفتيات التي تقوم بها المدارس فتخشى بعض العائلات المساءلة القانونية، ولكنّها متابعة لا تنجح دائماً في لجم تلاعب بعض اللاجئتين.

ويقوم تخوّف العائلة من تأثر اللاجئة المراهقة بعادات المجتمع المضيف وسلوكياته بدور كبير في تقييد حريّة المراهقات وحركتهنّ، وهو ما يحدّ من إفادتهنّ من فرص تطوير الذات والتعلّم وتبلور شخصياتهنّ. وتجد الباحثة أحمد أنّ بعض الأمّهات يتشدّدن مع بناتهنّ خوفاً من تحميلهنّ (تحميل الأمّهات) مسؤوليّة أيّ تصرّف قد يجده المجتمع اللاجئ منافعاً للعادات والتقاليد، لأنّ اللوم يقع على الأمّ في تربية الفتيات، وفق تفكير الآباء والأشقاء والعمومة. وتعبّر المراهقات مثلاً، في جلسات التفريغ النفسي،

عن تفضيلهنّ التسوّق مع آبائهنّ، وليس مع الأمّهات، لِكَون الأب لا يُدقق في تفاصيل اللباس، ويكتفي بأن يكون مُحْتشماً، بينما تُبالِغ الأمّهات في مُراقبة كلِّ دقائق لباس المُراهقات خوفاً من لومهنّ من قِبَل الأب والأشقاء الذكور. أي أنّ الأمّ تُصبح ملكة أكثر من الملك، حيث يضع الأب على عاتقها ومسؤوليتها تربية الابنة ومُراقبة لباسها وعند أيّ تغيير في لباس المُراهقة يُقال لها دائماً «ليش هيك ملبّسة بنتك؟»، في منحى لاستمرار لوم المرأة وتحميلها المسؤولية. والأمر نفسه ينسحب على الأماكن التي تقصدها المُراهقة وعلى نوعيّة الرّفقة والجو المسموح لها التحرك في إطاره.

في المقابل، تُؤكّد أحمد أنّ بعض المُراهقات يتمكّن من رفض التزويج المبكر عندما لا يكون هناك عنف في العائلة، كما يسعى لاستكمال تعليمهنّ، حتّى أنّ بعضاً منهنّ تمكّن من إقناع أسرهنّ بالعيش في مدينة قريبة بعدما تمّ قبولهنّ للدراسة الجامعيّة حين لم يحصلنّ على قبول في جامعة المدينة التي تسكن فيها عائلاتهنّ.

ومع ذلك تتفاعل أحمد بالنسبة إلى المُراهقات أكثر من البالغات على الرّغم من كلّ ما يُشاع عن أنّ اللّجوء بعامةٍ، وإلى الغرب بخاصّة، قد غيّر في مركز السلطة داخل العائلة السوريّة لمصلحة المرأة وفتّح أمامها آفاقاً بسبب تفلّتها من القيود والتقاليد التي كانت تأسر بعضهنّ في سوريا حيث يُشاع، على سبيل المثال، أنّ السوريات صرّن مُتحرّرات، وقد يُتّهم بعضهنّ بالتفلّت من القيود، وبارتفاع نسبة اللّواتي يطلبنّ الطلاق ويحصلنّ عليه، سواء أكان ذلك من البالغات أم من المُراهقات، هذا فضلاً عن زيادة نسبة الوعي عندهنّ تجاه العنف الأسريّ على أنواعه من اللفظيّ إلى المعنويّ والجسديّ والجنسيّ. ولكنّ أحمد، التي تعمل مع أكثر من 200 عائلة لاجئة، تشهد أنّ هناك ما يزيد على 30 امرأة من محيطها يتعرّضنّ للعنف الشديد، ولكنهنّ غير قادرات على اتّخاذ القرار بالطلاق، مشيرةً إلى أنّ اللّواتي حصلنّ على الطلاق من بين هذه العائلات انتفاضاً على العنف بأشكاله كافّة، هنّ أقلّ بكثير ممّن يتحمّلنّ العنف ولا يُطالبنّ بالطلاق، ومن بين هؤلاء مُراهقات متزوّجات. وتلمس أحمد أنّ بعض النساء ممّن مضى على لجوئهنّ من ستّ إلى ثمان سنوات يتمتّعنّ ببعض القوّة، ولكنّ هناك كثيرات من بينهنّ ما زلنّ يخضعنّ للتقاليد ولتبعيّة المرأة للرّجل والخضوع له. ويتمظهر هذا الخضوع، من مُراهقات أو بالغات، على سبيل المثال لا الحصر، في جهلنّ لقيمة المبالغ الماليّة التي ترسلها لهنّ الدولة

المُضيفة، وفي عدم امتلاكهنَّ أيَّ سلطة على هذا المبلغ الذي هو خاصّتهنَّ، ولا يمتنعنَّ بحساباتٍ مُنفصلة عن آبائهنَّ أو أزواجهنَّ. في المقابل نجد أخريات بدأن يسألنَّ عن المال وعن حقّهنَّ بمساعدة عائلاتهنَّ في بلادهنَّ كما يفعل الأزواج، وهو ما يُبيّن حصول بعض التغير وإن كان ليس عاماً أو جمعياً. وتُركّز أحمد على مدى تغيّر اللاجئة البالغة لترصد تأثيرها في اللاجئة المُراهقة، إذ كيف لَمَن لا تستطيع تغيير حياتها أو حماية نفسها أن تدعم ابنتها المُراهقة وتحميها سواء من الأب أم الأخ؟ ويقوم ما يُشاع عن تحرُّر المرأة السوريّة بدورٍ سلبيٍّ أحياناً يتمثّل في زيادة الرقابة اللصيقة على المُراهقات خوفاً من تأثرهنَّ بسلوكيات المُراهقات الأجنبية، وهو ما حصل مع ماجدة (15 عاماً) التي يُحوّل شقيقها حياتها إلى ما يُشبه الجحيم.

«ما لازم تفلتي»

تعيش ماجدة⁽⁵⁾ مع والدتها وشقيقتها رلى وشقيقها في ألمانيا بعدما لجأوا إليها من مخيم اليرموك في سوريا «نحن كفلسطينيين عاداتنا مثل عادات العائلات السوريّة وتقاليدنا أيضاً وسلوكياتنا»، تقول وكأنّها تُؤكّد تمسّكها بما يتوقّعه منها المُجتمع اللاجئيّ بعامةٍ، وعائلتها بخاصةٍ «يعني أنا بعرف أنّي ما فيّ كون مثل الألمانيّات، بس أخي بيضلّ يضغطني ويتدخل في كلّ شيء». لم تكن ماجدة محجّبة عندما تركت سوريا «أبي ما جبرني بالحجاب وترك لي الحرية». بعد وفاة والدها في الحرب، لجأت العائلة إلى ألمانيا ولم تكن قد أتمّت الرابعة عشرة من العمر، فانتقلت السلطة إلى الأخ على الرّغم من وجود الأمّ، وهي خمسينيّة وحاضرة في إدارة شؤون الأسرة. وهنا بدأ شقيقها بالتدخل في تفاصيل حياتها كافّة تحت ذريعة «ما بدّي تفكّري حالك ألمانيّة وتفلتي». تجنّباً للمشكلات، أذعنت لرغبته بارتداء الحجاب، ولكنّه لم يكتفِ بذلك، وما زالت تعاني من ضغوطه. يُراقب هاتفها وكلّ رسالة قد تردّها بعدما منّعها من وضع كلمة سرّ لفتح الهاتف «ما عندي أيّ خصوصيّة». يعترض على ارتدائها أيّ قميص فوق البنطال لا يصل إلى ركبتها، يمنعها من مُصادقة أيّ فتاة حتّى لو كانت لاجئة في حال كانت سلوكياتها غير تقليديّة أو بدا عليها تمتّعها بهامشٍ ولو ضئيلٍ من الحرية، ويظلّ يُراقبها طوال الوقت

(5) تَمّت مُقابلة ماجدة في لايبزيغ في ألمانيا صيف العام 2018.

مع أنّها لا تتزيّن كما بقيّة الفتيات «محرّمني حطّ حتّى قلم كحل بعيني». كما أنّه حاول تزويجها من صديقه لكي لا تُفكّر في دخول الجامعة. وعندما لجأت إلى عمّها تطلب تدخّله لكي يُخفّف من الضغط عليها قال لها الأخير «أخوك أدرى بمصلحتك»، على الرّغم من أنّها أبلغته وشقيقها أنّ الضغط والمُراقبة اللّصيقة ليسا ما يمنعها من ارتكاب ما يعتبرانه «غلطاً»: «فأنا أحمي نفسي وأعرف حدودي»، في ما يدلّ على نظرة المُراهقة اللاّجئة نفسها لما تُسمّيه حدود حرّيتها وخصوصيّتها.

أمّا أمّها فقد اكتفت بالقول «لو بعدنا بسوريا كنت بحبّ تخلّص جامعة وتحبّ وتزوّج، بس هون نحن خافين تتأثّر بجوّ المصاحبة والسهرة، ثقافة ألمانيا بتختلف عن ثقافة بلدنا وديننا، الألمانى بياخذها فترة ويكبّها. ما عتّا تعصّب فكريّ بس هون الظرف غير». وعندما نسألها عن مسؤوليّتها في حماية ابنتها من تسلّط شقيقها، ترى أنّ كلّ تصرّفاتة هي حبّاً بأخته وحرصاً عليها، وأنّه «حنون» ويخاف عليها كثيراً. ومن باب ما تُسمّيه الأم «حنّيته» تمكّنت من إقناعه بعدم إرغامها على الزواج، وخصوصاً أنّ ماجدة «شاطرة كثير وفيها تعمل أحلى اختصاص».

تقول ماجدة إنّها تقود معارك على جبهات كثيرة: أولها في المنزل لانتزاع هامشٍ مقبول من الحرّية، وثانيها مع الدولة المُضيفة لكونها فلسطينيّة سوريّة «لعنة احتلال فلسطين تلحق بي حتّى إلى ألمانيا». تحمل ماجدة جواز سفر كُتب عليه «بلا وطن» وهذا ما عرّضها لعنصريّة إضافيّة من قِبَل موظّفي مراكز اللّجوء والدوائر المعنّية به. في ألمانيا يمنحون السورّيين بطاقة خضراء قبل الإقامة تُخوّلهم دخول المَدارس ومُعاهد اللّغة «وأنا كانوا يرفضوني». ومع رفضها لأشهرٍ من مَدارس ومُعاهد مُختلفة لأنّها «بلا وطن»، ناضلت ماجدة كثيراً لتجدّ معهداً لا يسأل عن الهويّة لقبولها لتدرس فيه «كان حظّي كثير حلو ودلّني رفيقي (وهو فلسطينيّ مثلها) ع معهد ما بيطلب إقامات وسجّلت ودرست».

ذكريات أو أهوال لا تُنسى

وعلى الرّغم من تمكّن الكثير من المُراهقات من التمتعّ بسلّة حقوقيّة مقبولة لاستكمال حياتهنّ وتطوّر شخصياتهنّ والتعلّم، إلّا أنّنا نجدهنّ أسيرات ذكريات الحرب وطريق اللّجوء. صحيح أنّ ياسمين لا تنسى قصّة سحر التي اغتصبت خلال محاولتها

الوصول تهرياً إلى ألمانيا، ولكنّ ذاكرتها تعجّ أيضاً بالمخاطر والولايات التي عبرت بها منذ لحظة نزك والدتها وأشقائها وشقيقاتها في سوريا وانتقالها إلى القامشلي ومنها إلى تركيا فالبحر وصولاً إلى اليونان ومنها إلى ألمانيا. تصرّ المراهقة التي كانت في الـ 16 من عمرها عندما قرّرت أمّها فجأة أن تسبقها وبقية العائلة للعيش مع والدها الذي كان يُنجز أوراقاً لمّ شمل زوجته وأبنائه «خافت عليّ من الحرب والمسلّحين والأوضاع الفالّثة». دفع والدها 3 آلاف يورو لرحلة التهريب، وعليه أرسل لها المهرّب دعوة مع كفالة لزيارة عائلته في القامشلي التي وصلتها بالطائرة من ضمن تكلفة التهريب «وصلت ع القامشلي مع رفيقتي وعمرها 16 سنة أيضاً». أسكنهما المهرّب وعمره 35 عاماً في بيته «بس طلع ابن حرام، كان فوراً يقطعّ الهاربين الحدود من القامشلي بس نحنا، مع ثلاث بنات غيرنا، ما فوّتنا فوراً ع تركيا». بقيت الفتيات 15 يوماً في الكونتير الذي استحدثه المهرّب بالقرب من بيته لإسكانهنّ «ووصلنا لمرحلة أنّه مُمكن نرجع ع سوريا، كُنّا بنات وبدّه يستغلنا، يُمكن كان عم يفكّر يتاجر فينا أو يشغلنا بالدّعارة». وعليه، اتّفقت الفتيات الخمس على الحراسة «كلّ يوم واحدة مِنّا تبقى تحرس وما تنام أبداً خوفاً من أن يعمل لنا شي». في الليلة الـ 14 اغتصب سحر التي كانت تلحق بوالدها في ألمانيا أيضاً، وبعد تهديده من عم ياسمين قطعّ بها وبرفيقتها الحدود التركية «يعني كان قادر يفوّتنا ع تركيا بس ما بدّه». عبّرت ياسمين وصديقتها الحدود عبر نفق حفّره المهرّبون لا يراه العسكر التركي. بعد الحدود بأمّطار سلّمهما المهرّب إلى قرية صديقتها التي اصطحبتهما إلى بيتها لغاية الصباح لكي تلتحقا بلاجئين آخرين وتركبا زورقاً مطّاطياً يعبر بهنّ البحر إلى اليونان. على الشاطئ صعدت ياسمين في زورق صغير «كذب علينا كمان، ما في زورق مطّاطي كبير، لقينا مركب صغير وعليه 57 راكباً قاعدين فوق بعض».

بعد الابتعاد عن الشاطئ التركيّ بقليل بدأ سائق الزورق يدور حول نفسه «يعني ما بيعرف يسوق مركب»، ثمّ اندلعت عاصفة ونفد الوقود وصار المركب يغرق. اتّصلت ياسمين بوالدها لكي يُخاير خفر السواحل اليونانيّ بينما غرق بعض من كانوا على متن القارب إثر سقطوهم في البحر «وأنا أغميّ عليّ في أرض المركب وما عدت عرفت شو صار». ما زالت تسمع أصوات الغارقين يستغيثون ولا أحد يجرّو أو يقدر على مساعدتهم.

لا تعرف ياسمين كم مرّ من الوقت قبل أن يصل اليونانيون ويسحبوا مركبهم إلى جزيرةٍ بعد ساعة ونصف الساعة عن مكان تواجدهم في البحر «حسّيت إنّه رجعت لي روحي، فكّرت إنّه ما بدّي عيش كرمالي بس كرمال ماما وبكيت كثير لأنّه بالمركب وبنصّ البحر ما حسّيت إلّا بالموت».

في اليونان منحوا كلّ لاجئ/ة خريطة تُسهّل له/ها العبور من مكان إلى آخر «الصليب الأحمر صار يساعدنا لنعبّر على الحدود ومن مكان لمكان وسهّلوا هروبنا ع صربيا ومنها للنمسا ثمّ ألمانيا». وفي كلّ مرحلة كانت ياسمين ترفض أن تبصم على دخولها كما في صربيا وكذلك النمسا «كان أبي قايل لي إذا ببصم ما بعود بقدر فوت ع ألمانيا». في النمسا احتجزوها مع صديقتها في مخيّم مقفل ولكّنها تعرّفت إلى شاب سوري من حلب «طلع ابن حلال، استعمل الكارت تبعه لفتح باب المخيّم وأخرجنا ثمّ أوصلنا إلى محطة القطار حتّى وصلنا إلى لايبزيغ في ألمانيا». بكت ياسمين أكثر من مرّة وهي تروي قصّة وصولها إلى ألمانيا «مثلاً كان ممكن كون أنا مكان سحر اللي اغتصبت». لكّنها وكما وضعت ما حدث مع رفيقة درب التهريب وراء ظهرها ومعها ما حصل معها في البحر حتّى وصلت إلى ألمانيا، تقفز عن الماضي لتبدأ بسرد واقعها وما تُخطّط له مستقبلاً «كان حظّي كثير حلو رغم أنّي تعرّضت للعنصريّة من بعض موظّفي مراكز اللّجوء». تمكّنت بعد أيّام من دخولها ألمانيا من التسجيل في معهدٍ للّغة «وكان المعهد للأبحاث كمان وعم يعمل دراسة عن التغيّر الذي يطرأ على حياة اللاّجئين فما أخذ منّي مصاري وعملي دورات مكثّفة مكّنتني من النجاح بمستوى B1 الذي يُخوّلني مراسلة الجامعات». في هذا الوقت تعرّفت على سيّدة سورية تعمل مع جمعيّة تهتمّ بالنساء اللاّجئات «عملت معهن أكثر من تدريب وطبّقت اللي تعلّمته بالّلغة عمليّاً، وإجاني قبول من جامعة خارج لايبزيغ». هنا رفضت عائلة ياسمين أن تعيش بعيداً عنها «قال في كثير نازيين بمدينة الجامعة فخافوا عليّ ومنعوني روح».

اليوم تتحضّر ياسمين لدخول جامعة أخرى في لايبزيغ «اشتروطا إعمل سنة تحضيريّة وإذا نجحت فيها بدّخل اختصاص»، تقول ذلك وهي تشرح كيف أقنعت عائلتها بعدم تزويجها «قلت لأبي بدّي إتعلّم وكون مستقّلة حتّى لمن أتزوّج كون قويّة وهو اقتنع معي». تُوكّد أنّها لا تفكر اليوم سوى بإنهاء دراستها الجامعيّة بينما تتحضّر شقيقتها

الصغرى التي صارت اليوم في الـ 16 من عمرها للزواج «أختي ما بتحب تتعلّم، انخطبت لدكتور وبدها تتزوّج وأهلي ميسوطين فيها». منحتها الدولة الألمانية قرضاً جامعياً «يعني ما بعوز مصرّيات أهلي وبتعلّم وبعدين برّده». تحكي عن إيجابيات اللجوء من دون أن تنسى السلبيات «في موظّفين عنصريّين، مرّة حاولت واحدة تخليّني أوقع على ورقة بتقول إنّه لازم اشتغل وبتنازل عن حقّي بالتعليم، وأنا أصرّيت إقراها وما قبلت وقّعها». ترى ياسمين أنّ انفتاح أهلها أكثر من عائلات سورية أخرى ساعدها في التأقلم وقلّل من مشكلاتها ولكن دائماً تحت سقف التقاليد والعادات «أنا بعرف حدودي وما بزعلهم، وأنا مقتنعة أنّه نحن غير الألمان».

خسارة الوطن لا تُعوّض

من الحديث مع اللاجئات يُمكن تلمّس تأثير الحرب في بعضهنّ بقدر عيشهنّ لها. فاللواتي تمكّنّ بسرعة من مُغادرة بلادهنّ نجوّن بمعنى من المعاني، فيما نجد أخريات مثقلات بذكرات أهوال ما حصل وبالموت وأصوات القصف وتبعات التفلّت الأمنيّ وسلوكيّات المُتقاتلين. كما نجد تأثير مدى انخراط عائلة المُراهقة في الحرب والسياسة فيها وفي تفكيرها والمسافة التي تفصلها عن كلّ ما يحصل، وهي حال سلمى اللاجئة العراقية في لبنان.

تجلس سلمى⁽⁶⁾ الأربعينيّة اليوم لتصف نفسها بـ «الطفلة التي تربّت على أصوات الصواريخ». نسألها «الرصاص كمان؟»، تبسم بسخرية لتقول «الرصاص كان عادي، لمّن بتعيشي ع وقع الصواريخ بيصير الرصاص لعب اولاد بالحارة». بعد أربعين عاماً على ولادتها ترى أنّ أهمّ أثر للجوئها هو خسارة وطنها العراق «أنا مكسورة، ليس لأنني عشت طفولتي ومُراهقتي في الحروب، بل لأنني بلا وطن، خسرت وطني، وهذا أقسى ما يُمكن أن يحدث لإنسان». ذاكرتها تعجّ بالأحداث والأهوال هي التي وُلدت مع اندلاع الحرب العراقية الإيرانية. كانت في السابعة من عمرها عندما سقط صاروخ على مدرسة تبعد مئة متر عن مدرستها «رفقاتي كلّهم ركضوا بالساحة وأنا تجمّدت بمكاني وانربط لساني وبقيت جامدة حتّى سمعت صوت أبي من ورا السياج عم يناديني». لحظتها

(6) تمّت مُقابلة سلمى في تشرين الثاني/نوفمبر 2021 في لبنان.

انهارت وبدأت بالصراخ فحملها وعاد بها إلى البيت حيث لم تتوقف عن البكاء. قَتَلَ الصاروخ كل أطفال المدرسة وأطلقت عليها الدولة اسم «بلاط الشهداء».

لم تُكن المدينة التي يعيش فيها عمّ سلمى تتعرض لقصفٍ شديد كما بغداد، وعليه أرسلها والدها لتكمل عامها الدراسي في منزله «كنت ضلّ خايقة وإجربّي يرجفوا كلّما سمعت صوت صاروخ، أرجف لدرجة إنو أبي يقعد يثبّت لي إجربّي حتّى إهدا». تصف سلمى انتقالها للعيش في منزل عمّها بـ «التهجير الأوّل». أثر بها التهجير كثيراً على الرّغم من أنّه وثقّ علاقتها بعمّها كثيراً «كنت معلّقة بأبي كثير، كنت لَمَن يروح ع الحرب احتفظ بقطعة من ثيابه وأعططها ونام حتّى يرجع».

بعدها فقد شقيقها في إحدى المعارك فعادت إلى أسرتها «كانت أمّي كلّ خميس تطلّع ثيابه تغسلهم وتنشرهم وتقعد تبكي حدّهم». بعد ثلاث سنوات تأكّد استشهادها في الحرب، فقرّر والدها أن يرسل ثيابه لإحدى الجمعيات لكي يُخفّف عن والدتها «سرت من عطره وحطّيت منه ع محرمة وخبيّتها بشنطتي وضلّيت شمّها إلى أن تهجّرت من العراق نهائياً»، لكنّها حتّى اليوم تحفظ رائحتها «بس يكون حدا معطر بمتلها بعرفها فوراً بس بستحي إسأل».

انتهت الحرب العراقية الإيرانية ليختفيّ والدها خلال دخول العراق إلى الكويت «انفقد أبي وبلّش الحصار، وضلّينا شهور ناكل بطاطا معجونة مع نخالة ومشويّة ع الصوبيا بلا أيّ شي تاني». وعلى الرّغم من ذلك علّمتها الحرب الكثير عن العلاقات الإنسانية «تعلّمنا كيف نعيش بالظروف الصعبة، كيف نلّم الشوك من الأرض الخرابة لنطبخ عليها، كيف نُساعد بعضنا نحن وسكّان الحارة، وكيف البيوت الواطية تستقبل سكّان الطوابق العليا، وكان بيتنا أرضي ينزلوا الجيران يناموا عنّا، الحرب كتير عملت إلفّة بين الناس وقربّتهم من بعض». وحده الاحتلال الأميركيّ فُرق العراقيّين «عملنا سُنّة وشيعة وعمل فجوة بيناتنا».

حرب الخليج غيّرتها «بالحرب ييموت القلب وهيك صار معي فعليّاً، بتنسي تخافي والناس عم تموت، بيصير الخوف رفاهيّة». مع التدريبات العسكريّة التي خضعت لها وكانت في 15 من عمرها، بدأت تتحوّل إلى فتاةٍ شجاعة «الزي العسكري لوحده بيعطي

قوة، وفكرة إنك عم تستعدّي لتقدري تدافعي عن بلدك بتخليكي تصيري قويّة كمان، ولمن تقوصي ع الهدف وتصيبه، بتحسّي إنك قادرة تحمي نفسك ووطنك».

حتى مواظبتها على الذهاب إلى المدرسة خلال حرب الخليج كانت بالنسبة إليها «تحدّيًا»، «كثير تلامذة وطلاب ما عادوا داوموا لأنهم استهدفوا المدارس وصار النجاح جهاد». في عمر الـ 15 عاماً عرفت تجربة تعتبرها كانت مفصلاً في حياتها «لمن انقسم البلد طائفيًا وصار في ميليشيات، واحتلّوه الأميركيان وفقدنا كلّ الأمان، أعطاني أبي مسدسًا وقال لي ممنوع تخليّ حدا يفوت ع البيت». كانت تسهر والرصاص في بيت نار مسدسها «أقعد راقب الباب وأبي غائب، وكنت مستعدة أطيح أيّ ميليشياوي أو محتلّ ممكن يحاول يفوت ع بيتنا». لكنّ رؤيتها للجنود الأميركيين حين دخلوا بغداد «كبرتني 50 سنة». وبدأت تتوالى خيبتها «كثير ناس انقلبوا وتغيّروا وتعاملوا وخانوا، وأنا ما إستوعب وجود الأميركيان بشوارعنا». الشوارع عينا التي رأت فيها الموت يوميًا «كنت أشهد ع دّابة عم تطلع ع سيّارة وتدهس كلّ من فيها، ع تفجير يطلع بعيد عنيّ بمئات الأمتار فقط ويقتل العشرات»، وهي نسيّت أنّها مُرافقة «نسيّت إنني صبيّة، أنّي امرأة، لم أعش من كلّ هذه المراحل أيّ شيء غير الحروب والتهجير»، إلى أن أتى اليوم الذي تركت فيه العراق نهائيًا.

كان ذلك في مساء قصّدت فيه إحدى الميليشيات المُقاتلة منزلَ عائلتها بقصد اعتقال والدها «كانوا يعتقلوا الرجال بحجّة التحقيق معهم وبعدين نلاقيهم جثثًا». تمكّن والدها من الهرب قبل أن يتعرّف إليه المسلّحون «فكّروه واحد تاني وسمعهم جارنا عم يقولوا اسمه فبلغه وهرب». دخل المسلّحون المنزلَ وكانت بداخله وبدأوا يُحقّقون معها ليعرفوا مكان والدها «راح لعند عمّي خارج بغداد»، قالت لهم، فوضعوها أمام ثلاثة خيارات: إمّا أن ترشدهم إلى مكانه أو اغتصابها أو إفراغ بنادقهم في رأسها. تقول إنّها تلتّ صلاتها في قلبها واستعدّت للموت حين رنّ هاتف المسلّح الذي يُمسك بها وجاءه أمرٌ بإخلاء المنطقة فورًا نظرًا لحصول تطوّرات لم تعرفها. بعد رحيل المسلّحين جاءها مرسال من والدها بوجوب مغادرة بيتهم فوراً. رفضت الرحيل ولكّته أرسل لها يقول «ما تكسريني»، وكان يقصد أنّه يخاف من اغتصابها، واعدًا إيّاها بالعودة عند أقرب فرصة. «ودّعت حيطان

البيت حيّطاً حيّطاً قبل ما فُلّ» تقول والدُموع تَكَرّر من عينيها. لم تُكن رحلة وصولها إلى لبنان سهلة «كان يُمكن أن نُقتل في أيّ لحظة».

هنا في بيروت جاءت غريبة وبقيت غريبة لغاية اليوم. يتعامل معظم مَنْ حاولت أن تشغل معهم معها على أنّها ضعيفة وهشّة وامرأة «وذقت الكثير من الخيبات من الناس، وبقيت غريبة، غريبة، غريبة». غربة تضعها في مواقف جدّ صعبة «في كتار عرضوا عليّ يشغلوني بالدعارة، كتار عرضوا يحمونني ويساعدوني مقابل علاقة، ما عدت إنسان بنظرهم، فقط أنا كائن قابل للاستغلال». بعدما ساء وضع العراق لدرجة أبلغها فيها والدها بعدم قدرتهم على العودة نهائيّاً، رمت عقدها الوحيد الذي حملته معها في بحر بيروت. تقول إنّ طفولتها ليست مهمّة بالنسبة إليها، ولا مُراهقتها كذلك، وحتّى شبابها اليوم «أنا أكبر غريبة، بلا وطن أستطيع العودة إليه وهذا يقتلني».

شبح الحرب

وكما تختلف قصص اللاجئات من فلسطينيّات وسوريّات وعراقيّات، نجد اختلافاً في تأثير الحرب اللبنانيّة في المُراهقات حينها، ولاسيّما في ظلّ شبّحها اليوم في خضمّ الأزمة التي تعيشها البلاد، ومن هؤلاء ديمّا⁽⁷⁾. حين سقط تلّ الزعر لم تُكن ديمّا تعرف منطقة بأحيائها كافّة غير النبعة في شرقي بيروت «كان عمّي عنده مبنى كامل وكنا عايشين كلّ عيلة، من عمّاتي وعمومتي ونحن، بشقّة». وكانت هي في عامها العاشر.

اليوم وهي تُفيل خمسينها تتذكّر ديمّا نفسها وعائلتها محشورة في سيّارة تاكسي مع أكياس الثياب الضروريّة وكُتب المدرسة، فيما أزيز الرصاص يُطوّقها (يُطوّق السيّارة) وهي تخرق عباب منطقة المتحف في بيروت «قالت لنا أمّي وطّوا روسكم ع أرض السيّارة». كانت الأكياس تحجب عنهم القتّاصين من دون أصوات طلقاتهم. وعندما وصلوا إلى منطقة الحمراء، حيث يسكن جدّها لأمّها، جعل أباهما يتفقّدهم الواحد تلو الآخر «بدّه يشوف إذا حدا انصاب». «شعرت أنّي اقتلعت من بيتي، من المنزل الذي تربّيت فيه، ومن المبنى الذي كان بمثابة حارتنا، نحن الأقارب، وفقدتُ للمرّة الأولى أيّ إحساس بالأمان»، وفق ما تقول. بكت كثيرًا بعدما وضّبت أمها بعض الأغراض وأبلغتهم أنّهم

(7) تمّت مُقابلة ديمّا في تشرين الأوّل/أكتوبر 2021.

سعودون إلى منزلهم في إحدى القرى الجنوبية. لكثرة صراخها «ما كنت معلقة بالضيعة وبيتنا فيها، كنت بدّي ضل حدّ بيتي بيروت»، توسّطت جدّتها مع أمّها لتركها عندهم، وهكذا حصل. على الرّغم من التهجير، شعرت ديما للمرّة الأولى بغياب الرقابة اللّصيقة لأمّها «حسّيت حالي حرّة، يعني عندي هامش أوسع ممّا كان مع أهلي»، وقد أحبّت هذا التّغيير. تغيّر لم يدُم كثيراً إذ عاد والدها بعد انتهاء العام الدّراسيّ واصطحبها إلى الجنوب.

وجاء العدوان الإسرائيليّ في 1978 لِيُهْجِرَ عائلتها من الجنوب «هربنا تحت القصف ورجعنا ع بيروت» قالت أمّها إنّها لن تعودَ بهم إلى الجنوب، وهكذا كان. استأجرت العائلة منزلاً عبارة عن غرفة كبيرة مقسومة إلى غرفتين صغيرتين تحت درج أحد أبنية بيروت «كان بيتنا بالنّبة كثير كبير وحلو» عكس هذا المنزل الصغير المُعتم الذي تُعشعش فيه الرطوبة. والأهمّ أنّ والدها صار بلا عمل «خسر أبي شغلّه بالنّبة وكان جيّداً، ومعه تغيّرت حياتنا وصّرنا عايشين بالقلّة». عندما اتّسعت دائرة التهجير، تتذكّر ديما أنّ أمّها كانت تخرج يومياً مع صرّة ملابس وفرشة اسفنج لتبحث عن بيت فارغ تضع فيه ما تحمله لتُثبت سيطرتها عليه، إلى أن تمكّنت من العثور على شقّة مرتّبة في «راس النّبع». تُعشعش في ذاكرتها حروب الشوارع، طوابير الخبز وكلّ شيء، لا كهرباء ولا ماء ولا غاز، وكانت أمّها تبيع ذهبها قطعة قطعة لتدخلهم كلّ عام حتّى إلى المدرسة الرسميّة، فيما باع والدها كلّ ما يملك في الجنوب حتّى يُعيلهم. كانت مدرستها في الثانوي تبعد نحو 5 كيلومترات عن منزلها، ومع ذلك كانت تقصدها سيراً على الأقدام. غيّرتها الحرب ولكنّها أنضجتها «تطوّعت مع جمعيّات أهليّة وشكّلت مع آخرين فرّقاً لتنظيم أنشطة للأطفال وأعمال مسرحيّة، ودورات محو أميّة للنساء، وكانت هذه الأنشطة مساحتها التي تخرج فيها من البيت «يأمّنوا عليّ لأنّي مع الجمعيّة القريبة ع البيت».

مع تهجّرها من الجنوب، وانخراط والدها في مقاومة إسرائيل، وعت ديما على القضية الفلسطينيّة «رحت اتدربّ ع السّلاح من دون ما خبر أهلي، كانوا يمنعونني وأنا روح من وراهم». تعلّمت على فكّ السلاح وتركيبه وتنظيفه وعلى إطلاق النار، وبدأت تُفكّر في تنفيذ عمليّة استشهاديّة. في هذه الفترة تشكّل وعيها السياسي «ما كرهت الحرب بهيدي الفترة، كنت حسّ إنّها وسيلة للتغيير»، وكانت تعتبر ما تقوم به نضالاً «حتّى إنّني

صرت إخجل إذا اشترت لي أمي ثياب جديدة»، توسّخ ثيابها لكي تخرج بها في الطريق لكي «لا تبدو جديدة». تركت الحرب فيها تغييراً جذّياً وإيجابياً كما تصفه «لَمَنْ كنت بيتنا بالنبعة ما كنت إقرا غير بكتب المدرسة»، في الحرب نصجت شخصيتها ومفاهيمها «كنت مراهقة واعية» وهذا ما أحبّته كثيراً «حتّى أخوتي يروحوا التظاهرات ويرجعوا مفجّمين ومجروحين» وهو ما كان يُعجبها كثيراً. وانخرطاً منها في ما يحدث من حولها، خضعت لدورة إسعافات أولية وصارت تخرج إلى الميدان مع كلّ تفجير «كنت خاف من السيارات المفخّخة، ووَحَدَه العمل في الإسعاف أنقذني»، شعرت أنّها فاعلة وتُسعِف وتُسهم في إنقاذ حياة الناس.

خلال الاجتياح الإسرائيلي في العام 1982 قرّر والدها إعادة عائلته إلى الجنوب «هربتُ من السيارة وتخبّيت وبقيت بالعاصمة وراح كلّ الخوف من جوّاتي». كُتفت من نشاطها مع الجمعيات بين الناس، ولكنّ مشهد الجنود الإسرائيليين على أرصفة بيروت لا يُغادر ذاكرتها. وعندما انطلقت جبهة المقاومة اللبنانيّة وبدأت بتنفيذ عمليّات مقاومة بالإسرائيليين، قصدت أحد الأحزاب اليساريّة وطلبت إرسالها لتنفيذ عمليّة بهم، ولكنّ قيادة الحزب رفضت طلبها «لَمَنْ شفت الإسرائيليين ع الحواجز وأحياناً معهم لبنانيين اختنقت». ومع ذلك لم تشارك في معارك أو أعمال عسكريّة «صُلّ عملي إنساني طوال الحرب».

عندما اندلعت اشتباكات عين الرمانة - الشّياح كانت ديما في منزلها في فرن الشباك على حدود عين الرمانة. أمضت خمس ساعات مُحاصرة بالرصاص والاشتباكات. خمس ساعات عادت فيها صور الحرب وكلّ ما عاشته في أيام مُراهقتها «قعدت إبكي، كُنت مرعوبة مش قادرة إحمل صوت الرصاص، واكتشفت إنّو الحرب كانت كثير بشعة وأنا مش قادرة عيش حرب تانية، ولا يرجع البلد إلى ما كان عليه».

هل اللاجئات مُخيرات؟

تأتي قصص اللواتي تمّت مقابلتهنّ لمصلحة هذه الورقة/التحقيق لتقول الكثير في خصوصيّة كلّ مُراهقة عاشت الحرب والتهجير واللجوء، إذ نادراً ما نجد قصّة تُشابه الأخرى وتجربة تتطابق مع تجربة، كما أنّ للبنية النفسيّة للمرأة، مهما صغر سنّها أو كبر،

دوراً جوهرياً في كيفية تكيفها مع التغيير الذي فرض عليها واقتلعها من بيئتها ومجتمعها وكامل حياتها، وربما في مهبط الريح. ونعم ترك اللجوء، وخصوصاً إلى مجتمعات مُضيفة تؤمن الحد الأدنى أو أكثر من الحقوق وفُرس التعلم والتطور، أثراً إيجابية على حياة بعض المراهقات، ولكنه في معظم الأحيان يبدو كفعل تأقلم مع تيارٍ تغييرٍ تجد المرأة فيه نفسها غير قادرة على العودة إلى الوراء، إلى الحياة التي كانت، وعليه تعمل بالمثل القائل: «إن لم يكن ما تُريد فأرد ما يكون».

بهذا المعنى يبدو اللجوء معهنّ مكماً للطريق التي بدأت مع إغلاقهنّ بيوت منازلهنّ في بلدانهنّ، الطريق التي لا يعرفنّ نهايتها، هنّ الضيفات في الغربة ليس لديهنّ أيّ أجوبة عن إمكانية العودة إلى أوطانهنّ، وهل يمتلكنّ الخيار من الأساس؟ وخصوصاً أنّهنّ سيقينّ ضيفات لاجئات مهما أمضينّ من سنواتٍ في البلدان التي وصلنّ إليها، وسط تقاليد وعادات وضّبتها عائلاتهنّ مع الحقائق ولم تتركها في بيئتها الأساسية.

وخسارة الأوطان ليست تفصيلاً في حياة المراهقات، وخصوصاً عند توافر الوعي السياسي. فخسارة الهوية قاتلة على الصعيد النفسي، وترتبط لدى بعضهنّ بالكرامة الإنسانية التي لا يمكن أن تُعوّضها تقديرات مهما كانت، على الرغم من بروز أهمية تكريس حقوق اللاجئات بالتعلم والتطور وبالعيش الكريم في التخفيف من الآثار السلبية للحروب وذيولها، وهو الأمر الذي يُبرز الدور المهم للمنظمات والجمعيات التي تقود برامج ومشروعات داعمة لهنّ كنساء بعامّة، وكُمراهقات بشكل خاص، حيث يبدو تأثير الأخيرة جلياً في تغيير الكثير، ولاسيما إذا ما تناسب مع احتياجاتهنّ الأساسية.

«We now know perfectly well that there is no need to be wounded by a bullet to suffer from the effects of war in body and soul.»

Frantz Fanon
The Wretched of the Earth (2004: p.217)

Wound Stories from the Palestinian Oral History Archive

When Fanon wrote about the Algerian war, he argued that colonial violence impacted both colonizers and colonized, producing various forms of social and bodily afflictions⁽¹⁾. Though it referred primarily to the psychic effects of violence, his work invited a rethinking of the kinds of wounds that violence creates - not merely physical but equally historical, psychical, affective, and epistemological, all at once. From its very onset, the Nakba, with settler colonial violence as one of its defining features, comprised many such wounds and involved the continuing collective maiming, plundering, and erasing of Palestinian bodies, towns, communities, and entire ecologies. The specific injuries inflicted on the bodies of Palestinian women, who were young adolescents when

(1) Frantz Fanon, Jean-Paul Sartre, and Homi K Bhabha, *The Wretched of the Earth*, Trans. Richard Philcox (New York: Grove Press, 2004)

they were harmed, are the focus of this essay. Building on two accounts from Palestinian oral history archive, I explore how these Palestinian women (older adults when they were interviewed) recount how they experienced violence as young girls; and showcase the wounds which their young female bodies sustained and kept carrying as they grew older. I shall consider these debilitating wounds in their twofold manifestations - in the narratives of injury and in their embodied specificities - and I reflect on the distinctive ways through which they expose different modes of violent colonial subjugation. I engage the life story of Umm Faris, a woman with a peculiar history of sickness (caused by childbirth complications) and a formidable narrator of subjective experience; and turn to the oral history interview of Fatima Sirhan who was maimed in 1948, when the Israeli army bombed her village of al-Jish in Galilee⁽²⁾. The narrative, embodied, and imagistic representations of these women's wounds evoke the fraught political and ethical dimensions of injuries; injuries that become enmeshed in a politics of truthful claim-making or that are negotiated in everyday life. Above all, the different figurations of their wounds reflect the inadequacy of pain sharing, in a context where violence and displacement are overbearing; and where careful listening to the archive is transformed to an act of witnessing on the margins of linguistic life⁽³⁾.

While narratives of the Nakba have been suppressed (partly because of trauma and gaps in primary sources), the Palestinian Oral History Archive has contributed to the rupturing of this silence by recording and bringing within public purview not only stories of expulsion, dispossession, and ethnic cleansing, but also recollections of everyday life in Palestine - all from the point of view of those who lived, felt and experienced it⁽⁴⁾. The

(2) Rosemary Sayigh, «Interview with Umm Faris,» 12 April 1998, http://almashriq.hiof.no/palestine/300/301/voices/Gaza/halima_hassouna.html; The Nakba Archive Collection and the AUB Palestinian Oral History Archive, Interview with Fatimah Sirhan, 29 September 2003, Lebanon; <https://n2t.net/ark:/86073/b35p7h>.

(3) Samar Kanafani and Zina Sawaf, «Being, doing and knowing in the field: Reflections on ethnographic practice in the Arab region.» (2017): 3-11; Elaine, Scarry, *The Body in Pain: The Making and Unmaking of the World* (New York: Oxford University Press, 1985); Lisa Stevenson, *Life beside Itself: Imagining Care in the Canadian Arctic* (Berkeley: University of California Press, 2014); Diana Allan ed. *Voices of the Nakba: A Living Archive of Palestine* (London: Pluto Press, 2021).

(4) See for e.g.: Salim Tamari, 'Special Issue on Oral History, *Al-Jana: The Harvest* (Beirut: Arab Resource Center for Popular Arts [ARCPA], 2002); Hana Sleiman and Kaoukab Chebaro. «Narrating Palestine: The =

two interviews that this essay engages are drawn from two different oral history collections: the Nakba Archive which documents the accounts of first-generation Palestinian refugees in Lebanon, and the digital book, *Voices: Palestinian Women Narrate Displacement*, part of anthropologist Rosemary Sayigh's later work recorded inside Palestine⁽⁵⁾.

Captured on different mediums (Fatima Sirhan's on video and Umm Faris's on audio-record), the interviews underscore the continuous character of the Nakba as experienced by two Palestinian women who belong to two different generations. Having left Palestine as a teenager, Fatima Sirhan was in her eighties when she was interviewed; while Umm Faris, born several years after the Nakba, and her family likely displaced in the wake of the 1967 war, was in her early forties. These interviews meaningfully account for the transformations that occurred in their lives while also refracting the socio-political environment of the time and place in which they were recorded-around the early 2000s in the aftermath of the Oslo Accords, in Lebanon and Gaza for Sirhan and Umm Faris respectively. The acoustic background to Fatima Sirhan's video is populated with the sounds, shouts, and commotions of the refugee camp of which she is a resident: «Of course I choose to sit under an olive tree in my village. This is no life we are living here», she says. As for Umm Faris, who happened to have recently returned to Gaza at the time of her interview, the stories she narrates are shaped by the various forms and temporalities of Palestinian displacement since 1948.

Gender relations, embodied memories and the experience of exile are themes, inextricable from one another. They emerge when listening to the two women's interviews, with the violence they sustained as young adolescents, and which had irrevocably changed the course of their lives, at the very center of this entanglement. The specific analytical categories of youth and gender thus underpin the concerns of this essay, though not as a shift away from other significant broad social categories and structures, nor

= Palestinian Oral History Archive Project.» *Journal of Palestine Studies* 47, no. 2 (2018): 63-76; and Rosemary Sayigh, Afterword to *Voices of the Nakba: A Living Archive of Palestine*, ed. Diana Allan (London: Pluto Press, 2021).

(5) Fatima Sirhan's video is drawn from the collection of the Nakba Archive, an oral history collective co-founded by Diana Allan and Mahmoud Zeidan in Lebanon in 2002 and part of the Palestinian Oral History Archive at the American University of Beirut (AUB). Umm Faris's audio-recording is published in Sayigh's digital book *Voices* and part of the AUB Libraries Digital Collections.

as an attempt to reify their changing meanings⁽⁶⁾. Rather, in centering the narratives and physical specificities of wounds in the bodies of adolescent girls, this essay considers the political and ideological contours of particular forms of violence that target young girls and explores its personal and structural consequences. As Comaroff and Comaroff put it, «youth stands for many things at once: for the terrors of the present, the errors of the past, the prospect of a future [...] a constant source of creativity, ingenuity, possibility, empowerment. A source of alternative, yet-to-be-imagined futures»⁽⁷⁾. At the heart of this essay then are the manners through which Israeli colonial violence shatters the world by wounding the young; and an obstinate search, in the Palestinian oral history archive, for all the creative human possibilities that aim to refashion it.

Defined as the deliberate exercise of force to inflict injury, violence is the precondition for wounding. More than a mere exercise of wounding, settler colonial violence - a form of incremental genocidal violence in the Palestinian Nakba - is the systematic method of erasure of people, their cultures, and their environment⁽⁸⁾. Fatima Sirhan's story is a testament to the losses and absences that such violence provokes. Born in 1927 to a family of *fellahin* in the village of al-Jish in Galilee, Fatima married Abou Ali (who was also a farmer) when she turned sixteen years old and by 1948, they already had a son together.

In her oral history interview, she describes the village customs and rituals and recounts the joys and hardships of agricultural work in Galilee. More prominent than these vignettes, however, is the story of her physical and emotional suffering. That story begins when she is wounded by an air strike during the 1948 war, and after which she was to be expelled from Palestine, never to return. Although Fatima is unable to recall the exact date of the attack, the details she provides evoke the Israeli army's «Operation Hiram», launched by David Ben-Gurion in October-November

(6) Mayssoun Sukarieh and Stuart Tannock, *Youth Rising? The Politics of Youth in the Global Economy*, Critical Youth Studies (New York: Routledge, 2015).

(7) Jean and John Comaroff, «Reflections on Youth, from the Past to the Postcolony

(8) Nahla Abdo, «Feminism, Indigenoussness and Settler Colonialism: Oral History, Memory and the Nakba.» In *An Oral History of the Palestinian Nakba*, ed. Nur Masalha and Nahla Abdo (London: Zed Books, 2018).

1948. This was a massive aerial, terrestrial and artillery attack that aimed at completing the Israeli occupation of Galilee and ousting Palestinian villagers and members of Jaysh al-Inqadh al-Arabi, the Arab Salvation Army of volunteer fighters that was led by Faouzi al-Qawuqji. During that military operation, the Israeli army committed some of the worst massacres of the war, in villages such as al-Dawayima, Safsaf, Saliha, 'Eilabun, Sa'sa', al-Hussayniyah and Hula⁽⁹⁾. As Fatima describes, her village of al-Jish was not spared the *qayazin*, the barrel bombs that fell on villagers, killing and wounding them, destroying their houses and burning their crops⁽¹⁰⁾.

That same afternoon, Abou Ali, who owned a *bayyara* right by the border with Lebanon, had asked Fatima to flee al-Jish with their son, head to the *bayyara* and wait for him to join her there⁽¹¹⁾. The attack started at dusk just as Fatima was walking out of her house with her infant son. She ran for cover and, with a group of villagers, hid under a big fig tree. But the Israeli planes, menacingly roaming above their heads and relentless in their attacks, began dropping several *qayazin* on them. The fig tree was immediately hit. «There were those whose heads were separated from their bodies; those whose intestines bulged out of their abdomen or through their backs», she explains. «Me...», she continues, «I lost consciousness and it's only when I woke a few minutes later, that I saw that my son, who I had held in my arms, had been killed on the spot and that my legs were completely lacerated, with the skin hanging and the bones visible». Later that night, an ambulance, dispatched by Jaysh al-Inqadh, took her, and several other wounded, and drove past the northern border, first to Bint Jbeil then Tyre. She received basic first aid and had her bandages, «heavily soaked and dripping with blood», changed. Since her condition was unstable and she continued to bleed, she was transferred to the «Joffre Hospital», a field hospital that the League of the Red Cross Societies had set up near the Joffre

(9) Laila Parsons, *The Commander: Fawzi Al-Qawuqji and the Fight for Arab Independence, 1914-1948*. (New York: Hill and Wang, 2016).

(10) Qayazin (or qawazin), term used to refer to large copper barrels stuffed with explosives that were thrown from planes on people during the attacks of Zionist militias on Palestinian towns and villages in 1947-1949. The singular form is *qizan* (or *qazan*), derived from the Ottoman Turkish, it is still used today to refer to barrels and other large containers.

(11) Bayyara: orchard of irrigated crops including citrus trees.

Army Barracks in Beirut, and where she stayed for six months⁽¹²⁾. Facing the camera, Fatima very graphically describes how her legs were immobilized with weights, how pus would continuously come out of her wounds and through the cast, and how she would plead to the doctor to remove it, but he would always refuse, «for your own good, he'd say».

The anthropology of wounds and wounding has considered the many facets of injuries (material, discursive, affective) in individuals and in society, underscoring their contingent techno-legal, socio-political, and ethical meanings. Mobilized in contexts of pervasive violence, wounds often involve the objectification of suffering; they shape, and are shaped by, institutional exchanges as well as in the interactions of everyday life⁽¹³⁾. This objectification of suffering has direct political consequences. In the specific context of ongoing settler colonial violence in Palestine, the crude, graphic and visceral representations of injuries and wounding are sometimes mobilized to make specific claims - namely a plea meant to demonstrate the humanity of Palestinians - and effect the realization of humanitarian and political projects. Such a politics of representation, in which wounds 'speak for themselves', can overlook how socio-cultural institutions and, indeed, power influence how the experience of acute suffering is articulated, communicated, and understood⁽¹⁴⁾. «Immediated» figurations of suffering, that occur 'in the moment', do not necessarily have more potential to convey an authentic truth and the representation «of damaged bodies as locus of proof and sentiment» often emerges as a process that continues to be ineffective (at best), or that detractors of the Palestinian struggle depict as a form of political machinery and cynicism (at worst)⁽¹⁵⁾.

(12) The barracks are named after the French Marechal Joseph Joffre. For more information on early Palestinian exile to Lebanon, see: Jihane Sfeir, *L'exil Palestinien Au Liban: Le Temps Des Origines (1947-1952)* (Paris: Karthala, 2008).

(13) Susan Sontag, *Regarding the Pain of Others* (London: Penguin Books, 2019); Omar Dewachi, «When wounds travel.» *Medicine Anthropology Theory* 2, no. 3 (2015):61-82; Lamia Moghnieh, «Infrastructures of Suffering: Trauma, Sumud and the Politics of Violence and Aid in Lebanon.» *Medicine Anthropology Theory* 8, no. 1 (2021): 1-26.

(14) William Mazzarella, «Internet X-ray: e-governance, transparency, and the politics of immediation in India.» *Public Culture* 18, no. 3 (2006): 473-505; Lori Allen, «Martyr Bodies in the Media: Human Rights, Aesthetics, and the Politics of Immediation in the Palestinian Intifada.» *American Ethnologist* 36, no. 1 (2009): 161-80

(15) Allen, «Martyr Bodies in the Media».

In the way she remembers her ordeal, Fatima emphasizes the process of wounding more so than she attempts to express her constant physical discomfort and her pain; and she describes her wounds by the weapons used to maim her. This association weapon-wound reveals how injuries aim at human obliteration: human bodies (like Fatima Sirhan's) are purposefully harmed using tools and technologies - and these are artifacts of collective human thinking and making - to contribute to the eradication of human creative forces⁽¹⁶⁾. However, this association is also ambivalent: in the way that it brings Fatima's wounds into the public realm, it can work to create a compassionate connection with her pain or, on the contrary, provoke a disconcerting distance. In the same vein, the materiality of wounds, the physical and embodied traits of injuries, are also deflected through social manifestations of various trauma. Anthropologist Omar Dewachi tells the story of another refugee in contemporary Lebanon: Hussein, an Iraqi man who had been tortured and maimed in his home country and who had sought refuge in Beirut. Focusing on the interactions Hussein has in the leftist bar where he works as a waiter, Dewachi shows how entangled local and regional histories of conflict and violence corroborate, refute, or challenge the claim-making activities that are centered around wounds, revealing for example the limits of humanitarian logic and intervention. If Hussein's wounds are key to the processing of his claims to resettle in the United States, they are conversely a target of suspicion in Beirut, a milieu where political violence, and the bodies that bear its brunt, are legitimated or delegitimated by different social actors. Hussein was indeed fired from the bar after former militants, who had been maimed, imprisoned, and tortured themselves, became annoyed with him every time he showed them his scars⁽¹⁷⁾.

Quotidian, social, and institutional frameworks thus concur to shape the meanings associated with public expressions of pain mediated through the materiality of wounds. But the embodied physical characteristics of wounds allow us to contemplate another set of equally complex relationships between the public display of suffering and the private feelings of having been harmed, on one hand, and between the social character of violence and

(16) Scarry, *The Body in Pain*.

(17) Dewachi, «When wounds travel».

the individual experience of pain, on the other. Could testimonies of wounds be attended to on these terms then? Fatima's account, as well as Umm Faris's which I engage later in this essay, seem to suggest that they can, and indeed must, be read in a different light, one that does not necessarily find its voice through the universalizing and homogenizing lens of violated human rights. Language objectifies personal pain and brings it into the world, though whatever wounding achieves, it also achieves through the un-shareability of pain, its resistance to language, and propensity to destroy it. Instead of words, sounds, and cries, and in lieu of a meaningful mode of expression that makes way with pain, it is a language that contributes to its world-shattering capacities⁽¹⁸⁾. In Omar Amiralay's 1997 documentary *There are many things left to say*, playwright Saadallah Wannous, suffering from advanced throat cancer, struggles to articulate his pain. From his hospital bed in Damascus, he describes how the 1991 Gulf War was a blow so painful that he could only sense its effects in his throat - long before he was even diagnosed - and explains how he became increasingly aware of a foreign mass growing in his pharynx as American bombs fell on Iraq⁽¹⁹⁾. Put differently, extreme pain eludes meaningful representation. In the process, it collapses and unmakes the world; but being in physical pain also brings one back to their own body, and it is precisely through this perpetual movement of return (to the body) that human imagination - transcending the embodied state which pain reduces oneself to - can strive to remake the world⁽²⁰⁾. A critical element is the relationship of bodily suffering to language and the world, and the connectedness of individual wounds to collective suffering⁽²¹⁾. Fatima and Umm Faris's tenacious testimonies are thus another forceful manner by which to counter settler colonial violence and its aim to dissolve collective life through wounding.

(18) Scarry, *The Body in Pain*.

(19) Omar Amiralay, *There Are Still So Many Things Left to Say*, (Syria:1997), 49 min.

(20) Scarry, *The Body in Pain*.

(21) In *Illness as Metaphor*, Susan Sontag explores how metaphors are used to refer to illnesses such as cancer and contends that the cultural discourses surrounding these illnesses may have detrimental consequences. In this essay, I am less concerned with how diseases or injuries become metaphors. Rather, my framing here underscores the ways in which the expression of tremendous pain, almost linguistically impossible, involves the return of oneself to the body, and how an embodied expression of pain, such as one mediated through injuries, can transcend the world-shattering effect (individual and collective) that pain has created. See: Susan Sontag. *Illness As Metaphor*. (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1988).

«My leg still hurts very much», says Fatima as she takes her slippers off to show her scars in front of the camera. «See, what you have here», she asserts, pointing to a constellation of scars above and around her right ankle. Her skin, riddled with creases and wrinkles, looks like a crumpled blanket with a thousand tiny holes. «See, that's from surgery... and that's from another surgery, and here, you have another, and also here.». Holding the toes of her right foot in the cusp of her hand, she goes on: «here are my toes, I haven't felt, nor moved them in a very long time». She lifts her dress a little, and gesturing toward her left knee, shows two larger and longitudinal scars from other surgeries she had to have after the bombing. Fatima finally brings both her arms across her chest, and pointing at her armpits, declares: «I have nothing but shrapnel and metal inside of me». Though women reconstitute subjective feelings through their narratives, certain affects, desires, and longings find their expression in images, rather than through linguistic means: images that can «express without formulating», capturing «uncertainty and contradiction without having to resolve it» and that can «drag the world along with them»⁽²²⁾. Imagistic representations of wounds-aural, visual as in Fatima's case, or even textual-poetic-replace formal, linguistic explanations when the reality of the lived experience is too powerful, too painful and too great to express in ordered language. When descriptions of private pain are uttered linguistically, through publicly known grammar and rules, they will almost always stumble - the word 'pain' itself referring only to a sensation yet unable to describe it⁽²³⁾. In oral history interviews, the work of memory and recovering adds a personal subjective dimension to the collective history of the Palestinian Nakba⁽²⁴⁾. Processes of remembering through the body bring closer the concrete vividness of encounters with people, places and things. They are processes of subjectification, in and of themselves, through which women become «subjects and live their lives as a story within a history»⁽²⁵⁾. Because it is not aimed at producing a narrative structured

(22) Stevenson, *Life Beside Itself*, 10-11.

(23) Ludwig Wittgenstein, G. E. M. Anscombe, P. M. S. Hacker, and Joachim Schulte. *Philosophical Investigations*. Revised 4th edition. (West Sussex, U.K.: Wiley-Blackwell, 2009).

(24) Ruba Salih, «When Women Remember: Gender, Trauma and Counter-memories» In *Voices of the Nakba: A Living Archive of Palestine*, ed. Diana Allan (London: Pluto Press, 2021).

(25) Ruba Salih, «Bodies That Walk, Bodies That Talk, Bodies That Love: Palestinian Women Refugees, Affectivity, and the Politics of the Ordinary» *Antipode* 49, no. 3 (2017): 747.

around proof, symptomatologic or medical discourses, Fatima's testimony stands in stark contrast with the authorizing predispositions that wounds can assume⁽²⁶⁾. The way her story unfolds is political, though it does not attempt to draw immediate links with a well-ordered and coherent political plot like a revolution, an anti-colonial struggle, or a nationalist project. When the interviewers prompt her to provide dates or to name specific political actors, she replies with «I don't know», «I don't recall», «I am not sure who they were, just armed men». Nevertheless, she draws another horizon for politics, one that is grounded in her propensity to attend to the things, people, and places that matter. She remembers in explicit details the journey of the ambulance that transported her from al-Jish to the Joffre Hospital in Beirut, as well as all the stops it made along the way. Grateful for the people she loved and who loved her back, Fatima also displays a commitment to a politics that is also grounded in female solidarity. She recalls the names of two women friends who were injured during the barrel bomb strike and who survived: Neda and Najiyeh, who moved to Aleppo and Hama. An older woman when she is interviewed, Fatima conjures her younger self. The scars from her injuries, that she displays in front of the camera, are signs that construct and help construe our understanding of time⁽²⁷⁾. They are literal, visceral and temporal configurations that point both backward and forward, bringing under sharper focus the processes and transformations through which settler colonial violence seeks to eliminate and mutilate native bodies. From the moment Fatima's adolescent body was wounded, her life was irreversibly altered. As her young body grew - and female bodies bear a metonymic relation to life, social reproduction, and care - it continued to carry the imprint of the 1948 war.

Similarly, listening to Umm Faris's audio-record makes clear her desires to address her personal pain instead of mere 'political sufferings'. When Rosemary Sayigh interviews her in 1998, part of the Palestinian Voice Archive project, Umm Faris had relocated to the new, low-rent, residential district of Sheikh Radwan in Gaza city from the nearby al-Shati' refugee

(26) For e.g.: wound narratives mobilized to effect certain humanitarian claims, or the medical language used to describe wounds and lacerations.

(27) Scarry, *The Body in Pain*.

camp that the Israeli army had bombed to the ground⁽²⁸⁾. In the conversation she has with Sayigh, she highlights the terrific scars on her body and evokes the past as the site of an original wound - physical, personal, and historical - that shapes her present and the possible trajectories of the future she imagines for herself⁽²⁹⁾. «I want to talk about my own personal sufferings, is it ok?», she asks. She recalls her marriage, when she was a young adolescent, to a resistance fighter (and high-ranked member of Fatah) in 1978 in Baghdad and stresses her subsequent peripatetic, difficult, and very lonely travels to a multitude of places and cities - from Damascus to Geneva. Umm Faris' momentary encounter with Sayigh, though embedded in a long and familiar history of violence, is also suspended in a political time during which the Israeli military had begun the progressive transfer of control of the Gaza Strip to the Palestinian Authority (P.A.), in addition to the concomitant construction of the barrier which helped transform the strip into the world's largest, open-air, prison. As Sayigh describes, a friend she had in common with Umm Faris had suggested she meets with her because of the singularity of her experience: Umm Faris who had been working with UNRWA as a social worker had returned to Gaza - her birthplace - following several years as an exile from Lebanon, a context that had always been particularly violent for Palestinians. Beyond her wounds, Umm Faris's testimony historicizes gender relations, sexual and reproductive health, sociopolitical dynamics, and the contested meanings of home from the perspective of a woman who was made a refugee and whose body was maimed when she was a young adolescent mother.

In Gaza, Umm Faris lived in a home she had progressively built herself with the help of her neighbours and her two sons on a small plot of land she obtained through a grant from the Palestinian Ministry of Social Affairs. In her interview, she thoroughly describes how she had borne her two children (Youssef, born 1979 at Baghdad Medical City; and Mohammad, born 1981

(28) Sayigh began this archive in the early 1970s. The interviews she conducted in Gaza at a later stage were audio-recorded then published in the digital book *Voices: Palestinian Women narrate displacement*, accessible online at the al-Mashriq digital archival database.

(29) I develop how Umm Faris' oral history interview makes way for a different form of engagement with the archival record of the Palestinian Nakba in an upcoming volume dedicated to the Nakba Archive collection. For more information, see Diana Allan Ed., *Voices of the Nakba: A living Archive of Palestine* (London, UK: Pluto Press, 2021).

at al-Shifa hospital in Gaza - both delivered by cesarean section) and recalls how, physically worn out and exhausted from displacement and illness, she had become a young widow when, in 1991, the Majlis al-Thawri (the revolutionary council) of the Abu Nidal Organization had assassinated her husband, forcing her away from the city of Saida, first to Badawi Camp in north Lebanon, then back to her native Gaza, via Amman, with her two sons. Umm Faris was raising her children alone; she had little contact with her husband's family (he was from another part of Palestine) and her ties with her own Gazan family were not solid either. The life-threatening complications she developed after giving birth to her second son Mohammad at al-Shifa hospital in Gaza had provoked many of her travels. During her cesarean section, «cotton and gauze were left inside [her] belly» causing «[her] guts and [her] intestines to decay». «*m'afneen*», she says⁽³⁰⁾. Back in Baghdad, and suffering from excruciating pain, she underwent a series of surgical interventions where doctors «cleaned and removed everything and tied all [her] intestines and put them back inside [her]». Unfortunately, these multiple surgeries caused her to develop further complications: several intestinal occlusions and a hernia through which the food she ate would repeatedly «burst out of [her] abdomen, through the skin». Weighing a mere 35 kg by then, she would be urgently transferred to Switzerland, thanks to her husband's connections and with the support of Fatah. In Geneva, an American surgeon would perform multiple operations on her body, installing a colostomy bag, before removing it and re-attaching her colon to her rectum.

Umm Faris' body registered her physical sufferings from the complicated childbirth, as well as her experience with displacement across the different countries of the region. Some facets of her life can be linked to broader sociopolitical and historical conjunctures. She had momentarily settled in Iraq with her husband who had been stationed there as a senior member of Fatah. Their living situation had turned quite arduous as Iraq waged war with Iran (1980-1988) and Palestinian-Iraqi relationships subsequently deteriorated. «I was sick and alone in Baghdad with no one to take care of me or ask about me, or my children. I only had my husband and he only had me», she told Sayigh. Both al-Shifa' hospital and the Baghdad Medical

(30) Rotten and to be discarded.

City had been built by the British during the period of the Mandate and had subsequently been transformed over time, responding to, and shaped by, war, occupation, and besiegement. The staff at Baghdad Medical city, already working under hardship and duress because of the Iran-Iraq War, were unable to provide Umm Faris with proper care. With armed conflicts prevalent in the region, healthcare professionals are forced to repeatedly deal with mass casualties and work with little resources and under tremendous levels of stress. They do not manage, however, to retain and institutionalize the knowledge and practices they produce and develop. Every time a renewed episode of violence erupts, doctors, nurses and hospital personnel must relearn everything⁽³¹⁾.

If genocidal violence is one logic through which to characterize the ongoing process of the Nakba, then maiming, where force and power aim to harm just short of killing, is another⁽³²⁾. The «right to maim», a form of violence that emerges from a conjunctural relationship between ethnicity, political economy, and history, contributes to the creation of infrastructures that provoke a ‘slow death’, a state in which people exist only in as much as they constitute a source of value that can be extracted⁽³³⁾. Umm Faris’s illness, as a form of injury that arises from overdetermined configurations of structural exclusion and violence, disallows death, yet enables the production and reproduction of unlivable conditions of life, work, and love⁽³⁴⁾. Despite it all, Sayigh asserts that the Umm Faris she met was a woman who has had to rely entirely on herself to survive but who had also managed to build strong kinship ties with neighbors, friends and benevolent members of the community who supported her along the way. After her husband disappeared in Saida, friends helped forge identification papers for her and her two sons to allow them to return to Gaza. In the district of Sheikh Radwan, neighbors also often dropped by her house to check on her and make sure she always had everything she needed. Conversely, Sayigh contends that Umm Faris,

(31) Ghassan Abu Sittah, Omar Dewachi and Nabil Al-Tikriti, «The Evolution of Conflict Medicine in the Middle East-An Interview with Ghassan Abu Sittah,» *Middle East Report* no. 297 (Winter 2020).

(32) Jasbir Puar, *The Right to Maim: Debility, Capacity, Disability*. (Durham: Duke University Press, 2017).

(33) Ibid.

(34) João Biehl, *Vita: Life in a Zone of Social Abandonment*. (Berkeley: University of California Press, 2013); Puar, *The Right to Maim*.

though back in her native town, in a home she owned, still felt unsafe as she told Sayigh that she did not want her real name revealed, feared repercussions in her workplace because of any information she might disclose in the interview, and worried about the future of her sons⁽³⁵⁾.

By way of an intimate ethnographic engagement with women who suffered from various illnesses in the south of Italy, anthropologist Mariella Pandolfi shows how the bodies of women are both a historical and a phenomenological memoir through which distress can be interpreted⁽³⁶⁾. Describing oneself through one's own body confirms a particular sense of being present in the world, a presence also configured by social and historical structures that produce specific cultural roles and forms. Regardless of how these cultural expectations sought to discipline female expressions, feelings and behaviors, they still refracted a world in which women strived to face uncertainty and alienation. Pandolfi writes about the case of Maria, a peasant woman who regularly visited a doctor (instead of the traditional healers as is the custom in her village) to obtain medicine to alleviate her pains from living in a rapidly changing world. Though Maria resorted to a professional healthcare practitioner, she spoke of her suffering not as illnesses but in terms of the sick parts of her body, a discourse characteristic of the historical peasant customs of her village⁽³⁷⁾. Likewise, in the audio-recording, Umm Faris does not hesitate to make explicit and felt for her listeners all the manners with which she's dealt with her own world. Right as she is recounting all the surgeries she had, Umm Faris interrupts the conversation with Sayigh to ask her if she would get close to see her abdomen. Listening to that segment of the audio-recording, we intuit that Umm Faris had lifted her clothes to reveal her scars. Sayigh's response is one of surprise, but also illumination: «this scar goes straight into your heart», she tells Umm

(35) Rosemary Sayigh, *Voices: Palestinian Women Narrate Displacement*, (Beirut: Al Mashriq site, 2005). <https://lib-webarhive.aub.edu.lb/BorreLudvigsen/http://almashriq.hiof.no/palestine/300/301/voices/index2.html>

(36) Drawing from the works of Croce, De Martino and Gramsci, Pandolfi attempts to reconcile two philosophical traditions which have dominated the study of Italian southern societies: historicism and phenomenology. Mariella Pandolfi, «Boundaries Inside the Body: Women's Sufferings in Southern Peasant Italy.» *Culture, Medicine and Psychiatry: An International Journal of Comparative Cross-Cultural Research* 14, no. 2 (1990): 255-73.

(37) Pandolfi, «Boundaries Inside the Body».

Faris, revealing how the material, the physical, the psychosocial and the political cannot be disentangled. Umm Faris's embodied pain had thus linearly erupted into public domain. Her embodied performance, as she lifts her dress and shows her scars, invited a deeply intimate, perhaps even uncomfortable, engagement with her suffering. Her voice, asking Sayigh to come closer, followed by Sayigh's comment, had enabled her to project her embodied experience in both space and time and similarly extend the expanse of her wounds, beyond the physical confines of her body, to other spaces and moments that define collective life.

In her literary, vivid, and often quite graphic discussion of torture, Elaine Scarry shows that the greater the pain inflicted by the torturer, the smaller the wounded's world become⁽³⁸⁾. And as the wounded's world continues to shrink, the larger the wounder's world becomes and the stronger their power. What does it mean then to speak on behalf of those who have been wounded or those who are in pain? In their social dimensions, wounds are the «interstitial tissues» that bring people together or further drifts them apart, through a competing wound economy - a property that can underscore the contingent character of the values attributed to suffering⁽³⁹⁾. If wounds are indeed this connecting tissue through which relations are made and unmade, then tending to women's testimonies in the Palestinian oral history archive is very much like looking at the photograph of a person we love and lost. It is a wounding encounter that «fills the sight by force, because in it nothing can be refused or transformed»⁽⁴⁰⁾. From this encounter emerges the full ambivalent character of a testimony of wounds that holds the marks of both the perpetrator (what they did) and the survivor (how they were maimed). Even if a testimony exceeds its own representation («it fills the sight by force»), it remains a practice that develops because of cultures of witnessing that encompass promises of redemption (for the perpetrators) or redress and restorative justice (for the survivors). Besides, these cultures of

(38) Scarry, *The Body in Pain*.

(39) Dewachi, «When wounds travel»; Moghnieh, «Infrastructures of Suffering».

(40) Roland Barthes, Trans. Geoff Dyer. *Camera Lucida: Reflections on Photography* (New York: Hill and Wang, 2010), 91.

witnessing can sometimes be complicit in historical violence⁽⁴¹⁾. For instance, in the case of the Mohawk nation, the consolidation of salvage ethnography, known today as the anthropological recording of social practices and cultures threatened with extinction, corresponded with the incremental continuation and transformation of settler colonial violence⁽⁴²⁾. In other contexts, and through ritualized patterns, colonizers also sought healing from the very same people which had been the targets of prior forms of colonial violence⁽⁴³⁾. «Europe is doomed», wrote Sartre in his preface to *The Wretched of the Earth*, «our victims know us by their wounds and shackles: that is what makes their testimony irrefutable», he added⁽⁴⁴⁾. Irrefutable to whom, and why, we might cynically ask.

Medical descriptions and diagnoses, reports of international organizations like Amnesty or Médecins Sans Frontières, transcripts of human rights trials, and artists' poems and prose bring pain into the public realm and represent, through language, different types of wounds and injuries on behalf of those who were wounded⁽⁴⁵⁾. Because they are composites of words, images, and embodied, aural, visual, and linguistic insignia, Palestinian women's oral history accounts prompt another kind of ethnographic engagement with wound narratives, where the intimate experience of sharing one's scars becomes the basis for relation, and for a way of knowing violence and remaking the subject in the wake of violent injury. If this essay engages the Palestinian oral history archive to explore how, and if, pain's world-shattering capacities can be undone, it is likewise inevitably haunted by the recent heightened episode of ethnic cleansing in Palestine, the unrelenting Israeli bombing of Gaza, and the subsequent deaths and injuries that this violence continues to produce. Over the past two months, like millions of people across the planet, I read stories of grief, death and loss and I

(41) Allen, Feldman. «Memory Theatres, Virtual Witnessing, and the Trauma Aesthetic» *Biography* 27, no. 1 (2004): 163-202.

(42) Audra Simpson, *Mohawk Interruptus: Political Life Across the Borders of Settler States* (Durham: Duke University Press, 2014).

(43) Michael, Taussig, *Shamanism, Colonialism, and the Wild Man: A Study in Terror and Healing* (Chicago: University of Chicago Press, 1987).

(44) Jean-Paul Sartre, Preface to *The Wretched of the Earth* by Frantz Fanon (New York: Grove Press, 2004), 48.

(45) Scarry, *The Body in Pain*.

scrolled endlessly through my social media timeline glaring at moving and still images of decimated and wounded bodies of Palestinians, young and old. Much like what happened to Fatima Sirhan and Umm Faris, children and young adolescents who were injured will likely suffer from various forms of lifelong disabilities and will require repeat surgeries as their bodies continue to grow. In the words of Ghassan Abu-Sitta, a Palestinian surgeon who's been treating and operating on the wounded since the First Intifada: «What if re-injury in future wars is a probability? [...] This is the future that awaits kids in Gaza»⁽⁴⁶⁾.

Drawing on the narrative, embodied and imagistic forms through which Umm Faris and Fatima Sirhan have represented their experiences with injuries, this essay has attempted to outline what wounds might look like, unravel, or conceal in the oral history record. As «wounds travel» in space and time, they invite a rethinking of historiographic and anthropological practices, and question how subjects attempt, or not, to dislodge their suffering, express it, or become invested in various political projects⁽⁴⁷⁾. In a context marred by conflicts and wars, wound testimonies exist because of the difficulties of articulating terror, and pain through speech. If violence is overbearing to the point of becoming almost uneventful, and in all cases inseparable from the lived experience of everyday life, can and must it be squarely named?⁽⁴⁸⁾ And how? The political impasse lies here: it is directly proportional to our incapacity to formulate the pain of living in a present while simultaneously imagining a future already foreclosed. Engaging the accounts of Umm Faris and Fatima Sirhan means both «living-in-violence» and experiencing it in the form of an encounter⁽⁴⁹⁾. In the Palestinian oral history archive, the testimonies of wounds do several things at once: they do not rescind the violence, nor do they explicitly name it; and yet, they transcend it. Through their interviews, these women's accounts resist normative testimonial modes of naming violence while also articulating an alternative subjectivity through

(46) Ghassan Abu-Sitta, Twitter Post, May 26, 2021. <https://twitter.com/GhassanAbuSitt1/status/1397477624604237824?s=20>

(47) Dewachi, «When wounds travel».

(48) Lamia Moghnieh, «'The violence we live in': reading and experiencing violence in the field.» *Contemporary Levant* 2, no. 1 (2017): 24-36; Sami Hermez, *War Is Coming: Between Past and Future Violence in Lebanon* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2017).

(49) Moghnieh, «The violence we live in».

their pain - one that actively resists assimilation or dissolution; and one in which the struggle to remake and reinvent the world is both inevitable and constant. This tension, and movement, between the individual and the social, the private and the public, the unuttered and the inaudible, and the forms of subjectivities forged through pain, recreates in each instance the collective life that dominant socio-political orders seek to obliterate.

Primary Sources:

Interview with «‘Umm Faris», Sheikh Radwan, Gaza City, April 12, 1998. Rosemary Sayigh, The Palestinian Voice Archive, published in *Voices: Palestinian Women Narrate Displacement* (Al Mashriq, 2007), last accessed February 1, 2021.

http://almashriq.hiof.no/palestine/300/301/voices/Gaza/halima_hassouna.html.

Interview with Fatimah Sirhan, Lebanon, September 29, 2003. The Nakba Archive Collective, part of the Palestinian Oral History Archive at the American University of Beirut, last accessed March 24, 2021. <https://n2t.net/ark:/86073/b35p7h>

المحور الثالث
في الحروب وتداعياتها على القاصرات

الأمّهات الطفلات

والتبني غير الشرعي أصوات مكتومة لحروب مستمرة

مقدمة

يهدف هذا البحث إلى عرض مُقارَنة جندرية نقدية للتبني الدولي عبر تظهير الصوت المكتوم للأم/الوالدة المُجبرة غالباً على حمل غير مرغوب فيه فيما هي لا تزال قاصرة. فلطالما عمَد المروّجون للتبني تصوير الأم/الوالدة (وهي غالباً من الدول الفقيرة) على أنها غير مؤهلة لرعاية طفلها بالمُقارنة مع الأم المُتبّنة (وهي غالباً من الدول الغنية) التي تصوّر كملاك مُنفذ.

يكتسب هذا الموضوع أهمية قصوى، وخصوصاً في ظلّ الظروف غير المسبوقة التي يمرّ بها لبنان بعد تفجير 4 آب/أغسطس 2020 مُتسبباً في مقتل 200 شخص، وإصابة أكثر من 7000 جريح، وتشريد المئات من العائلات. يحدث كلّ هذا في ظلّ أزمة اقتصادية أدت إلى ارتفاع في متوسط أسعار المواد الغذائية بنسبة 400 في المئة، بحيث يُقدّر البنك الدولي أنّ 45 في المئة من السكّان يعيشون الآن تحت خطّ الفقر. هي ظروف تُنهك العائلات الفقيرة، ولاسيما تلك التي تُديرها أمّ منفردة. وضع مُتأزم، وتفُلت أمني، وفساد... كلّها أوضاع تُشكّل أرضاً خصبة لتسهيل التبني الدولي وتعريض المزيد من الأطفال لخطر

زينة إسماعيل علّوش

الانفصال عن عائلاتهم/نّ، ومُجتمعاتهم/نّ، وأصولهم/نّ. فخلف كلّ طفل/ة، هناك أمّ/ والدة مكتومٌ صوتها إلى حين.

وعلى الرّغم من أنّ جائحة كورونا أثّرت في الحدّ من عمليّات التّبني بسبب انقطاع الرحلات الجويّة الدوليّة وإغلاق الحدود، إلّا أنّ الوباء ألحق أضراراً بالغة بالاقتصاد العالميّ، ما سيؤدّي إلى زيادة الفقر بالتّرافق مع اتّساع الهوة بين العالم الغنيّ أصلاً والعالم الذي بات يترنّج تحت وطأة البطالة والفساد المُستشري. وتُشير التقارير إلى أنّ العديد من المنظّمات الرّبحيّة التي تُسهّل عمليّات التّبني تتهيأ لاستهداف الدول الأكثر تأثراً بالجائحة عند رفع قيود السفر.

هنالك مفاصل تحوّل أساسيّة، وليست الوحيدة في تاريخ التّبني، تستدعي قراءة نقدية معمّقة، ولاسيّما أنّ العالم العربيّ بشكل عامّ ولبنان بشكل خاصّ، لم يكونا بمنأى عن التّبني الدوليّ الذي أدّى إلى الاتّجار بحوالى 10 آلاف طفل/ة إبّان الحرب في لبنان وما نتج عنها من تداعيات أمنيّة واجتماعيّة واقتصاديّة. أوضاع ضاغطة وتفلّت أمني وفقدان لشبكات الأمان، كلّها عوامل خطر جعلت العديد من النساء، ومُعظمهنّ قاصرات، في وضع حمل غير مرغوب به. في وقت نشطت فيه أدوات منظّمة تُسهّل التّبني عبر البلاد وتجعل منه خلاصاً وحيداً للآم الطفلة وجنينها في آن. وقد تزامنت الأوضاع عينيها مع موجة اللّجوء السوريّ إلى لبنان التي أدت إلى ظاهرة تزويج القاصرات بما يُشبه تجارة الرقيق. هذه الظاهرة استدعت صحباً إعلاميّاً وبرامج تدخّل أمنيّة من دون السؤال عن مصير أطفال هذه الزيجات، وسط مؤشّرات عدّة تدلّ على سقوط العديد منهم/هنّ في نظام التّبني الدوليّ. هكذا يُصبح الانتهاك ضدّ القاصرات المُرغمات على الزواج انتهاكَيْن: الأوّل عند سرقة أعمارهنّ عبر التزويج القسري المبكّر، والثاني عند حرمانهنّ من أطفالهنّ.

منهجية البحث

يعتمد هذا البحث على مُراجعة نظريّة لتاريخ التّبني الدوليّ ومُقاربتة كممارسة استعماريّة مرتبطة بالنظريّات ما بعد الكولونياليّة، فضلاً عن الإضاءة على مسارات تحوّل أساسيّة في التّبني عبر البلاد والإضاءة على دور وكالات التّبني. كما يعرض البحث لواقع

لبنان مع التبني الدولي لكونه أحد البلاد المصدرة له على الرغم من غياب أي قانون مدني يُنظم هذه العملية. وينظر البحث في الآثار المترتبة عن التبني الدولي على الأطفال (علماً أن لا فرق في الأثر بين الذكور والإناث) مدعّمة بشهاداتٍ لمُتبّنين ومتبنّيات تدحض النظرة الرومانسية إلى التبني الدولي، أي بكونه الملاذ الأفضل للأطفال الذين «تخلّت عنهم أمٌ غير مسؤولة». فالحقيقة هي أنّ الأم الوالدة تمثّل الحلقة الأكثر ضعفاً في سلسلة العنف المؤسّساتي المُتفاقم في الحروب والأزمات الاقتصادية الشديدة كتلك التي يمرّ بها لبنان حالياً. كما يُقدّم البحث بعض الحلول للحدّ من ظاهرة التبني عبر البلاد.

التبني الدولي من منطلق نظري

يُشكّل التبني الدولي قطبةً مخفيةً للحروب والكوارث الطبيعية يندر الحديث عنها في ظلّ غياب إحصاءات عالمية دقيقة حول عدد الأطفال ضحايا هذه الممارسة، بما أنّ معظمها يتمّ بطريقة غير شرعية. ولطالما لبس التبني رداء العمل الخيري الذي ينقذ الطفل/ة من مأساة الإجهاض غير المحميّ أو التخلي، عبر منحه/ها أمّاً، وعائلة، وجنسية في بلد آخر. يتزامن هذا المنظور مع ترويج مفاهيم تجعل من التبني حلاً سريعاً لعائلاتٍ لم تتمكّن من الإنجاب، وذلك بالاستحصال على طفل/ة يلبي صورة الأمومة المفقودة. وهكذا يصبح التبني فضيلة المتنوّر الحضاري، ويُصنّف رافض التبني على أنّه غير إنساني وأقلّ انفتاحاً.

إلا أنّ التبني الدولي بات موضوع نقدٍ، بخاصّة مع ظهور الجيل الثاني والثالث من متبنّين/ات أعلوا/ين الصوت وكشفوا/ن اللثام عن تجارب حياة أليمة، وانتهاكات، ومُشكلات عميقة على مستوى تشكّل الهوية الشخصية والانتماء. هذه التعقيدات أدّت بالحكومة الهولندية (كدولة مُتبنيّة) إلى وقف عمليّات التبني الدولي في العام 2021، استجابةً لجهود بذلّها المُتبّتون/ات في توثيق ممارسات غير قانونية وغير أخلاقية في عمليّات التبني الخاصة بهم/ن اعتباراً من السبعينيات. فقد كشفت اللجنة المُكلّفة بالتحقيق في هذا الملف عن عمليّات فساد، وتزوير وثائق، وإجبار الأمّهات على التخلي عن مواليدهنّ لأغراض التبني. كما برهنت اللجنة عن أنّه في كثير من الحالات، تقاطعت هذه الممارسات مع الاتجار بالأطفال لأغراض التبني. وفي العام 2018، حظرت ألبانيا

إرسال أطفالٍ لأغراض التبني بعد أن وثقت العديد من الانتهاكات التي تعرّض لها الأطفال المتبنّون/ات. وفي السنة عيّنها، أصدرت حكومة كندا قانوناً يمنح المتبنّين/ات الحقّ في الوصول إلى معلوماتٍ عن العائلة البيولوجية.

وقبل الخوض في الأسباب، والآثار، والعواقب، تتطلّب مقارنة مفهوم التبني عرضاً للسياق التاريخي على المستوى العالميّ وواقع لبنان من هذه الممارسة، وذلك بعيداً عن الصورة النمطية إعلامياً التي تُروّج التبني على أنّه عملٌ خيريّ إنفاذيّ.

تحديد مفهوم التبني

يتطلّب المعنى المعاصر للتبني فهماً مُعمّقاً للمراحل الرئيسة من التطوّر التاريخي التي مرّت بها هذه الممارسة واختلافاتها من حيث الدوافع، والمَسارات، والتحدّيات. وهنا لا بدّ من تحديد أنّ للتبني أشكالاً كثيرة منها التبني المحليّ (أي في الدولة نفسها)، والتبني الدوليّ (بين دولة وأخرى)، والتبني بين الأعراق (ولاسيّما تبني الأطفال من العرق الأسود أو الملون من قبَل عائلاتٍ من العرق الأبيض). كما هناك التبني المفتوح (الأم/الوالدة معروفة) والتبني المغلق (يجري تزوير المعلومات في الوثائق الرسمية لكي تُصبح إمكانية البحث عن الأم الوالدة صعبة أو شبه مستحيلة). وغالباً ما يتقاطع التبني الدوليّ مع التبني بين الأعراق حيث يكون مغلقاً أيضاً. ولأغراض هذا البحث سوف يُصار إلى استعمال تعبير التبني في الإشارة إلى التبني الدوليّ/العرقّي/المغلق، الذي يستلزم قطع الروابط مع الأسرة البيولوجية للطفل، وتجهيل الأم الوالدة، وفرض الاندماج الكامل في الأسرة الجديدة.

التبني والنظرية ما بعد الكولونيالية

من المُهمّ بمكان فهم العلاقة بين التبني والمنظور الاستعماريّ لأنّ التبني، في جوهره، يقوم على علاقةٍ غير مُتساوية بين الشمال الغني والجنوب الفقير، إذ تُشير التقارير الدولية إلى حركة تبنيّ من دول الجنوب إلى دول الشمال وليس العكس. ويؤسّس انعدام التساوي «لخللٍ منهجيّ مُنحاز إلى تعريفاتٍ وقيمٍ وممارساتٍ تُضَع الاستعمار في

مرتبة أعلى وتمنحه شرعيةً فَرَضَ هذه التعريفات على الجنوب⁽¹⁾. في السياق عينه، يعتبر إدوارد سعيد⁽²⁾ أنَّ المُفكرين الغربيين صَوَّروا الثقافة الشرقيّة على أنَّها بدائيّة مُقارنةً بالغرب المُتَحَضَّر، ما مهَّد للاستعمار مُستمرّ على شكلِ فسادٍ وحروبٍ أهليّة. ويرى جون ماكلويد، وهو باحث في نظريّات التبنّي، أنَّ الاستعمار يهدف إلى إعادة تشكيل العلاقات الأُسريّة بشكلٍ استراتيجيّ عبر جعلِ أطفال هذه الأُسَر قابلة للتبنّي بشكلٍ يتقاطع مع قابليّة النقل من البلد المُستعمر إلى البلد المُستعمر، كوسيلةٍ مُستدامة للإبقاء على سيطرة الاستعمار بعد استقلال الدول⁽³⁾.

في مجال التبنّي، يبدو من المهمّ جدّاً وضع هذه الممارسة في سياق هذا الانقسام الاستعماريّ، لأنّ الأطفال المُتبنيين/ات يتمّ نقلهم/نّ في المقام الأوّل من الجنوب إلى الشمال ومن العرق المملون إلى العرق الأبيض. وعليه، فمن مصلحة البلدان «المُتبنيّة» الحفاظ على تفاوتاتٍ اقتصاديّة، أو ربّما تغذية هذا التفاوتات، لتأمين احتياجاتها من الجنوب الفقير المُصدّر لأطفال التبنّي. وبالتالي، تقوم هذه الدول باستخدام الفقر واليتم كذريعةٍ لتبرير التبنّي⁽⁴⁾. لكنّ الحقيقة الموثقة في تقارير أُمميّة تُشير إلى أنَّ معظم الأطفال المُتبنيين ليسوا بأيّام بل ضحايا عنفٍ مؤسّساتيّ وتمييزٍ جنديٍّ ضدّ أمّهات، قاصرات على الأرجح، وجَدَنَ أنفسهنّ في حملٍ غير مرغوب به ومن دون سبيلٍ للخلاص من المفهوم الشعبيّ للعار، والوصم، وربّما القتل المتعمّد تحت ستار ما يُسمّى بجريمة شرف.

بالعودة إلى المُقاربات الاستعماريّة، فإنّ نموذج الأسرة في الشمال أكثر ميلاً إلى الطبيعة النوويّة، في حين أنّ العائلات المُمتدّة هي الأكثر انتشاراً في الجنوب. عندما يتمّ تطبيق وجهات النظر الاستعماريّة للعالم على حقائق رعاية الأطفال في الجنوب، يبدو أنّ الأطفال بحاجةٍ إلى رعايةٍ بديلة. ولقد أثّر هذا الخطاب الذي يُركّز على العائلة النوويّة

(1) Riitta Högbäck, *Global Families, Inequality and Transnational Adoption: The De-Kinning of First Mothers*. (London: Palgrave Macmillan. INSERT-MISSING-URL, (2017).

(2) Edward W. Said, «Islam Through Western Eyes», *The Nation*, June 29, 2015, <https://www.thenation.com/article/islam-through-western-eyes/>.

(3) John McLeod, «Adoption Studies and Postcolonial Inquiry». *Adoption & Culture* 6, no. 1 (2018): 206-28. <https://doi.org/10.1353/ado.2018.0011>.

(4) Briggs Laura, *Somebody's Children: The Politics of Transracial and Transnational Adoption*. (Durham: Duke University Press, 2012).

في استبعاد البدائل التي تعتمد على العائلة الممتدة في توفير رعايةٍ بديلةٍ للأطفال الذين يحتاجون إلى نوعٍ من التدخل كهذا.

واقع التبني الدولي

التبني الدولي/العربي/المغلق، كشكلٍ من أشكال التبني، يُعتبر مُمارَسةً حديثة نسبياً حيث ظهر مع التوسع الاستعماري في مناطق الشعب الأصيل في كندا وأستراليا في بداية القرن الثامن عشر. ومن ثم عرف انتشاراً في خضم الحرب العالمية الأولى والثانية وما نتج عنها من حالات يتم وفقه. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن التبني عبر الأعراق يُعدّ امتداداً لعمل المؤسسات التبشيرية التي ترافقت مع استعمار مناطق الشعب الأصيل في كندا مع بداية القرن الثامن عشر⁽⁵⁾. كما ترافق الاستعمار البريطاني لدول أفريقية عدة مع موجة كبيرة من فصل الأطفال عن أمهاتهم ونقلهم إلى بريطانيا ما بين 1857 و1970، حيث قُدِّر عدد الأطفال الذين جرى تبنيهم إلى بريطانيا بحوالي 100.00⁽⁶⁾.

عالمياً، شهد التبني انتشاراً كبيراً في السبعينيات استجابةً للعدد المتزايد من الأطفال المُتمين إلى عائلات فقيرة أو الذين فقدوا أهلهم بسبب الوفاة أو الاختفاء نتيجة الكوارث الطبيعية، والهجرات القسرية، والحروب. وشهد العام 1993 الدعوة الأولى لتنظيم التبني الدولي ووضع حدٍّ أدنى من المعايير الأخلاقية في اتفاقية لاهاي (مؤتمر لاهاي للقانون الدولي الخاص، 1993). فرضت هذه الاتفاقية قيوداً على ممارسات التبني، وبالتالي اقتصر التبني على البلدان غير المصادقة على الاتفاقية وهي الدول الأكثر تأثراً بالحروب، والفقر، والكوارث الطبيعية. ولم يُوقع لبنان على هذه الاتفاقية وبالتالي ليس هناك أي قيود تُحد من التبني الدولي منه.

لاحقاً في العام 2005، أعربت لجنة حقوق الطفل عن الحاجة إلى مراقبة حركة التبني واحترام الصكوك الدولية لحماية الأطفال غير المصحوبين أو المُنفصلين عن ذويهم (لجنة حقوق الطفل التابعة للأمم المتحدة، التعليق العام رقم 6؛ 2005). في العام 2014،

(5) Eshet, Dan. 2015. *Stolen Lives: The Indigenous Peoples of Canada and the Indian Residential Schools*. x Canadian Public Documents Collection (Toronto, ON, Canada: Facing History and Ourselves. <https://www.facinghistory.org/stolen-lives-indigenous-peoples-canada-and-indian-residential-schools>)

(6) John McLeod, «Adoption Studies and Postcolonial Inquiry», *Adoption & Culture* 6, no. 1 (2018): 206-28. <https://doi.org/10.1353/ado.2018.0011>.

وللمرة الأولى في تاريخها، أصدرت اليونسف تقريراً خاصاً لتقييم مخاطر التبني وتصوير أوجه التشابه مع الاتجار بالأطفال، مع طرح التساؤل حول مدى احترام هذه الممارسة لمصالح الطفل الفضلى.

تدخل وكالات التبني

تاريخياً، أدى تدخل المنظمات الربحية في مسارات التبني إلى تحويل التركيز من ضمان حق الطفل فاقد الرعاية الأسرية، نتيجة وفاة الأهل أو لأسباب تتطلب حماية، إلى إيجاد أطفال لعائلات ترغب بالتبني. ومع ازدياد عدد العائلات الراغبة بالتبني، بخاصة تلك التي لا تلبّي مواصفات التبني المحلي، جاء دور هذه المنظمات لتأمين أطفال لسوق مفتوح على العرض والطلب. وقد أدى ذلك إلى العديد من الأنشطة غير القانونية، ولاسيما في أميركا اللاتينية وأفريقيا وآسيا. كما نُقل أطفال من هايتي عن طريق الجو إلى كندا وفرنسا وألمانيا وهولندا في الأسابيع التي أعقبت الزلزال.

وفي قراءة نقدية لعمل هذه الوكالات يبدو أنها تتبع آليات مُماثلة تقريباً في جميع أنحاء العالم كالآتي:

- هي تعمل بهدف تلبية الطلب المتزايد على الأطفال في البلدان المُتبّنة في الشمال.
- هي تعمل بالتعاون مع جهات فاعلة في البلدان الأصلية التي تلجأ بدورها، في معظم الأحيان، إلى وسائل عدة غير قانونية للوصول إلى أطفال للتبني. وقد تشمل هذه الجهات مُحامين وأطباء وقابلات، ومُديري دور الأيتام.
- يجمعها هدف مُشترك وهو تحديد أفضل طفل يفني بمصالح العائلات المُتبّنة ورغباتها.

- تعمل هذه الجهات على تزوير المُستندات الخاصة بالطفل. فيتمّ استصدار شهادات ميلاد مع أسماء وهمية وتواريخ ميلاد غير صحيحة، ووثائق سفر مزورة.

تتضافر جهود المنظمات الربحية ومعاونيها على تسهيل خروج الطفل/ة من بلد الأصل إلى بلد التبني بأسرع طريقة مُمكنة مع ضمان أن يُصبح تعقّب أصول العائلة أمراً مُستحيلاً.

تاريخ التبني الحديث

شهد العالم خلال التاريخ الحديث زيادة ملحوظة في عدد الأطفال المنفصلين عن الأسر البيولوجية بسبب الأوبئة والكوارث الطبيعية. وأدى الركود الاقتصادي إلى تعريض المزيد من الأطفال لخطر التخلي بسبب الفقر. كما أسهمت أزمة اللجوء الناتجة عن الحرب المستمرة في سوريا إلى زيادة كبيرة في عدد الأطفال غير المصحوبين بذويهم. وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ بعض الدول الأجنبية أثرت استضافة أطفال اللجوء من دون ذويهم، الأمر الذي أنعش حركة التبني الدولي.

فضلاً عن الحروب والكوارث والفقر، فإنّ العنف المؤسّساتي وذلك القائم على النوع الاجتماعي عرّضا المزيد من الأطفال لخطر الانفصال. وبالتالي، تمّ دفع المزيد من الأطفال إلى التبني. على سبيل المثال، اعتمدت الصين في الثمانينيات سياسة الطفل الواحد مع تفضيل للأبناء، ما أجبر العديد من العائلات على التخلي عن الفتيات الصغيرات. وفي الهند وكوريا الجنوبية والعديد من البلدان في المنطقة العربية، أُجبرت العديد من الفتيات، وأغلبهنّ قاصرات، على وضع أطفالهنّ في دور الأيتام بهدف تجنّب القتل أو الوصم الاجتماعي. وقد انتهى الأمر بأن غدا عدد كبير من الأطفال مُتبّنين في دولٍ أجنبية من دون معرفة الأم أو موافقتها.

ولقد وثّقت دراساتٌ عدّة كيفية استهداف الفتيات الصغيرات الحوامل غير المتزوّجات، من ذوات الدخل الضئيل أو المعدوم، للتخلي عن أطفالهنّ من خلال الموافقة على خطاب التخلي. وغالباً ما تكون الأمهات غير مُجيدات للقراءة والكتابة، وعرضةً للخزي واللوم، بحيث تضعف قدرتهنّ على استعادة أطفالهنّ المسلوبين منهّن ضد إرادتهنّ، حتّى ولو وقّعن على خطاب التخلي.

هكذا تلبس الأم المتبنت لباس قدسيّة العناية بطفل/ة ليس/ت بطفلها/تها ويُصَبّ اللوم على الأم الوالدة وتُجبر على الصمت على حزنها وألم الانفصال. وهنا لا بدّ من استعادة صورة الممثلة أنجلينا جولي، سفيرة النوايا الحسنة لمنظمة غوث اللّاجئين، والتي تبنت الطفلة زهراء وهي بعمر الستّة أشهر من أثيوبيا ليتبيّن بعد ذلك أنّ والدّة الطفلة حيّة تُرزق.

ولكن كيف لأُم من أثيوبيا، فقيرة وربما لم تُتابع تحصيلها العلمي، أن تُقارع صورة أنجلينا جولي في إعلام انحاز لها، أو أن تُقارع أُمماً مُتّحدة أغفلت عن الوجه المُظلم للتبني الدولي. لقد تخطى عددُ الأطفال المُهجّرين قسراً من الجنوب الفقير إلى الشمال الغني لأغراض التبني ذروته، فبلغ في العام 2004 نحو 45000 طفل. إذ تمّ تبني أكثر من 20000 طفل في الولايات المتحدة، في حين أنّ العدد لم يكن يتخطى 8987 طفلاً في العام 1995. وتُمثّل كندا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والولايات المتحدة 4 من كلّ 5 حالات التبني هذه. قد لا يُمثّل هذا الرقم سوى غيض من فيض لأنّ التقارير المُتفرقة تسلط الضوء على عددٍ من عمليّات التبني التي لا يتمّ تسجيلها رسمياً والتي تنطوي بالتالي على إجراءات غير قانونية، منها مثلاً تسجيل الطفل المُتبني تحت خانة الأم المُتبّنة على أساس أنّها هي الأم البيولوجية وأنّ ولادتها تمّت في بلدٍ غير بلدها الأصلي. وهنا نستذكر حوادث اختطاف حديثي الولادة من المستشفيات إبان الحرب في لبنان.

كرّست لجنة لاهاي الخاصة في حزيران/يونيو 2010 يوماً كاملاً لمسألة «الاتجار» بالأطفال لأغراض التبني. وقد ذكّر ديفيد سمولين أنّ ابنتيه بالتبني من الهند قد سُرقنا⁽⁷⁾. كما أكّد بنيام مزمور، وهو طالب قانون إثيوبي، موضوع الاتجار بالتبني في أفريقيا⁽⁸⁾. وجرى التأكيد على مخاوف وقوع الأطفال ضحية الاتجار لأغراض التبني الدولي في كتابات غراف، الذي صوّر التبني على أنّه «الكذبة التي نُحبّها»⁽⁹⁾. فيقول غراف إنّ التبني الدولي أضحيّ الحلّ الأمثل لاختلال توازنٍ مفعج: البلدان الفقيرة لديها أطفال بحاجة إلى منازل، والبلدان الغنية لديها منازل بحاجة إلى أطفال. لسوء الحظّ، معظم المُتبّنين/ات ليسوا/ن أيتاماً على الإطلاق»⁽¹⁰⁾.

(7) David Smolin. «Child Laundering: How the Intercountry Adoption System Legitimizes and Incentivizes the Practices of Buying, Trafficking, Kidnapping, and Stealing Children», *Wayne Law Review*, 52, 1, (2006): 113-200.

(8) Benyamen Mezmur, B. «The Sins of the Saviours: Trafficking in the Context of Intercountry Adoption from Africa». The Special Commission of the Hague Conference on Private International Law, The Hague, Netherlands, 17-25 June 2010, Information Document no. 2. Retrieved from <http://www.hcch.net/upload/wop/adop2010id02e.pdf>.

(9) E.J. Graff, «The Lie We Love». *Foreign Policy*, November/December, (2008): 59-66. Retrieved 2017, from <http://foreignpolicy.com/2009/10/06/the-lie-we-love/>.

(10) المرجع نفسه.

التبني الدولي من لبنان

في لبنان، تم إرساء أسس التبني خلال فترة الانتداب الفرنسي في أواخر العام 1800. وتُشير بعض الأعمال البحثية التي أجراها دانييل الأعور إلى أنّ بعض دور الأيتام في لبنان أنشئت وفقاً للنموذج الذي وضعه العثمانيون لـ «تتريك» «الأيتام» الأرمن في البلاد⁽¹¹⁾. النقطة التي أوضحها دانييل هي أنّه على الرغم من أنّ مفهوم دار الأيتام والتبني عادة ما يُشير أفكار الإحسان وفعل الخير، إلّا أنّه يعكس في الواقع تاريخاً من الاستعمار والحرب الطبقيّة⁽¹²⁾.

يُذكر أنّه تمّ إيداع حوالي 28000 طفل في مؤسسات الرعاية وتمّ تبني حوالي 10000 طفل من لبنان خلال الحرب⁽¹³⁾. ولقد أعربت اللجنة الدوليّة لحقوق الطفل التابعة للأمم المتحدة في العام 2017، في ملاحظاتها الختامية على التقرير الوطني الثاني حول وضع الأطفال في لبنان، عن قلقها العميق إزاء العدد الكبير من الأطفال المودعين في المؤسسات. هذا مع الإشارة إلى أنّ القسم الأكبر منهم وُضع هناك بسبب الفقر. كما أدّى نظام الحضانة الخاضع للأحوال الشخصية الروحية إلى إيداع العديد من الأطفال في دور الرعاية نتيجة تخليّ الآباء عن رعايتهم بعدما كانوا قد انتزعوا حقّ الحضانة من زوجاتهم بفعل التحيز الذكوري. وهناك بعض القصص التي تُشير إلى أنّ بعضاً من هؤلاء الأطفال انتهى بهم الأمر إلى التبني الدولي.

ووجدت اللجنة الدوليّة لحقوق الطفل أنّ انتشار عمليّات التبني غير القانوني أمرٌ مُثيرٌ للقلق، بينما سلّطت الضوء على أنّ العمليّات تتمّ على حساب مصالح الطفل/ة الفضلي. مرّة إضافية كانت العائلات التي تُعيلها أمّهات عازبات الأكثر استهدافاً في سياق عمليّات الإيداع في المؤسسات الرعاييّة ومن ثمّ التبني. يصبح الوضع أكثر خطورة عندما يقرن الفقر بعدم إمكانية الوصول إلى خدماتٍ أساسيّة، وانعدام سياسات الحماية الاجتماعيّة، والوصم الاجتماعيّ والعار.

(11) Daniel Drennan ElAwar, «On Orphans, Adoption, and Islam», <https://danielibnzayd.wordpress.com/?s=On%2Borphans%2C%2BAdoption%2C%2BAnd%2Bislam>.

(12) Daniel Drennan ElAwar, «Advice for Adoptive Parents». Retrieved from <https://danielibnzayd.wordpress.com/?s=advice+for+adoptive+parents>.

(13) Zeina Ismail-Allouche, «Forced separation and intercountry adoption: the invisible narrative of the war in lebanon». *Confluences Méditerranée*, 112, 1, (2020).

على الرغم من محدودية توافر إحصاءات حكومية دقيقة عن عدد الأطفال المُعرّضين لخطر التخلّي عنهم، قدّرت وزارة الشؤون الاجتماعية أنّ ما يقرب من 90 ألف طفل معرّضون لخطر التخلّي عنهم. تمّ توثيق حالات التبنّي غير القانوني في لبنان، حيث لوحظت ذروة مقلقة للغاية بين سبعينيات وأوائل تسعينيات القرن الفائت، بالتزامن مع الحرب في لبنان. تمّ تسهيل عمليات التبنّي في غياب أيّ إطار قانوني يحكم هذه الممارسة واستناداً إلى مُعاملاتٍ مالية تصل إلى حوالي 100000 دولار لتبنّي طفل/ة واحدة. وتشير بعض الأبحاث في لبنان إلى تورّط ممثلي الدولة من ضباط أمن ومخاتير، إلى جانب الميليشيات في زمن الحرب، في تزوير وثائق التبنّي ووثائق السفر ذات الصلة. أمّا العملُ المؤسّس في مجال التبنّي، فجاء خلال فترة الانتداب وما تبعه من استسهال في نقل الأطفال إلى عائلاتٍ أجنبية، ولاسيّما عائلات فرنسية، عبر اتفاقيّات تعاون (تآخ) بين إرساليّات فرنسية وأقرانها في لبنان. وهكذا جرى تشريع عمل الإرساليّات في مجال استقبال الأطفال «المتروكين». وفي العام 1960، منحت الدولة حضانة «أخوات المحبة» التي استقرّت في منطقة الأشرفيّة (في بيروت) تشريعاً قانونياً لعمل التبنّي في لبنان ومن لبنان إلى دول العالم. وما زالت هذه الحضانة تستقبل أطفالاً إلى يومنا هذا، علماً بأنّ الأخوات قد صرّحن أنّهنّ أوقفن العمل بنظام التبنّي الدولي. وهنا لا بدّ من التأكيد على أنّ فرنسا نالت الحصّة الأكبر من هذا التبنّي نتيجة المفاعيل المُستمرّة للانتداب. ومع بدايات السبعينيات، تأسّست أعدادٌ من دور استقبال الأطفال، وكان بعضها يُسهّل عملية تبنّي الأطفال. ومن بين دور الاستقبال هذه نذكر «راهبات الراعي الصالح» التي اضطلعت بمهمّة مُماثلة⁽¹⁴⁾. على الرغم من ندرة التوثيق، إلّا أنّ هناك أطفالاً جرى تبنّيهم مباشرةً في المستشفى حيث كانت العائلة الراغبة بالتبنّي تحضر إلى لبنان ليتمّ تسجيل المرأة الأجنبية على أنّها هي الأم البيولوجيّة. وهناك، أي في المستشفى، وخلال عملية ولادة الأم البيولوجيّة، كان يجري تسجيل وثيقة الولادة مباشرة باسم الأم الراغبة بالتبنّي سواء أكانت من خارج لبنان (أجنبيّة) أم من داخله. وهناك أكثر من حالة موثّقة تُظهر أنّ الأم التي ترغب بالتبنّي قد تُسجّل نفسها في المستشفى كأمّ حامل تخضع لعملية الإنجاب بينما الأم الحامل الفعلية، وهي

(14) المرجع نفسه.

في أغلب الحالات قاصر، يكون قد جرى الاعتداء عليها أو التغيرير بها من دون أن تكون قادرة على الاحتفاظ بالطفل/ة حرصاً على حياتها. كما يكون هناك دورٌ لوسيطٍ ما يُقنع الأمّ الوالدة بالتخلّي عن الطفل/ة بموجب ورقة «التخلّي» المُسجّلة لدى كاتب عدل.

تخضع الفتاة/الأم لعملية الولادة سرّاً ومن دون ورود اسمها في سجلّ المستشفى. وبالتالي تحصل على تغطيةٍ لتكلفة الولادة وعلى ضماناتٍ لكتم سرّ حملها. لكنّ الاتفاق لا يشمل الأمّ الوالدة في حال تعرّضها لمشكلاتٍ صحيّة على أثر الولادة. فما زالت قصصُ كهذه تحدث إلى اليوم ومنها حالة عُرضت خلال برنامج تلفزيونيّ في لبنان وثق اتفاقيّاتٍ مُشابهة حصلت في مستشفى في لبنان ومنها في صيف 2014 وكانت تكلفتها 10000 دولار. وهناك بعض أعمال التوثيق المُعمّقة التي قامت بها «جمعية بدائل»⁽¹⁵⁾ في لبنان، والتي تُشير إلى أنّ الاعتداء على القاصرات كان عملاً مُنظماً يؤدّي وظيفتين: وظيفة حربيّة، لكونه يشكّل أداة حرب بحدّ ذاته، وأخرى ماديّة، لكونه يستهدف إنتاج أطفالٍ للتبني كمصدرٍ لجني الأموال. هذا مع ضرورة الإشارة إلى أنّ تجارة الأطفال لأغراض التبني تسير بشكلٍ مُوازٍ مع أعمال تهريب السلاح، والمخدرات، والتجارة بالبشر.

ولعلّ ازدياد نسبة التبني من لبنان خلال سنين الحرب هو دليل واضح على كيفيّة استثمار الحروب في استضعاف الفئات الأكثر تهميشاً، ولاسيّما الفتيات القاصرات، واستغلالهنّ ومن ثمّ بيع أطفالهنّ⁽¹⁶⁾. يحدث كلّ هذا في مساراتٍ غير قانونيّة ومن خلال التواطؤ بين جهات عدّة ليست الجمعيّات المحليّة بمنأى عنها، ناهيك بمزاجٍ شعبيّ يسهّل الحكم على الأمّ بصفتها مُتخلّية عن طفلها/تها. هذا في الوقت الذي يجري فيه تصوير التبني على أنّه عمليّة مقدّسة وليس وسيلة لسُخ طفل/ة عن أمّ هي نفسها قاصر. والسؤال الذي يجب أن يطرح هنا: ماذا لو استثمرت كلّ الأموال المهدورة خلال تسهيل مُعاملات التبني وتزوير الوثائق في حماية الأمّ القاصر ومعاونتها على اتّخاذ قرارٍ مُستنير في أمورٍ تخصّ حياتها وحياة طفلها/تها؟ وكيف لعلاقة بُنيت على تزوير الوثائق وقهر الأمّ الوالدة أن تكون مفيدة لحياة طفل/ة؟

(15) «جمعية بدائل» هي جمعية غير حكوميّة تأسّست عام 2014 بهدف إصلاح الرعاية البديلة والمُناداة بحقوق المُتبّنين/

ات قسراً
<http://badael-alternatives.org/>

(16) Zeina Ismail-Allouche, «Illegal adoption in Lebanon: Mechanisms and consequences». *Legal Agenda*. Retrieved April, 2020 from <http://legalagenda.com/en/article.php?id=678&lang=en>.

أثر التبني

تُشير الدراسات إلى أنّ الأشخاص الذين نشأوا في الرعاية البديلة لديهم معدّلات أعلى من الاعتقال والسجن، ومستويات أقلّ من التعليم، ومعدّلات أعلى من مُشكلات الصّحة البدنيّة والعقليّة، فضلاً عن كونهم أكثر عرضة لمُشكلات الإدمان والانقطاع عن العمل والتشرّد⁽¹⁷⁾.

وتُشير التقارير حول مُتخرّجي/ات الرعاية البديلة إلى تعرّضهم لمُشكلاتٍ مُتعدّدة مع القانون، وإلى أنّ الفرصة لا تُتاح لهم للمشاركة في التخطيط لحياتهم، كون القرارات الأساسيّة تُفرض عليهم من مانحي الرعاية. كما أنّهم لا يتلقّون دعماً كافياً من الدولة، سواء في أثناء الرعاية أم بعدها. وعلى الرّغم من أنّ السبب الأساسي لفصل الطفل/ة عن الأم/الوالدة يتمّ تحت غطاء حماية الطفل/ة من الأذى، فإنّ الدراسات تسلّط الضوء على أنّ الانخراط في نظام الرعاية البديلة يزيد من خطر الدخول في نزاع مع القانون، والتوقيف والسجن. وفي هذا السياق قد يؤدّي التبني، بوصفه شكلاً من أشكال الرعاية البديلة، إلى نتائج مُماثلة، وإنّ كانت الأعراض لا تظهر إلّا في وقتٍ لاحقٍ من حياة المُتبنيّين/ات، وتحديدًا عندما تبدأ حقائق مسارات التبني في التّكشف والظهور، ولا سيّما تلك الأجزاء المفقودة من قصصهم/نّ المرتبطة بالعائلة البيولوجيّة، والبيئة الأصليّة، واللّغة.

ديدا غيغان، التي تمّ تبنيها من لبنان إلى سويسرا، تسلّط الضوء على الفراغ الذي يُسيطر عليها. من الشعور بعدم ثبات هويّتها، وانعدام الثقة في نفسها، واختلال التوازن العاطفيّ الرهيب الذي عانت منه⁽¹⁸⁾. فيما يؤكّد دانييل درنن الأعور، وهو مُتبنيّ من لبنان إلى الولايات المتّحدة، أنّه لا يتمنّى تجربة التبني حتّى لألدّ أعدائه.

وتشير روايات المُتبنيّين/ات من السكّان الأصليّين في كندا أيضاً إلى أنّ تجربة التبني تولّد عدم الثقة. فالتبنيّ، المَبنيّ على مساراتٍ غير قانونيّة، يكسر قدرة المُتبنيّين/ات على الثقة بمنّ يُحيط بهم، هذا فضلاً عن التشرّد والعيش على الطرقات. فقد أبلغ

(17) Iglehart, Alfreda P. 1995. «Readiness for Independence: Comparison of Foster Care, Kinship Care, and Non-Foster Care Adolescents». *Children and Youth Services Review* 17 (3): 417-32.

(18) Rayan Majed, «There and Back Again», *Now Lebanon*. (2014). [https://now.mmedia.me/lb/en/reportsfeatures/there-and-back-again](https://now.mmedia.me/lb/en/reports/features/there-and-back-again)

بعض المُتَّبِينَات عن انتهاكاتٍ جسدية وجنسية وعاطفية تعرّضوا/ن لها، حتّى أنّ آخرين عوملوا كخدم في المنازل.

وفي هذا السياق يقول دانييل درنن الأعور: «لقد استغرق الأمر مني بلوغ سنّ الثالثة والخمسين على هذه الأرض، وأن يمرّ 12 عاماً على عيشي في موطني الأصلي، لاكتشف حقيقة التبني. آلاف المُتَّبِين ليسوا محظوظين. وعليّ بالتالي أن أسأل: هل هذا لمنفعة الطفل؟⁽¹⁹⁾»

سردية مُشتركة

سواء في لبنان أم في هايتي أم كوريا الجنوبيّة أم الصين أم غواتيمالا أم سيريلانكا، أم الشعوب الأصلية في كندا، وسائر المُجتمعات التي كانت ضحية الاستعمار، ثمة سردية مُشتركة في جميع أعمال التوثيق وهي أنّ التبني لم يكن يوماً لضمّان مصلحة الطفل/ة الفضلى. فقلد أصبحت البلدان المُتضرّرة بالفعل من الحروب والفوضى والوجود الاستعماريّ مصدراً لتغذية حاجة عائلات الغرب إلى أطفالٍ للتبني. وبالتالي، وبغضّ النَّظر عن دوافع الأشخاص الذين يسعون جاهدين لإشباع الرغبة في إنجاب طفل، فإنّ التبني، كمؤسسة، يحتاج إلى إعادة النَّظر فيه بشكل حاسم بسبب تشكيكه ضروباً من الانتزاع والتشريد والهجرة القسرية. فالأمر لم يكن يتعلّق يوماً بتكوين أسرة لعائلات حرمت من الإنجاب، علماً أنّ الإنجاب هو رغبة وليس حقّاً من الحقوق الإنسانيّة. كما علينا أن نتذكّر أنّ التبني تحديداً جاء كعملٍ استعماريّ وكوسيلة لتحقيق مكاسب للذين يملكون السلطة والمال، وذلك على حساب أمّهات طفلات في الأغلب.

والتبني، كما يتبيّن لنا من الدراسات الدوليّة، ليس حلاً للطفل/ة المولود/ة؛ فلقد أكّدت الأبحاث أنّ تجربة الفصلِ مُتوارثة عبر الأجيال وأنّ معظم الأطفال المفقولين عن الرعاية الوالديّة هم/ن في الأغلب من عائلاتٍ اختبرت الفصل القسريّ عبر المؤسسات الرعائيّة أو التبني. والطفلات في هذه الحالة تحديداً هنّ ضحايا مرّتين: مرّة لأنهنّ أنفسهنّ ضحايا التبني، ومرّة أخرى لأنهنّ أصبحنّ أمّهات مكتومات الصوت غير قادرات على

(19) Daniel Drennan ElAwar, «On Orphans, Adoption, and Islam», <https://danielibnzayd.wordpress.com/?s=On%2Borphans%2C%2BAdoption%2C%2Band%2Bislam>.

البوح. فهذا الفصل المُمنهج ضدّ الفقراء، ولاسيّما الأمّهات القاصرات، هو مجرد أداة حرب تستبيح الممتلكات، والأرض، والنساء، والأطفال، في الوقت الذي يأتي فيه التبني الدوليّ ليحوّر الانتباه ويُعزّز الفساد عوضاً عن الاستثمار في الأسر الفقيرة، وبخاصّة تلك التي تُعيلها الأمّهات القاصرات والعازبات.

في مُقابلةٍ أجريتها مع كريستا فيشر، وهي مُدرّسة حائزة على ماجستير في التربية ومُتبنّة من لبنان إلى هولندا في سبعينيات القرن الفائت، شرحت لي كيف أنّها لن تكلّ أو تملّ من البحث عن أمّها البيولوجيّة:

«أبلغ من العمر 46 عاماً. وأنا الآن أفكّر في أمور التبني بشكل مُختلف قليلاً عمّا كنْتُ أفعله عندما كان عمري 18 عاماً. فأنا في ذلك العمر كنْتُ أعتقد، لا تضحكي، أنّ الأمّ البيولوجيّة يُمكنها أن تلِدَ طفلاً وأن تتخلّى عنه وتنسى أنّها رُزقت بطفل.... و... كأنّها كلبة... تلِدَ ومن ثمّ تتخلّى عن أبنائها... لكنّ، وبعد أن أصبحتُ أمّاً، أدركتُ... (تضحك)... أنّ هذا مُستحيل... لا يُمكنك نسيان أنّك أنجبتَ طفلاً. لقد تغيّرت فكريّتي عن التبني، وأدركتُ أنّه حتّى عندما ينقطع الاتصال... بين الأمّ والطفل... أمّي وأنا، فإنّ روابطنا لا تنقطع. لا يُمكن قطع الروابط أو نسيانها لأنّها موجودة بالقوّة... ولا يُمكن لأحد بترها كأنّها لم تُكن...»⁽²⁰⁾.

الفصل عن الأمّ كوسيلة استباحة

عند تسلّمه مهمّات رئاسة الوزراء في كندا، توجّه جاستين ترودو بطلب إلى الحبر الأعظم، بصفته رئيساً للكنيسة الكاثوليكيّة، يطلب فيه الاعتذار رسمياً عمّا مارسه الكنيسة وإرسالياتها ضدّ الشعب الأصيل في كندا، منذ القرن الثامن عشر وامتداداً إلى ستينيات القرن العشرين، من فصلٍ للأطفال عن عائلاتهم عبر إيداعهم في مدارس داخلية تعتمد نظام المؤسسات الرعائيّة. وكانت حكومة كندا قد اعتذرت من الشعب الأصيل عام 1998، وأعقبها في العام 2008 إعلانُ السلطة الكنسيّة في كندا مسؤوليّةها عن تجربة المؤسسات الرعائيّة. وقد اعترفت هذه المرجعيّات بالأذى الذي لحقّ بالأطفال حينها، وبالأزمة الإنسانيّة المتمثّلة بآباء عاشوا من دون أطفالهم وبأطفال عاشوا من دون آبائهم. والسبب

(20) كريستا فيشر، متبنية من لبنان، (2012).

الوحيد لهذه المأساة هو أن جهة ما (الاستعمار) رأت في التبني مصلحة عامة من دون الأخذ بعين الاعتبار أهمية العلاقة الأسرية والرباط العضوي بالبيئة المحلية والثقافة واللغة المحلية. فثمة من رأى في التعليم النظامي التبشيري في ظل الكنيسة خلاصاً تاريخياً. في حين أن ذلك خلف إرثاً ثقيلاً من الظلم، والقهر، والفصل عن الجذور. إرث لم تنتهِ مفاعيله مع إقفال المؤسسات الرعائية نهائياً في أواخر تسعينيات القرن الفائت، لأن أثر الفصل ما زال يُشكّل تحدياً على مستوى المساءلة، والمُحاسبة، والتعويض، والمُصالحة. ولقد بدأ النظام الرعائي المؤسساتي يشق طريقه إلى الشعب الأصيل في كندا عام 1831، عندما وصلت البعثات الإرسالية الأولى إلى هذه المنطقة الثلجية في شمال كندا. كان قرار الكنيسة حينها المُبادرة في إنشاء مدارس تعليمية مُقيمة، مثلها مثل كل المؤسسات الرعائية التي أنشئت في كل بقعة من بقاع الأرض التي وصلت إليها هذه الإرساليات (ومنها لبنان). أمّا الهدف الأساسي من وراء فصل الأطفال عن عائلاتهم حينها، فتمثّل بالتبشير الكنسي عبر الدراسة النظامية. ومن ثم، تم فرض التبني، كظاهرة أوروبية، على مُجتمعات السكّان الأصليين في كندا وأستراليا والبلدان المُستعمرة الأخرى على الرغم من الاختلافات من حيث الأنظمة الأسرية والممارسات المجتمعية. علماً أن الهدف الأساسي من وراء إنشاء نظام الرعاية المؤسساتية في كندا، والذي يُعرف بمُصطلح Indigenous Residential School، كان التخلص من الشعب الأصيل. جاء ذلك على لسان مسؤول شؤون الشعب الأصيل المُعين من المُستعمر حيث قال في العام 1831 «تأسست هذه المدارس بهدف التخلص من مشكلة الشعب الأصيل»⁽²¹⁾. حينها، وجدّ المُستعمر غطاءً في العمل الكنسي التبشيري للقضاء على بنية المُجتمع الأصيل عبر فصل الأطفال عن أمهاتهم. وقد أتاح هذا الفصل الانقراض على الممتلكات والأراضي والموارد المائية عبر استباحة صورة الأم المحورية في بنية قبائل الشعب الأصيل ذات النظام الأمومي. وتطوّرت هذه الاستباحة في العام 1960، حين قام العقل المُستعمر عينه بفصل ما يُقارب 70% من أطفال الشعب الأصيل عبر تبنيهم من قبل عائلات أوروبية. وتُشير التقارير إلى ارتقاء هذا الفصل القسري إلى مرتبة الإبادة

(21) Canada. Royal Commission on Aboriginal Peoples, Georges Erasmus, and Dussault René., *Report of the Royal Commission on Aboriginal Peoples* (Ottawa: Commissi, 1996).

الجماعية التي استهدفت النساء أولاً عبر انتزاع أطفالهن، قبل أن تكرر سبحة الظلم إلى يومنا هذا، وتُعاني نساء الشعب الأصيل من اضطهادٍ وعنْفٍ مؤسّساتي يتمثل بإخفاءٍ قسريٍّ لما يُقارب 10 آلاف امرأةٍ معظمهنّ قاصرات.

هكذا يتكشف لنا أنّ الفكر الذي مهّد للمؤسّسات الرعائية لم يكن يهدف يوماً إلى إنقاذ الأطفال الأيتام أو المتروكين والمُتخلّى عنهم. ولم يكن التبنّي حلاًّ عجائبيّاً لطفل متروك أو مُتخلّى عنه. العقل الذي أسّس لهذه الصورة كان عقلاً استعماريّاً استهدف الفتيات والنساء بهدف زعزعة المُجتمعات الأصيلة واستباحة مواردها. هو هذا العقل نفسه الذي أدخل مفهوم المؤسّسات الرعائية إلى لبنان إبّان الانتداب الفرنسي وانتشار الإرساليات التبشيرية. ومن ثمّ روج هذا العقل، وما زال، للتبنّي عبر البلاد كخلاص يشتهيهِ قسمٌ كبيرٌ من اللبنانيين سعيّاً إلى جنسيّة بلدٍ آخر، ولاسيّما إذا كان أجنبيّاً. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ عدد الأطفال المُتبّنين من لبنان إلى فرنسا فاق الـ 5 آلاف طفل/ة إبّان الحرب في لبنان. كما يجب دائماً التذكير بأنّ خلف كلّ طفل/ة مُتبّنّى حكاية أمّ كانت طفلة وسُرق منها عمرها وعمر طفلها/تها.

ومع بداية اللّجوء السوريّ إلى لبنان، كثر الحديث حينها عن ظاهرة تزويج القاصرات. لذا، فإنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو حول مصير أطفال هذه الزيجات. فالعقل الذي يسعى إلى سرقة أعمار الفتيات القاصرات كمشروع ربحيّ هو العقل نفسه الذي يُروج للتبنّي الدوليّ، علماً أنّ «جمعيّة بدائل» رصدت مؤشّرات عدّة عن تقاطعٍ ما بين تزويج القاصرات وبيّن الأطفال لغرض التبنّي الدوليّ.

خاتمة

تطلّب الوقاية من الفصل القسريّ عن الأمّ الوالدة عبر التبنّي الدوليّ أو الإيداع في المؤسّسات الرعائية خطّةً استراتيجيةً شاملةً تتضمّن عمليّات تدخّل فوري وإصلاحاتٍ على المدينتين القصير والطويل. وهذا يستدعي التزاماً رسمياً من قِبَل الدولة المُصدّرة للأطفال والدولة المُتبّنة. وعلينا دائماً التذكير بأنّ التبنّي الدوليّ لم يكن مُمكنًا لولا قبول بلد التبنّي بإضفاء شرعيّة على وضع العائلات التي تتبنّى من دون التساؤل عمّا إذا كانت عمليّة التبنّي قد تمّت مُعالجتها بشكلٍ قانونيّ أو تستند إلى مُعاملاتٍ وسجّلاتٍ مزوّرة

للمواليد. إنّها عمليّة تقنين ما هو غير قانونيّ. فكيف يُمكن لدولةٍ ما إضفاء شرعيّة على مُمارسةٍ غير قانونيّة ترقى إلى مستوى الاتّجار بالأطفال؟

تتطلّب الوقاية عملاً مباشراً ضمن خطةٍ شاملة ومُتكاملة لضمان:

1 - حقّ المُتبنّين/ات بالحصول على المعلومات بما يتعلّق بوثائق التبنّي ومُساعدتهم/ن في البحث عن الأمّ الوالدة.

2 - حقّ الأمّهات اللّواتي فقدن أطفالهنّ عبر التبنّي الدوليّ في تلاوة الجزء غير المعلوم من الرواية بطريقةٍ محميّة، تضمّن السريّة وتُعينهنّ في البحث عن أطفالهنّ بطريقةٍ آمنة.

3 - استحداث برامج رعاية بديلة، كملاذٍ أخير، في البيئة المحليّة، بعيداً عن النموذج المؤسّساتيّ الذي يُشكّل خطراً إضافياً على الأطفال.

4 - الاستثمار في دُعم العائلات المُهدّدة بالفصل، بخاصّة تلك التي تُديرها أمّهات مُنفردات، بهدف الوقاية من الفصل.

5 - إيجاد برامج حماية للنساء اللّواتي يجدن أنفسهنّ في وضعيّة الحمل غير المرغوب به ومُرافقتهنّ في عمليّة اتّخاذ قرارات مُستنيرة ومُتأنيّة في ما يتعلّق بالحمل ومصير الجنين/ة والمولود/ة.

لا بدّ لنا من القيام بمُراجعةٍ نقديةٍ لمواقفنا من التبنّي الدوليّ لأنّنا الآن في لبنان على مفترق طرقٍ خطيرٍ يزيد من هشاشة القاصرات. إذ إنّ خلف كلّ قصّة تبنيّ ثمة أمّ تنتظر في الظلّ وألمها المكتوم يتآكلها. حان الوقت لكي تُفرد لهنّ مساحة لإعلاء الصوت لعلّنا نتعلّم من ماضينا ونرتدّع.

تداعيات الحرب والنزاع المسلح خلال العام 2019 على تعليم الفتيات في ليبيا

مقدمة

منذ العام 2011 يمرّ المُجتمع الليبي بحالات من الاضطراب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأمني، وأعمال عنف مسلحة ناشئة عن نزاعات وصراعات داخلية تركت أثارها السلبية على الأسرة والمجتمع، ووظائف مختلف المؤسسات ومن ضمنها المؤسسة التعليمية. فكان لهذه الأعمال بالغ الأثر على النسيج الاجتماعي بحيث أصبحت الأزمة بنيوية وشملت أثارها الاجتماعية والاقتصادية أنحاء التراب الليبي كافة. كما شهد المجتمع الليبي حالة من النزاع المسلح سنة 2019 استمرت لمدة تزيد على السنة شملت بتداعياتها المنظومة التعليمية التي كان لها أثر بالغ على الحياة اليومية للأطفال والفتيات، بما في ذلك الحدّ من القيام بأنشطتهم التعليمية ومن التواصل الاجتماعي الحرّ مع جماعات الأصدقاء والأهل والأقارب؛ وقد ترتّب عن ذلك توتر في علاقتهم مع المحيط الأسري، قد يُسهم في الدّفع نحو سلوكيات خطيرة ذات تداعيات على حياتهم المستقبلية. ويُظهر تقرير قسم الشؤون الإنسانية في اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان في ليبيا سوء الأوضاع والظروف الإنسانية التي مرّ بها الأطفال والفتيات، فضلاً عن مؤشرات على حجم المُعاناة

سعاد محمّد العباني

الإنسانية التي مرّ بها الأطفال والفتيات، كأبرز نتائج النزاع والأزمة السياسية التي شهدتها البلاد. الأرقام تشير إلى أنّ هناك قرابة 30.000 طفل في أنحاء البلاد يكابدون الألم والمُعاناة والأزمة الإنسانية والمعيشية والصحية والنزوح، حيث تتعرّض آمال وطموحات الأجيال المستقبلية للخطر وقد تعرّض مستوياتهم المعرفية وطموحهم الطبيعي، وخصوصاً أنّ منازلهم ومدارسهم تدمّرت، وأنّ حياتهم هُددت بشكل واضح بسبب الأوضاع الإنسانية والمعيشية المأساوية خلال الحرب والنزاع المسلّح المرعب.

من هذا المنطلق تحاول هذه الدراسة تقديم تصوّر حول المعاناة التي لحقت بالفتيات، وبخاصّة بعد حرب 2019 التي استمرّت أكثر من عام كامل على مدينة طرابلس الليبية تحديداً؛ وتركّز محاور التحليل في هذه الدراسة أساساً على محاولة وضع إجابات لمجموعة من التساؤلات ومنها:

ما هي الأوضاع الراهنة للمنظومة التعليمية للفتيات الليبيّات في واقع متغيّر؟ ما هي تداعيات الحرب على العمليات التعليمية والالتحاق المدرسي، ولاسيّما مع تأزم الوضع مع عمليات النزوح والتهجير القسريّ المصاحب للنزاع المسلّح؟ وما هي الضروريّات اللازمة لبناء مشاهد تُيسّر من تجاوز هذه المُعاناة؟

حالة الحروب والنزاع المسلّح في ليبيا

على الرّغم من كره جميع شعوب العالم للحروب والنزاعات، إلّا أنّها ظاهرة إنسانية قديمة. والحرب في اللّغة تعني قتالاً بين فئتين، وجمعها حُرُوب وعكسها سِلْم⁽¹⁾. وفي الاصطلاح ووفق القوانين الدوليّة، فإنّ الحرب هي حالة نزاع بين مجموعات أو أقطار أو دول، ولها أسباب متعدّدة قد يكون منها السعي إلى السيادة على الأراضي أو المصادر الطبيعية، أو الصراع على الحكم، أو فرض عقيدة دينيّة معيّنة أو أيديولوجيّة محدّدة؛ وحالة النزاع تتضمّن الاستخدام المنظّم للأسلحة بكلّ أنواعها التقليديّة وغير التقليديّة، من قبل الدول أو المجموعات المُتنازعة.

وما تشهده ليبيا من نزاع مسلّح خلال السنوات الأخيرة، هو نوع من أنواع الحروب الأهليّة، فقد شهدت البلاد الصدام والاقتتال، والحرب بين أبناء البلاد الواحدة وضمن

(1) معجم المعاني الجامع.

حدودها الجغرافية الواحدة. وغالباً ما يكون الحل لهذا النوع من الحروب كامناً إما بالتفاوض السلمي بين أطراف الصراع أو بهزيمة أحدهما. أما السبب في اشتعال نيران الحروب الأهلية عادةً، فيكمن في الصراع على السلطة والنفوذ والحكم والسيادة بين أبناء الدولة الواحدة. وتكون نتائج هذه الحروب كارثية على المدى القريب، سواء على المستوى الاقتصادي والاجتماعي أم حتى السياسي والأمني، وتستمر في التأثير في هذه الجوانب على المدى البعيد، فهي تُركّز على المناطق الآهلة بالسكان، فتعرض تلك المناطق لهجمات متقطعة غير مُنتظرة، ويتولد العداء بين الأهل والجيران، ويتمزق النسيج الاجتماعي، وتُشل الحركة الاقتصادية. ويتفق الدارسون والباحثون على أنّ هذه الصراعات تؤدي إلى ظهور الأزمات، وعلى أنّ آثار النزاعات المسلحة والحروب تتمثل في العديد من الجوانب ومنها:

- الفاقد البشري وهذا يشمل شرائح المجتمع كافةً، صغاراً أو كباراً، مسلّحين أو مدنيين، فنيان الحرب تطال الجميع ولا تُفرّق بين الأطفال والنساء والرجال.
- الفاقد الماديّ للممتلكات والعناصر الماديّة كافةً، وهو محتوى شامل لكونه لا يُطاول البناء الاجتماعي مادياً، بتدميره المباني والبنى التحتية فحسب، بل بتدميره مؤسسات الدولة كافةً.

- قد يترتب عن الحروب نقص في الموارد الغذائيّة الأساسيّة والمهمّة، ونقص في مصادر الطّاقة الأساسيّة.

- انتشار الأمراض والأوبئة، ومخاطر الأبعاد المستقبلية للأسلحة البيولوجية والكيميائية وما يترتب عنها من تداعيات سلبية على صحّة الجميع.

- تضرر المنظومة التعليميّة وإصابتها بالعجز والتردي، فقطاع التعليم من أكثر القطاعات التي تأثرت بالنزاعات في المجتمعات كافة التي شهدت وتشهد الحروب والنزاع المسلّح.

- أبعاد وتأثيرات نفسيّة عميقة على جميع أفراد المجتمع، وبخاصّة الصغار، والتي لها آثار سلبية على المدى القريب والبعيد.

- تستنزف الحرب رؤوس الأموال، وتوظف الموارد المتوافرة كافةً في البلد لتغذية الحروب، بدلاً من استثمارها وتوظيفها في المشروعات التنمويّة للنهوض بالمجتمع وأنظمتها المختلفة، ولتجاوز التخلف، وبخاصّة في البلدان النامية.

• تولّد الحربُ أزمةَ نزوح وتهجير تُرهق كاهلَ الدولة وتؤدي إلى كسر الوتيرة التعليمية للطالبات والطلاب بشكلٍ خطير.

• يترتب عن الحرب الأهلية تمزُّق النسيج الاجتماعي وتفكُّك أُسري واجتماعي.

• تداعي المنظومة القانونية بأشملها، وضعف أجهزتها المختلفة، الأمر الذي يقود إلى انتشار الفوضى والجرائم المتعددة وانعدام الأمن والاستقرار.

ويؤكد الاقتصاديون⁽²⁾ على أنّ الحرب تؤدي إلى خللٍ كبير في تخصيص الموارد المتاحة، من التخصيص لبرامج وخطط التنمية وتحسين الخدمات إلى التسليح وعلاج الجرحى، هذا إلى جانب تعطيل وتوقُّف القدرات الإنتاجية في الاقتصاد الوطني.

لقد شهدت ليبيا حالات النزاع المسلّح وعانت ويلات الحرب الأهلية بعد عام 2011. لقد بدأ التغيير المعاصر في النظام السياسي الليبي القائم منذ هذا العام، بعد الانتفاضات الاجتماعية في مدينة بنغازي شرق البلاد، والتي طالبت بمحاسبة المسؤولين عن مجزرة سجن بوسليم التي وقعت في العام 1996 إبان النظام السياسي السابق (حكم القذافي). ثم اشتعل فتيل الانتفاضة من المنطقة الشرقية وشمل ربوع البلاد كافةً، ونتيجة التدخل الدولي وحلف شمال الأطلسي تغيّرت الموازين، حيث انتصرت الجماهير الثائرة على النظام العسكري السابق الذي قاد البلاد وتحكّم بها لمدة 42 سنة كاملة.

بيد أنّ الأزمة وُلدت بعد ذلك؛ فبعد سقوط النظام السياسي الذي كان يحكم البلاد بلا دستور، ونتيجة للتغيير الجذري في نظام الحكم، وحداثة عهد التجربة الديمقراطية في البلاد، وأيضاً لغياب الخطط الشاملة لبناء الدولة الجديدة، هيمنت مجموعات إسلامية متشددة وأدى التسلّح إلى سلوك بعض المُدن الليبية، مثل بنغازي ومصراتة والزنتان، مسلك المُنتصر على مُدنٍ أخرى، وتحققت في سياق الحرب الأهلية انتصارات في مُدنٍ ومناطق معيّنة، وهزائم في مناطق أخرى. وبعد أن فشلت النُخب التي برزت بعد العام 2011 في حلّ مشكلة العسكرية، ازداد الوضع تعقيداً عقب بروز تجاذباتٍ دولية وتدخلاتٍ إقليمية على الأراضي الليبية، إلى أن اشتعل فتيل الحرب الأهلية في ليبيا في العام 2014.

لقد ترتّب عن كلّ ذلك تدهور الأمن وانتشار السلاح بشكلٍ مرعب بيد الجماعات المسلحة، بحيث يكشف المسح العالمي للقيم لعام 2015 أنّ نسبةً عالية من الليبيين

(2) تقرير التنمية البشرية الخامس تحديات التنمية في ليبيا، الهيئة العامة للمعلومات (ليبيا - طرابلس، 2018).

(20.7%) يحملون السلاح لعدم إحساسهم بالأمن. ويجب الإشارة هنا إلى أن البلاد تعيش بشكل عام حالة انفلات أمني، ولربما لدواع أمنية يحمل الأفراد السلاح للدفاع عن أنفسهم وهذا ما يجعل ليبيا تحتل مركز الصدارة في انتشار السلاح بين أفراد المجتمع⁽³⁾ لتصبح ظاهرة انتشار السلاح ظاهرة ليبية بامتياز. ويؤكد تقرير بعثة الأمم المتحدة للدعم في ليبيا⁽⁴⁾ أن العنف في البلاد أدى إلى سقوط مئات القتلى وإلى تفاقم ظاهرة النزوح، مع تفاقم الأزمة الإنسانية المستمرة في العديد من المجالات. كما ازداد تعرّض اللاجئين وطالبي اللجوء والمهاجرين لسوء المعاملة. ووسط ضعف الحكومة وانتشار مختلف الجماعات القبليّة والجهويّة ما بين المسلّحين التابعين لهم، حاصرت الجماعات المسلّحة البلاد وازدادت مستويات العنف، بل وأصبحت قضايا العنف والمصالحة تدور في حلقة مفرغة. لذا لم يكن مفاجئاً أن تغدو الأولويّة السياسيّة لدى الليبيين تتمثل في الاستقرار والأمن، بحيث باتت أغلبية الليبيين اليوم تعتبر نزع سلاح الميليشيات، والاستقرار السياسي، والأمن الشخصي، من أهمّ القضايا التي ينبغي مُعالجتها⁽⁵⁾.

وخلال شهر نيسان/أبريل سنة 2019، شهدت مدينة طرابلس حملة عسكرية شنها الجيش الوطني الليبي الذي يُمثّل حكومة طبرق للاستيلاء على المنطقة الغربية من ليبيا، واستمرت الاشتباكات بين الجيش الوطني الليبي بقيادة حفتر والجيش الليبي بقيادة السراج على تخوم العاصمة طرابلس لمدة سنة كاملة وشهرين، إلى أن توقف النزاع المسلح في شهر حزيران/يونيو 2020.

وكما أسلفنا، فإنّ للحرب في أيّ بقعة من العالم آثارها السلبية التي تؤثر على كلّ فئات المجتمع، وإنّ تفاوتت حدّتها بين واحدة وأخرى نظراً إلى عوامل مختلفة، ولعلّ الأطفال والفتيات هم من أكثر الفئات تضرراً من نيرانها. ومما لا شكّ فيه أنّ النزاع العنيف

(3) المسح العالميّ للقيم WVS، المسح الشامل لآراء الليبيين في القيم. التقرير النهائي (ليبيا - بنغازي: جامعة بنغازي مركز البحوث والاستشارات، 2015).

(4) بعثة الأمم المتحدة للدعم في ليبيا UNSMIL، «تقرير بعثة الأمم المتحدة للدعم في ليبيا حول أوضاع حقوق الإنسان في ليبيا (2015)»، الأمم المتحدة مجلس حقوق الإنسان، متاح على:

https://www.ohchr.org/Documents/Countries/LY/UNSMIL_OHCHRJointly_report_Libya_16.11.15_AR.pdf

(5) IFES (International Foundation for Electoral Systems)، «Libya: Status of Women Survey»، (2013). http://www.ifes.org/sites/default/files/libya_status_of_women_survey_report_final2_2.pdf.

له تداعياته العميقة وأبعاده التأثيرية والتي ستؤثر في المجتمع الليبي لفترات لاحقة طويلة الأمد. ولا ريب أنّ المنظومة التعليمية نالها نصيب كبير من هذه الآثار، لذا ترصد هذه الورقة الواقع الاجتماعيّ الراهن للفتيات الليبيّات، وتحديدًا واقعهنّ التعليمي، انطلاقًا من تلك المعطيات.

تطوّر الواقع التعليمي للفتيات في ليبيا خلال السنوات الأخيرة

لبلورة صورة واضحة عن تداعيات الحرب على الفتيات في ليبيا، وعلى صعيد التنظير سيتمّ في البداية عرض ما حُقّق من مكاسب في الجوانب التعليمية للفتيات الليبيّات، فمن الاختفاء المطلق لنسب وبيانات الفتيات المتعلّقات في الماضي، إلى التطوّر السريع والواضح في الراهن الاجتماعيّ، حيث شهد مستواهنّ التعليمي تقدّمًا سريعاً بمعدّلات تفوق مثيلتها بين الذكور. وقد ترتّب عن ذلك أن أصبح المستوى التعليمي للفتيات يفوق في العديد من المراحل التعليمية مستوى الذكور، وهذا ينطبق على مناطق ليبيا الريفية كافة منها والحضرية.

فالتغيّرات التي طرأت على الواقع الاجتماعيّ تُؤكّد أنّ الفتاة الليبية تعيش تحولات اجتماعية مهمة. فقد شهد المجتمع الليبيّ تغيّرات في الأنساق الاجتماعية نتج عنها تغيّرات في دور المرأة ومكانتها في المجتمع بشكل عام⁽⁶⁾. ويتأكّد من تقرير التنمية البشرية الثالث في ليبيا (2006)، أنّ واقع المرأة الليبية قد تغيّر بشكل عميق عمّا كان عليه في الماضي، بحيث غيّرت مرحلة التحوّل التي مرّ بها المجتمع الليبي خلال القرن العشرين أوضاع المرأة، وتقدّمت التشريعات المُعزّزة لمسيرة التغير، فتمّ إقرار مبدأ المساواة الكاملة بين الجنسين في الحقوق والواجبات. كما أنّ العديد من التغيرات المهمة طاولت الصورة النمطية للمرأة نتيجة التغير الذي حدث في أدوارها الاجتماعية ومكانتها الاجتماعية ونسق القيم المرتبط بها⁽⁷⁾.

(6) Elabani, Suaad, «Attitudes to and Perceptions of Domestic Violence Against Women in an Arab Community: A Case Study of Libyan Migrants in the UK». (Ph.D. Thesis, Manchester Metropolitan University, 2015) <https://e-space.mmu.ac.uk/582276>.

(7) تقرير التنمية البشرية الثالث المرأة في الجماهيرية (سابقًا): المُساواة مع الاختلاف، الهيئة العامة للمعلومات (ليبيا - طرابلس، 2006).

ونتيجةً لتطبيق مجانية التعليم منذ خمسينيات القرن الماضي وإتاحته لكل الأفراد الليبيين الطالبين له والراغبين فيه، ونتيجةً أيضاً لاعتماد الدولة خطوات عديدة لتحسين مستوى تعليم الفتيات، شهدت معدلات الالتحاق المدرسي لدى الفتيات تطوراً سريعاً⁽⁸⁾. وتشير الأرقام إلى أن نسبة الالتحاق المدرسي خلال العام (2012) بلغت حوالي 81.9% وأنها ترتفع لدى الإناث إلى 82.7% في حين أنها تنخفض لدى الذكور إلى 81.2%. ومن الملاحظ أن هذه النسبة ترتفع لدى الفئة العمرية 15 - 13 لتصل إلى 98.5%، وأن معدلات الالتحاق المدرسي استمر في التطور ليشهد ارتفاعاً ملحوظاً لمصلحة الفتيات خلال العام 2015 بلغت نسبته حوالي 87.4% مقابل نسبة أقل لدى الذكور بلغت حوالي 86.45%⁽⁹⁾. تمة ارتفاع في معدلات التحاق الإناث إذا تجاوزت معدلات التحاق الذكور بأكثر من نقطتين في العام 2015 بعد أن كانت أقل بنحو 3.5 نقطة في العام 1995. لقد تمكنت ليبيا من إغلاق فجوة النوع، بل إن هذه الفجوة أصبحت في مصلحة الإناث، ما يوضح أن ليبيا حالة مميزة في توفير التسهيلات التعليمية للفتيات، وأنها حالة فريدة من نوعها في خريطة التوزيع الطلابي على أساس النوع الاجتماعي⁽¹⁰⁾. وتشير بيانات وزارة التعليم الليبية إلى أن معدل القيد الإجمالي في مرحلة التعليم الأساسي بلغ في العام الدراسي 2019/2018 نسبة 113%، كما ارتفع معدل الالتحاق الصافي ليصل إلى 98%، وذلك لكونها مرحلة إلزامية. وقد تم سد الفجوة بين الجنسين في التعليم حيث وصل معدل التكافؤ بين الجنسين لطلبة مرحلة التعليم الأساسي إلى 0.93، بحسب بيانات العام الدراسي 2019/2018⁽¹¹⁾.

كذلك اقتحمت الفتيات مختلف مجالات التعليم الجامعي وتخصصاته، بل إن عدد الإناث في بعض كليات الجامعات الليبية البالغ عددها سنة 2017 (24 جامعة) فاق عدد الذكور؛ وفي هذا السياق تشير النتائج النهائية للتعديد السكاني (2006) إلى أن نسبة الإناث المؤهلات بالدراسة في مرحلة التعليم الجامعي من إجمالي عدد الطلبة كانت

(8) مصلحة الإحصاء والتعداد، التعديد السكاني (طرابلس - ليبيا، 2006).

(9) علي الشريف، السكان والتعليم والقوى العاملة في ليبيا (طرابلس: الجامعة المغاربية، 2018).

(10) التعليم في الجماهيرية الليبية (سابقاً): التوازن بين تمكين الكفاءة وتفعيل الجودة النوعية (تقرير بعثة البنك الدولي النهائية، 2008) (واشنطن، وثيقة فنية غير منشورة).

(11) تقرير التنمية البشرية الخامس لتحديات التنمية في ليبيا، الهيئة العامة للمعلومات (ليبيا - طرابلس 2018).

أعلى من مثيلتها لدى الذكور، وأنَّ نسبة الإناث في التعليم الجامعي وصلت إلى 12.8% من عدد الإناث المُلتحقين بالتعليم. أمَّا الذكور فقد كانت نسبة المُلتحقين منهم بالتعليم الجامعي إلى إجمالي الطلبة 10.41%⁽¹²⁾.

وعلى الرّغم من هذه المكاسب التي نالتها الفتيات في ليبيا، بيد أنَّ النظام التعليمي شهد العديد من العوائق التي حالت دون الوصول به إلى مستويات عالية من الجودة؛ إذ ثمة تحديات كثيرة تُؤثّر على النظام التعليمي للفتيات؛ ومن أهمّ القضايا والمشكلات التي لا تزال تواجه المُشاركة التعليميّة للمرأة إشكاليّات جودة التعليم ومتابعة التخصّص، وغياب التنسيق بين إنتاج العمليّة التعليميّة ومتطلّبات سوق العمل والعناية بتعليم الإناث خصوصاً في المناطق الريفية، ولاسيّما بالنسبة إلى التعليم الجامعي، بحيث تصبح البطالة والعمل والتكدّس في القطاع الرسميّ وفي مجالات محدّدة (كالتدريس والعمل الإداري) محصّلة التعليم التقليديّ والسياسات المحدودة الرؤيا. كما أنَّ الأزمة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهشاشة الأوضاع الأمنيّة والنّزاع المسلّح، كان لها تداعياتها على المنظومة التعليميّة بشكل عامّ، وأوضاع الفتيات التعليميّة بشكل خاصّ. فلفتيات نصيب كبير في المعاناة نتيجة النّزاع المسلّح والحروب، سواء في المناطق الريفية أم الحضرية، لجهة طلب التعليم خلال فترات الصراع، على الرّغم من أنَّ حصّتهنّ في التعليم الرسميّ أكبر من حصة الذكور (كما أشرنا أعلاه). فالفتيات في سنّ الذهاب إلى المدرسة يعشنّ خلال الصراع في المناطق الريفية صعوبات أكبر من الفتيان، وهذا ما تُؤكّده معظم الدراسات في هذا المجال⁽¹³⁾، على الرّغم من أنَّ تداعيات الحرب تقع على الجنسين، في المناطق الحضرية والريفية على حدّ سواء، وبخاصّة من حيث المشاركة التعليميّة وتعطّل جلّ عناصرها. ويُؤكّد تقرير اليونسيف (2015) على أنّه نتيجة لتأثير العنف والنّزاعات المسلّحة على تلاميذ المَدارس في تسع مناطق من بينها سوريا والعراق واليمن وليبيا، يترعرع جيلٌ بأكمله خارج النظام التعليمي⁽¹⁴⁾.

(12) التعداد السكانيّ، مصلحة الإحصاء والتعداد (طرابلس - ليبيا، 2006).

(13) اليونسكو UNESCO، «التقرير العالميّ لرصد التعليم: التعليم الشامل للجميع الجمع بلا استثناء. (2020)»،

Creativecommons، متاح على: <http://creativecommons.org/licenses/by-sa/3.0/igo/>

(14) اليونسيف UNICEF، تكاليف الحرب، دراسة لتبعات انهيار النظام التعليمي في سوريا على مستقبل الدولة، مترجم

عن The Cost Of War، (موقع السوري الجديد، الناشر: 2015 Save The Children).

ولإظهار التداعيات الناجمة عن مُعاصرة العنف والنِّزاع المسلَّح، نُعرِّج لعرض نتائج المقابلات الجماعية خلال مجموعات التركيز التي طُوِّرت أساساً لهذه الدراسة. يتبع ذلك عرضُ المقابلة التي تمَّ إجراؤها مع فتاة واحدة وتحليلها لفهم هذه التداعيات بشكلٍ معمَّق.

أولاً: تحليل وتقييم المُقابلات الجماعية المُعتمدة خلال مجموعات التركيز

بغرض التعرُّف إلى الأبعاد التأثيرية الناتجة عن معاصرة حالات العنف والنِّزاع المسلَّح التي شهدتها مدينة طرابلس الليبية خلال العام 2019 وحتى منتصف العام 2020، كان من الأهمية والضرورة جمع البيانات والمعلومات حول معاناة الفتيات والتحديات التي قابلتهنَّ نتيجة معاصرتهنَّ الحروب، وذلك بهدف فهم هذه المعاناة منهنَّ مباشرةً، ووفق أقوالهنَّ وتعبيراتهنَّ واتِّجاهاتهنَّ وموقفهنَّ بعد هذه الأزمة وعودتهنَّ لممارسة حياتهنَّ الاعتيادية. وضمن هذا السياق سنستعرض في هذا الجانب منهجية الدراسة، متبوعة بعرضٍ لأهمَّ نتائج مجموعات التركيز مع تحليلٍ لهذه النتائج.

الإطار المنهجي للدراسة وأسلوب جمع البيانات

اعتمدت هذه الدراسة النوعية أو الكيفية المنهج، أسلوب المُقابلات الجماعية «مجموعات نقاشية بؤرية»، والتي تمَّ اعتمادها مع خمس مجموعات تركيز. شملت كلَّ مجموعة ما بين خمس إلى ست فتيات (نظراً إلى ضرورة التباعد الاجتماعي ومُراعاة السلامة والمسافات الآمنة المُتبعة بحسب بروتوكولات وباء كوفيد 19 خلال فترة إجراء المُقابلات)، وقد بلغ مجموع المُشاركات 28 فتاة. وبالنظر إلى طبيعة عمل الباحثة كعضو هيئة تدريس في قسم علم الاجتماع في كلية الآداب في جامعة طرابلس، تمَّ اختيار هذه المجموعات من طالبات الكلية. وقد اتَّبعَت الباحثة الخطوات العلمية في اختيار هذه المجموعات. فتمَّ التركيز على المراحل الدراسية الأولى وكانت أعمارهنَّ ما بين 17 - 20 سنة. وجرت المُقابلات خلال شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 2020 وشهر كانون الثاني/يناير من العام 2021. وقد تمَّ شرح موضوع الدراسة وبيانها وأهدافها لمجموعة الفتيات المُشاركات في مجموعات النقاش، والتأكيد لهنَّ بأنَّ ما يدين به سيُستخدم فقط

لأغراض بحثية علمية، وأنّ أسماءهنّ وهويتهنّ لن يتمّ إدراجها أو عرضها في الدراسة، كما عُرض عليهنّ الانسحاب من المقابلات إن رغبنّ في ذلك، وإلحاقاً لهذه المقابلات، قامت بعض الفتيات بكتابة تجربتهنّ وتسليمها بعد ذلك، ليُصار إلى تحليلها ضمناً مع المقابلات الجماعية في مجموعات التركيز.

كما تمّ الاعتماد على تطبيق منهج دراسة الحالة عن طريق إجراء مقابلة واحدة مع فتاة في المرحلة ما قبل الجامعية تبلغ من العمر 14 سنة، لأنّ منهج دراسة الحالة هو بحث متعمّق في وحدة اجتماعية فردية واحدة يضمن الحصول على تفاصيل معمّقة حول موضوع الدراسة وإثراء الفهم لتأثيرات الحرب على الفتيات الصغيرات قبل المرحلة الجامعية.

وبطرح مجموعة أسئلة وأفكار للنقاش، تمحورت المناقشات حول الأبعاد التالية:

- التعرف إلى التحديات التي تواجه الفتيات خلال الأزمة.
- التعرف إلى التجارب والممارسات والبرامج التي اعتمدتها الفتيات لمواجهة الأزمة.
- الوقوف على آراء ومقترحات وتوصيات مجموعات التركيز لتفعيل برامج محدّدة لتجاوز الأزمة والمُعاناة.

تداعيات مُعايشة النزاع المسلّح على الفتيات بناءً على نتائج الدراسة عند تحليل البيانات ومحاولة تبويبها منطقياً، يُلاحظ أنّ هناك ترابطاً بين الحرب والنزوح لا يُمكن تجاوزه أو نكران وجوده، لذلك تتبلور العوامل التأثيرية للحرب على المنظومة التعليمية في عوامل محدّدة؛ وهي النزوح والتهجير الناجم عن النزاع المسلّح وارتباطه بالمنظومة التعليمية، والعوامل النفسية وآثارها على هذه المنظومة. برزت جملة من الموضوعات خلال المقابلات، وعُبرت نتائج مجموعات التركيز عن الأبعاد التالية:

أ - الأبعاد النفسية وعلاقتها بالتحصيل العلمي

لقد تأثرت العمليات التعليمية منذ بدء الانتفاضة في ليبيا في شباط/فبراير من العام 2011. فالآثار المدمّرة للحرب تطال الجميع ويظلّ الأطفال والفتيات بمختلف مراحل

تعليمهم الحلقة الأضعف والأكثر عرضةً للمخاطر نتيجة لويلات الحروب، ما ينعكس على نفسيّتهم من آلام ومعاناة قد تنتهي باضطرابات نفسيّة عميقة. وهذا متوافق مع التنظير وتؤكدّه بعض الأدبيّات والدراسات⁽¹⁵⁾. حيث تُشير نتائج دراسة درويش (2009) حول تداعيات الحرب الإسرائيليّة على تلاميذ مرحلة التعليم الأساسي في مدينة غزّة إلى أنّ المَشاهد المؤلمة التي يتعرّض لها الطّلاب وسماع دويّ الانفجارات والقصف وأصوات الأعيرة الناريّة يترك حالةً من الرعب تظلّ لصيقةً لفترات طويلة. وقد لاحظت دراسته أيضاً، نتيجة الحروب على غزّة، أنّ نسبة الخوف والقلق لدى الإناث بلغت 81% وهي أعلى من مثيلتها لدى الذكور حيث بلغت 62.1%. وقد صاحب الخوف والذعر والهلع ظواهر مثل الغضب والقلق والاضطرابات النفسيّة، والاكتئاب، والحزن، والكوابيس الليليّة، وعدم القدرة على النوم، والتبوّل اللاإرادي⁽¹⁶⁾.

ويتبيّن وبشكل جليّ من خلال تحليل نتائج المُقابلات الجماعيّة خلال مجموعات التركيز، أنّ معاصرة الحرب ترتّب عنها تدهور في التحصيل العلميّ وتدنيّ المستوى الدراسيّ لجميع الفتيات المُشاركات في المناقشات. فقد أشارت الفتيات إلى أنّه خلال فترات الحرب كنّ منقطعات بشكل كامل عن الدّهاب إلى المَدارس، وإلى إنّهن كنّ في مرحلة التعليم الثانويّ، وأشارت بعض الفتيات إلى أنّهن كنّ في حاجة إلى الانتقال إلى مدارس أخرى لمواصلة تعليمهنّ نظراً إلى حساسيّة المرحلة الدراسية التي كنّ فيها، وهي مرحلة الشهادة الثانوية التي تُعتبر مرحلة مفصليّة للانتقال إلى التعليم الجامعيّ، وتشكّل قفزة نوعيّة بالنسبة إليهنّ (يترتّب عليها مستقبلي بأسره، كما أشارت إحدى المبحوثات).

وتشير نتائج المقابلات أيضاً إلى أنّ هناك أثراً سلبياً للحرب والنّزاع على تحصيل الفتيات والدافعيّة نحو التعلّم، وقد كان تأثير الحرب على مستوى تحصيلهنّ العلميّ عالياً كما أشارت الفتيات خلال المُقابلات الجماعيّة، كما تأثّر مستوى التركيز والانتباه في الفصل ومستوى مُراجعتهنّ لدروسهنّ سلبياً. وأشارت بعض الفتيات إلى تأثّر نشاطهنّ ومشاركتهنّ داخل المدرسة. وعند السؤال عن الانضباط والمتابعة أظهرت استجابتهنّ

(15) عطا حسن درويش، التحصيل والدافعيّة نحو التعلّم لتلاميذ المرحلة الأساسيّة بعد الحرب على غزّة (غزّة: مدوّنة - الجامعات الفلسطينيّة. 2009).

(16) المرجع السابق.

أنَّهِنَّ كُنَّ كثيراتِ التَّغَيُّبِ عن المدرسة، وأنَّ مستويات اهتمام الأهالي بزيارة المَدارس والسؤال عن الأداء الخاصَّ بهنَّ قد تأثَّر بشكلٍ سلبيٍّ خلال الحرب وبشكلٍ واضحٍ، حيث إنَّ معظم الفتيات في عَيِّنة الدراسة كُنَّ يَعِشْنَ في مناطق النَّزاع بحسب ما عبَّرن بكلماتهنَّ «نقطن في قلب الحدث». الإقامة في هذه المناطق التي شهت إقفال الطرق وصعوبة الحركة فيها وانقطاع أو تعذُّر المرور ببعض الطرقات لأسبابٍ أمنيَّة، ترتَّب عنه عدم القدرة على مغادرة البيوت في معظم الأحيان.

وأدلت الفتيات، وبالأخصَّ اللواتي كُنَّ يَعِشْنَ في مناطق الاشتباكات، بشهادات معبَّرة عن تداعيات العنف والنِّزاعات السَّائدة على حياتهنَّ اليوميَّة وأوضاعهنَّ النفسيَّة. فقد صرَّح العديد منهنَّ بأنَّ انتشار النَّزاع وبخاصَّة المُتناقل عنه عبر وسائل الإعلام، جَعَلَ العديد منهنَّ وأُسْرهنَّ يتجنَّبون التَّنقُّل خارج البيت وبخاصَّة في المساء أو لمسافاتٍ طويلة خوفاً من التعرُّض لأيِّ أحداثٍ طارئة. كما أدَّى ذلك إلى تقليص كبير في الزيارات العائليَّة للأصدقاء وبخاصَّة الزيارات البعيدة، وأعاقهنَّ عن الالتحاق بمَدارسهنَّ وكلِّيَّاتهنَّ في معظم الأحيان.

لقد عبَّرت العديد من الفتيات عن حالة «الخوف والقلق» بسبب حالة انتشار أعمال العنف التي أدَّت إلى توقُّف مختلف الأنشطة والحركة، ما ترتَّب عنه إحباط وتدهور للحالة النفسيَّة بحسب تعبيرهنَّ، حيث تقول إحدى الفتيات:

«المستقبل أمامي كان مجهولاً، لقد عانيتُ نفسيّاً وأنا أقطن في قلب الحدث، لم أستطع الخروج للدراسة وحياتي توقَّفت، كانت أيَّاماً صعبة وزاد انقطاع الكهرباء من المعاناة نتيجة انقطاع الأسلاك الكهربائيَّة في المنطقة. لقد وجدتُ صعوبة في التقدُّم لامتحانات بسبب إقفال الطرق. لقد فشلْتُ في اجتياز المقرَّرات الدراسيَّة وهذا أصابني بالإحباط وفاقم من أزمتي النفسيَّة. إنَّها ذكريات لا زالت في قلوبنا حتَّى الآن. لقد كانت أيَّام رعبٍ من الحرب التي تدور بين الطرفين، ولكنَّنا كنَّا نحن من يستقبل الرصاص والقذائف، لقد تمَّ زرعُ الخوف في قلوبنا وتهدَّمت بيوتنا ومعها قلوبنا.»

كما كتبت مُشاركةً أخرى في مجموعات التركيز وتبلغ من العمر 19 سنة عمَّا شهدته خلال الحرب:

«أكتب ذكرياتي بلون أسود، فقد كانت أسوأ الأيام والشهور والسنين التي مرّت علينا، حلمي توقّف، وشغلي توقّف، وطموحي أصبح يتضاءل، لقد تغيّر كلّ شيء، في لحظة خسّرنا كلّ شيء. ومهما كانت قوّتنا ودرجة تحمّلنا سننهار. لقد خرجنا من بيتنا وكلّ شيء يذكّرنا به، ودّعنا بيتنا بلا أمل ووضعنا كلّ الاحتمالات. لقد كنّا أقاوم من أجل عائلتي مع أنّ نفسيّتي كانت في الحضيض. ونقول إنّها أزمة وتمرّ».

تشير الدراسات والبحوث إلى أنّ أعراض اضطراب ما بعد الصدمة واضحة على عدد كبير من الأطفال الليبيين بعد الحرب، وهذا ما يؤكّده المختصّون في الأمراض النفسيّة والعقليّة، فالعنف الذي يتعرّض له الأطفال في البلدان التي تشهد النزاعات المسلّحة، يؤثّر على نفسيّتهم، إلى جانب المتداول في داخل الأسرة وفي الشارع والمدرسة عن عمليّات الخطف والجرائم المختلفة ومنها القتل. ثمة أطفال تعرّضوا للعنف المباشر عندما شهدوا سقوط قذائف على الأحياء التي يسكنونها أو عندما نزحوا مع أسرهم هرباً من الاقتتال⁽¹⁷⁾. إنّ تبعات ما بعد الصدمة على الفتيات المعاصرات للنزاع المسلّح تُؤثّر بشكل كبير في مسار حياتهنّ الطبيعيّة. ويؤكّد المختصّون أنّ الكوايس والأحلام المزعجة قد تتكرّر على خلفيّة العنف الذي يتعرّض له الصغار والفتيات من جرّاء الحرب، من قبيل صوت الطائرات أو صفّارات إنذار السيّارات وأصوات القذائف، كلّ ذلك يُخلّف حالات من الاكتئاب والخوف وردود فعل لا إراديّة لدى الصغار والفتيات عند سماعها. كما أنّ هناك حالات قد تدفع في اتّجاه انعزال الصغار لدرجة ترك المدرسة بسبب التخوّف من المحيط، في حال لم تستوعب الأسرة حالة الصغير وتُشعره بالأمان، خصوصاً إذا كانت الأسرة نازحة وتعاني ظروفًا قاسية⁽¹⁸⁾.

وتُصنّف بعض الدراسات أطفال ليبيا ما بعد العام 2013 بـ«أطفال الحرب»، حيث إنّ هناك مخاطر سوف تُهدّد من يعاني من جرّاء صدمات الحرب على مدى سنوات طويلة⁽¹⁹⁾. كما أنّ هناك سلوكيات رُصدت في المدارس لدى بعض الأطفال، هي من دون

(17) «الحرب تخلّف آثارها المدمّرة في نفوس أطفال ليبيا»، العربي الجديد، متاح على:

ليبيا-أطفال-نفوس-في-المدمّرة-آثارها-تخلّف-الحرب/alaraby.co.uk

(18) المرجع السابق.

(19) المرجع السابق.

شكّ أعراض اضطراب ما بعد الصدمة، من قبيل جنوح بعض التلاميذ وميلهم إلى تحطيم كل شيء والاعتداء على زملائهم. لكنّ الأشدّ خطورة يكمن في استجابة أطفال الحرب في المرحلة الإعداديّة لتعاطي المخدّرات. وقد ضبطت الشرطة بالفعل معدّات لها علاقة بتعاطي المخدّرات بين مستلزمات مدرسيّة تعود إلى بعض تلاميذ هذه المرحلة⁽²⁰⁾.

ب - تداعيات النزوح والتهجير على المنظومة التعليميّة

لقد شملت حركة النزوح سكّان مناطق متعدّدة من ليبيا على امتداد فترة النزاعات المسلّحة منذ العام 2011 وحتى العام 2020 وما زالت مسبّاتها قائمة حتّى اليوم. ونظرًا إلى استمرار الحروب والصراعات عانت المنظومة التعليميّة في العديد من المّدن الليبيّة الكثير من المُشكلات والأزمات، حيث أثّرت حالة النزاع سلبيًا على التعليم ليس في مناطق النزاع فقط، بل أيضًا في المناطق الآمنة التي أصبحت مركزاً جديداً لملايين النازحين، الأمر الذي أسهم في تأجيل استكمال الدراسة وارتفاع نسب الفتيات والفتيان الذين هم خارج المدرسة، يُضاف إلى ذلك المشكلات النفسيّة وحالات التوتر والفراغ لدى الفتيات، وهذا من شأنه أن يؤثّر على جودة التعليم ومُخرجاته بشكل يُهدّد المنظومة التعليميّة بأسرها.

إنّ التهجير والنزوح الناتجين عن الأزمة الليبيّة في السنوات الأخيرة أثّرا بشكل واضح في المنظومة التعليميّة. فقد ترتّب عن الاشتباكات المسلّحة التي تركّزت منذ البداية في المناطق الأهلة بالسكّان حركة نزوح واسعة من الفارين من نيران النزاع المسلّح. وتشير بيانات المنظّمة الدوليّة للهجرة (2020) إلى أنّ عدد النازحين كان 250,000 خلال العام 2019، ثمّ تصاعد هذا العدد إلى الضعف حتّى بلغ 450,000 خلال شهر حزيران/يونيو في العام 2020. أمّا توزيعهم بحسب الجنس فقد كان حوالى نصف العدد من الذكور والنصف الآخر من الإناث⁽²¹⁾. وتشير البيانات أيضًا إلى أنّ 96% من النازحين غادروا مناطقهم بسبب تدهور الأوضاع الأمنيّة. كما أنّ أزمة النزوح كان لها تأثير في السلامة

(20) شبكة النّبأ، «التعليم في زمن الحروب: حرمانٌ قسريٌّ لمستقبل الطفولة»، شبكة النّبأ، متاح على:

<https://annabaa.org/arabic/education/4220>

(21) المنظّمة الدوليّة للهجرة IOM، «النزوح الداخلي في ليبيا: النزوح من طرابلس خلال الأعمال العدائيّة في ما بين

عاميّ 2019 و2020»، متاح على:

https://reliefweb.int/sites/reliefweb.int/files/resources/DTM_MinistryOfDisplacement_2019-2020_Report_ARABIC.pdf

البدنية والعقلية والنفسية للنازحين، إذ تعرّض معظم هؤلاء النازحين للعديد من التحديات، وأهمّها الإشكالات المتعلقة بالحماية، كما أنّهم قطنوا في أماكن ومساكن غير مناسبة تماماً للسكن، ما أثر في مستوى هشاشتهم وبخاصّة بالنسبة إلى من اضطروا للإقامة في منشآت غير نظامية. وقد تأثر الأطفال والفتيات تأثراً بالغاً من هذه الوضعية، إذ كانوا يُمثّلون قرابة 48% من النازحين⁽²²⁾. ونتيجة لأنّ بعض المشاركات في مجموعات التركيز شهدن النزوح فقد تضمّنت الحوارات الجماعية تساؤلات حول أبرز هذه التحديات المرتبطة بالنزوح، وطبيعة تفاعلها مع بعضها واقتراحات لأهمّ سُبل الوقاية والمعالجة لهذه التحديات، وقد لاقت هذه الموضوعات استجابة وحوارات عميقة ومطوّلة خلال المقابلات الجماعية؛ نعرض في ما يلي أبرز ما جاء فيها:

إنّ عملية النزوح من شأنها أن تُحدث تفكّكاً واسعاً في الأسرة وعلاقاتها، وتفكّكاً في النسيج الاجتماعي، وتوسّعاً في حالة العزلة نتيجة الابتعاد عن الأهل والمعارف والأصدقاء، ما يؤثر سلباً على الحالة النفسية، بالإضافة إلى إضعاف المستوى التعليمي والثقافي، وانتشار العديد من المظاهر الهدامة المرتبطة بالمشكلات الاجتماعية، واستمرار حالة عدم الاستقرار الاجتماعي. ويتمحور أثر النزوح تحديداً في علاقته بعمليات التعليم المختلفة في العديد من الأبعاد المهمة، والتي برزت من خلال مجموعات التركيز، ومن أبرز الانعكاسات السلبية نتيجة النزاع المسلح الدائر في ليبيا تدني مستوى التعليم، بشكله العمومي، وتحوّل مؤسساته إلى ملاجئ؛ لقد أشارت بعض الفتيات في عيّنة الدراسة هذه إلى أنّه ونتيجة النزاع المسلح في جنوب طرابلس، اضطرت عائلتهنّ في البداية للجوء مع بعض الجيران للسكن في المدارس، وكانت المدارس معطّلة تماماً ما جعل بداية الدراسة فيها أمراً مستحيلاً. وفي هذا السياق تشير بيانات منظّمة الهجرة الدولية (2020) إلى أنّ المدارس شكّلت 32% بالنسبة إلى النوع الأكثر شيوعاً من المساكن التي لجأ إليها النازحون خلال حرب 2019 على مدينة طرابلس، تليها نسبة قرية الإقامة لدى أسر مُستضيفة بنسبة 30%. بينما كانت نسبة السكن في بيوت مُستأجرة حوالي 29%⁽²³⁾.

(22) المرجع السابق.

(23) المرجع السابق.

كما أنّ المؤسّسات التعليميّة في ليبيا كانت أمام تحدّد جديد وكبير تمثّل بالطلبة النازحين؛ إذ تركّ هؤلاء مَدارسهم، ومنهم من كان على عتبات التخرّج. لقد أشارت بعض الفتيات في عيّنة هذه الدراسة إلى أنّ هناك اختلافاً في مستوى المَدارس التي انتقلن للدراسة فيها، ما أثر بالضرورة على مستوياتهنّ الدراسيّة. كما أنّ زمن الانتقال إلى مَدارس أخرى من شأنه التأثير في مستوى التعليم؛ حيث يُعاني النازحون من صعوبة الوصول إلى المَدارس أو من خلل في التعليم بسبب استمرار انعدام الضرورات الأساسيّة. فوضّع المَدارس الموجودة في مناطق المخيمّات على سبيل المثال سيّئ جداً (بحسب ما أشارت إليه المبحوثات) وهي تُشكّل بيئة مختلفة عن المَدارس العامّة الأخرى التي يلتحق بها النازحون خارج المخيمّات. فالمَدارس في مناطق المخيمّات تُعاني من النواحي الماديّة والعملية، ومن عدم رغبة الطلّاب بالتعلّم ومن عدم رغبة المعلّمين بالعمل، فضلاً عن افتقارها إلى المقوّمات والوسائل الأساسيّة اللازمة والمُساندة لعملية التعليم.

كما برزت على السطح العديد من الإشكالات التي ناقشتها المُتَحاورات في مجموعات التركيز، منها أشكاليّات تتعلّق بفقدان الوثائق الرسميّة. وفي هذا السياق تُشير الفتيات إلى ضياع النتائج الدراسيّة والأوراق التي تُحدّد مستواهّن الدراسيّ في بعض المَدارس، وإلى أنّ عدم وجود المستندات الرسميّة أدّى إلى فقدان أعمال السنة الدراسيّة لبعضهنّ، وعدم القدرة على إحداث توازن لتحقيق اجتياز المقرّرات الدراسيّة.

وللنزوح أبعاد ترتبط أيضاً بالبيئة التعليميّة، حيث يترتّب عنها ازدياد في أعداد الطلّاب ما يؤدّي إلى الاكتظاظ الفصليّ، وهذا من شأنه أن يزيد من ضعف التركيز داخل الفصل الدراسيّ، ويُسهم في إيجاد بيئة قد تولّد إشكالات بين التلاميذ. كما أشار بعض أفراد العيّنة في مجموعة التركيز إلى إشكاليّات تتعلّق بتوافر الكتاب المدرسيّ. فقد أشارت إحدى الفتيات في مجموعات التركيز إلى ذلك قائلة: «لقد استخدمنا الكتب القديمة لطلّاب السنة الماضيّة، كنّا ندرس في كتب قديمة ولكنّا لم نتوقّف وهذا المهمّ على الأقلّ».

إنّ الانتقال من مدرسة إلى أخرى أمرٌ فيه معاناة تؤثر على الاندماج وعلى المستوى العلميّ للطلاب النازح من جهة، وعلى رفض الطلبة الوافدين إلى البيئة الجديدة من جهة أخرى. كما تظهر مظاهر التمييز التي تُمارسه بعض الطالبات على الطالبات النازحات،

وهو ما يؤثر على تحصيلهنّ ومستواهنّ العلميّ، وعلى تكيّفهنّ الاجتماعيّ. وتشير النتائج إلى أنّ معظم استجابات المبحوثات كانت تتمحور أساساً حول فقدان التواصل مع جماعات الأصدقاء وصعوبته.

وللنزوح أبعادٌ نفسيّة أيضاً، فقد أشارت الفتيات إلى بروز إشكاليّات على مستوى الذات (أبعاد نفسيّة). حيث إنّ هناك صعوبة التكيّف والتأقلم مع البيئات الجديدة. تُشير إحدى الطالبات في مجموعات التركيز إلى أنّها «وجدت في البداية صعوبة في التكيّف ثم استطاعت الاندماج». قالت أخرى: «في بداية النزوح كان عندي عزوف عن الدراسة والواجبات ولم يكن هناك تواصل بيننا وبين الطلبة الآخرين في المدرسة في المناطق الآمنة». وهذه الأبعاد ترتّب عنها تدني المستوى العلميّ للفتيات، وذلك نتيجة لتغيير البيئة وتضافر عوائق الاندماج مع البيئة المحليّة التي وفدت إليها الطالبات الجدد. وقد أشارت العديد من الفتيات إلى المشكلات اليومية التي يعشنها ومنها الانقطاع المتكرّر للكهرباء والماء و«طواير البنزين»، وأكّدت العديد منهنّ أنّ هذه المشكلات زادت من معاناتهنّ اليومية.

ج - استراتيجيات المُعالِجة ومُقاومة الفتيات للأزمة

تمّ سؤال الفتيات عن الأدوات التي استخدمنها للتغلّب على الأزمة التي شهدنها نتيجة معاصرتهنّ الحرب، وكيف كُنّ قادرات على العودة إلى حياتهنّ واستئناف تعليمهنّ وتحقيق أحلامهنّ المستقبلية. فعلى الرّغم من المُعاناة والألم الذي عبّرَ عنه نتيجة خبرتهنّ خلال السنة الماضية، وفي بعض الأحيان عبّرَ بألم وعدم ارتياح، إلّا أنّهنّ وفي العديد من محطّات المقابلات الحوارية أبرزنّ حالة تفاؤل عالية واستعدادات وإرادة للعمل، من أجل مواجهة التحدّيات والمضيّ قدماً في طريقهنّ. فقد عبّر بعضهنّ عن تفاؤلهنّ بالنسبة إلى المستقبل، وأكّدت بعضهنّ الآخر أنّ المستقبل أفضل لليبيا وأنّ القادم سيكون خيراً، وأنّ التجربة ومُعاصرة الحرب لا تعني نهاية حياتهنّ أو أنّهنّ فقدنّ الأمل في النجاح، تقول إحدى الفتيات:

«لقد رجعتُ إلى حياتي الطبيعيّة تدريجاً، حمدنا الله على سلامتنا وكانت تجربة واختبار صبرٍ من الله عزّ وجلّ وأملنا في الله كبير بأن يُعوّضنا كلّ خير».

كما برَزَ دور الأسرة كمصدر أساسي للدعم والمُساندة، وتُشير إحدى الفتيات في مجموعة التركيز إلى ذلك بقولها:

«لقد علّمتنا التجربة الكثير، تعلّمنا وعرفنا نُنظّم حياتنا، لقد كانت تجربة مؤلمة وانتقالاً إلى منزل تمّ إيجاره ليجمعنا مع أخوتي بعيداً عن نيران الحرب. حيث ساد الشعور بعدم الاستقرار وخوف دائم من المجهول. ولكنّا تعلّمنا الصبر والقوّة والإصرار والعزيمة. عرفنا قيمة الوقت وقيمة كلّ شيء نمتلكه. والأهمّ أنّ تماسك الأسرة كان أكثر وأكثر. وأصبحت أكثر اعتماداً على نفسي. وعلى الرّغم من تأخّر سنة دراسيّة كاملة، فإنّني ما زلتُ صامدة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

وتشير فتاة أخرى إلى مساندة الأم لها ودورها في تخطّي الأزمة، حيث تقول:

«كنتُ استمدّ الصبر من أمّي، كانت تجعلنا صابرات وتمدّنا بالصبر بكلمة الفرج قريب. وبعد سنة وشهرين من الحرب والرعب والخوف، دراستنا كانت متوقّفة وحلمنا كان متوقّفاً. ولن أنسى سجدة أمّي أمام بيتنا عندما عدنا إليه وهي تقول الحمد لله وتكرّرها. لقد استمدّيتُ منها القوّة للعودة ومواصلة دراستي وتحقيق أحلامي في الحياة». كما قامت وسائل التواصل الاجتماعيّ بدورٍ فاعلٍ ساعد الفتيات في المضيّ قدماً، حيث أشارت معظم الفتيات المشاركات في المقابلات الجماعيّة إلى أنّ استخدام مواقع التواصل الاجتماعيّ مثل الفيسبوك وغيره من التطبيقات الأخرى أسهم في مساندتهنّ للتواصل مع الأصدقاء والخروج من دائرة العزلة والشعور بالوحدة. كما أنّ هذه الوسائل التواصلية كانت تمدّهنّ بما يجري ويتتبّعن الأحداث عبرها. إحدى المشاركات في مجموعات النقاش تبلغ من العمر 17 سنة قالت:

«الفيسبوك ساعدني مع صديقتي في تجاوز مشكلة متابعة المنهج، فقد تمكّنا من فتح مجموعة خاصّة بنا في موقع الفيسبوك، وكنا نستعرض من خلالها ما يتمّ دراسته في الفصول، وقد تمكّنا على الأقلّ من متابعة بعض الموضوعات وليس كلّها».

كذلك عبّرت الفتيات خلال المقابلات الجماعيّة عن الثقة بقدراتهنّ على التغلّب على تداعيات الحرب، واستعادة الرغبة لمواصلة تعليمهنّ وتحقيق طموحات وأحلام حياتهنّ بشكل عامّ، كما عبّرن عن الاستعداد للمشاركة في الجهود كافّة الرامية إلى تحقيق الاستقرار والأمن في البلاد. وقد أشارت بعض الفتيات إلى كونهنّ على الرّغم

من الظروف الصعبة، والإمكانات المحدودة، قدرات على المشاركة بمبادراتٍ جماعيةٍ عدّة وبالأخصّ الفردية لحماية أنفسهنّ وأخريات من أقربهنّ أو من الأصدقاء، وبخاصّة من هم في وضعيّة النزوح أو التهجير. وأشار بعضُ منهنّ إلى المشاركة داخل الجامعة أو ضمن منظمات المُجتمع المدنيّ لدعم النازحين في المناطق الآمنة.

وبغرض تعزيز فرص المقاومة وزيادة دعم استراتيجيّات المُعالَجة لمُساندة الفتيات لتخطّي الأزمة، تمّ عرض كَمّ هائلٍ من التوصيات من قِبَل الفتيات خلال المُقابلات الجماعية، الأمر الذي من شأنه أن يُسهم في الرفع من الروح المعنويّة للفتيات والمساهمة بالنهوض بالمنظومة التعليميّة وإنجاح برامجها المُختلفة؛ إذ إنّ ما يضمن نجاح هذه المُبادرات والبرامج هو مشاركة الجميع بما في ذلك الفتيات أنفسهنّ في ذلك. لقد أثّرت العديد من المقترحات في هذا السياق؛ ومنها:

- أشارتِ الفتياتُ إلى الدور الذي يُسهم به الاختصاصيّون الاجتماعيّون في المؤسسات التعليميّة كافّة، كالمدرّس والجامعات اللّبيّة. هذا الإسهام يُعين على تجاوز الألم ويُساعد في تقليل التداعيات النفسيّة التي سبّبتها الحرب للطلّبات وحتّى للطلّبة الشباب، وذلك في مُختلف مراحل التعليم.

- تقديم محاضرات متعلّقة بالتنمية البشريّة، وأيضاً الدينيّة، مع إبراز أهميّة علم النّفس وتقديم الدعم النفسيّ في مراكز مخصّصة للغرض ذاته، وتأهيل الطالب وإعادة بناء الشخصيّة وتطويرها. مع العمل على غرس الوعي الاجتماعيّ من خلال ورش العمل والمُحاضرات التوعويّة داخل المُجتمع.

- التأكيد على دور الفتيات الفاعل في تجاوز التداعيات السلبية والصعوبات الناتجة عن الحرب.

- العمل على توفير نادي الكتب والمكتبة داخل المدرسة، والعمل على إعادة الدروس للملتحقين متأخراً، عن طريق الفترات الإضافيّة بطريقة مقنّنة. وإدماج موادّ تهدف لنشر ثقافة الحوار والسّلم وحلّ النّزاعات والتّماسك الاجتماعيّ.

- الدّعوة إلى تشجيع البرامج والمشروعات الدّاعمة لتمكين الفتيات وتدعيم مشاركتهنّ وتعزيز حقوقهنّ بما في ذلك حقّهنّ في التّعليم والعمل والتّصديّ للتمييز

وللعنف ضدّ الفتاة والمرأة. وهي إجراءات من شأنها أن تُعزّز بدورها ثقافة الحوار والسّلم ونبذ العنف في البلاد.

- تعزيز حقوق المرأة والتّساوي بينها وبين حقوق الرّجل، وضمان نشر ثقافة وأنشطة مُحاربة للتمييز بعامةٍ والتمييز بين الجنسين بخاصّةٍ على نطاقٍ واسع.

ثانياً: النتائج المتعلّقة بدراسة الحالة (المقابلة الفرديّة)

أسلفنا أنّه من أجل الوصول إلى فهم أفضل لتداعيات النزاع المسلّح على المراهقات في ليبيا، تمّ الاعتماد على تطبيق منهج دراسة الحالة عن طريق إجراء مقابلة واحدة مع فتاة تدرس في المرحلة ما قبل الجامعيّة تبلغ من العمر 14 سنة. وقد تمّ توضيح تفاصيل المقابلة للفتاة وأخذ الإذن من والدتها للموافقة على إجراء هذه المقابلة، مع التأكيد بأنّ ما يرد في هذه المقابلة من تفاصيل قد تُبيّن هويّتها الحقيقيّة (مثل اسمها أو اسم مدرستها أو أماكن الإقامة) لن يتمّ أظهارها في هذه الدراسة.

وأهمّ النتائج التي يُمكن استخلاصها من هذه المقابلة أو دراسة الحالة، أنّه فضلاً عن التأثيرات النفسيّة العميقة للحرب، فإنّ الفتيات كنّ الفئة الأكثر هشاشةً وتعرّضاً للمخاطر كالاعتصاب والقتل، كما برزت بعض أشكال المعاملة التمييزيّة بين الجنسين داخل العائلة الواحدة، ولدت ضغوطاً اجتماعيّة على الفتيات. كما نتج عن عمليّة النزوح تفاوت ثقافيّ وأنماط عيش كان لها تأثيرها على الفتيات الصغيرات. كما برزَ وبشكل واضح الدور الاجتماعيّ المهمّ للأسرة الممتدّة (الأهل والأقارب) كمصدرٍ أساسيٍّ للدعم في ليبيا.

نصّ المقابلة (بتصرّف فقد تحدّث سماح باللهجة الليبيّة)

إسمي سماح وعمر 14 سنة، طالبة في الصفّ الأوّل الثانويّ، طموحة وأعتمد على نفسي في كلّ شيء، أقرأ وأدرس وأتعلّم وأحبّ الحياة. أعيش في أسرة تتكوّن من أبي وأمي وثلاثة إخوة وثلاث بنات. ترتبي الثالث بعد اثنين من الأخوة الذكور في الأسرة. قبل الحرب كنّا نعيش في بيتنا لا ينقصنا شيء. وكنتُ أدرس مع أخي وأختي في مدرسة خاصّة وكنا متفوّقين في الدراسة وكان اهتمام والدتي بتعليمنا متساوٍ ومن دون تمييز مع أخواني.

في بداية الحرب كنتُ أصارع الإحباط والحزن والخوف. أصابني الصدمة والرعب عندما شاهدتُ الدماء تنزف في وطني. أصبت بالخيبة والقهر وفقدت الرغبة في التحدث مع الآخرين وليس لديّ الرغبة في المخالطة. كان بيتنا في منطقة قريبة من الاشتباكات وكنا نسمع أصوات القذائف وأصوات الرصاص بشكل مخيف. ولم نكن نرغب في مغادرة بيتنا ورَفَضْنَا الخروج من البيت خلال الشهور الأولى للحرب. فلم نكن نرغب أن نتشتت العائلة. ولكن بعد أربعة أشهر كاملة أصرت والدتي على الخروج من البيت والانتقال إلى منطقة آمنة لنا. هل تدري لماذا؟ لأن النساء من الأقارب والمعارف لنا، عندما يتواصلن مع أمي كنّ يستغربين استمرارنا في البقاء في بيتنا وعدم الانتقال إلى منطقة أكثر أمناً. كانت تعليقاتهنّ لأمي حريفاً: هل تنتظرين اقتحام الكتائب المسلّحة والمرترقة في المنطقة لبيتكم واغتصاب بناتك؟

وعند سؤالها هل تعرف أحداً تعرّض للاغتصاب، أجابت بالنفي وبأنّها لم تسمع بذلك أبداً. ولكنها أشارت إلى أنّ ثلاثاً من صديقاتها وكنّ يسكنّ في مناطق قريبة من النزاع المسلّح تعرّضن لسقوط القذائف بينما كنّ مُجتمعات في حديقة المنزل الأمر الذي أدّى إلى وفاتهنّ مباشرة، وهذه من الذكريات السيئة التي تشعر بها، بحزن عميق، عن فترة الحرب.

هذا جعل أمي تلجّ على خروجنا ومغادرتنا. والخوف علينا نحن البنات جعل والدتي وبعد أربعة أشهر يصّر أيضاً على انتقالنا للبقاء والسكن في بيت جدّي. وكان رأي أخواني وأبي ينبثق من كوننا ضعيفات ولا نستطيع حماية أنفسنا وقالوا لنا إذا ازدادت حدّة الاشتباكات فهُم يستطيعون الهرب والجري لمناطق آمنة ولكن البنات وأمّي سنكون حملاً ثقيلًا ويخشون أن نتعرّض للاغتصاب. كان بيت جدّي خارج ضواحي مدينة طرابلس وكانت منطقة آمنة وبعيدة عن الاشتباكات. إنتقلت أنا وأخواتي البنات ووالدتي وأخي الأصغر الذي كان عمره خمس سنوات. لأنّ الخوف كان علينا باعتبارنا ضعيفات وظلّ والدي مع اثنين من إخواني في بيتنا. وخوف أمّي علينا كان بشكل متزايد. كانت ترفض خروجنا من البيت بشكل قاطع. فُرض علينا الحجاب ولبس الملابس الواسعة. كان الخوف علينا بشكل أوضح من الذكور. كان إخواني مستمرّين في مدرّسهم وجامعتهم ولم يتمّ منعهم من الخروج عكسنا تماماً.

كنتُ أدرس بالشهادة الإعدادية وقام والدي بنقلي إلى مدرسة عامة قريبة من بيت جدِّي أنا وأختي. أختي لم تستطع الاندماج مع بيئة المدرسة العامة الجديدة عليها، والمختلفة تماماً مع مدرستنا الخاصّة. الفصول مزدحمة والمستوى يختلف عمّا تعودنا عليه. انتهى الأمر بأن التحقّت أنا فقط بالامتحانات النهائية فمُتُ بمراجعة دروسي بنفسي والاستعانة بالأسئلة الاسترشادية ونجحت.

وتؤكّد سماح خلال المقابلة أنّها وجدت السلام في بيت الجدّ وما كان منغصاً عليهم إلا انقسام العائلة. تقول:

علّمتنا الحرب كيف كانت قلوب الناس مترابطة وعرفتُ محاسن العائلة وأهميّة وجودها. لقد تعلّمتُ الطبخ خلال هذه الفترة حيث كنتُ أشارك العائلة في ذلك وتعلّمت تحديدًا صناعة الحلويات، حيث كنّا نمضي معظم الوقت في الطبخ والاجتماع مع العائلة الممتدة.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة موضوع تداعيات الحروب والنزاعات المسلّحة في ليبيا على الفتيات، وهدفت لمعرفة أثرها القريب والبعيد المدى في المنظومة التعليميّة وعلاقة ذلك بأبعادٍ مهمّة كالتهجير والنزوح وتراكم العوامل النفسيّة والاجتماعيّة المؤثّرة في هذا الجانب. وبعد تجميع البيانات الخاصّة بهذه الدراسة الوصفية الكيفيّة عن طريق المقابلات الجماعيّة ودراسة الحالة، خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمّها: أنّه وعلى الرّغم من المكاسب التي نالتها الفتيات في ليبيا وتطوّر مستويات تعليمهنّ خلال العقود الأخيرة، إلّا أنّ النظام التعليمي شهد العديد من العوائق التي حالت دون الوصول به إلى مستوياتٍ عالية من الجودة. كما أنّ هشاشة الأوضاع الأمنيّة والنزاع المسلّح، كانت له تداعيات خطيرة على أوضاع الفتيات التعليميّة. ولذلك كان للفتيات نصيبٌ كبير في المُعاناة نتيجة النزاع المسلّح والحروب.

إنّ الأزمات والحروب وتداعي المنظومة التعليميّة قد تؤدّي إلى تخلف الكثيرين عن الركب، وبخاصّة الفتيات المُراهقات، حيث إنّ عدداً كبيراً منهنّ قد لا يجلسن على المقاعد الدراسيّة مرّة أخرى، وهذا من شأنه أن يُسهم في الرفع من نسب الزواج المبكر

في المجتمع ومعدلاته، ولاسيما في ظل البطالة غير المُبرّرة التي لا تُحقّق أهداف التنمية المُستدامة والتغيير المنشود للنهوض بمكانة الفتيات والنساء في المجتمع الليبي، وتمكينهنّ معرفياً واقتصادياً وسياسياً. كما أنّه ونتيجة للنزاع وحالة عدم الاستقرار، فإنّ كابوس إدامة النزاع والصراع من شأنه أن يقود إلى خطر فقدان المكاسب غير المسبوقة التي نالتها الفتيات الليبيّات خلال مسيرتهنّ التعليميّة. لذا لا بدّ من العمل على إصلاح تعليم الفتيات وإحكام توافقه مع احتياجات أسواق العمل في ليبيا، وتوفير الفرص التدريبيّة والتأهيليّة لخلق فرص الحصول على عمل مطابق للتخصّصات. إنّ مسألة توفير العمل مهمّة جدّاً للحدّ من البطالة العالية وبالأخصّ البطالة بين المتخرّجات الجدد.

وبالنظر إلى حاجة المجتمع الليبيّ إلى دراسات وبحوث علميّة لفهم الواقع التربويّ والتعليميّ المتردّي، ونظراً لشحّ الدراسات وندرتها في هذا الجانب المتعلّق بالفتيات والمُراهقات، فإنّه من الضرورة إجراء المزيد من البحوث العلميّة والدراسات المتخصّصة عن دور الأزمات وتأثيرها على هذه الشريحة، ولاسيما مع تزامن هذه الأزمة مع وباء كورونا، الذي ترك بصمته المرعبة على المنظومة التعليميّة. لذا ينبغي إخضاع واقع النظام التعليميّ في المجتمع العربيّ بشكل عامّ وليبيا بشكل خاصّ، نتيجة تداعيات الأزمات المُعاصرة، للبحث والتقصّي والدراسة، وتحديد تأثير ذلك على أوضاع الفتيات والمُراهقات في هذه البلاد.

الطفلات والفتيات اللاجئات الأفريقيات في المغرب: واقع النزوح وتحديات الاندماج

«في الهجرة لا تستطيع أن تدّعي امتلاكك لشيء
ما، في الهجرة أنت لا تملكين سوى حلمك»
إبراهيم نصر الله⁽¹⁾ - زيتون الشوارع

توطئة

لعلّ ما يحدث الآن بين المغرب وإسبانيا ومن
ورائها الاتحاد الأوروبي من مناوشاتٍ وحربٍ
دبلوماسية وإعلامية يُبرز مرةً أخرى ما تطرحه
قضية الهجرة واللجوء من تحديات؛ ما يعني أنّ
ملفّ الهجرة واللجوء سيظلّ ملفاً شائكاً وقابلاً
لكلّ المستجدات والمراجعات سلباً وإيجاباً،
وأنّه على الأغلب الأعمّ تتحكّم فيه المصالح
المُتناقضة بين الدول، وبخاصّة الدول المُجاورة
أو التي تتقاسم الحدود التي تُعتبر الأكثر إثارةً بين
جانبيها. إذ تُبرز مدى تناقض العالمين الشمالي
والجنوبي: عالم متقدّم يُشكّل الحلم والملاذ،
وعالم متخلف لا يُشكّل سوى نقطة العبور للعالم
الأول. إنّه تجسيد لعلاقات يحكمها اللاتكافؤ
بين أوروبا وأفريقيا وبين الشمال والجنوب. وهو

(1) روايتي أردني من أصل فلسطيني حائز على جائزة البوكر للرواية
العربية سنة 2018.

معطى يجب أن يكون بمنزلة تحذير لأنّ المغرب ما هو إلا بوابة لعالم أفريقيا الفقير، الجائع، المسلّح والمُتَحارب، في غيابٍ كُلِّيٍّ لأيّ استراتيجيّات مستقبلية في أغلب دول الفارة السمراء. ولعلّ كثيرين تابعوا صُورَ الأطفال - أغلبهم مغاربة - العابرين للحدود المغربية الإسبانية عبر شاطئ تاراخا الواقع في مدينة سبتة⁽²⁾ الواقعة على حدود مدينة الفينديك المغربية في أكبر نزوح تشهده هذه الحدود وذلك يوم 18 أيار/مايو 2021. كانت هناك مشاهد لقاصرات مغربيّات وهنّ يعبرن السّياج. هذه الصور الأخيرة، وبعيداً عن كلّ الخلفيّات السياسيّة والدبلوماسية، تدلّ دلالة واضحة على أنّ المغرب يستحيل أن يلعب دوره كاملاً كبلد استقبال وهجرة طالما لم تُغيّر أوروبّا من سياستها القائمة على الهاجس الأمنيّ، وما لم يكفل المغرب لأبنائه عيشاً كريماً يقيهم من هذه الصور المشينة التي تناقلتها مواقع التواصل الاجتماعيّ والوكالات الإعلامية العالميّة.

تقديم

في شهر أيلول/سبتمبر من العام 2013، شرعت الحكومة المغربية في تنفيذ مخطّطٍ استراتيجيّ لسنّ سياسة الهجرة واللّجوء الجديدة المعروفة بـ «الاستراتيجية الوطنية للهجرة واللّجوء»⁽³⁾، والتي ستعرّف مرحلتين من التسوية لوضعيّة المهاجرين واللّاجئين، الأولى سنة 2014 والثانية سنة 2016. وترتكز هذه السياسة على مقتضيات مهمّة تكمن في احترام الحقوق الإنسانيّة للمهاجرين وتعزيز مكافحة الهجرة السريّة وتشجيع الهجرة القانونيّة وضمان حقوق اللّاجئين وطالبي اللّجوء، وأيضاً تسوية وضعيّة المهاجرين غير الشرعيّين. تجدر الإشارة إلى أنّ استصدار منظومة من القوانين الرامية إلى تنظيم الهجرة واللّجوء في المغرب جاء بعد إصدار المجلس الوطني لحقوق الإنسان⁽⁴⁾ تقريره عن وضعيّة المهاجرين واللّاجئين العابرين للتراب المغربيّ والمقيمين بشكل غير قانونيّ أيضاً. تمّ

(2) مدينة إسبانية تقع في شمال إفريقيا متاخمة لمدينة الفينديك المغربية ولها معها حدود برية وبحرية.

(3) الوزارة المكلفة بالمغاربة المقيمين في الخارج وشؤون الهجرة يُمكن الإطلاع على نصّ الاستراتيجية على موقع

الوزارة <https://marocainsdumonde.gov.ma>

(4) المجلس الوطني لحقوق الإنسان مؤسسة وطنية تعددية ومستقلة. أحدث في آذار/مارس 2011 (ليحلّ محلّ

المجلس الاستشاريّ لحقوق الإنسان الذي أنشئ سنة 1990). المزيد من التفاصيل على موقع المجلس:

<https://www.cndh.ma>

ذلك بعد تعقيد مسطرة عبورهم إلى الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، بفعل السياسات الجديدة للاتحاد الأوروبي. فكان لزاماً على المغرب إذاً، وبعد مشاورات مع الاتحاد الأوروبي المعني الأول بهذه الأزمة، البحث عن حلول والعمل أيضاً على مُلاءمة التشريعات الوطنية مع الاتفاقات الدولية الخاصة بالهجرة والعبور، وأيضاً باللجوء.

هكذا بات المغرب يُشكّل نقطة عبورٍ أو إقامة ليس للقادمين من أفريقيا جنوب الصحراء فحسب، ولكن أيضاً للقادين من الشرق الأوسط وآسيا، ليتحوّل إلى نقطة استقبال لهجراتٍ عالمية وليس قارّية أو إقليمية فقط. ذلك أنّ المغرب أصبح ينتمي إلى خانة الدول التي تعرف عوّلمة التنقّلات، حيث أبانت التقارير، المُستخلصة من جنسيّات الموقوفين من المهاجرين غير الشرعيّين أو غير النظاميّين في المغرب، أنّ هؤلاء النازحين لم يكونوا فقط قادمين من أفريقيا جنوب الصحراء أو من الشرق الأوسط (سوريا - اليمن)، بل إنّ هناك من أتى من أدنى الشرق كالنيبال وغيرها. غير أنّ هذا المعطى لا يعني أنّ اللّجوء إلى المغرب أو الهجرة منه وإليه حديث العهد. فالباحث في تاريخ المغرب سيقف عند حقيقة مهمّة وهي أنّ المغرب كغيره من عديد من بلدان شمال أفريقيا كان وجهة الهجرة والنزوح، ولعلّ التاريخ يحتفظ بصور المورسكيّين⁽⁵⁾ الفارين من الاضطهاد والحرب في إسبانيا للبحث عن الأمان والسلام والحياة في مُدن شمال المغرب. ويشهد التاريخ الإنسانيّ، ولا يزال، الهجرة والنزوح في كلّ الاتجاهات والاتجاهات المُعاكسة: شمالاً جنوباً وجنوباً شمالاً، شرقاً غرباً وغرباً شرقاً، غير أنّنا في الألفيّة الثالثة يمكن القول إنّنا نعيش عوّلمة الهجرة والنزوح لأسباب أكثر مأساوية، وذلك من خلال الاضطهاد والحروب الأهلية والتصفيات العرقية والقمع، وأيضاً لأسباب اقتصادية ومناخية بيئية، حيث يصبح النازح هارباً من الجوع أو من زحف الصحاري بفعل الجفاف ونُدرة المياه أو ناجياً من فيضانات وزلازل.

كما أنّ النزوح لم يُعد ذكورياً فقط إنّ صحّ التعبير، بل صار أنثوياً وطفولياً أيضاً وبشكل لافت. فقد أصبح تنقّل الأطفال والطفلات مُصاحبين لعائلاتهم (هنّ) أو وحيدين (ات)

(5) هم المسلمون من بلاد الأندلس الذين تحوّلوا قهراً إلى المسيحية والذين هُجّروا في بداية القرن السابع عشر إلى عددٍ من مناطق البحر الأبيض المتوسط بعد سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس، حيث سيستقرّ أغلبهم في مُدن شمال المغرب وكذا الرباط في قصبة الأوداية.

لافتاً، بل أصبح ظاهرة تفرض نفسها على طول خيوط سلسلة الهجرة والنزوح المُتشابكة. فتتقلّ الطفلات ونزوحهنّ من بلدان أفريقيا جنوب الصحراء يُشكّل ظاهرة تتخذ بُعديّين مُتناقضين: فإذا كان هذا النزوح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمخاطر التي قد تتعرّض لها الفتيات والطفلات، كالاغتلال والاعتداءات الجنسيّة والتهديد بالاتّجار بالبشر، فإنّه وفي الآن نفسه يُشكّل ملاذاً وفرصة من أجل الحصول على وضع أفضل أوّله التمدّرس، والأمان والرعاية في بلد اللّجوء، فضلاً عن البُعد الجندريّ المتمثّل في التفلّت من ثقل النظام والتقاليد الأبويّة. وهو وضع فرض أيضاً مشكلات جديدة وذات طبيعة خاصّة، أهمّها صعوبة إيجاد مؤسّسات رعائيّة مناسبة، فضلاً عن العراقيل القائمة أمام الاندماج الكامل والصحيح لهنّ في المنظومة التعليميّة في بلد الاستقبال. وهو الإشكال الذي سنفصل فيه لاحقاً تحت بند إدماج اللاجئات الأفريقيّات الصغيرات في المسار التعليميّ في المغرب. ونظراً لكون موضوع اللّجوء والهجرة موضوعاً شاملاً ومتعدّد المقاربات، فإنّ دراستنا هنا ستُركّز بالأساس على وضعيّة الطفلات والفتيات اللاجئات في المغرب وعلى وجه الخصوص القادّات من أفريقيا جنوب الصحراء⁽⁶⁾: أسباب النزوح من بلد المنشأ وظروفه، الواقع المُعاش في المغرب كبلد عبور، ثمّ، وبشكل اضطراريّ في أغلب الأحيان، اتّخاذ المغرب كوجهة للاستقرار وكآخر محطة في رحلة اللّجوء القسريّ، مع ما يترتّب عن ذلك من رغبة في الاندماج والمعوّقات المُحيطة به.

هكذا وحين يتمّ اختيار الحديث عن المغرب كأرض العبور بدايةً وبلد الهجرة والاستقبال في ما بعد، وقبل هذا وذاك كموطن القمع الشرّس الذي تمثّل في أبشع صوره خلال سنوات الرّصاص⁽⁷⁾، حيث دفعت النساء والفتيات ثمناً باهظاً لأنهنّ كنّ إمّا زوجات مُعارضين أو أمّهاتهنّ أو بناتهنّ أو أخواتهنّ، تمّ ذلك لأنّ الصورة لم تتغيّر كثيراً. وهي صورة استعمال سلاح الاغتصاب والعنف القائم على الجندر ضدّ النساء والفتيات في زمننا هذا في مغرب اليوم، مغرب ما بعد سنوات الرصاص، مغرب الإنصاف والمصالحة

(6) هذه التسمية هي الترجمة الحرفيّة من الفرنسيّة: Subsahariens، تُطلَق على اللاجئيين والمُهاجرين القادمين من الدول الأفريقيّة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

(7) أو ما يعرف كذلك بسنوات الجمر وهي الفترة الممتدّة من بداية سبّتيّات إلى نهاية تسعينيّات القرن العشرين، والتي تميّزت بالقمع والاعتقالات السياسيّة والتعذيب والإخفاء القسريّ، أي إبان فترة حُكم الملك الحسن الثاني في المغرب.

والعدالة الانتقالية، حيث لم تُعد فقط النساء المغربيات والفتيات ضحيّات العنف بل الهاربات من جحيم الحروب والنازحات من نار الفقر والجوع أيضاً؛ إذ إنهنّ لم يسلمنّ بدورهنّ من لهيب التمييز والعنف بكلّ أنواعه. فالأفريقيّات نلنّ عنفاً مزدوجاً قائماً ليس على النوع الاجتماعيّ فحسب، بل أيضاً على عنصريّة اللون والعرق، وفي أحيان كثيرة كان تمييزاً قائماً على الدين أو اللّغة. من هنا ارتأيتُ أن أقارب موضوع النازحات واللّاجئات في المغرب مع تركيز شديدٍ على الطّفلات اللّاجئات الأفريقيّات. وعلى الرّغم من أنّ اللّاجئات السوريات يُمثّلنّ رقماً مهماً إلّا أنّهنّ يُعتبرنّ أوفر حظاً نسبياً من حيث الاندماج بعكس الأفريقيّات، وهي حقيقة ستمنحنا بعضاً من نقاط المُقارنة بينهنّ بهدف فهم واضح لمعوّقات اندماج اللّاجئات الأفريقيّات. المقاربة التالية ستلامس إذاً الواقع اليوميّ للطّفلات اللّاجئات الأفريقيّات، بعد أن أصبحنّ عالقاتٍ في بلدٍ اعتبرنّه بدايةً نقطة عبور أولى. كما سنرصد أنواع العنف الذي يخضعنّ له، وكيف يتغلّثنّ منه؟ وما هي الحماية التي تُقدّمها المنظّمات المحليّة والدوليّة لهنّ؟ وما هي الحماية القانونيّة من طرف الحكومة المغربيّة؟ وما هي معوّقات اندماجهنّ والآفاق المستقبلية لهنّ؟

تكتسي هذه الدراسة إذاً أهميتها من تركيزها على مقاربة وضعيّة الفتيات اللّاجئات سواء كنّ مصحوبات أم غير مصحوبات بعائلاتهم، وسعيهنّ للاندماج. ذلك أنّ نظريّة «الاندماج المُجمعي» أو ما يُمكن ترجمته بإرادة العيش المُشترك لإيميل دوركايم Emile Durkheim (1858 - 1917)، التي ناقشها في كتابه «تقسيم العمل الاجتماعيّ»⁽⁸⁾، ترتبط كذلك وبشكل وثيقٍ بقضيّة النزوح واللّجوء في أفق تحقيق الاندماج في مُجتمعات الاستقبال. ونظريّة دوركايم على الرّغم من قديمها، إلّا أنّه تمّ تحيينها مع موجات الهجرات واللّجوء، من خلال أعمال عُلماء السوسيولوجيا المُهتمين بسوسيولوجيا السياسة أمثال عالمة الاجتماع والسياسة الفرنسيّة دومينيك شنابر Dominique Schnapper⁽⁹⁾. فالاندماج يعتبر أهمّ مدخل لدراسة وضعيّة اللّاجئات، لأنّ اندماجهنّ في بلد الاستقبال، والمقصود به هنا المغرب، سيُمكنهنّ من النجاة من الكوايس والآثار السلبية لمعانتهنّ في بلدنّ وأيضاً خلال رحلة النزوح. غير أنّ مقاربتنا هنا لن تغفل معوّقات اندماجهنّ الذاتيّة

(8) Emile Durkheim, *De la division du travail social* 1892 (Paris: Presses Universitaires de France, 1973).

(9) Dominique Schnapper et Christian Bachelier, *Qu'est-ce que la citoyenneté*, (Paris: Gallimard/Folio, 2000).

والموضوعية، لكن من دون أن نتغاضى عن مُقارَبة ما يُمكن تسميته بالأوهام، ولاسيما إذا ما نظرنا في الخطاب الرسمي في هذا الإطار، وما يعتريه من تناقض بين القوانين والواقع المعاش.

وعلى الرغم من أن موضوع لجوء الأطفال وهجرتهم بشكل عام يكتسي أهمية بالغة باعتبارهم جميعاً غير مسؤولين عن أوضاعهم التي زُجوا فيها غالباً بذنب اقترفه الكبار أو لظروف طبيعية وجغرافية لا يد لهم فيها، إلا أن وضعية الإناث منهن هي التي تُشكّل محور هذا البحث باعتبارهنّ الحلقة الأضعف في سلسلة النزوح القسري، والتهجير، واللجوء، وفي الآن نفسه القوة الخفية التي تُبعث من بين أنقاض الإخفاقات لتُسجّل أولى الانتصارات ضدّ الظلم في الفضاء الخاصّ المسكوت عنه في مقارنة وضعيات التهجير واللجوء. وهي فرضية تُحيلنا كذلك على اختلاف الأدوار الجندرية في قضايا اللجوء والاندماج.

من هنا سأحاول في مقاربتني هذه الإجابة عن الأسئلة والإشكاليات التالية:

- 1 - ظروف تحوّل المغرب من بلد العبور إلى بلد الهجرة.
 - 2 - الطفلات والفتيات اللاجئات الأفريقيّات: أسباب النزوح وواقع اللجوء في المغرب.
 - 3 - اختلاف الأدوار الجندرية في مسارات النزوح، اللجوء والاندماج.
 - 4 - معوّقات وتحديات إدماج الطفلات والفتيات اللاجئات الأفريقيّات في المجتمع المحلي.
 - 5 - تأثير جائحة كوفيد 19 على ظروف الفتيات والطفلات اللاجئات في المغرب.
- على أن نختم دراستنا هذه باستنتاجاتٍ ربّما لن تكون نهائية بل مقدّمة لبحوثٍ حول ظاهرة النزوح الأثيوبي في ظلّ الدينامية التي تعرفها قضية اللاجئين وفي ظلّ مستجدات الجائحة أيضاً.

1 - المغرب من بلد العبور إلى بلد الهجرة واللجوء

شكّل المغرب نظراً لموقعه كنقطة التقاء بين قارتي أوروبا وأفريقيا ومنذ العهد القديم مركزاً للهجرة والعبور، وإذا كان المغرب تاريخياً يُعتبر بلداً العبور إلى الضفة الشمالية

للمتوسط (أوروبا) وأرضاً لتصدير الهجرة منذ ستينيات القرن العشرين، فإنه أضحى بعد الاتفاقية⁽¹⁰⁾ التي أبرمتها الحكومة المغربية مع الاتحاد الأوروبي، المتعلقة بالحد من توافد المهاجرين واللاجئين إلى القارة العجوز، بلداً للجوء العديد من الفارين من الحروب أو من الأزمات الاقتصادية في القارة الأفريقية. وتعتبر النساء والطفلات الحلقة الأضعف في سلسلة اللجوء هذه، مع أننا لا يمكن أن نغفل أنه بعد الأزمة السورية واليمنية أضحت السوريات واليمنيات أيضاً رقماً مهماً في عدد هذه الفتيات والنساء. فالأرقام تشير إلى أن عدد اللاجئين والنازحين وطالبي اللجوء المتواجدين في المغرب بشكل عام، نساءً ورجالاً وأطفالاً، بلغ بحسب الإحصاءات الرسمية للمفوضية الأممية للاجئين من خلال فرعها في المغرب أكثر من 11960 لاجئاً وطالب لجوء، ينحدرون من أربعين بلداً عبر العالم. وذكرت المفوضية في تحديث لمعطياتها في شهر أيلول/سبتمبر 2020⁽¹¹⁾ أن عدد اللاجئين المتواجدين في المغرب بلغ ما يقرب من 7561 لاجئاً، فيما يصل عدد طالبي اللجوء إلى 4399 طالب لجوء. ومعلوم أن نصف عدد هؤلاء اللاجئين هم سوريون، بينما تقتسم دول أفريقيا جنوب الصحراء واليمن وبعض دول آسيا النصف الآخر. ويُسْتَشَف من الحملة الأولى للتسوية، التي انطلقت في كانون الثاني/يناير 2014 وانتهت في كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها، أنها مكنت من تسوية وضعية 23,096 شخصاً من أصل 64,927 طلباً. أما الثانية التي انطلقت في 15 كانون الأول/ديسمبر 2016 إلى غاية 31 كانون الأول/ديسمبر 2017، فقد مكنت من تسوية وضعية 25,000 شخص، حيث وصل المجموع إلى حوالي 50,000 مهاجر استفادوا من التسوية على مرحلتين⁽¹²⁾. هكذا ناهز عدد المهاجرين الأفارقة المقيمين في المغرب ما يقرب من 80,000 مهاجراً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نسبة الفتيات والنساء من هذه الأرقام بلغت ما يقرب من 40% حيث

(10) وهو الإعلان السياسي المشترك الذي وقَّعه المغرب مع الاتحاد الأوروبي في 7 حزيران/يونيو 2013، والمتعلق بالتعاون في مجال الهجرة وتدبير تنقل الأشخاص.

(11) المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، تقرير سنة 2020، UNHCR، متاح على الرابط:

<https://www.unhcr.org/ar/>

(12) RBOUB Amin, «Enquête L'Economiste-Sunergia/Migrants subsahariens: Des résultats surprenants», *Journal l'Economiste*, Edition N 5234 (Casablanca: Eco-Media, 2018): 10-11.

أصبح واقع تأنيث الهجرة فعلياً وفارصاً نفسه. كما أنّ نسبة الأطفال صارت تُمثّل أكثر من 29%⁽¹³⁾.

من هنا نستشفّ التغيّر الجذريّ في موقع المغرب الذي كان بلدَ تصدير للهجرة ونقطة عبور للهجرات صوب أوروبا، ليتحوّل إلى بلد استقبال ولجوء ويصبح سداً منيعاً للحؤول دون تدفق المهاجرين واللّاجئين إلى دول الاتحاد الأوروبي، وهو موقع جاء تنفيذاً لتطبيق اتفاقية 2013 الخاصة بتدبير الهجرة غير النظاميّة وتنقل الأشخاص بين المغرب ودول الاتحاد الأوروبي.

2 - الطفلات اللّاجئات الأفريقيّات: أسباب النزوح وواقع اللّجوء في المغرب

تهدف العلوم الاجتماعيّة إلى تحقيق هدفين مهمّين بشكل متوازٍ ومتساوٍ في ارتباط أحدهما بالآخر. يتعلّق الأمر بوصف العالم أو المحيط أولاً وبالعمل على تغييره ثانياً. وحين يتمّ الحديث عن الوصف من خلال النظريّات السوسيولوجيّة فإنّ الأمر طبعاً يتعلّق ليس بالتأمّل من خلال هذا الوصف فقط، ولكن بالتدخّل في المحيط الاجتماعيّ من خلال هذا الوصف.

من هذا المنطلق، جاءت مُقاربتنا لمسار الفتيات والطفلات اللّاجئات الأفريقيّات في المغرب، واللّواتي وجدنّ أنفسهنّ في نزوح قسريّ. فإذا كان الربيع العربي وما تلاه من الحروب ومن أعمال العنف قد أفرز لنا واقعاً مؤلماً تبيّنه الأعداد المتزايدة من اللّاجئين والنازحين قسراً ومن طالبي اللّجوء المُنتظرين في طوابير لا نهاية لها، وهو واقع تصدّر المشهد الإنسانيّ منذ سنة 2011، فإنّ واقع الحروب الأهليّة وأعمال العنف في القارة السمراء جنوب الصحراء، يضرب بعيداً في تاريخ القارة الحديث منذ عهد الحرب الباردة وما تلاه من انهيار الأنظمة الشيوعيّة إلى يومنا هذا مع انتشار مجازر التصفية العرقيّة وأخيراً إرهاب فلول الدولة الإسلاميّة داعش، إضافة للمجاعات والكوارث الطبيعيّة التي جعلت من الأفارقة أجيالاً من الرُّحّل أو المرّحّلين عنوة عن أراضيهم التي لا تحبل في جوفها سوى بخيرات من معادن نفيسة لو كانت من نصيبهم لكانوا أسياد الأرض

(13) المرجع نفسه.

واستمتعوا بقارّتهم غنيّة وآمنة. تفرض إذاً هذه الدراسة مقارنة بعض المفاهيم المرتبطة بقضيّة النزوح واللّجوء:

- الاندماج: وهو ما عبّرت عنه اتّفاقية 1951 الخاصّة باللّجوء حيث نجد مصطلح الدمج المحليّ كترجمة له من الإنكليزيّة Local integration⁽¹⁴⁾. وفي مقاربتنا هذه تستند عمليّة الاندماج في المُجتمع المغربيّ إلى أبعادٍ مترابطة وهي البُعد السياسيّ، البُعد الاجتماعيّ، البُعد الاقتصاديّ، وأيضاً البُعد الجنديّ على اعتبار أنّنا نقارب موضوع اللاّجئين حصراً في مُجتمع أبويّ بامتياز.

- اللاّجئة/طالبة اللّجوء: بحسب اتّفاقية 1951 الصادرة عن المفوضيّة السامية لشؤون اللاّجئين التي تُعرف اختصاراً بـ UNHCR، فإنّ اللاّجئ هو شخص (سواء كان امرأة أم رجلاً أم طفلاً أم طفلة) مهّدّد في حياته وأمنه، حيث تُعرّف المادّة الأولى من الاتّفاقية بوضوح مَنْ هو اللاّجئ. «إنّه شخص يوجد خارج بلد جنسيّته أو بلد إقامته المُعتادة، بسبب خوف له ما يُبرّره من التعرّض للاضطهاد بسبب العنصر، أو الدّين، أو القوميّة، أو الانتماء إلى طائفة اجتماعيّة معيّنة، أو إلى رأيٍ سياسيّ، ولا يستطيع بسبب ذلك الخوف أو لا يريد أن يستظلّ/تستظلّ بحماية ذلك البلد أو العودة إليه خشية التعرّض للاضطهاد»⁽¹⁵⁾.

- بلد المنشأ/بلد العبور/بلد المقصد: هو البلد الذي يأتي منه طالب اللّجوء أو اللاّجئ أو المُهاجر ويحمل جنسيّته. في حالة الأشخاص العديمي الجنسيّة، فهم يحملون هويّة بلد إقامتهم الاعتياديّة. أمّا بلد المقصد فهو البلد الذي هو جهة الوصول النهائيّة الفعلية أو المرجوة لطالب اللّجوء أو اللاّجئ أو المُهاجر، بينما يقصد ببلد العبور البلد الذي يمرّ به طالبو اللّجوء أو اللاّجئون أو المُهاجرون بطريقة نظاميّة أو غير نظاميّة في أثناء رحلتهم إلى بلد المقصد أو العودة إلى بلدانهم الأصليّة.

- النزوح القسريّ: ونعني به الخروج الاضطراريّ حيث يُصبح اللاّجئ مضطراً للهروب حماية لنفسه وجسده من الأخطار بفعل النزاع المسلّح أو الكوارث الطبيعيّة، ولكن أيضاً

(14) للمزيد من التوسّع الاطلاع على الرابط: <https://www.unhcr.org/local-integration-49c3646c101.html>.

(15) «اتّفاقية الأمم المتّحدة الخاصّة باللاجئين لسنة 1951 والبروتوكول المُلاحق بها لسنة 1967»، المفوضيّة السامية للأمم

المتّحدة لشؤون اللاّجئين، متاح على الرابط <https://www.unhcr.org/>

هروباً من العنف والتمييز في كلٍّ من الفضاء العام والخاص. وهو واقع يتم تجاهله أو التغاضي عنه مرةً أخرى، وهو ما يُعتبر إشكاليةً تؤطر العلاقات الجندرية في المجالين العام والخاص، وتُطاول مفاعيلها الفتيات والنساء بشكلٍ خاص.

- الازدراء وكرهية الأجانب: أي التمييز القائم على اللون والعرق والدين واللغة: لقد حثّ مؤتمر مكافحة العنصرية المُنعقد سنة 2003 على حماية النساء والفتيات اللاجئات من العنف وكلّ أشكال التمييز وهو ما لا تعمل الدول ومن بينها المغرب على تطبيقه من خلال الزجر ومُعاينة الجناة والعمل على التوعية في هذا المجال. فقد جاء في توصيات المؤتمر في ما يتصل بحماية اللاجئات ما يلي: «يحثّ المؤتمر الدول على اتخاذ خطواتٍ فعّالة لحماية النساء والفتيات اللاجئات والمُشرّعات داخلياً من العنف وعلى التحقيق في ما قد يُرتكب من انتهاكات من هذا النوع وإحالة المسؤولين عنها إلى القضاء، وذلك بالتعاون، عند الاقتضاء، مع المنظمات المختصة ذات الصلة»⁽¹⁶⁾.

* اللاجئات الأفريقيات والتمييز العنصري: إنّ مبدأ التقاطعية الذي أبدعته المُناضلة الأميركية والعالمية الرائدة في مجال «نظرية العرق النقدية» كيمبرلي ويليامز كرينشو Kimberle Williams Crenshaw سنة 1989، و«النسوية التقاطعية» كمفهوم يُشير إلى «كيف تُؤثّر نُظم القمع والاضطهاد المنهجية في تجارب النساء المتنوعة وفقاً لتقاطع عوامل مختلفة كالجنس والعرق والطبقة الاجتماعية والدين والأصل الوطني والإعاقة والمستوى التعليمي والتوجه الجنسي»⁽¹⁷⁾، يُمكنهما أن يحيلنا على ما يحدث في واقع الفتيات اللاجئات، وخصوصاً الأفريقيات في المغرب. فحين يتعلّق الأمر باللاجئات أفريقيات قادمات من جنوب الصحراء، تصبح قضية اللون والمعتقد وفي أحيان كثيرة اللغة، كأساس للفرقة والتمييز بينهما وبين لاجئات قادمات من بلدان إسلامية أو عربية مثل سوريا واليمن، حيث تتعرّض الكثيرات من الفتيات الأفريقيات، وخصوصاً المسيحيات، لمُضايقاتٍ وعنفٍ يمكن اعتباره هنا ليس قائماً على النوع الاجتماعي فقط

(16) «البند 36 من توصيات المؤتمر العالمي لمكافحة العنصرية»، نيويورك 2003، الأمم المتحدة مجلس حقوق الإنسان،

متاح على الرابط: https://www.ohchr.org/documents/publications/durban_text_ar.pdf

(17) كاتي الحايك، «النسوية التقاطعية وكيف يُمكن تطبيقها على الوضع السوري»، جدلية، متاح على موقع:

<https://www.jadaliyya.com/>

بل يصبح له أساس في ما أوردناه أعلاه عن النسوية التقاطعية. ذلك أن تجارب اللاجئات السوريات واليمنيات من جهة، والأفريقيات من جهة ثانية، تقاطع حول العرق واللون والدين؛ بحيث يصبح الحديث عن نسوية تقاطعية (Intersectional feminism) أمراً واقعاً ومُلِحاً، لتغدو معاناة الأفريقيات مزدوجة بل متعددة الأبعاد. وإذا كانت التقاطعية تستند إلى العرق في تحديد مُعاناة النساء السود في الولايات المتحدة الأميركية، فإننا هنا، وفي سياق دراستنا هذه المتعلقة بالمُجتمع المغربي، يبدو أن واقع اللاجئات الأفريقيات يتقاطع إلى حد كبير مع تهميش النساء السود. ذلك أن المُجتمع المغربي ما زال يحمل إرهابات العنصرية القائمة على اللون. والعديد من الوقائع تشير إلى استمرار المعاملات القديمة بين البيض والسود، المتجذرة في مُجتمع الرّق القديم. وهو موقف لا يقتصر على السكّان المحليين أي المغاربة، ولكن وللأسف نجد أن حرس الحدود وأيضاً الشرطة لا تتردد في استعمال القوة والعنف بكل أشكاله. نستشف من الشهادات التي أوردتها منظمة (GADEM) في تقريرها عن التدخل العنيف لقوات الأمن في بعض المُدن، ونرى واقع التمييز تجاه المهاجرين واللاجئين في المغرب⁽¹⁸⁾ فنستشف من خلال العديد من الشهادات من ضحايا التمييز، ومن بينهنّ فتيات ونساء، أنّهنّ عومِلنَ معاملة العبيد حين اضطررنَ للاشتغال كخادّات منازل عند بعض العائلات المغربية التي ربّما لا تزال تحمل عقلية عصر الرقيق. هناك أيضاً تقارير ومقالات ولقاءات مع بعض ضحايا الاستغلال في العمل المنزلي يصل إلى حدّ ممارسات الرّق والعبودية. حيث يُستشف أنّهنّ يعانين من الاعتداءات الجسدية والجنسية والحرمان من الأجر والتعذيب أيضاً، بحسب العديد من شهادات لاجئات أفريقيات⁽¹⁹⁾، وهو واقع أصبح فرضاً نفسه على الرّغم من إنكار تجذّر العنصرية في المُجتمع المغربي. فيما التاريخ يحتفظ بشهادات عن الموروث العنصري المغربي تجاه السود، بمن فيهم المغاربة⁽²⁰⁾.

(18) «واقع التمييز بالمغرب، المجلس المدنيّ لمُناهضة كافّة أشكال التمييز»، النسخة الثانية 2019، Gadem، متاح على: <https://bit.ly/3Je6Eg7>

(19) Helena Maleno Garzon, «Le Maroc et les femmes subsahariennes», Alianza por la Soidad, 2018, alianzaporlasolidad.org

(20) شوقي الهامل، المغرب الأسود: تاريخ العبودية والعرق والإسلام (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبردج، 2013).

هكذا وفي كل الصراعات يُمثّل العنف القائم على الجندر أو النوع أبرز أنواع الاعتداءات التي تتعرّض لها اللاجئات (الفتيات، الطفلات والنساء أيضاً) في المغرب، وذلك في مختلف مراحل رحلة نزوحهنّ بل وأيضاً خلال مراحل طلب اللجوء أو الإقامة. وهذه الاعتداءات تحدث في كل الظروف المحيطة بالضحايا، سواء كنّ وحيدات أو مع مُرافق (زوج أو رجل من أفراد العائلة) ضمن العائلة أو معزولات. ما يعني أنّ العنف القائم على النوع وبالتالي الاعتداء عليهنّ يدخل ضمن الاعتداءات التي تحدث فقط لكونهنّ نساء أو إناثاً. أمّا عن أنواع العنف فإنّها عديدة قد يصعب حصرها ولكن أبرزها الإكراه على الزواج المبكر، الاغتصاب، الضرب والعنف بكلّ أنواعه، التهديد بالتّجار بالبشر. وفي أحيان كثيرة يتمّ بيع الفتيات لمافيا الدعارة وإرغامهنّ على سداد دين المساعدة في رحلة النزوح.

ولعلّ من أهمّ أسباب نزوح الفتيات الأفريقيّات القادمات من جنوب الصحراء الكبرى، الصراعات والقتال، فقدّ المُعيل، والبحث عن أفقٍ أرحب لتحقيق الذات ومساعدة العائلة. هكذا نستشفّ من بعض الشهادات العائدة إلى فتيات أفريقيّات من خلال بَوَحِهِنَّ الذي غالباً ما يكون محتشماً ومتردّداً، أنّهنّ لم يسلكن الطريق الصعب للنزوح سوى لأنهنّ وبفعل المعاناة أصبحنّ لا يكثرنّ بما يُمكن أن يعترضهنّ في طريق النزوح من عنفٍ وابتزاز بل وحتّى الاغتصاب. مع أنّه يصعب الوقوف على حالات العنف وعددهنّ في ظلّ غياب إحصاءات رسميّة في هذا الباب. مع ذلك يُمكن القول، ومن خلال تقارير لمنظمة أطباء بلا حدود، إنّ أغلب النساء والفتيات اللواتي حصلنّ على فحصٍ طبيّ كنّ يُعانين من آثار عنفٍ جسديٍّ يتمثّل في الضرب، لكنّه بالأساس عنف جنسيٍّ؛ وهذه التقارير شملت السنوات الممتدّة ما بين العامين 2003 و2012⁽²¹⁾.

(21) «العنف، انعدام الحصانة والهجرة: محاصرون على أبواب أوروبا»، تقرير منظمة أطباء بلا حدود، الأمم المتّحدة مجلس حقوق الإنسان، متاح على الرابط:

https://tbinternet.ohchr.org/Treaties/CMW/Shared%20Documents/MAR/INT_CMW_NGO_MAR_14801_A.pdf

- النزوح واللجوء والعنف الجنسي

بحسب منظمة أطباء بلا حدود، ومن خلال عملها الميداني الذي قامت به في كلٍّ من الرباط والدار البيضاء مثلاً، حيث تمّ التكفّل بطفلات ضحايا العنف الجنسيّ والاعتصاب، فإنّ كلّ طفلة من ثلاث أخريات معنّفات تعرّضن للعنف الجنسيّ والاعتصاب سواء في بلد المنشأ أم خلال رحلة النزوح أم في بلد الوصول واللجوء (المغرب). وبحسب التقرير نفسه فإنّ أكثر من 21.5% من النساء ضحايا الاعتصاب والعنف الجنسيّ هنّ من المهاجرات واللّاجئات الأفريقيّات وقاصرات بسنّ يقلّ عن 16 سنة. ومن بين الشهادات التي يُمكن أن نشير إليها في هذا الصدد، ثمة شهادات بعض القاصرات الأفريقيّات النازحات من أفريقيا جنوب الصحراء، اللّواتي تعرّضن للعنف في طريق النزوح وبعد وصولهنّ إلى المغرب، على الرّغم من أنّهن كنّ في الأصل هاربات من عنفٍ واعتصاباتٍ متتالية في بلدانهنّ. تحكي فتاة أفريقيّة لاجئة مثلاً من جنوب الصحراء، كانت قد استفادت من تكفّل منظمة أطباء بلا حدود بها بعد هروبها من بلادها بسبب النزاع المسلّح، أنّها شاهدت جنوداً يقتلون أباهما وهي في طريق العودة إلى المنزل بعدما أنهت عملها في الحقل. أصيبت الفتاة بالهلع ومن شدّة خوفها هربت ولم تُكمل طريقها إلى المنزل. اتّجهت إلى اللّامكان، وفي الطريق اعترض سبيلها رجلان بلباسٍ عسكريّ، واقترحا أن يُساعداها بنقلها في عربتهما، إلّا أنّهما توقّفا فجأة في الصحراء، واغتنما الفرصة ليغتصباها ويعتديان عليها بالضرب، ولتجدّ نفسها من ثمة وحيدة في اللّامكان، قبل أن تتمكّن من اجتياز الصحراء والوصول إلى المغرب⁽²²⁾.

3 - اختلاف الأدوار الجندريّة في مسار

النزوح، واللجوء، والاندماج

تختلف مُعانة الفتيات خلال رحلة النزوح عن مُعانة الفتيان إلى حدٍّ ما على الرّغم من تعرّض الذكور أيضاً للاعتصاب، والعنف الجنسيّ، والإكراه على مُمارسة الدّعارة. غير أنّ ما يثير الاستهجان هو حينما تستهين برامج المساعدات والدّعم إلى حدٍّ بعيد بالمقاربة الجندريّة، فتغضّ الطرف عن الانتهاكات والعنف ضدّ النازحات واللّاجئات

(22) المرجع السابق.

بدعوى أنَّ الأمر يدخل في نطاق المُقاربات الثقافية المُختلفة والمتعدّدة. وهذا ينطوي على تمييزٍ حقيقيٍّ أيضاً، وعلى ظُلمٍ للفتيات والنساء. وهو ما يعني أننا ربّما أصبحنا بفعل المُقارَبة الجندريّة الواهمة نُسهّم في نتائج عكسيّة بدلاً من ما هو مطلوب. وربّما أنَّ الأمر يتطلّب كذلك النظر بعَيْنٍ حذرة للفرق الدقيق بين ناجية وضحيّة حين نروم التدخل لمُساعدة اللاجئات أو المُرافعة عنهنّ. فالمُقارَبة الجندريّة تتطلّب عدم السقوط في ترسيخ الحَلّ عن غير قصد. فقد أدّى التدخل لمصلحة النساء في بعض الأنشطة المتعلقة بالأُسَر إلى تهميش دور الرجل ما خلق حساسيّاتٍ مبطنّة ومسكوتاً عنها وبخاصّة في تجمّعات اللاجئتين المُختلفتين ثقافياً، ما أدّى إلى إهمال مقارنة النوع والتعامل على أساس مبدأ المساواة والحماية من العنف بعيداً عن التمييز المضادّ والتحيز. وقد لَمَسَ العديد من النشاط والفاعلين الجمعيّين في المُجتمع المدنيّ في المغرب هذه الفرضيّة، وخصوصاً حين يتمّ منْحُ مساعدة للنساء لإنشاء تعاونيات مُدرة للدخل، غير أنّه وفي سياقٍ مضادٍّ يُمكن الإشارة إلى أنَّ الفتيات والنساء في ظروف النزوح واللجوء يُعتبرن أكثر ديناميّة وعزماً على تغيير وضعهنّ ووضع عائلاتهنّ، ما جعلهنّ مؤهلات لأخذ زمام المبادرة. إلّا أنَّ الأمر أدّى في أحيان كثيرة إلى عداءٍ من طرف زملائهنّ الذكور من اللاجئتين أو من محيط عائلاتهنّ. فالفتاة في العائلات الأفريقيّة تُعدّ بمنزلة استثمار عائليّ، لأنّ الفتيات عموماً من الصعب أن يهملنّ أو يتراجعنّ عن إرسال الإعانات إلى عائلتهنّ، كما أنهنّ قادرات على تقديم التضحيات أكثر من الذكور. هكذا تتخذ مسارات الهجرة والنزوح بُعداً أثنوياً بامتياز أو بتعبير دقيق بُعداً نسائياً على اعتبار أنَّ أغلب الفتيات والنساء يتخذنّ من الهجرة والنزوح آخر طريق لهنّ نحو التحرّر من القمع والعنف الذي يتعرّضنّ له في مجتمعاتهنّ وعائلاتهنّ. وبالتالي تشكّل مسارات النزوح هي أيضاً طريقاً للاستقلال الاقتصادي والاجتماعي. وعلى الرّغم من أنّه يصعب الوقوف عند الأرقام الدقيقة للاجئات والمهاجرات، وبخاصّة الفتيات واحتمالات تعرّضهنّ للعنف، وخصوصاً في غياب إحصاءات رسميّة في هذا الباب، يُمكن القول من خلال تقارير منظّمة أطباء بلا حدود (وبخاصّة التقارير التي شملت سنوات ما بين 2003 و2013) إنّ أغلب النساء والفتيات اللواتي حصلنّ على مساعدة طبّيّة كنّ يُعانين من آثارٍ عنفٍ جسديّ مُتمثلاً بالضرب، ويستند في الأساس إلى عنف جنسيّ.

4 - معوّقات وتحدّيات إدماج الفتيات في المُجتمع المحلي

إنَّ أيَّ مُقارَبة لمسألة إدماج الطفلات المُهاجرات واللّاجئات الأفريقيّات في المُجتمع قيد الدراسة، أي المُجتمع المغربيّ، تفرض بدايةً الوقوف عند مقصدنا بالاندماج. فمعلوم أنَّه ومن خلال تتبُّع مسار كلّ الصراعات التي تكون فيها الفتيات والنساء جزءاً منها والحلقة الأضعف فيها، سيّضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ الفتيات غالباً ما يتمكّنن من قلب المُعادلة، وخصوصاً في المُجتمعات ذات البنية الأبويّة القويّة. فمثل هذه الظروف تتيح لهنّ إمكانيّة أخذ المبادرة والعمل على تقوية قدراتهنّ ليس فقط المعرفيّة ولكن أيضاً السلطويّة. وهذا ما يتيح لهنّ قيادة مُجتمعهنّ الصغير إلى برّ الأمان. غير أنّ ما يجعل الأمر أكثر تعقيداً هو أنَّه في أحيان كثيرة تُصاغ الأنشطة وتُدار من أجل إدماج الفتيات اللّاجئات بشكل يُكرّس التمييز والتفرقة، بحيث يجعلهنّ هذا الواقع عرضة لأن يعشنّ ما يُمكن أن نسمّيه غياباً مزدوجاً *la double absence* (صياد 2006)⁽²³⁾، فتصبح اللّاجئات مُغتربات بشكل رسميّ. إنهنّ هنا ولسنّ هنا وهنّ أيضاً هناك ولسنّ هناك. غير أنّ هذا المعطى ليس واقعاً أبديّاً. فإذا كانت اللّاجئات في حاجة إلى مسارٍ طويل حتّى يُحقّقن الاندماج المُتكامل باعتباره صيرورة معقّدة وشائكة، فإنّ نماذج منهنّ استطعن أن يُغيّرن واقع الاغتراب والتمييز والاستقرار إلى عنصر قوّة ما أهلهنّ لأن يُصبحن رائدات أعمال وأن يندمجن في سوق العمل. مع أنّنا هنا علينا أن لا نغفل الإكراهات التي توطّر اللّجوء والهجرة في المغرب، ذلك أنّ أغلب اللّاجئات أو الأفريقيّات أصبحنّ لاجئات في بلد كنّ وربّما ما زال العديد منهنّ يعتبرنه بلد العبور وأنهنّ فقط أصبحنّ عالقات ومضطربات لطلب اللّجوء ومحاولة إيجاد موقع قد يكون لدى بعضهنّ حالة موقّته مهما طالّت إقامتهنّ في المغرب. فالحلم بالعبور إلى الضفّة الأخرى (اللدورادو الأوروبي) ربّما ما زال يساور مخيلتهنّ، إنّه الحلم الدفين الذي فرضت الأوضاع الجديدة، متمثلة في الاتّفاقيّة المُبرمة بين الاتّحاد الأوروبي والمغرب، جعله صعب المنال سواء بتسوية الوضعيّة أو بالترحيل القسريّ من طرف القوّات المغربيّة. وكأنّني بهنّ ما زلنّ يعشنّ مرّة أخرى ليس وهنّ الهجرة واللّجوء

(23) A. Sayad, *L'Immigration ou les paradoxes de l'altérité*, 1 (Paris: L'illusion du provisoire, Raisons d'agir, 2006), 18.

فقط، ولكن أيضاً وَهْم الاندماج أيضاً. غير أنّ هذا الأمر لا يُمكن أن ينسبنا النماذج من الفتيات اللواتي استطعن أن يغيّرن واقع معاناتهنّ. وفي هذا الصدد يفترض تحليل العنف القائم على الجندر التركيز على الناجيات من العنف والتروما بدل الاهتمام بهنّ فقط كضحايا⁽²⁴⁾، لأنّ هذه المقاربة هي الكفيلة بالنأي بهنّ من منطقة الضعف والهوان إلى فضاء رحب من النجاة والاحترام والقوّة التي تمنحهنّ إمكانيّة الانتقال إلى مرحلة بناء الذات. فهناك العديد من الأمثلة لفتيات ونساء لاجئات استطعن تجاوز الصعاب وعراقيل الاندماج لبناء حياة جديدة في المغرب الذي أصبح لهنّ بمنزلة الوطن البديل. وتعتبر غلوريا لاجئة من كوت ديفوار التي استطاعت أن تُنشئ مقالة صغيرة عبارة عن صالون حلاقة بمدينة الفتيطة شمال العاصمة الرباط⁽²⁵⁾، بدعم من المفوضيّة السامية للأمم المتّحدة لشؤون اللاجئين وتمويل من الجمعية المغربية لدعم المقولة الصغرى كشريك للمفوضيّة في التدخّل لمصلحة اللاجئين بالمغرب. وهي تجربة تمنح الأمل والقوة للاجئات كي يتمكن من تغيير واقع الضحيّة والتروما إلى موقع القائدة والناجية من ظروف النزوح واللجوء الصعبة والقاتلة.

الفرصة التي يُمكن أن تتيحها مُعانة الفتيات من العنف، وخصوصاً الأفريقيّات، تتمثّل في قدرتهنّ على تجاوز المحنة. لكنّ الملاحظ أنّه على الرّغم من ذلك لا يُمكن تجاهل طبيعة المُجتمع المغربيّ كمُجتمع عربيّ/أمازيغيّ ولكنه أبوي بامتياز يجعله معوّقاً أمام محاولات تغيير واقع المُهاجرات والنازحات، وهو ما يُمكن أن نلمسه في مُقارنة بسيطة بين النازحات العربيّات، من سوريات ويمنيات، وبين النازحات الأفريقيّات. فعلى الرّغم من كلّ المُضايقات التي يُعانيّن منها إلّا أنّهنّ استطعن تحقيق الاستقلال الاقتصاديّ وقيادة أسرهنّ. أي أنّهن لم يُعَدْنَ مُعتمدات على التسوّل أو على المُعيل فقط. الفتيات الأفريقيّات أيضاً جسّدن معنى أن يتكفّلنّ ببناء مُستقبلهنّ وهي حقيقة تنم عن الاختلافات الجندريّة كما أسلفنا. فقد تمكّنت فتيات لاجئات من تعلّم

(24) «الوقاية من العنف الجنسيّ والعنف الجندريّ والاستجابة لهما في حالات اللاجئين في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا»، المفوضيّة السامية لشؤون اللاجئين، refworld، متاح على <https://www.refworld.org/>

(25) «غلوريا.. لاجئة تتحدّى كلّ الصعوبات وتبني حياة جديدة في المغرب»، UNHCR، متاح على الرابط <https://www.unhcr.org/ar/news/latest/2015/1/54bf9e2b6.html>

المهارات وإنشاء مشروعات صغرى مُدرةً للدخل أو عبر المشاركة في تعاونيات لإعالة أسرهن⁽²⁶⁾.

وفي سياق قضية الاندماج ومحاربة ما تعانيه أغلب الفتيات كغيرهن من لاجئات دول أفريقيا جنوب الصحراء، يتخذ مفهوم الاختلاف بتقاطع مع مسألة الأقلية حمولة دلالية تعيد نمط التمييز العنصري القائم على اللون إلى الواجهة، وهو أمر يعوّق الاندماج ويُعمّق الإحساس بالاغتراب. غير أنّ الأمر العائق في هذا السياق كذلك هو الاختلاف الثقافي والديني، وهو أمر يضع أيضاً قضية احترام التنوع الثقافي وتشجيع المجتمع المتعدد والمنفتح على المحك مرة أخرى، وبخاصة أنّ المجتمع المغربي على الرغم من جهوده في بناء مجتمع يحترم التعددية الثقافية من خلال ترسيم اللغة الأمازيغية إلى جانب اللغة العربية، إلا أنّه وبعد تسوية أوضاع مجموعة من المهاجرين الأفارقة يجد نفسه مرة أخرى أمام معضلة البنية المجتمعية التي تتسم بالإقصاء والتمييز. وحين يكون حديثنا في هذا السياق حول الفتيات الأفريقيات، فإنّ الأمر سيكون إقصاءً مزدوجاً، ذلك أنّهنّ سيتقاسمن مع كلّ النساء على أرض المغرب الإقصاء باعتبارهنّ نساء، ولكن أيضاً ستتضاعف مُعانتهنّ لأنّهنّ مُختلفات اللون، وفي حالات عديدة لا يتقاسمن أيضاً الانتماء الديني مع سكان بلد المقصد أي المغرب الذي يُعتبر بلداً ليس إسلامياً فقط، ولكنّه يتّجه منذ سنوات لأسلمة الواقع والمعيش اليوميّ، ما يُعمّق مُعاناة اللاجئات الأفريقيات، وبخاصة منهنّ المسيحيات. يُمكن أن نورد بعض الشهادات التي أكّدت على أنّ العنصرية قائمة بالفعل على اللون وعلى اللغة وأيضاً على الدين. تورد فتاة كونغولية أنّ «المغاربة عنصريّون، لأنّهم يعتبرون كلّ الرجال الأفارقة القادمين من جنوب الصحراء مجردّ لصوص، وأنّ النساء والفتيات لسنّ سوى عاهرات..»⁽²⁷⁾. وتقول مُهاجرة من ليبيريا إنّ «علينا أن نستمرّ في الحياة، نحن بشر على الرغم من أنّ هناك من يعتبرنا مجردّ حيوانات، حيث يُنظر إلينا على أنّنا طفيليات تهدّد سلام المواطنين»⁽²⁸⁾. تزداد القضية تعقيداً إذا ما علمنا أنّ من بين

(26) «نموذج تعاونيّ إنتاجيّ للاجئتين إفريقيّتين نجحتا في رفع تحدي الاندماج، العربية، متاح على:

<https://www.alarabiya.net/north-africa>

(27) Myriem Cherti et Peter Grant, «Le mythe de transit, la migration subsaharienne au Maroc», Institute for Public Policy research, juin 2013, <https://www.cme.org.ma/images/documents/fr/2013/06/mythe-du-transit-maroc>.

(28) المرجع نفسه.

مميزات اللجوء بالمغرب أنّ كلّ النازحين يتخذن الفضاء السكني المشترك مع المواطنين المحليين كوسيلة وملاذ في محاولة الاندماج في غياب أيّ بديل للسكن ولكن أيضاً في عدم وجود مخيمات للاجئين تحديداً، حيث نجد اللاجئات كغيرهنّ من المهاجرين واللاجئين مقيمات في مساكن وسط أحياء شعبية لكبرى المدن المغربية: كالرباط، الدار البيضاء، طنجة فاس ومكناس، وهو واقع يبدو أنّه ذو بعدّين إيجابيّ وسلبيّ فمن جهة يُمكن أن يُسهم في اندماج اللاجئات والمهاجرات ولكنّ في الآن نفسه يجعلهنّ فريسة سهلة للمضايقات والاعتداءات ذات الطابع العنصري.

- الإدماج في المسار التعليمي المغربي: عوائقه ومُنجزاته

«الفرق بين الاستثمار وعدم الاستثمار في تعليم الناس الذين يتنقلون بين مختلف أرجاء المعمورة كالفرق بين شقّ طريق يؤدي إلى الإحباط والقلقل وشقّ طريق يؤدي إلى التماسك والسلام» اودري ازولاي⁽²⁹⁾.

انسجاماً مع ملاءمته لقانون الهجرة مع المواثيق الدوليّة سعى المغرب إلى العمل على إدماج اللاجئين واللاجئات في سنّ التمدرس في المنظومة التعليمية المغربية وفق ما تنصّ عليه هذه المواثيق حول الحقّ في التعليم. وذلك بحسب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لسنة (1948)، الاتفاقية الخاصة بوضع اللاجئين (1951) واتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين في أوقات الحروب، العهد الخاصّ بالحقوق الثقافية والاجتماعية (1966)، اتفاقية حقوق الطفل (1989) وأيضاً منتدى دكار حول التربية (2000) التي تنصّ كلّها على الحقّ في التعليم للجميع⁽³⁰⁾.

إنّ الحديث عن مُعانة الفتيات اللاجئات من مشكلة الاندماج في المجتمع المغربي، على الرّغم من حصول بعضهنّ على صفة لاجئة أو بطاقة إقامة، يعود إلى أنّ مشكلة الاعتراف بهويّتهنّ، وخصوصاً بالنسبة إلى المسيحيّات منهنّ، تطرح إشكالاً كبيراً في مجتمع تعتمد هويّة أفراده على صفة المسلم، كما أنّ هناك فئة من الفتيات اللاجئات المسيحيّات اللواتي يجدنّ صعوبة في الاندماج في بعض البرامج التعليمية التي تعتمد

(29) المديرية العامة لمنظمة اليونسكو.

(30) INEE (The Inter-Agency Network for Education in Emergencies).

«Minimum Standards for Education in Emergencies, Chronic Crises and Early Reconstruction», UNESCO, 2004, p. 6 <https://www.refworld.org/>

على تدريس الدين الإسلامي والقرآن، كما أنّ التعريب في مختلف مراحل التعليم لكلّ الموادّ العلميّة عقّد من سهولة تتبّع بعض الفئات من الفتيات المهاجرات واللّاجئات للمسار الدراسي. وبخاصّة أنّ جلّهنّ قادمات من دول فرانكفونيّة أو أنجلوساكسونيّة. يضاف إلى هذه المعوّقات الهوّة الفاصلة بين اللّسان المغربي أيّ العاميّة المُعتمَدة في الحياة اليوميّة ولغة التدريس في أغلب مراحل الدراسة بدءاً بالحضانة حيث يَجِدُ الأطفال والطفلات الصغيرات وأيضاً الفتيات في سنّ التمدرس صعوبةً في الاندماج التحصيلي ما يدفعهنّ للانقطاع عن الدراسة.

بقي أن نشير فقط إلى أنّه وبحسب معطيات وزارة التعليم، تمّ تسجيل 7377 تلميذاً وتلميذة من المهاجرين في التعليم النظامي بمختلف المستويات في مؤسّسات التعليم الحكومي والخاصّ خلال موسم 2017 - 2018. إلّا أنّ هناك تسرّبات مهمّة ما يجعل العملية التعليميّة آيلة للفشل، وبخاصّة مع ما تُعانيه المنظومة التربويّة في المغرب من إخفاقات وهشاشة بنيويّة. ولعلّ ظهور وباء كوفيد 19 أسقط ورقة التوت عن قطاعات كثيرة في المغرب من بينها التعليم ما أثر بشكلٍ آليّ في الاندماج التعليميّ والتربويّ للّاجئات.

5 - تأثير جائحة كوفيد 19 في ظروف الفتيات اللّاجئات والمهاجرات في المغرب

تسبّبت الجائحة وما رافقها من إغلاق وفقدان الأعمال، نظراً لأنّ نسبة 80% تمثّل القطاع غير المُهيكل بحسب منظّمة العمل الدوليّة وهي نسبة عالية جدّاً حيث تمثّل 67% من الاقتصاد غير المُهيكل في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ومن المعلوم أنّ أغلب اللّاجئات والمهاجرات يشتغلنّ في أعمالٍ غير مُهيكلّة وبعدها تمّ الإغلاق وجدنّ أنفسهنّ من دون دخل، الأمر الذي عرّضهنّ لمتاعب. وإذا أضفنا توقّف جميع أنشطة الدّعم من قبِل المنظّمات الدوليّة والجمعيات المحليّة، فإنّ معاناتهنّ تكون قد فاقت كلّ التصرّوات. ومع غلق الحدود أضحت أغلب النساء والفتيات اللّاجئات عرضة للضرر بفعل الجائحة نظراً لأنّ أغلبهنّ يشتغلنّ في مرافق غير مُهيكلّة، وهي المرافق التي أغلقت من دون أن يكون لهنّ أيّ مصدر رزق أو مساعدة حيث تُركنّ لمصيرهنّ المجهول،

مهدّدات بالجوع أو بالإذعان لواقع الاغتصاب المتكرّر والعنف الجنسي والنفسي والجسديّ حين يسقطن في براثن الدعارة.

فبالنسبة إلى المغرب مثلاً، ومع انتشار الجائحة، وجدّ نفسه واقعاً بين التزاماته الدوليّة وضرورة وضع استراتيجية لمُحاربة الفيروس الفتاك والحدّ من أضراره وذلك عن طريق الإغلاق. وقد ضاعفَ هذا الإجراء من مُعاناة اللاجئات اللّواتي في أغلبهنّ كنّ يشتغلن بأعمالٍ غير مُهيكلّة، وبخاصّة كخدم المنازل أو بائعات متجولات، أو يُمارسنّ التسوّل، وفي حالاتٍ يمتهنّ الدعارة، وهي حُرِف تأثّرت بالإغلاق. كما أنّ المساعدات التي كنّ يتلقّينها من بعض الجمعيات المحليّة انقطعت، وبخاصّة المُرافقة والدّعم النفسيّ. وإذا كانت دول الاستقبال، وخصوصاً الواقعة في شمال الكرة الأرضيّة، استطاعت أن تُوفّق بين التزاماتها تجاه مُواطنيها وبين تعهّدها الدوليّة في ما يتعلّق باللاجئين، فإنّ الدول الأفريقيّة، ومن بينها المغرب، تفتقر إلى الكثير من الإمكانيات والآليات للوفاء بالتزاماتها تجاه مُواطنيها وأيضاً تجاه اللاجئين واللاجئات على أراضيها.

وفي هذا السياق أعلن العديد من مسؤولي جمعيات المُهاجرين واللاجئين الأفارقة عن مدى مُعاناة اللاجئات الأفريقيّات بسبب الحُجر الصحيّ الذي جعَلهنّ محرومات من المُتابعة الطبيّة التي كانت بعض الجمعيات توفّرها لهنّ فأصبحت مثلاً الحوامل منهنّ عرضة لأخطارٍ جسيمة. ويَعتبر سيرج غيمو⁽³¹⁾ في حديثه مع الإندبندنت عربيّة Independent Arabic أنّ من بين التحدّيات التي تُواجه المُهاجرين خلال العزل الصحيّ، أنّ بعض المُهاجرات الحوامل أصبح وضعهنّ صعباً، ولاسيّما اللّواتي لديهنّ مواعيد طبيّة خلال فترة الإغلاق. إذ نجد صعوبة «في متابعتنّ، لأنّنا أوقفنا نشاطنا بسبب الحُجر الصحيّ»⁽³²⁾. أيضاً انقطعت أغلب الفتيات والطفلات اللاجئات عن الدراسة في الفترة التي سنّت فيها وزارة التربية الوطنيّة وتكوين الأطر المغربيّة، الدراسة عن بعد، ذلك أنّ أغلبهنّ لم يكنّ متوافرات على ظروف وإمكانيات رقميّة لمتابعة الدراسة، إضافة إلى توقّف أنشطة للجمعيات التي كانت تقوم بمهمّة مساعدتهنّ على مُتابعة الدراسة، نذكر منها على

(31) سيرج غيمو، مسؤول عن مجلس المُهاجرين من جنوب الصحراء في المغرب.

(32) إلهام الطالبي، «وطأة كورونا قاسية على المُهاجرين الأفارقة في المغرب»، موقع الإندبندنت عربيّة، متاح على:

<https://www.independentarabia.com/>

الخصوص كاريتاس⁽³³⁾ و مؤسسة شرق غرب Fondation Orient Occident⁽³⁴⁾ هذه المنظمات والجمعيات التي كانت ولا تزال تُعتبر الملاذ الآمن والعمليّ لللاجئين واللاجئين قبل وبعد ظهور الجائحة.

في النهاية أبانت الجائحة على أنّ العالم بكلّ مكُوناته لا يجب أن يُقسَم إلى قادرٍ على مواجهة الفيروس وآخر عاجز أمامه، ذلك أنّه لا ولن يتمّ القضاء على الجائحة إلّا إذا استطاع الجميع التخلّص من الفيروس واكتساب المناعة ضدّه عن طريق التلقيح الجماعيّ العالميّ وليس ضمن الحدود الوطنيّة فقط. ويشغل جزء مهمّ من اللاجئين وعائلاتهنّ في المغرب في القطاع غير المُهيكل الذي يشكّل أكثر من 20% من النّاتج الداخليّ الخام للمملكة. ويسدّون رمقهم من عائدات مهن بسيطة كالتيجارة بالتجوال أو حراسة السيّارات في الشوارع أو الخدمة في البيوت، من دون عقود عمل ولا ضمان اجتماعيّ. ويسيطر عليهم «الخوف» جرّاء الأزمة «عاجزين عن الحصول على غذاء كلّ يوم»، كما يقول الخبير في قضايا هجرة الأفرقة جنوب الصحراء مهدي عليوة الذي هو أيضاً عضو مؤسس لجمعية مجموعة مُناهضة للعنصريّة والدّفاع عن حقوق الأجنبيّ⁽³⁵⁾. وتبقى فئة الفتيات المُهاجرات واللاجئات الراغبات بالعبور نحو ما يعتبرنّه «الفردوس الأوروبيّ» الأكثر هشاشة. وتصل أغلبهنّ إلى المغرب بعد رحلة شاقّة على أمل الانتقال نحو شواطئ إسبانيا على متن قوارب الهجرة غير النظاميّة، أو باختراق السياج المحيط بمدينة سبتة ومليلة الإسبانيّتين في شمال المغرب. ومعلوم أنّ الجائحة كانت لها آثار سلبية مضاعفة على النساء عموماً اللواتي كنّ أصلاً فئة هشّة بنيويّاً قبل الجائحة. إنهنّ سيئات الحظّ لأنّ نزوحهنّ قادهنّ إلى بلادٍ أصبحت تُعتبر بلاد المقصد ولكنها ما زالت تُعاني من اختلالات بنيويّة اقتصاديّة واجتماعيّة عديدة.

(33) هي منظمة كاريتاس الدوليّة تشتغل في المغرب على التدخّل الاستعجالي لفائدة المُهاجرين واللاجئين لها فرعان رئيسان في المغرب في كلّ من طنجة والرباط.

(34) هي جمعية مغربيّة تتدخّل لمصلحة المُهاجرين واللاجئين مقرّها الرئيس في طنجة تساعد على إدماج المُهاجرين واللاجئين في المسار التعليمي إضافة إلى أنشطة مُوازية.

(35) تُعرف اختصاراً بـ

خاتمة واستنتاجات

في الختام أود الإشارة إلى أنّ ما يصعب على أيّ مقارنة تعتمد بعض المفاهيم التي تنتمي إلى حقل السوسيولوجيا من قبيل الاندماج هو التحديد المفاهيمي على مجتمعات ووضعيات تختلف اختلافاً نسبياً وفي أحيان كثيرة تصل إلى حدّ التناقض الجذري. ما يعني أنّ مقاربتني حاولت قدر المستطاع إسقاط بعض المفاهيم التي تستقي من السوسيولوجيا السياسيّة والدراسات النسويّة من قبيل الاندماج واللّجوء والنزوح والنسوية التقاطعيّة إضافة للمقاربات الثقافيّة كالتعددية الثقافيّة والمعتقد على موضوع الطفلات والفتيات اللّاجئات الأفريقيّات بالمغرب، وهو عمل يظلّ مفتوحاً على أسئلة عالقة ربما تروم دراسات أخرى وديناميّة فاعلة تستشرف واقعاً أكثر عدلاً وإنصافاً ليس فقط للطفلات اللّاجئات بل للطفلات والفتيات عموماً اللّواتي يعانين من عوائق الاندماج في مجتمع أبويّ يُمارس الإقصاء المُمنهج على فئاتٍ عريضة⁽³⁶⁾ ليس على المُهاجرات واللّاجئات فقط، بل على مواطنات مغربيّات ذنهنّ أنّهنّ خُلِقنّ إنثاءً.

أخيراً وليس آخراً، أطرح الأسئلة المفتوحة التالية:

في المغرب كيف يمكن أن يتمتع الأطفال المهاجرون واللّاجئون إنثاءً وذكوراً بحياة مستقرة في بلد لا يوفر مثل هذه الحياة حتّى لأبنائه من الأطفال والطفلات، هنا يجب أن نشير إلى دور المنظّمات الدوليّة الإنسانيّة ومنظّمات الأمم المتّحدة المعنية بحماية الأطفال أينما وجدوا. هذا الوضع ازداد تفاقماً مع الجائحة وقواعد الإغلاق للمدارس ومراكز التدريب التي مسّت مثلاً في المغرب النصف الأخير من السنة الدراسيّة الماضيّة (2020)، وهو ما أثر في تعليم الأطفال والشباب اللّاجئين من بينهم بطبيعة الحال اللّاجئات الطفلات والفتيات. «وتظهر البيانات أن الحوادث المبلّغ عنها من العنف القائم على نوع الجنس قد تزايدت في أثناء انتشار الجائحة نتيجة الحجر المنزلي، والإغلاق، وتقييد الحركة. وقد أدى ذلك إلى زيادة الحاجة إلى توفير خدمات الحماية والمساعدة للنساء والفتيات، بمن فيهن النساء والفتيات

(36) نساء وحيدات (مطلّقات وعازبات) - مثليون ومثليّات - زنوج وزنجيات - معوّقون ومعوّقات - كبار السنّ وكبيرات السنّ، إضافة إلى تهमيش الطفولة إنثاءً وذكوراً.

المُهَاجِرَات واللَّاجِئَات، في وقت أصبح فيه الحصول على هذه الخدمات أكثر صعوبة بسبب الأزمة الصحيّة»⁽³⁷⁾.

- تغيير سياسة الهجرة واللّجوء المنتهجة في المغرب مع بداية تفشّي وباء كورونا يوحى بأنّ سياسة الهجرة المغربيّة ربّما باءت بالفشل وهو ما يراه العديد من الحقوقيّين في المغرب والجمعيات الدوليّة والمحليّة مع ازدياد شبح الترحيل. فقد بات أغلب اللّاجئين والمُهَاجِرِينَ، وبطبيعة الحال الفتيات اللّاجئات والمُهَاجِرَات وعائلاتهنّ، مهدّدين بالترحيل بعد انتشار وباء كوفيد. ومع فقدان العديد منهنّ عقود عملهنّ أو توقّفهنّ عن العمل من دون الحصول على تعويض أو إيجاد مصدر رزقٍ آخر، أصبحت الفتيات مُعرّضات للترحيل إمّا طوعاً أو قسراً.

- ما زال المُجتمع المغربيّ يعيش تحديات المساواة الحقيقيّة والاندماج الفعليّ لكلّ فئاته الاجتماعيّة، وما زال العنف القائم على النوع يحصد ضحايا ويترك ندوباً أثّرت ولا تزال تؤثّر في الأجيال الحاليّة والقادمة، ما يدفعنا للتساؤل عن الآلية التي يمكن بها لمُجتمع هذه مواصفاته، أن يحقق الاندماج ويحمي اللّاجئات والمُهَاجِرَات من خطر الإقصاء والتهميش بكلّ مستوياته ومراحلته وتجليّاته؟

يُمكن أيضاً أن نستنتج أنّ قضية الهجرة واللّجوء ما زالت تطرح تحديات أمام الحكومة المغربيّة، على الرّغم من الترسّانة القانونيّة المهمّة التي جاءت بها الاستراتيجية الوطنيّة للهجرة واللّجوء، وتتمثّل هذه التحديات على وجه الخصوص في تفعيل القوانين والمشاريع المُعلن عنها، وتنفيذ الإجراءات التي تمّ الوعد بإنجازها. فلحدود الساعة لم يتمّ التقدّم كثيراً على مستوى الإجراءات العمليّة الخاصّة بإدماج المُهَاجِرِينَ من دول أفريقيا جنوب الصحراء في سوق العمل والتعليم والصّحة (باستثناء ما قامت به بعض جمعيات المُجتمع المدنيّ قبل انتشار الجائحة)، وأيضاً في مجال تغيير الصورة النمطيّة عن اللّاجئة الأفريقيّة ليس عند المغاربة فحسب، ولكنّ أيضاً في العديد من وسائل الإعلام.

(37) «آثار جائحة كوفيد - 19 على المُهَاجِرِينَ واللّاجئين في المنطقة العربيّة»، مفوضيّة الأمم المتّحدة لشؤون اللّاجئين

2020، متاح على موقع www.unescwa.org.

الإعتداءات الجنسيّة على الفتيات والمُراهقات في تونس ما بعد الثورة

يُعتبر تناوُل موضوع الاعتداءات الجنسيّة على الأطفال في تونس أحد أكثر الموضوعات صعوبة، إذ تتعدّد العوامل المعوّقة لدرسه وتسليط الضوء عليه وتتداخل، خصوصاً في ظلّ شحّ المُعطيات الإحصائيّة والدراسات العلميّة. ولعلّ أبرز هذه العوامل ما يحمله لفظ الجنس في حدّ ذاته من ثقل اجتماعي يجعل معظم الناس يتحرّجون منه ويتحاشون الخوض فيه باعتباره من المحرّمات الاجتماعيّة، وقد أسهم ذلك في تضيق مجاله ومحاولة إخفائه إلى درجة الإنكار والصمت النفسيّ. الصمت عن كلّ ما له علاقة بالجنس وإنكار وجوده كحاجة إنسانيّة وجعله مرتبطاً بالعلاقات المُعترف بها اجتماعيّاً فقط، وكلّ ما حاد عن هذا الاعتراف الاجتماعيّ يُعاقب بالرفض والإقصاء. لذلك، وخوفاً من هذا العقاب الاجتماعيّ، نجد أنّ معظم ضحايا الاعتداء الجنسيّ وحتىّ عائلاتهم يسعون إلى إخفاء ما تعرّضوا له وتجاهله، وذلك خوفاً من تبعاته من إقصاء ورفض ووضم اجتماعيّ؛ إذ تُعامل الضحيّة على أنّها المُذنب والمُتسبّب في الاعتداء وليس كشخص تعرّض للانتهاك. هذا وتزيد الهشاشة النفسيّة والجسديّة لدى الأطفال ضحايا العنف الجنسيّ في إضعاف قدرتهم على تحمّل تبعات

بيا قزي

الإبلاغ عن الاعتداء، وخصوصاً إذا ما لاقوا صدماً أو تمّ تكذيبهم من المُحيطين بهم أو تهديدهم من قبل المعتدي. وهو ما يُفسّر ضعف نسبة الإبلاغ عن هذه الاعتداءات إلى السلطات، والتي لا تتعدّى عالمياً 10% من العدد الإجماليّ للاعتداءات طبقاً لتقديرات المنظّمة العالميّة للصحة.

وعلى الرغم من اختلاف السياقات المُجتمعيّة بين مختلف الدول، يُمثّل الصمتُ عن الاعتداء الجنسيّ وإخفاؤه ظاهرة عامّة وعالميّة تحول دون معرفة حجمها الحقيقي على خطورة مخلفاتها؛ إذ نجد أنّ 10% من الفتيات في العالم أي ما يعادل (120 مليون فتاة) تمّ اغتصابهنّ وهنّ دون سنّ 18 سنة، كما أنّ ما يقارب نصف عدد الأشخاص الذين حاولوا الانتحار قد تعرّضوا لاعتداءٍ جنسيّ خلال طفولتهم.

وتتعدّد العوامل التي تزيد في احتمالات تعرّض الأطفال للاعتداء الجنسيّ، لعلّ أبرزها هو عدم التصريح بالاعتداء وإخفاء هويّة المُعتدي الذي يتمكّن من تكرار فعلته على الطفل نفسه أو على أطفالٍ آخرين، بخاصّة إذا ما تواجدوا في وضعيّة هشاشة نفسيّة وحرمانٍ عاطفيّ أو تبعيّة عاطفيّة للمعتدي يستغلّها الأخير للسيطرة على ضحيّته وضمان صمتها. وتمثّل الوضعيّات الإنسانيّة كالحروب والصراعات والكوارث أحد أهمّ العوامل التي تزيد في هشاشة الأطفال وإمكانيّة استغلالهم جنسيّاً، ويصل ذلك إلى استخدامهم في جرائم الاتّجار بالبشر والدعارة وغيرها.

الاعتداءات الجنسيّة على الأطفال في تونس

تُعتبر تونس من بين البلدان الرائدة تشريعياً في مجال حماية الطفولة بصفة عامّة والحماية من الاعتداءات والاستغلال الجنسيّ بصفة خاصّة، إذ أفردت الطفل سنة 1995 بمجلّة لحماية حقوقه، واعتبرت الاستغلال الجنسيّ للذكور والإناث أحد أنواع التهديد الثمانية التي أدرجتها بهذه المجلّة بشكلٍ يستوجب الإشعار عنها من جميع المُواطنين، وخصوصاً من طرف المهنيّين في مجال الطفولة وحتّى الخاضعين منهم للسرّ المهنيّ. كما جرّمت التشريعات عدم الإبلاغ عن الاعتداءات والاستغلال الجنسيّ للأطفال، وخصوصاً في القانون عدد 61 لسنة 2016 المتعلّق بالوقاية والتصديّ للإتجار بالبشر والقانون الأساسيّ عدد 58 لسنة 2017 المتعلّق بمُناهضة العنف ضدّ المرأة،

والذي بموجبه تمّ تحويل مجموعة من الأحكام في المجلّة الجزائية، ولاسيّما الفصل (226 و227) في ما يتعلّق باعتبار الاعتداء على القصر الذكور اغتصاباً وليس مُفاحشة وإلغاء إيقاف التتبع في حقّ المُعتدي إذا ما تزوّج الضحيّة. كما انضمت تونس سنة 2019 لاتّفاقية لانزروت للاتّحاد الأوروبيّ المُتعلّقة بالتصدّي للاعتداءات الجنسيّة على الأطفال والمُراهقين، وهي بذلك أوّل بلد ينضمّ لهذه الاتّفاقية من خارج أوروبا.

فهل لهذا الزخم التشريعيّ أثرٌ على واقع الاعتداءات الجنسيّة على الأطفال في تونس، وخصوصاً الفتيات؟ وهل قابله تناقصٌ في أعداد الضحايا؟ ثمّ هل كان لسياق ما بعد الثورة أثرٌ نوعيٌّ عليهنّ، ولاسيّما مع تغيّر بعض ملامح المُجتمع التونسيّ؟ أسئلةٌ تُطرح في ظلّ مُجتمع يشهد مخاضاً سياسياً واجتماعياً متقلّباً، تتالت فيه الحكومات والتوجّهات والتحركات الاجتماعيّة والأزمات، من دون أن يكون في حالة حرب بكلّ ما للكلمة من معنى. لكنّ مؤشرات الفقر وتدنيّ مستوى المعيشة وهشاشة الأوضاع الاقتصاديّة للبلاد زادت من مخاطر الهشاشة وعواملها، وبشكل خاصّ لدى الأطفال الذين يُمثّلون نسبة 29% من السكّان، وحيث تصل نسب الفقر المادّيّ بينهم إلى 21.2% بحسب المعهد الوطنيّ للإحصاء (2015). هذا في الوقت الذي تفاقم فيه هذا الفقر سنة 2020 نتيجة الكوفيد 19 بما يناهز 3%⁽¹⁾، وربّما زادت هذه الهشاشة في العنف الموجّه للأطفال، وخصوصاً العنف الجنسيّ الذي يُمثّل حوالي 11% من مجمل حالات التهديد التي تمّ التبليغ عنها لدى مندوبي حماية الطفولة في كامل الجمهوريّة.

تشير التقارير السنويّة لمندوبي حماية الطفولة إلى أنّ إحصاء الاعتداءات الجنسيّة على الأطفال بصفة رسميّة وحيثيّة بدأ سنة 2013. وقد بيّنت أنّ العنف الجنسيّ ضدّ الأطفال قد تضاعف عشر مرّات خلال عشرية ما بعد الثورة، أي بين سنتيّ 2010 و2020. كما تطوّر هذا النوع من العنف بنسبة تُناهز 15.5% بين سنتيّ 2018 و2019⁽²⁾ حيث يتعرّض بمعدّل 3 أطفال يوميّاً للاعتداء الجنسيّ وتمثّل نسبة الفتيات 70.79% من عدد الضحايا، علماً أنّ هذه النسب تستند إلى ما تمّ الإشعار عنه من اعتداءات فقط.

(1) دراسة وزارة التنمية والتعاون الدوليّ حول أثار الكوفيد 19 على العائلات والمؤسّسات الصغرى بتونس 2021.

(2) «التقرير الإحصائيّ السنويّ لنشاط مندوبي حماية الطفولة لسنة 2019 - وزارة المرأة والأسرة وكبار السنّ»

وفي الاتجاه نفسه بيّنت دراسةٌ وصفيةٌ نوعيةٌ أُجريت سنة 2020 من قِبَلِ فريقٍ من الأطباء في قسم الصحة النفسية في مستشفى في العاصمة حول الملمح السريريّ والسوسيوديموغرافيّ للأطفال ضحايا الاعتداءات الجنسيّة⁽³⁾، أنّ نسبة الفتيات ضحايا الاعتداء الجنسيّ في عيادة الطبّ النفسيّ خلال الفترة الممتدّة بين العامين 2013 و2019 فاقت الـ 61%، وأنّ أعمارهنّ تراوحت بين عُمر السنتين والثمانية عشر سنة بمعدّل أعمار يناهز 9.9 سنوات. كما بيّنت الدراسة أنّ المُعتدين همّ غالباً من جنس الذكور وينتمون إلى عائلة الضحية في 37.3% من الحالات وأنّ نصفهم من الآباء. وتُعتبر الاعتداءات الجنسيّة على الفتيات في المحيط العائليّ من أكثر الوضعيّات تعقيداً، ففي بعض الحالات يتمّ التغاضي عن الاعتداء من قِبَل العائلة وأحياناً المهنيين، وذلك خوفاً من التسبّب في تدمير الأسرة. وبالتالي تبقى الضحية وجهاً لوجه مع جلّادها، وفي حالات أخرى وعند تدخّل السلطات تُحمّل الضحية نفسانيّاً تبعات الشرح العلائقيّ في أسرتها، ما يؤدّي بها إلى الهروب واللّجوء إلى سلوكات الانحراف والإدمان في أكثر من 67% من الوضعيّات طبقاً لإحصاءات قضاء الأطفال لسنة 2019.

وكبقية البلدان يُعتبر الصمت المُجمعيّ في تونس والإنكار النفسيّ للاعتداءات الجنسيّة من قِبَل الأطفال وعائلاتهم أحد عوائق رصد هذه الظاهرة إلى جانب ما تميّز به الأجهزة القضائية والأمنيّة من تضارب وضعف تناسق في تطبيق القانون. ويُعزى ذلك إلى تشبّهما بمقاربة بدنيّة للاعتداء الجنسيّ مستمدّة من تمثّل اجتماعيّ يقتصر على الاعتداء المادّي ويغفل التحرش لصعوبة إثباته. وتحول هذه المقاربة دون الوقاية من الاعتداءات والتفطن لها بصفة مبكّرة كما تَسمح للمُعتدين بالتمادي في أفعالهم والهروب من العقاب، وخصوصاً إذا ما نجحوا في طمس الآثار الماديّة المُعتدّة عند تتبّعهم قضائيّاً، وهذا ما يُؤكّد فرضيّة أنّ هذه الأرقام الرسميّة لهذه الظاهرة لا تُمثّل إلّا نسبة ضئيلة لا تزيد على عشر الاعتداءات على أرض الواقع ويبقى العدد الأكبر طيّ الكتمان.

(3) S. Bourguou, S.L. Meddouri, A. Ben Hamouda, H. Ben Mustapha, F. Charfi, M. Hamza, A. Belhadj, «Enfants victimes de violences sexuelles en consultation de pédopsychiatrie», L'Encéphale, Volume 47, Issue 3 (2021): 221-226.

هل تفاقمت الاعتداءات الجنسية على الفتيات في تونس ما بعد الثورة؟

يُمثّل العنف الجنسيّ على النساء والفتيات في تونس نسبة مهمّة من العنف المبنيّ على النوع الاجتماعيّ تتجاوز أحياناً 15%⁽⁴⁾. وبالنسبة للأطفال فهو يُمثّل أكثر من 7% من مجموع حالات التهديد. وتشير الأرقام إلى أنّ العنف الجنسيّ ضدّ الفتيات تضاعف عشر مرّات خلال العشريّة الأخيرة وأنّ في تصاعدٍ مُستمرّ، وخصوصاً بعد سنة 2018 أي بعد عام على إصدار القانون الأساسيّ عدد 58 لسنة 2017 والمتعلّق بمناهضة العنف ضدّ المرأة والطفل، إذ زاد بنسبةٍ تُقارب 30% بين العامين 2018 و2019، وتضاعفت هذه الزيادة لتصل إلى ما يناهز 65% بين بين العامين 2019 و2020. كما أسهمت وضعيّة الجائحة والحجّر الصحيّ في تنامي عدد الإشعارات في خصوص العنف الجنسيّ على الفتيات، وذلك بتعرّضهنّ للاعتداء بصفة مباشرة أو عبر الإنترنت. كما شهدت تونس تطوّراً في أنواع الجرائم الجنسيّة على الأطفال، وخصوصاً الفتيات، ليتمّ استغلالهنّ في إنتاج موادّ إباحيّة أو تبادلها ونشرها على الشبكة العنكبوتيّة ليتمّ لاحقاً ابتزازهنّ مادياً ومعنوياً. وهو الأمر الذي جعل تونس تطلق في شهر أيار/مايو 2021 منصّة إلكترونيّة للإشعار عن المواقع والموادّ الإباحيّة الإلكترونيّة المُستخدمة للاعتداء جنسياً على الأطفال عبر الإنترنت.

كلّ هذه المعطيات تُؤكّد فرضيّة تنامي ظاهرة العنف والاعتداءات الجنسيّة على الفتيات خلال العشريّة الأخيرة والأخطر من هذا هو تنامي عدد الذين يقبلون بهذه الاعتداءات ويُؤيّدونها أحياناً متعلّلين بنوعيّة لباس الفتيات أو سلوكهنّ، وخصوصاً المراهقات. وهو ما يُنذر بتفاقمها في المستقبل ويمهّد لتغيير النمط المُجتمعيّ ليصبح أكثر عنفاً وصدّاً للمرأة ورفضاً لتحرّرها. لكنّ نظراً لشحّ الدراسات العلميّة التشخيصيّة في تونس، فإنّ الأرقام المتوافرة لا تكفي للجزم بأنّ عدد الاعتداءات قد زاد فعليّاً مع تضاعف عدد الإشعارات في الإحصاءات الرسميّة. فقد تكون هذه الزيادة ناتجة عن تنامي الوعي بأهميّة الإشعار وسهولة النفاذ إليه، وخصوصاً مع توافر الخطّ الهاتفيّ الأخضر المجانيّ

(4) المسح الوطنيّ للعنف المسلّط على النساء لسنة 2010، الديوان الوطنيّ للأسرة والعمران البشريّ بالتعاون مع الوكالة الإسبانيّة للتعاون الدوليّ والتنمية.

لدى المصالح المُكلّفة بالطفولة ولدى مندوبي حماية الطفولة إلى جانب ما يكفله القانون من ضماناتٍ لحماية هويّة المُشعر.

ولمزيدٍ من التعمّق ومقاربة نموّ هذا الوعي قمنا بمُقارنةٍ بسيطةٍ للمؤشّرات الأكثر دلالة على نموّ الوعي المُجتمعيّ بالعنف الجنسيّ ضدّ المرأة والمُعتمدة في إحدى الدراسات حول العنف الأسريّ المتعلّقة بتقبُّل العنف الأسريّ ضدّ المرأة أو تبريره. واخترنا المؤشّرات التي تمّ تناولها بالدرس في إطار سلسلة المسوحات العنقوديّة المتعدّدة المؤشّرات⁽⁵⁾ التي أُجريت على عيّنة ممثّلة تفوق 10 آلاف عائلة تونسيّة بالتعاون بين اليونسيف والحكومة التونسيّة.

بالرجوع إلى نتائج المسوحات المُنجزّة خلال العشريّة الأخيرة ومقارنتها في ما بينها، يتبيّن لنا أنّ مُنحنيات نسبة النساء (ما بين سنّ 15 و49 سنة) اللّواتي يؤيّدن اعتبار رفض إقامة علاقة جنسيّة مع الزوج مبرّراً لتعنيف الزوجة، تغيّرت بين المسح الرّابع لسنة 2011 والمسح السادس لسنة 2018، لتسجّل انخفاضاً ملحوظاً في المسح الأخير. ففي حين بلغت هذه النسبة 8.6% لدى المُراهقات في سنّ 15 - 19 سنة في العام 2011، انخفضت سنة 2018 لتبلغ 4.6% لدى الفئة نفسها.

وتُعَدّ نسبة قبول هذا التبرير لدى النساء في سنّ 45 - 49 سنة الأعلى مقارنةً بالبقية والتي انخفضت بدورها من 17.9% سنة 2011 إلى 8% سنة 2018. وقد انخفضت أيضاً نسبة الرجال المبرّرين للعنف الأسريّ برفض الزوجة إقامة علاقة جنسيّة بنسبة تقارب 10% بين سنّ 18 - 24 سنة إذ ناهزت 15% وهي النسبة الأعلى لتبلغ ما يقارب 5% في سنّ 45 - 49 سنة وهي النسبة الأقلّ.

ونستنتج من ذلك أنّ النساء والرجال التونسيّين أصبحوا أكثر رفضاً لجميع مبرّرات العنف ضدّ المرأة والفتاة، وبخاصّةٍ منها مُبرّر فرض العلاقة الجنسيّة على الزوجة. ويُعتبر ذلك تغييراً نوعيّاً، ولاسيّما أنّ المشرّع التونسيّ في مجلّة الأحوال الشخصية يُجيز للزوج تطليق زوجته للضرر إذا لم تمكّنه من نفسها، كما أنّه لا يُعتبر إجبار الزوجة على إقامة علاقة زوجيّة، عنفاً جنسيّاً أو اغتصاباً. وإذا ما أقرّنا بأنّ هذا الرفض هو مؤشّر على الوعي

(5) Suivi de la situation des femmes et des enfants en Tunisie L'Enquête par grappes à indicateurs multiples (MICS) IV 2011-2012, Unicef, L'Enquête par grappes à indicateurs multiples (MICS) VI 2018, Unicef.

بمفهوم الحرمة الجسدية والمعنوية للمرأة وضرورة حمايتها، يُمكننا، ولو جزئياً، تفسير ارتفاع عدد الإشعارات لدى مندوبي حماية الطفولة خلال العشرية الأخيرة. وهذا لا يُؤكّد طبعاً فرضية ارتفاع عدد ضحايا العنف الجنسي مُقارنةً بالسنوات السابقة.

وفي ما يتعلّق بنسبة الضحايا من الفتيات مُقارنةً بالذكور وبالاستناد إلى الأرقام الرسمية وبعض الدراسات المُنجزّة، فإنّ هذه النسبة لم تتغيّر منذ ما قبل الثورة، وهي تُناهِز الضعف حتّى في مجال الاعتداءات الجنسيّة على الخطّ، وتبقى فرضية أنّ الفتيات هنّ أكثر عرضة للاعتداء من الفتيان في حاجة إلى التأكيد وإلى مزيدٍ من التعمّق، ولاسيّما إذا ما نظرنا إلى الموضوع من زاوية نفسيّة اجتماعيّة لمُجتمعاتنا الذكوريّة. ففي مُجتمعنا عادةً ما يكون الذكور أكثر كتماناً لما يتعرّضون له وذلك لخوفهم من التعرّض للتنمّر والوصم الاجتماعيّ ممّا يجعلهم لا يُفصحون عن الاعتداء أو التحرش الجنسيّ، وخصوصاً إذا لم يخلف لهم أضراراً بدنيّة أو لم تنتبه له العائلة. وقد بيّنت الدراسة النفسيّة المذكورة أنّاً أنّ ذلك يُسبّب لهم اضطرابات نفسيّة بنسبة 60.3% وهذا مبحث آخر يستوجب إجراء مزيدٍ من الدراسات للتعمّق أكثر والتشخيص والفهم.

الخلاصة

تبقى ظاهرة الاعتداءات الجنسيّة على الفتيات والمُراهقات في تونس من الظواهر الخطيرة لما تخلفه من آثار مباشرة على الضحايا لعلّ أبرزها الاضطرابات والأمراض النفسيّة المُختلفة لدى 58% منهنّ إلى جانب ارتفاع التكلفة الماديّة والنفسيّة والاجتماعيّة للتعهُّد بالضحايا وعائلاتهم. وليس بالهين التصدّي لهذه الظاهرة أو الإقرار بالتقليص من حدّتها باعتبار أنّها شبه مخفيّة وتزيد التغيّرات الاجتماعيّة والثقافيّة للمُجتمع التونسيّ في تكريسها وإخفائها أحياناً.

وعلى الرّغم من أنّ جلّ المؤشّرات تشير إلى تفاقم أعداد الضحايا، وبخاصّة بعد الثورة، وذلك توازياً مع زخم العنف الاجتماعيّ والسياسيّ والنفسيّ الذي تشهده البلاد، إلّا أنّنا وفي غياب تشخيص إحصائيّ دقيق وعلميّ، نبقي حذرين في الجزم بهذا التفاقم ما لم يتمّ إثباته قطعياً بإنجاز تقاطعاتٍ بين المُعطيات الرسميّة والدراسات التشخيصيّة العلميّة. هذا ويبقى السبيل الأنجع لتسليط الضوء على هذه الظاهرة ومُعالجتها متمثلاً بتطوير

الوعي الجمعيّ حول ضرورة التعاطي معها بشكلٍ علنيّ وكسر دائرة الصمت والقيود الاجتماعية. كما أنّه بالتّظر إلى خطورة آثارها على الرفاه الفرديّ والعائليّ والمُجتمعيّ، يبقى من الضروريّ تكثيف إنتاج المعرفة الإحصائية والعلمية في مجال توصيف الظاهرة وتشخيصها والتعهّد بضحاياها طبيّاً ونفسياً واجتماعياً. كما يتعيّن الحرص على تناغم النصوص القانونية مع المُقاربة الحقوقية والعمل على رفع اللبس والغموض عن بعض المفاهيم والتعريفات التي يستغلّها المُتعاملون مع القانون ضدّ الضحية.

وتبقى الوقاية عن طريق البرامج التوعوية والتربوية من أهمّ الآليات التي يجب تعزيزها على أن تشمل أولاً الأهل وتمكّنهم من تطوير قدراتهم على التواصل مع أطفالهم ورفع حاجز الصمت والخوف من الخوض في الموضوعات الجنسية داخل العائلة، وثانياً المهنيين المتدخلين مع الأطفال في مختلف الشرائح العمرية لتمكينهم من دعم قدراتهم على التفطن ورصد علامات الاعتداء الجنسيّ على الأطفال، وثالثاً، يجب أن تمتدّ إلى الأطفال عن طريق المناهج التربوية الرسمية وغير الرسمية التي تُساعد على تنمية قدراتهم على الحماية الذاتية والمرونة في مُواجهة الصعوبات وهو ما شرعت تونس في إقراره منذ بداية العام 2019 في إطار مادّة التربية الجنسية التي سيتمّ تدريسها، والتي يأمل الجميع أن تُلاقي تشجيعاً ودعماً مُجتمعيّاً لإنجاحها.

Introduction

In May 2021, a disturbing video was widely circulated among Sudanese social media users showing a group of soldiers raping a young girl at gunpoint. One of the men appeared wearing uniforms of the paramilitary Rapid Support Forces (RSF) operated by the government. In the background, other people could be heard intimidating the victim and sexually exploiting her. The incident, which is estimated to have taken place in the Blue Nile State, revived popular memories of conflict-related sexual acts of violence that have persisted in recent years and the atrocities committed by Janjaweed militias in Darfur on behalf of the government. Armed perpetrators, including security forces, often attacked, kidnapped, and raped displaced women and young girls who were performing their livelihood activities, such as farming or fetching water, outside the Internally Displaced Person (IDP) camps. While police and law enforcement institutions took no action, perpetrators remained free and victims remained unprotected and exposed to repeated dangers, causing security fragility to become a characteristic of conflict areas.

Displaced Girls in Times of War: Vulnerability and Mitigation of Conflict-Related Sexual Violence in Darfur, Sudan

Salma Mohamed Abdalmunim
Abdalla

The above-mentioned episode corresponds to the United Nations' (UN) report on conflict-related sexual violence published in 2019, which described the ongoing conflict-related sexual violence in Darfur as follows:

«The proliferation of weapons, criminality and sporadic intercommunal clashes render civilians, particularly women and girls, vulnerable. Sexual violence displaces civilians from their homes and prevents their return, which implies losing access to land and is a devastating outcome for most internally displaced persons, who once earned an income from farming. One specific pattern of sexual violence concerned women and girls in rural communities or in camps for internally displaced persons, who were routinely preyed upon while traveling or engaged in livelihood activities outside camps»⁽¹⁾.

In 2019, at least 135 women and 54 girls in Darfur were subjected to forms of conflict-related acts of sexual violence, including rape and rape attempts, perpetrated by armed nomads, armed movements, militias, government security forces, and RSFs⁽²⁾. The Sexual Violence in Armed Conflict dataset that measures conflict-related sexual violence committed by armed actors reported 309 cases of sexual violence in Sudan in 2019, which indicates a systematic prevalence of sexual violence used by actors as a means of intimidation, an instrument of control, punishment, and a tool of war⁽³⁾.

This paper examines Darfuri women and girls' vulnerability to conflict-related sexual violence by explaining the policies and institutions that are put in place to protect them as well as the actors involved, and the effectiveness of these policies. Conflict-related sexual violence in Darfur has prevailed for almost two decades, and I am convinced that it will continue to occur due to a combination of various factors such as failure to coordinate between the actors involved, not considering the best interest of vulnerable women

(1) «Conflict-Related Sexual Violence: Report of the United Nations Secretary-General», Annual Report, United Nation, accessed May 7, 2021, <https://www.un.org/sexualviolenceinconflict/wp-content/uploads/2019/04/report/s-2019-280/Annual-report-2018.pdf>.

(2) «Conflict-Related Sexual Violence: Report of the United Nations Secretary-General», Annual Report, United Nation, accessed May 7, 2021, <https://www.un.org/sexualviolenceinconflict/wp-content/uploads/2020/07/report/conflict-related-sexual-violence-report-of-the-united-nations-secretary-general/2019-SG-Report.pdf>.

(3) Ragnhild Nordås, Dara K. Cohen, and Robert Nagel, «Dataset Sexual Violence in Armed Conflict», *Sexual Violence Dataset*, accessed August 8, 2021, <http://www.sexualviolencedata.org/dataset/>.

and girls as a priority, and because local institutions are sidelined. In dealing with conflict-related violence against women and girls, it is imperative to have an overview of the various institutions involved and to assess the extent to which they are effective in tackling the issues of the prevailing conflict-related violence.

This paper is based on a review of literature, including policy reports published by governmental and nongovernmental organizations. The paper has also benefited from previous field research conducted between 2006 and 2014 among internally displaced communities in Khartoum who fled from the war in Darfur. During previous field research, the author had conversations with survivors of conflict-related sexual violence, government officials in relevant institutions, and humanitarian workers. In order to have an overview of recent developments, the author undertook fieldwork, and referenced secondary data such as media reports, scholarly articles, and policy documents. The paper is divided into several sections that highlight the subject matter. First is the definition of the main concepts used, second is an overview of the context of the Darfur conflict, third is the mapping of institutions working on gender-based violence (GBV) in Sudan, fourth is an outline of the community's response to conflict-related sexual violence, and finally a discussion of the findings.

Definition of Key Concepts

Gender-Based Violence

According to the UN, GBV is defined as «any act of gender-based violence that results in, or is likely to result in, physical, sexual, or psychological harm or suffering to women, including threats of such acts, coercion, or arbitrary deprivation of liberty, whether occurring in public or in private life»⁽⁴⁾. This definition includes all forms of violence against women that occur in the private sphere, within the family context and at the societal level, including violence committed by state actors. The Declaration on the Elimination of Violence against women has stressed the importance

(4) «Declaration on the Elimination of Violence Against Women Resolution Adopted by the General Assembly», UN General Assembly, accessed June 10, 2021, <https://digitallibrary.un.org/record/179739>.

of women's human rights and puts the responsibility of protecting those rights on the state and the international community.

Conflict-related Sexual Violence

According to the UN, conflict-related sexual violence is defined as «rape, sexual slavery, forced prostitution, forced pregnancy, forced abortion, enforced sterilization, forced marriage and any other form of sexual violence of comparable gravity perpetrated against women, men, girls or boys that is directly or indirectly linked to a conflict»⁽⁵⁾. Used as a tactic of war, conflict-related sexual violence is mostly committed by non-state actors such as armed groups, militias, and terrorist groups. Reports have shown a direct relation between conflict-related sexual violence and violent extremism and political violence.

Internal Displacement

The UN Guiding Principles on Internal Displacement defines IDPs as «persons or groups of persons who have been forced or obliged to flee or to leave their homes or places of habitual residence, in particular as a result of or in order to avoid the effects of armed conflict, situations of generalized violence, violations of human rights or natural or human-made disasters, and who have not crossed an internationally recognized state border»⁽⁶⁾. According to Abdalla, «displaced populations in Sudan were not treated well because the central government has for a very long time denied the existence of the phenomenon of displacement caused by civil war. The attitude of the governments towards the displaced population has been marked by denial, indifference, and outright hostility. Long procedures and unstructured and uninformed interventions characterize the government's decision-making style and policy implementation strategy»⁽⁷⁾.

(5) «Conflict-Related Sexual Violence: Report of the United Nations Secretary-General», UN, accessed May 7, 2021, <https://www.un.org/sexualviolenceinconflict/wp-content/uploads/2019/04/report/s-2019-280/Annual-report-2018.pdf>.

(6) Francis M. Deng, *Guiding Principle on Internal Displacement* (New York: United Nations Publications, 2001), <https://www.unhcr.org/43ce1cff2.pdf>.

(7) Salma M. A. Abdalla, «Contradicting State Ideology in Sudan: Christian-Muslim Relations among the Internally Displaced Persons in Khartoum: Case of Mandela and Wad al-Bashīr Camps», In *Shari'a in Africa Today: Reactions and Responses*, eds. John Chesworth and Franz Kogelmann (Leiden: Brill, 2014), 49-82.

Contextualizing the Darfur Conflict

The Darfur region is in the western part of Sudan. It is bordered by the Northern State and the Kordofan States to the east and the neighboring countries of Libya, Chad, Central African Republic to the West, and South Sudan to the South. Darfur has a total area of 503180 km², which is divided into five states. Darfur is home to Approximately 7.5 million people, constituting various tribes, including nomadic and settled tribes. Besides Arabic, local languages are widely spoken in Darfur. In terms of economic activity, the region is famous for producing gum Arabic. In fact, Sudan is the world's largest producer of gum Arabic. The region not only has agricultural potential but is also rich in livestock and endowed with minerals.

The Darfur conflict is caused by a combination of socio-political, economic, and environmental factors. One of the major root causes of the conflict is grievances and claims of marginalization by Darfuri movements, which they categorized as an imbalance of power and wealth sharing. The conflict in Darfur has not only been identified as identity and tribal conflict⁽⁸⁾ but also as a conflict over natural resources⁽⁹⁾ and land tenure⁽¹⁰⁾. These led to the formation of several Darfuri rebel movements that strive for democracy, human rights, justice, and equality for all Sudanese, regardless of their ethnicity, religious affiliation, and gender. Moreover, 2002 and 2003 witnessed uprisings of the Darfuri rebel groups, including the Darfur Liberation Front, Justice and Equality Movement (JEM), and Sudan Liberation Movement (SLM). Between 2003 and 2005, the government of Sudan responded to the rebel movement uprisings with massive counterinsurgency operations. Endorsed by the government, the Arab Janjaweed militia mobilized, attacked, and displaced non-Arab groups and controlled both land and power⁽¹¹⁾. The

(8) Patrick J. Christian, «Darfur—Ground Zero for Africa's Crises of Identity: A Psychohistoriography of Tribes in Conflict», *African Security* 6, no. 1: 1-37, <https://doi.org/10.1080/19392206.2013.759457>.

(9) Brendan Bromwich, «Power, Contested Institutions and Land: Repoliticising Analysis of Natural Resources and Conflict in Darfur», *Journal of Eastern African Studies* 12, no. 1: 1-21, <https://doi.org/10.1080/17531055.2017.1403782>.

(10) Musa Abdul-Jalil, and Jon D. Unruh, «Land Rights under Stress in Darfur: A Volatile Dynamic of the Conflict», *War & Society* 32, no. 2: 156-81, <https://doi.org/10.1179/0729247313Z.00000000022>.

(11) Brendan Bromwich, «Power, Contested Institutions and Land: Repoliticising Analysis of Natural Resources and Conflict in Darfur», *Journal of Eastern African Studies* 12, no. 1: 3-4, <https://doi.org/10.1080/17531055.2017.1403782>.

Arab Janjaweed militias committed mass atrocities, ethnic cleansing, and massive displacement of African groups in Darfur⁽¹²⁾.

The conflict in Darfur has psychologically and economically impacted the citizens and the country, respectively. Human Rights Watch (2004) reported ethnic cleansing by the government militia, mass killing of civilians, massacres, mass executions, ariel bombardment of civilians, systematic targeting of ethnic groups, destruction of food stocks, looting of property, rape, crimes against humanity, and genocide⁽¹³⁾. Although the death toll in the Darfur conflict remains contested, the International Community claims that 400,000 people have died, while the government estimates that 10, 000 people have died with millions of IDPs and refugees. As is typical to armed conflict situations, the psychological effect that the Darfur conflict has on the survivors is unmistakable. Moreover, studies conducted on IDPs who survived the Darfur conflict found that the survivors have developed serious mental health issues⁽¹⁴⁾, particularly women⁽¹⁵⁾. Hawa, a 41-year-old female survivor of the Darfur conflict witnessed a gang rape incident and describes her experience in the following excerpt from an interview conducted by the author in Omdurman, Sudan:

«One day, we were in a group of women. We went far from the village to fetch firewood. A group of Arab Janjaweed militias attacked us and kidnapped four girls from the group. I resisted them and started screaming, I was beaten hard, and they broke my arm. Later, we found the girls in a distant hill in a miserable condition because the Janjaweed had raped them. We took them to the village; we did not report the incident to the police

(12) John Hagan, «Prosecuting Ethnic Cleansing and Mass Atrocity in the Former Yugoslavia and Darfur», *Journal of Scandinavian Studies in Criminology and Crime Prevention* 10, no. S1: 26-47, <https://doi.org/10.1080/14043850903367702>.

(13) «Darfur Destroyed. Ethnic Cleansing by Government and Militia Forces in Western Sudan», *Human Rights Watch*, accessed May 7, 2021, <https://www.hrw.org/report/2004/05/06/darfur-destroyed/ethnic-cleansing-government-and-militia-forces-western-sudan>.

(14) Abdalla A. R. M. Hamid, and Saif A. Musa. «Mental Health Problems among Internally Displaced Persons in Darfur», *International Journal of Psychology* 45, no. 4: 278-85, <https://doi.org/10.1080/00207591003692620>.

(15) Saif A. Musa, and Abdalla A. R. M. Hamid. «The Darfur Crisis: Associated Mental Health Problems Among Internally Displaced Women», *Journal of Muslim Mental Health* 5, no. 1: 120-30, <https://doi.org/10.1080/15564901003628810>.

because we feared they would be accused of adultery. The girls were treated with traditional medicine. Some of them developed mental health issues»⁽¹⁶⁾.

Besides human factors, the Darfur conflict has significantly affected the country's economy. It was estimated that the war cost Sudan 13% of its gross domestic product (GDP). According to a study that estimates the economic cost of the Darfur conflict:

«The conservative estimate of US \$30.5 billion (for the 2003-2009 period alone) is a significant amount of resources for Sudan –171% of 2003 GDP. While the country has spent only 1.3% and less than 1% of its budget on public health and education, respectively, for more than two decades. Even setting aside the tremendous human cost, it is economically infeasible to continue a war that consumes 13% of GDP in a society that lacks the means to provide the basic entitlements of education, food, health care, and shelter to its people. Sudan is a poor country, and its meager resources ought to be directed to building its human capital, providing clean water, and establishing a better health system»⁽¹⁷⁾.

Given the deteriorated Sudanese economy which lacks the means to provide even the most basic entitlements such as education, food, health care, and shelter to its people, the economic cost of the Darfur conflict is extremely high.

The Government of Sudan's Approach Toward the Darfur Conflict

Denial and misinformation have been characteristic of the Sudanese government's approach towards the Darfur conflict. In 2006, when the international community estimated that at least 200, 000 had been killed in Darfur, former President Omar al-Bashir denied the existence of a humanitarian crisis in the region and declared that the death toll was less than 9, 000, and not tens of thousands⁽¹⁸⁾. Over time, the death toll multiplied and was estimated to be between 100,000 and 400,000, but government officials denied them yet again and believed that the number was grossly

(16) Hawa, interview, April 2010.

(17) Hamid E. Ali, «Estimate of The Economic Cost of Armed Conflict: A Case Study from Darfur», *Defence and Peace Economics* 24, no. 6: 503-19, <https://doi.org/10.1080/10242694.2012.723154>.

(18) «Al-Bashir: The Death Toll in Darfur Does Not Exceed 9, 000», *BBC Arabic*, November 27, 2006, http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_6176000/6176856.stm.

inflated⁽¹⁹⁾. Another quality that defines the government's response to the conflict is censorship and a crackdown on civil society organizations working on the Darfur conflict. After the indictment of former President al-Bashir by the International Criminal Court in 2009/2010, the government of Sudan's response was to fire most of the international humanitarian organizations working in Darfur. In 2013, former President al-Bashir admitted to his government's responsibility for the bloodshed in Darfur and stated «We have killed the people of Darfur for the most trivial reasons»⁽²⁰⁾.

The International Community's Response to the Darfur Conflict

Despite the Sudanese government's attempt to conceal the conflict, the crisis eventually caught the attention of the international community in 2004. The Security Council not only condemned the human rights violations committed against the civilians of Darfur but also placed the responsibility to protect them in the hands of the government. Subsequently, an International Commission of Inquiry was formed in 2005, and the commission recommended that the international community should intervene to protect the people of this region. Furthermore, in 2004, the African Union Mission in Sudan was established and achieved some stability and improvement in humanitarian conditions in Darfur, but because it was underfunded, the mission was less effective in responding to the deteriorating security situation⁽²¹⁾. In 2007, Sudan consented to the establishment of the African Union-United Nations Hybrid Operation in Darfur (UNAMID), a hybrid mission that aimed to protect the civilians in the area⁽²²⁾. UNAMID's mission, however, was met with hostility, suspicion, and lack of cooperation from the Sudanese government⁽²³⁾. Nonetheless, a study has shown that the UN troop deployment in Darfur has lowered the civilian killings at the local level⁽²⁴⁾.

(19) Scott Straus, *Making and Unmaking Nations: War, Leadership, and Genocide in Modern Africa* (New York: Cornell University Press, 2015).

(20) «Al-Bashir: We Have Spilled the Blood of the People of Darfur for Trivial Reasons», *Rasd Sudan*, YouTube video, 4:43. August 5, 2013, <https://www.youtube.com/watch?v=VsmdmuDEj04>.

(21) Seth Appiah-Mensah, «The African Mission in Sudan: Darfur Dilemmas», *African Security Studies* 15, no. 1: 1-19, <https://doi.org/10.1080/10246029.2006.9627384>.

(22) Luke Glanville, «Darfur and the Responsibilities of Sovereignty», *The International Journal of Human Rights* 15, no. 3: 462-80, <https://doi.org/10.1080/13642981003608245>.

(23) Tanja R. Müller, «Protection of Civilians Mandates and 'Collateral Damage' of UN Peacekeeping Missions: Histories of Refugees from Darfur», *International Peacekeeping* 27, no. 5: 760-84, <https://doi.org/10.1080/13533312.2020.1803745>.

(24) Anup Phayal, «UN Troop Deployment and Preventing Violence Against Civilians in Darfur», *International Interactions* 45, no. 5: 757-80, <https://doi.org/10.1080/03050629.2019.1593161>.

Peace Initiatives in Darfur

With the aim of ending the conflict, the government of Sudan signed several peace agreements with the Darfuri rebel groups. In 2006, the Sudanese government signed the Abuja Peace Agreement with the SLM led by Minni Minnawi, while other movements such as JEM and the Sudan Liberation Army rejected the agreement. Coordinated by the AU, the agreement included several issues such as power-sharing and disarmament, demobilization, and reintegration (DDR) of the Janjaweed militias. As part of the agreement, a committee was established to work with the UN to help refugees and IDPs return to their homes. In 2011, the Doha Peace Agreement was signed between the Government of Sudan and the Justice and Liberation Movement. This agreement established funds to compensate the victims of the Darfur conflict.

In 2018-2019, Sudan witnessed uprisings demanding freedom, peace, and justice, leading to the ouster of former President al-Bashir in April 2019. The transitional government that took power in August 2019 prioritized achieving peace with the armed groups. After 10 months of negotiations, the government of Sudan signed the Juba Peace Agreement with the Sudan Revolutionary Front and SLM. Besides ending the war, the agreement included political, security, power, and wealth sharing clauses. The IDP and refugee files were identified as the topmost priorities of the Juba Peace Agreement, where it was agreed that the signatories will ensure the return of IDPs and refugees, the provision of security, stability, and basic services. Achieving justice and societal reconciliation, restoring rights and compensation are among the most important gains of the Juba Peace Agreement files. However, lessons learned from previous peace agreements was that these agreements remained on paper, while in reality, nothing was implemented, and the displaced persons continue to suffer in the displaced camps.

Internally displaced persons and conflict-related sexual violence in Darfur

The conflict between the government and the rebel groups in Darfur forced more than 1.5 million people to flee their home areas and live in IDP camps for nearly two decades. In addition to that, more than half a

million live as refugees in neighboring countries. The IDP camps are mainly run by humanitarian and voluntary organizations, and the absence of the government's role in the camps is evident. The IDP camps are distributed across Darfur and are located around the big cities such as al-Fashir, Nyala, Geneina, and Zalinji⁽²⁵⁾. The UN Office for the Coordination of Humanitarian Affairs estimates that more than 60% of the refugee population are children and considers women and children to be most vulnerable to GBV and sexual violence during daily movements to exercise their livelihood activities around the camps⁽²⁶⁾.

Women and girls in IDP camps in Darfur are often subjected to rape by armed groups who attack the camps. Rape as a weapon of war is common, and survivors tend to conceal this experience fearing the stigma associated with it. The following testimonies extracted from reports by Eric Reeves reveal the experiences of women subjected to sexual violence and demonstrate the nature of the violence they experienced in Zamzam IDP camp in North Darfur.

«My name is Arafa Hamied A. I'm 21-year-old now. For 10 years I have lived here in Zamzam camp with my mother, three older sisters, and one young brother. I have been raped twice by the Janjaweed. First time I was only 11 years old, and I can clearly remember what happened to us in that rainy season on our farm. I think of that day, and I experience emotional breakdowns. What breaks me down is the crying voice of my mother. She was badly beaten unconscious, before our eyes, by five strong men. The second time was two years ago while I was on my way to fetch firewood with friends. This second time it was very painful but they slapped me hard on my face and I stopped fighting back. After this last incident, I went through a very difficult time. I couldn't sleep for nearly one year. I lost too much weight, was frightened of going out, and lost confidence in everything and everyone»⁽²⁷⁾.

(25) Munzoul Assal, «Humanitarian Situation in Darfur and the Future of IDPs and Refugees», In *Darfur the Crisis Harvest after a Decade*, eds. Abdlwahab al-Afandi & Sidi A. H. A. Salim (Doha: Aljazeera Center for Studies, 2013), 189-211.

(26) «Humanitarian Needs Overview», **United Nation**, accessed May 7, 2021, <https://reliefweb.int/report/sudan/sudan-2017-humanitarian-needs-overview-dec-2016>.

(27) Arafa Hamid, Interview by Team Zamzam, in Eric Reeves, «Responding to Sexual Violence in Darfur», *Sudan Research, Analysis and Advocacy blog*, June 29, 2021, <https://sudanreeves.org/2021/06/29/project-update-june-29-2021-responding-to-sexual-violence-in-darfur/>.

«My name is Halima, I am 17 years old now, I have three sisters and two young brothers and we all now live in Zamzam with our widowed mother. My father was killed in the Darfur war and I was two years old when we came to Zamzam (...) Last year, while we were at the farm with my mother and two of my siblings, five Arab armed men came to us from the Galab area. They forcibly took me with them, and during this incident my mother tried to rescue me, but she was severely beaten, and they hit her on the head. My mother lost her balance and fell to the ground. From there they took me to their tent on camel-back, about an hour away from our farm. After two days of [ongoing sexual assault] they released me and threatened me that if I were to say anything to anyone, my family would be subject to murder»⁽²⁸⁾.

Sexual violence against women in IDP camps continues to occur not only because the perpetrators are not held accountable but also because the women survivors fear speaking out, and because rape has become part of their everyday lives. Most crucially, rape survivors do not only experience physical injury but also face long-term emotional, psychological, and social damages.

Mapping Institutions Responding to Conflict-related Sexual Violence in Darfur

Since the eruption of the conflict in Darfur in 2003, GBV has been widespread, and rape has been used as a weapon of war against civilians⁽²⁹⁾. Civil society, especially human rights groups, campaigned to force the government of Sudan to recognize the prevalence of sexual violence related to the conflict in Darfur and to acknowledge the involvement of the government's forces in war crimes including sexual violence against civilians. In 2008, the UN Security Council adopted Resolution 1820 against

(28) Halima, Interview by Team Zamzam, in Eric Reeves, «Project Responding to Sexual Violence in Darfur», *Sudan Research, Analysis and Advocacy blog*, April 30, 2021, <https://sudanreeves.org/2021/04/30/project-responding-to-sexual-violence-in-darfur-april-30-2021-update/>.

(29) John Hagan, «Prosecuting Ethnic Cleansing and Mass Atrocity in the Former Yugoslavia and Darfur», *Journal of Scandinavian Studies in Criminology and Crime Prevention* 10, no. S1: 40, <https://doi.org/10.1080/14043850903367702>.

the use of rape and all forms of sexual violence as a tool of war and demanded the protection of civilians from sexual violence⁽³⁰⁾.

In August 2019, a transitional government took power in Sudan following the December 2018 revolution that ousted the former authoritarian regime in power for thirty years. Contrary to the situation under the former Inqaz regime which was hostile towards the recognition of the prevalence of sexual violence during the Darfur conflict, the major power shift in Sudan presents a noble opportunity for the protection of women and girls against gender-based and conflict-related sexual violence. In this regard, a new national framework has been established by the transitional government to ensure the government's commitment to protect women against gender-based sexual violence including laws and defense establishments. Within the new framework, special institutions are to be created to protect women against gender-based and conflict-related sexual violence. Campaigns to boost public awareness about gender-based and conflict-related violence have been considered a key in the new framework. The media is to play a central role in these campaigns. The new framework has also stressed the rule of law as a key element of the process of elimination of sexual violence against women and girls. Without a system for laws, institutions, norms and community, and accountability for all actors—including government and private ones—justice is far from being achieved. In an unprecedented manner, a government soldier has been handed recently to the police for committing an act of sexual violence in Geneina city in Western Darfur.

Various organizations are working to mitigate the prevalent conflict-related sexual violence against women. These organizations include: The Unit for Combating Violence Against Women, SEEMA Center for Training and Protection of Women and Child's Rights, Ahfad Trauma Center, and the UN Population Fund (UNFPA).

(30) *Resolution 1820* (2008), United Nations Security Council, accessed July 21, 2021, <https://undocs.org/S/RES/1820>.

The Government of Sudan's Unit of Combating Violence against Women (CVAW)

In 2020, the Unit for Combating Violence against Women and Children, in cooperation with the UNFPA, launched a helpline for cases of GBV. The hotline provides Sudanese women subjected to GBV with psychological help, legal advice, and referrals for medical aid. However, the unit suffers negligence and lack of support from the government and relies on support from the UNFPA⁽³¹⁾. In 2020, the activities of the unit included the celebration of the International Day for the Elimination of Sexual Violence in Conflict on June 19 and Sudan's commitment to the protection of women and girls. Aside from the documentation of incidents of violence against women, the unit produces material such as short films to raise awareness to combat violence against women in Sudanese society.

In November 2020, CVAW launched the 16-day campaign to combat all forms of GBV in society. The campaign consisted of various events and meetings to raise awareness about non-violence in Sudan. It discussed concepts such as social stigma inflicted on victims of sexual violence when reporting on sexual violence. If not protected, victims of sexual violence may face double violence and their right to access justice is often compromised. Besides the social stigma, the campaign also touched on the psychological effects of violence against women, such as loss of freedom, self-doubt, fear and depression. CVAW is also concerned about women workers in the informal economy. They are mostly women who escaped war zones and settled in the margins of major cities and towns. Women in this sector face all kinds of GBV, inequalities and negative discrimination including verbal and physical abuse, forced labor, sexual assault, rape, and violations of sexual and reproductive health. CVAW works towards stopping child and forced marriage. This type of marriage can be considered a form of violence against the women and girls who are subjected to it and who lack conscious consent and are subjected to a series of violence, partner power and harmful practices.

(31) Darfur 24, «The Unit for Combating Violence against Women Complains of Lack of Financial Support», March 31, 2021, <https://bit.ly/3vAAvM8>.

Through the organization of events and in cooperation with UNAMID, the Unit for Combating Violence against Women worked towards the integration of gender issues in peacekeeping and DDR operations. During these events, the notion of «gendering peace» is stressed to establish mechanisms for protection and prevention of GBV in the DDR and reconstruction programs.

The conditions of wars, armed conflicts and social violence impose a fragile security environment where cases of violence in its various forms including physical, psychological, and material violations of civilians are strongly active. Women, children, and the elderly are more likely to bear the costs of violence and its heavy burden on societies, as these violations lead to compromising the fabric of society. In this regard, CVAW stresses the importance of ensuring the rights and services that civilians benefit from to ensure safety from chronic threats such as hunger, disease and oppression. This is an important priority that requires us to immunize society from resorting to armed conflict, by spreading a culture of peacebuilding and conflict resolution. CVAW has also been involved in the process of drafting a law on combating violence against women in collaboration with relevant institutions including law enforcement agencies, civil society organization and judicial bodies. The new law does not only put the responsibility to protect women and girls in Sudan at the hand of the government, but it also defines the different types of violence against women and links them to criminal law, which would facilitate the abused women's access to justice.

***SEEMA Center for Training and Protection
of Women and Child's Rights***

The SEEMA Center for Training and Protection of Women and Child's Rights is one of several non-profit organizations that aim to protect women and children rights in Sudan. Established in 2008, the center offers free services to survivors of violence, including legal, medical, economic, and social services. It also provides mental health services and support for survivors of violence. In addition, the center aims to increase the capacity of service providers, such as medical doctors, lawyers, and media workers, to positively change the life of survivors. Through several workshops and training courses, the SEEMA center relentlessly works towards raising awareness to mitigate violence against women and children and protect the

survivors. Targeting all age groups in society, the center created partnerships with relevant governmental institutions and civil society organizations working on the protection of women and children rights in Sudan.

Ahfad Trauma Center

Affiliated with the School of Psychology at Ahfad University for Girls, the Ahfad Trauma Center specialized in mental health and psychosocial support services. The center supports individuals and communities experiencing shock and disaster and it strives to rebuild the lives of local communities and to provide psychosocial support and health care to enable them to live together safely and in a spirit of hope. The center also works to respond to community and individual needs through special programs for the treatment of psychological trauma, psychological counseling, and protection programs. The center provides specialized psychological counseling and other services free of charge including a hotline for psychological support. In addition, the center offers training programs and offers advanced and specialized mental health programs. It also provides integrated educational programs and tools to develop skills and raise community awareness about the available services and the importance of combating the stigma experienced by communities affected by psychological trauma. Since 2012, the Ahfad Trauma Center has established independent trauma centers in states across Sudan, dedicated to serving communities that have been affected by war, conflict, and migration, including in Darfur, Blue Nile, White Nile, Kordofan and Gadrif states.

United Nations Population Fund

Established in 1969, UNFPA is an international development agency that works to advance the rights of women, men, and children, enabling them to enjoy a healthy life and equal opportunities. In the context of the Darfur conflict, UNFPA has recognized the prevalence of rape as a war crime and responded to improve the lives of sexual violence survivors. In collaboration with the Ministry of Health, UNFPA provides care and life-saving services for IDP survivors of gender-based and sexual violence in conflict zones in Darfur. To overcome the prevailing stigma that penalizes victims of assault and harassment, UNFPA established a facility for survivors of sexual violence to receive counseling, treatment, and other support that

ensures victim's confidentiality and caters to their privacy rights. In this regard, UNFPA care services include hygiene supplies, information about medical and psychological care, and temporary reproductive health clinics⁽³²⁾.

In its effort to care for survivors of sexual violence, UNFPA strives to make place the survivor at the center by enabling them to choose freely from the variety of services they provide. The centrality of the survivor in case management is ensured through principles of safety, confidentiality, and respecting the desires of the victim without interference from service providers. The UNFPA services package for sexual violence survivors includes health, psychological, security, and legal components. Present in four Darfuri states, UNFPA health care service units offer emergency medical care and social support to victims of sexual violence. These units also train health providers in Darfur to provide general psychological care for sexual violence survivors and to make case referrals to specialized psychological support and medical service. The social and mental health support response contains a network of specialists present in all states to support the survivors in the long term, either individually or collectively. Besides the physical consultations, sexual violence survivors have the option to contact the social specialists through a hotline that connects the survivor to the emergency service provider. The hotline proved instrumental for survivors who for any reason are unable to attend sessions in person. However, what is still lacking in the management of cases of sexual violence survivors is the unavailability of female police officers and the absence of specialized spaces for reporting sexual violence. Women and girls who survive sexual violence are often reluctant to speak openly with a male officer in a public environment that does not provide privacy. Often, male police officers present at the police station lack the basic training to handle cases of sexual violence victims. The judiciary still lacks the capacity and sensitivity to deal with such violence.

(32) «Pregnant Women, Survivors of Violence at Risk in West Darfur Clashes», *United Nations Population Fund*, last modified February 5, 2020, <https://www.unfpa.org/news/pregnant-women-survivors-violence-risk-west-darfur-clashes>.

Response to Conflict-related Sexual Violence in Darfur IDP Camps

The prevalence of conflict-related sexual violence in Darfur is associated with the crisis. Women living in and around IDP camps are the most vulnerable to such violence, especially during clashes between government forces and rebel groups⁽³³⁾. To protect women and girls from such violence, both military and community measures have been regarded as effective. In terms of security measures, UN troops have been deployed to prevent violence against civilians, including women subjected to sexual violence⁽³⁴⁾. At the grassroots level and since 2009, community initiatives for the protection of women from conflict-related sexual violence have proved to be efficient. Community initiatives include Community Protection Networks (CPNs), community police in the IDP camps, as well as religious and traditional leaders⁽³⁵⁾. The former regime that was ousted in April 2019 has been hostile towards the CPNs and often undermined their work among the IDP communities. Clandestineness characterized the work of CPN to avoid authorities' harassment. This left many victims of sexual violence untreated and many perpetrators escaping punishment. Due to the lack of governmental support, CPNs relied extensively on the support of civil society and international non-governmental organizations.

CPN, which was created as the community's response to the widespread conflict-related sexual violence in Darfur's IDP camps, mostly consists of women volunteers who survived violence associated with the conflict. CPN enhances the protection of women and children vulnerable to sexual violence and helps the survivors to overcome the stigma and trauma related to mental illness. Their activities not only include documentation of sexual violence incidents but also provide emergency care services for the victims. In addition, CPNs play a central role as Early Warning Systems to protect women and girls against violations in the displaced communities. Divided into cells in each IDP Camp in Darfur, CPN teams secretly visit the survivors

(33) «Sudan (Darfur)», Office of the Special Representative of the Secretary-General on Sexual Violence in Conflict, *United Nations*, accessed July 21, 2021, <https://bit.ly/3KaOmNe>.

(34) Anup Phayal, «UN Troop Deployment and Preventing Violence Against Civilians in Darfur», *International Interactions* 45, no. 5: 757-80, <https://doi.org/10.1080/03050629.2019.1593161>.

(35) «Sexual Violence in Conflict Situations», *United Nations*, accessed July 21, 2021, <https://bit.ly/3KaOmNe>.

at home to provide psychological and social support and refer them to the hospital for medical care when needed. The stigmatization of rape victims is common among some Darfuri communities. Single women sexual violence survivors may face serious consequences such as being rejected by men for marriage. In this regard, CPN works to raise communities' awareness to overcome the stigma associated with rape.

CPN's mission does not go unchallenged. For instance, some families refuse CPN's services for fear that their daughter's sexual violence experience would be disclosed, which is considered not only degrading for the survivor but also compromises the entire family's reputation. Despite this, highly trained CPN members might find a way to reach the survivor to make her aware that she has rights, either through a legal framework or through humanitarian assistance. Besides cultural challenges, the lack of economic means for both the victims and the members of CPN represents a serious challenge that undermines the efficiency of their work in the IDP camps. In this regard, CPN members advocate for the economic empowerment of sexual violence survivors through the provision of income-generating projects, which will motivate them to overcome the traumatic experiences they went through. Being present at the local level, CPNs lack adequate training, especially in promoting women's role in the protection and prevention of gender-based sexual violence against women and children in the IDP camps. In the event of sexual violence, IDP camps lack the presence of a therapist to treat the effects of violence and clinical examination of the victims.

Since the December 2018 revolution, CPN members' expectations from the transitional government grew significantly as they demanded more meaningful involvement from the Ministry of Social Affairs to promote their work in the IDP camps in Darfur. According to CPN members, the prevalence of sexual violence within the IDP communities and beyond is the result of a serious socio-economic problem, leading to unemployment and drug addiction among youth. In the quest to mitigate such violence in these camps, CPN leaders believe that socio-economic transformations should be combined with legal reforms. Moreover, CPN members are advocating for legal reforms that establish more laws that would deter the perpetrators of sexual violence. Legal procedures need to be simplified and made accessible

to survivors to preserve their rights and prevent perpetrators from escaping punishment. This situation matches Tønnessen's statement⁽³⁶⁾ that Sudan's Criminal Law of 1991, which continues to categorize rape as a form of adultery, is problematic to sexual violence survivors in the Darfur conflict and needs urgent reform.

Discussion and Conclusions

War and armed conflicts have left many Sudanese women and girls vulnerable to different forms of conflict-related sexual violence, displacement, and more. Hence, for them, justice and peace are a priority. Such incidents continue to occur daily in war zones, thus reminding everyone that there is still a long road ahead of us to achieve peace and security for women and girls during and after the war. Particularly in Sudan, mechanisms for the prevention of sexual violence remain significantly weak. The figures and reports on girls' vulnerability to sexual violence are alarming, not only because they show the frequency of these incidents but also because they show the long-lasting negative impact these shocking experiences have on the survivors and the whole social fabric. The fact that girls continue to be subjected to rape by armed militias while performing daily livelihood activities shows the lack of security and demonstrates that the protection of women and girls is not taken seriously. The steadiness of these incidents is a result of an interaction between three elements: internal displacement of communities from war, the prevalence of GBV in the society combined with rape culture, and the emergence of sexual violence as a weapon of war.

As mentioned in the previous sections, the Darfur conflict is caused by a combination of socio-political, economic, and environmental factors, and this multifaceted cause combined with the multiplicity of actors involved has intensified the vulnerability of women and girls to such extreme violence in this complex context. Consequently, girls and women are subjected to the human, psychological, and economic effects of the war. The former regime's response, attitude, and approach towards

(36) Liv Tønnessen, «From Impunity to Prosecution? Sexual Violence in Sudan beyond Darfur», *Norwegian Peace Building Center*, accessed May 21, 2021, <https://www.cmi.no/publications/4401-from-impunity-to-prosecution>.

the Darfur conflict demonstrated indifference and insensitivity towards women's and girls' issues. This is particularly so during armed conflict. Although the international community's response and involvement in the conflict demonstrated more sensitivity towards women's and girls' safety comparatively, only little has been achieved on the ground. This is explained by the hostility of the previous government towards international NGOs, and the lack of coordination between the various actors at the local level. On paper, all the peace agreements that have been signed between the conflicting actors and the government to end the conflict and bring peace have vaguely mentioned IDP issues, and the implementation of these agreements remains far from being achieved.

Conflict-related sexual violence in the displaced communities in Darfur is a serious problem that women and girls encounter daily. Various humanitarian and volunteer organizations have responded to this issue by working systematically to prevent, protect, and support survivors of such violence. Local, national, and international actors cooperated to combat violence against women and girls, especially those in the conflict zones. These initiatives were created to support survivors and provide psychological, legal, and medical assistance. Although few of these organizations have offices within the conflict zones, their reach remains limited and they are often underfunded. In addition, the lack of coordination between the various actors negatively affects the service and care these organizations could potentially provide for the survivors.

Furthermore, the lack of protection to victims of sexual violence is not limited to conflict zones only. Rather, it is a structural issue related to the laws and practices at the national level which remain incapable of responding to violence against women⁽³⁷⁾. The government of Sudan declared a National Strategy for Combating Violence against Women (2015-2032) emphasizing the zero-tolerance policy against all forms of GBV, including conflict-related sexual violence. In addition, it outlines many multi-sectoral policies and programs, initiatives, measures, and mechanisms to prevent and respond to

(37) Liv Tønnessen, «From Impunity to Prosecution? Sexual Violence in Sudan beyond Darfur», *Norwegian Peace Building Center*, accessed May 21, 2021, <https://www.emi.no/publications/4401-from-impunity-to-prosecution>.

such violations. The strategy includes various relevant institutions such as the Humanitarian Aid Commission, DDR Commission, National Council for Child Welfare, and Unit for Combating Violence against Women and Children, as well as Family Police Units. Training and capacity building have also been undertaken by the Sudanese government to meet these challenges. However, the effectiveness of these policies and measures have had no impact on the women and girls who are vulnerable to sexual violence in conflict zones, and they remain far from the reality of the victims. For instance, several rape victims have attempted to contact the hotline created for vulnerable women and girls subjected to GBV in Sudan, but there were no responses⁽³⁸⁾. This is a clear demonstration of the gap between the documented policies and the reality, and the fact that the government needs to live up to the expectations of survivors of sexual violence and their basic human rights. NGOs involved in conflict-related GBV face some ethical dilemmas and are criticized for not being sensitive enough towards the social needs of the survivors. There are incidents where NGOs have exposed some of the survivors of sexual violence and published their cases without their consent. In line with Aisha Al Hajj's argument⁽³⁹⁾, the study demonstrated that victims' rights to self-determination are not respected, and the service providers impose some strategies that might not suit all the victims, such as integrating them in entertainment programs without considering their mental and psychological conditions.

(38) «How a Phone Number Is Preventing GBV in Sudan», *Reliefweb*, May 20, 2020, <https://reliefweb.int/report/sudan/how-phone-number-preventing-gbv-sudan>.

(39) Aisha Al Hajj, «The Right to Self-Determination for Survivors of Sexual Violence», May 22, 2021, <https://bit.ly/36TKdyR>.

المحور الرابع
حيوات الطفلات في الحروب:
مقالات ووجهات نظر وشهادات

بريد الذاكرة الهاربة من الحرب.. العالقة في براشنها

«أنتم جبناء، أنتم من صوّت لهذه الطبقة التي تحكمنا»، هكذا رمى أبناء الجيل المُراهق في وجهنا بحقيقة ما يفكرون به تجاه جيل الآباء والأمّهات في لبنان اليوم.

في حراك العام 2019 الشعبي في لبنان، أو ما يُسمّى بتاريخ انطلاقته 17 تشرين⁽¹⁾، تردّدت أكثر من مرّة، على شاشات التلفزة بشكل خاصّ، صرخات طلاب المرحلة الثانويّة، وهم يصيغون بتعبيراتهم الخاصّة الغضب ضدّ الجيل الأكبر. بين الغاضبين، غاضبات من جيل المُراهقين، وبين المغضوب عليهم، بنات جيلي، أمّهات يتحمّلن هنّ أيضاً مسؤوليّة بقاء المنظومة الحاكمة. وقّع التّهمة، لا الصرخة، ثقيل وجارح، بالتحديد لأنّه يَضَع جيل الحرب⁽²⁾ - المولود خلالها - في دائرة لم يتنبّه إلى

(1) انطلقت في 17 تشرين الأوّل/أكتوبر 2019 موجة من الاحتجاجات الشعبيّة التي شاركت فيها أعداد كبيرة من اللبنانيين، تصل في معظم التقديرات إلى مئات الآلاف. استمرّت الاحتجاجات بوتيرة مُختلفة لأكثر من شهرين، وقد عمّت مختلف المناطق اللبنانيّة، وشارك فيها مواطنون من بيئات وانتماءات سياسيّة مُختلفة، وُرفعت شعارات في وجه مكوّنات السلطة اللبنانيّة، وذهبت بعض المجموعة إلى المُطالبة بإسقاط الحكومة وإنهاء عهد البرلمان القائم والمُطالبة بانتخابات نيابيّة مبكرة، وتميّزت بمُشاركة مجموعات أخرى في الاحتجاج ضدّ السياسات المصرفيّة في البلاد.

(2) المقصود بهذا التعبير هو الحرب الأهليّة اللبنانيّة التي استمرّت لنحو 15 عاماً (1975 - 1990)، وتوقّفت بفعل توافقٍ خارجيّ =

مسؤوليته عنها، ولأنّ العبارات التي أطلقت تُبيّن إلى حدّ كبير خيبة الجيل الأصغر وانقطاع التواصل ما بين هذين الجيلين، أدركنا أنّ البريد لم يحمل رسائل مُتبادلة بين الجيلين. هذه المقالة هي محاولة لملء فراغ البريد المعطل، وهي رسالة لا تحمل تبريراً، إنّما تفتح النقاش، كما رسائل العرب قديماً، في أبواب عدّة، لعلّ الكلام المكتوب يردم الهوة التي صنعها الـ«لا» كلام.

في باب المراهقة ومراتها

تحمل ملامح مرحلة المراهقة كما عاشها جيلنا، المراهقة في ظلّ الخطر على الحياة، الكثير من الندوب والمخاوف، وتحمل قلقاً لا ينطفئ. هذه الجروح وإنّ تمتّ تغطيتها بالمساحيق أو عمليات التجميل أو آليات الإنكار المتعدّدة، فإنّها عميقة تطفو آثارها عند كلّ انفجار أو اهتزازٍ أمنيّ، وهي المعوّق الأوّل والسبب الرئيس لانكفاء بنات وأبناء جيل الحرب طويلاً عن السياسة، ومن أسباب الاستسلام، غير المُعلن أحياناً، لفرحة الوعد بحياة آمنة، حياة لا تتحكّم بها لغة البنادق والقصف المدفعيّ والسيّارات المتفجّرة المُتَنقِلة، لغة الموعد اليوميّ مع الحواجز التي تمنع الحرية وتقيّد الحياة.

ثمّة ما يجمع بيننا، نحن وأنتم، تلك الأوقات الطويلة التي نُضيها أمام المرأة. لكنّنا وُلدنا وعشنا المراهقة في سنوات الحرب، كنّا حين ننزّل للخروج من المنزل ننجح أحياناً في لفتِ أنظار الشبان، أو كانت مشاورنا تنتهي أحياناً أخرى في مخبيءٍ ما، نُهرول وقد بعثرت جمالنا خطوطاً من سواد الدخان الصاعد من تفجير، أو دماءً ضحيّة وقعت بطلقة قنّاص. كان ثمّة طريق نحو الحرية نشقّه بعنادٍ أو مُواربةٍ أو مُمالةٍ بحثاً عن مساحة للحبّ، للشقاء، للطريق نحو «الآخر»، في بلد الكانتونات التي كانت مُقفلة بسلاح الدم والنار، أو كنّا نستسلم بفعل الدعاية المكثّفة لحدود كانتوناتنا كأنّها مساحة العالم كلّ.

كنّا نكبر في الحرب، وكانت الحرب تغرق أكثر فأكثر في الوحول الطائفية.

نحن أردنا أن نكون أنتم، أن نعوض ما فاتنا بالسطو على الشباب الدائم، جاءت عمليات التجميل كمعول يمدّ نضارة المراهقة وفترة الشباب الأولى، وغرفنا من الحياة ما

= أميركيّ - سعوديّ - سوريّ، تمّت ترجمته من خلال مؤتمر الطائف الذي عُقد في مدينة الطائف السعودية، وانتهى بإعلان وثيقة (دستور مجدّد) للبنان.

لم نشبع منه ونحن صغيرات. لم نُقَم بحياكة شالات الصوف لكنّ، كما فعلت أمّهاتنا، ولم نروِ لكنّ شيئاً عن البلاد، وعن النّزاعات والتحدّيات التي تُمرّق منطقتنا، أردنا لكنّ حياةً هانئة، في قوقعةٍ ورديةٍ منفلة من كلّ ركيزة، ولا تطلّ على الواقع في بلادنا. أردنا أن نكون ما دفعناكنّ إليه، أو ما حلمنا بتأمينه لكنّ، نحن بنات الجيل الذي أُتيح له قسطنّ وفيرٌ من التعليم، أردنا أن نكون - بالمال - ما يتحقّق لليافعين في الخارج: مساحات من التدريب الرياضي، والموسيقى، والفنون التشكيلية والغناء...، لكنّنا لم نتعلّم كيف نكتشف الهواية داخل كلّ واحدة منكنّ، أردنا اكتمال الصورة التي لم تتحقّق لنا فقط.

في باب العيش والحرية

لما انتهت الحرب، كنّا مُتعبات ومُتعبين من الأقفاس التي سُجنّا فيها منذ الولادة، كنّا نبحث عن آمالٍ للعيش، مساحات للفرح، لتنشّق هواء لا ينقطع حين تتكدّس الأجساد لأبّام في الملاجئ. تزامنت نهاية الحرب مع ولادة «عالم جديد» تقوده الولايات المتّحدة وحدها، أخذنا بإرادتنا نحو نموذج اقتصاديّ شموليّ يُسيطر على العالم. كانت النيولبرالية⁽³⁾ تُراقصنا كما تُراقص الأفعى جمهور الحاوي، إذ إنّ السحر الذي مارسته

(3) ظهر مصطلح النيولبرالية لأوّل مرّة في العام 1884، وهو وفق تعريف الموسوعة الفرنسية، عقيدة تحمي الحرية القصوى للشركات وترفض تدخّل الدولة في شؤون السوق والحياة العامة إلا بحدود نادرة، للمرجعة:

<https://www.encycopedie.fr/definition/n%C3%A9olib%C3%A9ralisme>

في ثلاثينيات القرن العشرين، بدأت مُحاولات إعادة تعريف النيولبرالية، لتحديد حجم تدخّل الدولة في الاقتصاد، لكنّ هذا المصطلح بقي قليل التداول في الأدبيّات العالميّة السياسيّة والاقتصاديّة، حتّى بداية السبعينيات من القرن العشرين، من جهة بسبب تزايد قوّة مدرسة فريدمان الاقتصاديّة وحضورها، ومن جهة أخرى مع تولّي دونالد ريغان الرئاسة في الولايات المتّحدة ومارغريت تاتشر في بريطانيا، وقد أطلقا ما يُعرف بالعصر الذهبيّ الأوّل لسيطرة النيولبرالية في الفكر والاقتصاد من حيث تضخيم عمليّات الخصخصة وتولّي القطاع الخاصّ والشركات الكبرى العمليّات الماليّة والأسواق، على حساب القطاع العامّ، وفق ما جاء في كتاب دافيد هارلي

«A Brief History Of Neoliberalism» (Oxford University-2005).

شكّلت النيولبرالية عقيدة للمنظومة المُعولّمة بقيادة الولايات المتّحدة كقطب عالميّ واحد مند بداية التسعينيات من القرن الماضي مع تولّي جورج بوش الأب الرئاسة في الولايات المتّحدة وتقدّم المُحافظين الجُدد في السيطرة على مفاتيح الحكم في بلاده، وترجم ذلك على المستوى العالميّ من خلال مفاعيل حرب الخليج في العام 1991. وقد سمحت هذه المنظومة بسنّ قوانين ضرائبيّة وماليّة وبواقع اقتصاديّ لصالح الشركات العابرة للقارّات، وفق كتاب انتصار اللّاعادلة، Emmanuel Saez & Gabriel Zucman, Washington DC, «The Triumph of injustice» (2019). تُشير في هذا الإطار إلى أنّ السلع الأعلى سعراً أو ما يُعرف بالـ Brand، تُشكّل جزءاً من هذه الشركات =

الفكرة النيوليبرالية تتمثل بوعودها بالاستقلال الفردي وقدرة المجتمع على تنظيم نفسه بنفسه. هكذا في مواجهة منظومات الوصاية القديمة وحرّاس الفضيلة والانضباط، بدت النيوليبرالية تُروّج لأفرادٍ مُتحرّرين من القيود يتمتّعون باستقلالية «مقاولة يتعهّد حياته بذاته»⁽⁴⁾.

أخذنا كنّ معنا إلى غواية ذلك السحر، كنّا نسبح فيه كأنّه جنّات من نعيم، وتربّيتنّ بفضل استسلامنا لهذه الغواية على مبادئ النيوليبرالية ومفاهيمها وإيقاعها وأدواتها، كأنّه ليس في الكون أيّ خيار آخر، كأنّها كتلة «الصّحّ» المُطلق، كأنّها قوانين الكون كلّ منذ الخلق إلى نهاية التاريخ. صارت النيوليبرالية إله تفكيركنّ. صارت سجنًا آخر تدرنّ في فلّكه، كالمُسافرات على متن كبسولة مرميّة في فضاء هذا الكون السحيق المُختصر للحياة الاجتماعية والاقتصادية والفرديّة باسم الحرية، وحيث الخروج منها هو الموت الأكيد.

نحن كبرنا في عالم يدور على صراع دولي⁽⁵⁾، فيه قطبان، نموذجان يُمكن الاختيار بينهما، النموذج الليبراليّ والنموذج الشيوعيّ إلى حدّ كبير. أمّا أنتنّ فقد تفتّحت عيونكنّ على عالم قطبيّ تاريخيّ جديد، إرساؤه تمّ كمنظومة ليبرالية - رأسمالية، وقد اجتاحت كلّ ميادين الحياة الاجتماعية لمصلحة الطغمة المالية. الاستغلال الاقتصاديّ كان محرّك السطوة السياسيّة والأيدولوجيّة. هذه السلطة، بخلاف الأشكال الأخرى من التوتاليتاريّة، إنّما هي مرجع ذاتها لأنّ الممارسات القائمة فيها يقوم تبريرها من خلال فكرٍ جديدٍ يتمّ ترويجه عبر وسائل الإعلام وتنفّذه المؤسسات الدوليّة⁽⁶⁾.

ما زال هذا الخطاب يُشعرنا بالنشوة، يُداوي شيئاً من الحرمان، يوهمنا بأنّ شبح الفقر لن يطول، كما أوهم مئات الملايين من النساء والرجال حول العالم بحياة الترف، فانتشرت بين فئات واسعة من أبناء الطبقات الوسطى ثقافة الـ«ماركات» والاقتراض بفوائد عالية

= العابرة للقارات، ومعظمها يقوم على اسم الشركة الغربيّة، فيما تتمّ عمليات التصنيع في دول فقيرة ويتلقّى عمّال المعامل فيها رواتب شديدة الانخفاض قد لا تزيد على 26 دولاراً في الشهر، وفق تقارير منظمة Attac.

(4) Grégoire Chamayou, *La société ingouvernable* (Paris: Editions La Fabrique, 2019), 5.

(5) الصراع الدوليّ المقصود يتمثل بالحرب الباردة، وقد دارت رحاها بين الولايات المتحدة ذات النظام الاقتصاديّ الحرّ وحلفاء لها من جهة، والاتحاد السوفياتيّ والكتلة الشرقيّة أو الدول التي تبنت الفكر الشيوعيّ أساساً للحكم. انتهت الحرب الباردة بهزيمة الاتحاد السوفياتيّ وتفكيكه ابتداءً من العام 1989، وكانت حرب الخليج في العام 1991 إعلاناً لانتصار الولايات المتحدة وسيطرتها المطلقة كقوة عظمى وحيدة.

(6) Jacques Langlois, *Le libéralisme totalitaire* (Paris: L'Harmattan, 2013), 7.

لتأمين مستوى معيشي يُحاكي سلوكيات الأغنياء، البرجوازيين منهم أو الأثرياء الجدد، وصار الفقراء أيضاً يحملون بتقليد أبناء الطبقة الوسطى.

حوّلنا قوّة العمل ورأسمالنا إلى ما يُشبه لعبة القمار، نفترض لتتوهّم أننا أغنياء، ولم نُقلْ لكنّ أنّ الحياة خارج «المول» أجمل، وأنها مُمكنة إن انطفأ العالم الافتراضي قليلاً.

في باب الهجرة

لما انتهت الحرب، أو بعد انتهائها بسنواتٍ معدودة، شرّعت لنا أبواب الهجرة إلى دول الخليج العربيّ بشكلٍ خاصّ، وإلى أميركا الشماليّة، كما لم تُقفل الحدود الأوروبيّة نهائياً في وجهنا. حُلِم الهجرة يجمعنا، لكنّ الفرق بيننا شاسع، فأنتنّ اليوم من عالم ترتفع فيه الحدود بشكلٍ غير مرئيّ، وتشتدّ فيه البطالة وتتكشف عورة الاقتصاد الحرّ المُعوّلّم، ما يجعل أيّ أفقٍ للخروج من البلاد لا يعدو كونه مساحةً لتجربة العيش بشظف، برواتب من فئات الخبز والدولار. هذه الهجرة التي يُمكن بالطبع مناقشة كلّ آثارها في موقعٍ آخر، في رسالةٍ أخرى، صارت خطوة صعبة التحقيق، شديدة الصعوبة، العالم لم يُعد في حاجة إلى غرباء إلا نادراً.

بينما الهجرة في عهدنا كانت مشرّعة، اتّسع لنا سوق العمل في أكثر من دولة. فترة ما بعد الحرب الأهليّة (1975 - 1990) شهدت موجةً مكثّفة من هجرة الكادرات وأصحاب الكفاءات إلى الغرب وإلى دول الخليج⁽⁷⁾، بسبب المنظومة الاقتصاديّة التي تركزت على التجارة والسياحة والمصارف. وهي منظومة تمّ تدعيمها في التسعينيات وتبنّتها الحكومات المُتعاقبة ربطاً بالسياسات الاقتصاديّة النيوليبراليّة. تلك السياسات التي شهدت انتصارها وبداية حُكمها العالميّ قلّصت سوق العمل الداخليّ، ووفق دراسة أجرتها الجامعة اليسوعيّة في لبنان قُدّر حجم الهجرة السنويّة في مطلع الألفيّة الثانية ما بين 35 - 55 ألف شخص. كان السبب الرئيس للهجرة هو السعي وراء العمل اللائق، هكذا حين حلّ العام 2008، أي عندما كتتنّ في سنوات العمر الأولى، كان ثلث القوّة العاملة اللبانيّة في دول الخليج العربيّ، وفق وزير الماليّة حينها محمّد شطح⁽⁸⁾. وقد

(7) Paul Tabar, *Lebanon: A country of emigration and immigration*, (Beirut: LAU Press, 2010), 8.

(8) «Lebanon Starts to Feel the Pinch of Financial Crisis», *Reuters*, December 6, 2008.

كانت هجرة مترفة غالباً تلك التي نَعِمَ بها جيلنا، مزيّنة بوعد الاندماج الأكبر في المنظومة النيوليبرالية، في متاحف المولات وكواليس الاستهلاك ببذخ مُفرط، بإدماّنٍ كثيف. لم نَرِ في المُجتمعات التي ذهبنا إليها سوى الفيتريّة العالميّة، ففكّكت الهجرة أيّ ارتباطٍ مُمكن بالطبقات التي ننتمي إليها حقّاً، صرنا كما مريض موليير برجوازيّين وهميّين، وأورثناكّن هذا الوهم بشروط الخضوع لعقدهِ نقصٍ تجاه أدوات الدولة الأقوى في العالم، لا بشروط امتلاك أدوات المعرفة والبحث والتحليل والنقد.

في باب الذاكرة

عالمنا مُختلفان على الرّغم من التقاطعات العصريّة بيننا، وقد يكون التواصل شبه مُنقطع لأننا لم نُبَلور ذاكرةً مُشتركة تجمّعنا. نحن وأنتم، لم نَسع لبناء هذه الذاكرة، استسلمنا نحن لما تُعده لنا سلطة السياسة وسلطة رأس المال، وسلطة الإعلام التقليديّ من جهة، ووسائل التواصل الاجتماعيّ من جهة أخرى. تلك الساعات الطويلة التي تسجّن أنفسكّن فيها، ونذوب نحن في عالمها، ساعات الانشغال بشاشة الهاتف والعالم الافتراضيّ جعلت الكلام بيننا قليل، ألم يكتب بورخيس أنّ الكلمات هي رموزٌ تتطلّب ذاكرةً مُشتركة⁽⁹⁾؟

في المقابل فإنّ الجيل الأكبر يبدأ ببلورة صورته الاجتماعيّة بالمُقارَنة مع جيل أبنائه⁽¹⁰⁾. لكننا، قبل أن يُعلن الانهيار، لم نكن نريد أن نذهب عميقاً في فضّح الجراح، ولم نَبحث عن مُحاسبة مُجرمي الحرب، ولا أصحاب السلطة في السياسة والمال، نحن عشنا واقعاً سياسياً صعباً حتّى بعد انتهاء الحرب، وكانت مُواجهته تعني أن نتخلّى عن الحياة المُتخيّلة الهانئة، لذلك هربنا من الذاكرة، ذاكرة الماضي وذاكرة الحاضر، مُتجاهلين أنّه «من دون الذاكرة لا يقوم عقد، ولا تحالف، ولا ثمة مُعاهدة مُمكنة. بلا الذاكرة لا وجود للوفاء كقيمة، ولا ثمة وعود... أي أنّ العقد الاجتماعيّ لا يقوم بلا الذاكرة، ولن تكون بذلك المُجتمعات أمراً مُمكنًا، ولا هويّة الفرد ولا الهويّة الجماعيّة. الذاكرة شرط المعرفة،

(9) Borges J L, Œuvres complètes 1975-1985, Barcelone, Maria Kodama y Emercé Editores, 1989, p 31.

(10) Attias-Donfut Claudine, «Rapports de generation et parcours de vie.» *journals.openedition*, 27, June, 2013 (en ligne) <https://journals.openedition.org/enquete/82>.

من دونها تختلط الأمور ببعضها ويصير كلّ شيء مهدّداً بالموت... لأنّها في أساس كلّ عمليّة نقل، هي القاعدة المؤسّسة للثقافة»⁽¹¹⁾.

في باب المُصارحة

لا تبغي هذه الرسالة البحث عن مبرّرات ولا إدانة جيل الحرب بما اقترفه من دون وعي، من تثبيت منظومة أخطبوطيّة في السياسة والاقتصاد والثقافة، حملت آمال الجيل الأصغر ومُستقبله إلى المجهول، ولا تنوي الرسالة جلد الجيل الذي تنتمي إليه المُراهقات اليوم. هذه الرسالة تحاول أن تضيف إلى النقاش العامّ دعوةً للبحث عن نقاطٍ ضعفٍ متراكمة جعلت النظام الطائفي أكثر شراسة وحضوراً، على الرّغم من كلّ ادّعاءات الحداثة، بل الانتماء إلى الحداثة المتأخّرة وعصر التسريع؛ إذ يُواجه كلّ جيل حقيقةً اجتماعيّة وتاريخيّة، وترتسم شروطه الاجتماعيّة من خلال القيم الخاصّة بهذه الحقيقة إضافة إلى ما يفرض عليها من أعباء وتناقضات. من هذا المنطلق يُحدّد كلّ جيل المحتوى الوراثة الذي سيحمّله من الأجيال التي سبقته، كيف سيستوعبه أو يرفضه⁽¹²⁾. قد تكون خطيئتنا أنّنا لم نفهم تراكمات العنف الذي واجهته حيواتنا، من عنف الحرب إلى عنف معايير السوق والمنافسة الحادّة وسطوة المظاهر المُتبلّورة في المظهر والملبس واللغة كبابٍ شبه وحيد للنجاح والعيش.

ها هي الأقفاص تُطبّق أبوابها مجدّداً تضع جيلك في دائرة القلق. والخوف - كلّ الخوف - هو في ألا ترفضن ما يُعوّق أمور الحياة الصعبة التي تنتظركن، وأن تُكرّرن الخطأ الذي وقعنا فيه فتكون الاستكانة للمعايير والأفكار التي توهّمن أنّها أبعدت شبح الحرب وأخذتنا إلى نعيم العيش والطيش والشباب الدائم.

أمّا بالنسبة إلى تلك الرغبة الطاغية لدينا بالهروب من إمكانات الحرب أيّاً كان الثمن، فنعدّكن بأننا سنكرّر نهجنا، الحرب في قاموسنا لا تعني الموت فقط، بل تعني ال«لا» حياة، وهذا ما يُثير الرعب والاختناق ويُراكم عنفاً فوق طبقات العنف المُندثر في ذاكرتنا. لقد أطلت الكتابة، ولم يته الكلام، وللنقاش تتمّة طويلة، فنفضّل ختاماً بقبول فائق الحبّ والاحترام.

(11) Candau Joël, *Anthropologie de la mémoire*, (Paris: Armand Colin, 2005), 2.

(12) Anne Muxel, article sous le titre de «Temps, mémoire, transmission», *Histoire et Anthropologie*, n 24 (l'Harmattan, 2002): 14-15.

La guerre sous ses formes diverses, historique, militaire, civile, contemporaine reste incrustée, imaginée ou vécue dans la mémoire de l'individu. La guerre s'inscrit et ne s'efface pas. Elle se fait oublier mais ses traces réapparaissent sous différents masques.

Le Liban, riche par la diversité de ses peuples, la multiplicité des religions, des cultures et des civilisations qui s'y côtoient, riche aussi dans la transmission du désir de vie, unit ses citoyens dans leurs symptômes conséquents à la guerre. Une guerre où les idéaux, les espoirs et les normes morales s'effondrent. Un traumatisme qu'efface le déni et le masochisme du survivant. Une reviviscence englobant des cauchemars, une labilité émotionnelle, un manque d'affectivité et un état dépressif. C'est alors que la destruction psychique s'engage.

Si l'impact de la guerre affecte toute la population, enfant, adolescent et adulte, l'objectif de ce travail est de l'orienter vers la position féminine. Qu'en est-il du vécu de la jeune femme au sein de la guerre? La jeune fille dans sa période de pré-adolescence et adolescence fut témoin de la guerre et réceptacle de la transmission de ses parents, donc porteuse d'un fardeau

Les métamorphoses de l'adolescente en temps de guerre

Bella Aoun

à double sens: sujet dévalorisé pendant la guerre et menacé introjectant le poids de la mort.

Le terme métamorphose (que j'ai introduit dans le titre), vient de *Metamorphosis* mot latin qui dérive du grec et qui veut dire *transformation*. La métamorphose dont je parle ici est symbolique et psychologique. En effet, certaines jeunes adolescentes pour s'intégrer à la société libanaise dans les conditions extrêmes de guerre à l'époque des années 80, dans un effort pour survivre dans une société masculinisée à outrance, - l'homme étant le «défenseur, le guerrier le milicien» -, se *métamorphosaient*. Soit qu'elles se masculinisaient et tentaient de devenir miliciennes à leur tour voulant faire «l'homme»; soit alors qu'elles rentraient dans les affres de la peur, se tassaient dans l'ombre et s'inhibaient.

J'illustrerai mon étude en proposant un exemple clinique d'une femme que j'ai suivie en psychothérapie, en 2004 pour une durée de 4 ans. Elle illustre le vécu douloureux d'une adolescente durant la guerre libanaise des années 80, repliée sur elle-même, souffrant d'inhibition et admirant par contraste ses voisines miliciennes. Qu'elle soit milicienne ou oubliée à la maison, la femme a pâti de la guerre, oubliant parfois ce qu'être femme signifiait.

L'être humain naît dans une famille qui lui transmet un héritage conscient et inconscient comprenant des missions, des loyautés familiales visibles ou invisibles, des loyautés claniques, culturelles, religieuses, nationales⁽¹⁾. Les enfants de guerre sont victimes d'un vécu qui comporte à partir de guerres successives, des traces qui se gravent dans leurs pensées et infligent des blessures narcissiques. Une empreinte se produit ainsi, très précocement, et se métamorphose en mémoire perpétuelle et corporelle.

La guerre pénètre le noyau familial et affecte la fonction de chaque membre du noyau. Les enfants soumis au traumatisme de guerre sont sujets à un syndrome post traumatique (*PTSD*) qui affecte leur vécu social, scolaire et culturel et les marque tant dans leur corps que dans leur psyché, où se déclenchent des manifestations d'ordre psychosomatique et des troubles

(1) Schutzenberger A.-A., Secrets, secrets de famille et transmissions invisibles, dans *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, 2004/2 (no 33), pp. 35 à 54.

de développement. La construction de base dans l'enfance se brise, l'appauvrissement existentiel règne.

La guerre peut se décrire comme un ravage affectant le comportement psycho-affectif de la jeunesse en particulier. La guerre fut une menace pour la jeunesse libanaise sur tous les plans, politique, social et économique. Cette jeunesse voit s'effondrer son rêve d'avenir quand le semblable dans l'humanité devient l'ennemi. Elle perçoit le monde extérieur comme terrifiant et persécuteur. Pour elle, la misère et l'obscurité prédominent dans le tunnel du processus des transformations adolescentes.

La guerre annihile les lois du pays, impactant toute loi propre à chaque famille. La guerre peut priver le père de sa fonction paternelle, et le place dans une position de démissionnaire, au chômage ou bien engagé sur le champ de la guerre. Cette remise en question du père déclenche la déstabilisation du foyer familial et sa perte. Même dans les cas où la mère se trouve obligée d'être le substitut paternel, la fonction du père en tant que possesseur du phallus et représentant de la loi est perdue. Il arrive même parfois dans ces cas que la mère perd tout repère de sa fonction maternelle, tels l'amour, la tendresse, sombrant dans une anxiété nocive pour elle et pour sa famille.

La mère peut se sentir prisonnière face à une civilisation de survie. Elle peut transmettre à l'enfant ses propres peurs. Traumatisme introjecté par l'enfant qui se déplace durant son développement, et s'exprime en des symptômes qui se métamorphosent, prenant diverses faces et diverses couleurs à chaque stade de son âge. Adulte, il devient une plaque sensible sur laquelle s'inscrit la marque de la mémoire familiale refoulée et où la remémoration prend place.

Ainsi la fillette pré et adolescente dont la mère est angoissée, reçoit outre ses propres angoisses de survie face à la guerre, un sentiment d'insécurité et les angoisses de mort de sa mère dont elle capte la souffrance à travers un filtrage de son comportement. Ces affects agissants dans un secret de transmission s'inscrivent sur le corps de la fillette sous forme de divers symptômes tels l'inhibition, les cauchemars, la frigidité, la persécution, l'anorexie, la boulimie. Selon Lacan, le symptôme de l'enfant se trouve

en place de répondre à ce qu'il y a de symptomatique dans la structure familiale⁽²⁾.

Que se passe-t-il dans de telles familles pour une adolescente? Comment réagit la fillette à ces problématiques de guerre?

F. Dolto évoque le complexe du homard qui se réfère à la période de vulnérabilité chez l'adolescent afin de trouver de nouveaux repères, c'est une période de métamorphose pour se faire une nouvelle peau personnelle. De quelle métamorphose s'agit-il quand le chaos de la guerre envahit un pays, et brise le noyau familial et en particulier le couple parental, et déstabilise la transition de l'adolescence?

Sur le terrain où se joue la guerre, certaines jeunes filles se trouvent introduites dans son champ; d'autres sont inhibées, clouées dans les abris, silencieuses, mutiques, avalant toute expression psychique personnelle; certaines se trouvent bloquées dans les internats, loin de la famille⁽³⁾, etc.

Toute la problématique du *vécu-guerre* se connecte au sens que l'adolescente, relativement à son développement et à son histoire, donne aux événements vécus. L'adolescente a besoin de son père, représentant de la protection et de la loi, et de sa mère, symbolisant le savoir être femme, afin de traverser le passage de l'enfance à l'âge adulte. C'est l'autre imprégné dans notre mémoire qui donne sens aux choses, dynamise nos rêves et change la connotation affective du réel qu'on perçoit⁽⁴⁾.

Dans le *vécu-guerre*, l'adolescente se perçoit vivre un arrachement et une rupture brutale de sa vie quotidienne, ce qui peut la mener à un effondrement psychique.

Cette femme, disons Lara, raconte en thérapie durant des mois, son adolescence plongée dans des scènes affreuses qui l'ont accompagnée tout au long de son développement sous formes de pulsions d'agitation perpétuelles.

Les nuits de son enfance et de son adolescence (7 à 11 ans), elle dort sur un matelas à côté de sa mère et de son frère, dans le couloir de leur

(2) Cf. Lacan J., «Note sur l'enfant», dans *Autres écrits*, Paris, éd. Du Seuil, 2001.

(3) Konrad Lorenz parle des oies cendrées, que l'oisillon prend pour mère ce qui bouge devant lui quand il éclot de son œuf; de même, le nourrisson humain s'attache à qui le nourrit et s'occupe de lui lorsqu'il sort du sein de sa mère: il y a empreinte «corpo-ki-nésique-visuelle» et «ancrage» [Lorenz K., *Les oies cendrées*, Paris, Albin Michel, 1989, p. 45].

(4) Cyrułnik B., *Quand un enfant se donne la mort*, Paris, Odile Jacob, 2011. p. 22.

maison. Elle s'endort les yeux écarquillés, elle «anesthésie» sa respiration, suit le sifflement de l'obus, se perçoit mutilée jusqu'à l'éclatement de l'obus dans la cour voisine. Elle est dans l'attente de la mort non seulement pour elle-même mais pour son père qui se trouve sur le champ de bataille. Que ferait-elle sans père? Elle se réveille en pleine nuit, criant, pleurant, se jetant par terre.

Son somnambulisme est la traduction des scènes affreuses et indicibles qui la transforment en une adolescente différente, bizarre. Le concept de mort la tourmente et la suit partout tout au long de son développement. La réalité d'un bruit jusqu'aujourd'hui la fait sursauter. Elle se retrouve au quotidien tiraillée entre la survie, la lutte contre la mort et la résilience face à la guerre.

Mais le savoir qui manque à notre adolescente est encore plus fort. *Qu'est-ce qu'être femme se demande-t-elle? Quel homme lui plaira-t-il assez pour en faire un mari?*

Dans son adolescence (vers 13 ans), l'image des miliciens la passionne, ils symbolisent tout le pouvoir et la virilité pour elle, particulièrement dotés de leurs missiles; elle est à la recherche de son père absent de son foyer, et de ses outils phalliques. S'identifiant à son père, elle est attirée par l'idée d'être milicienne.

Une fille peut-elle être milicienne? Pour répondre à sa question, notre adolescente observait, fascinée, ses voisines un peu plus âgées, qui vivaient d'abord dans un internat avant de devenir combattantes. Ces adolescentes étaient issues d'une famille dysfonctionnelle: un père qui ne paraissait pas en mesure d'assurer ses devoirs, alcoolique, violent avec la mère et une mère victime. Ces voisines étaient au départ fières d'être devenues des adolescentes-miliciennes. Elles ont abandonné leur parcours académique afin de fréquenter les casernes; mais en fait elles s'étaient réfugiées dans les guerres. Leur désir effectif était de fuir le foyer familial où la violence et l'agressivité du père et la faiblesse de la mère régnaient. Elles grandissaient sans avoir pu s'engager dans un métier convenable, et même le choix du mariage futur se solda par un échec.

Beaucoup de ces jeunes miliciennes, quand elles sont issues d'un milieu dysfonctionnel, refusent d'avoir des enfants. Cette abstinence de la maternité

traduit-elle leur effroi de faire revivre à leurs enfants le même vécu que le leur ou est-ce une vengeance à l'égard de la filiation, leur père s'étant désinscrit de sa propre filiation?

Quoiqu'il en soit, les récits des voisines adolescentes-miliciennes tournèrent plus tard autour de leur regret d'un passé douloureux, un combiné de peurs et de souffrances. Leurs rêves étaient chargés de brume et de morts et elles sentaient bloqué leur chemin vers l'avenir, tant elles se vivaient alourdies d'un double fardeau: le vécu de la guerre et le vécu de leur famille dissociée. La culpabilité, leur enfance perdue, leur identité de guerrières, les ont menées à trouver refuge dans la prière.

Déjeté de sa famille, enfant nous le voyons souvent mal accueilli, «l'adolescent-soldat se retrouve dans une relation de specularité avec l'ancestralité, qu'il subjective comme une puissance de vengeance et de destruction»⁽⁵⁾. Que serait-ce donc quand il s'agit d'une adolescente-soldate?

Au fur et à mesure, l'image des miliciens commence à disparaître chez notre adolescente et avec elle l'idée de combattre (16 ans). Les pertes et les morts innombrables au combat prennent leur place, et le concept de mort recommence à la bouleverser et amplifie sa détresse. Elle rentre dans une isolation, dans un mutisme, et dans une répétition qui s'achève en un cercle vicieux: *quel sens le signifiant guerre a-t-il?*

Arrivée là notre adolescente pense à se donner la mort. Se suicider c'est aller au-devant de cette mort qui lui fait peur.

Que dit-on de l'adolescente qui se donne la mort? Est-ce une autodestruction féminine? Quand la souffrance n'a pas de sens, quand le désengagement familial ou culturel appauvrit l'environnement affectif au point d'en faire une sorte d'isolement sensoriel, l'idée de se donner la mort est là, et elle vient plus facilement aux filles qu'aux garçons⁽⁶⁾. Les filles s'avancent dans leur maturité précocement mais restent accablées dans leur dépendance sociale. Leur expression reste soumise à leur sentiment d'injustice et de répression.

(5) Douville O., «Enfants et adolescents sous la guerre et rapport à l'ancestralité», Dans *Journal des anthropologues* 2009/1-2, No 116-117, p. 231 à 259

(6) Cyrulnik B., *Quand un enfant se donne la mort*, Paris, Odile Jacob, 2011, p. 24.

De jeunes adolescentes se donnent parfois la mort comme une vengeance pour pouvoir culpabiliser la personne cause de ce geste. C'est alors un acte narcissique, comme si le Moi qui prend une telle décision traduit un acte contre l'autre. Les mass médias avaient diffusé l'histoire d'une de ces adolescentes. Après avoir exposé sa nudité en photos via WhatsApp, elle s'est tuée.

Tel n'est pas le cas de notre adolescente. Pourquoi mourir alors? Elle ne le sait pas. Fera-t-elle le geste final? Elle n'y est pas parvenue. Elle grandit comme elle peut. Le signifiant mort l'obsède et la poursuit jour et nuit.

Devenue adulte, elle refuse comme ces anciennes voisines d'avoir des enfants. Elle en a peur. *Pourquoi faire?* dit-elle. Pourtant, elle pense que la femme appartient au registre de l'amour vécu dans la maternité; femme et mère se confondent pour elle. La femme qui n'enfante pas, et qui à cause de cette incapacité ne se sent pas pleinement femme, offre l'appellation de «femme» à sa mère, étant dans l'incapacité de se définir par le signifiant «femme»⁽⁷⁾. La femme est sa mère; quant à elle, elle est restée cette fillette apeurée par l'obus qui n'arrivait pas à fermer les yeux pour dormir.

En somme, la guerre est un combat du peuple, mais ses traces subsistent sur les pré-adolescentes et les adolescentes, et déterminent leur corps, leurs symptômes, leur vécu, leur avenir. Des adolescentes hyperactives, passives, inhibées, toxicomanes, délinquantes, dépressives, fusionnelles, suicidaires. Tous ces troubles sont autant de réponses à leur souffrance inédite durant la guerre.

La fille de tout âge a un besoin de vivre dans son nid familial, où l'amour, la contenance, la communication, l'expression sont les facteurs nécessaires à un développement affectif sain. Elle attend de sa mère de lui procurer un savoir sur la féminité, et de son père l'introjection de la loi fondamentale. Ajoutons que sa vie sociale s'enrichit avec ses semblables: fratrie, pairs, amis.

La jeune fille pré-et adolescente qui perd toute référence environnementale, intra et extra familiale, et qui se trouve incapable de mettre des mots à ses inquiétudes ou à ses anxiétés, perd le sens d'elle-même.

(7) Lacan J., «La direction de la cure», *Écrits*, Paris, Seuil, 2001, 591

Dans de telles conditions précaires de guerre et de peur, même s'il en restera toujours quelque chose, l'issue est que les représentations de souffrance se disent, mettant un sens au symptôme. «Une vie remplie d'échanges avec les autres, dit Françoise Dolto, puisque ce sont les échanges qui font que la vie a du sens. Sinon notre vie n'aurait aucun sens, si ce ne sont pas les autres qui nous donnent preuve que nous sommes vivants en nous aimant, et nous qui nous donnons preuve que nous sommes vivants en aimant les autres, et en ayant des échanges avec eux... tout ce qui est échange et rebondissement de vie, en communiquant avec les autres, ses sentiments, ses angoisses, ses joies, ses peines, et en partageant avec les autres tout ce qu'il a comme fantasmes autour de cet inconnu. Il n'y a pas que la mort qui soit inconnue, tellement d'autres choses nous sont inconnues»⁽⁸⁾.

(8) Dolto F., *Parler de la mort*, Paris, Ed. Gallimard, 1998, pp. 35.

هوية اليافعات في أثناء الصراع: تجربتي الشخصية ككويّية فلسطينية

عند البدء بسردي هذا يجب أن أذكر ما مرّت به ابتنائي وهما بعمر الزهور في أثناء احتلال العراق للكويت في العام 1990، والذي رَسَمَ مَلامح شخصيّتهما ذات الهوية المُختلطة والمُركّبة، وكيف يُمكن أن تتذبذب تجلّياتها في الظروف المُختلفة. جَعَلَنِي ذلك أركّز أولاً على أنّهما كويّيتا الجنسيّة من أصولٍ فلسطينيّة. فكويّيتي أنا تنبع من أنّي تربّيت في الكويت ولم أعرف وطناً «كحقيقة» غيرها ولكّني عشتُ الوطن فلسطين «كذاكرة» من خلال تجربة أمّي وأبي. ولا بدّ من أن أذكر أيضاً أنّ الكويت بلد كالفسيفساء قلّما نجد عائلة ليس لها جذور هنا أو هناك في المناطق المُحيطة بها جغرافياً؛ إلّا أنّ الكويت وَعَت حَجْمَها وموقعها مبكراً ما رَسَمَ مَعَالِمَ تصرّفها وشكّل سياستها الخارجيّة. هي الدولة الفتية التي تُحافظ على بقائها بالتزام الحياد، وبخاصّة بين الدول الثلاث الكبيرة المُحيطة بها تاريخياً وجغرافياً وهي العراق، السعودية، وإيران.

سأخطّ أفكاري وتجربتي الشخصية كسيّدة كويّيّة فلسطينيّة. ربّيتُ ابنتيّ بشكل عامّ على الإحساس بالفخر بحقيقتهم وعلى أنّ هويّتهما المُختلطة تتأتّى من الكويت وفلسطين. جاء الصراع والتهديد في أثناء احتلال العراق للكويت

تغريد القدسي - غبرا

في العام 1990 فأصبحنا في حيز الخطر لأن الاحتلال هدّد سلامتهما. كتبت بتفصيل عن موضوع الهوية والفخر بها عندما تتعرض للانتهاك والتهديد في أثناء الصراع في سيرتي التي نُشرت في بيروت بعنوان «عندما يكون امتلاك العقل عبئاً» (شباط/فبراير 2021). لطالما شكّل موضوع الهوية المُختلطة أو المُركبة خصوصاً، هاجساً، جعلني أركّز عليه وعلى الفخر بالعروبة أولاً، ثم على الإحساس بعمق الهوية وغناها عندما تكون مُختلطة أو مركبة؛ وفي حالتنا هنا هوية عربية بعمقين واضحين هما الكويتي والفلسطيني. فالهوية هنا هوية عربية تحمل في ذاتها شقين، بلا أي تضارب بينهما. إنها وكما أراها علاقة تكامل وليس تنافر من الجدير التأكيد عليه. السؤال يصبح هل للصراع السياسي أثرٌ على ذلك؟ كيف يُمكن أن يؤثر العنف فيها وهل يُمكن للهوية أن تخبو أو تتجلى بأشكالٍ أخرى نتيجة الصراع؟ وهل لرأي الأغلبية من وزنٍ هنا؟

شاء القدر أن تنتقل عائلتي الفلسطينية إلى الكويت أوائل الستينيات من القرن الماضي. ترعرعت في الكويت وارتدت مدارسها في عهد التعليم الذهبي. وعندما التحقت بجامعة الكويت وتعرفت إلى زوجي الكويتي الجنسية من أصول فلسطينية، والذي كان مُقاتلاً يُدافع عن الهوية الفلسطينية، أصبحت كويتية الجنسية قانوناً، بحكم الزواج، وأصبح أبنائي كويتيين من أب كويتي بحكم الولادة. للاختصار فإن أبنائي بعامة عاشوا كويتيين وفلسطينيين. لطالما ردّدت عليهم أنّ الفلسطيني والكويتي عربٌ أولاً وأخيراً، ما يخلق تلاقياً وليس تنافراً بينهما. هاتان الهويتان العربيتان شكّلتا الهوية المُختلطة لأبنائي. اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجات، التاريخ واحد يخضع لحقيقة أنّه بعد انهيار الدولة العثمانية، وُضعت الكويت تحت الانتداب البريطاني وفلسطين كذلك مع فارق أن فلسطين أُعطيت لليهود بحسب «وعد بلفور» المشؤوم. الهوية الفلسطينية التي حاول المشروع الصهيوني مسحها، والتي رزحت تحت الاحتلال الإسرائيلي وقيام دولة الاحتلال بنكبة العام 1948 ثم بنكسة العام 1967. هذه الهوية المعنفة والمهددة ترعرعت في الكويت وعبرت عن نفسها بطرقٍ عديدة. الاستقرار والإحساس بالأمان جعل أبنائي تعيشان هذه الهوية الفلسطينية التي حرصت الكويت من بدايتها على احتضانها. أقاربنا ومعارفنا بحكم النسب والعشرة هم على الجانبين الفلسطيني والكويتي.

في العام 1990 وعندما أحسَّ الكويتيون بظلم الاحتلال، عشنا أنا وابنتاي اليافعتان معنى الهوية الفلسطينية المسلوبة مرةً أخرى، لكن ليس من الذاكرة هذه المرة ولكن من الحقيقة والواقع. كأنَّ كويتيتنا طَفَتْ على السطح وبانتُ للعيان، فهي احتاجت إلى أن تُعبّر عن نفسها وتؤكدّها. الظرف تطلّب أن تكون الهوية المعنّفة والمهدّدة هنا بحاجة إلى الحماية. لقد عشنا وقتنا نؤكد على عدم اختلاف الهويتين الكويتية والفلسطينية أو تنافرهما. ولكنَّ التذبذب هنا كان واضحاً، فتارة نؤكد هويتنا الفلسطينية وتارة الكويتية، وذلك بحسب وضع السلامة والأمن في وقتها والأجواء السياسيّة المُحيطة والتهديد الذي يجلبه التأكيد على كلٍّ منهما.

في العام 1990، في أثناء احتلال العراق للكويت، كانت ابنتاي يافعتين في مُقبل العمر، ابنتي الكبيرة في العاشرة من عمرها والصغيرة في الرابعة. كنتُ واضحةً في زرع هذا الفخر بهويتهم المُرَكَّبة واعتبارها إغناءً لهما وليس انتقاصاً. فعلتُ ذلك في أثناء ترعرعهما بإيعازٍ من ضميري وقناعاتي التي اعتبرها «متفتّحة وليبرالية». وفي الكويت برزت وتعمّقت خاصيّة غنى الهوية عندما تكون مُختلطة أو مرَكَّبة والحاجة إليها من أجل الصّحة النفسيّة للفرد كي لا يتعرّض لأيّ شكلٍ من أشكال التئمّر أو الاضطهاد أو الابتزاز بشأن خلفيّة المُغايرة للأغليّة. في أثناء احتلال الكويت برزت الحاجة إلى التركيز على أمن ابنتي وسلامتهما وعدم الحديث أو التركيز حتّى على ذكر الهوية الكويتيّة، فجأةً تجدنا نريد أن نخفيّ الشقّ المهدّد، الكويتي، وذلك إلى أن نُصبح خارج الخطر. الكويت التي أضحت عراقاً بعد احتلال العراق لها وضمّها له في العام 1990. همّي في أثناء احتلال الكويت أصبح سلامتهما نتيجة صغر سنّهما. كان الهمّ أن أخرج معهما إلى العالم الخارجي، خارج الكويت التي أضحت العراق، حيث لا يُمكن لأحدٍ أن يهدّدتهما لأنّهما تمتلكان الجانب الكويتي على الرّغم من وجود الإطار العربي. ولكنَّ الإطار العربي كان مُشردّماً حينها والرؤية غير واضحة. لم أحفل آنذاك للآثار النفسيّة التي قد تؤثر فيهما، فهمّي كان سلامتهما الجسديّة الملموسة، أمّا السلامة النفسيّة، فاستطيع التعامل معها في ما بعد. ولذا طلبتُ منهما عندما علقنا قسراً في بغداد مع ما يُسمّى «الدّرع البشريّة» أن تتصرّفا كفلسطينيّات لحمايتهما. لم أشكّ أنّ كونهما كويتيتين يُمكن أن يقوِّض فرصتنا للخروج خارج نطاق الخطر، أي خارج العراق. لا بدّ من ذكر أنّنا كنّا بصدد الخروج مع

الرعايا الأميركيين إلى أميركا، أنا وابنتاي، لأنّ الصغيرة تُعتبر أميركية المولد. ولكنّ الشكّ بنا قوَّض هذه الفرصة فبقينا في بغداد لأسبوعين نحاول إثبات أنّنا أيّ شيءٍ إلّا كويتيّات! كيف أثر ذلك على المدى البعيد؟ أنا أوّكد أنّ لذلك بصماتٍ وآثاراً بعيدة المدى.

لنأخذ مثلاً على ذلك، عندما حاولنا الخروج من بغداد إلى العالم الأوسع طالبن الأمان في سياق ترحيل الرعايا الأميركيين، لم يكن ممكناً لابنتيّ الصغيرتين اللّتين لا يُمكنهما فهم الأمور بدقائقتها وتعقيداتها، أن تستوعبا عدم قدرة بقية أفراد الأسرة على أن ينضمّوا لنا أو يخرجوا معنا. برزت الحاجة إلى التركيز على أنّنا فلسطينيون ولا صلة لنا بالجانب الكويتي تفادياً للتهديد والتعنيف عندما علقنا في بغداد مع ما يُسمّى «الدروع البشريّة». من المهمّ عدم إغفال أنّنا ككويتيّين أضحينا عراقيين، وأنّه بات من غير المسموح لنا مغادرة العراق، وكان علينا أن نوّكد بالتالي أنّنا فلسطينيون ولسنا كويتيين.

بعد تحرير الكويت في العام 1991 استمرّت المُعاناة بشكلٍ آخر يتعلّق بالشقّ الفلسطينيّ من هويّتنا ومُحاولة عدم إبرازه بل حتّى محاولة إخفائه مرّة أخرى من جانب فلسطينيّين كُثُر أو من هم من أصول فلسطينيّة. الأمان والسلامة حدّدت ذلك على الرّغم من أنّي كنتُ أركّز على حقيقة أنّنا لم نفعل إلّا ما نفخر به وهو نابع من قناعتنا بعدم وجود أيّ تضارب بين الهوية الكويتيّة والفلسطينيّة، على الرّغم من أنّ الوضع السياسيّ خلقَ تجاذباتٍ محدّدة لم تكن في الحسبان على أرض الواقع. فالجانب الفلسطينيّ الذي اكتوى بنار السياسة العربيّة كان ضدّ التحالف. أمّا الكويتيّ الذي كان يريد تحرير الكويت، فكان مستعدّاً للتحالف حتّى لو مع الشيطان لتحرير الكويت.

ابنتي الكبيرة تُخبرني بعد سنين عديدة أنّها كانت تُخفي حقيقة أنّها كويتيّة من أصولٍ فلسطينيّة حتّى لا تتعرّض لأيّ شكل من أشكال التئمّر أو الابتزاز. أخبرتني مرّة عن صديقتها الفخورة بأصولها الإيرانيّة والمُغايرة لأصولنا الفلسطينيّة، وكيف حاولت أن تُفهمها أنّنا جميعنا، نحن وهي، لا علاقة لنا بما يحدث. وفي أثناء حرب الخليج الأولى، ولأنّ العراق وإيران كانتا مُتحاربتين، لم يكن من الممكن لها التعبير عن هويّتها على الرّغم من صغر سنّها. ما الأثر النفسيّ الذي يخلقه هذا التذبذب في الوضع السياسيّ الذي يفرض على المرء، وخصوصاً اليافع، التأكيد على ولائه إلى أيّ كان، من أجل حماية نفسه أولاً ثمّ مكتسباته؟ ما الأثر الذي يُخلّفه ذلك نفسياً وسلوكياً على المدى البعيد؟

واليوم ونحن نراقب ونعيش ثورة حيّ الشيخ جراح في القدس التي ما هي إلاّ تعبير آخر عن الهوية واضطهادها، تجدنا نحسّ بأهميّة ما تمّ زرعه بابتّيّ عندما كانتا تكبران. لقد ترعرعنا في أجواءٍ وطنيّة عروبيّة وأحسّنا بفلسطينيّتهما كما بكويتيّتهما. أمدهما ذلك بالأمان والقوّة والإحساس بحريّة التعبير عن إنسانيّتهما والانطلاق للفضاء الخارجيّ العالميّ. أعتقد أنّ التربية والتعليم المُنفّتح بدأ يؤتي ثماره. لذا لا بدّ من إثارة أسئلة عدّة قد توضح موضوع الهوية والصراع مع الياقة كما مع البالغين.

إنّ احتلال العراق للكويت في العام 1990 خلّق حالةً من البلبلة والضبابيّة الفكرية بشأن الولاءات. اختلطت الأمور على الجميع، فالاحتلالُ عربيّ وقائمٌ من طرفٍ جارٍ، ومن رزح تحت الاحتلال وعانى منه هو عربيّ وجارٍ كذلك. كيف كان مُمكنًا استيعاب دقائق الأمور، وبخاصّة التفاصيل الصغيرة التي تحدّد الهوية؟ كيف لنا أن نستوعب خيانة الأخ والجار؟ كيف لليافعات أن يستوعبن قضايا الهوية المهدّدة، وخصوصاً تلك التي بدت معقّدة جدًّا لأنّ مكوّناتها - وكما تبدّى لنا واقعاً - تأخذ سنواتٍ عديدة لتتشكّل وتختمر وتُعبّر عن نفسها؟ هذا ما حدث وما أحسّسنا به في هذه الفترة من تاريخ عالمنا العربيّ. كانت مُعاناة أقاربنا من الجانبين الفلسطينيّ والكويتيّ عميقة. كنّا فلسطينيّين وكويتيّين في آن، وقد وعينا منذ البداية أهميّة أنّ تكون كلّ من الهويّتين داعمةً للأخرى، وأن يكون ذلك جزءاً من تربية ابنتيّ على الرّغم من التهديد والتعنيف وصعوبة الوضع في أثناء الاحتلال العراقيّ للكويت الذي استمرّ إلى ما بعد تحرير الكويت على يد التحالف الذي ضمّ عرباً وغربيّين.

في العام 2021 وبعد مرور ثلاثين عاماً على تحرير الكويت (1991) ولأنّ ابنتيّ تربّتا في أجواءٍ تُؤكّد على هويّتيهما الكويتيّة والفلسطينيّة عندما كانتا صغيرتين، انخرطنا في الشؤون الكويتيّة والفلسطينيّة كلّها. بدأت قضايا هويّة ابنتيّ الفلسطينيّتيّ الأصل، والتي كنّا نعتقد أنّها خبثٌ، تطفو على السطح من جديد. هل كان ذلك محض صدفة؟ المولّد، والانتماء، والعائلة.. كلّ هذه الأمور جعلتهما تعيشان الجانبين. إحساسهنّ بفلسطينيّتهنّ بدا للعيان بمنتهى الوضوح، بخاصّة عندما تفاقمت مشكلة حيّ الشيخ جراح في القدس المحتلّة. هكذا وجّدت ابنتاي تعبيراً جديداً لكلّ أشكال المقاومة من تظاهرات، احتجاجات، مسيرات ومن استخدامٍ كاملٍ لكلّ وسائل التواصل الاجتماعيّ التي قامتا

بتوظيفها للدفاع عن هذه الهوية المُستباحة. هذه الوصفة التي تمّ تكوينها وجبلها عندما كانتا صغيرتين تبدّت بعد سنين عديدة. أي إنّ ما زُرع فيهما كفاعلتين عبّر عن نفسه أمام التهديد وعندما سنحتِ الفرصة! عندما تعرّضت الهوية للهجوم. والسؤال هل لهذا التذبذب في إبراز الهوية عندما تتعرّض للعنف من أثر في نفسيّة المُعنّف؟

إنّ التماثل والصراع من أجل التماهي مع هويّة الأغلبية فاعل جدّاً في هذا السرد وعلى أرض الواقع. هل نشعر بعدم التوازن أو الإحساس بعقدة تجاه الأغلبية العظمى التي تتمتع بالأحقّيّة؟ هل إنّ حقيقة «استبداد الأغلبية» فاعلة هنا؟ ما دور الفعل في المُتوارث؟ ما دور الثقافة والتعليم في المُتوارث؟ ما دور الديمقراطية السياسيّة والقدرة على التعبير عن الذات؟ كلّها أسئلة ومعضلات مشروعة ومطروحة أمام هذا الجيل لأنّها تعبّر عنه وعن قضاياه التي لا تزال في طور التشكّل والفهم.

يُمكن الرجوع إلى تفاصيل تجربتي الشخصية كسيّدة كويتيّة فلسطينيّة، وبالتحديد تجربتي مع ابنتيّ في أثناء الاحتلال العراقيّ للكويت في العام 1990، المنشورة بالتفصيل عندما كانتا في مُقتبل العمر.

«Two Months Under Iraqi Occupation: A personal Account». *Digest of Middle East Studies DOMES* (Winter 1993) Vol. 2, No.1, 29-39.

حين صارت نساء عدن خياماً سوداء تتحرك

كدّسنا الخوف في غرفة في منزلنا في عدن:
14 فتاة، كبرتنا في الرابعة والعشرين والصغرى
في الثامنة. يصمُّ أذاننا صريرُ عجالات الدبّابات
في صيف العام 1994 اللاهب بنيران الحرب التي
شَنّها النظام في اليمن الشمالي، متلفّعًا بالحفاظ
على ما يُسمّى «وحدة اليمن» التي أعلنت في
العام 1990.

كانت جحافل قوّاتهم تجتاح مدينتي عدن.
وغوغاء أصوات الجند المُقتحمين في زهو
انتصارهم، تنهش أذني الصغيرة آنذاك، وهم
ينهبون المدينة ويروّعون سكّانها.

كنْتُ وثلة من فتيات على مشارف الأنوثة،
ومن نازحاتٍ هربًا من الحرب. كانت الغرفة التي
تكوّمنّا فيها شبه آمنة من نيران القذائف. لكنّ
فرائصنا ترتعد خوفًا من ذاك المجهول القادم
إلينا على شكل فتوى أصدرها شيوخ الدين لنظام
علي عبد الله صالح، وقضت بجواز «سبي نساء
الجنوب وقتل رجالهم ونهب أموالهم» باعتبارهم -
أي سكّان جنوب اليمن، في نظر نظام الشمال
وقبائله وشيوخ دينه وجنرالات جيوشه - شيوعيين
ملاحدة، ويجوز قتلهم وأسرهم وسبي نساءهم،
بحسب الفتوى المذكورة.

أذكر - كأنني لا أزال أعيش اللحظة تلك - خوفنا، رعبنا، هلعنا، فيما نفكر في منجى من المصير المرعب الزاحف إلينا من على بُعد خطوات: أنختبي في خزائن الملابس؟ تحت الأسرة؟ أم تحمل كل منّا سكيناً تخبئه في صدرها لمواجهة الغاصبين؟ جنود «الشرعية اليمينية الوحشية»، كما سموا أنفسهم آنذاك.

لعل من دخل الغرفة التي كنا مكدسات فيها تنبه لأنفاسنا المكتومة هلعاً، فيما عيوننا شاخصة إلى شاشة التلفزيون نتابع نذير الهزيمة الوشيكة لما يُسمى «الجيش الجنوبي»، وزحف «قوات الشمال»، قوات تثبيت الوحدة بالدم. كانوا خليطاً من جيش نظامي وحشود قبلية مسلحة وجماعات مليشياوية جهادية عادت من أفغانستان. وها هم يدخلون مدينتنا بمحاذاة بحر العرب، بعدما أثخنوها بقذائف «الكاتيوشا» التي لم يتوقف تساقطها الكثيف عليها طوال شهرين من الحرب، وخلفت حفراً هائلة في جسدها، وجعلت منازلها وكثرة من أحيائها ركاماً.

صبيّة كنتُ، الكبرى بين إخوتي. وها نحن محاصرون بحممة موت وشيك، نتشبث نحن الأخوة الخمسة بعنق أمنا كلما روعتنا أصوات القذائف والانفجارات. وهذا ما حدث عندما انفجر صاروخ في حي قريب، فارتجت نوافذ منزلنا. وذلك المشهد الذي بثه التلفزيون غار عميقاً في ذاكرتي: نسوة معقرات بالتراب يصرخن، يضربن وجوههن بأيديهن. وجمّع غفير يللم أشلاء بشرية متناثرة. كنتُ هلعة، مشدوهة وحزينة، فيما أتابع الكاميرا تقترب من وجه شيخ متعظم بارز الأخاديد، منكس الرأس، يلطم صدره منتحباً بناته الشابات اللواتي قضين دفعة واحدة. رأيت أجسادهن مطروحة أرضاً، مدماة، حاسرة أثوابهن عن بعض أجزائها الملطخ بياضها بالدم.

وأشد ما أوجعني وأثار شهيق عبراتي مشهد المرأة التي تبكي عنزاتها السبع، وصور جثامين الشياه، وخليط دم بشري وحيواني يرسم خطوطاً ولطخاً على الأرض.

وفي تلك الليلة نمنا جميعاً في سرير والدتنا، أكفنا قابضة على معصميهما وبأقدامها ورؤوسنا على بطنها. صبايا أربع صغيرات وولد وأمهم على سرير واحد. وفي الصباح طرقت باب منزلنا عائلات خمس من الأصدقاء والمعارف، نازحين إلى منطقتنا من مناطق اشتدت فيها المعارك.

لم يكن الخوف من السبي والاعتصاب وحده ما يُهدّدنا ويُخيفنا. كان العطش يهدّدنا في أيام عديدة، والظلام يجعلنا أشباحاً خائفات من الأشباح المتخيلة أو غير المرئية، بعدما قُطعت المياه والكهرباء عن عدن.

وكنا بناتٍ وصبيّاً صغيراً وامرأة، لا رجل معنا أو شاب يذهب مع الرجال لجلب الماء من بئرٍ ليست بالقريبة. جيران أمدّونا ببعض قناني ماء عذب للشرب وطبخ ما تيسر في البيت. لكنّ للغسيل والاعتسال، كان علينا، أختي التي تليني وأنا في النهار، ملء غالونات من ماء البحر القريب، وحملها إلى البيت مرتعبات.

ونفذ الماء العذب يوماً من بيتنا، فطبخت أمّي المعكرونة بماء البحر. وما زلتُ أذكر صعقة الملح على لساني والتهاب شفتي. وأختي الأصغر الطفلة لم تستطع أكل المعكرونة، فأخذت تبكي فأسكتت أمّي جوعها ببعض التمر.

حدث ذلك قبل نزوح أسرٍ خمس إلى منزلنا، وفيهم بعض فتية وأب أحد العائلات، فتولّوا مهمّات جلب الماء، ونجونا من غائلة العطش وماء البحر.

وذات ليلة تجددت المعارك واشتدّت في منطقتنا التي كانت قرية من جبل تقع فيه مخازن أسلحة، يبدو أنّ الجيش القادم من الشمال كان يُريد إنهاءها قبل دخوله المدينة. فقرّرت أمنا أن نُقيم في الطابق الأرضي من منزلنا ذي الطبقات الأربع. وتكوّرتنا في غرفة صغيرة تتوسّط الغرف، ظناً أنّها الأكثر أماناً من القذائف.

كان يناير ليل رعبٍ وأخوتي وأمنا مصباح الكيروسين الذي تنوص شعلته الواهنة، فتتمايل أخيلة أجسادنا على الجدار مع أزيز الانفجارات. وفي ليلةٍ أرادت أختي الخروج من الغرفة لقضاء حاجتها، فرافقتها أمّي وأنا - هكذا كنّا نترافق في حركتنا داخل البيت ليلاً لتغلّب على الخوف - إلى دورة المياه التي تفصلها عن غرفتنا صالة بمنورٍ مفتوح حتّى أعلى المنزل. حملت أمّي الفانوس لتنير لأختي التي تركت باب الحمام مفتوحاً. وفجأة ارتجّ منزلنا ومادت أرضه تحتنا. سقط الفانوس من يد أمّي وانطفأ. وهرعتُ وإياها مُسرعتين إلى إخوتي الصغار النائمين في الغرفة، فيما تعالت من ظلام الحمام الدامس صرخات أختي، قبل أن تلمّس طريقها وسط الارتجاجات وأصوات الانفجارات المتتالية.

في الصباح اكتشفنا شظايا متفحمة مُتناثرة في أرجاء صالة المَنَور. وسمعتُ أمي تحمد الله فيما هي تُحدِّق في الشظايا. وظلَّ الرعب يُلازم ليالينا التالية. وبعد أيَّامٍ أَصْفَرَّ جِسْمُ أختي، ووقَّعتُ طريحة الفراش. ويستحيل الحصول على دواءٍ فكلَّ الصيدليَّات مُغلَّقة والطرق يحفَّها الخطر والمستشفيات مُحاطة بالجند، فطبَّبتها أمي بخلطات أعشاب غلتها في الماء. وبعد شهرٍ وأكثر فتح لنا طبيبٌ نعرفه عيادته. ولَمَّا عَينَ أختي قرَّر أنها مصابة بـيرقان الكبد بسبب الخوف. وقال إنَّ مرضها متقدِّمٌ، ولا بدَّ من نقلها إلى الخارج... شفيت أختي، ولكنَّها ما زالت إلى اليوم تعاني آثار ذلك المرض.

في بداية تمّوز/يوليو وضعت الحرب أوزارها بهزيمة الجنوبيين. واقتحمت قوَّات ما سُمِّي بجيش «شرعية الوحدة» عدن، وتوقَّفت المعارك. ثمَّ استُبيحت المدينة للنهب. رأيتُ بعين الصبَّة التي كبرتُ في داخلي على أزيز الانفجارات والرعب، مدينتي عدن تُنهب وتُدمَّر، ورأيتُ أهلها يخرجون من مخابئ منازلهم في الأيام التالية، شاحبين في مدينة مهلهلة منكوبة، يتأكلهم ويتأكلني الخوف والقهر والهوان والضياع.

على شاشات التلفزة تابعنا مشاهد «جند الوحدة» مُنشغلين بالمنهوبات: يحملون المكيَّفات ومراوح التهوية، أواني المنازل وأثاثاتها. شاهدناهم يخلعون أبواب المنازل الطرفية ويحطِّمونها، وكذلك نوافذ السيارات وأبوابها لسرقتها. واقتحموا المؤسسات الحكومية. كان مبنى التلفزيون والمتحف هدفهم الأهم. عبثوا بمحتوياتهما. سرقوا مكثبات التلفزيون الفيلمية، المخطوطات وقطع الآثار واللِّقى. ولم تنج الجامعة من نهبهم: مُختبراتها، طاولاتها، كراسيها، ومدِّرجاتها. والمدارس نُهبَت بدورها.

ومكَّن النظامُ المُنتصر الإسلاميُّ المتطرِّفين من المدينة، مكافأة لهم على نصرته. رأيتهم ينتشرون على منابر مساجدها يواصلون ما جاء في فتوى إباحة الدم والتكفير - وراحوا يُهدِّدون بالويل والثبور مَنْ يُسمَّونهم «المارقين الكفرة»، والشيوعية البائدة». حتَّى أنني في السنين اللاحقة حين أشتدَّ عود وعيي وعودي وأشدتُّ مُواجهتي معهم عبر كتاباتي، سوف أسمع تهديدهم وتكفيرهم لي من على منبر المسجد القريب من منزلنا.

وكان حدسي قد استشعرَ هول التغيير وقتامة القادم إلينا، حينما بعد أشهر قليلة من انتهاء الحرب قابلتُ صديقتي التي كانت من النازحات وأسرتها إلى منزلنا. لم أعرفها، إلّا بعدما أزاحت قليلاً النقاب عن وجهها. كان قفازان سوداوان يُكفنان كفيها وعباءة سميكة سوداء تكفن جسمها حتّى قدميها. أصبحت خيمة من سوادٍ يتحرّك.

كانت قد مضت أشهر على اقتحام عدن، عندما انتشرت حوادث ضرب الفتيات في الشوارع. الفتيات السافرات وجوههنّ وشعورهنّ. أطفأوا السجائر في وجوه بعض اللواتي لم ينصعن لعسف المتطرفين.

وهيمن الرعب والحذر على النساء وأهلهنّ. رعب تُغطّيه حملة تعبئة بمحاضرات دينية تنشط في إلقائها من سُمّين «المُرشدات» الداعيات، ينسربن إلى الجلسات المنزلية والتجمّعات النسائية... التي كنّ يحاولن استقطابي إليها، فأرفض الذهاب. ولم يدر في خلدي يومها أنّ مواجهاتي معهم ستشتدّ وتسمّم حياتي المُقبلة، عندما تزايد إدراكي ووعيي، وامتلكت يراعاً للكتابة والتعبير.

وسرعان ما اختفت مظاهر الاختلاط بين الجنسين في الحياة العامة بنشاطاتها وأدوارها. وانتهى الاختلاط تماماً في الأعراس والحفلات، وشاع ما سُمّي «العرس الإسلامي»، لتلبس العروس فيه والمدعوّات الحجابات، ومُنع الرجال من حضوره. ثمّ انتشرت أشرطة «الكاسيت» محمّلة بمحاضرات الدعاة وثقافة الوعيد الأخرويّ وعذاب القبر ونار جهنّم.

ضرب الخوف والرعب عميقاً في الوعي الاجتماعي وفي العلاقات الاجتماعية، في مُجتمع وإن كان مدينيّاً، وغلّفته الأيديولوجيا الاشتراكية لفترة، فإنّ جذوره قبلية مُحافظة، ومُحاطٌ بريفٍ وقرى وكتلٍ بشرية لم تُعرف التحديث. وهي أصبحت مَوَلاً لجماعات الإرهاب العائدة من أفغانستان، ضمن صفقة بين الحكومة والمُجتمع الدولي آنذاك.

تغيّر سلوكُ الأسر. فغصبتُ أسراً كثيرة بناتها على ارتداء النقاب خوفاً من تعرّضهنّ لمُضايقاتٍ واعتداءات. وفي أثناء سنواتٍ قليلة انغلق الناس بشدة، واختفت النسوة في الجلابيب السود.

حتّى وجدتني وقلة قليلة من الفتيات نسير في الشارع بشعرٍ مكشوف، قبل أن نرغم جميعاً على ارتداء العباءة وتكفين شعورنا بالحجاب، درءاً للخطر الذي سنتعرّض له، إذا أصررنا على مَسلكنا المُشين في أعراف (الغُزاة) المُتطرّفين دينياً. وكان ذلك اللباس الذي سَمَح لي بكشف وجهي أخفّ وطأة وأهون شراً في نظري من تلك الأكفان السوداء وطبقاتها الغليظة التي لَفَت أجساد معظم النسوة في مدينة القِيط الدائم الذي يشوي الحَجَر.

الحربُ والغزو الشماليّان وما رافقهما من نهب وفتاوى دينيّة، وإطلاق سلطة الجماعات التكفيريّة في الفضاء العامّ وعسكرته، وتنصيب عناصرها ودُعائها حُرّاس عِفّة وولاية على المُجتمع يحميهم النظام ويدعمهم... كلّ هذه الأحداث قوَّضت ما حقّقته نساءُ عدن والجنوب من مُكتسباتٍ حقوقيّة، وكلّ ما بُني من مظاهر انفتاح وعصرنة.

أقلع بعض زميلاتي عن مُواصلة دراستهنّ. وزادت حالات الزواج التقليديّ، وخصوصاً بين الصغيرات. ونشط دور الخاطبة مجدّداً، بعدما كان قد تلاشى. وانخرط كثيرٌ من أقراني الذكور في الجماعات التكفيريّة. وهَجَرَ بعضهم المَدارس مُطلّقين لحاهم معتكفين في المساجد، أو التحقوا بثكنات تدريب النشء في المعاهد الإسلاميّة التي أنشأها «حزب الإصلاح» (الإخوان المسلمون) أكبر الأحزاب الإسلاميّة في اليمن، بدعمٍ من النظام الحاكم.

ولفَظت الحريّات العامّة والخاصّة أنفاسها الأخيرة. وحُرِّم الاختلاط بالقوّة، وتعرّض للضرب كلُّ شاب وفتاة، رجل وامرأة، يجلسان على شاطئٍ دونما إظهار ورقة زواج. وإنّ أظهرها فجلستهما تُعتبر فجوراً أو انحلالاً، وخصوصاً إذا كانت الفتاة سافرة الوجه.

وكان إلغاء قانون الأسرة من التدابير الأولى التي أعلنتها حكومة «الوحدة». وهو قانون سنّ في الجنوب قبل الوحدة، في أثناء حُكم دولة «جمهورية اليمن الديمقراطيّة الشعبيّة». وتضمّن منظومة متقدّمة من القوانين التي ساوت في الحقوق بين المرأة والرجل، وسمحت بالزواج المدني، وبحقّ المرأة في تزويج نفسها بنفسها، ومنحتها الحقّ بالطلاق والحضانة، بالسفر واستخراج وثائق الهوية والوثائق الرسميّة من دون ولاية رجل.

ألغى القانون الجديد كلَّ هذه الحقوق. ومنَعَ تزويج المرأة إلا بموافقة وليِّها، بل منحه حقَّ تزويجها من دون موافقتها. وشُرِّع زواج القاصرات الذي كان ممنوعاً في القانون السابق. وأعاد العمل بما يُسمَّى «بيت الطاعة»، وسُمِّح بتعدد الزوجات من دون حسيب، وهو كان مقنناً في السابق، ومربوطاً بالتسيب. وفرضت ولاية الرجل على المرأة في مناحي حياتها وحقوقها كلّها.

وكان هذا كله كما أسلفنا، انتكاسةً كبرى لمكتسبات النساء التي حقّقنها في جنوب ما قبل الوحدة.

وتغيّرت طبيعة الحياة في مدينة عدن. وهي المدينة التي شهدت تطوّراً وانفتاحاً اجتماعياً هَيَّأَها لها حُكم الاستعمار البريطانيّ طوال مِئَةٍ وثلاثين عاماً، وأعقبه الاستقلال وحُكم الحزب الاشتراكيّ الذي سعى إلى التحديث الاجتماعيّ، مُصطفاً في ضِفّة المُعسكر الاشتراكيّ والاتّحاد السوفياتيّ في تلك الحقبة. وسُمِّي نظامه بالشيوعيّ في مُحيطه الإقليميّ.

ورُوِّعت النُخب التي تربّت وشهدت حقبة ما قبل «الوحدة»، خافت وتوقعت وانساقَ بعضها في مَوْجة تيارات الإسلام السياسيّ.

ومرّت السنون، وراوحت مواقع النساء ونشاطهنّ العام بين انتزاعهنّ بعض الحقوق وبعض النجاحات الفرديّة، وبين المُطالبات والمُجابهات مع عسف القوانين الانتهاكيّة، وهجمة الخطاب المتطرّف المدعوم من الأحزاب والجماعات الدينيّة. وكذلك من المنظومة الحاكمة التي استخدّمت قضايا النساء وحقوقهنّ للمُساومة والمُقايسة السياسيّة. وفي ظلّ احترابٍ داخليّ وصراعٍ سياسيٍّ ودولةٍ يتنازع النفوذ فيها العسكرُ ومشايخ القبائل وجماعات التطرّف الدينيّ.

وحلّ العام 2011 حاملاً أحلام غدٍ جديد. تقدّمت النساء ساحات انتفاضة ما سُمِّي «الربيع العربيّ». ورأينا مشهداً عريضاً لمسيرات النساء مُتَشحّات بالسواد. لكنّا احتفينا بحضورهنّ الفيزيائيّ بتلك الكثافة غير المسبوقة، قبل أن نكتشف استخدام الأحزاب السياسيّة للانتفاضة الشعبيّة، وتكثيف حضور النساء فيها، وخصوصاً الناشطات المُتمنّيات

إلى تلك الأحزاب. وهي الأحزاب التي انحرفت بالانتفاضة إلى مُساوَماتٍ في سياق الصراع السياسي والحزبي على السلطة.

وفي مستهل ربيع 2015 دَهَمَتْنَا حربٌ جديدة. أُصاب بهيستيريا، فأروح أُحْدِث نفسي بما سبق. متكوّرةً ألود بركبتي وأنشج مُنتحبةً وحيدة في غُربتي البيروتية التي كنت أتلَمَس بداية حياتي فيها.

في بيروت رحْتُ ألطم هواءَ غرفتي التي شعرتُ بجدرانها الأربعة تضيق وتُطبق على جسدي، مُستعيدةً رعب تلك الأيَّام من صيف 1994، فيما أتابع أخبار جحافل ميليشيات الحوثي وقوَّات الطاغية علي عبد الله صالح تقتحم مدينة عدن، في اجتياح جديد يُعمِّق الجرح الذي أصاب جنوب اليمن في حرب 1994. جرحٌ لا يزال ينزّ صديده ولم يُشفَ منه بعد.

محركة جديدة يصلني لهيئها، في صوت أمي وأخواتي وبكاء أطفالهنّ الهلّعين المروّعين. أتكوّر بعد كلّ مكالمة هاتفيةً معهنّ، أضَمّ ركبتي اللَّتين ليس لي من ملاذ سواهما في الغربة. أضَمَّهما منتحبةً بصوتٍ ظننْتُ العالمُ كله يسمعه. فأكتشف أن لا أحد يسمعه سواي. وليس لي سوى شاشة التلفزيون ومواقع التواصل الاجتماعيّ أستقي منها فجائعي اليومية. أرى مشهد اللّهب يتصاعد من البناية بجوار منزل أهلي. أتصل ممسوسة، فلا أحد يجيب. ثمّ يأتيني نسيجُ أختي وكلماتها المتقطّعة: اطمئني لقد غادرنا اليمن جميعنا. تُخبرني عن طفلتيها اللّذين ينهضان في الليل زاعقين وقد تبرّزا على نفسيهما. تذكّرتُ اصفرارَ أختي وتحولَ جسدها خيطاً نحيلاً على فراش المرض في الحرب السابقة. أسائل نفسي ومُلوحة الدمع الذي ينهمر تلسع لساني. دمعٌ لا يزال يومياً أو أسبوعياً حتّى اللّحظة يغسل وجهي كلّما سمعتُ خبراً عن استشهاد قريب أو عزيز في أتون حرب وقتل وتجويع وتشريد لا نعلم لها نهاية. وليس من تفسيرٍ يشفي تساؤلي الجريح: لماذا نستمرّ قتل بعضنا وأنفسنا؟!

ولا يصادي نحبي سوى نحيب نائحات في جهات الأرض التي تشتت عائلتي في مهاجرها. عائلتي وعائلات كثيرة من معارفي وأقاربي وأصدقائي في الوسط الأدبيّ والأكاديمي، ونشطاء المُجتمع المدنيّ.

الهجرة والتشرد في أصقاع الأرض هو العنوان الأشد قتامة في هذه الحرب، وخصوصاً النُخب. وشملت الحرب اليمن كله، وخبرت «نخب الشمال» هذه المرة كذلك مذاق عسف الجند وجحافل القتل، بعدما صمتت عن مظلمة الجنوب. وها هي تعيش ما يشبه تلك المرارة، مرارتنا. هي العبرة. فلطالما كانت النُخب في بلداننا العربية الأكثر مخاتلة، وهي من يُناط بها إحقاق الحق، فإذا بها تتخلى عن دورها وتترك مكانها لبيادق الجبروت والظلم والجهل.

غير أن في هذه الحرب المستجدة الجديدة، وعت النساء ما قد ينتظرن، وخصوصاً المُبدعات والناشطات منهن، اللواتي حَقَّقْنَ قدراً لا بأس به من انتزاع حقوقهن، فنَجَّينَ بأنفسهنّ بالمهاجر، وتلقّتهنّ الغربية، وحيدات أو مع عائلاتهنّ.

وتترأى إليّ يومياً قصص مغادرتهنّ «أرض اليباب»، يؤمن أرضاً آمنة تحفظ إنسانيتهنّ، قبل أن يتعرضنّ للانتهاك. انتهاك تُهدّدهنّ به يومياً سدنة الحروب ومشعلوها. بعضهنّ يُحقّقن ذواتهنّ الفرديّة، ويُحاولنّ قدر استطاعتهنّ على مستوى المنظّمات المعنيّة بالسلام، وفي أروقة جماعات الفنّ والإبداع. يُجاهدنّ لمدّ دلو الإنقاذ إلى قعر الجبّ، لعلهنّ يُنقذن ما تبقى من جمالٍ في بلدهنّ المحترق.

يكمن خطر الحرب الحاليّة، إلى جانب القتل والدمار اليوميّ، في تجريف البنية الاجتماعيّة من نُخبها المتعلّمة والمثقّفة. تجريفها من كلّ محفّزات السّلم والأمن الاجتماعيّين، وإباحتها للغوغاء وتجار الحروب، والسقوط في هوة بلا قرار، ولا نعلم متى نتوقّف عن الانحدار فيها.

خطر الحرب أنّ وقتنا فيها ليس وقتاً مُستقطّعاً من الزمن البشريّ، بل وقت منسيّ. وربّما خبّيّ في «مخزن عتيق» يحجبه غبار نيزك سقط سهواً في صحراء الربع الخالي، فسرقه خلسة جدّ عربيّ نزق. أو لعلّه وقتٌ علق في ظفائر السبايا في غزوة بين قبائل العرب التي لا تكفّ تتغازى وتحترب في ما بينها!

When I saw the call for contributions for this volume, I spoke to my mother Fatma Allouch and proposed that we write something together about her childhood and that of her sisters during and after the Algerian War of Independence. This was not an interview as such, but a shared writing process with both of us asking questions and working on the structure of this testimony. This piece was first written in the Algerian dialect and then translated into English. The pronoun «I» used throughout the piece refers to my mother. While we have attempted to be as truthful as possible, we have had to withhold some details to protect the privacy and safety of our family.

I am now 65 years old, maybe less or more, I don't really know. I was born during the war of independence of my country, Algeria⁽¹⁾, and I was not immediately registered. It was only after

**«We were like a bird
who had gotten its
freedom but did not
know how to fly»
Recollections of
a Woman Born
during
the Algerian
Independence War**

(1) Since 1830, Algeria was under the brutal colonial rule of France with many Algerians losing their lives, tortured or undergoing humiliations of various kinds at the hands of their colonisers. Throughout this period, the Algerian people constantly resisted the French and attempted to regain their freedom. However, the 1st of November 1954 is widely considered as the starting date of the Algerian War of Independence. Eight years later and with more than a million and half Algerian lives taken, the country gained its independence in July 1962, putting an end to more than a century of French colonization.

Imene Zoulikha Kassous
Fatma Allouch

independence that I was taken to a doctor who prepared a certificate suggesting my age and the year I was born in. I am the youngest daughter of an Algerian martyr. I was born on a small farm in the west of Algeria. This farm was three kilometers away from the nearest hamlet⁽²⁾ where other members of my family lived. I have three sisters and one brother. We were a financially stable family as my dad was a farmer and trader with a powerful status in his hamlet.

I was born in 1956, two years after the start of the Algerian war of independence. As a baby, I do not remember what happened during those years, but my family was more than generous in filling in the details.

My father was one of the most courageous *mujahideen* (guerrilla fighters)⁽³⁾. He used to work on his farm during the day and help Algerian *mujahideen* at night to swim through the valley and navigate the right roads to join the *mujahideen* in other areas. One day, in the hot summer of 1958, the French soldiers came to our house, led there by a man they had forced to inform on my father.

As I was a baby, I do not remember anything about that day. The only thing my mother told me is that my father had bought me very nice red shoes shortly before he died, and I was wearing them when they came to steal him from us. The French soldiers brought my father into our house and kicked all of us out. They used chemicals, most probably yellow sulphur, which was mainly used for treating grape vines, and salt to torture him; they also hit him and carried out other forms of torture. They had not noticed that my elder brother was sleeping in another room, and the noise woke him up. He recalls seeing my father with one eye closed and the other open, with tears falling down his face. When the French soldiers saw my brother, they started asking him whether the *mujahideen* ever came to our house. But he did not understand and could not answer. They then took him out of the house. My brother was traumatized by this incident, and to this day, he feels afraid whenever he sees officers or anyone in uniform.

(2) A hamlet in Algeria refers to a small grouping of people living together and is smaller than a village. In Algeria, it is called *دوار*.

(3) Algerian fighters who fought against the French colonizers. We decided to use the term *Mujahideen* instead of guerrilla fighters because it represents the Algerian context more than the English translation.

A French soldier told my father that if he confessed, they would let him go. My dad replied, «I have nothing to confess or say, you enemy of Allah». They tortured him from 1 p.m. to 5 p.m., showing no mercy and then killed him with one shot. His only request was not to be left in the mountains to be eaten by animals. His family and his brothers searched for his body and buried him. They did not have the time to dig a new grave as they were afraid that the French would come and kill them. In the end, they buried him in someone else's grave.

Although our family had already been living in fear, the death of my father meant the end of safety and happiness; it was the real start of our misery. Fear was everywhere in our house. I was still a baby at the time, and I needed nutrition and love. However, there was none to be found. My mother was so traumatized that she was unable to take care of me, and her breast milk was affected. My eldest sister told me that whenever I felt hungry, I would eat soil. My body became so weak, and it was only due to the mercy of Allah that I am still alive and healthy.

After the death of my father, we moved to the hamlet and stayed there for two years as my mother was too scared to stay alone. My mother was also a *mujahida*, just like my father. She continued to fight after his death despite her psychological state. She lived under tremendous risk as there were many people who informed on her. Fortunately, the head of the hamlet and the *mujahideen* would always protect her. At one point, she had to stop and move to another area for her safety. The French colonizers approved her move, and our relatives built for us a very poorly structured house. According to the terms dictated by the French, no one was allowed to visit us, and my grandfather only came to see us a few times. We were very poor as my mother did not know how to manage my father's assets, and everything he owned including money, sheep, cows, yield, etc. slowly disappeared. The cattle either died or were stolen and my mother used the money to feed us and buy a house. The rest of the money was most probably stolen, but no one knows for sure what really happened.

Due to our poverty, my eldest sister decided to work as a housekeeper and cleaner. She was a young teenager at the time and had not had the chance to go to school. She worked in the house of an Algerian family but the wife

was jealous of my sister. She would mistreat and discriminate against her. So, my sister had to quit her job.

We got our independence in 1962. I remember seeing men, women and children in tractors and trucks celebrating, clapping, and ululating. My mother did not go out that day as she remembered my father and started crying because he could not see his country free from colonialism. All the other children were taken out by their families to celebrate, including children of martyrs, but no one hugged or embraced us. We were marginalized, and our house was always under French scrutiny before independence. For this reason, no one approached us even on Independence Day. My father was not there, so what did we expect? We stood there observing, like a bird who had gotten its freedom but did not know how to fly.

I would go with my other sister—who was two years older than me—to the market to bring home any leftover vegetables that we could find. I was always sad and afraid as a child. I was not like other children who would play happily and enjoy being outside. I used to avoid other children. I could not go to school. Actually, probably around 1964, I went for a month, but the teacher asked for my birth certificate, and I did not have one. It was then that my mother took me to the doctor to get registered. I did not return to school immediately but stayed home for almost a year. I only started school in 1966 when I was probably 10 years old, and I studied until the fourth year at primary school. I stopped going to school when we moved to another house. I felt embarrassed that all the other children in the classroom were younger than me. I was a very good student who had high marks although I had no one to tutor me at home. I did not have proper clothes, and I would sometimes walk without shoes. We were so poor that I started going with my sister to clean houses to support and feed our family. Then, I worked at a hotel for almost 6 weeks, washing dishes.

I felt jealous of other children. I would look at them going to school, and my wish was to go to school too, to wear nice clothes and to be a child. Sadly, I would compare my childhood and life to that of Palestinian children now.

As a girl, I felt that I was constantly under pressure with no sense of security. According to my mother, girls did not generally feel safe in the presence of the French soldiers, who used to abuse them, especially the

beautiful girls. For this reason, they were kept hidden at home to protect them. They did not wash themselves and stayed dirty just to hide their beauty. But since we lived on a farm that was 3 kms away from the nearest grouping of people, my sisters were not visible to the French soldiers and my father was very strong and could protect them. After the death of my father, we lived in the hamlet where we were protected by its head as well as the *mujahideen*. Then we moved to another place under French surveillance, and there were terms dictated by the French to control my mother's activities as previously explained.

The voices of girls were not heard in public at that time. When a man spoke, women had to stay silent. Whether it was during colonization or after independence I, as a girl, always felt afraid. When I walked in the streets, my head was always down, if someone talked to me, I would never reply or dare to speak up. I was afraid because I had no one to protect me or my siblings. It was only my mother who stood up for us all the time.

One example about my struggle as a young woman: When I started looking for a job, no opportunities were available. They saw me as a powerless female with no father and no one to support her. I could not find a job easily as I had no connections or people to refer me or put in a good word on my behalf. After a long journey of looking for jobs and getting disappointed, there were finally some people who believed in me and helped me. I finally found a job in 1982 when I was around 26 years old.

Growing up, we were deprived of our basic needs. We never had enough food; if we had lunch, we would not dream of eating dinner. We would all sleep in one place, using the same duvet. When it was cold, we slept uncomfortably, pressing our bodies together until the morning. We used to wait until there was some sun where we could stand to feel warmer.

In 1978 I went to France to stay with my eldest sister who had migrated there due to our poor living conditions in Algeria after independence. I stayed there for three years, and then my mother asked me to return home. There was an incident that I will never forget. We were at a market in France, when we met a Pied-Noir⁽⁴⁾ who shamelessly told us to go back to Algeria

(4) French or European people who lived in Algeria when it was under the colonization of the French and left after independence.

because our country is very wealthy. I could not answer her because I was in their country. I wanted to say, 'you destroyed our country, you killed our people for 132 years, you killed my father, you left nothing good in our land'. I did not feel comfortable staying in France, and I am so happy that I made the decision to return to Algeria. Despite everything, I love being in my country, my dear Algeria.

Our lives and the lives of many Algerians were destroyed by colonization. I always wonder how our lives would have been if France had not colonized us. I am sure things would have been wonderful. We would have lived peacefully with our parents. I would have gone to school and my brother would not have been traumatized his whole life. But that life will remain only a dream.

الهروب إلى نانجيالا^(*): كيف أنقذني الخيال في زمن الحرب

في نانجيالا^(**)، ليس هناك وقت
أمّا في غرفتي، فالساعة الثانية عشرة وسبع
دقائق. ما بين عودة فيلاياس فوغ للندن واكتسابه
الرّهان غفوْتُ. غفوْتُ قبل ساعة وأنا أحلم
بالمدرسة وبلندن وبمزيدٍ من الكتب. غفوْتُ
وعلى طاولتي هنالك دفتر وقلم حبر تعلّمتُ
الأسبوع الماضي كيف استبدل الرصاص به ورزّمة
من الكتب تضییء أغلفتها لمبة صغيرة مربّعة
للقراءة. غفوْتُ والمدينة يلفّها الهدوء وبقايا مطر
الأمس.

بعد أعوام من هذه اللّيلة سيبقى في ذاكرتي
ضوءٌ أزرق يتراقص على الخزّانة البيضاء التي تقع
قبالة غرفتي وتطلّ على الشارع العامّ. بعد أعوام
سيبقى في ذاكرتي صوتٌ أزيز عالٍ كأنّ إمّعاء
الشارع العامّ تتمزّق ألماً طول اللّيل. بعد أعوام
سيبقى صوتٌ أمّي التي ترفض أن تطيع يعلو في
أذني.

أليس يوسف

في نانجيالا، شجر كرز ولوز...

في الباحة المُقابلة لمنزلي شجرة لوز نُجّبها
كثيراً أنا وإخوتي وأولاد الجيران الأربعة، في

(**) نانجيالا: بلدة متخيّلة في كتاب «الأخوان» لأستيرد
ليندجرين، تعيش هذه البلدة وفق زمن المغامرة والأسطورة
وتمتاز بشجر الكرز واللّوز والهدوء.

(*) مقطع من سيرة شخصية: تناول هذه
السيرة الشخصية مقطعاً صغيراً من حياتي
في القدس - فلسطين في بداية أشهر
الانتفاضة الفلسطينية الثانية (انتفاضة
الأقصى 2000 - 2004)، أستقي هذه السيرة
الذاتية من يومياتي كطفلة في أوج فترة
الحرب، شهر آذار/مارس من العام 2001.

تلك الأرض الكبيرة أيضاً أربع أشجار زيتون وعشب كثيف وهضبة إسمنتية صغيرة وخشب لبنت الشجرة. ومساء هذه الليلة ثلاث دبابات بجنازير كبيرة تجرّها فترك أثراً و«جيب» عسكري. في بيتي أهلي والجيران وأولاد الجيران الأربعة وجنديان بطلاء أسود على وجوههم.

في نانجيالا، كاتالا التّنين العنيف ينفث ناراً ويشلّ ما يمشي في طريقه. وفي باحة المنزل تُحرّك الدّبابة مدفعيتها لليمين ولليسار، وفي كلّ حركة بعيدة عن زجاج المنزل نسمع زفيرنا كلّنا مرة واحدة. لا مكان آخر نذهب إليه الساعة الثانية بعد منتصف الليل. في بطن البيت نتكوّر على ذواتنا تحت بطّانية واحدة أغلينا يهمس وبعضنا يُصليّ والباقي يرتجف... الحرب أرخت أوزارها وشلّتنا جميعاً بنارها. كلّما فكّرْتُ بعمق في ما تعلّمته خلال الصفّ السادس خرجتُ بدرس واحدٍ فقط: هنالك أشكالٌ عدّة للخوف، وشكلٌ واحدٌ للشجاعة. الشجاعة ليست اندفاعاً، وليست عنفاً وهي حتماً ليست أن تقف من دون أن ترجف رجلاك مع أنّه طبعاً من المستحبّ ألا ترتجف: إنّما الشجاعة شيئا فقط، أن تتعلّم كيف تستعمل عقلك وأن تهرب. نعم أن تهرب!

بعد أسبوع من استيقاظي في منتصف الليل و«صبحية» الشاي غير المتوقّعة مع الجيران، تمكّنتُ من العودة إلى المدرسة لبعض الأيام وهنالك تعلّمت أوّل طريقة للهرب. الشوارع في المدينة لا تشبه ذاتها، كلّها اكتسبت ندباً جديدة وبعضها مقبور البطن ينزّ ماءً وأخرى لمع بنحاس الرصاص المفرّغ وغيرها ما زالت الدّبابات تحرسه. في ساحة المدرسة، كلّ منّا يتحدّث عن بيته وكأنّ العالم الواسع ضاق كثيراً جدّاً ليحمل بيت كلّ منّا عالماً: فتارة عالم بزجاج اخترقه رصاص وتارة عالم آخر مُنزو لم يطل غير أزيز الطائرات وصوت قصفها وآخر تبعثر فيه السكر والزيت والأرز الجافّ في خلطة لم تكن على بال أيّ واحد. طالبات الصفّ السادس وغيرهنّ ممّن اختلفت عليهنّ الحياة قد بدا واضحاً أيضاً أنّهنّ وأنا منهنّ اعتدنا على الأصوات العالية الأمّرة «بيتك بيتك» مثلاً، أو «ممنوع التجوّل حتّى إشعار آخر». فلم نجفل حين جاء الصوت واضحاً: «يا بنات وقّفوا بالصفّ وبلا حديث جانبي». معلّمة الرياضة الجديدة صرخت فينا وكأنّنا بلا سمع. وعندما ضبّطت الصفّ أدارت ظهرها للحضور وأشارت للجرس: حين يقرع هذا الجرس ولا يتوقّف أريد

من كل منكر أن تعمل ما يلي. أشارت إلى الأرض وفجأة اختفت. تحلقنا حولها بأعين واسعة، فقد كانت «المِس» (*) على الأرض كسمكة خرجت من الماء تُحرك يديها للأمام ثم تدفع برجليها لتجعل جسمها يسير للأمام زحفاً على الأرض كأفعى. ضحكة خافتة أطلقتها روان والتي جعلت «المِس» تقفز على قدميها وتصيح بروان: «ما بمزح، اليوم بدنا نتعلم وضعيّة النزول إلى الملجأ، لأنّه بدنا نحمي حالنا... مية جبان ولا الله يرحمني».

في التدريب التفاعلي للهروب لم أفكر، أطعت فوراً، ولكن عندما وصلنا إلى الملجأ المدرسي لم أتمالك نفسي. كنت قد أعددت ذاتي لرحلة مُثيرة كأبطال كونان دويل، حتماً إن الركض على الدرج متبوع بهذا الزحف كله تجاه باطن المدرسة سيفضي إلى ديصورات أو على الأقل إلى بركان أو نباتات غريبة خارقة أو زهور أو شيء ما وراء البيانو الكبير غير الغبرة ويا لخيبة الأمل عندما وجدت نفسي في قاعة الرياضة التي حملت في زاويتها قارورات مياه ومعلبات وعدداً من الفرشات الرياضيّة الزائدة!

إلا أن العودة إلى المدرسة ولو لبعض أيام أعادت لي الإحساس بالحياة الطبيعيّة. لم تُخبرني أمي أو أي من معلّماتي أنّه في الصفّ السادس تحدث كل التغيرات المُلهمة لفتاة نحيلة في الحادية عشرة من عمرها! ففي هذه السنة الدراسيّة المحظوظة تتسع المساحة للحديث عن الجسد الذي يتغيّر وتكبر دفاتر الواجبات وتتعدّد الكلمات التي نستطيع بها أن نُعبّر عن كل شيء والتي بدورها تهرب حين نحتاج إليها في الظلام. كانت هذه اللحظات العابرة مُتنفّساً لي وللأخريات كما كانت محطة أمان وسعادة لأمي حين ترى أنني ما زلت فتاةً طبيعيّة ولم أتحول إلى «حسن صبي» بشعري القصير وإصراري على تعلم الفوتبول و«تعربش السور» مع أولاد الحارة حين كان يخفّ دويّ المدافع. لم تكن أمي بحاجة إلى القلق ولكنني لا ألومها، فماذا يحدث عندما يتغيّر عالمك كله بلحظة؟ وماذا يحدث للطفولة وكيف نذكرها؟

الذاكرة خوّانة فهي تميل بنا عادةً تجاه مكيال الفرح، ولربما هنا نقف مُمتنين قليلاً، وبخاصّة ممّن كبر، للنسيان اللّحظي. ففي النسيان اللّحظي هروب ثانٍ، وبالتالي، شجاعة. أن تنسى للحظة أنك طفل تعيش بحربٍ معناه أن تتعلم كيف تقود دراجة هوائية

(*) «مِس»: مُعلّمتي، تُستعمل عادةً في فلسطين كترجمة حرفيّة للمصطلح الإنكليزي «آنسة» في إشارة إلى المعلّمة.

في مساحة الكراج المُخصَّص لسيَّارة «فيات» لا تسع سوى أربعة ركَّاب. أن تنسى للحظةٍ معناه أيضاً أن تضبطَ مَنْ يغشَّ من إخوتك الصغار في لعبة «المونوبولي» والتلفاز يُعيد تدوير أخبار الأمس ويزيد عليها أرقاماً لا شأن لك فيها. أن تنسى معناه أن تتعلَّم السباحة وتأخذ أبعد الطرق إلى المسيح لتتفادى صيد القنَّاص. أن تنسى لثانيةٍ أنَّ عالمك ينهار معناه أن تأخذ الألوان المائيةَّ كلّها وتلوّن بها جميع وجوه السياسيين والجنود في الجريدة ثم تتذكَّر فتلفَّ الجرائد بالكيس الأسود وتلقي بها في أقرب حاوية. أن تنسى كفتاة أنَّ الحرب تأخذ أطفال الآخرين معناه أن تُغطِّي لعبتك ببطانيةٍ أخرى خوفاً عليها من برد الليل وتضمِّيها إلى صدرك حين تثنَّ الطائرات في السماء.

ولكنِّي ظلُّ مختلف في تعريفات الخوف وأساليب الهرب. كنتُ أنا قد اخترتُ الطريق الأبعد، الأكثر أماناً. لربَّما لم اخترَ هذا الهرب عن وعي ولكنَّه لازمني وغيرَ كلِّ حياتي بل يُمكنني أن أقول إنَّه أنقذني. عندما كانت القذائف تهبط فوق مدينتي وعندما كنتُ أسمع وأرى الطائرات تحلق فوق بيتي الصغير كنتُ اختبئ تحت بطانيتي وأتظاهر أنَّي لا اسمعها وأقرأ. أنا هربتُ من لندن إلى نانجيالا وثمَّ إلى بلد العجائب، وإلى عمق البحار. جلُتُ مع جول فيرن وكونان دويل وهيرمن ميلفل ولويس كارول وشارلوت وإيملي برونتي أينما قرَّروا أن يرحلوا بي. في العالم المُوازي كانت نجدتي: ففي لندن ومع فيلايس فوغ كسبتُ الرهان ضدَّ الزمن، وكأليس لحقتُ بالأرانب التي رَسَمَتْها أصابعي في ظلِّ المصباح على الحائط لأهدئ من روع أخواتي في العتمة. وفي خضمَّ الخوف من الطغاة ولشدة هوسِي بكتب استريد لدنجرين ضعُت في ثورة وادي الكرز ضدَّ تَتين نانجيالا وضدَّ الموت الذي شبعُت منه في الأخبار والصحف. كانت الكُتب طوقَ نِجاةٍ لآني حين أغمض عيني أننتقل فوراً إلى عالمٍ يختلف تماماً عن العتمة والخوف والظلمة: كان عالماً من نور وزهور وأبطال وبطلات. أسعفتني البطولة الأنثى، لآني وكهاربة، لم أعتقد يوماً أنَّني أملك ذرَّةً واحدةً من الشجاعة التي كانت من نصيب الأخريات وتجاوزتني. كنتُ أعِي قَدري، أنا كانت لي الكلمات وللأخريات الفعل. وفي ظلِّ الفوضى كان للكلمة الأثر الأكبر والحظُّ الأوفر، فالذاكرة المُتناسية تُسعفني في المرات التي ضَبَطْتُني أمِّي وأنا ألتصق بلمبتي الصغيرة أُخبئُ كتاباً ليساعدني على تجاوز الأرق الذي سبَّه لي دويُّ الرصاص، أرى أمِّي تهزُّ رأسها: «رح تخربي عينيكي بالقراءة على النؤاسة!». الهرب للخيال تركَّ مساحةً

صحيّة في الواقع، ففي باطن الأرض أو حفرة أليس وغيرها لا تُطبّق القواعد الخاصّة بالعالم الحقيقيّ: أشياء تطير والحيوانات تتحدّث والأجساد تكبر وتصغر. بينما في البيت، الأجساد تكبر والقلوب تصغر والأصوات تعلو والليل موحش؛ في العالم الخياليّ يسود الهدوء وتندرج الألوان. في العالم المُتخيّل يُمكننا أن نكون ما نريد من دون أن يضبط أحدٌ دوافعنا أو أن تلوّث أحذية الجند أحلامنا. ولربّما هنا كَمَن سرُّ الشجاعة: إنني في هذا العالم، ولو لِلحظّات، استطعتُ أن أكون كما أريد: بشعر طويل أو قصير، بروح مغامرة أو خجولة، بزمان يشبه ذاك الذي على ساعتَي التي تتقدّم ساعتين عن غرينيتش. كنتُ أنا كما تخيلتُ ذاتي: آمنّة لأنّي أنا حرّة.

الساعة الآن السادسة بتوقيت القدس.

في نانجيالا، ليس هناك وقت.

في نانجيالا تركتُ نسخةً مِنّي، فتاة تبحث عن ذاتها تحت شجرة لوز.
أبحث عنّي.

مشهدية طفولة في زمن الحروب

أعود بالذكرى إلى طفولتي وإلى أحداث 1958 التي عصفت ببلدان لمدة خمسة أشهر. لم أكن أعرف يومها أنني كنت أعيش تجربتي الأولى مع الحروب. ذكريات تخلط ما بين لعب الطفولة ودويّ المعارك بقيت قابعة في أعماقي طيلة حياتي، تطفو إلى الواقع كلما عشت لحظاتٍ مُماثلة لتُصبح في سرعة برق صلة الوصل ما بين الحاضر والماضي، ولتنقلني إلى صورٍ وإلى مشهدية عشتها صغيرة وأصبحت جزءاً من التاريخ.

ولدت ونشأت في بيروت في منطقة «المصيطبة» من عائلة بيروتية قديمة غدت منذ مئات السنين من سكان بيروت الأصليين. تعود جذورها بحسب سجلّات العائلة إلى إحدى القبائل العربية من الأمراء الغساسنة الذين نزحوا من جبل حوران في سوريا إلى عكا وكوسبا وبعلبك وطرابلس في لبنان. أسسها أحد أفرادها الذي قدّم إلى بيروت سنة 1700. ومنه انحدرت عائلة «حبيب» التي ما زالت حتى أيامنا هذه قائمة بين سكان منطقتي المصيطبة والمزرعة في الجزء الغربي من بيروت.

كانت منطقة «المصيطبة» تُشكّل نموذجاً لما كانت عليه مدينة بيروت في الخمسينيات بجمالها

أمال حبيب

وتناقضاتها. اسمها مُشتقٌّ من كلمة مصطبة أي المكان المُرتفع لأنّها كانت امتداداً صخرياً لما كان يُسمّى «البريّة». فقد كانت في بداية القرن الثالث عشر منطقة صخرية مُرتفعة عن مستوى المدينة القديمة وبعيدة عن حدودها البحرية. وكانت تُعدّ من أجمل المناطق البيروتية. تُشبه القرية ببيوتها القرميدية، وتتميّز بمناخ مُعتدل جَعَلَ العائلات البيروتية تقصدها صيفاً للاصطياف. ثمّ تنامت حتّى أصبحت حالياً من أكبر مناطق بيروت إدارياً.

ما زلتُ أتذكّر بيوتها بهندستها العمرانية الجميلة وواجهاتها الزجاجيّة على شكل قناطر تُكلّل شبابيكها وحدائقها التي كان أصحابها يحرسون على زراعة أنواع متشابهة من الزهور والأشجار، منها شجر الياسمين والفتنة والأكيديا والليمون. إضافة إلى أشجار الكولونيا التي كانت تفوح رائحتها في جميع الأرجاء، وعرائش العنب التي كانت تمتدّ فوق السطوح تُسامرُ أمسيات الصيف، وأيضاً أشجار البلح في بعض الحدائق الكبيرة التي كانت تضيء جوّاً «شاعريّاً» عليها. وكان منزلنا بهندسته التراثية وحديقته الغناء يقع على تقاطع أربعة طرق. وعلى الجانب المُعاكس لمنزلنا، قام بيتُ الجيران، أيضاً بحديقته الكبيرة المزروعة بأشجار البلح، فكان الجار الدائم الجمال.

ما كان يميّز منطقة المصيطبة هو نسيجها الاجتماعيّ الذي كان مثل مدينة بيروت يتمتّع بالتنوّع والتعايش فيها⁽¹⁾. وهي على الرّغم من توسّعها واستيعابها التغيّرات الاجتماعيّة في أطرافها الجنوبيّة (ولاسيّما بعد قيام الجامعة اللبانيّة فيها في الخمسينيّات) ظلّت تُحافظ على مُجتمعها التقليديّ وعراقة العائلات المُحافظة لديها والمُنتشرة على شكل مُجمّعاتٍ صغيرة. كانت العوائل والأقارب مثلاً المتفرّعة من «الجب» نفسه أو العائلة نفسها تعيش على وجه الإجمال في الحيّ نفسه فتتمو في ما بينها علاقات أشبه بالعشائريّة. وعلى الرّغم من ذلك كانت العائلات المسيحيّة والمُسلمة تعرف بعضها بعضاً

(1) كانت منطقة المصيطبة تاريخياً وبشكلٍ أساسيٍّ معقلاً للأرثوذكسيّة والسنيّة نسبةً إلى كنائسها وجوامعها المتواجدة منذ مئات السنين مثل جامع برج أبي حيدر وكنيسة مار إلياس المصيطبة ودير مار إلياس بطّينا وأيضاً كاتدرائية مار بطرس ومار بولس لطائفة السريان الأرثوذكس، فضلاً عن تواجد للطائفتين السريانيّة والدرزيّة في «حيّ السريان» و«وطى المصيطبة» و«كرقول الدروز» و«عيشة بكار» للشيعّة التي تُكملُّ جميعها الخريطة السكّانيّة لمنطقة المصيطبة. كما كان (وما زال) «مُخيّم مار إلياس» للفلسطينيّين يُذكّر بالوجود الفلسطينيّ في لبنان بعد احتلال فلسطين. كانت العائلات تتنشر ضمن أحياء نسيجها أشبه بقرى صغيرة تُلامس الأحياء المسيحيّة منها الأحياء السنيّة وتُكملُّ بعضها بعضاً. كان الحيّ المسيحيّ (عائلة حبيب) مثلاً ينتهي (أو يبدأ) عند بيتي، فيما الحيّ المُسلم من منطقة برج أبي حيدر يبدأ مع بيت جاري الجميل في الجانب المُعاكس.

وتشترك في العيش المُشترك، تتبادل الزيارات وواجبات المُعاعدة والتعازي على أساس الودّ والمحبة وحُسن الجوار.

في هذا المحيط النموذجي من بيروت الخمسينيات أمضيت طفولتي ونشأت وكبرت وما زلتُ أسكن فيه على الرّغم من التغيّر الذي عرفه. تحيط به ذكريات هي جزء من شخصيتي ألجأ إليها كلّ ما أردتُ تأكيد أصلي وانتمائي، أو عند الإجابة عن السؤال الذي يطرحه عادةً اللّبنانيون عند التعرّف بعضهم على بعض «أنت من أيّ منطقة من لبنان؟» أو «أنت من أيّ قسم من بيروت؟» تطبّعُ بمزايا المنطقة التي أنتمي إليها فألفت التّنوّع والتعايش منذ الصغر وقد أضفَلتُهُما بيئةٌ عائلية غير طائفية وغير حزبية. فأول مدرسة ارتدتها كانت مدرسة ابتدائية خاصة علمانية يرتادها أبناء وبنات جميع عائلات المنطقة تمتاز بتنوّعها وبجودة تعليمها حيث لم يكن للطائفية أي وجود. فكانت هيام الشيعة وسلوى ورجاء الدرزيّتان مع آدال وفيكتوريا المسيحيّتين من أقرب الزميلات إلى قلبي في أيام الدراسة وقد بقينا صديقات مدى الحياة. وكانت فاطمة وعلي وغيرهما من أولاد الحيّ أتراب اللّعب في حدائق الحيّ خارج أوقات دوام المدرسة. صورة شاعرية أخرى بقيت حيّة في مخيلتي ومشاعري حتّى اليوم عندما كان يقرع جرس الكنيسة في حينًا (كنيسة مار إلياس المصيطبة) تمتزج دقّاته يوم الأحد مع صلاة الأذان في الجامع المُحاذي لها (جامع برج أبي حيدر) بينما روائح الحدائق تفوح عطرًا في الأجواء.

أمّا بالنسبة إلى السياسة فلم أكن أستوعب معناها ولا أتذكّر أيّ نقاشاتٍ سياسية ضمن أجواء العائلة على الرّغم من أنّ الحروب كانت حاضرة في يوميّاتي. فقد كانت جدّتي التي كانت تعيش معنا في البيت تحبّ قراءة التاريخ وتروي لنا، إخوتي وأنا، أخبار الحرب العالميّة الأولى والثانية وأحداث استقلال لبنان، بما فيها الشهادات الحيّة عن استشهاد رجالات عائلات بيروتية من المصيطبة وغيرها في سبيل استقلال لبنان!

إلى أن كانت أحداث صيف 1958. «صيف الدم» كما وُصف لاحقاً (أصفهاني، 2021). فجأة انقلب المشهد. انقلب حُسن الجوار إلى اقتتال بين الجيران وبدا التعايش فكرة هشّة في أركان التّنوّع الطائفي. لم تُعد الحرب قصّة ترويه لي جدّتي بل حقيقة عشتها في بداية الصيف من هذا العام أتعرف يوماً بعد يوم على مظاهرها ومخاوفها من دون إدراك خلفياتها. أصبح بيتنا خطّ تماسٍ بين الحيّ المُسلم المُعارض من جهة والحيّ

المسيحيّ الموالى من جهة أخرى، وأصبح البيت الجار الجميل على الجانب المعاكس هو «العدوّ». فجأةً أصبحت منطقة التعايش والتسامح ساحةً لحربٍ بين شارع وشارع، مُسلم ضدّ مسيحي، مع اقتتالٍ وتبادلٍ للرصاص والهجوم بالبنادق والقنابل وأصابع الدّيناميت وتعدّيات على الأشخاص والممتلكات الخاصّة، حتّى من بيتٍ إلى بيت. حتّى اليوم، أتذكّر خوفي من سماع تبادل الرصاص في الشارع قرب بيتي. وكيف كان يُطلّب مِنّا، أخواتي وأنا، الاختباء وعدم الاقتراب من الشبايك المُقفلة. لم نكن نفهم ما يحصل، ولكنّ كنّا نتلمّس واقع ما يحدث من خلال الأحاديث التي يتبادلها أهلي وأقربائي. فكانوا يتناقلون بحذرٍ أخبارَ نصبٍ متاريس رملية بين الأحياء ووجود حاجز رملٍ بيد الأحزاب المُعارضة المُسلمة في منطقة البربر وآخر لتحصينات رملية نصبتها تجمّعاتٌ مسيحية في الشارع الخلفي. ويصفون بخوف حوادث انفجار القنابل اليدوية التي كانت تستهدف المدنيين في الأماكن العامّة من مدينة بيروت. كانت توضع في سلّة البيض وتارة تنفجر في ترامواي ساحة الشهداء وتارة في دُور السينما أو في الحدائق العامّة... المهمّ زرع الفتنة وإيقاع أكبر عدد من الإصابات من جرحى وقتلى. كانوا يتكلّمون أيضاً بقلق وخوف عن هذا الاقتتال الطائفي وكيف أنّ جماعات الفريق المُسلم المعارض تُطلق النار باتجاه بيتنا (من ناحية بيت الجار الجميل) لتردّ عليها جماعاتُ الحيّ المسيحيّ التي حملت السلاح بعدما شعرت بالخطر يهدّدُها. وكانت تستعمل حديقتنا لتبادل النار ومن ثمّ الانسحاب إلى الشوارع الخلفية.

كان خوفهم مبرّراً. ففي إحدى الليالي من شهر تمّوز/يوليو في الساعات الأولى من الليل، وبينما كنّا أخوتي وأنا قد خلدنا إلى النوم، تمّ استهداف بيتنا مباشرة من قبل الجماعات المُعارضة التي هاجمتنا وألقت «قنبلة يدوية» انفجرت في «الدار» في وسط البيت محدّثةً دويّاً رهيباً وأضراراً ماديّةً جسيمة، أذكر حتّى الآن دويّها ولهبها الأحمر والبرتقالي ورائحة النار والبارود تنبعث في أرجاء البيت، وكيف استيقظتُ مرعوبة على دويّ الانفجار. لم يصب أحدٌ بأذى لكنّ أمام هلعنا وصراخنا ونوبة الخوف التي أصابتنا أنا وإخوتي تمّ تهريبنا من الباب الخلفيّ عند عمّتي في البيت المُجاور حيث تمّ إسعافنا وتهدّئنا حتّى اليوم التالي. كانت رسالة بحث طائفية طُبعت صورتها ذاكرتي وأحاسيسي. وأصبحت مشهدية طفولة تحضر إلى ذهني كلّما سمعتُ دويّ انفجار أو صادفتُ ظروفاً مُماثلة.

كانت هذه الحادثة كفيلة بترك أهلي البيت والمنطقة والهروب بنا إلى مكان آمن، فلجأنا إلى مصيف ضهور الشوير الهادي حيث لم يكن للاقتتال والقنابل والرصاص أي وجود. ولم يكن يذكّرنا بالحرب الدائرة في بيروت سوى طيران طائرات «الهليكوبتر» الخاصة بالجيش الأميركي التي كانت تحلق على علوٍ منخفض وتُفرحنا بالحلوى والشوكولا التي كانت ترميها للأطفال. وقد عرفت لاحقاً أنها كانت للأسطول السادس للجيش الأميركي الذي كان قد تدخل في أحداث لبنان للمساعدة.

مع الأيام والسنين تعرّفت إلى ما وراء هذه المشهدية⁽²⁾. لقد تعدّت أحداث العام 1958 أزمة صيف عابرة وأصبحت نمطاً أو «سيناريو» توقّف عنده المحلّلون في ما بعد وانكبوا على تحليل وقائعه لتفسير الحروب والثورات التي تعاقبت على لبنان إلى يومنا هذا، حتّى أنّها لُقِّبت في قراءة حديثة لها بـ «ثورة 1958» أو «الحرب الصغرى» التي شكّلت «بروفة» لحرب العام 1975 (masdardiplomacy.com.nd) لكثرة أوجه الشبه في ما بينهما. فتدأخل الداخل بالخارج، والمُحاصصة الطائفية وإشكالية المطالبة بالتغيير والإصلاحات، والاقتتال بلهجة طائفية، والاتّكال على القوى الإقليمية والدولية لحلّ المشكلات الداخلية لا بل استجلاب مشكلات هذه الدول إلى لبنان... إلخ، هذه كلّها شكّلت سيناريوهات نموذجية في تاريخ الأزمات والحروب التي عرفناها في لبنان بعد العام 1958.

(2) أحداث 1958 بدأت تبشيرها على الصعيد الخارجي مع حوادث 1956 عندما بدأ التوتر مع مصر بعدما رفض الرئيس كميل شمعون الوقوف إلى جانب الرئيس جمال عبد الناصر عند قطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول الغربية التي هاجمت مصر أيام أزمة السويس، بل تبنى إدخال لبنان في حلف لا شأن للبنان فيه هو حلف بغداد الأميركي الإنكليزي الفرنسي الذي اعتبره الرئيس عبد الناصر تهديداً له وللقوموية العربية. ارتدّت هذه الأزمة داخلياً عندما أراد الرئيس كميل شمعون التمديد لنفسه في رئاسة الجمهورية على الرّغم من اتّهامه بتزوير الانتخابات النيابية في العام 1957 فاشتدّت النّقرة عليه وساءت الأوضاع التي أدت إلى تشكيل مُعارضة تُطالب بالإصلاح السياسي والإداري. لم تبقِ المُواجهات عند هذا الحدّ، بل اتّخذت طابعاً طائفيّاً مُسلماً مسيحياً عندما طالب المسلمون المُعارضون من الحكومة اللبنانية الانضمام إلى الوحدة التي ألّفها الرئيس عبد الناصر بين لبنان وسوريا في العام 1958 تحت راية الجمهورية العربية المتّحدة، بينما أراد المسيحيّون الموالون التحالف مع الدول الغربية وتحالف بغداد. فصلّ تمردٌ إسلاميّ مسلّح على أثر حصول المُعارضة الإسلامية على السلاح من الجمهورية العربية المتّحدة تطوّر إلى اقتتال طائفيّ مُبادل بين المُواطنين على كلّ أرجاء الوطن. كان ردّ الرئيس شمعون على هذا الاقتتال بالطلب إلى الحكومة الأميركية المُساعدة، فأرسلت جيوش المارينز إلى بيروت في مهمّة إعادة الأمن انتهت بانتخاب الرئيس فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية بعد عدول الرئيس كميل شمعون عن التمديد وتعديل الدستور.

توالت الحروب الكبيرة والصغيرة على لبنان منذ سنة 1975 بسيئاريوهات مشابهة. غير أنها كانت تتطوّر وتتسع دائرتها مع السنين. كانت مظاهر العنف والقتال تتصاعد وتيرتها من حرب إلى أخرى مخلّفة كلّ أشكال الخوف والرعب والترهيب. وكان مقدار عنف الأسلحة المستعملة مرتبطاً بمستوى مطالب الفرقاء، ويشتدّ قسوةً وضراوةً وخراباً كلّما علا سقف المطالب والأهداف وصعوبة الحصول عليها. ففي حرب السنتين 1975 - 1977 كانت الأسلحة الخفيفة هي السائدة على الرغم من أنّ راجمات الصواريخ كانت تمطر بصواريخها في بعض المعارك الأحياء السكنية. وأخذت الأسلحة تزداد معاييرها ثقلاً من حرب إلى أخرى. وكان لدويّ المدفعية الثقيلة في حرب الإلغاء (1990)، وحرب التحرير (1989)، ولغارات الطيران خلال الاجتياح الإسرائيلي على بيروت (1982) وأصوات الانفجارات وقّع خاصّ عليّ. فبمجرّد سماعها، تتناوب نوبات الخوف وردود فعل تنقلني مباشرة إلى صورة الانفجار الذي عشته في مشهديّة طفولتي.

لم يكن الأمر مغايراً مع انفجار مرفأ بيروت في 4 آب/أغسطس 2020. ماذا كانت الرسالة والمطالب وراء هذا الانفجار الهائل والمروّع الذي كسح مدينة بيروت بلحظات؟ كنتُ حينها أقوم بزيارة أختي في الأشرفيّة في بيروت جالسةً مع أخواتي في الصالون مقابل شرفة زجاجيّة. سمعتُ دويّ أول انفجار مع هدير طائرة. لم أتمالك نفسي ومشاعري فوقفتُ فوراً مذعورة متأهبة لانفجار ثانٍ. كانت ردّة فعلي عنيفة منبعثة من مشهديّة طفولتي بينما بقي الجميع جالسين هادئين في مقاعدهم. وقبل أن نفطن لما حدث كان عصف الانفجار يقتحم المنزل مخرباً مكسّراً جارفاً وقاذفاً بجسدي مثل طابة في مهبّ عاصفة غضب هوجاء ليرطمني بالباب الزجاجي ويرميني لأمتار عدّة في الغرفة المجاورة. كانت إصابتي بالغة. كسور ورضوض في جميع أنحاء الجسم استلزمت عمليّة جراحية ومعالجات دامت أشهراً. لم يَنَل الانفجار إلّا منّي، ولم يُصب أحد غيري بأذى. ومرةً أخرى كان أثر مشهديّة الطفولة يُسجّل حضوراً مؤلماً في حاضري.

لكنّ أوجاعي بدت نقطة في بحر أمام أوجاع الوطن وهول الفاجعة التي حلّت في لبنان مع كارثة المرفأ والخراب الذي أصاب مدينة بيروت. اختلطت المشاعر أمام هذه المشهديّة التي فاقت كلّ الأهوال والتي امتزجت فيها مشهديات كلّ الحروب الماضية. وأصبحت تنسحب على مشهديّة وطن كامل تُدمى القلوب فيه من كثرة مآسيه ومُعاناته

ومخاطر انهياره وعذابات أهله. السيناريوهات ما زالت هي هي من عشرات السنين حتّى
يومنا تتكرّر في كلّ مرّة بأدواتٍ أشرس وأفتك وتأخذ بدرّبها الحَجَر والبَشَر وتجعل من
الطفولة أولى وأهمّ ضحاياها الصامتة.
لعلّ اللّيل ينجلي يوماً وتُشرق شمسٌ جديدة على لبنان تُعقّد عليها الآمال
والخلاص.

من ذاكرة الحرب السوريّة المَهْمَشَة: قصة نجاة مُراهقتين أنضجتهما نيران الحرب دفعةً واحدة

تمهيد

ثمّة مخيلة مُتوارثة عن الحرب، أبطالها رجال يُخطّطون ويُقاتلون ويُقتلون، يربحون ويخسرون. أمّا المرأة فيها، فهي كتلك الإضافات التي يدسّها المُخرج في أفلامه، كي تكون بمنزلة مشهد جانبيّ لإضحاك المُشاهد. الجميع يتعلّم في المدرسة أنّ ألمانيا بقيادة هتلر ورجاله خسرت الحرب العالميّة الثانية، ولكنّ من يُعلّم الجميع عن دور النساء الألمانيّات في الحرب؟ بل من منهم سمع بـ«اغتصاب برلين» وكيف نكّل جيش الحلفاء المنتصر بأكثر من مليوني امرأة ألمانيّة من خلال الاغتصاب والسحل في شوارع برلين؟

كذلك في التراجيديا السوريّة، خلال السنوات الـ10 الماضية، مجموعة من القصص لنساء عرفوا من الحرب كلّ وجوهها، وكان لهم دور وحضور ومأس في شتّى مجالاتها، إلّا أنّ وجوههنّ لا تزال مجهولة ومُغَيّبة عن السردية الشائعة للحرب. أكثر من 23 ألف ضحيّة من النساء وآلاف الجريحات والمفقودات حتّى اليوم⁽¹⁾ (بحسب إحصاءات

(1) «تقرير لجنة التحقيق الدولية المُستقلة المَعْنِيّة بالجمهورية العربيّة السوريّة،» الأمم المتّحدة مجلس حقوق الإنسان، مُتاح على:

<https://www.ohchr.org/AR/HRBodies/HRC/IICISyria/Pages/ReportoftheCommissionofInquirySyria.aspx>

الأمم المتحدة ومنظمات حقوقية، هي الحصيلة غير النهائية، لمجموعة من القصص والنضالات والعذابات التي خاضتها (ولا تزال) النساء والمُراهقات السوريات مرغبات خلال الأعوام المُنصرمة.

الفتيات والمُراهقات يشكّلن نسبةً كبيرة من سكّان سوريا، إذ يشير عددٌ من التقارير الإحصائية المحلية⁽²⁾ والدولية⁽³⁾، إلى أنّ نسبة من أهمّ أقلّ من 15 عاماً كانوا يُشكّلون في العام 2012 حوالي 36% من مجمل السكّان، وقد كانت هذه الفئة عرضة لدوّامات العنف والمآسي بشكل عميق خلال الحرب، وخصوصاً الفتيات المُراهقات اللواتي وجدنّ النجاة واللواتي لم ينجين، ممّن تعرّضن للقتل والضرب والتهجير والخطف والاغتصاب والتزويج الإجمالي والاستغلال، وباقي أشكال العنف المعنوي والجسدي.

أصحاب القصة

وهنا نوثق قصة لأختين مُراهقتين، ننكأ من خلالهما خبايا الذاكرة الأثوية السورية، التي لم تفصح عن نفسها بشكل كامل بعد، في ظلّ التهميش الذي يحلّ بها مع كلّ مرّة يعلو فيها دويّ المدافع في هذا العالم.

آية وماري التاجر (مواليد 2003، 2002)، من قرية الصالحية في دير الزور، الريف الغربي لمدينة البوكمال، أختان لعائلة من الطبقة الاجتماعية الفقيرة، تضمّ 3 أخوات وأخوين، كان الوالدان يعملان في الزراعة قبل اندلاع الحرب. وتعيش الفتاتان حالياً في لبنان، منطقة الشياح، عين الرمانة.

حالياً، يعمل معظم أفراد العائلة، بمنّ فيهم الأخت آية، بأعمال يدوية متفرقة، بهدف تحصيل الحد الأدنى من متطلّبات الحياة الأساسية، من مسكن ومأكل وملبس. ومن المُفترض أن تنتقل العائلة إلى سوريا مرّة جديدة خلال الفترة المُقبلة، من غير الأب، بعد تعذّر الكثير من أمور الحياة في لبنان.

(2) «تعداد السكّان في الشريحة العمرية من 0 - 14 (من الإجمالي)»، البنك الدولي، متاح على:

<https://data.albankaldawli.org/indicator/SP.POP.0014.TO.ZS>.

(3) «التركيبة السكانية»، Heritage for Peace، متاح على:

<http://www.heritageforpeace.org/syria-country-information/geography/?lang=ar>.

تمّ استقصاء المعلومات الواردة في النصّ عبر مُقابلَتين شخصيّتين اثنتين غير منظّمتين، بحضور الأختين معاً، بموافقة من الأهل (تصريح خطّي)، وذلك في إطار مهمّة تدوين مجموعة من القصص التي تخصّ تجارب فئة الشباب والمُراهقين في الحرب مع الأختين التاجر وغيرهما من الفتيات والفتيان، لمشروع صحافيّ تقوم به الكاتبة، في ضوء عملها في المجال الإعلاميّ - التنمويّ، هدفه تسليط الضوء على قصص «النجاة» لهذه الفئة التي تدفع الثمن الأكبر في الحرب.

خلال المُقابلات، أُتيح المجال أمام المُشاركات للإدلاء بتجربتهما بطريقة التداعي الحرّ، من دون أيّ محظورات، وتمّ تدوين المعلومات كافّة الواردة بشكل مباشر، ما عدا بعض الأسماء التابعة للأفراد أو التنظيمات الوارد ذكرها في القصة حرصاً على خصوصيّة الفتيات وأمنهنّ، وقد تمّ الاقتباس عن شهادة الأختين (باللهجة العاميّة) إلى الفصحى، فيما تمّ عرض أجزاء من القصة بما يتناسب مع موضوع النصّ وحدود صلاحيّات النشر.

حرب ما قبل الحرب

في سنة 2014، كان عمر الأختين 11 و12 عاماً، نَصَبَتَا بين زخّات الرصاص فأضحت الكبرى كأنّها ابنة ثلاثين. تقول الأخت الكبرى ماري: «شعرتُ أنّي كبرت مرّة واحدة، كنتُ طفلة وفجأة أصبحتُ عجوزاً. حدث ذلك فعلاً يوم أُجبرنا على مشاهدة قطع رأس شخص أعصى أوامر داعش، وكان علينا أن نتمالك أنفسنا ونتعامل مع حياتنا الجديدة. فأرواحنا الآن ملك لهؤلاء الرجال المُلثمين، الذين لا يعرفون الرحمة ولا يضحكون أبداً».

في حياة هاتين الطفلتين، تشابكت خيوط التقاليد والأعراف الاجتماعيّة مع الواقع السياسيّ والعسكريّ الجديد، ففُرض عليهما حصارٌ مُطبق، في قلب حصار آخر كان يفرضه مقاتلو «داعش» على القرية التي تقع ضمن الريف الغربيّ لمدينة البوكمال الشرقية.

قبل اندلاع الحرب في سوريا في العام 2011، لم تكن الظروف الاجتماعيّة بأفضل أحوالها بالنسبة إلى النساء. مجموعة كبيرة من الأعراف والتقاليد قيّدت الذات الأنثويّة بمفاهيم وأدوار محدودة، يُمكن اختزالها جميعاً بكلمة «عيب». وهكذا مُنعت الأختان ماري وآية من اللّعب مع ابن جيرانهما المُفضّل، مع بداية العام 2012، لُتجرّدا لاحقاً من متع وحقوق أخرى مع اشتداد المعارك في سوريا وسيطرة المسلّحين على القرية.

«في الوقت الذي كان فيه الذكور يلعبون بحرية كاملة، وبألعاب مسلية، بعيداً عن المنزل، بين الأشجار وقرب الفرات، يركضون ويتسلقون ويقفزون، كانت القيود تزداد عليّ وعلى أختي يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، فهناك الكثير من الأشياء التي يمنعها «العيب»، والتي تظهر في حياة النساء، من دون أن ندري مصدرها، ولكننا مُجبرات على الطاعة». كنّا نشعر بأننا لا نمتلك من أنفسنا شيئاً، تقول ماري. فالمرافقات في الثقافة السورية السائدة، يكبرن بعدد «العيب» الذي يغزو حياتهنّ، وليس بعدد السنوات في أعمارهنّ.

وتروي الأخت الصغرى، أنّها في العام 2010، سمعت أحد أفراد العائلة يُوبّخ زوجته لأنّها طالبتّه بالسماح لابتنتها بإكمال تعليمها الأساسي، فأصبح لديها قلق كبير بأنّ يوماً ما سيأتي دورها، وسيخرجونها من التعليم، وهكذا بدلاً من أن تحلّق بأفكارها ومخيلتها الطفولية، أضحت قلقة ومضطربة من أجل دراستها، ولم يكن عمرها قد تجاوز السنوات السبع.

تلك الحرب الطاحنة، التي خاضتها فتيات ومُرافقات كثيرات في سوريا، قبل اندلاع الأزمة، أضعفتنّ وجعلت منهنّ أهدافاً سهلة لأعمال العنف والاستغلال التي جاءت بعد ذلك في العام 2011، والتي كانت جزءاً من التحضير للحرب بكلّ بشاعتها.

وجهاً لوجه مع الموت

مع وقوع القرية تحت سيطرة تنظيم داعش، دخلت أحكامٌ جديدة على حياة الناس، رجالاً ونساءً، لكنّ النساء، وخصوصاً الفتيات المُرافقات، تعرّضنّ لمُعاملةٍ مُضاعفة، كان بعضها يجري تحت لحاف الليل، حيث يتمّ اختطاف الفتيات واغتصابهنّ لإجبارهنّ على دخول دائرة من الاستغلال والضعف، ليكنّ في أفضل الحالات، راضحات للأمر الواقع. هذا الوضع فرّض قيوداً وإجراءاتٍ إضافية على الأختين، فأصبح خروجهما من المنزل حُلماً. أمّا البرقع الصغير، التي خاطته أمهما فأصبح الهوية الوحيدة لهما. مساحة صغيرة من القماش منعت عنهما كلّ أشكال التواصل مع العالم الخارجي، خوفاً عليهما من الاختطاف وتحضيراً لهما لأدوارٍ جديدة، أدوار الزوجات المُطيعات التابعات للكيان الذكريّ الصاحب.

مع اشتداد المُعاناة، مع كلِّ معركة يذهب فيها الرجال ولا يعودون، مع كلِّ مُحَاكَمَة ميدانيّة، يُجبر أهل البلدة على حضورها، بكلِّ تفاصيلها المُربّعة، لم تُعد الحياة مُمكنة حتّى لأكثر العائلات التزاماً بالعادات والتقاليد! فما أضحى مفروضاً وشائعاً مع عناصر التنظيم الإرهابيّ، لم ينجح بأن يُصبح الواقع والتراث الجديد! والنساء اللواتي تمّ التعويل عليهنّ لإخضاعهنّ وترويضهنّ بالمطلق، وعلى الرّغم من كلِّ الانكسارات، خبّان في جيوب جلايبهنّ رغبةً عارمةً في الخروج من ذاك الجحيم.

تقول الأخت الكبرى ماري: «كنتُ أعتقد أنّ أمّي سترضى بما يفرضه علينا الدواعش، فهي لطالما كانت متشدّدة وحريصة. إنّما تفاجأت أنّها في كثير من الأيّام، كانت تتحدّث إلينا، على وجبة كسرات الخبز واللّبن التي لم نجد غيرها في كثير من الأحيان، عن خوفها، وبحثها عن سبيل للخروج من القرية، وخصوصاً مع تهديد أبي لمرّات عديدة، من قبل التنظيم، لأسباب لم نكن نعرفها».

وتضيف: «في أحد الأيّام، دقّ مسلّحون الباب، وتحدّثوا إلى أبي، تخيلتُ يومها وأنا مسمّرة في زاوية غرفة الجلوس، أنّهم هنا ليأخذوني، لا أعرف كم استغرقني الوقت في التفكير، ولكنني اتّخذتُ قراراً حاسماً بقتل نفسي، كي أوفّر عليّ وعلى الآخرين المأساة التي حدثت مع ابنة جيراننا. لم أكن أعرف كيف، فكُرتُ لأيّام، وحين فاتحتُ أختي الصغرى بالأمر، باحت بذلك لأُمّي، ولكنّ أمّي اكتفت بنظرة عميقة، لا أعرف تفسيرها، حزن أم غضب، أمّا أبي فاكتفى بنظرة الانكسار والعجز».

عقب ذلك بأسابيع، أقبلت العائلة على مُخاطرة كبيرة، قد يكون ثمنها أرواحهم، رحلة في الصحراء هرباً من جحيم الحياة التي يعيشونها. فكان عليهم التحضّر إمّا للنجاة أو للموت في آن، فكِلا الاحتمالَيْن قائمَيْن، وكلاهما على حدّ تعبير الأختين: كان «خلاصاً»، ولكنّ فشل عائلات أخرى بالهرب، تركّ خوفاً واضطراباً في النفوس، وخصوصاً بعدما سمع الجميع بمصير تلك العائلات، وسخل جثثهم على الملأ.

بعد تحضير رسائل الوداع للأقارب، الزوّادة، والأوراق الثبوتية في ساعات قليلة، جاء وقت الجسد الأنثويّ. لساعات أطول جَلستِ الأم تلفّ الأقمشة بإحكام على جسد ماري وآية، ففي حال موتهما في الصحراء، لا تنكشّف الجثتان للغرباء العابرين، ولا للمقاتلين المُرابطين في الكمائن، وهنا تتحدّث الأختان عن فكرة راودت كلاّ منهما، وهي أنّ تلك

الهوية الأنثوية المُحاطة بالذنب والمخاوف، لا تنتهي في الأرض، بل تُلاحق أجسادهنّ إلى ما بعد الموت، وهنا تقول الأخت الصغرى آية: «صرتُ أتخيل أنّ من سيُحاسب أرواحنا في السماء ليس الله، إنّما وجوه لأقارب وأشخاص ومقاتلين رأيتها يوماً في القرية»، جحيم «الآخرين» كان أشدّ وطأة على الأختين من أيّ جحيم آخر.

نجحت العائلة في التسلّل ليلاً من القرية، ساروا طويلاً، وخافوا كثيراً، وعندما وصلوا قلب الصحراء، كان الحرّ والجوع، أسهل ما يُمكن مواجهته، مُقارَنةً بالسيناريوهات المتوقّعة في ظلّ وجود العديد من الكمائن والفصائل والجهات التي قد تُلقي القبض على العائلة المتسلّلة.

انتهى المطاف بالعائلة مرميّة تحت شجرة، والأمّ تعاني من المرض والتعب، ليتبيّن لاحقاً أنّها كانت حاملاً، أمّا ماري وآية، فكانتا تُفكّران بنفسيهما، بذلك الجسد المُخيف، الذي لا يريده أحد، ويرغب الجميع بالسيطرة عليه! تبخّرت طفولة الأختان ومُراهقتهما مع حرّ الصحراء، وحين تمكّنت العائلة من بلوغ تجمّع للناس، أول ما خطر ببالهما ليس الماء ولا الطعام ولا المسكن، بل سؤال واحد: «هل سيقوم هؤلاء باغتصابنا؟»، ليتبيّن لاحقاً أنّ هؤلاء الأشخاص هم تنظيم كرديّ، احتجز العائلة لفترة، ومن ثمّ أطلق سراحها، لتتمكّن لاحقاً من بلوغ دمشق، وهناك، في ظلّ كثافة النزوح وصعوبة الحال، لم تجد العائلة مأوىً مُستداماً، فاتخذ الأبوان القرارَ بالعبور إلى لبنان.

عبر طريق غير شرعيّ، وصلت العائلة إلى لبنان، وفي الأيام الأولى مكثت في المخيمات، وهناك بقوا لمدة شهور، من دون أن يجدوا عملاً أو أماناً، ومن ثمّ جاؤوا بيروت. كان ذلك في العام 2016. في بيروت، في غرفة صغيرة، في حيّ شعبي، بدأت العائلة تستجمع قواها، وكانت آية وماري قد دخلتا مرحلةً عمريةً جديدة، أصبحتا ناضجات تفكّران بقضايا كبيرة، وتُحاولان مساعدة أبييهما في إيجاد حلولٍ وفُرص عملٍ ومُساعداتٍ للعائلة، من غير أن تعرفا شيئاً واحداً عن جسدَيْهما.

وعن ذلك تقول الأختان: «نشعر بأننا في الأربعين والخمسين من عمرينا، فأحلام الطفولة ومشاعرها اختفت، تلاشت مع كلّ فكرة مُخيفة اجتاحتنا في أثناء حياتنا في القرية، أو خلال طريق الهروب، ولكنّ على الرّغم من ذلك، لم نكن نعرف شيئاً عن

الأنوثة، عن كلّ تلك المخاوف والمحظورات، عن كلّ تلك الأشياء التي دفعت بوالدتنا للقول: يا ليتكم كنتوا شباب وريّحتوني».

بعد مدّة، التحقّت العائلة ببرنامج تمكين وتأهيل مع إحدى المنظّمات الإنسانيّة، وهناك ظهرت للأختين احتمالاتٌ أخرى، غير الذنب والقلق والاضطراب وكره الكيان الأنثويّ. لاحقاً، تمكّنت آية من الالتحاق مجدّداً بالمدرسة وتقديم طلب حرٍّ لامتحانات المرحلة المتوسطة الرسميّة. أمّا ماري، فبدأت تتعلّم مهارات الكمبيوتر، وتمكّنت مع والدتها، بالالتحاق ببرنامج لإنتاج الحلّى والصناعات اليدويّة، التي أصبحت لاحقاً مصدر رزق واستقرار للعائلة، والجسد الذي كان لعنة، أصبح نعمة وسنداً.

تقول ماري: «تعلّمت من الحياة، أنّ الأنوثة والذكورة بريّتان من كلّ الرعب الذي نعيشه، بل الظروف والتقاليد هي التي تصنع أفكاراً وأنماطاً، يعتقد الذين لم يخرجوا منها قط، أنّها هي الحالة الطبيعيّة للإنسان»، وتضيف: «كنتُ أفكر أنّ الحرب هي شأنٌ خاصٌّ بالرجال، ولكنّي اليوم أعرف، أنّ النساء هم أكبر وأهمّ عنصر في الحرب، وأحياناً أتمنّى لو أنّي لم أكن خائفة ومكسورة كما كنتُ في سوريا، لكنّ قاتلت داعش. ولكنّهم أخافونا حتّى لا نفعل ذلك، وبالتالي يسيطرون على الناس».

حالياً، تُكمل آية دراستها، فيما تزوّجت ماري ابن أحد أقربائها، وتقول إنّها ستُربي بناتٍ وصبياناً أقوياء وغير مكسورين، قادرين على إخمد الحرب وليس على إشعالها، مؤمنين بقوة الكيان الأنثويّ لتحصين المجتمع، وليس إضعافه.

عن حروب لم تُغادرنا

عندما قرّر والداي مغادرة القرية في أواخر سبعينيات القرن الماضي نحو بيروت، لم يظنّا أنّ ذلك القرار الذي كان موقّتا سيحوّل إلى إقامة دائمة تُشكّل بدايةً لحياةٍ لن تُشبه ما سبقها. والداي اللذان وُلدا وكبرا في قرية حدوديّة في أقصى الجنوب اللبنانيّ مع فلسطين المحتلة لم يعرفا عن بيروت إلا القليل. كانت حيفا أقرب إليهما من عاصمة بلدهما. هنا في هذه البقعة الجغرافيّة المَنسيّة من البلاد، حيث المساحات ممتدّة ومُتداخلة مع فلسطين، عمل السكّان في الزراعة. والزراعة شاقّة على ما تصف والدتي وكان لأيدي النساء فيها باع طويل. يبدأ يومهنّ قبل بزوغ الشمس وينتهي مع أعمالٍ منزليّة لا تقلّ بدورها مشقّة عن العمل الزراعيّ والاهتمام بالطيور والمواشي.

في تلك الحقبة الزمنيّة لم تكن الكهرباء قد وصلت بعد ولا حتّى المياه توافرت في المنازل. في تمامٍ تامٍّ مع الطبيعة، ابتكر سكّانُ القرى طُرُقهم لتأمين المَوارد. كانت مياه المُتساقطات تُجمع في آبار ومياه الشرب تُحضّر من نبع في أقصى القرية. أمّا غسيل الثياب والأواني فقد خَصّصت له النساء يومين أو ثلاثة في الأسبوع، يذهبنّ إلى ذلك النبع حيث يُشعلن موقدة حطب ويتساعدن في ما بينهنّ.

زينب خليل

كانت تلك الحياة على بساطتها ومشقّتها لتستمرّ، وربما لم يكن هناك من سبب للمغادرة إلّا لأولئك الذين يرغبون بالمغامرة واكتشاف أسلوب عيش مختلف خلف القرى. لكنّ ظهور الكيان العبري في مُحاذاة القرية سيقلب حياة ويُغيّر مصائر. فجأة دخلت مفردات الحرب إلى يوميّات السكّان وصارت هناك حدودٌ فاصلة سيُمنع الاقتراب منها والأراضي المُتداخلة لن تعود كذلك.

أكثر من ذلك، خسر كثيرون ومعهم والدي أراضي كثيرة قرّر المُحتلّ ضمّها إلى كيانه في غفلة عن الدولة اللبنيّة، التي لم تكن تُعرّ اهتماماً إلى ما يجري عند الحدود من عمليّات قُصم لأراضٍ أو قصف واعتداءات عسكريّة شبه يوميّة.

كانت هذه البلاد متروكة لمصيرها. تُخبرنا والدتي، أنّه في بداية سبعينيّات القرن الماضي، أغارت الطائرات المُعادية على منزل أحد أعمامي. على سطح المنزل كان يوجد غرفة صغيرة أشبه بالمقهى يلتقي فيها شبّان القرية للتسامر ولتمضية الوقت. استشهد في القصف ثلاثة شبّان وسقط عشرات الجرحى. أرسلت الحكومة وفداً عسكرياً لمُعاينة الحادث. تقول والدتي كان الضابط يحمل دفترًا وقلماً لتدوين شهادات الناجين، فتصدّى له أحد قبضايات البلدة وطلب منه تأمين مقوّمات الحماية والصمود بدلاً من إحصاء الأضرار.

في ذلك اليوم سار أهل القرية في تظاهرة إلى سراي بنت جبيل للاحتجاج على تخلي السلطة اللبنيّة عن دورها في تأمين الحماية لهم.

ستتكرّر حوادث مشابهة وتتدهور الأوضاع أكثر وتحوّل الحياة الآمنة إلى قلقٍ مستمرٍّ سيدفع السكّان إلى المغادرة شيئاً فشيئاً.

هكذا قرّر والداي ترك القرية ومعهما أنا الطفلة التي لم تكن قد تجاوزت العامين. في أحد أزقة العاصمة ستبدأ أولى محاولات التعرّف إلى المدينة والدخول في نسيجها الاجتماعيّ. صداقات قليلة مع «بيارة» الحيّ ستنشأ تبعاً وستنجح في فكّ العزلة عن المحيط. إذ لم يكن هيناً على مَنْ عاش في بيئةٍ يعرف أهلها بعضهم أن يُصادق الأمكنة الجديدة وناسها. لكنّ مع مرور الأيام ستلاشى رهبة المدينة وستعقد العائلة معها صلحاً يُهوّن وجع التهجير. كنّا نوهم أنفسنا بأنّ الوجود هنا موقّت بانتظار تحسّن الأوضاع جنوباً فنعود من حيث أتينا. وعليه سيظلّ الجنوب حاضراً في كلّ تفصيلٍ من يوميّاتنا. من اللّكنة

التي لم تتخل عنها والدتي يوماً ولا تزال، إلى الصفة التي سئلازماً طويلاً ونُعرّف بها «العيلة الجنوبية». نحن لسنا «بيارة»، لم نتجرأ على الانتماء للمدينة على الرغم من أن القرية لن تعود يوماً مكان إقامة لأي فرد من أفراد العائلة التي سيكبر عددها ويتضاعف في بيروت.

لم تتحسن الأحوال في الجنوب وكانت الأخبار التي ترد من هناك تشي بأنّ النزوح ستطول سنواته ولم تكن بيروت أفضل حالاً. فالمدينة التي كانت تنزلق بجنون في جحيم الحرب الأهلية لم تعد هي أيضاً مكاناً آمناً. انقسمت بيروت على نفسها والمبنى حيث نقيم كان يقع عند خطوط التماس الفاصلة بين البيروتين. نحن في الشطر الغربي والدي يعمل في الشطر الشرقي. أذكر بكاء والدتي وقلقها اليومي مع كل جولة تقاثل خوفاً على والدي. ففي الثمانينيات كان مسلسل رعب اسمه الخطف على الهوية قد بدأ. إن لم تُقتل بقذيفة أو رصاصة قناص قد تُخطف عند حاجز ميليشياوي، وتحوّل إلى واحد من عداد آلاف المفقودين. كانت والدتي تقول إنّ الموت قتلاً في الحرب هو عندها أهون من مصير مُعلّق بين يدي خاطف. لعلّها كانت تتنبأ بما تُخفيه الأيام لها.

لكنّ الحياة ستستمرّ في تحايل يومي على الحرب. نذهب إلى المدرسة صباحاً ثم نجد أنفسنا على الطريق إلى البيت، أرجلنا معلقة في الهواء تُسابق سرعة القذائف. نُعيد الكرة في اليوم التالي، فالمدرسة لم تُغلق أبوابها. كان ذلك فسحة الحياة الوحيدة وسط الجنون.

في العام 1982 وصل الاحتلال الإسرائيلي إلى بيروت. وقبل أن يُحكّم الإقفال على العاصمة سيحملنا والدي في طريق عودة مُعاكسة. سنعيد اجتياز الطريق الساحلي الذي عبرنا عليه يوماً هرباً من الاحتلال في القرية. رأى والدي أنّ الموت في الجنوب «أهون ألف مرّة من كلمة مجهول الهوية، هناك على الأقلّ سنجد من يسأل عن مصيرنا». في العادة يخاف الناس من المصائر المجهولة.

لن تطول عودتنا إلى القرية فما إنّ بدأ الاحتلال بالانسحاب من بيروت حتّى انطلقنا إليها. خاف والدي أن يُعزّل الجنوب ويُصبح عالقين تحت نار المُحتلّ وعُملائه.

وهكذا عُدنا إلى بيروت وأعادت والدتي ثيابنا إلى مكانها في الخزانة. لم يكن توضيب الثياب تفصيلاً عابراً في الذاكرة. كنّا عندما نرى والدتي تُسارع إلى سحب «الشنطة» من الخزانة وتبدأ بوضع الثياب فيها، نعلم أنّ شيئاً ما يحدث وأنّ موسم نزوح آخر قد حان.

في جولات الاقتتال الكثيرة التي مرّت علينا، تعلّمنا التحايل على الموت. المذيع في المنزل لا يسكت. هو دليل والدتي لتقصّي الأخبار كي تُقرّر إرسالنا من عدمه إلى المدرسة. عند اشتداد القصف كنّا نُحسّر في واحدة من زوايا البيت. تلك الزاوية أجمّع والداي على أنّها الأكثر أمناً لكونها بعيدة عن النوافذ الزجاجيّة أو عن الباب ولأنّها تلتصق بحائط المبنى المُجاور. هذه زاوية مثاليّة يُمكن أن تقينا شظايا القذائف التي كانت تنهمر كالمرطبات ذات شباط بارد.

حينما يقترب صوت القصف ويهتّز المبنى فنخاله سيقع على رؤوسنا، كنا نترك زاويتنا الآمنة إلى «بيت الدّرج» أو إلى الملجأ. والأخير منحه الجيران هذا التوصيف على الرّغم من أنّه لم يكن مُهيّئاً ليكون كذلك. كان مستودعاً تتوزّع فيه آلات ضخمة لا يُمكن أن تتزحزح من مكانها. فهو لم يكن مُجهّزاً لاستقبال هذا العدد من الأرواح الباحثة عن فرصتها للنّجاة. كان الهاربون من الموت يتكدّسون بين تلك الكتل الحديدية الهائلة، تجلس كلّ عائلة على بساط أو غطاء قديم وتُضيء شمعة أمامها حتّى يُضاء المكان. من وقتٍ إلى آخر، كان يخرج رجلٌ من الملجأ لتفقد آثار القصف ثمّ يعود ليُخبر عن مُشاهداته.

يوم، يومان وسيتعب المُقاتلون ويعلنون عن استراحة تسمح لنا بالخروج من جوف المبنى. مع أولى ساعات فجر هاديّ بحذر، سيحمل الكثير من جيراننا أمتعتهم ويتركون الحيّ بحثاً عن مكان أكثر أمناً. نحن هذه المرّة «لا مكان نذهب إليه» يقول والدي لجارنا البيروتيّ، سأله إن كنّا سنقصد الجنوب هرباً من الاقتتال المتفكّلت في بيروت.

بين نارِي الاحتلال في الجنوب وجنون الحرب في بيروت، فضّل والدي البقاء. كانت أخبار الجنوب مُقلقة ما جعلته يُحجم عن الذهاب، وخصوصاً أنّ لديه عملاً مياوماً. وكلّ يوم ينقطع فيه عن العمل يعني انقطاع لقمة العيش. لكنّ والدي لم يكن يعلم أنّ الحرب قد وصلت إلى باب منزله، هو الذي لم يحمل السلاح يوماً. كان يعتقد أنّه وَجَدَ الأمان في زاوية منزله وداخل حيّه البيروتيّ «المُنزوي».

ذات مساءٍ ماطرٍ من مساءات شباط، بينما كان والدي وبعض الجيران يتفقدون الحيّ بعد سماع دويّ قويّ، سقطت قذيفة على حيّنا. كان عصفها هائلاً تطاير معه الزجاج والحجارة من كلّ صوب، وغطّى علينا غبار كثيف أعاقنا عن التحرك خطوة واحدة.

انعدمت الرؤية أمامنا وعلق كلُّ منّا في عتمة مكانه. بدأت والدتي بمُناداتنا واحداً واحداً. أتذكر رعب صريخها وأنفاس صمتها وهي تنتظر أن تسمع صوتَ مَنْ نادى اسمه أو اسمها. أخال تلك الثواني القليلة سنوات انتظار ينقطع فيها قلبُها عن الخفقان قبل أن تعود الحياة إليه عند سماع الإجابة. بعد أن اطمأنت إلى نجاتنا طلبت منّا الاقتراب منها، لحقنا الصوت لأنّ الرؤية لم تكن بعد مُمكنة. أمسكتُ طرف ثوبها وفعلَ كلُّ واحد منّا الشيء نفسه مع مَنْ يسير أمامه. كنّا أربعة أطفال، أكبرهم أنا لم أتجاوز الثامنة من عمري. سرنا خلفها إلى خارج البيت الذي يقع في الطابق الأرضي من المبنى. ما إن تجاوزنا عتبة الدار حتّى بدأت مشاهد الموت بملاقاتنا. كانت ريماء، ابنة جيراننا أوّل لقاء لي مع الموت. ربّما في تلك اللحظة، لم أعرف أنّي عبرتُ أمام جثة لكنّ الدماء الكثيرة التي خرجت من رأسها أخافتني كثيراً والأطفال عادة يهابون منظر الدماء ويتوجّسون منه خطراً. أمرتني والدتي بأن أتابع سيرى وألا أنظر إليها وأن أركض بسرعة نحو بيت الدرج. المسافة من باب منزلنا إلى هناك لا تتعدّى الخمسة أمتار. لكنّها في تلك الليلة الصعبة كانت مساراً شاقاً أعبره ولعلّي ما زلتُ إلى اليوم عالقة في تلك الأمطار القليلة. مع كلّ خطوة كنتُ أسمع وقع أقدامي على الزجاج المحطّم، ثمّ تعثّرت بعائق. لم يكن زجاجاً ولا إسمنتاً، كان شيئاً طرياً ولكن حينها لم أكن لأُميّز جثث الموتى.

لم تُرافقنا أمّي إلى بيت الدّرج بل اتّجهت مسرعة صوب مدخل المبنى ومنه إلى الشارع الصغير. كانت تبحث عن والدي ووجدته. كانت سيّارات الإسعاف قد بدأت بالوصول. علّمت أمّي حينها أنّ والدي قُتل «سحبته بيدي، لم يتحرّك» قالت لجارتنا التي جاءت لمُساندتها. بقيت تردّد تلك العبارة في انتظار أن يأتينا خبر من المستشفى. لم تستطع أمّي مرافقة سيّارة الإسعاف لأنّها لم تستطع أن تتركنا لوحدا في المنزل. لكنّ كان على أحدٍ ما أن يُعلم العائلة بما حصل. لنا خال يُقيم في بيروت. طلبت والدتي من جارنا أن يذهب إليه وطلبت منّي مرافقته لأدّله على الطريق.

كان ليل بيروت ماطرًا وبارداً. أمسك الرجلُ بيدي ومشينا في ظلام دامس لم يُضئهِ إلا أضواء القذائف المتفجّرة.. لا أحد يسير في الطريق، فقط نحن وسيّارة إسعاف كانت سرعتها تُسبق الزمن لعلّها تتمكّن من إنقاذ أرواح التهمتها الحرب. التقينا بمسلّحين عبروا أمامنا، لم يوقفوا جارنا لسؤاله عن خروجه في ذلك الوقت. لم أشعر بالخوف منهم قدر

خوفي من أن أتوه عن منزل خالي وأن لا أنجح في الوصول. كنتُ أتوقّف مرّة بعد مرّة عن السير كي أتمكّن من تذكّر الطريق نحو وجهتنا الصحيحة. بعد محاولاتٍ عدّة تمكّنتُ من إيصال جارنا إلى بيت خالي. لا أعرف ماذا أخبرته عندما سألني مُستغرباً عن عدم مُرافقة والدي. أعتقد أنّ جارنا أكمل له سرد الفاجعة. رجعتُ إلى البيت وكانت أمّي قد استسلمت للبكاء لأنّها عرفت أنّ سنوات من الحزن تنتظرها.

ساعات ووجدنا أنفسنا مرّة جديدة على الطريق الساحليّ مع جثّة والدي الذي جاء بيروت بحثاً عن أمان وعاد منها قتيلاً.

يصعب فهم الموت في عمر الثامنة. مهما أخبرت عنه لن يتمكّن عقلك الصغير من استيعاب معناه. ما ستكتشفه لاحقاً أنّ حياتك لم تعد تُشبه ما كانت عليه وأنك لم تتمكّن من رؤية والدك مجدّداً حينما تسأل مراراً وتكراراً عن عودته. لم تكن والدتي الغارقة في حزنٍ دائم لتجيب عن أسئلتنا. قالت القريبات والجارات إنّّه أصبح في السماء. لذا لطالما نظرتُ نحو الأعلى عليّ أراه أو لعلّه يمدّ يده ملوّحاً. وكنتُ أسأل نفسي كثيراً لما سيصعد للعيش «فوق» ويتركنا هنا؟ لماذا لم يأخذنا معه؟ عاشت معي تلك الأسئلة لأنّي لم أحرّو على سؤال والدتي التي أخذها الحزن منّا. لاحقاً اعترفتُ لي أنّها حاولت إنهاء حياتها أكثر من مرّة ولم تتجرّأ على اتّخاذ الخطوة الأخيرة. كانت تصعد إلى سطح منزل والديها في القرية وتقترب من الحافّة كي تُلقِي بنفسها إلى الأسفل. لكنّ في كلّ مرّة كانت تشعر بيدٍ تشدّها إلى الخلف أو تسمع صوتاً يُذكّرُها بأنّ لديها أربعة أطفال وأنّ الخامس في بطنها.

في القرية سنقيم أشهراً قبل أن تُقرّر والدتي العودة بنا إلى بيروت. أُجبرت على العودة خوفاً من أن يعمد صاحب المنزل على طردنا منه بسبب تأخّرنا عن دفع بدلات الإيجار أو أن يقوم المسلّحون باحتلاله. احتلال المنازل الخالية من سكّانها كان شائعاً في بيروت في ذلك الزمن.

عادت والدتي إلى بيروت ومعها نصف العائلة. أمّا نصفها الآخر، أنا وأخي فبقينا في القرية. هكذا ارتأى الجميع أنّه الحلّ الأفضل، فوالدتي لن تتمكّن لوحدها من تدبير أمورنا جميعاً. في اليوم الذي تركّتنا هربتُ إلى سطح البيت وبكيت كثيراً. كنتُ أبكي وأنظر إلى السماء لعلّ والدي يطلّ منها ويخبرني عن سبب غيابه وعن سبب رحيلها.

ستمّر أشهر طويلة قبل أن يلتئم شمل العائلة. عدتُ أخي وأنا إلى بيروت لنجد أنّ طفلاً صغيراً قد دخل حياتنا. كان فرحاً وسط الحزن الكبير. فمظاهر الحداد طُبعت كلّ طفولتنا، لم تخفِ أمّي حزنها ولم تتخلّ عن ارتداء السواد لسنوات وسنوات. لم نكنْ نحفل بالأعياد ولم نكنْ نُشارك في أيّ مناسبة اجتماعيّة سعيدة، حتّى جهاز التلفزيون نُقل من مكانه في وسط الغرفة ليستقرّ سنوات في قعر الخزانة. كنّا إذا رغبت في مشاهدة التلفزيون نتحایل للذهاب إلى منزل خالي أو جيراننا لعلّنا نحظى بساعة مشاهدة.

الحزن والخوف من خساراتٍ إضافيّة قد تحملها لنا الحرب جعلنا نعيش لسنوات في عزلة تامّة عن كلّ أسباب الفرح. ولأنّني كنتُ الأكبر سنّاً بين إخوتي وأخواتي فقد نلتُ النصيب الأكبر من تلك العزلة ومن مقاسمة والدتي في تحمّل أعباء الحياة. وهي أعباء تصبح أشدّ ثقلًا في زمن الحرب. صحيح أنّ الحرب جعلتني أشدّ صلابَةً حينما دفعتني باكراً لأواجه وحيدة تحدّيات الحياة. لكن في الواقع، لم أكنْ أملك ترف الاختيار كي أقرّر إن كنتُ أريد ذلك. حينما كنتُ أشعر بالخوف أو القلق كنتُ أخفّف عني بالقول إنّ كلّ ما سيأتي لن يكون أسوأ ممّا حصل.

مع تقدّم السنوات صرّت أجد بعض الفرح في المدرسة. لكنّ ارتيادها أيضاً لم يكن ثابتاً بل كان مسلّحو المليشيات المُتَحارِبة يتحكّمون في تحديد روزنامة الحضور والتعطيل. يهدأ الاقتتال فنعود إلى مقاعدنا، يشتعل فنلزم منازلنا. وهكذا كان التعليم يسير في لعبة كُرّ وفرّ مع المُتقاتلين ويحدث أن ترجع يوماً إلى مدرستك فتكتشف أنّ رفيقَةً لك لن تعود. لا تحمل الحروب إلّا الفقدان. وذاكرة جيلنا نحن الذين ولدنا وكبرنا فيها لا تتوقّف عن إحصاء الخسارات.

في يوم دراسيّ سُرق من يوميات الحرب، سيأتي الأستاذ محمّد ليفتح لنا باب غرفة معتمة لطالما سُردت الحكايات حولها. كانت صديقتي تقول إنّ جنّاً يسكن فيها وأخرى تتحدّث عن أفعى تنام خلف الخزانة الكبيرة. عندما همّ أستاذنا بفتح الباب، حبسنا جميعاً الأنفس بانتظار أن يقفز ذلك الشيء، جنّاً كان أم أفعى.

لكنّ شيئاً من ذلك لن يحدث وستقفز أمام أعيننا رفوف مُمتلئة بالكتب. كانت مكتبة ولكنّ أحداً لم يفتح بابها يوماً، ربّما لأنّ المُطالعة كانت ترفاً في زمنٍ كنّا نسرق منه ساعة لتعلّم قراءة الحرف وكتابته.

صارت مكتبة المدرسة مكاني المفضل وعالمي الساحر الذي يأخذني إلى حيث لا يستطيع واقعي تخيُّله. كان يحقُّ لنا استعارة كتاب في الأسبوع ولكنَّ ذلك لم يُكن ليُشبع نهمي، فصرْتُ ألجأ إلى صديقتي اللواتي يجدن في المُطالعة قصاصاً فأستعير ما بحوزتهنَّ. أكثر من ذلك صرْتُ أحدّد لهنَّ مسبقاً ما يخترن، فالكتاب سيحطّ في آخر المطاف بين يديّ.

لكنَّ تلك البهجة لن تستمرَّ طويلاً، ستشتعل جولة حرب جديدة وستغلق المدرسة أبوابها. بعد أن غادر كلُّ جيراننا في المبنى وصار حيُّنا موحشاً لم يتركه إلّا مَنْ لم يجد مكاناً يهرب إليه، شعرتُ والدتي بالخوف. فقرَّرت أن نلجأ إلى القرية. كنّا قد انقطعنا عن زيارتها لسنواتٍ لنجد أنفسنا مجدداً في سيّارة أجرة جاءت لنقلنا إلى الجنوب. خرجنا من بيروت على وقع قصفٍ عنيف اضطرَّ معه السائق للقيادة بسرعة جنونية حتّى يصل إلى الطريق الساحليّ. ما إن أصبحت بيروت خلفنا حتّى استعدنا أنفسنا. لكنَّ القلق سيعود مع كلِّ حاجز عسكريّ سيُطالعنا على الطريق. أماننا حواجز عسكريّة عدّة قبل أن نصل نقطة المعبر. المعبر هو الذي يفصل القرى المحتلّة عن باقي الجنوب. انتظرنا طويلاً في السيّارة قبل أن تُفتح لنا البوّابة الحديدية. طُلب منّا أن نُفرغ أرضاً كلّ محتويات حقائبنا وأن نتوجّه إلى غرفة التحقيق. كانت والدتي قد أوصتنا بأن لا نُجيب عن أسئلة المحقّق بأكثر من «ما يعرف»، أو أن نلتزم الصمت. في الغرفة، كانت تجلس سيّدة خلف مكتب وأمامها مجموعة من الأوراق، طلبت بطاقة الهوية وبدأت بطرح أسئلة كثيرة عن سكننا في بيروت ومعارفنا ويوميّاتنا. بين إجابةٍ وأخرى كانت المُحقّقة تُباغت والدتي بسؤالٍ عن فلان أو فلان من أبناء قريتنا المعروفين بنشاطهم السياسيّ المُناهض للاحتلال. لم تجد المُحقّقة في والدتي صيداً «مُخابراتياً» لذا بعد حوالى الساعة، سلّمتنا تصريحاً يسمح لنا بالعبور نحو «الشريط المُحتلّ».

دخلنا القرية بعد سنواتٍ من الغياب. لم تكن تُشبه تلك التي بقيت عالقة في ذاكرتنا يوم وصلناها لدنٍ والدي قبل أكثر من ستّ سنوات. بدت مُعلّقة بشدّة على حالها وقد تراجع عددُ قاطنيها وغادرها معظم الأقارب والمعارف. كنتُ قد بلغت الثانية عشرة، لم أجد من أتسلى برفقته خلال إقامتي الموقّنة في القرية. أمضينا معظم وقتنا في البيت، لا نخرج إلّا لزيارة ضريح والدي أو من بقي من الأقارب. كانت والدتي تخشى عملاء

الاحتلال، كما تخشى تسُلُّ البضائع الإسرائيلية إلى مائدتنا. كانت لائحة المحاذير التي أوصتنا بها تطول لحدّ أصابتنا بالضيق والتملُّل. كنّا عندما نشترى السكاكر والعصائر نُطيل النظر إلى الكتابة على غلافها. نتذكّر كلام والدتي عن العبريّة ذات الأحرف الغريبة التي لا تُشبه الأحرف العربيّة ولا الأجنبيّة التي تعرّفنا إليها في المدرسة.

على خلاف الفرحة التي رافقتنا عند دخولنا القرية، تحوّل مكوّننا فيها إلى إقامة جبريّة. صرنا نُحصي الأيام لنعود إلى بيروت. لذا ما إن هدأت الأوضاع الأمنيّة وبدأ أنّ الحرب الأهليّة قد شارفت على نهايتها، حتّى انطلقنا في طريق العودة. كانت تلك الزيارة الأخيرة إلى القرية.

بعدها ستستقرّ أحوالنا في بيروت مع توقّف أصوات القذائف. وستُصبح المدينة مكاناً النهائي الذي منه سننطلق نحو خيارات الحياة. لكنّ انقطاعنا القسريّ عن الجنوب، لم يُحوّله إلى تفصيل عابر. ظلّت أخباره تطغى على كلّ اهتماماتنا. الحروب هناك لم تتوقّف يومياتها. سنعيشها ولو عن بُعد، ولاسيّما خلال عدوانيّ تمّوز (93) ونيسان (96). صحيح أنّنا لم نترك منزلنا خلالهما لأنّ الحرب بقيت بعيدة عن بيروت، إلّا أنّ أخبارها أعادت إحياء كلّ الذكريات الأليمة. من سخرية القدر، مثّل هذان العدوانان دوراً مباشراً في حتّي على اختيار الصحافة اختصاصاً جامعياً. كنْتُ ساخطة وكان لديّ رغبة شديدة في الكتابة والتعبير عمّا يحدث. وهكذا حصل. دخلتُ كليّة الإعلام في الجامعة اللبنانيّة مع انتهاء عدوان نيسان الذي شنه الاحتلال الإسرائيليّ على لبنان عام ستّة وتسعين وتخرّجتُ مع انسحابه من الجنوب في العام ألفين. بين تاريخين حاسمين على روزنامة الأحداث في لبنان، تشكّلت حياتي المهنيّة التي اتّكأت في جوانب عدّة على علاقتي مع الحرب. قد تكون حرب الألفين وستّة، الوحيدة التي لم أعشها. كنْتُ قد غادرتُ إلى فرنسا لإتمام الدّراسات العليا حينما وقعت. تقول والدتي إنّني «زمتُ منها». هل فعلاً «زمتُ»؟ ربّما. أقول ذلك في كلّ مرّة، أقود سيّارتي برفقة أولادي الأربعة إلى قريتي الحدوديّة. وعندما أطلّ من شرفة منزلنا المُقابل لفلسطين المحتلّة، أقول لنفسي «لقد نجوت».

ذاكرة أمي... ذاكرة ثورة لم تُكتب بعد

في تجربة العمل على ذاكرة النساء والحرب (الثورة التحريرية الجزائرية) تمّ استجواب بعض مَنْ خُصِّنَ تجربة العمل الثوري والانخراط في الثورة التحريرية. ففي مقابل الإشادة ببعضهنّ مثل الجميلات، في وسائل الإعلام والدراسات، لم تجد تلك المُستجوبات مَنْ يُسمع صوتهنّ إلى أيّ جهة إعلامية أو سياسية للتعبير عن تضحياتهنّ ومدى مُعاناتهنّ وهنّ فتيات صغار... وفي سنّ مُراهقتهنّ اخترنَ المُواجهة المزدوجة، مُواجهة المُستعمر ومُواجهة المُجتمع. وعلى الرّغم من كلّ ذلك كان لديهنّ الأمل في تحرّر حقيقيّ بعد الاستقلال. لكنّ التّعليم والتّغيب ازداد، وبقيت «سلطة الأيقونات» هي المُتكررة والتي تطع ثورة شعبية حقيقية... ازدادت الصدمات وازداد الإحباط لدى هؤلاء السيّدات في كلّ مناسبات الحديث والاحتفال بالحرب التحريرية.

أحاول في هذه الورقة نقلَ أجزاءٍ من سيرة حياة والدتي باعتبارها شاهدة على ثورة «أجحفت» في حقّها. هي ابنة الرّابعة عشرة عاماً التي قرّرت أن تنتفض على واقع استعماريّ مُزّر، فقرّرت أن تحمل السّلاح وتدافع عن كرامتها وكرامة وطنها. لكنّها اصطدمت بالمُجتمع التقليديّ وبعنف

مريم بو زيد

ظروف تلك المرحلة. ما زالت تحكي تفاصيل عدم توقُّفها عن النضال حتَّى الاستقلال. ما زالت تُناضل من أجل اعتراف السلطات بتضحياتها وتضحيات كلِّ منطقتها التي بقيت إلى ما بعد الاستقلال من مناطق الظلِّ والظلمة. ذاكرة والدتي ذاكرة فولاذية وتفاصيل حكاياتها دقيقة وملونة بألوان الطبيعة والطقس ومواسم الخضر والفواكه. هي شاهدة على ثقافة تلك الفترة غير البعيدة لكنَّها مُهمَّلة. تعرف تفاصيل اللباس والحلى... وطقوس الزراعة والنسيج والبناء... تسجيلاتي معها لا تنتهي... وحكايتها لا تنضب...

مقدمة

تعود بداية الاهتمام بمُشاركة النساء في الحرب التحريرية (الثورة التحريرية)، وتحديدًا نساء الأرياف والمناطق المعزولة، إلى ما وجدته في أثناء بحوثي الأكاديمية في مجال الأنثروبولوجيا؛ إذ، في كلِّ مرة، يبرز ويتشكَّل ذلك الخيط القويُّ الذي كان يجمع النساء، من مختلف مناطق البلاد، بالمُدن الوسطى والأحياء الشعبيَّة، وبالقرى والأرياف، وحتَّى الصحراء الكبرى منطقة تواجد طوارق الجزائر. تنتظم ذاكرتهنَّ بتاريخ الثورة، بطريقة أو بأخرى. ثورة أحدثت تغييراتٍ على بعض المعايير والقيَم الاجتماعية وقَلبت بعض الأنظمة والأنساق الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة. فكان كلُّ شيءٍ يبدأ من ذلك الماضي القريب المسكون بالألم، ألم الحرب والمُعاناة والفقر والحاجة والذلِّ... تبدأ سيرة حياة النساء، ممَّن عايشنَّ وولَدنَّ في تلك الفترة، بسيرة الحرب والثورة وما خلَّفته من مجازر وتهجير وسجن ومُعاناة يومية إلى أن جاءت «نعمة الاستقلال». مهما كانت إشكالية البحث، إنَّ كان عن الاقتصاد غير الرسمي، المُوازي، أو عن إشكالية الجسد المُنتج، أو عن الطقوس واحتفالات الزَّواج أو الموسيقى... أو عن أيِّ موضوع كان، فلا بدَّ أن يُترك المجال واسعاً أمام الإدلاء بشهادات ومُعينات وحكايات عن الثورة التحريرية. حتَّى وإن لم يكن هاجسي كباحثة، مثل هذه الإشكاليات، فإنَّ حُجْم المُعطيات الأنثوغرافية، التي تتسلسل عن تلك الحياة الصعبة وتصوير خفقاتها، جعل السؤال يكبر بداخلي عندما تُذكّرني والدتي بالتسجيلات التي قمتُ بها مع صديقتها «خديجة». في كلِّ مناسبة كانت تُذكّرني بوعودي «ألم تُكنْ فكرتك وقتها أن تُؤلِّفي كتاباً عنا؟ لماذا تُماطين؟ لماذا لا تُبادرين بالكتابة عن هذه المنطقة ومُعاناتنا فيها وعن

شهادتنا الذين لا أثر لهم في متحف المُجاهد والجيش؟ آه لو كنتُ أقرأ وأكتب... لما كنتُ تركتُ واقعةً إلا وكتبتها وسجلتها ولكتبت للمسؤولين عن حُجَم مُعاناتنا... أراهم في مختلف القنوات يأتون ويتكلمون، ويُقدّمون شهاداتهم، كاذبة كانت أم صادقة، لكن شهاداتهم لا تُغطّي كلَّ تاريخ الثورة الشعبيّة التي شارك فيها حتّى الحيوانات.

ثورة على النّظام الاجتماعيّ في أربعينيّات القرن الماضي ثورة «قدّورة»⁽¹⁾

أسهمت العديد من العوامل الأسريّة والاجتماعيّة والتاريخيّة، في أن تسريّ في عروق والدتي الثورة ضدّ الظلم، فضلاً عن العوامل الجسديّة. فبعد وفاة والدها في العام 1945، رفضت جدّتي السكن في بيت أسرتها الممتدّة، الجدّ والجدة والأخوال وزوجاتهم، كما رفضت أن يأخذ إخوة زوجها أولادها ليعيشوا عندهم. كما رفضت رفضاً قاطعاً الزواج مرّة أخرى. رفضت أن يأخذ أحدُ أملاك أولادها أو أن يتربّوا مكسوري الخاطر تحت «سيطرة» ما أو سلطة غير سلطتها أو سلطة والدهم. كم كان ثمن ذلك باهظاً، لكنّها تحمّلت تبعاته. عاشت في بيتها العامر بالخيرات ممّا تركه زوجها وممّا اكتسبته من مجهودها وكدها وتعبها. كانت ثورة اجتماعيّة غير مألوفة أن تعيش أرملة بعيدة عن سلطة باترياركيّة تلجمها، لكنّها كانت امرأة بعشرة رجال أشدّاء، كانت لها الكلمة، ليس لأنّ كلمتها كانت مسموعة «بالفطرة»، بل لأنّها فرضت نفسها أيضاً بقوّتها وكانت تُعبّر عمّا تشعر بأنّه حقّ ولو كان ذلك على رقبتها. لم تكن تُجامل. كلماتها توحى بفضاظة كبيرة، وهي تصوّب ما تراه خطأً، لكنّ بقلب أبيض لا يحقد أبداً وهذا ما كان يجعلها محبوبة، وكان ما تقوله يُصبح بسرعة مضرب أمثال. عاشت برفقة أولادها تحمي مصالحهم وتوفّر الخيرات التي تعمّ على الجميع. لم تكن تمنع خيرات الله عن أحد. عاش من عاش ببذخ من كرمها من أهلها، فكانت تتصدّق وتزكّي قبل أن تبرّد «النعمة» من حوافر الخيل التي كانت تدرس القمح في البيادر. كان بيتها عامراً بخوابي الزيت العملاقة، وجرار العسل و«كوفي»⁽²⁾

(1) كان اسم جدّتي، وهو تأنيث لاسم جدّها «قدّور» ووالدها سعيد.. وذلك تقديرًا لها ولقوّتها.
(2) أكوفي، وجمعه «إكوفان» عبارة عن أوعية طينيّة كبيرة، مثل الجرار الكبيرة، تلتصق بالسور، تُصنّع من الطين المزوج بالطين وروث الأبقار، من دون شوي.

القمح والحمص والتين المجفف. وكان بيت المؤونة الطيني تظهر على أسواره تشققات في سقفه وعلى جدرانها من ثقل ما يُعلّق، كعناقيد الفلفل الأحمر العملاقة والبصل والثوم وكلّ المنتوجات الزراعية الأخرى. امرأة حديدية لا تكلّ ولا تملّ، لا تترك شبراً من أرضها بوراً ولا شجرة من أشجارها الكثيرة من دون عناية، وهذا ألب ضدها المواجه. لكن لا يجرؤ أحد على أن يتعدى على حرمة بيتها لأنها تمتلك من الشجاعة التي ليست للرجال وتمتلك أسلحة لا يمتلكها أيضاً الرجال، وهذا قبل اندلاع الثورة. عاشت والدتي، صغرى البنات، مع أخواتها الأربع وأخيهم الأصغر، آخر العنقود، مثلها مثل الصبيّ تخرج معه لترعى قطيع الماعز والأغنام، في بيت فيه بغال وحصان وجمال، وتعود إلى البيت بعناد الأطفال وعدم الاستسلام للراحة. شقاوة الصغار. وكان يُطلب منها أن تقوم بأعمال البيت النسائية من جلب الماء من الينابيع أو الطبخ وكانت ترفض بحجة أنّها متعبة من الرعي والسير على الأقدام حافية في البرد والثلوج. وكانت والدتها تُساندها وتنهر أخواتها.

ذاكرة أمي والثورة: ذاكرة لا تترنّح⁽³⁾

تقول «نشفي مليح كي بدأت الثورة»⁽⁴⁾ (أذكّر جيّداً عندما بدأت الثورة). من عادات والدتي وهي تحكي عن الأحداث التاريخية أن تربطها بالفصول وأحوال الطبيعة وبتفاصيل الحياة اليومية الماضية، زيادة للتأكيد ربّما لأنها عاشت في فضاء مفتوح، ولم تكن تمكث في البيت سوى للأكل والنوم. تسرد أحداث البداية كالتالي: «عندما بدأت الثورة (كان عمرها آنذاك 12 سنة) جاء ستة أشخاص للبحث عن الأسلحة وجمعها. كنّا نسكن في بيت جدّي مع أخوالي، رحمهم الله ورحم الشهداء. جاؤوا قبيل المغرب، كنْتُ أنوي الذهاب إلى بيت الخلاء (وفعلاً خلاء) فنادوا عليّ وسألوني عن مكان تواجد أخوالي وأخبرتهم بأنهم في البيت، فطلبوا منّي مناداتهم وفعلتُ والتقوا بهم عند باب

(3) إشارة إلى رواية الطاهر بن جلون «حين تترنّح ذاكرة أمي». لم تترنّح ذاكرة والدتي يوماً إذا تعلّق الأمر بما قامت به أثناء الثورة ومختلف أحداث تلك الفترة... خانها القلم والقراءة والكتابة. قالت لو كنْتُ أعرف الكتابة لكتبْتُ كلّ شيء ولأخذتُ حقّي. درست في العام 2001 في مركز محو الأمية مدّة شهرين تعلّمت القراءة والكتابة، لكنّها لم تُواصل المشوار بسبب ميلاد ابنتي. كانت تنتظر الحدث بفارغ الصبر. كان عليّ دين تجاهها ولم أف به، وهو أن أعلمها وأمحو أميّة الكتابة والقراءة عندها... أنا من ترنّحت ذاكرتي من بعدها.

(4) من مُقابلة أُجريت مع والدتي السيّدة تشينة خدوجة في بيتها في أولاد موسى في 12 آذار/مارس 2016.

الإسطل الذي كانت فيه الجمال وطلبوا منهم إحضار سلاحهم، بعدما طلبوا من أهل القرية أن يجتمعوا في الجامع وكلُّ واحد يُحضِر معه ما يمتلكه من سلاح من أجل مساعدة الثورة. فأعطاهم خالي «علي» أربع بنادق وأربعة مسدّسات... فطلبوا من والدتي تسليمهم سلاحها (حيث كانت تملك مسدّسين كانت قد اشترتهما حديثاً من القرية المجاورة) أحدهما يَسع تسع رصاصات والثاني ستّ رصاصات وبندقية صيد. فرفضت بحجة أنّ السلاح عند إخوتها وقد قاموا بتسليمه لهم. ووالدتي هي من اشترت لإخوتها أسلحتهم. تَمّت الوشاية عنها للمسؤولين، وأنّها رفضت مساعدة الثوار والثورة فذهبت عند أحد هؤلاء المسؤولين ورافقتُها أنا، كنتُ دائماً «ألتصق بها» أينما ذهبت، وعندما قابلت السيد المدعو «بوطريق»⁽⁵⁾ لتفند ما أُشيع عنها بأنّها رفضت مساندة الثورة ومنحهم السلاح. فعندما قابلته: «قال لها احضري لي السلاح يا بنتي، وردّت عليه وماذا ستفعل به، قال لها للدفاع عن الثورة وطرد فرنسا... فردّت عليه وأنا من يحميني... لقد اشتريت السلاح من أجل بناتي، ومن أجل أن أحمي نفسي... قال لها أنا أحميك... قالت له لا يُمكنك حمايتي وبالليل عندما تكون نائماً، من سيحميني... طمأنها وأكّد أنّه سيحميها وأنّ لا شيء سيصيبها ما دام حيّاً... إذا حميتك ودافعت عنك أعرفي بأنني رجل وإذا لم أستطع فعل ذلك فلست «بحجم كلمتي»... وعندما تحطّ الحرب أوزارها سأعيد لك سلاحك... فذهبت والدتي «المسكينة» وأحضرت أسلحتها، مسدّسين وبندقية صيد وسلمتها له... بعدما قدّم لها ضمانات الحماية، التي كانت تشكّك فيها «قدّورة» لأنّها تُدرك أنّ ما يحكّ اللّحم سوى الظفر... لكنّها استسلمت لأوامر الثورة.

طفولة قبيل الحرب، شياطين وملائكة

عاشت في البيت الكبير، بيت جدّها، الذي فيه طابُق أرضيّ وطابُق علويّ. بيت طينيّ، هندسة محلّية، هندسة «بيت قبائلي» يتكوّن من مصرف للمياه يأتي على اليسار وهو مكان مخصّص للحيوانات مثل الماعز أو الغنم وحتّى الأبقار⁽⁶⁾. وعلى ارتفاع منه

(5) الذي سيصبح له شأن بعد انطلاق الثورة وانتشارها إذ أصبح يطلق عليه «البوشي» بالفرنسية وتعني الذباح. كان يقوم بالتخلص من الخونة ذبحاً.

(6) يطلق عليها بـ «داينين» باللهجة القبائلية أو «الداينين» بالعربية العامية.

ثمة ما يُطلق عليه «دكّانة»⁽⁷⁾ وفيها الموقد (الكانون) الذي كانوا يتحلّقون حوله في ليالي الشتاء الطويلة كلّهم: الجدّة والجدّ وأخوتها وأخيها لينعموا بالدفء والحنان ولسماع الحكايات والأغاني.. وأواني المؤونة التي يُطلق عليه «إكوفان» لتخزين القمح والدقيق والتّين وغيرها من الموادّ وتكون ملتصقة بحائط الغرفة التي تُستخدم للتدفئة والنوم... للبشر وللحيوانات.

تعترف والدتي بأنّ أطفال ذلك الوقت كانوا «شواطن» أي شياطين وكثيري الشغب، لكنّ كلّ شيء يقومون به خارج البيوت، في الطبيعة الشاسعة. وكانت تلك «الشيطنة الطفولية» حلوة. كنّا نُشأب نجري وراء القطعان، ولم نكن نعرف العلاقات الذبّية التي تحكم العلاقات بين الذكور والإناث. البنات والصبيان يُمضون اليوم في الخارج «هائمين» في المراعي (أبناء الأعمام والأخوال). كانوا مُتحيّين، لدرجة، كما قالت والدتي، عندما يجد خالك (تُخاطبني) أي أخيها، تينة حلوة اقتسمها معه، حيث أكل النصف وأعطيه النصف الآخر. لا أحد يستحوذ على المتعة بمفرده. بلغت تلك الشيطنة مبلغها، حيث كانت تلعب الفتيات الصغيرات بالعرائس المصنوعة من القصب، فوق شجرة الخروب العملاقة التي تُغطّي الطرقات وحتّى البيوت، وعندما يتبول الصغار، يعتقد المارة من الكبار بأنّها تمطر أو أنّه رذاذ المطر فقط.

تواصل والدتي وصف العلاقة بوالدتها، التي كانت تقوم بأعمال الرجال في الخارج ولم تكن «حنونة» بمقدار ما يحتاج إليه الأبناء، بل كانت تُظهر قسوة لا نظير لها في تربيتهم. إذا كانت والدتنا تحميننا من «العدوان» الخارجي، فليست هي من ربّتنا بل تربّينا عند جدّتي (لألا خدوجة) ونانا (مولود)⁽⁸⁾. كنّا طيلة النهار نَجري بين المَراعي ونعمل على تنقية الزرع وجمع الحبوب والسنابل المُتبقّية بعدما تُحصّد المَحاصيل. كما كنّا نُساعِد في أعمال الحقل من غرسٍ وسقي. وكنا نُقِيل تحت الأشجار. عندما يتعب أخوالي

(7) أو ما يطلق عليها «ثادوكّانت» وهي عبارة عن مقعد مستطيل، أو مصطبة، مبني من البطين والحجارة والتي تنتصب عليها «إكوفان» لتخزين المواد المختلفة لاسيّما المتوجات النباتية. وفي أسفلها توجد فتحات تستخدم في حفظ العديد من الأغراض.

(8) كانت جدّة والدتي (لألا خدوجة كما نطلق عليها جميعاً) و«لألا» لفظ كبار وإجلال لذوات المكانة المرموقة وكبيرات العائلة وللوليّات الصالحات. ونانا «مولود» نانا أيضاً لفظ تقدير لمن هنّ أكبر منّا سنّاً مهما كانت درجة القرابة. ولألا خدوجة ونانا مولود متزوّجتان من إخوة، جدّ والدتي قدور وأخيه محمّد.

من تلك الأعمال تعوّضهم نساء العائلة مع البنات للسقي. كنّا لا نتعب ولا نملّ. وفي الليل نقصد بيت «نانا مولود» (هي أيضاً سُمّيت على اسم والدها). كانت تحبنا وتخاف علينا. وكان صدرها يتّسع للجميع. ففي أيام الشتاء تُشعل النارَ بوساطة جذوع كبيرة، ومن تبلّلت ثيابه مِنّا كانت تقوم بتجفيفها بوضعها فوق ذلك الحطب لئلا يبرد ثيابه ثانية بعدما تجفّ وكانت تُعطينا لحافاً نندثر فيه إلى أن تجفّ الملابس المبلّلة... وكانت تضع الفراش بالقرب من الموقد الذي يظلّ مشتعلاً والذي ترقد بجانبه، تُراقب أيّ شرارة تصدر منه. كما كانت تُطعمنا ممّا تطبخ من مأكولات شهية. بينما كانت والدتي دائماً منهمكة في مشاغلها في بيتنا في الجهة المقابلة للوادي. دائماً تقف الذاكرة عند فواصل زمنية مؤلمة، ذاكرة الأطفال التي تُشبه ذاكرة الحاسوب، تلتقط كلّ شاردة وواردة، ولن تنسى التفاصيل إلّا إذا تمّ حذفها بهزاتٍ وصدمات أقوى. تروي والدتي ما حدث لابنة عمّها، فتقول: «لم يسلم أحد من أذى الاستعمار حتّى الرضع». تنقل الواقعة تلك بكثيرٍ من الشجن والأسى: «عمّي (بابا دودح)⁽⁹⁾ قتلوا ابنته الرضيعة التي كانت في مَهدها (الدوح) وكان عمرها لا يتعدّى الشهرين فأخذوا المهد ورموه أسفل إلى «الداينين»، لم تُمت في ساعتها، بل بقيت تتنّ وتتنّ، ولم تشرب قطرة حليب واحدة. ثمّ ماتت بعد يومين. قاموا بتهشيم عظامها الطرية، فكلّمّا أمسكوا بعضاً من أعضائها كانت تصرخ من شدة الألم». كذلك عذبوا الكبار، وتذكّر ما فعلوه بأحد أقربائها حيث «ربطوا رجله في سقف البيت ورأسه إلى أسفل وكانوا يعذبونه عذاباً شديداً». أفعال فرنسا لا يُمكن تصوّرها.

كمين «جراح» كما روت تبعاته

بالدقة والتصوير الحيّ والحماسة والأحاسيس نفسها التي كانت تعيشها في تلك الأثناء، وبالأماكن والمواسم وأسماء من حولها وحالة الطبيعة، تحكي على «كمين جراح»⁽¹⁰⁾ كأنّها تكتب سيناريو فيلم لا يحتاج سوى إلى وضع الكاميرات للتصوير،

(9) اسمه السعيد ويطلقون عليه بابا «دودح» بمعنى الصغير جداً، بينما كان عظيم البنية الجسمانية. كانوا يستعملون الأضداد لتفادي الحسد أو الشؤم.

(10) يُطلق عليه في الكتابات والإعلام الكولونياليّ اسم «كمين باليسترو»... وباليسترو اسم أطلقه الفرنسيون على منطقة «الأخضرية» حالياً (سُمّيت على اسم الشهيد سي لخضر واسمه الحقيقي رابح مقراني) تيّناً واعتزازاً بمعركة باليسترو في إيطاليا التي وقعت في أيار/مايو 1859 والتي انتصر فيها الجيش الفرنسي الإيطالي انتصاراً ساحقاً على =

في أماكنها الطبيعية. المعركة - الكمين التي لم يُكتب عنها سوى القليل جداً، ما كتبه الرائد عز الدين⁽¹¹⁾ وما نقلته عنه مؤرّخة فرنسيّة اشتغلت على أرشيفات الحرب التحريرية الجزائرية في سنوات التسعينيات⁽¹²⁾ عن تلك الحادثة التي كبدت فرنسا خسارة كبيرة، تروي نساء المنطقة من مُتابعات الأحداث وتأتيهنّ الأخبار من المُجاهدين مثل زوجة خال والدتي (خالتي عزيزة⁽¹³⁾) عن تلك التفاصيل المؤلمة بسياق طبيعيّ جميل، إذ تربط تاريخها بفصل جني، الباكور، بواكير التين، وتربط الحدث بإضراب لا تعرف أيّ الإضرابات كان؟ هل إضراب الثمانية أيام أم غيره؟⁽¹⁴⁾: «أندكر بأنّ ذلك كان في فصل الباكور، طلب منا «خالي» أن نقوم نحن النساء والفتيات بجني الباكور للمُجاهدين الذين سيأتون، لأنّ بيتنا بكلّ بساطة كان «مركزاً» لاستقبال المُجاهدين والكتيبة كان يصل تعدادها حتّى 600 شخص. وكلّ البيوت المُجاورة تستقبل الجنود وتسهر على راحتهم من مأكّل وملبس وتسهر على راحتهم. كانوا عندما يأتون، ومن كثرة المشي ينزعون أحذيتهم، فكانت تُنزع معها «الجلود الدامية من تحت أرجلهم مع الجوارب». وصلت في ذلك اليوم، مع الجيش الذي لاذ بالفرار بعد الكمين، البغالُ المحمّلة بالأسلحة الجنود الفرنسيين الذين قُتلوا في جراح. أخذت النساء، ونحن الفتيات، تلك الملابس لغسلها في الوادي. فكانت من تغسل تغسل ومن تعصر تعصر ومن تنشر تنشر... كلّ واحدة تقوم بمهمة... مياه الوادي أصبحت حمراء من الدماء... القُبعات بها بقايا من الجنود الفرنسيين والألبسة أيضاً مشبعة بالدماء. وكنا ننشر تلك الألبسة ونغطّيها بالأغطية الصوفية «الحياك» بعدما

= جيش الإمبراطورية النمساوية... وغيروا اسم البلدة القديم المحلي الذي كان قبل الاستعمار، وهو «آيت أولمو». كما تقرر إنشاء بلدة باليسترو الفرنسية من طرف نابليون الثالث في العام 1869.

https://fr.wikiqube.net/wiki/Ambush_of_Palestro

(11) واسمه الحقيقي «رابح زراي» ضابط من ضباط جبهة التحرير الوطني، كان قائد الكتيبة الإقليمية المُسمّاة «كوموندوس علي خوجة» في الولاية الرابعة. و«علي خوجة» واسمه الحقيقي «مصطفى خوجة» قائد عسكريّ أنشأ فرقة كوموندوس ونفذ عمليات عدّة أبرزها «كمين باليسترو» أي «كمين جراح»... وكان قائد القوّات البحرية الفرنسية اسمه هارفي أرتور.

(12) يتعلّق الأمر بـ: «رافائيل برانش» مؤلّفة كتاب: L'embuscade de Palestro. Casbah Edition, 2010

(13) زوجة خالها الشهيد مسعود تشينة الذي سُمّي مدرسة القرية باسمه، وأخيها أحمد أيضاً استشهد في مشهد يحتاج إلى وصف في مكان آخر وهي زوجة أخ جدتي وابنة عمّها.

(14) كان إضراب الطلبة الجزائريين الذي انطلق في 19 أيار/مايو 1956، وكان كمين جراح في 18 أيار/مايو من السنة نفسها. بينما إضراب التجار، إضراب الثمانية أيام كان من 29 كانون الثاني/يناير إلى 4 شباط/فبراير من العام 1957.

نقوم بنشرها فوق الأشجار الصغيرة التي تُغطّيها أشجار الخروب الكبيرة، المحاذية للوادي كلّما رأينا طائرة العدو⁽¹⁵⁾ تُحلّق للبحث عن المجاهدين بعد ما حدث بجراح.... وبمجرد أن تغادر المكان كنّا نسرع وننزع الأغطية لكي تجفّ الملابس... وهكذا تعود الطائرة ونعود نحن للغطية والتمويه... تتذكّر والدتي أنّها رأت «شارل ديغول» بطوله و«ماسيو»⁽¹⁶⁾ بالبيدر المحاذي لبيتهم عندما نزلوا بمروحيّتهم «الموشارة»⁽¹⁷⁾... وهذا ربّما بعد ردّة الفعل عمّا حدث في منطقة جراح غير البعيدة عن منطقتنا بحارة؛ حيث كان الجنود يأتون للمنطقة للاحتماء والتموين... كما كانت تحكي على الممرضة «باية الكحلة»⁽¹⁸⁾ والسي عبد الله الذي كانت تشتغل تحت إمرته... كما حدّثتها خالتي عزيزة أنّه كان يأتهم العربي بلمهيدي، وسي لخضر، والسي عبد الله...

«مجاهدات... على يخوتهنّ»

عبارة جاءت متأخرة بعدما أحبطت خطّتها في الالتحاق بالجنود. كان يا ما كان حكاية فتاة ثائرة هي وقرباتها. فتيات لم يدخلنّ لا كتاب ولا زاوية ولا مدرسة جمعيّة العلماء ولا المدرسة الفرنسيّة. ولم يكنّ يعلمنّ ما معنى الانخراط في تنظيمات سياسيّة او طلّابيّة. لا يستمعنّ للراديو الذي لم يكنّ أحدٌ يملكه. ولا تصل إلى عندهنّ الصحف ولا المنشورات. وإلى حدّ الساعة لا يُمكن لغوغل ومعلوماته أن يجد اسم المنطقة التي

(15) قُتل في كمين جراح 21 وهناك من يذكر 18 جندياً فرنسيّاً وأخذ المجاهدين رهينة واحدة. وكان الإعلام الفرنسيّ قد تحدّث عن تنكيل كبير ومتوحّش بالجثث من ذبح وفقّي للعيون وغيرها من الأفعال التي وصفوها بالهمجيّة والبدائيّة، الأمر الذي لم يكنّ كما جاء في إعلامهم وشهاداتهم بحسب المؤرّخين. فكانت ردّة فعل الفرنسيّين قاسية، وهي تدمير القرية وتهجير من بقي فيها. وطاول الانتقام إلى المناطق المُجاورة.

(16) بعد كمين باليسترو، قام الجيش الفرنسيّ بتهجير سكّان قرية جراح وتدميرها انتقاماً لمقتل الجنود الفرنسيّين تحت قيادة المُلازم «آرتور». وتولّى الجنرال ماسيو عمليّة عسكريّة كبيرة، بنحو 3 آلاف رجل، شملت منطقة عمال ومجاورها حتّى بوزقة. ترهيب كبير للريفيّين وقتل وتعذيب... و«بحارة» بلدة أمي تقع بين هاتين المنطقتين. وتمّ قتل 50 متمرّداً وتوقيف 30 مُشتبهاً بهم. لتفاصيل أكثر ارجع إلى كتاب «رافائيل برانش» وفيلمها الوثائقيّ عن الكمين.

(17) من الكلمة الفرنسيّة «mauchard» أي الواشي. و«الموشارة» صيغة مؤنّثة للطائرة العسكريّة التي كانت تظلّ تحوم حتّى تجدّ من تبحث عنهم لتقوم بإنزال الجيش في أيّ مكان ومهما كانت طبيعته.

(18) واسمها الحقيقي «تومية لعربي» وتُعتبر من أولى المُمرّضات اللواتي التحفّن بالجل وبجيش جبهة التحرير في منطقة باليسترو تحت قيادة علي خوجة. ولأنّها سوداء البشرة، كانت تُلقّب بباية الكحلة. وكانت معروفة بين القرويين ومحبوّة لأنّها كانت تقوم بمُعالجتهم ومُساعدتهم طبياً وصحياً.

كنّ يسكنها. فتاتان تُقرّران الالتحاق بالجنود والجبل، وهما مع أقرانهما من الصبيان والفتيات أسهموا في الثورة بما كانوا يكلّفون به من الكبار كأن: «يمسحون آثار أقدام المُجاهدين الذين يأتون إلى المنطقة ويبقون في بيوتهم، وذلك باستعمال «الشطب» أي أغصان من شجرة ذات أوراقٍ ويمسحون بها تلك الآثار، أو يرفعون نعاجهم التي غالباً ما يُموّهون بها العسكر «فعندما نرى شاحنات العسكر التي تمرّ بمنطقتنا، ننتبه إن كانت تُغادر مليئةً بالعسكر أم فارغة أو ناقصة فنعرف أنّهم في مكانٍ ما للقيام بكمينٍ للمُجاهدين فنُسرع بنعاجنا لإبلاغ المُجاهدين بما رأينا ولاحظنا».

أمّا عن قرارها بأن «تلبس» أي ترتدي الزي العسكريّ، زيّ جيش جبهة التحرير الوطنيّ، أو بالأحرى المُجاهدين، فتقول إنّ ذلك لم يكن جزافاً (برك برك) بل نتيجة الاضطهاد الذي كانت تتعرّض له والتحرّش بها من طرف الجنود الفرنسيّين. فتذكر كيف كانت تُسأل في كلّ مرّة عن مكان زوجها، يعتقدون أنّها متزوّجة لأنّها كانت مكتملة البنية وتبدو أكبر من سنّها. يتركون الجميع ويتجهون صوبها. ثمّ كانت تتعرّض للتفتيش الجسمانيّ الدقيق من طرفهم ويلامسون كلّ مواضع جسمها الحساسة «كلّ مرّة يفرعونني... كلّ مرّة يفرعونني». وعندما تحدّث عن اللباس، على الرّغم من أنّي لم أكن أرتدي فساتين البنات، بل كنتُ ألبس قمصانَ أخوالي التي يتركونها بعدما أعيد خياطة بعض الأجزاء فيها وتهيئتها لتلاءم وبنيتي... كان يُطلق عليها «بلوزة مورسيليس» كنتُ أنزع لها الأزرار مثلاً وأخيطها لتصبح مثل الجبّة.

عن اللباس فتحت فقط قوساً، لأنّه لا يُعتبر مُهمّاً في سياق الحديث. تواصلت عن قرار الالتحاق بالثوّار. فأبلغتُ ابنة خالي أنّني سأحمل السلاح على كتفي وكلّ مَنْ يقترب منّي سأطلق الرصاص عليه. أعيش سعيدة أو أموت شهيدة ولا أموت «محقورة» أو «مذلولة». تواصلت رحلة تحرّرها. «لو اتّجهنا للجوامع مباشرة لكنّا تحصّلنا على الزي العسكريّ ولكنّا صعدنا إلى الجبل... قصدنا أحد المسؤولين «السي سليمان» الذي بنفسه اتّجه للمسؤول عن المنطقة «السعيد علي رمضان»⁽¹⁹⁾، فأخبره بقدمونا وبأننا ننوي الالتحاق بالمُجاهدين. جاء المسؤول على الناحية لمقابلتنا، فقال أردتما أن تتجنّدا وتأتيان معنا... اليوم سبت

(19) لحذ الساعة مازال الناس يُطلقون على بعضهم البعض الأسماء الثلاثية بصيغتها الأمازيغية: سعيد بن علي بن رمضان أو باسم الانتماء للجماعة أو القبيلة، وهذا على الرّغم من فرض ألقاب عائليّة لا تمتّ بصلة لثقافة =

وغداً أحد... يوم الإثنين سيأتيكما الزبي العسكري للجامع، بالقرب من الزيتونة، على الساعة الرابعة... فرحنا فرحة لا توصف، وعندما قرب الموعد، اتَّجهنا صوب مغارة الجبل (تيفريت) للمبيت هناك لانتظار اللحظة الحاسمة التي نستلم فيها اللباس... مغارة محاطة بأشجار السرو، قمنا برصّ الحجارة عند فوهتها حتّى نتفادى دخول الحشرات والحيوانات والذئب خصوصاً، وتركنا منفذاً للرّاقب المارة. ونحن كذلك، لاحظنا مجموعة من المُجاهدين في طريقهم إلى بيتنا... في ما بعد علمتُ أنّ والدتي استنجدت بهم وتوسّلت إليهم ليعودوا عن قرارهم ويرفضوا تجنيدي. القرار كان صعباً جداً لولا أنّ أحد الجنود الكبار في الجبهة توسّط لها لدى مَنْ يُقرّرون. أتذكر جيّداً مَنْ أتى إليها... وكانوا: «سي حميدات وموسى ن علي رمضان وعومار ن علي أعومار ورمضان سلف خالتك»⁽²⁰⁾. وتذكر أسماءهم ولم تكن تدري سبب مجيئهم إلّا لاحقاً عندما بحثت عنها إحدى أخواتها، وبدأت تنادي تعالي لقد أحضروا لكما اللباس. وعندما وصلنا إلى البيت، كلّمهنّ الفائد سي حميدات، وسألهنّ: «... جئتما (للتسجيل بقائمة المجنّدين) من أجل الالتحاق بصفوف جيش الجبهة، وماذا لو وجدتما العسكر في الطريق؟ فأجبتة (تقول والدتي) «كنتُ سأقول لهم كنتُ بطريقي إلى الدكان (دكان موح الحسين)⁽²¹⁾ لأشتري الصابون». ثمّ سألني سؤالاً آخر: «ولو أعطاك أحدهم بندقيّة فهل بإمكانك الذهاب بها إلى معسكر الفرنسيين بقدارة»⁽²²⁾؟ هل يمكنك فعل ذلك؟ قبلت والدتي التحدي بإجابتها هذه:

«... قلتُ له، كلّ شيء بالإثبات. أعطني مسدساً فإذا عدتُ إليك من دون أن آخذ حقّي وأقتل ضحيتي» (نجيب شاتي) افعل بي ما تشاء. وإن قتلت ومِتّ الله يرحمني أعيش سعيدة أو أموت شهيدة. كان هذا شعارنا أنا وفاطمة ابنة خالي». ثمّ نادى على

= الجزائريين وأحياناً ألقاب مُشينة، جعلت الكثيرين يغيرونها بحكم محكمة. جاءت هذه الألقاب بموجب إصدار الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة لقانون الحالة المدنيّة أو قانون الألقاب وهذا بتاريخ 23 آذار/مارس 1882. (20) لفظ السي (مثل السيّد) يُطلق على مَنْ تلمذوا بالزوايا والمدارس القرآنيّة، من حفظة القرآن الكريم. ورمضان كان ضابطاً في جيش جبهة التحرير وهو أخ زوج أختها الكبرى، السيّد حوريّة. (21) دكان موجود بالقرب من بيت المسؤول الذي قامتا بتسجيل اسميهما عنده... وموجود في منطقة تدعى «الحدورة». (22) «قدارة» بلدية من البلديات التي تتبع ولاية بومرداس حالياً، وتوجد ضمن منطقة «بوزقة» اسم يطلق على الجبل، أو الجبل الأخضر، حيث كبّد الثوار فرنسا خسائر كبيرة. وتقع شرق العاصمة الجزائر على بعد حوالي 52 كم. و«بحارة» ضيعة والدتي تبعد عن قدارة شرقاً بحوالي 3 كيلومترات.

«خالي علي» و«خالي رابح» (الأول خالي لأنه مسؤول عني والثاني والد فاطمة) وقال لهما: «... الرجال لم يتحمسوا لمساعدة الثورة، بينما الفتيات أخذتهن الغيرة لمد الثورة بدمهن وجهدهن أو بأي شيء كان. لم يخشين أحداً سوى الله. وأقسم لهما «لو أن أحداً مسهما بسوء فسأقتله وأرميه بالشعاب». وأضاف السي حميدات قائلاً: «هذوا كي يرقدوا فالفراش راهم مجاهدات... ما دام قلبهم معانا وروحهم معانا حتى واحد ما يمسه... راهم لابسين ماليوم... يرقدوا يقعدوا واش ايديروا مجاهدات» (هؤلاء حتى إذا نمنا فهن مجاهدات... ما دامت قلوبهن وأرواحهن معنا ولا أحد يجرو على ايذهن... إنهن مجندات من اليوم... وإن نمنا، وإن بقين جالسات... أي شيء يقمن به فهن مجاهدات). لكن لا أحد يجرو أن يقترب أو يتعرض لجذتي، لأنها أم كانت تخاف على ابنتها، ولأن البيت الكبير بيت مجاهدين وتحت عين السلطة الاستعمارية وأعين الواشين... ولأنها فتاة صغيرة لا يمكن لوالدها أن تتخيل أنها بالجبل مع «الذكور» وإن كانوا مجاهدين... لذلك فبمجرد مغادرتهم المكان، أشبعت ابنتها ضرباً... الضرب كان موجعاً، لكن الثورة في قلب ووجدان البنت ذات الـ 14 عاماً زادت جذوتها. ولم تترك عملاً في سبيل الثورة إلا وقامت به. وهي في تلك السن قام أحدهم بوشايتها لدى العسكر، ممن تركوا الجزائر عند الاستقلال واستقروا في فرنسا، وقالت لي عن هذه الحادثة: «لو بحثوا في الأرشيف الفرنسي لوجدوا أنني مسجلة عندهم. كانوا يلقبوني بالفلافة»⁽²³⁾. بيعوني الحركي⁽²⁴⁾ لولا تدخل زوج خالتك، الذي واجه الفرنسيين الذين جاؤوا لأخذي، وأبلغهم بالضرب الذي ضربته عندما سمعت والدتي بخبر رغبتني باللحاق بالثوار... وبأننا نعيش في المحتشد، الآن، وأننا محاطون بالسياس والأشواك، فأين أجد المجاهدين وأين يجدوني... ثم قال لهم لو أحضرتموها إلى المركز، والله لن أحمل سلاحكم مرة أخرى فوق كتفي... تقول: «هو من أنقذني»⁽²⁵⁾.

(23) اسم أطلقه الفرنسيون على الجزائريين المحاربين من أجل استقلال بلادهم. وكانت التسمية عبارة عن تهمة تؤدي إلى السجن والتعذيب والموت.

(24) الحركي أو القومي اسم يُطلق على من ساعدوا فرنسا سواء كقوة مسلحة أو بالوشاية على الثوار، والذين يُساندونهم ويساعدونهم من المدنيين. وتمت الوشاية بها في عدة مناطق وفي عدة معسكرات.

(25) زوج أختها كان مع المجاهدين، كان يشكل «الرابط بين الثوار» من خلال نقل الرسائل والسلاح والتنقل إلى كل مكان. ثم التحق بالجيش الفرنسي وهو من بقي يُبتهها إلى ما يُحاك ضدها من طرف الجيش الفرنسي بفعل الواشين. =

هزّتها أهوال الحرب وما كان يقوم به الجيش الفرنسي من قتلٍ للنساء والأطفال وتعذيب الرجال أمام أعين الأطفال. تروي حكاية مقتل إحدى قريباتها بطريقةٍ بشعةٍ بقصفٍ عشوائيٍّ، وهم أطفال كانوا مع عمّهم وبناته يجنون الرّمان. كنّ يحملن أكياس الرّمان عندما بدأ القصف من على ربوة «تيزي» صوب القرية ومنعهنّ العمّ من الهروب حتّى لا يتّجهون بمدافعهم صوبهم. كانوا يمشون والغبار يتطاير من أمامهم وخلفهم والأحمال على رؤوسهم. عندما وصلنا إلى بيوتنا، تقول: «انقسمنا على حدة، أختي، وزينة وفاطمة ابتنا عمّي اتّجهن إلى بيت عمّي السعيد، وأنا ومشماشة وموني الله يرحمها دخلنا بيت عمّي قادر. كنا مُتقابلين. صوت الرصاص على القرميد كالبرد. فضربوا مدفعاً أحرق أحد البيوت. وزادوا بيتاً آخر. وجدوا شجرة خرّوب زوجة خالية تماماً من ورقها. وفي ذلك اليوم قتلوا «الزهرة أعومار» (الزهراء ابنة عمر) من «الشمائية»⁽²⁶⁾. طار رأسها وانتشر ممّخها على الأرض. ومنذ تلك الحادثة التي خرّبت البيوت والأرواح، غادرنا المنطقة. وبالقوّة أيضاً نحو المحتشد بـ«قدارة»... وهذا كلّ من تبعات كمين جراح.

«مسبلة»⁽²⁷⁾ بعد الزواج

على الرّغم من قرار المسؤولين بالثورة، القاضي بمنع الزواج من خارج القرية، إلّا أنّ والدتي تزوّجت خارج القرية، وهذا لم يمرّ مرور الكرام، حيث وشي بها من طرف عبد الرّحمن جارها، الذي تعاون مع الفرنسيين في ما بعد وأقام في فرنسا هو وأولاده إلى حدّ اليوم. إلّا أنّ والدتها صمّمت على عدم تزويجها، لا هي ولا أختها له على الرّغم من كلّ محاولاته التي باءت بالفشل. حتّى أنّه هدّدها بالقتل، ولأنّها لا تبالي، أقسمت له بأنّه لن يستطيع لمسّ شعرة من شعر رأسها. فلم يجد غير وشايتها للمسؤولين على الثورة

= وكان في كلّ مرّة يُرسل إليها والدتها لتحذيرها. وهذا بعدما تزوّجت وسكنت مدينة سان بيار سان بول، أولاد موسى حالياً.

(26) نافذة صغيرة تسمح بدخول أشعة الشمس إلى البيت.

(27) العديد من المصطلحات ظهرت في أثناء الثورة التحريرية، مثل «المسبل» وهو الفرد الذي يقوم بأعمال مهما كانت طبيعتها سياسية أو مدنيّة أو إداريّة من أجل الثورة التحريرية. وهذا الفرد قد سبل نفسه من أجل الوطن ولا يخشى الموت. وكذلك «الفدائي» ذلك الذي توكل له مهمة القيام بعمليات عسكرية لفائدة الثورة، داخل المُدن بصفةٍ خاصّة. أمّا «المجاهد» فهو يعني كلّ من يحمل السلاح لمُواجهة المُستعمر.

باعتبار أنّ «قدورة» انتهكت القرارات وأوامر المنع تلك: نادى «رمضان» صهرها، وقالت له أنا أعلم أنّكم ترفضون تزويج البنات من خارج القرية لكنني لا أحبّ ذلك الشخص فهل أرغم على ذلك؟ فنادى رمضان عبد الرحمن وقال له: ما بك هل أنت مريض؟ أحدهم لا يحبّ أكل الخبز المحروق فهل ترغمه على أكله؟ فأمره بأن لا يكلّمها أبداً، وإلا فهو من سيواجهه. وعندما سكنوا المحتشد، أيضاً «وشى بي (بيعوني) للعسكر الفرنسي بحجة أنّ والدتي زوّجتي لأحد «الفلافة». والحركي الذي يشتغل لمصلحة فرنسا، هو أولى بابتنة منطقته. وجاءها الضابط يستفسر عن الحادثة، وقال لها كيف تزوّجتها لفلاف؟ فردّت عليه والدتي: «حنا منين تخرج الكلمة تخرج العمر» من أين تخرج الكلمة تخرج الروح، دلالة على الالتزام والوفاء بالعهد... «وبأنّها زوّجتي لابن عمّتي وليس لرجل غريب». تزوّجت مثل زيجات تلك الأيام عام 1958، وهي ابنة 17 سنة، من دون أيّ مظاهر للاحتفال أو الزينة. المهمّ تزوّجت لتستر من أيّ حادثة، ولاسيّما الاغتصابات وفقدان الشرف وأن تكون في عصمة زوج «يشكّمها». تواصل والدتي مشوار العمل النضاليّ المستمرّ فتقول: «مجاهدو منطقتنا يعرفونني. وعندما أمرت فرنسا بإخلاء القرى والمدن والمداشر وجمع الناس بالمحتشدات، هرب المجاهدون ولجأوا إلى المدن، والمناطق الحضريّة. لا يوجد من يؤكّلهم. ولا مجال لإيقاد النار بالبيوت المهجورة، من أجل تحضير الطعام. فعندما يلاحظ العسكر الدخان يشرعون في إطلاق النار. وحتىّ عندما تصل مواسم جني الزيتون أو «الخريف» (موسم الفواكة والغلال الصيفيّة، ولاسيّما التين) نعود إلى حقولنا بطلب تسريح من العسكر. تحوّل بيت زوجي الذي كنت أفطن فيه مع حمائي وحماتي وأختي وزوجها، إلى بيت يقصده المجاهدون للتزوّد بالمؤن. كان يأتي إلى عندنا حتّى 15 فرداً من المُجاهدين للأكل مع أنّنا نسكن بالقرب من المعسكر، بقلب مدينة سان بيار سان بول. وكنت أضع إشارة لهم لتوضيح الوضعيّة (الأمنيّة) لهم: فعندما أرى أنّ الوضع خطر، أضع قطعة قماش سوداء على شجرة العنّاب التي بالقرب من البيت، وعندما يكون الأمان أضع قطعة قماش بيضاء... وإن لم يأتوا للأكل بالبيت نُرسِل لهم المُشتريات التي يحتاجون إليها، وهي أكل، البسة، أحذية، وكلّ ما يلزمهم (القُضيان) إلى بيت السيّدة «ورشانة»... لأنّ لديها بيتها مخبأً سريّاً تضع فيه كلّ مؤن المجاهدين التي تصلها من الشعب. وبعد مقتل سبعة من الجنود في منطقة «الأربعطاش» في إحدى المغارات،

قبضوا على أحدهم حيًّا، تعرفه والدتي لأنَّه من المناطق المجاورة لقريتها. وبعد التعذيب والاستنطاق وشى بها وكانوا يُحاصرون بيتها كلَّ ليلة، وهي لم تكن على علم بذلك، حتَّى أرسل لها كالعادة زوج أختها الخبر مع والدتها، فقال لهذه الأخيرة: «قولِي لها ما الذي تفعله هناك... هنا فلتت منهم بفضل الله بعدما وشوا بها... والآن زاد أحدهم وقد وشى بها». ... «ابن الباشا» من وشى بها، فأرسلت فرنسا قوَّةً مشكَّلة من خمسة معسكرات لتطويق المنزل من بينها: معسكر بنورة، زفاغة، الخروبة وجا ماس (جي ام اس)⁽²⁸⁾. وهذا بعد الإمساك بـ «ابن الباشا» الذي أتوا به بكيس على رأسه (بوشكاره)⁽²⁹⁾ «وشى بنا وأتى به العسكر وقال إنَّه كان يأكل عندنا وإنَّه يوجد مخبأ في بيتنا... وإنني أنا أخت «أوليشي» (واسمه رمضان أخ زوج أختها)... قلتُ له أنا أخت «أوليشي» فردَّ بالإيجاب... ثم دخلتُ البيت وأحضرتُ الدفتر العائلي... أخي عمره 11 سنة صغير والاسم ليس نفسه وأنا بحياتي لم أسمع بهذا الاسم... إذا افقدتموه عقله بالتعذيب وأصبح يهذي... أخي ها هو وأنا «بوزيد» (لقب زوجها) و«تشيينة» (لقب عائلتها)... فقلتُ لهم هذا لا أعرفه ولا أعترف به... ولم يأتِ إلى عندي ولم أره... ثم أخذ الجندي الفرنسي بمؤخِّرة سلاحه وضربني فأوقعني عند باب البيت... ثم تدخَّلت جارتها «فاطمة» التي كانت تُحسِّن الفرنسيَّة وقالت لهم: ما هذا؟ ماذا تريدون؟ أن تفقدوا المرأة عقلها؟ على ماذا تبحثون؟ قالوا لها نبحث عن المخبأ... قالت لهم ادخلوا احفروا بدباباتكم... لن تجدوا شيئاً... ثم عن قريب سيُعرف العلم... وسيتم وقف إطلاق النار... إنَّهم يتكلَّمون ويتفاوضون عليه».

في ما بعد علمتُ والدتي أنَّ العسكر الفرنسي يتربَّص بها، وهي التي كانت تعتقد أنَّها تخلصت من وشاية «ابن الباشا»⁽³⁰⁾ الذي أقسم لها بأنَّه سيأخذ ضحيَّته من بيتها. وواصلت، بكلِّ الخوف والهواجس من أن يكتشف أمرها مسيرة النضال إلى جانب زوجها وصديقتها

(28) أسماء مناطق جبلية مُحاذية لبوزقة والتابعة لمقاطعة الجزائر إبان الاستعمار... والحي الأخير GMS هو اختزال لفرق الأمن المُتنقِّلة، والتي كان يطلق عليها من قبل اسم فرق الشرطة الريفية المُتنقِّلة (GMPR). وتمَّ إنشاؤها بناءً على القرار الحكومي في 24 كانون الثاني/يناير 1955 وبموجب مرسوم الحاكم العام للجزائر. ثم تحوَّلت مقراتهم بعد الاستقلال إلى مساكن شعبية.

(29) كان يوضع على راس الواشي كيسٌ حتَّى لا يعرفه الشعب، ولاسيَّما من يواجههم حتَّى لا يتم الانتقام منه... وتُخفى هويَّته.

(30) اسم مُستعار لأحد الوشاة ممَّن تعرفهم ويجاورونها في السكن وقت التجمُّع في المُحتشدات. وكان جندياً ضمن جيش التحرير، قبل إلقاء القبض عليه. وليس الاسم الوحيد الذي كانت تعرفه وكان «حركياً» و«خائناً» وتحوَّل بقدرة =

خديجة... إلى أن جاءت عملية تجريد أحد الشهداء، عبد السلام، من أسلحته وما كان بحوزته من وثائق: «... كنت دائماً أحمل ابني مصطفى وأخرج للتمويه به... عندما قتلوا مجموعة من المجاهدين في مخبأ أحدهم بعدما كانوا قد تفرقوا، جماعة منهم أخذت سيارةً وعبد السلام ذهب في دراجة نارية... عندما وصل الأوائل المخبأ قتلهم داخله بأولاد حمادة... بينما عبد السلام قتلوه داخل حقل من حقول القمح بالقرب من مدينة بودواو... كان ذلك في شهر ماي (أيار/مايو)... فأسرعت نحوه خديجة بعدما أعلمها جيش الجبهة بالحادثة لأن زوجها كان من مفجّري الثورة التحريرية بالأوراس وأخذت سلاحه. أعلمت والدتي بضرورة لقائها لتعطّيها السلاح. عندما اقترب موعد وقف إطلاق النار كان الوضع سيئاً جداً. فالدبابات والدوريات في كل مكان تقتل وتُنكّل وتُعذّب. كثيرون من الناس تراجعوا عن دعم الثورة من شدة الذعر، فلم يبق سوى من آمنوا بالقضية إيماناً مطلقاً. عند عودتها وجدت كالعادة الفرنسيين في كل مكان ومن معسكرات عدّة مع بعض الجزائريين العملاء. وعندما رأتها جارتها قادمة من بعيد بدأت تقوم بحركات لتنبّئها بما ينتظرها. وبمجرد وصولها باغتها بالسؤال أين كنت؟ كنت أحمل ابني لأسكته وأخفف عنه وعكاته الصحية. وتقول: «فعلاً كان مصطفى مريضاً وكان الطبيب اليهودي الذي كان يقطن الرغبة يأتي كل يوم ليشرح لي كيفية أخذ الدواء والرضعات. كنّا وفي كلّ مرة نقوم بوخز الأطفال لكي يبكوا ويُقلقوا الجيش الفرنسي ويتركونا» كانت تلاحظ هذا الأمر وهي طفلة عندما كانت نسوة القرية يجتمعن في مكان واحد وهنّ يضممن أطفالهنّ إلى صدورهنّ. فعندما يتقدّم العسكر صوبهنّ يوخزن الأطفال بقوة ليصرخوا ويحدثوا فوضى وصخباً.

مشاركة النساء في الثورة التحريرية... ألم النسيان والتجاهل

كل الدراسات أجمعت على أنّ مشاركة النساء في الثورة التحريرية كانت قليلة مقارنةً بالرجال. وحتى اللواتي شاركن فعلياً، وخصوصاً نساء الأرياف والقرى من غير المتعلّمات، تمّ تغييبهنّ من التاريخ المكتوب، ومن ذاكرة بعض «المسؤولين». ومع

= قادر إلى مجاهد وله العضوية في وزارة المجاهدين. يا الله كم كان يحزّ في نفسها أن يُرفض ملفّ عضويتها وتُقبل عضوية هؤلاء ومن هم على شاكلتهم.

هذا، لَمَنْ يبحث، تقول والدتي سيجد أنّ طلب التحاقني بجيش جبهة التحرير الوطني، أنا وفاطمة، قد سُجِّل في وثائق مسؤولي الناحية، وحتى في أرشيف الحكومة الفرنسية التي لا تترك شاردةً أو واردةً. لكنّ بطولتها لم تسجَّل بعد أن قدّمت شهادتها وشهادة مَنْ كانوا مسؤولين في تلك الفترة وَمَنْ كانوا من مُجاهدي المنطقة، ولم يعترف بكلّ ذلك المسؤولون في وزارة المُجاهدين بعد الاستقلال⁽³¹⁾. تعاقب وزراء عدّة وأفرجوا عن الاعترافات تحت الطاولة. وكان الموظفون ممّن حفظوا وجهها وعصاها وكرسيها المتحرّك يقولون لها إنّ لجنة الاعترافات أُغلقت منذ أكثر من 20 سنة. انتظري، ربّما سيُعاد فتحها وتُدْرَس ملفّات الاعتراف مرّةً أخرى. وكأنّهم يقولون لها لا تنتظري.

كما حكّت لي أنّه في في إحدى الليالي قرّرت 15 شابة الالتحاق بالثورة والتسلّح في صفوف ثوار جبهة التحرير آنذاك. فتيات من منطقة عرقوب في الأضرّة، ممّن تكون التقارير العسكرية الكولونيالية قد أفردت لهنّ حيزاً خاصاً. لكنّ التاريخ المحلي والوطني أنكر الحادثة. لأنّ التاريخ يُكتَب من أفواه و«شباب» الرجال وإحساس التعالي وليس من باب المسؤولية التاريخية. على التاريخ أن يقف ليس لتخليد ذاكرة مَنْ عاشوا مرحلة من المراحل، بل لإنصاف ذاكرة مَنْ عاشوا وعاشنّ الوقائع لحماً ودماً وليس فقط بالإدلاء بشهادات خلف مكاتب «القسمات». بل لتخليد الشعب المُنتشر بين الجبال الوعرة ولا زال الكثيرون منه يعيشون أوضاعاً مُزرية ولا يزالون يُحبّون الجزائر ولا يُمكنهم التخلّي عنها ويدفعون الثمن غالياً.

حتى الحيوانات شاركت في الثورة

كانت والدتي تتكلّم في كلّ مناسبة عن مُشاركة الحيوانات في الثورة لأنّها أيضاً عانت الاضطهاد والتعرّض في كلّ لحظة للموت. وَمَنْ يسمع عباراتها قبل أن تُكَمِّل فكرتها

(31) بعد الاستقلال رفض والدي أن ينتسب بعضويّة رسميّة لقائمة المُجاهدين، بحجّة أنّه قادر على العمل وإعالة عائلته وكان يريد أن تذهب الإعانات إلى أرامل الشهداء وأبنائهم وإلى معطوبي الحرب حيث كان يأتيه العشرات ممّن ناضل معهم من أجل أن يُقدّموا شهادتهم عمّا قدّمه هو ووالدتي في سبيل الاستقلال. وكان دائماً يرفض. ولأنّ كلمة المرأة لم تكن مسموعة، لم يُترك الخيار لوالدتي التي كانت ترى العضويّة تلك حقّاً من حقوقها. ومنذ العام 1995 قدّمت ملفّها الذي رُفِض بعد سنوات عدّة من دون إعطاء أيّ تفاصيل، ثمّ طُعنت في النتيجة. وبقي الملفّ في وزارة المُجاهدين. وبقيت تسأل عنه حتى عشيّة وفاتها.

يعتقد أنها إهانة أو مُبالغة. لكنْ بعد كمين جراح، جاءت التعليمات الصارمة والقاضية بـ: «... أن يُغادر القرويون قراهم مع عائلاتهم قبل 30 تمّوز/يوليو 1957 (علماً أنَّ المعركة كانت في أيار/مايو 1956)، وسيكون محرّماً على أيّ كان، إنسان أو حيوان المكوث في المنطقة التي أُخْلِيت»⁽³²⁾ حتّى الحيوان لم يسلم من بطش الفرنسيين... وحتّى هو شارك في هذه الثورة. «... البغل مسكين مُجاهد... جاهد حتّى انتهت الثورة، وعندما رحلنا إلى «قدارة» بقي مربوطاً ببيت أخوالي وحيداً حتّى قتله الثوّار. لقد جاهد سبع سنوات. في مرّة من المرّات جاء المجاهدون إلى والدتي عند الغروب وطلبوا منها أن تُعطِيهم البغلَ لحمل أحد الجرحى. قبلت والدتي لكن بشرط، أن يُطلقوا عليه الرصاص إذا التقوا بالعسكر أو حدث اشتباك بين الطرفين»... لأنّهم، بحسب قول جدّتي إن تركوه حيّاً فسيعود للبيت وسيحرقون كلّ ما فيه ولن تبقى زوجة مجاهد أو أيّ أحد. طمأنها الثوّار وأخذوا البغل وانصرفوا... كما كان ابن عمّ والدتي هو من يُرافق الحمار في مهمّاته الصعبة وهو الطفل الصغير «أحمد» الذي على الرّغم من ذلك يقضي أيّاماً وليالٍ خارج القرية حيث كان يُرافقه وهو محمّلٌ بالأسلحة، أو المُؤن عندما يشتدّ الخناق على الثوّار ولا يتمكّنوا من المعجىء إلى القرية للتموين والتزوّد بالمأكّل والملبس... أو أحياناً كانت تُحمّل عليه الرسائل المُستعجلة. وهي أحمال أضيفت على مهمّات البغال والحمير التي كانت تحمل الحجارة وأكياس الزيتون والخروب وأكوام الحطب... الصغار فقط هم من كانوا يحسّون بالحيوانات وهم من كانوا يكون ويتألّمون عندما يدوس العسكر بأحذيتهم الحديدية على مساكن الأرناب وخمّ الدّجاج.

بعد وفاة والدتي في 27 آب/أغسطس 2021، صمّمت أخبار التاريخ الذي كانت تحمله وتُقارنه بتاريخ التلفزيون الرسميّ والتصريحات التي كان يُعاد بثّها في كلّ مناسبة وطنية. وكم هو حجّم التذكير بأحداث الوطن في أثناء الاستعمار في زمنٍ كَثُرَت فيه مطالب الحراك، وكَثُرَ المتربّصون بالوطن، وخيانة الشرفاء واعتلاء من باعوا ضمائرهم للشيطان أسْمى المراتب... لم تكن تؤمن بالحراك وكانت تراه من علامات آخر الزمن... ولا أحد سيعترف بمقدار التضحيات... وبأنّ لا أحد يُمكنه إنصاف المضحيين. هناك

(32) وثيقة عرضت في وثائقي «رافائيل برانش» عن كمين باليسترو.

فقط الانتهازيون الذين يركبون اللحظات الحاسمة ويجعلونها مَرِنَةً حَتَّى تتوافق مع أهوائهم وأطماعهم... ليرحمك الله لَأَنَّكَ جَاهَدْتَ فِي سَبِيلِ الله والوطن... وأردت أن تدخلي التاريخ الرسمي بنياشينه الحقيقية... لكنَّ مَنْ كانوا أعداء الثورة بالأمس القريب سبقوك⁽³³⁾...

(33) أُخذت أجزاء من شهادات والدتي من التسجيلات التالية: تسجيل: 20 آذار/مايو 2021 - تسجيل 28 تشرين الأول/أكتوبر 2020 - تسجيل 12 آذار/مارس 2016.

Chou ismik? Comment tu t'appelles?

Une question anodine, n'importe où, partout sur la surface du globe... Partout... sauf au Liban... C'est une question piège.

Ici, le nom... on en est porteur et il peut s'avérer une bénédiction ou un fardeau, il risque aussi de signer votre arrêt de mort, cela a été souvent le cas durant la guerre civile.

Territoire défini, parce que noms et prénoms sont porteurs de lourdes généalogies, chargés d'honneur ou de déshonneur, de tout un passé.

A ce «Chou ismik», je notais la fierté de mes concitoyens à répondre

En détachant clairement chaque syllabe, d'un ton qu'ils haussaient d'un cran, le martelant, leur nom fusant comme un tir de roquette coupant l'air. Tant il est vrai que dire son nom ici, c'est un passage au scanner, tout y est transparent, identité, confession, origine, région, territoire, union, désunion, divorces, rixes sanglantes, rendements de compte, et compte en banque, lignées et conflits de tout genre. Le scanner des familles libanaises est un redoutable outil, c'est un fichier colossal qui remonte bien avant votre naissance, bien avant celle du pays lui-même, tout y est enregistré de mémoire d'homme.

This is not basterma

Tania-tanbak Bakalian
Safieddine

Donc voilà, mais moi j'y échappais. Complètement. En dehors de la dense trame du tissu social, quelque part, j'en étais soulagée. Dans ce pays, je suis née, j'en faisais partie, j'en partageais profondément les joies, les tumultes, les peines avec la plupart de mes concitoyens. Mais j'en étais à l'extérieur.

Moi, j'étais et je suis encore arménienne, issue d'une famille arménienne depuis aussi loin que l'on se souvienne.

Au total, en comptant large, ma famille se résume à une vingtaine de personnes, en y rajoutant quelques ramifications d'outre-Atlantique, l'on pourrait faire grimper le chiffre, l'enfler, d'une ou deux douzaines tout au plus. Evidement qu'il aurait p. être plus important mais le sort en a voulu autrement, que l'on ne se connaisse que par l'intermédiaire de ces minuscules photos en noir et blanc à bord dentelé, qui étaient soigneusement rangées dans une vieille boîte à chaussure.

Chez mes amies, quand j'y allais, le passage était continu et la porte n'avait de cesse de s'ouvrir et de se refermer sur un incessant cortège d'oncles et de tantes, de cousins, d'une parente plus ou moins proche. Et c'était un constant aller-retour de tasses de café et immanquablement, j'avais droit à l'incontournable «Chou ismik». Sauf qu'avec le temps, j'avais appris à court-circuiter la question, j'avançais «Ana Armaniye», je suis arménienne.

Et j'avais bien raison, c'était suffisant, pas la peine d'en rajouter

Aaaaah.... Ok.... On se détournait et l'intérêt était tombé. De facto il était évident qu'on était hors-jeu.

Sauf, parfois, cela éveillait un intérêt soudain qui se voulait affable, gentil, «Ah, le basterma, c'est tellement bon, mais dommage pour l'odeur».

Personnellement je maudissais cet infame basterma, c'était inévitable, au «ana armaniye» j'avais droit à un exposé sur la relation qu'entretenait mon interlocuteur avec le basterma.

S'il est vrai que mes parents venaient d'un ailleurs douloureux, la branche paternelle de Kayseri et celle de ma mère originaire d'Izmir, moi je suis née à Beyrouth, à cette ville me lie un amour déraisonnable.

A Beyrouth comme à Izmir, il y a la mer. Beyrouth, cette ville est pour moi ce qu'Izmir a été pour ma metz-mama Victoria et Kayseri pour

ma metz mama Haigouie. Toute ma vie a été partagée entre cette trinité de villes Beyrouth/Izmir/kayseri.

Izmir...

Je ne sais pas quel était son âge exact quand cela s'était passé. Au tout début de l'adolescence, je présume. En fait, on ne le lui avait jamais demandé... pas plus qu'autre chose d'ailleurs. Aujourd'hui, j'ai tellement de questions, de trous à combler, de sombres obscurités à éclaircir, des évidences à vérifier...

Mais bon... Nous étions des enfants, à qui ma grande mère racontait des histoires, d'un temps autre, d'un temps si éloigné du nôtre et à qui avec l'avidité de vivre pleinement notre présent, toutes ces histoires d'un passé semblaient révolues et dépourvues d'intérêt.

Pour nous, cela était le passé, le passé comme un fardeau, un héritage douloureux dont il fallait coûte que coûte se défaire afin d'entrer de plein pied dans la vie.

Or on ne savait pas... on ignorait que le passé possède des tentacules qui te rattrapent, te hantent, que le passé est aussi vivant que les herbes folles qui envahissent les champs résistant à tous les produits censés les éliminer.

Malgré notre jeunesse irréfléchie, nous étions imprégnés jusqu'au tréfonds de notre corps par son histoire... C'est ainsi que se fait la transmission. Non?

Moi je voulais avancer en regardant droit devant, je proclamais haut et fort qu'à marcher en regardant en arrière, on risquait à coup sûr de trébucher, de se cogner contre les murs ou tout simplement faire du surplace.

Cependant, malgré notre jeunesse irréfléchie, tout un passé s'infiltrait insidieusement à notre insu, érigeant les bases d'une entité propre, forte d'une culture et d'une langue.

Donc ce n'était pas moi qui habitais les villes, ce sont les villes qui m'habitaient.

Izmir. Victoria est ma grand - mère maternelle d'Izmir. Haigouie, ma grand-mère paternelle de Kayseri. Ma mère fille de Victoria d'Izmir est née en Egypte et mon père originaire de Kayseri est né à Chypre.

Moi je suis née à Beyrouth, mais je charrie en moi un peu de tous ces pays,

Mais c'est d'elle de Victoria que depuis le début je comptais narrer l'histoire...

Je la revois, assise bien droite égale à une reine, toute tendue dans le souvenir, l'évocation de ce qui fut sa vie d'enfant, en errance sur les routes... des larmes qu'elle ne prenait pas la peine d'essuyer, loin, si loin de nous... dans un moment et un lieu autre, dans ce moment qui avait cassé sa vie en un avant et un après... Toute tendue vers ce lieu qui était devenu, qu'elle a transformé en paradis imaginaire, pas seulement pour elle, mais pour nous aussi. Izmir, sa ville natale, ville mythique...

La mer... le ciel... les étoiles... le vent... le goût du poisson d'Izmir était inégalable, nul endroit sur terre ne pouvait l'égaliser. On la contrariait, on s'offusquait par jeu, voyons, mais c'est la même mer, notre bonne vieille méditerranée, la même qui court entre Beyrouth et Izmir... Pfft. Vous n'y comprenez rien... trop jeunes... avec l'âge, vous saurez. Et ses yeux dérivait vers ce lointain rivage.

Et aujourd'hui, à y repenser, on se demande quel est ce lien étrange d'enracinement, qui l'attachait à un pays, à une terre, à une ville qu'elle avait à peine connue, dont elle avait été arrachée à l'approche de l'adolescence... Parce que j'en conclus que lorsque la famille a pris le chemin de l'exode, elle devait être à mi-chemin entre la fin de l'enfance et l'adolescence.

C'est par elle que j'ai cette fascination pour des villes. Ils ont quitté Izmir et elle a dû subir la traversée du pays cachée sous d'épais édredons... parce qu'elle était fille et jolie de plus, ce qui peut être un atout, mais être jolie peut être une arme à double tranchant et attirer le malheur... He oui.

Les quelques pièces d'or qu'ils avaient échangé contre leurs biens étaient cousues à l'intérieur d'une ceinture dont je ne sais pourquoi elle devait endosser la garde contre sa peau. Et cette responsabilité précoce à assumer, si elle avait aidé à forger sa personnalité, ne lui avait pas ôté les joies enfantines... car l'étonnement subsistait en elle, malgré l'exode subi, les privations et les pertes, les peurs et la tristesse... une joie sereine émanait d'elle.

Rire, chanter, prendre la vie à bras le corps, s'emparer de chaque minute du présent pleinement, lavée de toute amertume et rancœur, elle a certes été un phare dans notre vie.

Bien plus tard, quand elle était de passage chez nous et qu'elle partageait ma chambre, j'ai souvenir de ses nuits mouvementées où elle n'avait de cesse de rejeter couvertures et édredons, pour les ramener ensuite à elle, pour les envoyer culbuter par la suite, en une valse perpétuelle. Ainsi les nuits avaient lieu de terribles batailles nocturnes avec oreillers et édredon, non, plutôt avec mes rêves me disait-elle confusément au matin. Rêves... elle le disait poliment pour ne pas dire cauchemars. A ces vieux jours, avant de s'en aller définitivement, elle n'a pas arrêté le cache-cache avec les couvertures, mais alors, là, cela était devenu audible, la peur tétanisée qui la hantait remontait à la surface... «Ils arrivent...Ils arrivent...» hurlait elle

«Vite, vite, faut se cacher», et elle s'enfonçait sous la couverture, pour ensuite, avec mille précautions, risquer un œil terrorisé pour s'assurer de ce qu'il n'y avait aucun ennemi en vue. Mais en fait, il était tapi en elle, il s'y était logé à son insu, elle le combattait avec grâce, de par son sourire avenant à la vie. La vie, les chansons, la danse, elle se cadennassait dans un optimisme forcé, gracieux pour occulter un ravage intérieur.

La différence entre elle et les autres Arméniennes qui avaient connu le même sort était qu'elle ne s'était pas murée dans un tragique silence... Ce silence tout de noir vêtu, dans un deuil éternel, où étaient enterrées vives les voix qui avaient été témoin de l'horreur dont est capable l'être humain envers un autre.

Il y a quelques années, je me suis jointe à un groupe d'Arméniens afin de visiter les lieux d'où leurs familles était originaire. Cela avait tout l'air d'un pèlerinage, et je ne sais si c'était une bonne idée, parce que ce voyage dans la Turquie d'aujourd'hui m'a laissé un goût bien amer. J'ai failli à la promesse que je m'étais faite de ne regarder que droit devant. On a parcouru en tous sens ce pays qui avait été le nôtre, la terre d'où l'on a été chassé et que notre imaginaire a conservé, comme une petite part de paradis.

Izmir et Kayseri sont devenues de grosses villes marchandes, bouillonnantes d'activité, à aucun coin de rue, je n'ai pu déceler la moindre trace ou empreinte de mes metz-mama. Et je ne sais plus si cela m'attristait,

m'enrageait ou me révoltait, le fait que leurs vies aient été cassées de manière irrémédiable alors que la vie suivait son cours et prospérait là - bas comme si rien n'avait eu lieu.

Je termine ces lignes et je viens de lire la déclaration de reconnaissance du génocide par Mr Biden. Un nœud dont je n'avais jamais réalisé l'existence quelque part entre le cœur et l'estomac s'est défait...

Victoria, Haigouie, il aura fallu 105 ans pour le reconnaître? Est-ce que cela vous soulage?

«ستشرق الشمس» ولو بعد حين⁽¹⁾ رواية للكاتبة تغريد عارف النجار

«ستشرق الشمس ولو بعد حين» رواية لليافعين صادرة في العام 2017، تستعرض فيها الكاتبة تغريد عارف النجار، وعبر 242 صفحة من القطع المتوسط، أحداث الحرب في سوريا منذ بداياتها، مُتَابِعَةً تداعياتها وتعقيد أحداثها المؤثرة. وتجري الأحداث في عائلة من الطبقة المتوسطة تُعَبِّرُ عنها شخصية الفتاة المراهقة «شادن»، الطالبة في المرحلة الثانوية وذات الاهتمامات التي تُشبه مَنْ هُنَّ في عمرها وجيلها. تحبُّ كرة السلة وهي قائدة الفريق في مدرستها، أبوها سوري وأمها فلسطينية، ومن هذا النسيج المُختلَط تحوُّك النجار تفاصيل تُغيِّر المشهد السياسي وانعكاساته على النواحي الاجتماعية والاقتصادية للعائلة كنواة لمُجتمع ممتد، وانعكاسات الحروب على الحياة النفسية والاجتماعية للفتيات تحديداً.

في أحداثٍ مُتسارعة، وضمن خطٍّ زمنيٍّ مُتَّسِقٍ، ترصد الكاتبة بدايات الثورة السورية وانعكاسها على حياة أسرة من الطبقة المتوسطة بتوظيف الأدب الواقعي بعيداً عن الفانتازيا أو الخيال المُفتعل. وقد ظَهَرَ هذا النوع الأدبي في أدب الطفل عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية. فبعد أن كان أدب الطفل قبل ذلك يرتدي، في معظمه، عباءة الفانتازيا والخيال السحري وقصص

ريما زهير الكردي

(1) تغريد عارف النجار، ستشرق الشمس ولو بعد حين (المملكة الأردنية الهاشمية: ط 2، دار السلوى للدراسات والنشر 2020).

الجنيات، تحوّل مع ضجيج طبول الحرب وويلاتها إلى أدب واقعيّ بامتياز. فللحرب حضورٌ صادمٌ تمّظَهَر في مفاصل حياة المُجتمعات الأوروبيّة آنذاك، فانتقل الكتاب إلى توجيه الأطفال والفتيان نحو واقعهم ليتعرّفوا إلى تبعات الحرب وتوعيتهم لتخفيف الصدمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة الناتجة عنها، ولذا فإن اختيار هذا النوع هو الأكثر ملائمة لمُجريات الرواية هذه، وخصوصاً أنّ النّجار تنطلق من الخاصّ إلى العامّ.

في رواية «ستشرق الشمس بعد حين» لم تكن الكاتبة تغريد النّجار بمعزل عن تلك التحوّلات الكارثيّة التي عصفت بأجيال من الأطفال والفتيان العرب خلال أكثر من سبعين سنة، وهي التي كتبت في تحوّلات الواقع السياسي والاجتماعي وأبرزت دور الفتاة في مُجتمعها. فالنّجار تُقدّم نموذج الفتاة القويّة والمؤثّرة في محيطها، القادرة على صنع التّغيير الإيجابي، وفي ذلك دعم لموقف الفتاة عموماً في مُجتمع ما زال ينظر إليها كمواطن من الدرجة الثانية. هذا فضلاً عن أنّ الشخصيات الأنثويّة في روايتها هي نتاج آلام الحروب وانعكاسٌ لتراجيديّتها؛ بحيث نجد أنّ نماذج النساء والبنات في الرواية عبّرت عن واقعهنّ كضحايا بشكل مباشر، ومثال ذلك:

«زهرة» وتمثّل النموذج الأوّل، وهي أمّ ماجد وشادن. تهجّرت عائلتها من فلسطين في نكبة العام ١٩٤٨، وكبرت في سوريا وعانت مع أسرتها من الشتات بمعزل عن الوطن الأمّ. تزوّجت بأبي ماجد التاجر الدمشقيّ، وعلى لسانه يرِدُ جزءاً من مُعاناة عائلة زوجته وحرمان أفرادها من حريّة السفر والانتقال من دون معوّقات: «لا أقدر أن أفكر أو أتخيّل أن أترك هذا البيت الذي عملتُ أنا ووالدتك على بنائه بجهدٍ ليحتضنَ عائلتنا. أتذكّر أيضاً ما حلّ بعائلة والدتك بعد أن خرجوا من فلسطين. فقدوا كلّ ممتلكاتهم ووجدوا أنفسهم في مخيّماتٍ لللاجئين بعيدين عن وطنهم، يُواجهون أشدّ الصّعوبات في السفر والتنقّل من بلدٍ إلى بلدٍ آخر»⁽²⁾.

المصير الذي صارت إليه «زهرة» منذ طفولتها وخروج أهلها كلاجئين من دون الحصول على الجنسيّة في بلاد المهجر الجديدة كان عائفاً أمامها وأمام أسرتها. أمّا منْعُهم من التّنقّل فيتناهى مع المادّة رقم (7) من اتّفاقية حقوق الطفل المُعلّنة في ميثاق

(2) تغريد عارف النّجار، المرجع السابق، ص 30.

الأُمم المتّحدة. انتهت حياة زهرة برصاصة طائشة في المخيم في لبنان، وهي التي لجأت إليه من الموت في سوريا!

النموذج الثاني الذي جاءت به النّجار في روايتها، والذي يُظهر خرقاً آخر لمبادئ وثيقة حقوق الطفل الصادرة عن الأُمم المتّحدة، يتمثّل في ابنة الخال «سنّية» التي أصبحت امرأة صغيرة أحلامها لا تتعدّى حاكورة المنزل البسيطة، تركت «سنّية» المدرسة بعد الصفّ الخامس لأنّ تحصيلها لم يكن جيّداً، وبقيت في البيت تُساعد والدتها في تربية إخوتها⁽³⁾.

«سنّية» هي انعكاسٌ لمحدوديّة إمكانيات مدارس المخيم، فقدّرها أن تُحرّم من التعليم كنتاج النكبة التي أدّت بأهلها للهجرة، وهو ميراثها من حرب تطهير عرقيّ قام به الصهاينة لطرّد السكّان الأصليين لفلسطين والحلول مكانهم وسلب مُمتلكاتهم وأراضيهم. «سنّية» فتاة فقدت فرصة التعليم بسبب عدم توافر الظروف المُساندة لطفلة تُعاني من صعوبات تعلّم بشكلٍ ما؛ ومن جديد نرى أنّ الحرب لا تُحقّق تطبيق المادّة (24) من الوثيقة العالميّة لحقوق الطفل التي تنصّ على كفالة فرص التعليم للأطفال لتبقى كثرات من فتيات اللّجوء على هامش الحياة.

تندعم البنية التحتيّة للمدارس بشكلٍ عامّ وللمنظومة التعليميّة في مخيمات اللاّجئين بشكلٍ خاصّ، وبالكاد يكون هناك برامج داعمة لذوي صعوبات التعلّم ولمن لديهم تحصيل ضعيف، وبالتالي فالفتاة «سنّية» فاقدة لثقتها بقدراتها لقصورها عن اللّحاق بسلم التعليم بما يؤدّي إلى أن تصبح شخصيّة تُعاني من الدونيّة أمام قريناتها، ولذلك ساءت علاقتها بابنة عمّتها «شادن» بعد أن كانت مميّزة في زمنٍ سابقٍ عندما كانت الفتاتان صغيرتين.

الحروب تُدمّر الحَجَر والبَشَر، وعلى الرّغم من القدرة على إعمار البنيان إلّا أنّ الشروخ التي تقع في الإنسان نفسه لا يُمكن ترميمها بيُسْرٍ وخصوصاً في الحروب التي تستمرّ لعقودٍ من الزمان؛ إذ تفشل محاولات تعويض الفاقد التعليمي في استدراك الواقع ليبقى الطفل هو الحلقة الأضعف في مُجتمعات الصراع. وفي حين يتّجه الفتيان إلى

(3) المرجع نفسه، ص 119.

العمل اليدويّ أو المهنيّ، نجد أنّ التحدّيات تتراكم على الفتيات تحديداً لفقدانهنّ سُبلَ التعلّم وانعدام فرص التقدّم العلميّ الذي قد يُحقّق لهم الإنجاز الأكاديميّ ويُعينهنّ على الاستقلال النفسي والاقتصاديّ والتنعّم بحياةٍ كريمة. فمن دون التعليم سينتظرنّ مستقبلً غامضٌ لا يحمل من الاحتمالات الإيجابية الكثير، فأَيّ أمل ينتظر «سنيّة» ابنة اللاجئ الفلسطينيّ «توفيق»؟

أمّا النموذج الثالث الذي استعرضته النجّار فتمثّل في شخصيّة «ريم». ففي تصاعُدٍ دراميّ، نرى التحوّل الذي مرّت به بعد أن كانت تتمتع بروح مُنطلقة وبثقة بالنفس وتعدّد الصداقات في حياتها الاجتماعية العامة: «ما إن فتحت ريم باب بيتها حتّى قفزَ الجميع من مخابثهم وهم يصيحون: عيد ميلاد سعيد يا ريم، عيد سعيد».

بعد هجرة عائلة «ريم» بسبب القصف الذي تعرّضت له الأحياء السوريّة ونجاة الناس بحياتهم، لجأت عائلة «ريم» إلى الأردن حيث يتنامى شعور الابنة «ريم» بالغبّة، والوحدة، وانعدام الهدف في الحياة: «وَجَدَ أَخِي عملاً كبائع في متجر للملابس، وأنا أيضاً وجدتُ عملاً في صالون شعر. أغسل شعر السيّدات وأهَيّئهنّ لقصّ الشعر وأصنع لهنّ القهوة والشاي... أين ذهبت أحلامي بأن أكمل دراستي الجامعيّة؟»⁽⁴⁾.

الحروب لا تهدم البيوت والممتلكات والثروات الماديّة في المُجتمع، بل تهدم أحلام الفتيات وآمالهنّ لتضيق ملامح المستقبل الذي ينكمش ويفقد ملامحه في عيونهنّ وقلوبهنّ.

عمدت النجّار إلى اختيار عددٍ من النماذج المتأثّرة بواقعها والتي توصف بأنّها ضحيّة حروب طاحنة وويلاتٍ نتج عنها دمارٌ نفسيّ وعلميّ وانغلاق المُستقبل أمام الفتيات. إلّا أنّ النجّار أيضاً أنصبت نموذج الفتاة «شادن» الذي ظهر متفرداً بسبب سلسلة مواقف مرّت بها الشخصيّة من خلال السارد العليم الذي اختارته في السرد لكتابة روايتها، وتسجيل وقائع الحرب السوريّة التي بدأت في ربيع العام 2011.

عبر 68 فصلاً كلّ منها مُعنّون بما يُلخّص المحتوى، يبدأ الراوي بفصل «أخبار سارة»، وتنتهي الرواية بفصل «سامحيني يا اختي»، وما بينهما رحلة مُعاناة وطن بجغرافيته

(4) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 75 - 76.

وديموغرافيته، حيث اختارت النجار شخصيّة «شادن» لتكون هي الشخصيّة الرئيسة في هذه الرواية. «شادن» تجد نفسها خلال شهور قليلة خارج المكان تماماً كما كانت أمّها، لكأنّه ميراث تتوارثه أجيالٌ تحمل في أقدارها ويلات الحرب، تَرثُ صراعاتٍ لا ناقة للأطفال فيها ولا جمل، يرزحون تحت وطأة التشرد والشتات الذي يُربّي في المخيمات والمهاجر.

تظهر آثار الصراع على الفتاة «شادن» في بنية دراميّة مُتصاعدة ابتداء من الصفحة الأولى، «بينما كانت تفتح باب الشقة، انقلبت حقيبة المدرسة وبدأت الكتب تسقط منها تبعاً على الأرض»⁽⁵⁾، وبهذه العبارة العابرة تمّ التوطئة لكلّ الانقلاب الذي حَدَثَ في سوريا وبَعَثَر أوصالها.

عندما رَتَب «إبراهيم ماسلو» هَرَمَ الاحتياجات الإنسانية صَنَّف الأمنَ في المرتبة الثانية. على أنّ انعدام الأمن أيضاً يُسبّب تناقص موارد المعيشة التي تؤثر تلقائياً في الأولويات الأساسية من مأكّل ومشرب. وقد أثار انعدام الأمان في الفتيات وأصابهنّ بصدمة نفسيّة عميقة.

إنّ الخطر الذي تُسبِّبه الحروب ينقسم إلى نوعين:

النوع الأوّل وهو الضرر الماديّ الذي تمظهر في حياة «شادن»:

• توقّف تجارة الأب وعدم قدرته على مُتابعة عمله بسبب القصف المستمرّ على الأبرياء.

• هُدم البيت بصاروخ في حيّ تهدّمت معظم مبانيه على رؤوس المدنيين.

• انقطاع «شادن» عن الدراسة، وعن مُمارسة هوايتها في لعبة كرة السلة.

• انقطاع «شادن» عن الأصدقاء والمُحيط الاجتماعيّ.

النوع الثاني: الضّرر النفسيّ المعنويّ وتمظهر في مُعاناة «شادن» في المواقف الآتية:

- مُشاهدة إذلال أبيها أمامها من إحدى جهات الصراع السياسيّ، لكون الأب يُمثّل السند والقوّة للفتاة، ولكون إذلاله هو انكسار لها. ولكنها قاومت بعنفوان ورفضت هجومهم على بيتهم بكلّ ما أوتيت من قوّة.

(5) تغريد النجار، المرجع السابق، ص 5.

- افتعال القوّة والتماسك كي تُحافظ على إيقاع البيت في حال سلام بعد اختفاء أخيها وقلق والديها عليه.

- توقّف «شادن» عن الذهاب إلى المدرسة خشية القصف المُستمرّ، بما يُشير إلى تعطلّ حياتها الطبيعيّة المُعتادة.

- مرض الأب وموته عند رؤية بَيْتِهِ وقد صار رمادًا.

- الهجرة من سوريا الوطن والنزوح إلى المخيّم في لبنان عند الخال الفلسطينيّ اللاجئ أصلاً، والشعور بالنزد من قبل زوجة الخال وابنته الكبرى.

- عمل الأم كخياطة لدى إحدى النساء بعد أن كانت ربّة بيت لزوج مُقتدر مادّيًا.

- عمل «شادن» غير القانونيّ في لبنان واحتمال القبض عليها والقلق المُرافق للمُجازفة لتأمين مال يساعدها وأمّها على البقاء في منزل خالها.

- مَوْت الأم برصاصة طائشة بسبب عرس ما، وفق ما يُعرّف بمُفارقة الموقف، ويُنمّ «شادن» الذي هزّ أركان ثباتها عميقاً، إذ «تدخل شادن في نفق طويل... تبتعد فيه عن كلّ ما حولها... تجلس كالصنم، تنظر أمامها ولا تتفاعل مع أيّ أحد...»⁽⁶⁾. وعندما تمّ صفعها لإعادتها من نفق الصمت إلى الواقع، «نفرت الدموع من عيني شادن وانفجرت في بكاءٍ طويل وعويلٍ يقطع نياط القلوب... وهي تصرخ: لا... لا... لا... ظلت تنادي: أم... أمي... أمي... لا تركيني يا أمي... لا تركيني»⁽⁷⁾.

- ركوب «شادن» قوارب الموت للوصول إلى إيطاليا من دون وجود أيّ ضمان للنجاة.

- انتقال «شادن» داخل أوروبا من مدينة إلى أخرى تقّات على رغبتها بالحياة والوصول إلى برّ الأمان عند عمّها في السويد.

- الاغتراب النفسيّ والجغرافيّ والثقافيّ الذي شعرت به في السويد أو ما يُعرّف بالحلّ البديل للحياة الآمنة.

- ومن الصدمات المفصليّة التي واجهت «شادن» وكادت أن تعصف بمستقبلها محاولة تزويجها من رجلٍ يكبرها بعقودٍ عدّة بتدبيرٍ من جارة زوجة خال شادن بعد وفاة

(6) تغريد النجار، المرجع السابق، ص 163.

(7) المرجع السابق، ص 164.

والدتها: «إنّه رجل مقدر، ستّ تعيش في العزّ والدلال وسيدفع لخالها مهرًا محترمًا..»⁽⁸⁾. لكأنّ الصفقة واجبة الحدوث مع رجل يبلغ من العمر خمسين عاماً ومتزوّج وله أبناء. هذا الموقف حرّك «شادن» وأعادها إلى رشدّها كي تُجدّد حياتها وترفض أن تكون سلعة تُباع وتشتري. هزّ هذا الحديث شادن عندما سمعته خلسةً وأخرجها من حالة اللامبالاة والاكتئاب⁽⁹⁾، وكان المُحرّك نحو قرارها بركوب القوارب المحفوفة بالموت للهرب إلى أوروبا حيث عمّها المُقيم في السويد. فرزحت «شادن» تحت مسؤوليّة عظيمة عبّرت عنها النّجار في وضعها الحزام الذي أوصاها أبوها لتتنطق به حول خصرها من دون أن يفارقها مهما تقلّبت الأوضاع، وفي ذلك الحزام أوراق العائلة الرسميّة ومبلغ من المال.

هذا الأمر جعل من «شادن» الوريث الشرعيّ للتراث والميراث بمعناهما المعنويّ والماديّ، وهذا ثقل عظيم يقع على كاهل فتاة في بداية وعيها. فقد رافقها الحزام من سوريا إلى لبنان مروراً بتركيا وإيطاليا وعدد من المُدن الأوروبيّة حتّى وصلت إلى السويد حيث الملجأ الآمن. وهنا كانت لحظة الانفجار العاطفيّ بعد تراكم الحزن والكبت الذي عانته عندما «سألها أحد المسؤولين عن أهلها وعن سبب مغادرتها للسويد. لم تستطع شادن أن تتمالك نفسها عند ذكر أهلها فانفجرت باكية وهي تقول لهم إنّها أصبحت يتيمة الأبوين»⁽¹⁰⁾، وهذا كان ذروة التأثير الذي تركته الحرب على «شادن» بعد سلسلة ويلات مرّت بها.

تسلّط رواية «ستشرق الشمس ولو بعد حين» الضوء على الواقع المؤلم الذي عاشته كلّ فتاة بسبب الحرب، والترديّ النفسيّ الذي نذفت بسببه آلاف العائلات والمآلات التي تدنّت فيها الآمال، وتهشّمت على صخور واقع الهجرة واللّجوء وتشردّ الأحلام. غير أنّ النّجار أفسحت للأمل مجالاً فواربت له باباً عندما ألحقت «شادن» بعمّها في السويد لتبدأ حياة جديدة. فتوجّت قفلة الرواية بضرورة العودة إلى العلم والتعلّم كسلاح لكلّ فتاة من أجل الاستمرار، «سمعت شادن نقرأ على الباب... إنّها أنا... دخلت وفي يدها كومة من

(8) المرجع نفسه، ص 167.

(9) تغريد النّجار، المرجع السابق، ص 167.

(10) المرجع السابق، ص 220.

الأوراق... تريد أن تتحدّث معها عن الجامعة التي ستسجّل فيها بعد أن تتخرّج من معهد اللُّغات⁽¹¹⁾.

رواية «ستشرق الشمس ولو بعد حين» رواية غارقة في واقع الوجد السوري وطوايا مأساة كلّ فتاة تحمّلت نصيبها من تلك الفواجع المُتلاحقة التي تنتج عن أجواء الحروب، فضلاً عن الزعزعة السياسيّة والاجتماعيّة والتفشُّخ الحياتيّ الذي يُلازم الفتيات نظراً لأنّ الأنثى دائماً أكثر عرضةً للقلق النفسيّ من الذكر. فكلّ ما سبق من مُواجهاتٍ وسيناريوهاتٍ حياتيّة في الرواية يعكس ما مرّت به كلّ فتاة سوريّة بشكلٍ ما، أو على الأقلّ بعض ما واجهت منه. وهي مُواجهاتٍ لا بدّ من أنّها تركت رعباً ما يهزّ أوصال النفس ويُفتّت استقرارها الداخليّ لتصير الفتيات في حال تهديد نتيجة فقدان الوطن والأمان والنزوع إلى القلق والتوتّر من مُستقبل غامض لا يُعرف له نهاية حتّى تضع الحرب أوزارها.

تنفرد هذه الرواية بموضوعها وتفصيلها وبإظهارها دور الفتاة الصامدة والمُثابرة العاشقة للحياة والمؤمنة بالحبّ، فتاة لا يُفكّ عضدها مهما آلت إليه الأحداث. استطاعت النجّار أن تُبدع رواية مُلهمة لكلّ فتاة كوّننتها مركّبات فريدة لا تقبل الهزيمة ولا الانكسار فتصير مبعثاً للأمل المتجدّد والتوجّه الحيويّ نحو الفعل الإيجابيّ على الرّغم من كلّ القهر والظلم وتردّي الأوضاع. لذا لا بدّ من تدريس هذه الرواية ومُشاركتها فتيات هذا الجيل والأجيال المُقبلة أيضاً كونها تنتصر للفتيات صانعات الحياة.

المصدر: تغريد عارف النجّار، ستشرق الشمس ولو بعد حين، دار السلوى للدراسات والنشر، المملّكة الأردنيّة الهاشميّة، ط 2، 2020.

(11) المرجع نفسه، ص 242.

ملخصات البحوث

المحور الأول: الطفلات في الحروب: مقاربات متعددة

أمال قرامي

«ورثاث الشر»: بنات الحرب في الجزائر

تندرج هذه الدراسة في إطار دراسات «الجندر والحرب»، الذي حاولت المؤرّخات النسويات ودارسات الجندر من خلاله، إعادة النظر في مسائل عدّة منها: علاقة النساء بالنزاعات والحروب والعنف، وتمثّلاتهنّ للحياة والموت، وموقعهنّ في الحرب ومختلف الأدوار التي نهضنّ بها، وتجارب الخوف، والذلّ والمُعانة التي مرّزنّ بها، فضلاً عن أشكال التعبير عن الحبّ والصمود والرغبة في الحياة، وإلى غير ذلك من الموضوعات. وقد أسهمت عالِمات الاجتماع والمُحلّلات النفسيّات والمؤرّخات وغيرهنّ، في إبراز مشاركة النساء في حروب التحرّر من الاستعمار، وتحليل علاقاتهنّ (الاجتماعيّة والجندريّة والحزبيّة) القائمة على السلطة، والتمحيص في عددٍ من المسائل الأخرى ذات الصلة ببناء الأنوثة/الذكورة في سياق الحروب والنزاعات. غير أنّ اهتمام هؤلاء انصبّ على النساء وقلّما سلّط الأضواء على المُراهقات والفتيات.

انطلاقاً من هذا التجاهل أو التغييب أو التهميش أو العمى الإدراكي، ارتأينا أن نرصد علاقة الطفلات والمُراهقات الجزائريّات بالنزاعات والحروب والأزمات متوقّفين عند تجربتيّن: تتمثّل الأولى في حرب التحرير 1954 - 1962، وتكمن الثانية في الحرب الأهليّة «العشريّة السوداء» في التسعينيّات من القرن الماضي. أمّا مُبرّر هذا الاختيار فيعود إلى أنّ الحقيقتين التاريخيّتين تعكسان رؤيئتين مُختلفتين. فبينما كان الآخر البرّاني (فرنسا) هو المُتسبّب في المعاناة والصدمات، كان الآخر الجوّاني، مُمثّلاً بالإسلاميين المُتطرّفين، هو مَنْ ألحقَ بالطفلات والمُراهقات شتّى أنواع الأذى كالتعذيب والاعتصاب أو القتل. وقد اعتمدنا على تحليل شهادات عددٍ من الجزائريّات وعلى سيرهنّ الذاتيّة، فضلاً عن الأفلام الوثائقيّة والمصادر التاريخيّة وغيرها لاستخراج مجموعة من النتائج حول تجربة النساء مع الألم والصدمات وعلاقاتهنّ بالأهل والدولة زمن الحروب والصراعات وكيفيّة بناء الذاكرة النسائيّة.

نهوند القادري عيسى

القاصرات في أتون الحروب: فوضى المعاني في المُعالَجة الإعلامية

انطلاقاً من التساؤل حول المعنى الذي أضفَّته المُعالَجة الإعلامية على قضية تزويج القاصرات الواقعات في أتون الحروب واللَّجوء، كان لا بدَّ من مُقارَبة الموضوع من منظور التحليل النسقيِّ السياقيِّ المُحيط بالعمل الإعلاميِّ في ظلِّ المتغيَّرات التكنولوجية والاتصالية المُتسارعة من ناحية، وبظروف عيش القاصرات المنتقلات عنوةً من بيئتهنَّ الحاضنة إلى بيئةٍ مُغايرةٍ مُحمَّلةٍ بالكثير من المخاطر والمَظالم والحرمان والتحدّيات. وبهدف الخوض في عمق المُعالَجة الإعلامية بأبعادها المعرفية والمهنية والأخلاقية والتفاعلية، عملنا على فكِّفكة تعقيدات علاقة الإعلام مع الأطراف الفاعلة (اللاجئون، الناشطون وممثِّلو الجمعيات، والمنظمات الدولية، الأطراف المُتصارعة، والجهات الحكومية في البلدان المُضيِّفة، ووسائل الإعلام الأخرى) وتبيَّن لنا أنَّ هناك خدماتٍ مُتبادلة بين الإعلام وهذه الأطراف تبعاً لغايات كلِّ طرف.

ولاحظنا أنَّ المُعالَجة الإعلامية كانت متشابهة في المضمون وفي الأسلوب، فردَّت بأغلبيتها أسباب زواج القاصرات ومفاعيله إلى ما جاء به ممثِّلو المنظمات الدولية وبعض وسائل الإعلام الأجنبية، من دون التوقُّف أمام معاني الظاهرة ودلالاتها. واستُخدمت في كثير من الأحيان عناوين مُثيرة تخلط السبب بالنتيجة، وتخلَّلَت النصوص تعابير مُهينة بحقَّ الأهل، وصيغٌ تعميميةٌ وأفكارٌ نمطيَّة، لا تخلو أحياناً من الإثارة والغربة. وسَعَتْ قِلَّةٌ قليلة من تلك المُعالجات إلى التفرد في الطَّرح عبر تنويع الموضوعات، وتعمُّد إبراز حالاتٍ إيجابية. وبالنظر إلى عدم قدرة الصحفيين على إجراء تحقيقات ميدانية، لاعتباراتٍ تتعلق بالسرعة، والتكلفة، ومتطلبات محرِّكات البحث، وصعوبات التعامل مع أرض الواقع، لجأ الصحفيون إلى نصوصٍ توليفيةٍ تتخلَّلها تناقضات، فبدت واقعة بين منطقتين: الأوَّل يعود إلى منظور النَّوع الاجتماعيِّ، الذي يرمي النَّبَعة على الثقافة والعادات والتقاليد التمييزية بحقَّ البنات، ناظراً إلى العادات وكأنَّها ثابتة لا تتغيَّر. والثاني، رأى في تزويج القاصرات في ظروف اللَّجوء استراتيجيةً للتكثيف.

بهذا أسهمت الأعمال الصحافيَّة في تأطير أزمة اللَّجوء، وفي تحديد أولوياتها، وأجندة التفكير بها، مغفلةً في أحيان كثيرة الأسباب، متوقِّفةً عند النتائج. فأبرزت اللاجئات

القاصرات على أنَّهِنَّ ضحايا، وعرضة لمُختلف أنواع العنف والاستغلال والتحرُّش، وصوَّرتَهِنَّ مُستسلمات لِقَدَرِهِنَّ ولظروف عيشهِنَّ القاسية، وجردتَهِنَّ من مشاعرهنَّ تجاه الأهل غير القادرين على تأمين مستلزمات معيشتهنَّ. ونَحَتِ المُعالِجَةُ بذلك نحو الإثارة والمُبالَغة، وظنَّت أنَّ المشكلة تكُمن في الوعي، فجارت المنظَّمات في حملاتها التوعويَّة وفي نخبويَّتها، وفي انقطاعها عن أرض الواقع. وبهذا وجدنا أنفسنا أمام فوضى في المعاني، وأمام خَلطٍ في الأدوار بين الناشط والصحافيِّ والباحث والمختصِّ، وفي خضمِّ المواقف المسبَّقة تجاه الأطراف المُتنازعة. يبقى أنَّ هذه الطريقة في المُعالِجَة تستدعي الشفقة والاستنكار وجلد الذات، غير أنَّها بالمُحصَّلة تُعطِّل التفكير وتُعوِّق العمل، لكونها تغفل الكثير من التجارب الإيجابية التي تحملُ بذوراً جديدةً لابتكار طرق وأساليب تكثيف كفيلة باكتشاف مداخل مُغايرة للعمل البناء.

عزة سليمان

القاصرات في عيون القانون: مواطنات مُلحقات في مرحلة ما بعد النزاع

القراءة في مضمون الأنظمة والقواعد القانونيَّة وربطها بالظروف الاجتماعية والأُطر العامَّة السياسيَّة يطرح تحدِّياتٍ مضاعفة عندما يتناول حقبة الصراعات وما بعدها. وتصبح هذه التحدِّيات أكثرَ صعوبةً عندما يرتبط الموضوع بفئة الطفلات وهي من الفئات الاجتماعية التي تكاد تكون الأكثر تهميشاً، إمَّا لاعتبارها فئة مُندمِجة مع أخرى أكثر شموليَّة، أو لكونها لم تشكَّل لدى المشرِّع - المحليِّ أو الدوليِّ - فئة خاصَّة بحاجة إلى حماية بشكلٍ مُنفصل. وفي كلا الحالتين، تُصبح هذه الفئة - المحدَّدة الهويَّة والخصوصيَّة في مضمونها الاجتماعيِّ - بعيدة عن اهتمام المشرِّع، ما يشي بتأجيل البحث في خصوصيَّة حمايتها في مرحلة وضع السياسات العامَّة.

فالقوانين هي نتاج الأنظمة الحاكمة، ويختلف التوجُّه القانونيِّ مع تطوُّر الأنظمة السياسيَّة أو تحوُّلها. وهي تعكس حاجة المُجتمع بقدر ما تكون الأنظمة ديمقراطيَّة. وإنَّ كانت الأطراف السياسيَّة هي التي تحمل هذه الحاجات الاجتماعية وتمثِّلها في الأنظمة التقليديَّة، فقد ارتبطت مع التحوُّلات النيوليبراليَّة بالفئات الاجتماعية وقضاياها.

كيف قاربت القواعد القانونية فئة الطفلات ضمن إطار القانون الدولي الإنساني والقانون الجنائي الدولي؟ وكيف اختلفت طبيعة الانتهاكات بحقها في ظلّ الأزمات الاقتصادية؟ ما هو الإطار القانوني الراعي لها، وكيف كان موقف الاجتهاد انطلاقاً من قواعد القانون الدولي؟ وكيف تطوّرت المُقارَبة مع التحوُّلات الاجتماعية - الاقتصادية الحديثة؟

هند الصوفي

التحوُّلات والأنماط الفنيّة لصُور الفتيات في الحروب العربيّة «من الحادثة إلى ما بعدها»

يقتضي البحث إبداء قراءة متعدّدة المُقاربات لصُور الطفلات والفتيات في زمن الأزمات والحروب من خلال الفنّ العربيّ (بمعنى فنّ الحادثة وما بعد الحادثة المقدّم من قبل فنّانين وفنّانات عرب في بلاد المنشأ والانتشار). لم يكن أمر تحصيل هذه الصُور بالمهمّة السهلة، إذ غالباً ما تتصدّر النساء موقعاً مُهماً في النّزاعات، وقد توصّلنا بعسر إلى استنتاج خصوصيّة ما لصُور هؤلاء الفتيات، والتي قد تتمظهر من خلال الفروقات الجندريّة ما بين صُور الصبية والبنات من جهة، أو من التباينات ما بين صُور النساء من فئات وأعمارٍ مُختلفة، أو حتّى من جرّاء الاختلافات بين المُجتمعات التي تنتمي إلى الثقافة العربيّة. وتبيّن لنا أنّ العدوان الإسرائيليّ على غزّة في أيار/مايو 2021، قد أفرز أدواراً وأشكالاً جديدة للفتيات، شكّلت مخرجاً لهذا البحث، حيث قامت مراهقات بمبادراتٍ جماليّة ونضاليّة مُختلفة من حيث الشكل والمحتوى.

لائحة طويلة من الصُور القابلة للتأويل مكّنتنا من الإجابة عن عنوان هذا البحث، ومُتابعة التطوّرات التي أحدثتها النساء والفتيات تحديداً بريشة الفنّان والفنّانة، والدّور المُعاصر لفنّ يواكب التقلّبات ويؤسّس لخصوصيّة ثقافيّة في المجال البصريّ/

. Visual Arts

قُسّمت الدراسة إلى ثلاثة أجزاء، تناول الأوّل قراءةً تاريخيّةً لصُور البنات والأزمات في تاريخ الفنّ، وتابّع الجزء الثاني كيف شكّلت الحادثة العربيّة جزئيّةً مهمّة تجلّى من خلالها دورُ الشهيد والشهيدة، الصبيّ والصبية في مشاهد الحزن واستنهاض النضال؛ أمّا

الجزء الأخير، فتناول انقلاب وتقلُّب الأدوار المنمَّطة للفتيات، في مرحلة ما بعد الحداثة؛ بحيث تحوَّلت الفتيات من أداة تُستغلُّ لإنجاب الشهيد إلى طاقاتٍ وطنية فاعلة في الواجهة، تؤثر في الرأي العام العالمي.

اعتمدت في البحث منهجية قائمة على نظريات التحليل السيميولوجي، ودراسة الرموز والعلامات، كما تمَّ الاستناد إلى المقاربة الاجتماعية للفنِّ مع بورديو Bourdieu، ونظرية «الحقل الفني» لتحديد الفنون وتصنيفها من حيث ارتباطها بالسياق الاجتماعي العام وبالظواهر التي تتحكم في قراءة النماذج المُختارة. وكانت لنا مجموعة راجحة من الأعمال من مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين خصوصاً. ومن البديهي أن تكون فلسطين قد استحوذت على العديد من النماذج كونها في حالة حربٍ شبه مستمرة. وفي الخاتمة، استعنا بنظرية توماس كون Thomas Kuhn لشرح الانزلاق والانزياح الحاصلين بين أنموذج سابق وآخر جديد، بفعل تغيُّراتٍ مُتشابكة ومعقَّدة ومتعددة.

ريمي عبد الرسول

صورة المحاربة في الأعمال الكرتونية الموجهة للأطفال

تلحظ هذه الدراسة أهمية الرسوم المتحركة من أفلام كرتونية سينمائية طويلة ومسلسلات تلفزيونية بشخصيات أبطالها وبطلاتها الملهِمات والمحفَّزات للأطفال بعامة، وللفتيات العربيات بخاصة، في أوقات الأزمات والحروب وما بعدها. فالصور المتحركة، ببلاغة تكوينها وقوة تأثيرها وتشبعها بالألوان والأصوات والمؤثرات، تُطلق الخيال وتُضفي مشاعرَ وأحاسيسَ إيجابية، تُزيل عن كاهل الطفلات ثقلَ ما قاسوه من خسارات، وتتغلَّب على مشاعر العجز والوهن بمشاعر تفاؤلية محفَّزة ترفع الثقة بالذات، وتبعث فيهنَّ الحلم والطموح والتحدِّي والأمل بالانتصار.

وقد سلَّطت الدراسة الضوء على هيمنة الإنتاج الأجنبي المُدبَّلج على شاشاتنا العربية وعلى عرض بعض من بطلات الكرتون كنماذج للتماهي لدى الطفلات العربيات. وخُتمت الدراسة بالتساؤل عن مدى حاجة مجتمعاتنا العربية إلى أعمالٍ كرتونية محلِّية مُماثلة، تُحاكي قضاياها وتنقل صورة بطلاتنا المناضلات والمُحاربات اللواتي يُحتذى بهنَّ واللواتي لسنَّ أقلَّ قوةً وشجاعةً وإصراراً في صراعهنَّ مع الظلم والدفاع عن الوجود.

المحور الثاني: ذاكرة الطفولة الجريحة

رجاء مكّي

طفلات اليوم نساء الغد ما بين التروما والنجسيّة: تجوال - حيرة واستبعاد

يصبّ هذا البحث في محور حكايات العنف. فما بين الموت والتروما لدى الطفلات والمُراهقات، نرصد تطوّرهنّ الديناميّ بين النسب والاستبعاد في مُجتمع عانى الحرب التي قسّمت أطفاله إلى قسمين: الأطفال المجنّدون، والأطفال الحاملون لتاريخهم ويدورون ما بين الإرث والاختراع، حيث تدور قصص السلف والتعابّر وصراعات الحرب.

يستند البحث إلى أدبيّات O. Douville و F. Fanon في مجال الأنثروبولوجيا التحليليّة والبُعد التعابريّ للأجيال. وما بين الضحيّة والناجية تكمن الضحيّة على وجه الخصوص في أثناء الصراعات المسلّحة وبعدها. لذا تظهر أهميّة علم النّفس في المؤسّسة العسكريّة، حيث ضراوة الأنا الأعلى المرتبطة بأيديولوجيّة المؤسّسة المتخيّلة، وارتكاز العصيان المنهجيّ على عمليّة التماهي بالمعتدي.

ثمانية فتيات، بأعمار تتراوح ما بين 3 و 11 سنة، وهي فترة تتعمّق أوديبياً وتبقى ضمن مرحلة الكمون إلى حين دخولها مرحلة المراهقة، خضعنَ لجلساتٍ علاجيّة. ولأنّ المُقاربة العياديّة التحليليّة تهتمّ بالاغتراب التماهويّ الذي يقوم بدورٍ أساسيٍّ في مسيرة النضج العاطفيّ للمُراهق(ة)، تمّ عبر الملاحظة والإنصات رُصد الصدمات العاطفيّة لهؤلاء الفتيات وإرث الأهل، بحيث تأثرت صورتهم عن أنفسهنّ بالتماهي الأنثويّ مع الأمّ، وأوصلت المُعانة إلى «فوضى الضغط» من خلال ذاكرة الحرب المنقولة وهي تروما الموت والقتل المُعاشة والراكدة والمتخيّلة على أساس أنّها عنفٌ سلبّيٌّ؛ فالباحث يُمارس دورَه العياديّ حول العنف الذي يكسر سير الأجيال. إنّه تجوال الأفكار الحائرة ما بين الاستبعاد والاضطهاد.

نهى الدرويش ونهلة التميمي

صورة الجسد في مدن الصراع: الفتاة كما ترى نفسها كأنثى

تعرّضت مُدُنٌ عدّة في العراق إلى شتّى أنواع الإرهاب والتطرّف والعنف والاحتراب السياسي، وكانت المرأة كأنثى، في مختلف مراحل تطوُّرها العُمريّ، من أكثر ضحايا هذه المظاهر الوحشيّة. فقد رصدت الدراسة أحوال فتيات مُراهقات تراوحت أعمارهنّ بين 11 و18 سنة، وبخاصّة في ما يتعلّق بصورتهنّ لأجسادهنّ في أثناء البلوغ. وتمّ التعرّف إلى كيفية تعامل الأمّهات مع بناتهنّ لكون الأم هي الأقرب إلى ابنتها اجتماعياً ونفسياً.

تطلّع البحث إلى صورة الجسد لدى الفتيات المُراهقات، وما إذا كانت هذه الصورة إيجابية أم سلبية؟ وإلى كيفية مواجهة الفتاة قصّة بلوغها في مدينة تزخر بحوادث الخطف والسبي والاعتصاب وانعكاسات ذلك على حالتها النفسيّة. كما توقّف البحث عند أساليب تعامل الأمّهات مع بناتهنّ في مُدن الموصل وسامراء وديالى وكركوك والأنبار التي تعرّضت إلى فوضى العنف والتطرّف العنيف والإرهاب.

ولتحقيق أهداف البحث أُعدّت استبانة مقنّنة تضمّنت حزمة من الأسئلة المعمّقة موجّهة للفتيات. فالوصول إلى فهم صورة الجسد لدى الفتيات في مُدن الصراع من شأنه أن يوفر قاعدة انطلاقاً للتوعية بشكل عام حول الصّحة الإنجابيّة والجنسيّة، وكذلك حول الصّحة النفسيّة لدى هذه الشريحة التي قلّ ما تناولها البحوث والدراسات بشكل ميدانيّ ومعمّق.

تغريد السميري

قاصرات نازحات في مُواجهة تحدّيات الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزة في أيار/

مايو 2021

حاولت هذه الورقة البحثيّة استكشاف التحديّات التي واجهت المُراهقات الفلسطينيّات في قطاع غزة في أماكن النزوح خلال الحرب التي شنتها الحكومة الإسرائيليّة في أيار/مايو 2021 على القطاع. كما سلّط الضوء على كيفية ارتباط هذه التحديّات بالتميز القائم على النّوع الاجتماعيّ من جهة، وبالمعنى الاجتماعيّ الذي أُعطيَ لمكان النزوح من جهة ثانية.

وقد سَعَت الورقة إلى تبيان الفوارق بين تجربة المُراهقات اللواتي نزلن إلى مدارس الأونروا، واللواتي نزلن إلى بيوت عائلات مُستضيفة أو إلى شقق مُستأجرة من قِبل عائلاتهنّ، وذلك على مستوى: الأدوار والفروق الجندريّة، السياق الاجتماعيّ للتعبير عن المخاوف، الضغوط النفسيّة والتعبير عن المشاعر، النظافة الشخصية والخصوصيّة، العلاقة مع الأهل وباقي أفراد الأسرة.

تمّ تنظيم ثلاث حلقات نقاش مركّزة عُقدت في مناطق حدوديّة في قطاع غزّة، وشاركت فيها 25 فتاة تتراوح أعمارهنّ بين 11 و18 عاماً. ومن خلال تحليل حلقات النقاش الثلاث، أظهرت نتائج النقاشات المركّزة عدم ارتفاع مستوى الهشاشة على الرغم من نظام الهشاشة الصلب المفروض على الفتيات، المبني على عوامل عدّة، والمُرتبط ارتباطاً وثيقاً بخمسة عوامل أو تعقيدات ثقافيّة.

سعدى علوه

عن حياة مُراهقات قَلَبَتْها الحرب وغيّرها اللّجوء والتهجير

ربّما لا يُمكن للدراسات التي تنتهي بمُخرجاتٍ علميّة، على أهمّيّتها، أن تنقل بين سطورها «البُوح» الإنسانيّ للعيّنة التي تشملها، حيث يكون الهمّ (همّ الدراسة) جماعيّاً، غايته الخروج بخلاصات تُسهّم في توثيق التغيّرات ورصدها، والأهمّ المُساعدة في رسم سياساتٍ تعني الفئات التي تشملها تلك الدراسات. من هنا يختلف ما نقرأه عن التغيّرات التي طرأت على حياة النساء، من مراهقات وبالغات، بين موضوع يتناول سمات الـ«مُجمعيّ» وتطوّره وآخر يتناول تفاصيل حيواتهنّ وذواتهنّ، التي، على ما يبدو، هي الأهمّ في كلّ ما يحدث.

تأتي هذه الورقة لفتح للنساء باب «البُوح» بأزيحيّة تترك العنان لهنّ للتعبير عن أحوالهنّ كمراهقات، وعن أنفسهنّ، وعن الطريق الشاقّة التي قطعنها كناجياتٍ من حروبٍ قاسية لم ترحمهنّ، وعن تأثيرها فيهنّ، مع رصدٍ تفاعلٍ عوائلهنّ التي تؤثر بدورها في ظروفهنّ بمقدار تأثير المُجتمع الذي لجأن إليه بعباداته وتقاليده.

ترسم الورقة طريقهنّ نحو النجاة وانفعالاتهنّ وتفاعلهنّ مع كلّ ما حدث، حتّى أنّ البعض منهنّ يرفضنّ أو يسخرنّ من توصيفهنّ كناجيات، لكون ظروف لجوئهنّ ومرارة

اللجوء لا تجعل أحوالهنّ أفضل ممّا كانت عليه خلال الحرب. ذلك أنّ الفارق الوحيد بين الوضعيّتين يكمن في صوت الرصاص.

وعليه، جاءت قصّة كلّ لاجئة لترسم مسارها الخاصّ من دون ادّعاء التعميم أو إضفاء الطابع الجمعيّ عليه؛ إذ تحكي كلّ قصّة الكثير بالتأكيد، وبما يُشير إلى أنّه من المستحيل أن يُنتج عن الحرب أيّ جمال، وإلى أنّ أفضل ما يُمكن أن يحدث هو استكمال الحياة.

سينتيا قريشاتي

«سردّيات الجرح» في الأرشفة الشفهيّ الفلسطينيّ

يتناول هذا النصّ مقابلتين من الأرشفة الشفهيّ الفلسطينيّ، تروي فيهما سيّدتان فلسطينيّتان، وهما أمّ فارس وفاطمة سرحان، قصّة إصابتهما بجروح خطيرة وأضرار جسيمة خلال فترة المراهقة. أمّ فارس، التي لجأت إلى لبنان من العراق في العام 1987 جرّاء تدهور العلاقات الفلسطينيّة - العراقيّة في منتصف ثمانينيّات القرن الماضي، عانت من مضاعفات عمليّة ولادة قيصرية أُجريت لها في مستشفى الشفاء في غزّة في العام 1981 كادت أن تسلبها حياتها، وذلك بعدما نسيّ أحد أعضاء الطاقم الجراحيّ شاشاً ملوّثاً داخل أمعائها. أمّا فاطمة سرحان التي لجأت إلى لبنان بعد نكبة العام 1948، فكانت قد أصيبت بجروح خطيرة في رجليها جرّاء قصفٍ عنيفٍ تعرّضت له بلدتها «الجشّ» في الجليل، حيث هاجم الطيران الصهيونيّ البلدة وألقى بـ «القيازين» (البراميل) المتفجّرة واستهدف شجرة التين الكبيرة التي كانت فاطمة قد حاولت الاختباء تحتها. تحتوي المُقابلتان على تفاصيل عديدة عمّا يُسمّى بـ «سردّيات الجرح»، وهي الطُرق المُختلفة التي تقوم من خلالها أمّ فارس وفاطمة سرحان بوصفٍ تفصيليّ للأضرار الجسديّة التي أصابتهما، وتعمّدان إظهار ندبات تلك الجروح لكي تُثبتا أنّهما قد تعرّضتا للأذى ونجّتا من الموت.

يُركّز هذا النصّ على «سردّيات الجرح» التي تتجلّى في القصص القصيرة التي ترويها الامرأتان، وفي الصور التي تُبرزانها، وفي إدراكهما الملموس لجروحهما الجسديّة. كما يُناقش النصّ أيضاً أخلاقيّات «سردّيات الجرح» وي طرح إشكاليّة توظيف الألم والمُعاناة في سبيل الدّفاع عن حقوق الإنسان وتحقيق مطالب سياسيّة معيّنة. يتجاوز النصّ

إطار هذه الإشكالية ويُحاجج أنّ اللّجوء إلى «سرديات الجرح» ينبع من صعوبة، لا بل استحالة، التعبير عن الألم الشخصي والجماعي في سياق اجتماعي وتاريخي تغطي عليه ديناميات عنيفة من التهجير والحروب واللّجوء التي تخنق الحياة اليومية، ليصبح الشروع والإصغاء إلى الأرشفة نوعاً من الشهادة على هامش الكلام.

المحور الثالث: في الحروب وتداعياتها على الطفلات

زينة إسماعيل علوش

الأمّهات الطفلات والتبني غير الشرعيّ أصواتٌ مكتومة لحروبٍ مُستمرة ترافقت حروب العالم مع غزواتٍ وانتهاكاتٍ كان الأطفال والنساء أكثر ضحاياها. كتاباتٌ ودراساتٌ كثيرة تناولت آثار الحروب على هذه الفئة المُصنّفة الأكثر ضعفاً بحسب الإحصاءات الدولية. لكنّ ظاهرة الاتّجار بأطفال مناطق النزاعات المُسلّحة لأغراض التبني الدولي بقيت قطبةً مخفيةً يندر الحديث عنها.

وعلى الرّغم من غياب إحصاءاتٍ عالميّة دقيقة حول عدد الأطفال ضحايا هذه المُمارسة، لكون معظمها يتمّ بطريقةٍ غير شرعيّة، إلّا أنّ التقارير تُشير إلى حوالي مليون طفلٍ يجوبون العالم سنوياً في إطار التبني غير الشرعيّ. هذه المُمارسة لطالما لبست رداءً العمل الخيريّ، إلّا أنّ التبني الدولي أصبح موضع نقّد، ولاسيّما أنّ عدداً كبيراً من المعنّيين/ات بهذه المُمارسة باتوا يتحدّثون عن مُشكلاتٍ وتعقيدات على مستوى بناء الهوية والانتماء.

حوالي 10 آلاف طفل/ة جرى تبنيهم/ن بطريقةٍ غير شرعيّة إبّان الحرب في لبنان، وما زال التبني يحتلّ مرتبةً أخلاقيّة لا نقاش فيها.

يهدف هذا البحث إلى إعادة النّظر في التبني على المستوى الدوليّ من منظورٍ جندريّ لتسليط الضوء على الصوت الصامت للأمّهات (معظمهنّ قاصرات) أجبرن على الحمل غير المرغوب به بفعل الحروب والنزوح والتفكّك الأمنيّ والفساد.

سعاد محمد العباني

تداعيات الحرب والنزاع المسلح خلال العام 2019 على تعليم الفتيات في ليبيا

هدفت هذه الدراسة إلى تقصي تداعيات الحروب والنزاعات المسلحة على الفتيات في مدينة طرابلس الليبية بعد السنة الأولى التي تلت الحرب خلال العام 2019، وذلك ليمّ بلورة منظورٍ مُرتكز أساساً على الجوانب التعليمية وما طاولها من تأثيراتٍ ناتجة عن النزاع المسلح؛ هذا فضلاً عن تأزم الوضع مع عمليّات النزوح والتهجير القسريّ المُصاحب للنزاع المسلح، لنصل إلى فهم الآليات التي انتهجتها الفتيات لمواجهة الأزمات.

اتّبعت هذه الدراسة المنهج الكيفي (النوعي) باستخدام أسلوب المُقابلات الجماعية اعتماداً على خمس مجموعات تركيز بؤرية، وعلى دراسة حالة عن طريق إجراء مقابلة شبه مقنّنة مع فتاة تبلغ من العمر 14 عاماً. وقد بلغ مجموع المشاركات في المُقابلات الجماعية 28 فتاة، أعمارهنّ بين 17 - 20 سنة. تمّ إجراء هذه المقابلات خلال شهريّ كانون الأوّل/ديسمبر 2020 وكانون الثاني/يناير 2021. وقد أفرزت الدراسة النتائج التالية:

ترتّب عن مُعاصرة الحروب تدهورٌ في التحصيل الدراسي والدافعية نحو التعلّم لدى جميع الفتيات المشاركات في المُناقشات؛ حيث أشرنَ إلى أنّه خلال فترات الحرب كنّ منقطعات بشكلٍ كاملٍ عن الذهاب إلى المَدارِس. كما عبّرت العديد منهنّ عن حالة «الخوف والقلق» بسبب انتشار أعمال العنف التي أدّت إلى توقّف مختلف الأنشطة والحركة الاجتماعية، وما رافق ذلك من إحباط وتدهور أحوالهنّ النفسية والمعنوية.

كما كان للتهجير والنزوح الناتج عن فترة الصراع والنزاع في ليبيا تأثير واضح على المنظومة التعليمية. وعلى الرّغم من المُعاناة والألم، كانت نسبة التفاؤل والعزم والاستعداد للعمل عالية، فضلاً عن الإصرار على مُواجهة التحدّيات والمضيّ قدماً. هناك إيمان عميق بأنّ المستقبل أفضلُ لليبيّا، وأنّ التجربة ومُعاصرة الحرب لا تعني النهاية، فقد عبّرت أغلبية الفتيات المشاركات في هذه الدراسة عن ثقتهنّ بقدراتهنّ العالية على الاستمرار وتحقيق طموحاتهنّ وأحلامهنّ المستقبلية.

فاطمة واياو

الطفلات اللاجئات الإفريقيّات في المغرب: واقع النزوح وتحديات الاندماج
يستدعي موضوع اللاجئات الإفريقيّات في المغرب الحديث عن النزوح النسائيّ الذي أصبح واقعاً يفرض نفسه على الفضاء المغربي، وخصوصاً بعدما أصبحت العديد من المهاجرات عالقات بفعل السياسة الجديدة للمغرب المتعلقة بمحاربة الهجرة غير النظاميّة، بالنظر إلى مُعاهداته مع الاتحاد الأوروبي. هذا الواقع الذي حوّل المغرب من بلد العبور للعديد من اللاجئات والمهاجرات الإفريقيّات إلى بلد المقصد والاستقرار والهجرة، ولاسيّما بعد سنّ قانون الهجرة سنة 2013.

وقد أظهرت العديد من الدّراسات والأبحاث والتحقيقات القائمة على الجندر أنّ معاناة اللاجئات الإفريقيّات تعكس أيضاً الفارق الواضح بين ظروفهنّ وظروف مُعانة اللاجئين بشكل عامّ. فمُعانة اللاجئات الإفريقيّات القادمات من دول جنوب الصحراء هي أيضاً فرصة لاكتساب قوّة في المعادلة الجندريّة التي تأتي ليس فقط من نجاتهنّ وتجاوزهنّ لواقعهنّ كضحايا، بل أيضاً من قدرتهنّ وإصرارهنّ على مواجهة التحديات. تستند دراستنا إلى الإحصاءات والوقائع المرتبطة باللّجوء والهجرة في المغرب، وتشمل التحديات الطارئة نتيجة ظهور وباء كوفيد 19. كما تستند إلى الدّراسات السوسيولوجيّة والنسويّة التي تعتمد المُقاربة الجندريّة لظاهرة النزوح والهجرة النسائيّة بعامة، والهجرة الإفريقيّة جنوب الصحراء بخاصّة.

بيا قزّي

الاعتداءات الجنسيّة على الفتيات والمُراهقات في تونس ما بعد الثورة
أظهرت الإحصائيّات في تونس خلال السنوات العشر الأخيرة ارتفاعاً مطرداً في الاعتداءات الجنسيّة على الأطفال، ولاسيّما على الفتيات والمُراهقات، وذلك على الرّغم من زخم الإصلاحات التشريعيّة الدّاعمة لحماية النساء والأطفال من أشكال العنف كافّة. فهل يعكس هذا الارتفاع تنامي عدد الضحايا في الواقع أم أنّه ناتج عن حالة من الوعي المُجتمعيّ بأهميّة الإشعار لكسر الصمت وكشف هذه الظاهرة في مُجتمع ذكوريّ يعمل على إنكارها؟

واستناداً إلى الدراسة الوثائقية وتحليل شهادات بعض المهنيين المباشرين عن وضعيات الضحايا، لوحظ ارتباط حالات العنف الجنسيّ الواقع على الفتيات بالسياق العامّ لفترة ما بعد الثورة، باعتباره من الآثار الجانبية لعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والتغيرات الإيديولوجية، وبخاصة المجتمعية التي أصبحت أكثر تطبيعاً مع العنف بصفة عامة، بما في ذلك العنف الافتراضيّ.

وتطرقت الورقة إلى أنّ ارتفاع الاعتداءات الجنسية على الفتيات عائد إلى ضعف اهتمام الدولة بهذه الظاهرة وتباين المرجعيات الأخلاقية، فضلاً عن الهشاشة الاجتماعية والنفسية للأفراد، وتغيّر التمثيلات الاجتماعية للجنود ولأدوار المرأة والرجل في ظلّ أيديولوجيا تركز النموذج الاجتماعي الذكوريّ.

سلمى عبد الله

الفتيات النازحات في أوقات الحرب: القابلية للتأثر وفُرص التخفيف

من العنف الجنسيّ المرتبط بالنزاع في دارفور - السودان

شهدت منطقة دارفور في غرب السودان منذ العام 2003 صراعاً مسلحاً أدى إلى آثار كارثية على البلاد، تتراوح بين عدم الاستقرار السياسي والتخلف الاقتصادي والنزوح السكانيّ. فقد أدى الهروب من ولايات الحرب إلى سلخ العديد من القُصّر عن عائلاتهم والزجّ بهم للعيش في معسكرات النزوح التي تفتقر إلى أدنى مقومات الحياة. يُمثّل النزوح الداخليّ من مناطق الصراع إلى مخيمات النزوح في دارفور تحدياً يُطارد الحكومات المتعاقبة؛ بحيث باتت مُعالجة أوضاع النازحين اليوم إحدى أولويات الانتقال السياسيّ في السودان. لذا بحثت هذه الورقة في تأثير النزوح جرّاء الحرب على حيوات الفتيات السودانيّات مع التركيز على تعرضهنّ للعنف القائم على النوع الاجتماعيّ المرتبط بالنزاع. فالتحديات التي تواجه الفتيات النازحات لا يُمكن فصلها عن قضايا الفتيات بشكل عامّ في السودان، وبخاصة أنّ مُعانتهنّ تتضاعف بسبب انتشار العنف المرتبط بالنزاع من جهة، وبالعنف القائم على النوع الاجتماعيّ من جهة أخرى. وأوصت الورقة بضرورة بذل جهدٍ إضافيٍّ من طرف المنظمات الحكومية والدولية ذات الصلة، والمُجتمع المدني، لحماية الفتيات النازحات الضعيفات.

Abstracts

First Theme: Girls in Wars: Multiple Approaches

Amal Grami

«Heiresses of Evil»: The daughters of war in Algeria

The framework of this paper is gender and war studies. Feminist historians and gender experts attempt to reconsider several issues. These include women's relationships to conflicts, wars, and violence, their representations of life and death, their positioning, the various roles they play in wars, in addition to their experience of fear and humiliation, the suffering they go through, as well as the expressions of love, steadfastness, desire to live, and other related issues.

Sociologists, psychoanalysts, historians, and other specialists have contributed to highlighting the participation of women in wars of liberation from colonialism, analyzing their (social, gender and partisan) relationships based on power, and examining a number of other issues related to the constructs of femininity/masculinity in the context of wars and conflicts. Women, girls, and teenage girls have rarely been in the spotlight of such investigations.

Because of this neglect, absence, and marginalization which have created a knowledge-gap, this paper discusses the relationship of Algerian adolescent girls to conflicts, wars and crises. It will highlight two such experiences: The first is the liberation war of 1954-1962 and the second is the «black decade» civil war during the nineties of the last century. This choice is justified because these two historical periods reflect two different visions; in the first experience, suffering and trauma were caused by an outsider (France) and in the second, various kinds of harm on girls and

teenage girls, such as torture, rape or murder were inflicted by indigenous Islamic extremists. The paper uses the testimonies and biographies of a number of Algerian women, as well as documentaries, historical documents, and various other sources in order to portray women's past experiences, and to explain the construction of women's memories, of pain and trauma together with the impact of their relationship to parents and to the state during their experiences in times of war and conflict.

Nahawand El Kaderi Issa

Media representations of underage girls in wars: The chaos of meaning

This article studies media treatment of underage marriage in places of asylum and in war-torn locations. The study follows a systemic and contextual analysis taking into consideration the following: The technological and communicational transformations that pervade the media on the one hand, and the circumstances surrounding the lives of minors who were obliged to move from their home to an environment full of dangers, challenges, injustice, and deprivation, on the other. In order to understand media performance on the professional, ethical, interactional and epistemic levels, we deconstruct the complex relationships between the local media and other active players such as refugees, activists, representatives of associations, international organizations, conflicting parties, governmental authorities of hosting countries, and other media. This uncovers the mutual profit of the media and all the other actors, each according to their respective goal and objective.

This study demonstrates how different media tackled the issue of the marriage of minors in a similar way, providing almost the same content and using similar style of reporting. More specifically, these media repeated what international organizations and foreign media said about the causes of the marriage of minors and its consequences, without revealing the meaning and significance of such a marriage. In many cases, these media used catchy titles that confused causes with results. Their coverage included offensive expressions about the parents, generalized ideas, and reinforced stereotypes. Only a few platforms provided a distinguished treatment of the topic,

highlighting some positive experiences about the marriage of minors. It was obvious that reporters were unable to perform field-reporting for different reasons, including lack of time, money, and other logistical difficulties. Thus, they resorted to synthetic texts that included major contradictions. Their treatment of the topic seemed lost between two perspectives: One that viewed the issue from a gender perspective and placed the entire responsibility of the marriage of minors on culture and discriminatory traditions against girls; and the other viewed the phenomenon as a strategy that helps refugees adapt to their new circumstances.

We concluded that the media not only contributed to the framing of the asylum issue, and in setting its agenda, but also failed to determine its causes. The media treatment represented underage refugee girls as victims subject to different types of violence, abuse, and harassment. It portrayed them as surrendering to their destiny. In doing that, the media - treatment was characterized by exaggeration. In other words, the media followed the lead of organizations in their elitist campaigns, and in their detachment from the particular reality in which they were covering.

This study reflected a chaos of meanings. It also revealed ambiguity in the roles of journalists, activists, researchers, and experts. The media treatment of the marriage of minors among refugees seemed triggered to arouse pity as well as self-condemnation. It inhibited critical thinking, mainly because it ignored any positive experience that may be the key for finding new ways and methods of adaptation that may lead to exploring new elements for constructive work.

Azza Sleiman

Les mineures et le droit positif: des citoyennes occultées dans les périodes de post-conflit

Le contenu des systèmes juridiques et des règles de droit est lié aux circonstances sociales et politiques. L'efficacité de ces règles représente un défi durant les périodes de conflit ou de post-conflit. Elle révèle la marginalisation de certains groupes sociaux, notamment des mineures. La marginalisation de ce groupe social est due à une des deux raisons: soit que le législateur national et international considère qu'il fait partie d'un

groupe social plus large, soit qu'il ne le considère pas encore comme un groupe à part entière ayant besoin d'une protection particulière. Dans les deux cas, le fait de ne pas susciter l'intérêt du législateur témoigne que la question d'une protection spécifique est ajournée, et ce malgré l'identité sociale particulière d'un tel groupe.

Les lois sont le produit des régimes politiques et l'évolution des règles de droit est liée à l'évolution des régimes démocratiques. Dans les régimes politiques traditionnels de l'Etat moderne, les partis politiques représentaient les intérêts sociaux; désormais, ce sont les parties prenantes dont la société civile, qui jouent ce rôle dans le système néolibéral.

Quelles sont les règles qui protègent les jeunes filles dans le droit pénal international et le droit international humanitaire? Comment ce groupe est-il identifié et protégé par la jurisprudence internationale? Quels sont les nouveaux aspects que prend la violation des droits des fillettes et des jeunes filles durant les crises économiques et quelles sont les modalités de protection de leurs droits?

Hind El-Soufi

Variation between modernist and post-modernist artistic genres used in the portrayal of girls during Arab wars

The research paper is based on a multi-level reading of the images of girls in times of crisis and war, by studying Arab art (i.e modern and postmodern art presented by Arab artists living inside or outside their countries). It was not an easy task to gather these images, because women, and not girls, are usually the most represented in times of conflict. We located with difficulty the images of girls in artistic works, where girls were portrayed alongside boys, or as part of different group of women in various Arab societies.

However, the case becomes different when we look at the new roles for girls as represented in the Israeli aggression on Gaza in May 2021, where teenage girls undertook different significant aesthetic and militant initiatives. A long list of interpretable images enabled us to answer the research question while taking into consideration the contemporary role of art as a tool for change.

Three major developments led to these phenomena. The first is historical. The second is one aspect of Arab modern art in which martyrs became the focus, and where girls played a role in these representations of resistance. The third was that girls moved to the forefront of agentive national activities that affected international public opinion.

The methodology used in the paper relied on theories of semiological analysis, in addition to the social approach to art in Bourdieu's theory of the «artistic field». The artworks used were mainly from Egypt, Iraq, Syria, Lebanon, and particularly Palestine (as Palestine is almost in a continuous state of war). The theory of Thomas Kuhn also helped us to explain the displacement from an established model to a new one.

Remi Abdel Rassoul

L'image des guerrières dans les dessins animés pour enfants

Cette étude met l'accent sur l'importance que prennent, dans l'imaginaire des enfants, les dessins animés dans les films de long métrage et les séries télévisées. Elle considère en particulier de l'impact de l'image des héros et héroïnes sur les spectateurs arabes en général et les spectatrices plus précisément, en temps de crise et de guerre. L'image animée, par sa composition, sa saturation en couleurs et ses effets sonores, suscite en celles-ci des émotions et des sentiments positifs, les allègent du poids de ce qu'elles ont vécu, leur permet de surmonter leur sentiment d'impuissance et d'acquérir de la confiance en soi. Elle leur inspire rêves et ambitions, et leur insuffle de l'espoir.

L'étude met en lumière la domination des productions étrangères, traduites et doublées pour les chaînes arabes, qui érigent les héroïnes étrangères en modèles d'identification pour les jeunes filles arabes. Elle souligne le besoin d'une production arabe qui promeut des modèles pris dans la culture locale et régionale, inspirés par l'histoire des combattantes arabes qui ont lutté pour la défense de justice.

Second Theme: Memory of the Wounded Childhood

Rajaa Makke

**«Girls of Today-Women of Tomorrow», between trauma and narcissism:
Wondering, bewilderment, and exclusion**

This study depicts the dynamic evolution of transmitted traumas from parents who have witnessed wars to their children in societies where ancestral/trans-generational stories affect attitudes to war-engendered conflicts.

The two categories of youngsters in such societies that the study targets are:

- Child Soldiers
- Children who, in their awareness of their history, oscillate between copying their heritage and their own creativity

The theoretical framework of this interdisciplinary research is based on the works of O. Douville and F. Fanon in the field of Trans-generational Anthropologic Psychoanalysis.

This study highlights the importance of psychology in military institutions prone to systematic disobedience caused by identification with the aggressor, as a result of a vicious superego encountering the ideologies of an imagined army.

Eight young girls in their latent phase (age 3 to 11) were followed in therapy sessions. This age range was chosen because it is characterized by the deepening of the Oedipus complex, and because it precedes the teenage phase, when identificational alienation plays an important role in the emotional maturity of teenagers. Clinical observation and active listening were implemented to unveil: emotional/war traumas, self-images shaped by feminine identification with mother figures, disorientation, feelings of persecution and of exclusion.

Noha Darwish & Nahla El-Tamimi

Body-image in cities of conflict: How girls perceive their femininity

Several cities in Iraq have been subjected to various types of terrorism, extremism, violence and political strife. Females of all ages, especially adolescent girls between the ages of 11 and 18 years, were among the most

victimized. This leaves lasting effects on their future adult body images. This effect may get aggravated by the damage done by the way the woman closest to each girl socially and psychologically, namely her mother, had treated her femininity.

This research investigates the positive and negative body image of teenage girls. How do girls face the story of their adulthood in a city full of kidnappings, captivity, and rape, and what are the psychological impacts on them? Concurrently, how do mothers treat their daughters in the cities of Mosul, Samarra, Diyala, Kirkuk and Anbar that were riddled by violence due to chaos, extremism, and terrorism? To achieve the objectives of this research, a codified questionnaire was prepared with in-depth questions for the girls, in the hope of reaching an understanding of their body images. The outcome provided a launching pad for awareness about reproductive and sexual health as well as mental health in general for this segment of society that is rarely covered by research work. The study includes fieldwork and in-depth analysis.

Taghrid Al-Soumayri

Adolescent refugee girls facing Israeli warfare on the Gaza Strip, in May 2021

This paper investigates the challenges faced by Palestinian young women in the Gaza Strip and other places of displacement during the war launched on the Strip by the Israeli Occupation Forces in May 2021. It highlights how these challenges are related to gender-based discrimination and to the social meaning given to places of displacement. The study explores the differences in the experience of displaced adolescent girls between UNRWA schools, host families, and rented apartments. It investigates the impacted gender roles, the expressing and processing of feelings, personal hygiene and privacy, and relationship to parents, other family members, and the whole extended family.

To recognize and identify all these challenges, 3 focus group discussions were organized in which 25 girls between the ages of 11 and 18 participated. The groups met at an ARA «access restricted areas» in the Gaza Strip. Analysis of the three discussion panels revealed not only that Palestinian

adolescent girls were put at risk but also that a system of vulnerability supported by five dimensions of cultural implications was constructed around them.

Saada Allaw

De la vie d'adolescentes, bouleversée par la guerre et transformée par leur déplacement forcé et leur situation de réfugiées

On peut penser que les recherches qui aboutissent à des résultats scientifiques, bien qu'importantes, ne peuvent dévoiler l'humain derrière l'échantillon. En effet, leur préoccupation est sociétale, l'objectif de la recherche et des résultats étant non seulement d'observer et de documenter les changements, mais surtout de contribuer à définir les politiques en faveur des catégories sociales concernées.

C'est pourquoi, ce que nous lisons généralement concernant les caractéristiques et les évolutions sociales advenues dans la vie des femmes, adolescentes et adultes, diffère des détails de leur vie et de leur subjectivité, qui nous semblent plus importants.

Cet article veut permettre aux femmes de se confier, d'exprimer librement leur condition d'adolescentes, de parler d'elles-mêmes et du dur chemin parcouru, survivantes de guerres qui n'ont épargné ni les hommes, ni les femmes, ni les enfants ni les plus âgés. Elles dévoilent l'impact du vécu au moment où il est survenu, et ce qui en a suivi, décrivant la réaction de leur famille et son effet sur leur situation de même que sur la communauté réfugiée, ses habitudes et ses traditions.

L'article dépeint le chemin pour la survie, leurs émotions et leurs interactions avec les événements passés et présents. Certaines rejettent le qualificatif de survivantes, ou en ironisent, vu leur quotidien amer, leur situation actuelle en tant que réfugiées n'étant pas meilleure qu'elle ne l'était durant la guerre, excepté le bruit des balles et ce qu'il signifiait de violence et de tueries.

Sans prétendre à des généralisations, l'histoire de chaque adolescente réfugiée décrit un cheminement particulier qui nous en dit beaucoup. Il indique que rien de beau ou de bon ne peut résulter de la guerre et que la vie doit continuer.

Cynthia Kreichati

Wound Stories from Palestinian Oral History Archive

This essay builds on testimonies from the Palestinian Oral History Archive (POHA) in which two Palestinian women, Umm Faris and Fatimah Sirhan recount how they sustained traumatic injuries during their youth. Umm Faris developed life-threatening complications after undergoing a cesarean section at al-Shifa hospital in Gaza in 1981 during which doctors forgot gauze inside her abdomen. Sirhan saw her legs severely lacerated when Zionist aircrafts, flying over her village of al-Jish in Galilee, dropped bombs on the fig tree under which several families from al-Jish, including her own, had found refuge. The story of when and how these women were injured features prominently in their accounts: they showcase bodily scars as proof of having been maimed and having survived obliteration. Focusing on the narrative, embodied and imagistic representations of wounds in these accounts, this paper engages the fraught political and ethical dimensions of injuries - where wounds become enmeshed in a politics of truthful claim-making and humanitarian logics. Moving beyond this framework, this paper explores how the unraveling of personal and collective wound-histories reflects the inadequacy of pain-sharing in a context where ongoing histories of violence and displacement continue to shape everyday life, and where listening to the archive becomes akin to an act of witnessing on the margins of language.

Third Theme: Of Wars and Their Repercussions on Girls

Zeina Allouch

Child-mothers and illegal adoptions: The silenced voices of continuous wars

Historically, wars were always accompanied by immense violations of the rights of children and women, who are purported to be the most impacted by invasions. Many studies and articles highlight the effects of wars on these two vulnerable groups. However, the phenomenon of child trafficking for illegal international adoption has always been undercover

and mostly hushed. Despite the absence of accurate global statistics on the number of children who fall victim to this practice, reports indicate that around one million children travel the world within the framework of illegal adoption every year. This research aims at revisiting inter-country adoption from a critical gender perspective, highlighting the silenced voices of birth mothers who are forced into unplanned pregnancies at a very young age.

Suaad Elabani

The Impact of War and Armed Conflict During 2019 on the Educational System for Girls in Libya

This study investigates the impact of war and armed conflict on girls during the 2019 armed conflict in Tripoli, Libya. It is mainly focused on the educational aspects after the first year of war. It seeks to understand the effects of displacement and the strategies with which girls try to cope. The study follows the qualitative approach and uses five focus groups. The total number of participants in interviews was 28 girls, aged between 17 and 20 years. The focus groups were conducted in December 2020 and January 2021. We also conducted a semi-structured interview with a 14-year-old girl.

The study found that war made a significant impact on the educational accomplishments of all girls. The girls intimated that they had absolutely no schooling during the war. The war also negatively impacted their motivation to learn. Many girls also talked about «fear and anxiety» as a result of the widespread violence, which caused them to become inactive and frustrated, in addition to having other negative effects on their psychological state.

Yet, despite the effects of displacement on the educational system and all the suffering that came with it, the vast majority of the girls who participated in this study expressed their confidence that the future will be better and that they are capable of overcoming the crisis.

Fadma Ouiaou

**Les jeunes réfugiées africaines au Maroc...
La réalité du déplacement et les défis de l'intégration**

La féminisation du phénomène de déplacement et de l'immigration devient de plus en plus visible au Maroc. Ce pays était pour les jeunes

filles et les femmes venues de l'Afrique sub-saharienne un pays de transit vers l'Europe, et est devenu une destination finale après les accords entre le Maroc et U.E. Le problème de ces femmes s'est imposé du fait de la nouvelle politique du contrôle des frontières.

Des études et des enquêtes indiquent que l'inégalité entre les genres dont sont victimes les femmes engendre des situations de souffrance qui leur sont spécifiques, et qui viennent s'ajouter aux difficultés qu'affrontent les réfugiés en général. Cependant on a pu constater un rapport de force en faveur de ces femmes, dû à leur capacité à survivre à leurs souffrances, mais aussi à leur détermination à surmonter les crises et les obstacles, à transformer leur vulnérabilité en un défi et à passer du statut de victime à celui de leader.

Notre étude s'appuie sur des données statistiques et des faits concernant la situation des jeunes filles et des femmes réfugiées au Maroc, avant et après l'émergence de l'épidémie Covid19, mais aussi sur les analyses sociologiques basées sur l'approche de genre du phénomène de déplacement et de l'immigration sub-saharienne.

Beya Gazi

Abus sexuels des fillettes et des adolescentes après la révolution en Tunisie

Durant la dernière décennie, la Tunisie a connu un accroissement des cas d'agressions sexuelles d'enfants et surtout de fillettes et d'adolescentes qui ont été signalées. Leur nombre semble avoir décuplé malgré les réformes législatives pour la protection des femmes et des enfants contre toute forme de violence. Cette hausse reflète-t-elle réellement une augmentation du nombre des victimes? Ou est-elle la conséquence d'une prise de conscience sociale de l'importance de porter plainte, brisant le silence dans une société patriarcale qui cherche à nier ce phénomène? Quelles sont les causes de cette hausse? Y-a-t-il un effet des circonstances post révolutionnaires, politiques, économiques, sociales et idéologiques sur l'augmentation des violences sexuelles faites aux fillettes et jeunes filles?

L'analyse documentaire et les témoignages de professionnels en charge des victimes nous portent à conclure que la hausse du nombre d'agressions

sexuelles recensées révèle un réel accroissement du nombre de victimes. Cette augmentation est en relation avec le contexte post révolutionnaire, l'instabilité politique et économique et les changements idéologiques sociétaux qui induisent une normalisation de la violence, surtout virtuelle. L'augmentation de ces agressions est à imputer au peu d'attention accordée par l'Etat à la divergence des références éthiques, à la vulnérabilité psychosociale des individus, aux représentations sociales de genre et au modèle patriarcal prévalent pour ce qui concerne les rôles et statuts de la femme et de l'homme.

Salma Abdallah

Displaced girls in times of war: Vulnerability and mitigation of conflict-related sexual violence in Darfur, Sudan

Since 2003, the Darfur region of western Sudan has witnessed a major armed conflict that had catastrophic effects on the country, ranging from political instability, economic underdevelopment, and population displacement. Being separated from their families while escaping from the horrors of war, children and girls are among the most affected groups. As is often described in the literature on «displacement crisis», internal displacement from conflict areas to displacement camps in Darfur represents a challenge that haunts successive governments. At present, addressing the situation of the displaced is one of the topmost priorities for political transition in Sudan.

This paper examines the impact of displacement caused by the Darfur conflict on the lives of Sudanese women and girls, with a focus on their potential vulnerability to conflict-related sexual acts of violence. The paper concludes that the challenges encountered by displaced children and girls, however, cannot be separated from other existing issues that women, girls, and children generally encounter in Sudan. Their suffering is exacerbated by the prevalence of conflict-related sexual acts of violence. This explains the pressing need for all relevant governmental, civil society, national, and international organizations to increase their efforts to protect the vulnerable displaced girls from conflict-related sexual violence.

سِیر المُساهِمات

أليس يوسف

مُترجمة وباحثة فلسطينية مهتمة بالأدب والشعر والنقد، نشرت قصصها القصيرة وشعرها وترجماتها في عددٍ من المجلات المحلية والدولية. تحمل أليس درجة الماجستير في الكتابة الإبداعية من جامعة وارويك (بريطانيا)، وهي زميلة برنامج الكتابة الدولي في جامعة أيوا (الولايات المتحدة) وتعمل حالياً على استكمال أول ديوان شعري خاص بها.

أمال حبيب

دكتوراه في علم المعلومات والاتصالات في التنمية من جامعة باريس الثامنة. تركّزت أعمالها وخبرتها على الصعيد الوطني والدولي في مجال علم المعلومات والمؤشرات في العلم والتكنولوجيا وشبكات المعلومات العلمية الوطنية والدولية المتصلة بالأبحاث العلمية والتنمية بما فيها التنمية البشرية والاجتماعية، بالإضافة إلى إدارة الأبحاث العلمية والتعليم الجامعي.

تبوأت مسؤوليات عدة أهمها «مستشارة علمية» في المجلس الوطني للبحوث العلمية، أستاذة مشاركة في الجامعة اللبنانية كلية الإعلام، «منسقة» برنامج التعاون البحثي العلمي اللبناني - السوري بين المجلس ووزارة التعليم العالي في سوريا، مؤسسة ومديرة مركز التوثيق والمعلومات في المجلس، ممثلة وطنية و«نقطة اتصال مشاركة» في شبكات المعلومات العلمية المتخصصة التابعة لمنظمات الأمم المتحدة، «خبيرة استشارية» مع منظمة التغذية والزراعة (الفاو) في تأسيس مراكز معلومات ونظم معلومات وطنية في مجال الزراعة والتغذية لدى وزارتي الزراعة في لبنان وسوريا.

لها عدة مقالات وكتب ومراجع، عضوة في تجّمع الباحثات اللبنانيات، وفي اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو (سابقاً). كما شاركت سابقاً في هيئة تحرير المجلة العلمية اللبنانية التابعة للمجلس.

أمال قرامي

أستاذة تعليم عالٍ في قسم العربيّة، كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة، الجمهوريّة التونسيّة. مختصّة في دراسات الجندر (النّوع الاجتماعيّ) والفكر الإسلاميّ والإعلام، والعنف والتطرّف والإرهاب. رئيسة ماجستير النوع الاجتماعيّ: المُجتمع والثقافة.

عضوة في:

- المنظّمة النسائيّة العالميّة للسلام والحرية
- Women's Alliance for Security Leadership (WASL)
- المجلس الاستشاريّ لجامعة Warwick بريطانيا للدراسات الأدبيّة والثقافيّة
- التحالف النسائيّ العالميّ لمُناهضة العنف ضدّ الفتيات والنساء: «لكلّ امرأة وأينما كانت»
- فريق النضال الحقوقيّ يلتقي بالأكاديميا Activism Meets Academia.
- من مؤلّفاتهما: الاختلاف في الثقافة العربيّة الإسلاميّة: دراسة جندريّة (بيروت، دار المدار الإسلاميّ، 2007)؛ النساء والإرهاب: دراسة جندرية، بمساهمة الصحفيّة منية العرفاوي (مسكلياني للنشر، تونس، 2017). كما ترجمت الحركات النسائيّة في تونس، تأليف إلهام المرزوقي (المركز الوطنيّ للترجمة تونس، 2010).

إيمان قصوص

دكتوراه في التربية - جامعة غلاسكو، المملكة المتّحدة 2019، يشمل مجال بحثها التعليم الشامل، والتوحد، ودراسات الإعاقة. حاصلة على شهادة ماجستير في اللّغة والاتّصال من جامعة عبد الحميد بن باديس - الجزائر وعلى شهادة بكالوريوس في اللّغة الإنكليزيّة من الجامعة نفسها.

شاركت في مؤتمرات عدّة منها: مؤتمر «دور الجامعات في مواجهة التحديات المجتمعية وتعزيز الديمقراطية: الشمول والهجرة والتعليم من أجل المواطنة»، جامعة أكوريري، أيسلندا، مارس/آذار 2021. وكذلك في «المؤتمر الأوروبي للبحوث التربوية (ECER)، جنيف - سويسرا، أغسطس/آب 2021.

بيا قزّي

- باحثة في مجال علوم التربية وخبرة تربويّة ونائبة مدير في الإدارة العامّة للطفولة. أخصائيّة نفسانيّة أولى، ووسيطّة عائليّة.
- حاصلة على ماجستير في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة شعبة علوم التربية - مجال تدريب المدرّبين في الوسط التعليميّ والمؤسّسات والخدمات من جامعة كلارمون أوفارنيو في فرنسا، وعلى ماجستير البحث في علوم التربية من كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في تونس بالشراكة مع جامعة نانت الفرنسيّة.
- مدربة في مجال وقاية الأطفال والمراهقين وحمايتهم من الاعتداءات الجنسيّة. نائبة مدير التفقّد والتجديد البيداغوجي في وزارة الأسرة والمرأة والطفولة وكبار السنّ في تونس. وهي عضوة في العديد من الجمعيات المهتمة بالطفولة والإنتاجات البيداغوجيّة الموجهة للأطفال.

بيسان طي

صحافيّة ومعدّة أفلام وثائقيّة. من مؤسّسي موقع «أوان». عملت وكتبت في صحف لبنانيّة وعربيّة هي: «النهار» و«السفير» و«الحياة» و«الأخبار». أنتجت أفلاماً وثائقيّة عرض بعضها على قنوات عالميّة مثل «سي. إن. إن» و«أرتي» و«الجزيرة الوثائقيّة». تحمل إجازة في الإعلام من الجامعة اللبنانيّة ودكتوراه من «جامعة باريس 8» في الدراسات المسرحيّة.

بيلا عون

- حاصلة على الدكتوراه في علم النفس المرضي والعيادي من فرنسا. رئيسة قسم علم النفس وأستاذة مساعدة في الجامعة اللبنانية. مسؤولة عن تدريب طلاب علم النفس العيادي وتوجيههم. تقوم بمهمة نفسانية مدرسية، وهي مربية مُختصة في مؤسسات تُعنى بذوي الإعاقات الذهنية وذوي الصعوبات.
- مُحاضرة في مدرسة التحليل النفسي للحقل اللاكاني في فرنسا ولبنان، ولديها العديد من المهمات الأخرى، فضلاً عن عددٍ من المنشورات حول الأطفال بعامة، ولاسيما الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة والمتوحدين.

تانيا باقاليان صفّي الدين

فنانة تشكيلية لبنانية من أصل أرمني معروفة باسم «تانياك». وُلدت في بيروت في العام 1954، ودرست الأدب الإسباني في مدريد وبرشلونة والعلاقات الدولية في جامعة جورجنتاون في واشنطن. عاشت فترة من حياتها في باريس حيث درست ودرّست الفن التشكيلي في استديوهاتٍ مختلفة. لديها لوحات ومنحوتات وتجهيزات متنوعة الوسائط، تستخلف فيها الألوان والمواد الطبيعية لعرض موضوعات تاريخية. شكّلت قضايا الحرب واللجوء موضوعاً محورياً في إنتاجها الفني، ولاسيما الحرب الأهلية في لبنان، وشاركت في العديد من المعارض في لبنان والخارج، منها معرض عن الحرب وآخر عن اللاجئين، وتمّ اختيار لوحاتها عن الحرب من ضمن مقتنيات متحف بومبيدو في فرنسا.

تغريد السميري

باحثة في مجال الإعلام ودراسات المرأة، وطالبة دكتوراه في «علوم الإعلام والاتصال» - الجامعة اللبنانية. تعمل حالياً كمنسقة لبرامج التوعية الموجهة للنساء في Muslim Resource Centre For Social Support and Integration أونتاريو - كندا.

عملتُ بصفة مساعدة باحثة في عددٍ من بحوث الإعلام ودراسات المرأة، كان آخرها دراسة «اللاجئات السوريات إلى لبنان: تحدّيات الأمومة» الصادرة في العام 2019. عملتُ ما بين عاميّ 2010 و2013 كمُنتجة برامج إخبارية في فضائيّة «فلسطين اليوم»، وكصحفية مستقلة في عددٍ من الصحف اللبنانيّة منذ العام 2005 حتّى العام 2009، وعملتُ قبل ذلك في القسم الإعلاميّ في مؤسّسة الفكر العربيّ في بيروت.

رجاء مكي

- حاصلة على دكتوراه حلقة ثالثة في علم النَّفس الاجتماعيّ من جامعة باريس السابعة، وعلى دكتوراه في علم النَّفس الاجتماعيّ - الجامعة اللبنانيّة.
- أستاذة في ملاك الجامعة اللبنانيّة، معهد العلوم الاجتماعيّة اختصاص علم النَّفس الاجتماعيّ وعلم النَّفس العياديّ، ومُنسّقة مختبر علم النَّفس الاجتماعيّ في الجامعة نفسها، ومحلّلة نفسيّة عضو في Espace Analytique.
- حائزة على إجازة مزاولة مهنة النفسانيّ العياديّ - وزارة الصّحة العامّة.
- نقيبة المُعالجين والمُحلّلين النفسانيّين في لبنان لدورتين: في 2014، ومنذ 2018 حتّى الآن.
- لديها العديد من المؤلّفات والمقالات العلميّة:
 - الجنسانيّة هويّة مُنشّطة ما بين التّكامل والتنظيم - مجلّة العلوم الاجتماعيّة.
 - الآثار النفسيّة لجائحة فيروس كورونا المستجدّ على السكّان في الدول العربيّة
 - الشّر الذي نشرَ الرعب - جامعة الدول العربيّة
 - التحليل النفسيّ في مُواجهة الأزمة في لبنان: بين الاستيلاء غير المشروع والهدر.

رفيف رضا صيداوي

حاصلة على دكتوراه في علم الاجتماع، كاتبة ومتخصصة في النقد الروائي. عملت كباحثة اجتماعية مستقلة، ولها عددٌ من الأبحاث والدراسات الخاصة والجماعية. شمل حقل دراساتها الإشكاليات والقضايا المرتبطة بالتنمية، مثل حاجات النساء في المناطق المحرومة من لبنان، أوضاع الأطفال في مؤسسات الرعاية الاجتماعية وأوضاع الفئات السكانية الأكثر تهميشاً في لبنان.

من مؤلفاتها: العرب: جدلية الحداثة.. الدولة والمجتمع؛ الرواية العربية بين الواقع والتخييل؛ النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية: 1975 - 1995؛ الكاتبة وخطاب الذات؛ حوار مع روائيات عربيات؛ جوازي 2001: دراسة حول العنف ضد المرأة في العائلة.

ريما زهير الكردي

- كاتبة وباحثة وناقدة. لديها عدد من الأبحاث المنشورة في التربية والأدب العربي. شاركت في عددٍ من المؤتمرات المتخصصة بالتربية وبأدب الطفل، وقدمت عشرات الورشات والمحاضرات لآلاف المهتمين بأدب الطفل والممارسات الفضلى في تعلّم وتعليم اللغة العربية في معظم البلاد العربية.
- مؤسّسة منصّة برنامج «جنى القراءة» الفائز بعدد من الجوائز العربية والإقليمية والعالمية. ومدرّبة قرائية مُعتمدة أشرفت وما زالت تشرف على تقديم وإعداد ورشات كتابة إبداعية، كما أنّها مُحرّرة ومستشارة أدبية لعددٍ من دور النشر العربية، وعملت على تحرير مئات الكتب لما يزيد على عقد من الزمن.
- مستشارة تربوية ومصمّمة مناهج، إذ أسهمت في وضع عددٍ من مصادر تعليم اللغة العربية في عددٍ من الدول العربية. لديها ما يزيد على 13 قصّة منشورة ورقياً للأطفال والفتيان، وقد وصلت قصّتها «نخيل أبي» إلى القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد في دورتها الرابعة عشرة 2019 - 2020. ولدى الكردي أيضاً عشرات

الكتب الإلكترونية المنشورة على «منصة جنى القراءة» وفي عددٍ من مجلات الأطفال في العالم العربي.

ريمي عبد الرسول

اختصاصية في التصميم الغرافيكي والتواصل البصري في مركز مصادر المعلومات في الجامعة اللبنانية - الإدارة المركزية. يصبّ مجالها البحثي في دراسة تأثير الصورة وقوتها في فنون التواصل البصري والميديا (سينما، تلفزيون، ألعاب فيديو، مجلات، صحف).

هي حالياً طالبة دكتوراه في الفنّ وعلوم الفنّ في المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في الجامعة اللبنانية. حائزة على ماستر بحثي في الفنّ وعلوم الفنّ في العام 2019 من كلية الفنون والعمارة في الجامعة اللبنانية، وعلى ماستر مهني في تصميم الألعاب وتطويرها من كلية العلوم في الجامعة اللبنانية في العام 2017، وعلى ماستر في الفنون الإعلانية والتواصل البصري من كلية الفنون والعمارة في الجامعة اللبنانية في العام 2012، وكان مشروعها العملي النهائي عبارة عن فيلم كرتوني متحرك قصير (بالأبعاد الثنائية). وهي عضوة في تجمع الباحثات اللبنانيات.

زكية قرنفل

- ناشطة في مجالي العمل الإنساني والإعلامي في لبنان وسوريا. عملت في عدد من المؤسسات الإنسانية ووسائل الإعلام المحلية لتغطية قضايا اجتماعية ميدانية، أبرزها الحرب في سوريا وتأثير الفئات الضعيفة كالنساء والأطفال.
- شاركت في العديد من الدراسات والأبحاث المسحية والتقويمية ضمن إطار منظمات المجتمع المدني. تعمل حالياً كمنسقة لقسم الإعلام في مؤسسة عامل الدولية.

- حاصلة على إجازتين في الفلسفة والتربية، وهي حالياً طالبة ماجستير علوم تربوية في جامعة القديس يوسف.

زينب خليل

أستاذة مساعدة في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية. حاصلة على ماجستير ودكتوراه في علوم الإعلام والاتصال من جامعة غرنوبل - فرنسا، وعلى دبلوم دراسات عليا متخصصة في الصحافة من جامعتي باريس الثانية والجامعة اللبنانية في العام 2001.

عملت ما بين العامين 2001 و2012 كصحافية ومُراسلة إذاعية في بيروت وكمراسلة تلفزيونية في باريس وبيروت. أشرفت على إعداد برامج تلفزيونية وإذاعية متنوعة وعلى إنتاجها. كما نشرت العديد من التحقيقات والمقالات في عدد من الصحف اللبنانية.

حالياً، وفي إطار العمل البحثي، تعمل على إعداد دراسات تتناول الإعلام الإلكتروني، الإنترنت السياسي، الفضاء العام الإلكتروني وشبكات التواصل الاجتماعي.

زينة إسماعيل علوش

- باحثة وخبيرة دولية في حماية الطفل، بخاصة في مجال الرعاية البديلة والنظام الرعائي.

• متخصصة في مجال التاريخ الشفهي عبر فنون العرض وطرق بحث الشعب الأصيل، ومهتمة بالتاريخ الشفهي للمُتبنين/ات عبر الدول والأعراق - جامعة كونكورديا، مونتريال، كندا.

سعاد العباني

- حاصلة على دكتوراه من جامعة مانشستر متروبوليتان (بريطانيا). متخصصة في النظريات الاجتماعية، ومهتمة بقضايا النوع الاجتماعي والتنمية.

- عضوة اللجنة الدائمة للتربية (اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم - ليبيا) 2020/2016، ولجنة صياغة تقرير حقوق الطفل في ليبيا 2019، وعضوة في فريق إعداد وصياغة تقرير التنمية البشرية الخامس: تحديات التنمية في ليبيا 2018، ورئيسة فريق المسار الاجتماعي (المنطقة الغربية) لمعالجة الأزمة الليبية في مسارها الاجتماعي، مجلس التخطيط الوطني 2020.
- لها العديد من الأبحاث حول الشباب والمرأة والتنمية، منها:
 - التمييز النوعي وإقصاء الشابات الليبيات من المشاركة في التنمية المجتمعية، بالتعاون مع مجلس التخطيط/ليبيا وصندوق السكان، 2017
 - تقرير حالة الشباب في ليبيا، 2017
 - العنف ضد المرأة الليبية: آليات الوقاية والمقاومة - نحو تعزيز الدور القانوني وتنمية الوعي المجتمعي - ورقة قدمت في المؤتمر الثاني للمرأة الليبية والسلام، UNDP تونس 2017.

سعدى علوه

- باحثة مختصة في قضايا حقوق الإنسان، رئيسة قسم الصحافة في المفكرة القانونية.
- أستاذة في كلية الإعلام الجامعة اللبنانية وفي كلية الإعلام في جامعة المعارف في لبنان.
- مدربة مع منظمات محلية ودولية ومؤسسات إعلامية على صحافة حقوق الإنسان والصحافة الاستقصائية والتحقيقات والعنف القائم على النوع الاجتماعي وحقوق الفئات المهمشة والعاملات في المنازل.
- أنجزت ملفات صدرت في أعداد مطبوعة مستقلة منها «الكورة في فم التين»، «مرج بسري في قلب الانتفاضة»، فضلاً عن استقصاء بعنوان: «ملاحم الإتجار بالأجثات» بالتعاون مع مكتب حقوق الإنسان الإقليمي في الأمم المتحدة OHCHR.

أنجزت دراسات عديدة منها: «أحلام للبيع» لصالح منظّمة «كفى» والمفكّرة القانونيّة؛ «كيفيّة تعاطي الإعلام مع المشاركة الاقتصادية للمرأة» مع CRTD؛ «المُشاركة السياسيّة للمرأة» مع التّجُمع النسائيّ الديمقراطيّ. كما أصدرت كتاباً عن نهر اللّيطاني وحوضه مع ناسه. عملت كصحفيّة في جريدة السفير اللّبنانيّة من العام 1994 ولغاية إقفالها في العام 2017.

سلمى عبد الله

حاصلة على دكتوراه في الجغرافيا السياسيّة من جامعة بايروت (ألمانيا)، وعلى ماجستير في العلوم السياسيّة من جامعة الخرطوم (السودان). وهي حالياً زميلة أبحاث ما بعد الدكتوراه في قسم دراسات البيئة والتنمية الدوليّة (Noragric) في الجامعة النرويجيّة لعلوم الحياة (NMBU) وتعمل على مشروع يدرس اقتصاد النشاط الدّينيّ في إفريقيا.

قبل انضمامها إلى NMBU، فازت بمنحة ما بعد الدكتوراه من مشروعات الأبحاث التعاونيّة لمؤسّسة فولكس فاجن في العلوم الاجتماعيّة في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. عملت أيضاً كباحثة في قسم جغرافيا التنمية، جامعة بون، ألمانيا. شاركت في العديد من المشروعات البحثيّة الدوليّة التي تتناول العلاقة بين الدّين والسياسة، الدراسات الحضريّة، والعلاقات بين الدولة والمُجتمع، وقضايا النازحين.

عملت كمُستشارة في مجال السياسات في معهد الحياة والسلام في القرن الأفريقيّ، ووزارة الخارجيّة الهولنديّة، وإدارة أبحاث السلام والصراع، وجامعة أوبسالا، و Bertelsmann Stiftung في ألمانيا. تشارك حالياً في مشاريع بحثيّة تركّز على العنف السياسيّ واستراتيجيّات التحوّل الإنمائيّ.

سينتيا قريشاتي

طالبة دكتوراه في الأتروبولوجيا في جامعة ماكغيل في كندا. متخصصة بالصيدليّة في لبنان، وهي تحمل الماجستير في السوسيولوجيا من الجامعة الأميركيّة في بيروت

وعملت في مختلف المجالات المرتبطة بالصحة. يتركز عملها حالياً على دراسة العلاقات بين الصحة والسياسة والوثائق والبيئة. وهي في صدد استكمال أطروحة دكتوراه حول «إثنوغرافيا نهر اللّيطاني - المصدر المائيّ الأهمّ في لبنان - وسكّانه». وهي عضو في لجنة تحرير مجلّة «بدايات» الفصلية، التي تصدر باللّغة العربيّة من بيروت.

عزّة الحاجّ سليمان

حاصلة على الدكتوراه من جامعة باريس الثانية في القانون الخاصّ، وعلى ماجستير في قانون الأعمال من الجامعة اللبنانيّة، وبصدد تحضير الأهلّة على الإشراف على الأبحاث في جامعة غرونوبل ألب تحت عنوان «الإطار القانوني للمسؤوليّة الاجتماعيّة في القانون اللبنانيّ».

هي أستاذة مساعدة في كليّة الحقوق والعلوم السياسيّة في الجامعة اللبنانيّة. درّست العديد من الموادّ المتعلّقة بالقانون المدنيّ والتجاريّ وحقوق الإنسان. تركز اهتماماتها البحثيّة على المسؤوليّة الاجتماعيّة والحوكمة والمصادر الجديدة للقاعدة القانونيّة وثقافة القانون.

نشرت العديد من الأبحاث والمقالات حول هذه الموضوعات. وهي عضوة في تجمّع الباحثات اللبنانيّات منذ العام 2011 والأمانة العامّة للتجمّع سابقاً، وعضوة في مركز CEDREF للدراسات الجندريّة في جامعة باريس منذ العام 2018.

فادية حطيّط

باحثة وأستاذة في الجامعة اللبنانيّة، تحمل شهادة دكتوراه في علم النفس من فرنسا جامعة السوربون، باريس الخامسة. لديها العديد من الدراسات والأبحاث التربويّة والاجتماعيّة والنفسية حول الأطفال والأسرة والمرأة. من كتبها:

2001 - أدب الأطفال في لبنان - دراسات؛ بيروت، دار الفكر اللبنانيّ

- 2006 - اللعب في مرحلة الطفولة المبكرة، بيروت، الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية
- 2012 - تجربة ريجيو إميليا في الطفولة المبكرة، بيروت، دار النهضة
- 2018 - الطفولة والسياسات الوطنية في لبنان، تجمّع الباحثات اللبنانيات
- 2019 - اللاجئات السوريات إلى لبنان: تحدّيات الأمومة (مع نهوند القادري)
- 2021 - اللعب والتكيف النفسي والاجتماعي - حالة الأطفال اللاجئين السوريين في لبنان، الجمعية الكويتية لتقدّم الطفولة، الكويت
- ولها قصّتان منشورتان للأطفال هما «حلمي» و«صبي كبير».

فاطمة علّوش

ابنة شهيد جزائريّ. لم تكمل تعليمها ولكنها انضمت في وقتٍ لاحقٍ من حياتها إلى مدرسة محو الأمية وبدأت أيضًا في تعلّم القرآن.

فاطمة واياو

- كاتبة مغربية مُقيمة في إدنبرة - إسكتلندا، حاصلة على إجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة عبد الملك السعدي في المغرب، وعلى ماجستير في التنمية والتعاون الدولي من الجامعة الحرة في بروكسل، وهي تُعدّ رسالة دكتوراه في جامعة إدنبرة حول حركة التحرّر النسائية العربية من خلال السرد النسائي العربيّ.
- خبيرة في القضايا النسائية وقضايا التنمية والتعاون الدوليّ. اشتغلت مع العديد من المنظّمات الدوليّة مثل اوكسفام، يونيسف، غوث الأطفال، برنامج الأمم المتّحدة للتغذية، الحقوق الشاملة (Global Rights)، وغيرها. وهي تعمل حاليًا كمتطوعة مع منظمة Open arm في إدنبرة، ومدرسة اللغة العربيّة.
- صحافيّة وكاتبة عملت في مؤسّسة الشرق الأوسط في الرباط - المغرب، وفي صحف مغربيّة، وتناولت موضوعات ثقافيّة، ونقدية، ونسائية، واجتماعية عدّة.

لميا مغنية

- باحثة زميلة في الأنثروبولوجيا الطبية وعاملة في مجال الصحة النفسية في قسم الدراسات الإنكليزية والألمانية والرومانسية في جامعة كوبنهاغن، الدانمارك.
- زميلة سابقة في برنامج الشرق الأوسط في أوروبا، أوروبا في الشرق الأوسط (EUME) في برلين، ولدى المجلس العربي للعلوم الاجتماعية في بيروت.
- تتمحور أبحاثها حول التاريخ الثقافي والاجتماعي للطب النفسي وعلاقته بتشكلات المرض النفسي، والفرد والمجتمع في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.
- في مشروع بحثها الحالي، تتعقب السلطة الثقافية للطب النفسي الحديث في لبنان، من خلال بحث أرشيفي لسجلات مستشفى لبنان للأمراض العقلية والعصبية وبحث إثنوغرافي حول الممارسات النفسية المعاصرة.

مريم بوزيد سبابو

- باحثة في الأنثروبولوجيا الثقافية (مديرة بحث) في المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ (الجزائر).
- حاصلة على دكتوراه دولة من جامعة الجزائر، تخصص علم اجتماع ثقافي، حول دور الموسيقى والغناء في تشكّل الهويّات الاجتماعية لدى طوارق الأزجر (2009).
- لها العديد من الأبحاث والكتب حول «شعيرة عاشوراء عند طوارق واحة جانت»، وتهتم بإشكالية اللباس «التقليدي» وتغيّراته. كما تبحث في النسيج الجزائري التقليدي، مصطلحاته وتقنياته.

نهلة التميمي

- حاصلة على دكتوراه في علم نفس النمو من جامعة بغداد، ومديرة مركز البحوث والدراسات في وزارة الشباب والرياضة في العام 2017، ومديرة حملة المدافعة عن الفتيات المتسرّبات من الدراسة (دفاتري بلا كلمات) بالشراكة مع معهد صحافة

الحرب والسلام 2 IWPR في العام 2012، وعضو مجلس إدارة الشبكة العراقية للعدالة الانتقالية في العام 2010.

- أعدت العديد من الدراسات والبحوث حول تطوّر مفهوم الغيريّة وعلاقته بتقرير المصير الذاتي لدى الأطفال والمُراهقين، والغيريّة وعلاقتها بالسلوك المتطرّف لدى الأطفال، والمواطنة وإشكاليّة التعريف، والتطرّف العنيف المؤدّي إلى الإرهاب، مفهومه وآليات مكافحته، فضلاً عن دراسة حالة الأطفال المسلّحين لدى داعش.
- خبيرة تدريب في التسويق الإلكتروني وإدارة المشروعات الصغيرة منذ العام 2021، ومُدربة حياة (مساعدة الأفراد في الوصول إلى أهدافهم بطريقة صحيحة).

نهوند القادري عيسى

- دكتوراه في علوم الإعلام والاتّصال من جامعة باريس الثانية (السوربون).
- أستاذة في الجامعة اللبنانيّة.
- عضو في تجمّع الباحثات اللبنانيّات، وفي لجان التحرير لإصدار كُتب باحثات: «الغرب في المُجتمعات العربيّة تفاعلات وتمثّلات» - «الإعلام والاتّصال في مُجتمعاتنا» - «النساء في الخطاب العربيّ المُعاصر» - «التهميش في المُجتمعات العربيّة» - «الزمن مُقاربات وشهادات».
- من مؤلّفاتِها:
- الإعلاميّات والإعلاميّون في التلفزيون بحث في المواقع والأدوار، بالاشتراك مع سعاد حرب، 2002.
- قراءة في ثقافة الفضاءيّات العربيّة - الوقوف على تخوم التفكيك، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت. 2008، الطبعة الثانية، 2013.
- الاستثمار في الإعلام وتحديات المسؤوليّة الاجتماعيّة - النموذج اللبنانيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2013.

- لها العديد من الأبحاث والدراسات حول الإعلام والنوع الاجتماعي، الإعلام والاتصال، الإعلام الحقوقي، الإعلام والمجتمع، الإعلام والموازنة، والبرامج الحوارية، والاتصال السياسي، فضلاً عن مجموعة تقارير ودراسات واستراتيجيات إعلامية صادرة عن منظمات دولية ومحلية.

نهى الدرويش

- ناشطة مدنية ومديرة برامج وحملات مدنية منذ العام 2003. حاصلة على بكالوريوس وماجستير ودكتوراه في فلسفة علم النفس التربوي من جامعة بغداد، مدرّسة في جامعة بغداد ومُحاضرة في كلية الدفاع الوطني، وخبيرة أمنية استراتيجية ومؤسسة ومديرة قسم مكافحة التطرف العنيف في مركز النهريين للدراسات الاستراتيجية، وخبيرة تدريب دولي في مجال حقوق الإنسان والعدالة الانتقالية، وخبيرة استشارية استراتيجية في جهاز مكافحة الإرهاب.
- هي عضو متمرّس وعضو هيئة استشارية في نقابة الصحفيين العراقيين، وعضو لجنة استشارية دائمية في الشرطة المجتمعية.
- للدكتورة درويش 19 ورقة بحثية و13 دراسة علمية منشورة، وهي حاصلة على 74 شهادة تقديرية من داخل العراق وعلى 27 شهادة تقديرية من خارج العراق.

هدى العطاس

- دكتورة في علم اجتماع الأدب، أستاذة في جامعة عدن/اليمن، وأديبة وكاتبة، صدرَ لها خمس مجموعات قصصية، تُرجمَ بعض قصصها إلى لغات عدّة، ونال بعضها جوائز يمنية وعربية. ناشطة سياسية وحقوقية، ومُدافعة عن قضايا النساء، ورئيسة المؤسسة اليمنية للدراسات الاجتماعية «منظمة مُجتمع مدني».
- هي عضوة في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين والعرب، وفي مجلس أمناء عددٍ من المؤسسات الثقافية والمدنية ومراكز البحوث.

- لها إسهامات عدّة في الكثير من الصحف والمجالات العربيّة والأجنبيّة، وشاركت كعضوة استشاريّة في لجنة المبعوث الأمميّ لحلّ النزاع في اليمن.

هند الصوفي

- أستاذة في المعهد العالي للدكتوراه - الجامعة اللبنانيّة، حاصلة على دبلوم دراسات معمّقة في الاقتصاد/سوربون، وعلى دكتوراه في علوم الفنّ.
- هي فنّانة تشكيليّة وباحثة في شؤون الفنّ والجندر والتنمية والجندر، وعضوة في تجمّع الباحثات اللبنانيّات ومُشاركة في غالبية إصداراته.
- من أبرز مؤلّقاتها: الاتجاهات الفنيّة في العالم الغربيّ والعربيّ 1500 - 2015، وكتاب مُشترك «بين المنصوص والمبصّر»، حازت فيه على جائزة النقد الفنّي في الشارقة.

Contributors' Bios

Alice S. Yousef

Alice Yousef is a Palestinian translator, blogger, and poet. Her work, which can be found on web-magazines, includes *Two Poets Write* and *Visual Verse*. She holds a Masters in Writing from Warwick University (UK) and was a fellow of the University of Iowa's International Writing Program for the year 2016. She is currently working on her first volume of poetry. She tweets @Aliceyousef.

Amal Grami

Amal Grami Works, writes, and participates in events related to extremism, violence and peace.

She is a member of:

- Women's Alliance for Security Leadership (WASL)
- International Civil Society Action Network (ICAN) for Women's Rights, Peace & Security

Publications:

- 1 - «Rules for the Use of Video and Images in the Arab Media» in *Media Coverage of Extremism and Terrorism*, International Workshop, Tunis 2015. Publications of Arab States Broadcasting Union. (Arabic).
- 2 - Drafting a guide on *Terrorism Concepts in the Media*, Publications of Arab States Broadcasting Union. (Arabic).
- 3 - «Women in Jihad: Terrorism au Féminin», *Political Perspectives*, Publication of the Arab Studies and Research Center, Cairo, N°19 (July 2015), pp.6-18.
- 4 - «Narrating Jihad Al Nikah in Post Revolution Tunisia», (London 2015)

5 - *Women and Terrorism: A Gender Perspective* (With contribution by journalist Monia Arfaoui), Meskeliani, Beirut, 2017.

Amal Habib

Titulaire d'un doctorat en sciences de l'information dans le développement de l'Université Paris 8. Son expérience sur les plans national et international a couvert le domaine des sciences de l'information et de communication dans la recherche scientifique et le développement humain et social, dans la gestion de la recherche scientifique et l'enseignement universitaire.

Principalement, elle a été «Conseillère scientifique» au Conseil national de la recherche scientifique (CNRS-L), «Professeure associée» à l'Université libanaise, Faculté de l'information; «Coordinatrice» du «Programme de coopération de recherche scientifique syro-libanais» entre le CNRS-L et le Ministère de l'enseignement supérieur en Syrie; «Initiatrice et Directrice» du Centre d'information du CNRS-L; «Représentante nationale» et «Point de liaison» au Liban des systèmes d'information scientifiques des Nations Unies; «Experte» auprès de la FAO dans des missions consultatives d'information agricole en Syrie et au Liban.

Large production d'articles et d'ouvrages. Membre de Bahithat et de la Commission nationale de l'UNESCO (ancienne).

Azza Sleiman

A obtenu son doctorat de Paris 2 - Assas en 2009, en droit privé, après le DEA en droit des affaires de l'Université Libanaise. Prépare actuellement son HDR à l'Université Grenoble Alpes-France, étudiant «le cadre juridique de la Responsabilité sociale en droit libanais». Professeur assistant à la faculté de droit de l'UL depuis 2012. Elle enseigne les matières de droit civil et commercial. Ses recherches sont intéressées par les nouvelles sources de la règle de droit, la gouvernance, la responsabilité sociale, la culture de droit. Membre de l'association BAHITHAT depuis 2011 et l'ex-président de l'association, et membre de centre CEDREF à l'Université de Paris depuis 2018.

Bella Aoun

- Docteure en psychologie pathologique et clinique (Université de Poitiers-France), cheffe de département de Psychologie et Maître assistant à l'uni-

versité libanaise (faculté des Lettres et des Sciences Humaines-Section II).

- Maître de stage auprès des étudiants en psychologie clinique et ajustement.
- Psychanalyste auprès des enfants et adolescents depuis 1995.
- Chargée comme Psychologue scolaire et éducatrice spécialisée auprès des déficients mentaux et enfants en difficultés dans des institutions spécialisées et des écoles de 1990 à 2014.
- Conférencière à l'Ecole de Psychanalyse du Champ Lacanien en France et au Liban depuis 2016.
- Membre du Comité consultatif à la Faculté Militaire-2012.
- Membre Fondateur du Forum du Champ Lacanien à Beyrouth.

Publications:

- La langue Singulière, Une personne semblable et différente, l'enfant en psychothérapie, la pulsion innovante de l'autisme, Autistes verbeux à l'appui des bords.

Beya Gazi

- Spécialiste de Planification stratégique et opérationnelle dans le domaine de l'enfance et des Programmes d'éducation parentale Médiation familiale
- Sous-directrice de l'inspection et l'innovation pédagogique à la direction générale de l'enfance.
- Psychologue principale et Médiatrice familiale et Formatrice en matière de protection des enfants et des adolescents contre les abus sexuels.
- Sous-directrice de l'inspection et l'innovation pédagogique à la direction générale de l'enfance.
- Directrice d'un centre intégré de la jeunesse et de l'enfance pendant 5 ans
- Cheffe de service du développement des institutions préscolaires
- Membre et personne ne ressource à l'association de promotion de l'éducation à la citoyenneté (APEC).

- Membre de l'équipe de rédaction du rapport parallèle de la société civile en Tunisie relatif aux droits de l'homme (violence fondée sur le genre en Tunisie). 2016.
- Membre du comité national de validation des productions pédagogiques destinées aux enfants.

Bissane Tay

Tay is a journalist and documentary filmmaker. She is one of the founders of «Awan» website. She has worked in, and written for, Lebanese and Arab newspapers: «An-Nahar», «As-Safir», «Al-Hayat» and «Al-Akhbar». She produced documentaries, some of which were shown on international channels such as «CNN», «Arte» and «Al Jazeera Documentary». Bissane holds a BA in Media Studies from the Lebanese University and a doctorate from «Paris 8 University» in Theater Studies.

Cynthia Kreichati

A PhD candidate in Anthropology at McGill University; Trained as a pharmacist in Lebanon, Cynthia also holds a Masters in Sociology from the American University in Beirut and has worked in various health related fields. Her work currently explores the relationships between health, politics, archives, and the environment. She is now completing her doctoral dissertation project on the ethnography of the Litani river - Lebanon's most important water resource - and its people. She is also an editorial board member of Bidayat Magazine, an Arabic language quarterly published from Beirut.

Fadia Hoteit

Researcher and professor at the Lebanese University, with a PhD in Psychology from Paris V-Sorbonne.

She has published several papers on Arab women, gender, children literature, and education.

She is the author of several books in Arabic: «Children literature in Lebanon» 2001 «Play in the Early Childhood» 2006, «Reggio Emilia Experience in Early Childhood Education» 2012, «Childhood and Policy in Lebanon» 2018, «Syrian Women Refugees: Motherhood challenges» (with Nahawand El Kderi) 2019, and «Play and Adaptation-Case of Syrian Children Refugees» 2021.

She wrote two children's books: «My Dream» and «Big Boy».

Fadma Ouiaou

Ecrivaine, Experte en question des femmes en relation avec le développement et la coopération internationale.

J'ai travaillé avec des organisations internationales telles que Save the Children, Programme des Nation Unie pour le développement, Global Right etc...

Actuellement j'enseigne l'Arabe et je suis bénévole avec l'organisation open Arms à Edinburgh.

Titulaire du Master en Développement et coopération internationale du ULB (Université libre du Bruxelles), et je suis en phase finale de ma thèse que je prépare à l'université d'Edinburgh sous le thème: «le mouvement féminin arabe à travers les récits féminins.

j'ai travaillé journaliste au sein d'Acharq Alwasat au Maroc, et aussi au sein de plusieurs établissements journalistiques au Maroc.

Dernièrement j'ai eu le troisième prix de l'histoire courte de la semaine du livre Ecossaise pour mon short story: «Sarah's Mysterious dream».

Fatma Allouch

A daughter of an Algerian Martyr, Allouch did not finish her schooling. Later on, she took classes to eliminate illiteracy then started learning the Qur'an in a mosque.

Hind Al Soufi

- Professor at the institute of Doctoral studies/Lebanese University.
- DEA in Economics (Sorbonne) & PhD «Sciences of Art», Paris 1.
- Visual artist and Researcher in Art and Gender studies.

Recent Publications:

- The Artistic movements between the Western and the Arabic worlds (1500-2015).
- The textual and the visual (Sharjah Award of Art Critic).
- In addition to many publications in Bahithat yearly books.

Huda Al-Attas

- PhD in Sociology of Literature, Professor at the University of Aden/ Yemen, and a political and human/women rights activist .
- President of the Yemeni Foundation for Social Studies, «Civil Society Organization».
- Author and writer: She has published five short story collections, some of which won Arabic and Yemeni awards. Some of her stories were translated into several languages.
- She is published in a number of Arab and foreign newspapers and magazines.
- She is a member of the Yemeni and Arab Writers Union and has participated as an advisory member for the Committee of the UN Envoy to resolve the conflict in Yemen as well as in a number of civil society institutions and research centers.

Imene Zoulikha Kassous

- PhD in Education. University of Glasgow. Area of research: Inclusive education, autism, disability studies, October-2019-Present.
- Master's Degree in Language and Communication. Abdelhamid Ibn Badis University (Algeria), October 2016-June 2018.
- Bachelor's Degree in English Language, Abdelhamid Ibn Badis University (Algeria), October 2013-June 2016.

Conferences:

- Kassous, I.Z. (2021, March). *Working Towards Inclusive Education for Autistic Children in Algeria: An Analysis of EFL Teacher Preparation Programme* [Paper Presentation]. PhD Pre-conference Workshop: Conceptualising Integration: Social Inclusion and Exclusion in Diverse and Multicultural Societies Conference, University of Akureyri, Iceland. Iceland: (Online)
- Kassous, I.Z. (2021, August). *Working Towards Inclusive Education for Autistic Children in Algeria: An Analysis of EFL Teacher Preparation Programme* [Paper Presentation]. The European Conference on Educational Research (ECER). Switzerland: Geneva (Online). <https://eera-ecer.de/ecer-programmes/conference/26/contribution/51269/>.

Lamia Moghnieh

Postdoctoral researcher in medical anthropology and a mental health practitioner at the English, German and Romance Studies department at the University of Copenhagen. Previously a postdoctoral researcher at EUME (Europe in the Middle East, the Middle East in Europe) in Berlin and at the Arab Council for the Social Sciences (ACSS). Her research explores the cultural and social history of psychiatry and its relation to mental illness, subject and society in the Middle East and North Africa. In her current research project, she studies the cultural authority of psychiatry in Lebanon, based on archival research on the Lebanon Hospital for Mental and Nervous disorders and ethnographic work on contemporary practices of psychiatry.

Meriem Bouzid Sababou

Is a Research Doctor in Anthropology at the National Center for Pre-historic, Anthropological and Historical Research (Algiers). Her PhD dissertation was on «The role of singing and music in identity forming in the Tuareg Azjer community» (2009). She authored and published four books concerning the ritual of «*Sebeiba of kel Djanet*».

She is very interested in Toponymy, traditional dress and its changes, and jewelry from local to global origins. Weaving, words, and techniques.

Nahawand El Kadri Issa

She holds a Doctorate (PhD) in the Science of Mass Media and Communication from Paris II, Sorbonne University.

She is the author of:

- *Female and Male Broadcasters: A Research Into Roles and Positions*. In collaboration with Dr. Suad Harb. LAWR, Beirut 2002.
- *Insight into the Culture of Arab Satellite Channels*. Center for Arab Unity Studies, Beirut 2008.
- *Investment in Media and the Challenges of Social Responsibility: The Lebanese Case*. Center for Arab Unity Studies, Beirut 2013.

She has published research on media and development, media and civil society, public opinion, political communication, media from a gender perspective, media and education, media and family, ethics of journalism, media leaks in the age of open space, media and local government, women in public spaces, and has written about media and public budget coverage.

Nahla Tamimi

- Holds a PhD in Developmental Psychology from the University of Baghdad
- Director of the Research and Studies Center at the Ministry of Youth and Sports/2017.
- Director of the Center for Transition towards Democracy/2012.
- Director of an advocacy campaign for girls who have dropped out of school (My Notebooks Without Words) in partnership with the Institute for War and Peace Reporting IWPR/2012.
- She has written research papers in Arabic and French on youth, women, and development, including:
 - Altruism and its relationship to extremist behavior in children/2017
 - Citizenship and the problem of definition/2017
 - Violent extremism leading to terrorism, its concept and mechanisms to combat it/2017
 - A case study of armed children in ISIS/2017
 - A therapeutic program to rehabilitate children detained by ISIS in cooperation with the Anti-Terrorism Service/2017

Training experiences:

- E-Marketing and Small Business Management/2021
- Life coach.

Noha Darwish

- Bachelor's, Master's and Doctor of Philosophy in Educational Psychology-Personality and Mental Health/University of Baghdad.
- Darwish teaches at the University of Baghdad and is a lecturer at the National Defense College. She is a strategic security expert, founder and director of the Department of Combating Violent Extremism at the Al-Nahrain Center for Strategic Studies, an international training expert in the field of human rights and transitional justice, and a strategic advisor in the Counter-Terrorism Service.
- Member of an advisory board at the Iraqi Journalists Syndicate.
- Member of a permanent advisory committee in the community police.

- She has 19 research papers and 13 published scientific studies.
- She holds 74 appreciation certificates from inside Iraq and 27 appreciation certificates from outside Iraq.
- Civil activist and director of civic programs and campaigns since 2003.

Rafif Rida Sidawi

Rafif Rida Sidawi, docteure en sociologie, est écrivaine et critique littéraire spécialisée dans le genre *Romanesque*. Sidawi a travaillé en tant que chercheuse sociale indépendante et a mené de nombreuses recherches et études privées et collectives. Son champ de recherche porte sur les problématiques liées au développement, comme les besoins des femmes dans les régions défavorisées du Liban, la situation des enfants dans les établissements de protection sociale et celle des groupes les plus vulnérables de la population libanaise. Elle a publié de nombreux essais et ouvrages, parmi lesquels: *Les Arabes: la dialectique de la modernité, de l'État et de la société*; *Le roman arabe entre la réalité et l'imaginaire*; *Discours sur soi: dialogues avec des romancières arabes*; *Un regard sur la guerre civile libanaise à travers le roman: 1975-1995*; *Jawari 2001: Étude sur la violence à l'égard de la femme*.

Rajaa Makki

- Doctorat 3ème Cycle en Psychologie Sociale, Université Paris VII, sous la direction de Madame C. Revault d'Allonnes.
- Doctorat d'Etat en Psychologie Sociale, Université Libanaise, Institut des Sciences Sociales.
- A obtenu l'équivalent de ses doctorats en psychologie clinique.
- Professeur cadrée à l'Université Libanaise.
- Psychanalyste, membre d'Espace Analytique France.
- Membre fondateur d'Espace Analytique Liban.
- Chef du Syndicat des Psychothérapeutes et Psychanalystes au Liban pour deux fois: 2013-2014 et 2018 à présent.
- Coordinatrice du laboratoire psycho-social au centre de recherche à l'Institut des sciences sociales à l'UL.
- A écrit des livres et des articles au Liban, au Moyen-Orient et en Europe.

- A participé à des colloques et congrès multiples et a préparé trois colloques avec l'Université Libanaise.

Sujets d'intérêt:

Femme - Sexualité - Espace - Religion et Normes et bien sûr Psychanalyse.

Remi Abdel Rassoul

- Graphiste, spécialiste de la communication visuelle au Centre de Ressources Informatiques de l'Université Libanaise.
- Doctorante à L'Université Libanaise/L'Ecole Doctorale des Lettres et des Sciences Humaines et Sociales (EDLSHS)
- Master de Recherche en Art et Sciences de l'Art, Université Libanaise-Faculté des Beaux-Arts et d'Architecture;
- Master professionnel en conception et développement de jeux, Université libanaise-Faculté des sciences | 2017.
- Master en communication visuelle et arts graphiques, université libanaise-Faculté des Beaux-Arts et d'Architecture | 2012
- Membre de L'Association Libanaise des Femmes Chercheuses (Bahithat - LAWR)
- Ses thèmes de recherche portent sur le pouvoir et l'impact de l'image dans les médias visuels (le cinéma, la télévision, Les jeux vidéo, les affiches.) sur la société.

Rima Zouheir Al Kurdi

Writer, researcher and critic. She has a number of published research papers in education and Arabic literature. She participated in a number of conferences specialized in education and children's literature and presented tens of workshops and lectures to thousands of people interested in children's literature, best practices in learning, and teaching the Arabic language in most Arab countries. She is the founder of the Jana Reading Program platform and winner of several Arab, regional, and international awards. She is a certified reading trainer, an educational consultant, curriculum designer, and an editor and literary consultant for a number of Arab publishing houses. She has more than 13 stories published for children and boys on paper, and dozens of e-books.

Saada Allaw

- Chef du Département de Journalisme à L'Agenda Juridique (The Legal Agenda), et journaliste d'investigation de l'institution.
- Chercheuse spécialisée dans la question des Droits de l'homme, elle a réalisé plusieurs études:
 - «Rêves à vendre» pour l'association Kafa et l'Agenda juridique.
 - «Le traitement par les médias de la participation économique des femmes pour le CRTD»
 - «La participation politique des femmes pour le Rassemblement démocratique des femmes..
- Elle a aussi publié un livre sur le fleuve Litani, son bassin et ses habitants.
- Journaliste pour le journal libanais As-Safir de 1994 jusqu'à sa fermeture en 2017
- Enseignante à la Faculté d'Information de l'Université Libanaise.
- Elle a exercé comme formatrice auprès d'organisations locales et internationales et auprès de divers médias dans les domaines du journalisme d'investigation et du journalisme et des droits de l'homme.

Salma Abdallah

Abdallah holds a PhD in Political Geography from the University of Bayreuth (Germany) and a Master's degree in Political Science from the University of Khartoum (Sudan). Currently she is a Postdoctoral Research Fellow at the Department of International Environment and Development Studies (Noragric) at the Norwegian University of Life Sciences (NMBU) working on a project examining the economy of religious activism in Africa. Before joining NMBU, she won a postdoctoral grant from the Volkswagen Foundation Cooperative Research Projects in Social Sciences in Sub-Saharan Africa. Salma has been a member of several international research projects that deal with religion\politics relationship, urbanization, state-society relations, and internally displaced persons.

Besides research, Salma has provided policy advice to Life and Peace Institute in the Horn of Africa, the Dutch Ministry of Foreign Affairs, the Department of Peace and Conflict Research, Uppsala University and to the Bertelsmann Stiftung in Germany. Salma is currently involved in research

projects focused on political violence and strategies of development transformation.

Souad El Abani

- PhD from Manchester Metropolitan University (UK). Specialized in social theories and interested in gender and development issues.
- She has many research papers on youth, women, and development, including:
 - El Abani, S., & Pourmehdi, M. (2018). Gender and Educational Differences in Perception of Domestic Violence Against Women Among Libyan Migrants in Manchester. *Journal of Interpersonal Violence*. <https://doi.org/10.1177/0886260518760006>
 - Suaad El Abani1 & Mansour Pourmehdi (2017) «Perception of Domestic Violence against Women amongst Libyan Migrants in Manchester.» *Journal of Sociology and Social Work*. Vol. 5, No. 2, pp. 128-138.

Taghreed AL Soumairy

Al-Soumairy is a researcher in media and women studies and a PhD candidate in Media and Mass Communication at the Lebanese University. She currently works at MRCSSI-Canada as a public educator with the Pub Education and Community Programs team. Her latest research-work was as an assistant researcher for *Female Syrian Refugee In Lebanon: Maternity Challenges* (Fadia Hotiet & Nahawand Alkadri, iie, Ford Foundation, 2019). She worked as a TV producer between 2010 and 2013 in Pal Today TV, and in the media department of the Arab Thought Foundation in Beirut. Since her graduation in 2005 and until 2009 she worked as a freelance journalist for several Lebanese newspapers.

Taghreed Alqudsi

Alqudsi is a faculty member in the Department of Information Studies (DIST), College of Social Sciences, Kuwait University. She is the former Founding Chair-person and Former Founding Director of the Graduate Master of Library & Information Science (MLIS) Program. For several years, she worked as a coordinator for the monthly Book Project Children, a project undertaken by the Kuwait Society for the Advancement of Arab Children (KSAAC) and for several others. She was a consultant for the ministry of education's library affairs. She was the former president of

the Special Library Association/Arabian Gulf Chapter and a former board member of the Bayan Bilingual School (BBS). She is widely published in both Arabic and English. Her research interests are focused on issues related to education for information in developing countries, School Learning Resource Centers (LRC), the impact of the internet and social media platforms on information professions, in addition to the issue of ethics in modern education and technology. Her latest publication is a biography book published in Arabic in Beirut: *Sensible Burden*, about her experience as a Kuwaiti of Palestinian origin.

Tania Bakalian Safieddine

She is a Lebanese contemporary artist known as Tanbak. She was born in Beirut in 1954, and studied Spanish literature in Madrid and Barcelona and International Relations at Georgetown University in Washington D.C. She lived in Paris, where she studied and taught at various art studios. Tanbak has produced paintings, sculptures, and mixed-media installations using natural colors and materials in order to depict historical themes, including the Lebanese civil war. Since 1997, Tanbak has been widely exhibiting in Lebanon and in various other countries.

Zakia Krunfol

Krunfol is an experienced communications specialist, who has worked in journalism and research. She collaborated with a number of humanitarian organizations and local media outlets to cover humanitarian and social topics, most notably the war in Syria and the impact on vulnerable groups such as women and children. She is currently leading the communication department at Amel Association International.

Ms. Krunfol has two bachelor's degrees in philosophy and Education, and is currently enrolled in the Educational Leadership & Management Master's Program at the Saint Joseph University of Beirut.

Zeina Ismail-Allouche

Researcher and Child Protection Expert, with a special focus on alternative care and child-welfare systems. Her PhD deploys oral history performance and indigenous methodologies to research the life stories of individuals who experienced transracial and intercountry adoption.

Interdisciplinary Individualized PhD, School of Graduate Studies Concordia, Montreal, Canada.

Zeinab Khalil

- Enseignante et chercheuse à l'Université Libanaise, Faculté de l'Information depuis 2010. Titulaire d'un Doctorat en Sciences de l'Information et de la Communication de l'Université de Grenoble 3 Stendhal, en 2010, sa thèse portant sur «L'internet politique au Liban: Vers un nouvel espace de conflit? Titulaire d'un-Master 2 recherche en Sciences de l'Information et de la Communication de l'Université de Grenoble 3 Stendhal, en 2005. Titulaire d'un Diplôme d'Etudes Supérieures de Journalisme Francophone (DES), en collaboration entre l'Université Libanaise-, l'Université de Paris II, IFP, et CFPJ, en 2001. Titulaire d'une licence en journalisme, de l'Université Libanaise en 2000.
- Journaliste, reporter radio et productrice d'émissions de télévision entre les années 2001 et 2012.
- Ses recherches portent sur les médias électroniques, l'internet politique, l'espace public électronique, les réseaux sociaux.

Displaced girls in times of war: Vulnerability and mitigation of conflict-related sexual violence in Darfur, Sudan	
Salma Abdallah	364
Fourth Theme: The Lives of Girls: Essays, Opinions and Testimonials	385
The memories that escaped from war: The memories that got stuck in its clutches	
Bissan Tay	386
Les métamorphoses de l'adolescente en temps de guerre	
Bella Aoun	393
The identity of girls during Conflict: My Personal Experience as a Palestinian Kuwaiti	
Taghreed Alqudsi	401
When women became moving black tents	
Huda Al-Attas	407
We were like a bird who had gotten its freedom but did not know how to fly: Recollections of a Woman Born during the Algerian Independence War	
Imene Zoulikha Kassous & Fatma Allouch	416
Escaping to Nangijala: How my imagination saved me in times of war	
Alice S. Yousef	422
A childhood scene in time of wars	
Amal Habib	427
From the memory of the marginalized Syrian war: A survival story of two teenage girls who were forced to grow up by the fires of war	
Zakia Krunfol	434
About wars that never left us	
Zeinab Khalil	441
My mother's memories: A memory of a revolution that has not been yet written	
Meriem Bouzid Sababou	450
This is not basterma	
Tania Bakalian Safieddine	469
Book Review: Review of «The sun will shine even after a while» by novelist Taghreed Aref Al-Najjar	
Rima Zouheir Al Kurdi	475
Arabic Abstracts	483
English & French Abstracts	497
Arabic CV's	509
English & French CV's	526

Table of Contents

Introduction	6
First Theme: Girls in Wars: Multiple Approaches	21
«Heiresses of Evil»: The daughters of war in Algeria	
Amal Grami	22
Media representations of underage girls in wars: The chaos of meaning	
Nahawand El Kaderi Issa	45
Les jeunes filles et le droit positif: des citoyennes «auxiliaires» dans les périodes de post-conflit	
Azza Sleiman	72
Variation between modernist and post-modernist artistic genres used in the portrayal of girls during Arab Wars	
Hind El-Soufi	97
L'image des guerrières dans les dessins animés pour enfants	
Remi Abdel Rassoul	145
Second Theme: Memory of the Wounded Childhood	173
«Girls of Today - Women of Tomorrow» between trauma and narcissism: Wondering, bewilderment, and exclusion	
Rajaa Makke	174
Body-image in cities of conflict: How girls perceive their femininity	
Noha Darwish & Nahla El-Tamimi	213
Adolescent refugee girls facing Israeli warfare on Gaza Strip, in May 2021	
Taghrid Al-Soumayri	230
De la vie d'adolescentes, bouleversée par la guerre et transformée par leur déplacement forcé et leur situation de réfugiées	
Saada Allwa	255
Wound Stories from Palestinian Oral History Archive	
Cynthia Kreichati	273
Third Theme: Of Wars and Their Repercussions on Girls	291
Child-mothers and illegal adoptions: The silenced voices of continuous wars	
Zeina Allouch	292
The Impact of war and armed Conflict during 2019 on the educational system of girls in Libya	
Suaad Elabani	310
Les filles réfugiées africaines au Maroc: La réalité du déplacement et les défis de l'intégration	
Fadma Ouiaou	333
Abus sexuels des filles et des adolescentes après la révolution En Tunisie	
Beya Kazzi	356

صدر عن باحثات

- I باحثات (1994):
المرأة والسلطات
- II باحثات (1995)
المرأة والكتابة
- III باحثات (1996 - 1997)
البحث والباحث في العلوم الإنسانية في العالم العربي
- IV باحثات (1997 - 1998)
موقع المرأة في السياسة: في لبنان والعالم العربي
- V باحثات (1998 - 1999)
الغرب في المجتمعات العربية: تمثيلات وتفاعلات
- VI باحثات (1999 - 2000)
الإعلام والاتصال في مجتمعاتنا
- VII باحثات (2000 - 2001)
الجامعات في لبنان والعالم العربي: نساء - رؤى - قضايا

باحثات VIII (2002 - 2003)

مَسَارَات الحب بين المُتخيل والمُعاش: أبحاث وشهادات

باحثات IX (2003 - 2004)

النساء في الخطاب العربيّ المُعاصر

باحثات X (2004 - 2005)

الصورة وتجليّاتها البصريّة في الثقافة العربيّة

باحثات XI (2005 - 2006)

حفريّات وتحريّيات: حيوات نساء عربيّات

باحثات XII (2006 - 2007)

الرجولة والأبوة اليوم

باحثات XIII (2008 - 2009)

النساء والمال

باحثات XIV (2009 - 2010)

الممارسات الثقافيّة للشباب العربيّ

باحثات XV (2011 - 2012)

التهميش في المُجتمعات العربيّة كُنْجاً وإطلافاً

باحثات XVI (2013 - 2014)

اللاعِبون في الثورات العربيّة: تعبيرات وأشكال مُبتكَرة

باحثات XVII (2016 - 2017)

الزَّمن: مُقاربات وشهادات

Editorial Committee:
Fadia Hoteit
Lamia Moughnieh
Nahawand El-Kadiri Issa
Rafif Rida Sidawi



ISBN: 978-9953-0-5752-1

All rights reserved to

Volume XVIII

2021-2022

Arab Girls
in the Midst of Wars and Conflicts

The Lebanese Association of Women
Researchers (Bahithat)
Beirut, Lebanon
Toufic Tabbara Center
P.O.BOX 113-5375
Tel-fax: 961-1-739726
e-mail: info@bahithat.org
website: www.bahithat.org

Distributed by:

منتدى المعارف
alMaaref Forum



e-mail: info@almaarefforum.com.lb
www.almaarefforum.com.lb

This volume was funded by:
Ford Foundation, Cairo

Price: U.S.A. \$12 or equivalent.

The opinions expressed herein are those of the relevant authors and can in no way
be considered to reflect the opinions of the association or the funder.